



DT
77
.SA
18
vol
c.1



هدية

بمؤسسة دار الفنون والعلوم
بمصر

المش

مكتبة مركز الوثائق والدراسات

أبو ظبي

(فهرس الج - جزء الثاني من تاريخ الكافي)

صحيفة	صحيفة
٦١	٢
الفصل الثالث - في خلافة عثمان ابن عفان	المقالة الاولى - في أخبار العرب في الجاهلية وفيها فصول
» ٦٨	٣
الرابع - في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب	الفصل الاول - في نسب العرب وطوائفهم
» ٨٥	١٦
الخامس - في خلافة أمير المؤمنين حسن بن علي	الثاني - في أديان العرب في الجاهلية
» ٨٧	١٩
المقالة الرابعة - في الخلفاء الامويين وفيها فصول	الثالث في علوم العرب وآدابهم
» ٨٧	٢٣
الفصل الاول - في خلافة معاوية ابن أبي سفيان	الرابع فيما كانت عليه قريش قبل الاسلام
» ٩٣	٢٦
الثاني - في خلافة يزيد بن معاوية	المقالة الثانية - فيما كان بظهور الاسلام وفيه فصول
» ١٠٠	٢٦
الثالث - في خلافة معاوية ابن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان	الفصل الاول - في ظهور صاحب الشريعة الاسلامية
» ١٠١	٣١
الرابع - في خلافة مروان ابن الحكم المعروف بالطريد	الثاني - في هجرة صاحب الشريعة وفي غزواته وما وقع له بعد ذلك
» ١٠٣	٣٦
الخامس - في خلافة عبد الملك ابن مروان	الثالث - في فتح مكة
» ١٠٨	٣٨
السادس - في خلافة الوليد بن عبد الملك	الرابع في ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته
» ١١٠	٤٤
السابع - في خلافة سليمان بن عبد الملك	المقالة الثالثة - في الخلفاء الراشدين وفيها فصول
» ١١٢	٤٤
الثامن - في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز	الفصل الاول - في خلافة أبي بكر الصديق
» ١١٧	٤٦
التاسع - في خلافة يزيد بن عبد الملك	الثاني - في خلافة عمر بن الخطاب
	٥٣
	مطلب في الخلاف بين العلماء في مصر هل فتحت صلحا أو عنوة

صحيفة	صحيفة
١٩١ الفصل التاسع - في خلافة هرون الوائق بالله	١٢١ الفصل العاشر - في خلافة هشام ابن عبد الملك
١٩٤ » العاشر - في خلافة جعفر المتوكل على الله	١٢٥ » الحادى عشر - في خلافة الوليد ابن يزيد بن عبد الملك
٢٠٢ » الحادى عشر - في خلافة محمد المنتصر بالله	١٢٨ » الثانى عشر - في خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان
٢٠٧ » الثانى عشر - في خلافة أحمد المستعين بالله	١٢٩ » الثالث عشر - في خلافة ابراهيم ابن الوليد
٢١١ » الثالث عشر - في خلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل	١٣٠ » الرابع عشر - في خلافة مروان ابن محمد
٢١٣ » فصل ﴿ في ترجمة أحمد بن طولون وظهور دولته بديار مصر	١٣٣ فصل في كيفية الدعوة لبني العباس وفي ظهور دولتهم
٢١٧ الفصل الرابع عشر - في خلافة جعفر المهتدى بالله بن هرون	١٤٠ » المقالة الخامسة ﴿ في الخلقاء العباسيين وفيها فصول
٢٢١ » الخامس عشر - في خلافة أبى القاسم أحمد المعتضد على الله بن المتوكل	١٤٠ الفصل الاول - في خلافة أبى العباس السفاح
٢٣٣ » السادس عشر - في خلافة أبى العباس أحمد المعتضد بالله ابن الموفق	١٤٥ » الثانى - في خلافة أبى جعفر المنصور
٢٤١ » السابع عشر - في خلافة أبى محمد على المكتفى بالله بن المعتضد	١٥٨ » الثالث - في خلافة محمد المهدى
٢٤٧ » الثامن عشر - في خلافة أبى الفضل جعفر المقتدر بالله	١٦٣ » الرابع - في خلافة موسى الهادى
٢٥٤ » التاسع عشر في خلافة القاهر بالله محمد بن أحمد المعتضد	١٦٧ » الخامس - في خلافة هرون الرشيد
٢٦٠ » العشرون - في خلافة أبى العباس أحمد الرضى بالله بن المقتدر	١٧٥ » السادس - في خلافة محمد الامين بن هرون الرشيد
	١٨٠ » السابع - في خلافة عبد الله المأمون بن هرون الرشيد
	١٨٧ » الثامن - في خلافة أبى اسحق ابراهيم المعتصم بن هرون الرشيد

صحيحة	صحيحة
٣٤٢ الفصل التاسع والعشرون - في خلافة أبي منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله	٢٦٥ ﴿وصل﴾ في مبدأ الدولة الاخشيديه وفي كيفية ظهورها
٣٤٩ » الثلاثون - في خلافة أبي منصور جعفر الراشد بالله	٢٦٦ الفصل الحادى والعشرون - في خلافة أبي اسحاق ابراهيم المنقى لله بن المقتدر
٣٥٠ » الحادى والثلاثون - في خلافة المقتنى بالله بن المكنى	٢٧٠ » الثانى والعشرون في خلافة المكنى بالله بن المكنى
٣٥٥ » الثانى والثلاثون - في خلافة أبي المظفر يوسف المستنجد بالله ابن المقتنى لامر الله	٢٧٣ » الثالث والعشرون في خلافة أبي الفضل المطيع لله بن المقتدر
٣٦٧ » الثالث والثلاثون في خلافة المستضى بنور الله بن المستنجد بالله	٢٧٨ ﴿وصل﴾ فيما قاله أصحاب التاريخ في أصل الفاطميين وفي ظهور دولتهم بديار مصر وفي اعتبارنا لهم ملوكا عليها لا خلفاء كما يدعون
٣٨٥ » الرابع والثلاثون - في خلافة أبي العباس أحمد الناصر لدين الله	٢٨٨ الفصل الرابع والعشرون - في خلافة أبي بكر بن عبد الكريم الطائع لله
٤١٧ » الخامس والثلاثون - في خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله	٢٩٦ » الخامس والعشرون في خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله ابن اسحاق
٤١٨ » السادس والثلاثون - في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله	٣٢٠ » السادس والعشرون في خلافة أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بالله
٤٢٢ » السابع والثلاثون - في خلافة المعتصم بالله بن المستنصر بالله	٣٢٣ » السابع والعشرون - في خلافة أبي القاسم المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم بأمر الله
٤٣٢ ﴿المقالة السادسة﴾ في كيفية ظهور الخلافة العباسية بالفاخرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله وفيها فصول	٣٣١ » الثامن والعشرون - في خلافة المستظهر بالله أبي العباس أحمد

صفحة	صفحة
٤٨٤ ﴿لاحقة﴾ في أخلاق الجراكسة وعاداتهم	٤٣٤ الفصل الاول - في خلافة المستنصر بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بالله
٤٨٨ ﴿فصل﴾ في الكلام على ما وقع في أيام هذه الدولة أعنى دولة الجراكسة الناية الى انقراضها وزوال ملكها	٤٣٥ « الثاني - في خلافة الحاكم بأمر الله بن المستظهر بالله العباسي
٤٩٦ الفصل الثامن - في خلافة أبي الفضل المستعين بالله بن المتوكل	٤٥٠ « الثالث - في خلافة المستكنفي بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله
٤٩٨ « التاسع - في خلافة أبي الفتح داود المعتضد	٤٦٣ « الرابع - في خلافة ابراهيم الواثق بالله ابن ولي العهد المستمسك بالله
٥٠٢ « العاشر - في خلافة أبي الربيع سليمان	٤٦٦ « الخامس - في خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكنفي بالله
٥٠٣ « الحادى عشر - في خلافة أبي البقاء حمزة القائم بأمر الله	٤٧٢ « السادس - في خلافة المعتضد أبي الفتح بن أبي بكر المستكنفي بالله
٥٠٤ « الثانى عشر - في خلافة أبي الحامس يوسف المستنجد بالله	٤٧٧ « السابع - في خلافة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد
٥٠٨ « الثالث عشر - في خلافة عبد العزيز يعقوب بن المتوكل	٤٨١ ﴿وصل﴾ في أصل الجراكسة وفي طبائعهم وأديانهم وفي منشأ دولتهم الثانية بديار مصر
٥١٠ « الرابع عشر - في خلافة أبي صابر يعقوب المستمسك بالله	
٥١٣ « الخامس عشر - في خلافة محمد المتوكل على الله بن المستمسك	

التاريخ

في

تاريخ مصر القديم والحديث

للمؤلف

ميخائيل شارو بيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بنظارة المالية الجليلة حالا

عنى عنه

الجزء الثانى

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

﴿ الطبعة الاولى ﴾

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية

سنة ١٨٩٨ - سنة ١٣١٥

ميلاديه هجرية

(بالقسم الادبى)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لما كان من الواجب معرفة بعض شئ من أخبار العرب في الجاهلية وطبائعهم وعوائدهم ونسبهم وسكناتهم وغير ذلك مما يتعلق بتاريخ أيامهم قبل الإسلام تيمنا للفائدة المقصودة من التاريخ ولكي لا يكون آتيانا على تاريخ دولهم بعد الإسلام قليل الفائدة فسندكر هنا فسادكة من تاريخهم القديم نقلا عما جاءت به كبار أصحاب التاريخ من الشرقيين والغربيين لتكون مقدمة يتوصل بها القارئ الى معرفة حوادث أيامهم في مصر بعد الفتح وقد قسمنا هذا الجزء الى ست مقالات وفي كل منها عدة فصول وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير

(المقالة الاولى)

(في أخبار العرب في الجاهلية)

وفيها فصول

(الفصل الاول)

(في نسب العرب وطوائفهم)

قال المقرري يختلف الكتاب في نسب العرب وأصل تسميتهم فقال جماعة ان اسمهم اشتق من الاعراب بمعنى الابانة لقولهم أعرب الرجل عما في ضميره اذا أبان عنه والاصح

أنهم نسبوا الى عربية وهي من تهامة ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كان عليه العرب من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر اه وقد قسم المؤرخون العرب الى ثلاثة أقسام عربية ومتعربة ومستعربة * أما العاربة فهم العرب الاول الذين ذهبنا عنا تفاصيل أخبارهم لتقدم عهدهم وفي رواية أنهم قوم أتوا في غابر الأزمان من الحبشة وعبروا الى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذي فيه الآن عدن فاستوطنوا تلك الناحية ثم صار لهم بها مملكة ولم تزل دارملكهم الى أن خربت بسيل العرم * وأما العرب المتعربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان * وأما العرب المستعربة فهم ولد اسمعيل وفي رواية أنهم من افرقيقة أيضا ولكنهم عبروا الى الحجاز من خليج العقبة وانتشروا في البلاد حتى تأخوا العراق من جهة والشام من أخرى وخالطوا السريان والفرس واليهود ولذا كانت لغتهم الى السريانية أقرب واختلط بها شيء من ألفاظ الفرس والعبريين أيضا * وكان العرب العاربة شعوبا كثيرة وهم عاد وعذرة وطسم وجديس وجرهم الاولى وقد سمي أصحاب التاريخ هذا الجيل أيضا بالعرب البائدة يعنى المهالكة لانه لم يبق على وجه الارض أحد من نسلهم قالوا وربما سموا بالعرب العاربة اما يعنى الراسخة في العروبية كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو يعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت في أول أجيالها وقد استدل بعض المحققين على أصلهم الحبشى بشكل ججاجهم وما في لغتهم من ألفاظ الحبشة كتبع من أسماء ملوكهم ومعناه القوى وجبر ومعناه الاجر

وأما بنو عاد فقد كانت مواطنهم الاولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر وكان أبوهم عاد أول ملك من العرب وذكر المسعودي أن الذى ملك منهم بعد عاد شداد وهو الذى سار في المهالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعمتوهم وانتحلوا عبادة الاصنام والاونان أبادهم الله وهلكوا عن آخرهم

وأما عذرة فكانت ديارهم بالبحر ووادى القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتمون بيوتهم في الجبال فكانوا أهمل كفرة وبغى فأندرهم بعض الانبياء فلم يصيخوا الى دعائه فهلكوا جميعا حيث كانوا من الارض ودرجوا في الغابرين

وأما جديس وطسم فكانت ديارهم اليمامة وهي اذ ذلك من أخصب البلاد وأعرها وأكثرها تمارا وحدائق وقصورا وكان ملك طسم غشوما مصابرا لجديس مستدلا لهم حتى قام الاسود وقتله غيلة

وأما جرهم الاولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعربية فكانوا على عهد عاد ولتقدم انقراضهم ذهب حقائق أخبارهم وانقطعت أسباب العلم بتاريخهم قال بعض المحققين وأما جرهم الثانية فليسوا من البائدة بل هم من ولد قحطان وبهم اتصل اسمعيل ابن ابراهيم

وانما سمي بنو قحطان الذين هم القسم الثاني بالمتعربة لنزولهم بالبادية مع العرب
العاربة وتخليقهم بأخلاقهم وهم بنو قحطان بن عابر بن صالح بن ارغشذ بن سام قال بعض
أهل التاريخ وقحطان هذا معرب يقطان وهو أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج قبل
الميلاد المسيحي بألفين وثلاثين سنة وكان بنو قحطان معاصرين لآخوانهم من العرب العاربة
ومظاهرين لهم على أمورهم ولم يزالوا مجتمعين في مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك
وترفاهه الذي كان لاولئك فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذي يلزمه الترف والنضارة فتشعبت في
أرض الفضاء فصائلهم وتعددت في جوار القفر أخذهم وعشائرهم ونحو عددهم وكثر
آخوانهم من العالقة في آخر جيلهم وزاجوهم بمناكبهم واستجدوا خلق الدولة بما استأنفوه
من عزهم وكانت الدولة لبني قحطان متصلة فيهم قالوا وكان يعرب بن قحطان من أعظم ملوك
العرب ويسمى أيضا مينا وبه سميت اليمن وهو أول من حياه ولده بقولهم (أبيت اللعن)
و (أنم صباحا) وقيل انه أول من نطق بالعربية وملك بعد يعرب ابنه يشجب وكان
واهي العزيمة فاستبدت أعمامه بما في أيديهم من الممالك وملك من بعده ابنه عبد شمس وأكثر
الغزو في أقطار البلاد فسمى سبأ لكثرة ما سبى وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء ومن مدنه
مأرب على ثلاث مراحل منها

وعظم أمر سبأ المذكور وعلت كلمته فبني في مأرب سدا ما بين جبلين بالصخر والقار
حقن به ماء العيون والامطار وساق اليه سبعين واديا وترك فيه خروفا على قدر ما يحتاجون
اليه في سقيهم وهو الذي يسمى العرم ومات قبل أن يتمه فأتمه ملوك حير من بعده وأقاموا في
جناته عن اليمن وعن الشمال ودولتهم يومئذ أوفر مما كانت وأترف وأبذخ وأعلى يدا وأظهر
فلما طغوا وأعرضوا أبجفهم السبل وأغرق جناتهم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا
أحاديث وكان هؤلاء التبابعة ملوكا عدة في عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم
الحصر ولا تقيدت منهم الشوارد وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن الى ما بعد عنهم من العراق
والهند والمغرب فاختلفت لذلك أحوالهم ووقع اللبس في نقل أخبار أيامهم ومع ذلك
فستأتي بإيراد ما صح منها على قدر الاستطاعة لعدم الوقوف على أخبارهم مدونة في
مؤلف واحد

وكان لسبأ المذكور كثير من الاولاد وأشهرهم حير وعمرو وكهلان فكانت التبابعة تعزى
الى حير والمناذرة الى عمرو وتنتهي الغسانية الى كهلان * قال المسعودي قيل للملوك اليمن تبابعة
لانه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام آخر ولم يسموا الملك منهم يتبع حتى يملك
اليمن والشحسر وحضرموت ومن لم يكن له شيء من هذا يسمى ملكا ولا يقال له تبع اه
قلت وهذا خلاف ما يقوله غيره في معنى تبع التي هي من الكلمات الحبشية وأما حير فقد
يعرف أيضا بالبرنجج وكان ظهوره قبل الميلاد المسيحي بألف وأربعمائة وثلاثين سنة وقيل
هو أول من تتوج بالذهب وأخرج تمود من اليمن الى الحجاز ثم ملك بعده ابنه وائل ولم يزل

ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وآل الامر الى شداد فغزا البلاد الى أن بلغ أقصى
المغرب وبنى المدائن والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم اضطربت أحوال حسير وصار ملكهم
في طوائف الى أن استقر في الحارث وهو تبع الاول ثم في بقية التبابعة وقد لقب الحارث بالرأس
لانه راس الناس بالعطاء مما كان أصابه في غزواته من السلب والغنائم

ثم ملك أبرهة ذو المنار ثم افريقش وذلك قبل الميلاد بألف وثمان وتسعين سنة وذهب
بقبائل العرب الى افريقية وبه سميت وساق البرابرة اليها ولما افتتح المغرب ومع رطانتهم قال ما
أكثر بربرتهم فسموا البرابرة ثم ملك بعد افريقش أخوه عمرو ذو الازعار ولم يحسن السيرة في
الرعية ولم يعبا بوصاية أبيه أبرهة وكان أنشده عند وفاته

يا عمرو انك ما جهلت وصيتي * اياك فاحفظها فانك ترشد
يا عمرو لا والله ما ساد الورى * فيما مضى الالمين المرفد
يا عمرو من بشرى العلا بنواله * كرما يقال له الجواد السيد
كل امرئ يا عمرو حاصد زرعه * والزرع شئ لا محالة يحصد

ولما دعت حجير من جوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل بن شرجيل وذى
الازعار قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك حتى مات ثم ملك بعده ابنه
الهدهاد وذلك سنة خمس وستين وألف قبل الميلاد المسيحي ثم ملكت بلقيس ابنة الهدهاد
وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بنقيس الهدايا وبقيت في ملك اليمن
عشرين سنة وماتت ثم قام بعدها بالملك مالك ناشر النعم لانه قد أعانق رعيته أطواق النعم
والمن وسار غازيا الى المغرب فبلغ وادى الرمل فلم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر بعض
أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادى وكتب في صدره بالخط المسند
هذا الصنم لناشر النعم الحيرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطى * قلت ومن
رام معرفة ما هو الوادى المذكور فليراجع ما قاله ابن خلدون في مبدأ مقدمة تاريخه * ثم ملك
بعد ناشر هذا ابنه أبو كرب شهر مرعش سمي بذلك لارتعاش كان به وهذا هو تبع الآخر
وهو المشهور من ملوك التبابعة ذوى المغازى والآثار البعيدة وكان من أشد ملوك العرب
نكابة بالاعداء وأبعدهم مغارا وقد حكم قبل الميلاد بمائتين وخمسين سنة قال بعض
أصحاب التاريخ ووطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنهم وخرّب مدينة
الصغد وراء جيحون فقالت العجم شمركند (أى شهر خرب) يعنى خرب البلاد وبنى مدينة
هنالك فسميت باسمه هذا وعترته العرب فصار ممرقند وشخص من اليمن غازيا ومر بالحيرة
فتصير عسكره ثم رجع الى اليمن وهابه المسالوك وهادنوه وأخذ بدين اليهودية باغراء بعض
أخبار اليهود من بنى قريظة ثم عاد الى غز وبلاد فارس فوطأ المسالك ودلها وعمد الى الصين
قال النويرى وكان لملك الصين في ذلك الزمان وزير شديد البأس سامى الهمة فلما بلغه مسير
ملك اليمن جسدع أنفه وخلق بأبي كرب وسعى اليه بأمره وشكى من ملك الصين وتظاهر أنه

يدل أبا كرب على خلل يمكنه من الفرصة في لقاء بلادهم بالقياد وقتحها فسر به تبع وبالغ في
 اكرامه وأصاخ لقوله فنهض الوزير بجيشه وهو يقدمهم حتى انتهى بهم الى أرض مسبخة
 فتوغلوا في فلولات سحيقة لأماء فيها فاجهدهم العطش فثأوا اه * ثم قام بعده ابنه أبو مالك
 وهلك في بعض غزواته وتعاقبت الملوك على اليمن دهرا طويلا حتى ملك عمرو بن عامر الازدي
 وقيل له من يقيا لانه كان يلبس كل يوم حلة فاذا أراد الدخول الى مجلسه رعى بها ففرقت لثلا
 يجدا أحد فيها ما يلبسه وقيل انه على عهده كان سيل العرم أي بعد الميلاد بثلاثمائة سنة وستين
 اثنتين فانفجرت مياه سد مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرّب ديارهم فمفرقت القبائل
 المجاورة له أي سبأ

ولم تزل تتوالى الملوك على حير حتى آل الملك في سنة ثمانين وأربعمائة ميلادية الى ذي
 فواس واتفق أهل الاخبار كلهم على أن ذا فواس هو ابن تبار أسعد واهمه زرعته وأنه لما تغلب
 على ملك آبائه التبابعة سمى يوسف وتعصب لدين اليهودية وجعل عليه قبائل اليمن فاستجمعت
 معه حير على ذلك وأراد أن يكون أهل نجران عليها أيضا وكانوا من بين العرب يدينون
 بالنصرانية ولهم فضل في الدين واستقامة ولهم رأس يقال له عبد الله بن تامر وكان هذا
 الدين وقع اليهم قديما من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبابعة يقال
 له (فيمون) وكان رجلا صالحا ورعا مجتهدا في العبادة محبا للدعوة وظهرت على يديه
 الكرامات في شفاء المرضى وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده وكان لا يأكل الا من كسب
 يده ويعظم يوم الاحد فلا يعمل فيه شيئا ففطن لشأنه رجل من أهل الشام اسمه صالح فلزمه
 وخرجا قارين بأنفسهما حتى وصلا بلاد العرب فاخفظتهما سيارة فباعوهما بنجران وأهل
 نجران يؤمذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم طويلا وعلقون عليها في الاعياد من حلهم
 وملابسهم ويعكفون عليها أياما وكان قد ابتاع (فيمون) رجل من أشرفهم وابتاع صالحا
 آخر فكان فيمون اذا قام في الليل في بيت له أسكنه اياه سيده استسرج له البيت فورا وهو في
 غير مصباح حتى يصبح الصباح فأعجب سيده ما رأى منه فسأله عن دينه فأخبره به وقال له
 انما أنتم على باطل وهذه الشجرة لانضر ولا تنفع ولودعوت عليها الهى الذى أعبده لأهلكها
 وهو وحده لاندله فقال له سيده افعل فانك اذا فعلت هذا دخلنا في دينك وتركنا ما نحن عليه
 قال الراوى فدعا فيمون فأرسل الله ريحا فقلعت النخلة من أصلها وأطبق أهل نجران على
 اتباع دين المسيح فانتشرت من ذلك العهد النصرانية بنجران وأما عبد الله بن تامر فكان
 يجلس الى فيمون كل يوم ويسمع منه شيئا عن المسيح حتى فقته وظهرت على يده الخوارق
 والمعجزات ودان الكل بدينه فسار اليهم ذو فواس بجنوده واستدعى رأسهم عبد الله بن تامر
 وقال له أفسدت على أهل بلدى وخالفت دينى ودين آبائى ثم أمره بقتل وعرض على أهل
 نجران القتل فلم يزداهم الا نباتا في النصرانية فخذلهم الاخايد وأوقد لهم ناراً ثم امتحنهم فجعل
 يقول للرجل والمرأة إما أن تترك دينك وإما أن تقصدك في النار فيقول ما أنا تارك دينى لشيئ

فيقذف فيها فيحرق فبقيت امرأة ومعها صبي رضيع عمره سبعة أشهر فجزعت وتهديت فقال لها الغلام يا أمه لا تنافقي فانك على الحق ولم يتكلم من ذى قبل فاحترقت قالوا وقتل وأحرق ذو نواس حتى أهلك منهم فيما قال ابن اسحق عشرين ألفا أويزيدون وأفلت منهم رجل اسمه درس وكان من سبا ويقال له أيضا درس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه فأعجزهم فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذى نواس * فلما علم القيصر حقيقة الخبر أخذ من ساعته في التأهب لقتال ذى نواس وبعث الى ملك الحبشة يأمره بنصره فجاءه السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم اسمه ارباط وعهد اليه بقتلهم وسببهم ونواب بلادهم فركبوا البحر ونزلوا ساحة اليمن فلقبهم ذونواس فبين معه فانهم لما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجهه بفرسه الى البحر وخاض فحضاه ثم أفضى به الى غرة فأغرقه فيها فكان آخر العهد به وانقرض بموته أمر التبابعة وذلك سنة تسع وعشرين وخسمائة لليباد * ووطئ من ثم ارباط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حير وهدم حصون الملك ثم انتقض على ارباط أبرهة أحد رؤساء جيشه وجذب معه رعاع الحبشة وغطاريفهم فاقتتلوا فحمل ارباط على أبرهة وعلا وجهه بالحربة فشرم أنفه وبذلك لقب بالاشرم وحمل أبرهة على ارباط بالسيف وعلا به رأسه فأسرع السيف في دماغه وسقط عن جواده فخالوا حينئذ جميعا وصاروا مع أبرهة وأقاموه ملكا * قال أهل التاريخ وكان أبرهة رجلا قصيرا حادرا لحميا ومداحا ذا دين في النصرانية فبنى بصنعاء الى جانب غمدان كنيسة محكمة العمل وسمها القليس * قال ابن اسحق وكان القليس مربعا مستوى التربع وجعل طوله في السماء ستين ذراعا وجعل بين ذلك كله حجارة تسمى أهل اليمن الجردب منقوشة مطبقة لا يدخل بين أطباقها الابرة وكان له باب من نحاس يفضى الى بيت في جوفه طوله ثمانون ذراعا في أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقوده مضروبة بالفسيفساء (شجرة بين أصنافها كواكب الذهب ظاهرة) ثم يدخل من البيت الى قبة جدرها بالفسيفساء وفيها جلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق مربعة تعشى عين من نظر اليها من بطن القبة تؤدى ضوء الشمس والقمر الى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الابنوس مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهباً وفضة اه

وانتشر خبر بناء هذا البيت في العرب فلما كانت سنة ثمان وسبعين وخسمائة لليباد مات أبرهة فلك بعد ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفعل ملكه وعلت كلمته وأذل حير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم * ثم مات يكسوم فلك مكانه أخوه مسروق وكان طاغية جبارا ساءت سيرته وكثر عسفه * قال ابن خلدون ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذى وزن الحيرى من الأذواء بقية ذلك السلف وعقب أولئك الملوك ونبال الدولة المنفوس بالجرود وقدم على قيصر يوستينس يستنجده على الحبشة فأبى وقال الحبشة على دين

النضاري فرجع الى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة ومايلها من أرض العرب فشكا اليه واستهله الضمان الى حين وفادته على كسرى ووفد معه وسأله النصر على الحبشة وشاور أهل دولته فقالوا في سجونك رجال حبستهم للقتل ابغثهم معهم فان هلكوا كان الذي أردت بهم وان ملكوا كان ملكا ازددته على ملكك فأحصوا بثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكبرهم نسبا واسمه وهزر الديلي فتوافقوا للحرب وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك فقال أروني ملكهم فأروه اياه على فيسل عليه تابعه وبين عينيه ياقوتة حجارة فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل في دماغه وتنكس عن دابته وداروا به فحمل القوم عليهم وانهرزت الحبشة في كل وجه وفنى ملكهم في اليمن بعد أن توارثه أربعة في ثنتين وسبعين سنة وانصرف وهزر الى كسرى بعد أن خلف سبأ على اليمن في جماعة من الفرس ضمهم اليه على فريضة يؤدونها كل عام وجعله لنظر ابن ذي يزن وأنزله بصنعاء وانفرد ابن ذي يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان يقال ان الضحالك بناء على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء السكواكب وروحانيتها (وقد خرب في خلافة عثمان) ولما استوثق لذي يزن الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم حتى اذا لم يبق الا القليل جعلهم خولا واتخذ منهم طواير يسعون بين يديه بالحرب فخرج يوما وهم يسعون بين يديه فلما انفردوا به عن الناس رموه بالحرب فقتلوه فأرسل كسرى عاملا على اليمن واستمرت عماله الى أن كان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للاسلام بعد ذلك

قال الاصفهاني أما أخبار العرب بالعراق في الجليل الاول فلم تصل الينا تفاصيلها وشرح حالها الا أنه لما حدث سيل العرم تمزقت عرب اليمن من مدينة مأرب الى العراق والشام فكانت تنوخ وقضاعة وهما حيان من أحياء الازد من بني كهلان ممن تمزق الى العراق فقال مالك بن فهم الازدي لمالك بن القضيي نقيم بالبحرين ونتحالف على من ناوانا ففصلقوا فسموا تنوخ وذلك في أيام ملوك الطوائف فنظروا الى العراق وعليها طائفة من ملوكها وهي شاغرة فخرجوا من البحرين وسارت الازد الى العراق مع مالك بن فهم الازدي وسارت قضاعة الى الشام مع مالك القضيي

وأول من تملك على تنوخ في العراق مالك بن فهم وذلك سنة خمس وتسعين ومائة للميلاد وكان منزله بالانبار فبقي بها الى أن رماه سليمة بن مالك رمية بالليل وهو لا يعرفه فلما علم أن سليمة رمايه قال

جزاني لاجزاء الله خيرا * سليمة انه شرا جزاني
أعلمه الرماية كل يوم * فلما اشتد ساعده رماني

فلما قال هذين البيتين فإظ (أي مات) وهرب سليمة ثم ملك من بعد مالك جذيمة الابرش سنة احدى وخسين ومائتين للميلاد وكان ثاقب الرأي بعيد المغار شديد النكاية ظاهر الحزم وهو أول من غزا بالجيوش وشن الغارات على قبائل العرب وكان به برص فأكبرته العرب

على أن تنعته به اعظاما له فسمته جذية الابرش وجذية الوضاح واستولى على السواد
ما بين الحيرة والانبار وسائر القرى المجاورة لبادية العرب وكان يجبي أموالها وغزا طسما
وجديسا في منازلهما من الجامة وفيه قال الشاعر

أضحي جذية في أشراف منزله * قد حاز ماجعت في عصرها عاد

وطال ملكه الى أن أدرك ملك سابور بن أشك وكان جذية قد ملك معدا وبعض اليمن
وغزا في آخر عمره الشام وقتل عمر بن حسان بن أذينة والد الزباء ملكة الطوائف فانطوت له
الزباء على طلب التارحتى قتلته وكان ملك جذية نحو ستين سنة بالتقريب اه

ولما مات جذية المذكور ورث الملك بعده ابن اخته عمرو بن عدى وذلك سنة ثمان
وستين ومائتين لليلاد وأمه رقاش وهو الذي اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب وأول ملك
بعده الحيريون في كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق ينتسبون اليه فلما استقرت
به السلطنة هم بطلب النار من الزباء بجاله جذية فلما أحست الزباء بنيتها تحصنت في معقل
فصارت أمنع من عقاب فعمد عمرو الى قصير وزيره فجذع أنفه بمواطأة منه على ذلك وألحقه
بالزباء يشكوما أصابه من عمرو وأنه اتهمه بمداخلة الزباء في أمر خاله جذية وقال لها وما
رأيت بعد ما فعل بي أنسكي له من أن أكون معك فأكرمته وقربته فلما تحقق منها الوثوق
به غزها وأسلم حصنها الى عمرو فلاحها بالسيف وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفأ راجعا
فبقى عمرو ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبدا بأمره بغزو المغازي ويفوز بالغنائم وتجي
اليه الاموال وتفد عليه الوفود ولا يدين لملوك الطوائف بالعراق حتى قدم أزدشير بن بابك
في أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له بها مناويا حتى جعلهم على ما أراد
مما يوافقهم ومما لا يوافقهم فكره كثير من تنوخ مجاورة العراق على الصغار فخرج من كان
منهم من قبائل قضاة الذين كانوا أقبلوا على مالك في أيام ملكه فلحقوا بالشأم وانضموا الى
من هنالك من قضاة فكان اذا أحدث ناس من العرب أحدا نا في قومهم أوضافت معيشتهم
يخرجون الى ريف العراق وينزلون الحيرة * قال أهل التاريخ فكان ذلك على أكثرهم هجنة
وصار أهل الحيرة ثلاثة أثلاث الثلث الاول تنوخ وهم من كان يسكن المظال وبيوت
الشعر والوبر في غربي الفرات ما بين الحيرة الى الانبار فما فوقها والثلث الثاني العباد وهم
الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها والثلث الثالث الاخلاف * وعمرت الحيرة أيام ملك عمرو
ابن عدى بانخاذه اياها منزلا وعظم شأنها الى أن وضع في الكوفة وزلها عرب الاسلام

ولما مات عمرو ملك بعده امرؤ القيس البدء وهو الاول في كلامهم وهو أول من تنصر
من ملوك آل نصر وعمال الفرس ثم ولى مكانه ابنه عمرو سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة لليلاد
ثم أعقبه أوس بن قلام العمليقي خمس سنين ثم تاربه محجب أحد بني فزان فقتله سنة ثمان
وستين وثلثمائة وولى مكانه مدة ثم ولى من بعده امرؤ القيس الثاني سنة ثمان وستين وثلثمائة
لليلاذ ويعرف امرؤ القيس ههنا بالمنذر والمحرق لانه أول من عاقب بالنار وهو الذي ذكره

الاسود بن يعفر في قوله * ماذا أوصل بعد آل محرق * ثم ملك بعده ابنه النعمان الاعور
 السائح صاحب الخورنق والسدير وكان النعمان هذا في أيام يزيد جرد فدفع اليه ابنه بهرام
 ليربيه وأمر ببناء الخورنق مسكنا لابنه فأسكنه اياه وأحسن تربيته وتأديبه وجاءه بمن يلقنه
 الخلال من العلوم والآداب والفروسيه حتى نبغ وفاز بما رضىه وكان النعمان من أشد ملوك
 العرب نكايه في الاعداء وأبعدهم مغارا قد أتى الشام مرارا كثيرة وأكثر المصائب في أهلها
 وسبي وغنم وكان ملك فارس ينفذ معه كنيستين من المقاتلين الشهباء وأهل الفرس ودوس
 وأهلها تنوخ فكان يغزوهما من لا يدين له من العرب وكان صارما حازما ضابطا للملكه قد
 اجتمع له من الاموال والحدود والرقبى مالم يملكه أحد من ملوك الحيرة والحيرة يومئذ ساحل
 الفرات * ولما أتى على النعمان ثلاثون سنة تنصر على يد بعض وزرائه ثم زهد وترك الملك
 ولبس المسوح وخرج على وجهه فلم يوقف له على أثر * حكى عن سبب زهده أنه لما بنى
 الخورنق والسدير أشرف عليهما يوما فأعجبه ما أوفى من الملك والسعة ونفوذ الامر واقبال
 الوجوه عليه فقال لاصحابه هل أوفى أحد مثل ما أوفيت أنا فقال له حكيم من حكاه أصحابه
 أهذا الذى أوفيت شئ لم يزل ولا يزول أو شئ كان لمن قبلك وزال عنه وصار اليك قال بل
 شئ كان لمن قبلى زال عنه وصار الى وسيزول عنى فقال الحكيم فسررت بشئ تذهب عنك
 لذته وتبقى تبعته قال فأين المهرب قال اما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس أمساها وتلحق
 بجبل تعبد ربك فيه وتفر من الناس حتى يأتىك أجلك قال فاذا فعلت ذلك فماذا قال
 حياة لا موت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى قال فأى خير فيما بقى والله
 لا أطلب عيشا لا يزول أبدا فانتزع من ملكه ولبس الامساح وساح في الارض وتبعه الحكيم
 وصارا يسبحان ويعبدان الله تعالى حتى ماتا وفيه يقول عدى بن زيد

وتفكر رب الخورنق اذا أشرف يوما والهدى تفكير
 سره ما له وكثرة ما عيى ملك والبحر معرضا والسدير
 فارعوى قلبه وقال فما غبطة حتى الى الممات بصير
 ثم بعد الفلاح والملك والنعمه وارتمهم هنالك القبور
 ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

ولما زهد النعمان تولى الامر بعده ابنه المنذر الاول سنة عشرين وأربعمائة للميلاد
 وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصا من ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام لنشئه بين العرب وخلوه
 من آداب العجم فاستنجد بهرام بالعرب فجهاز المنذر بهرام المذكور وقام يطلب له ملكه
 وحاصر تحت الملك فأذعن له فارس وأطاعوه واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم
 واجتمع أمره ورجع المنذر الى بلاده واشتغل باللهو الى أن مات سنة اثنتين وستين وأربعمائة
 ميلادية * فقام بالامر بعده النعمان الثانى وكان وزيره عدى بن زيد النصرانى وكان عدى
 المذكور ورعا قزهد ولبس المسوح سنة تسع وستين وأربعمائة للميلاد ويروى عن سبب

تزهده أنه خرج متصيذا ومعه عدى بن زيد وزيره المذكور فمرا بشجرة فقال عدى أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة قال لا قال انها تقول

من رأنا فليحدهت نفسه * أنه موف على قرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها * ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا * يشربون الخمر بالماء الزلال
والاباريق عليها فدم * وحياد الخيل تجرى بالخلال
عمروا الدهر بعيش حسن * ثم أفنى دهرهم غير مجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا * ولذلك الدهر حال بعد حال

ثم جاوزا الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى أتدرى ما تقول هذه المقبرة قال لا قال فانها تقول

أيها الركب المنجونا * على الارض المجدونا
كما أنتم كذا كنا * كما نحن تكونونا

فقال النعمان قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت أنك انما أردت عظمي فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى تدرك به النجاة قال تدع عبادة الاوثان وتنصر وتعبد الله تعالى وحده قال وفى هذا النجاة قال نعم قال فترك عبادة الاوثان وتنصر حينئذ وأخذ فى العبادة والاجتهاد ثم تزهده كما تقدم فلك مكانه أخوه الاسود وهو الذى انتصر على عرب الشام وأسرة عدة من ملوكهم ثم مات سنة احدى وتسعين وأربعمائة * فلك بعده أخوه المنذر الثانى سبع سنين ثم ابن أخيه فى سنة ثمان وتسعين وهو النعمان الثالث ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة الزميلي سنة ثلاث وخسمائة قال أهل التاريخ وزميل بطن من نهم ثم ملك امرؤ القيس الثالث سنة ست وخسمائة وامرؤ القيس هذا هو الذى غزا بكرا يوم دارة فى دارها فكانت بكر قبيلة تقيم أود ملوك الحيرة وتعصدهم وهو أيضا باني الغريب والضبر وفيهما يقول جبير بن بلوغ

ليت شعرى متى تحب بنا لنا * فقه نحو الغريب والضبر

ولما مات امرؤ القيس الثالث قام بعده المنذر الثالث ابنه وهو ذو القرنين لصغيرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء قال الجنابي وكان هذا لقباً لابى عامر الازدى لانه كان يقيم ماله مقام القطر أى عطاء وجودا فغلب على بنيسه لانهم خلف منه وذكر أن مرة بن كلثوم قتله لخمس سنين من ملكه وذلك سنة اثنتين وستين وخسمائة ثم ملك من بعده الحارث بن عمرو الكندى الملقب بأكل المرار وكان شديد السلطان غزا تميميا فى دارها فقتل مائة من بني دارم يوم دارة الثانى بأخيه أسعد بن المنذر وكان ملكه ست عشرة سنة أى الى سنة ثمان وسبعين وخسمائة للبلاد ثم ولّى شقيقه قابوس أربع سنين فى زمن أنوشروان وكان فيه لين وكان ضعيفا مهينا قتله ابن يشكر وسلبه سنة ثنتين وثمانين ثم ملك المنذر الرابع أخوه ثلاث

سنتين ثم النعمان الرابع أبو قابوس سنة ثنتين وثمانين وهو صاحب النابغة الذبياني الذي بنى
الغريين وتنصر أى اعتنق الديانة النصرانية

وكان المنذر بن ماء السماء الملقب بأبي قابوس هذا قد نادمه رجلان من بني أسد أحدهما
خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأغضباه في بعض المنطق فأمر بأن يحفر لكل واحد
حفرة بظهر الحيرة ثم يجعلها في تابوتين ويدفنا في الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى إذا أصبح سأل
عنهما فأخبروه بهلاكهما فنسدم على ذلك ونغم جدا وفي عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل
المذكورين يقول شاعر بني أسد

يا قسرين بيوت آل محرق * جادت عليك رواعد وبروق

أما البكاء فقتل عنك كثيره * ولئن بكيت فلبكاء خليق

وركب المنذر حتى نظر الى قبرهما فأمر بإنشاء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين
في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس فأول من يطلع
عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل شوما أى سودا وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه
رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويفرى بدمه الغريين فلبث على هذا الحال برهة من
دهره حتى مر به رجل من طيء يقال له حنظلة بن أبي عفرأ كان آوى النعمان في خبائه
يوم خرج الى الصيد وانفرد عن أصحابه بسبب المطر فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له
شاة فأطعمه من لحمها وسقاه لبنا فلما نظر اليه النعمان وافدا اليه ساء ذلك جدا وقال له
يا حنظلة هلا آبيت في غير هذا اليوم فقال آبيت اللعن لم يكن لي علم بما أنت فيه فقال له
أبشر بقتلك فقال له والله لقد آبتك زائرا ولاهلي من خيرك ماأرا فلا تكن ميرتهم قتلى
فقال لا بد من ذلك فاسأل حاجة أقضها لك فقال تؤجلني سنة أرجع فيها الى أهلي وأحكم
من أمرهم ماأريد ثم أصير اليك فأنفذني حكك فقال ومن يتكفل بك حتى تعود فنظر في
وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فأشدد

يا شريك يا ابن عمرو * يا أنا من لا أخاله

يا أنا شيان فك اليوم رهنا قد أناله

يا أنا كل مصاب * وحيأ من لاحيا له

ان شيان قبيل * أكرم الله رجاله

وأبولك انسير عمرو * وشراحيل الجماله

رفيالك اليوم في المسجد وفي حن المقاله

فوثب شريك وقال آبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه وأمر لاطاني بخمسمائة ناقة وقد
جعل الأجل عاما كاملا من ذلك اليوم الى مثله من القابل فلما حال الحول وقد بقى من الأجل
يوم واحد قال النعمان لشريك ماأراك الاهالكا غدا فداء لحنظلة فقال شريك
فان يك صدر هذا اليوم ولي * فان غدا لناظره قريب

فذهب قوله مثلاً ولما أصبح النعمان وقف بين قبري نديميه وأمر بقتل شريك فقال له
 وزراؤه ليس لك أن تقتله حتى يستوفي يومه فتركه النعمان وكان يشتهي أن يقتله لينجو
 الطائي فلما آذنت الشمس بالمغيب قام شريك مجرداً في أزار على النطع والسياف بجانبه وكان
 النعمان قد أمر بقتله فلم يشعر الا وراكب قد ظهر فاذا هو حنظلة الطائي تكفن وتحنط وجاء
 بنادبته فلما رآه النعمان قال ما الذي جاء بك وقد أفلت من القتل قال الوفاء قال وما دعائك
 الى الوفاء قال ان لي ديناً يعني من الغدر قال وما دينك قال النصرانية قال فاعرضها عليّ
 فعرضها عليه فتصر النعمان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائي وقال
 ما أدري أيكاً أكرم وأوفى أهذا الذي نجما من السيف فعداليه أم هذا الذي ضمنه وأنا لا أكون
 الأم الثلاثة قال الميداني وتصرم النعمان أهل الحيرة أجعون * وبني النعمان في حاضرة
 ملكة الكنائس العظيمة ثم قتله كسرى بن هرمز أبروز سنة أربع وستمئة للميلاد وانقطع
 الملك عن لحم ولم يلبث أن ظهر الاسلام بعد زمان وكان آل جفنة عمال القياصرة على عرب
 الشام كما كان المناذرة آل نصر في آخر أمرهم عمالاً للاكسرة على عرب العراق وأصلهم من
 اليمن من الازد بنى كهلان قال أهل التاريخ لان الازد لما أحست بمأرب انتفاض العرم
 ونخسيت السيل تفرقت فتشام قوم فتلوا على ماء يقال له غسان فصبروه شربهم فسموا غسان
 ثم أنزلهم نعلبة بن عمرو الغساني ببادية الشام والملوك بها من قبل القياصرة وكانوا يدينون
 بالنصرانية فلما نزلت غسان بأرض الشام كان لها قوم من سليج فضر بوا على الغساسنة الاتوة
 وكان الذي يلي جبايتها رجلاً منهم اسمه سبيط فسار لجبايتها فاستبطوه فقصده نعلب كبيرهم
 وقال له لتجملن لي الاتوة أولاً خذن أهلك وكان نعلب حليماً فقال هل لك فيمن يربح عليك
 بالاتوة قال نعم قال عليك بأخي جذع بن عمرو وكان جذع فاتكاً فأتاه سبيط وخطبه بما
 خاطب به نعلبة فخرج عليه ومعه سيف مذهب وقال فيه عوض من حقلك الى أن أجمع
 لك الاتوة قال نعم قال فخذ فتناول سبيط جفن السيف واستل جذع نعله وضربه به فقتل
 خذ من جذع ما أعطاك فذهبت مثلاً فوقعت الحرب بين سليج وغسان فأخرجت غسان
 سايجاً من الشام وصاروا ملوكاً واستقر ملك الغساسنة أربعمئة سنة وثمناً وكان أول
 ملوكهم جفنة بن عمرو المذكور وآخرهم جبلة بن الايم وهو الذي بنى مدينة جبلة بين
 طرابلس واللاذقية وسمها باسمه وكان قد أسلم في زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام
 فسار الى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين نفراً من أصحابه فلما قرب من المدينة قلداً عنق
 خيله بثلاث الفضة والذهب ووضع تاجاً على رأسه فلما بلغ عمر بن الخطاب قدومه تلقاه بموكب
 عظيم ورفع مقامه حتى كان يوم الطواف فينبأ جبلة يطوف بالبيت ادو طي رجل من
 بني فزارة طرف أزاره فاقبل عنه الأزار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزاري لطمه شمش بها
 أنفه فتملّق به الرجل وانطلق الى عمر ودمه يسيل على وجهه وشكا اليه حاله فقال عمر لجبلة
 أنت في خيرة اما أن يطمك هذا الرجل كما لطمته أو تقتدي اللطمه منه بالمال فقال جبلة

لعمر أفلا يفضل عندكم ملك على سوقه قال كلا بل كلاهما في الحق سيان فغضب جبلة من ذلك وصبر الى الليل فاجتمع بغلمائه وخرج بهم حتى لحق بالشام وارتد الى دينه ثم سار من هناك الى قيصر وأقام عنده فنشعبت أولاده في تلك البلاد وتسعوا بالارنؤد * قلت وقد عدت أهل النقد ما وقع من عر في هذه الحادثة من الاسباب التي ترتب عليها شئ في الاسلام ومن ملوك العرب ملوك بني كندة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر وهم من بني زيد بن كهلان قال أصحاب التاريخ كانت كندة قبل أن يملك حجر عليهم بغير ملك فأكل القوى منهم الضعيف حتى ملك حجر وكان تبع حين أقبل سائرا الى العراق استعمله عليهم فستد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من التميميين أرضهم وبقي وحده في مملكته مطاعا لحسن سيرته الى سنة ثلاث وخمسمائة ليليلاد ثم ملك بعده ابنه المقصور لانه اقتصر على ملك أبيه ثم استخلفه الحارث وهذا عظم أمره وكبر شأنه حتى طرده أنوشروان وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفسا من بني حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وكان منهم ابنا من ولد الحارث وفي ذلك يقول امرؤ القيس

بنو أسد قتلوا ربهم * الأكل شئ سواه جل

ثم استجد امرؤ القيس بيكر وتغلب على بني أسد فأنجدوه وهرب بنو أسد منهم فتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء ففترقت جوع امرئ القيس خوفا من المنذر وخاف امرؤ القيس من المنذر وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن عادياء اليهودي فآكرمه وأنزله وأقام امرؤ القيس عند السموأل ماشاء الله ثم سار امرؤ القيس الى قيصر ملك الروم مستنجدا به وأودع دروعه عند السموأل بن عادياء المذكور ومر على حمة وشيرز وقال في مسيره قصيدته المشهورة

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه * والحق أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تسبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عوده من عند قيصر عند جبل يقال له عسيب ولما علم بوفاته هناك قال

أجارتنا ان الخطوب تنوب * واني مقيم ما أقام عسيب

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبي شمر الغساني الى السموأل وطالبه بدروع امرئ القيس وماله عنده وكانت تلك الدروع مائة وكان الحارث قد أسر ابن السموأل فلما امتنع السموأل عن تسليم ذلك الى الحارث قال الحارث اما أن تسلم الدروع واما قتلت ابنتك فقال السموأل لست أخفر ذمتي فافعل ما شئت فذبح ابنه والسموأل ينظر اليه وانصرف الملك على بأس فضرب العرب به المثل في الوفاء

أما العرب المستعربة الذين هم القسم الثالث وهم بنو عدنان بن اسمعيل فكانوا قد نزلوا بالحجاز وتولوا سدانة الكعبة وكانت الحجاز والكنان ديار العمالقسة وكان لهم ملك هناك

وكانت جرهم من تلك الطبقة وكانت ديارهم اليمن مع اخوانهم من حضرموت وأصاب اليمن قحط ففروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى قال أصحاب التاريخ وعثروا في طريقهم باسمعيل مع أمه هاجر فاحتلوا أسفل مكة واقتتلوا مع العاقلة فأبادوهم ونشأ اسمعيل بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوج منهم قلت وهذا القول غير معول عليه عند جماعة من المتأخرين ووفق لمائة وثلاثين سنة من عمره ولم يزل أمر جرهم يعظم بمكة ويستفحل حتى ولوا البيت الحرام وكانوا ولاته وحجابه وولاة الاحكام بمكة ولما طالت ولاية جرهم استولوا من الحرم أمورا عظاما واستخفوا بحرمة البيت العتيق فأبادهم الله قالوا لانه لما خرب سد مأرب سار عمرو بن عامر وقومه من بلد الى بلد لا يطؤون بلدا الا غلبوا عليها فلما قاربوا مكة أبت جرهم أن تفسخ لهم واستكبروا في أنفسهم وقالوا ما نحب أن نتزلوا فتضيقوا علينا مر اتعنا ومواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتهم فلا حاجة لنا بيجواركم فاقتتلوا ثلاثة أيام وانهم جرهم فلم يفلت منهم الا الشريد فيهدر دمه وذلك سنة سبع ومائتين لليلاد * ثم تفرقت قبائل اليمن وانخرعت خزاعة بمكة فولوا أمر مكة وحجابه الكعبة وسألهم بنو اسمعيل السكني معهم فأذنوا لهم وأقاموا عليهم حليا وهو ربيعة بن حارثة ملكا وكان فيهم شريفا سيدا مطاعا وبلغ بمكة من الشرف ما لم يبلغ عربي قبله وذهب اسمه في العرب كل مذهب وقوله فيهم دينا متبعا * قال أصحاب التاريخ وكان أول من أطمع الحاج بمكة سنائف الابل ولجانها على الثريد وكسا في تلك السنة جميع حاج العرب كل واحد بثلاثة أبواب من برود اليمن وهو الذي بحر البصرة ووصل الوصلة وحجى الحامى وسيب السائبة ونصب الاصنام حول الكعبة فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالازلام وهو أول من غير الخنيفية دين ابراهيم

وأقامت خزاعة ثلثمائة سنة في سدانة البيت حتى قام قصي القرشي من بني اسمعيل وعظم شرفه فرأى أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة وكانت ولاية الكعبة لابن غبشان الخزاعي فباعها من قصي بزق خرف قيل فيه أخسر من صفقة أبي غبشان ثم دعا قصي اليه رجالات قريش وأجمع لحرب خزاعة فتناجزوا وكثر القتلى ثم صالحوه على أن يحكوه الكعبة وكان ذلك سنة سبع وخمسمائة لليلاد فصار لقصي لواء الحرب وحجابه البيت وتمنت قريش برأيه وصرفوا مشورتهم اليه في قليل الامور وكثيرها واتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة فكانت مجتمع الملا من قريش في مشاوراتهم ومعاقدهم ثم تصدى لاطعام الحاج وفرض على قريش خراجا يؤدونه وما زال على هذا الحال حتى مات وقام بالامر بعده بنوه بالقيادة في كل موسم حتى جاء الاسلام

وكان في الجاهلية من كبارهم وأشرفهم بيوت معلومة يشار اليها ويقال ان أكبرهم وأشرفهم عبد مناف من ولد قصي بن كلاب القرشي وبنوه عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ثم كانوا كذلك في الاسلام وكان عبد مناف يدعى عندهم أيضا القمر والسيد والفهد واسمه المغيرة واخوته عبد الدار وعبد العزى وكان اسمه أولا عبد مناة بن كنانة بن خزيمه فأحيل

الى عبد مناف ومن أشرفهم أيضا عبد المدان بن الريان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة الحارثي رهط من بني الحرث بن زياد وأهل بيته بنو قحطان وأولاده أخوال بني العباس قالوا وهم من أشرف العالم وأكابر الدنيا وبه يضرب المثل للرجل العظيم فيقال أشرف من ابن عبد المدان قال لقيط بن زرار

شربت الخمر حتى خلت أنى * أبو قابوس أو عبد المدان

أسير في بني عبس بن زيد * رختي البال منطلق اللسان

وكان العرب يعدون البيوتات المشهورة الكبيرة المعروفة بالشرف من القبائل بعد بيت هاشم الذي تقدم ذكره في قريش ثلاثة بيوت وقيل سبعة أولها بيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت قيس وبيت آل زرار بن عدى الدارين وبيت تميم وبيت آل ذى الجذنين بن عبد الله ابن همام وبيت شيبان وبيت بني الديان من بني الحرث بن كعب بيت اليمن وأما كندة فلا يعدون من أهل البيوتات وإنما كانوا ملوكا كما تقدم أعالقشان القرشيين فقد كان مرتباً على أن خزنة الكعبة كانت بيدهم فأثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من الدهاقين فيها فأصبح لهم بذلك ضرب من السوود وعلو الكلمة على باقي القبائل وزادهم مكانة أن سوق عكاظ كانت تقام ببلدهم مكة وكانت العرب تأتيها من كل صوب وحذب للتجارة فقط بل للفخارة وإثارة الحرب وإبرام الصلح وفعل ما يشجر بينها كما سيذكر ذلك مفصلاً في محله

(الفصل الثاني)

(في أديان العرب في الجاهلية)

كانت العرب في أول أمرها على غير دين مقرر حتى قدم عمرو بن لحي بصنم يقال له هبل فعكفوا على عبادته وبالغوا في ذلك وكان من أعظم أصنام قريش عندها فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده وكان هبل هذا من خرز العقيق على صورة انسان وكانت يده اليمنى مكسورة فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب وكانت له خزنة للقربان وسبعة قداح يضربون بها إذا مستهم الحاجة ويقولون

إنا اختلفنا فهب السراحا * ان لم تنقله فر القداحا

وزعم قوم أن هبل هذا إنما هو صورة ابراهيم الخليل التي كسرها صاحب الشريعة الاسلامية عند ما دخل الكعبة مع ما كسره من بقية الاصنام قالوا وكان حولها عدد كثير من صور الملائكة والانبياء وفيهم اسمعيل نفسه وفي يده الأزام

ولما دخل صاحب الشريعة الاسلامية الكعبة يوم فتح مكة كان بها ثلثمائة وستون

صنما قالوا فجعل يطوف على راحلته ويطعمها ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجمعت ثم
أحرق بالنار وكان بالكعبة على يمينها حجر أسود وما زال هذا الحجر معظما في الجاهلية
والاسلام يتبرك به الناس ويقبلونه اجلالا * وقد كانت الكعبة قبل ظهور صاحب الشريعة
الاسلامية بقرون بيت عبادة للعرب يعظمونه غاية التعظيم ويحلقونه وفيه مصاف أصنامهم
فلما ظهر الاسلام زاد هذا البيت تعظيما واعتقد جمهور المسلمين أنه قديم العهد جدا ويقال
انه لما أهبط آدم من الجنة دعا ربه أن يأذن له في بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته
كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور الذي يقال له الضراح أيضا وهو مطاف الملائكة
فأنزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور وضعه في مكة تحت البيت المعمور
حذوا القذة بالقذة والنعل بالنعل كجاء في الاصطخري وأمر آدم أن يطوف به ويتوجه اليه
فلما مات آدم تولى ابنه ووصيه شيث بناءه من حجر وطين على ذلك الرسم ثم انطمس في الطوفان
كأهو مذكور في كتاب الملل والنحل فأمر الله تعالى ابراهيم واسماعيل لخددا بناءه في موضعه
وعلى رسمه ثم ما زال يشعث فيرمم الى أن جددت قريش بناءه على الاسس القديمة بعد ميلاد
صاحب الشريعة بيضع سنين * وكان قد نصب بأسفل مكة صنم يعرف بالخلصة فكافوا
يلبسونه القلائد ويعتدون له الشعير والحنطة ويصبون عليه اللبن ويذبحون له ويعلقون
عليه بيض النعام وكانت لهم أصنام أخر نصبوها على السيارات من الكواكب وهي
المشترى قيل ان أصل اسمه ذوشرا أى ساطع النور والزهرة وزحل والمرنج وغيرها من
الثوابت

ومن معبوداتهم أيضا مناة واللات والعزى وكانت مناة على ساحل البحر مما يلي قديد
وكانت صخرة تراق عليها دماء الذبائح ويلتسون منها المطر في الجذب وكانت اللات أيضا صنما
للسمس اذا مر عليها الحاج لوثها بالسويق وقيل أصلها من (لاه) أى علا وعظم ومنه
اسم الجلالة * وكان الذى اخنص من العرب بعبادة اللات ثقيف وكان بيت عبادتها في
تخلة فوجه صاحب الشريعة في السنة التاسعة من هجرته المغيرة وأبا سفيان الى تخلة
فكسروا الصنم فخرن الثقيفون أهل الطائف لاسيما نساؤهم أشد الحزن عليه وسألوا
صاحب الشريعة عند عقد الصلح أن يدع لهم اللات ولا يهدمها الى ثلاث سنين فأبى عليهم
ذلك فغزوا الى شهر فلم يجيبهم * ويقال ان تاء اللات ليست أصلية بل هى هاء تأنيث وانما
كره البديل فيها لثلاثا تشبه اسم الله تعالى كما ذكر ابن درستويه * وأما مناة فكانت تعبدها هذيل
وخزاعة ومنازلهما بين مكة والمدينة وقيل عبادتها الاوس والخزرج وثقيف قاله الشهرستاني وأبو
الفداء وغيرهما * وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد في السنة الثامنة من الهجرة
وهى سنة شو ثم على أصنام العرب ويقال ان اسم مناة مشتق من أمى أى أراق لكثرة
ما كان يراق عندها من دماء الاضاحى ومن هذا الاصل اشتق أيضا اسم وادى منى على
مقربة من مكة حيث ينحر الحاج لديهم في يومنا هذا * وأما العزى فكانت شجرة تعظمها

قريش وبنو كنانة ويطوفون بها بعد طوافهم بالكعبة ويعكفون عندها يوماً * قال الكلابي
وكان في كل واحدة من اللات والعزى شيطان يتكلم ويتراى للسدنة وهم الحجية وذلك
من صنيع ابليس وكيدته وكان بنو حنيفة في الجاهلية قد اتخذوا إليها عبوداً دهرًا طويلًا
ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقبل في ذلك

أكلت حنيفة ربهما * زمن التفتيح والمجاعة

لم يجذروا من ربهم * سوء العقوبة والتباعد

ومن أديانهم الجوسية والصابئية وقد نصب الصابئية بحسب تلك الآراء أصنام الذهب
للشمس وأصنام الفضة للقر ونسبوا المعادن والاقاليم للكواكب وزعموا أن قوى الكواكب
تفيض على تلك الاصنام فتتكلم وتفهم وتوحى للناس وتعلم الناس منافعهم وكذلك قالوا في
الاشجار التي هي من قسمة تلك الكواكب اذا أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست
له وفعل لها كذا فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة فتوحى للناس وتكلمهم في
النوم * ومن مزاعمهم في هذا المذهب أى الصابئية أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور
ثم تصير الى رحمة الاله الاعلى وقد فرض عليهم في اعتقادهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع
الشمس بنصف ساعة أو أقل من ذلك بحيث ينقضى مع الطلوع ثمان ركعات في كل ركعة
ثلاث سجودات والثانية صلاة الظهر وهي خمس مثل تلك الركعات وسجوداتها وتنقضى مع
الزوال والثالثة كالثانية وتنقضى مع الغروب وكان لهم أيضا ثلاث صيامات في السنة أولها
ثلاثون يوما والثاني تسعة أيام والثالث سبعة وكانوا يكثرون من تقديم القرابين لآلهتهم
ولكنهم لا يأكلون منها شيئا بل كانوا يحرقونها وكذلك كانوا لا يأكلون الباقلاء والثوم وبعض
البقول والقطاني قاله أبو الفرج الملقب المعروف بابن العربي وجاء أيضا في كتاب الملل والنحل
للشهرستاني * وقد اختلف أهل التاريخ في تعيين قبلتهم التي كانوا يؤمنونها يومئذ فقال
ابن العربي انها القطب الشمالي وقال غيره انها القطب الجنوبي وقال آخر بل هي مكة وقال
رابع بل كانوا يستقبلون النجم الذي اليه يصلون * قلت ولعل الصحيح في ذلك أنهم لم يكونوا في
أمر القبلة على سنن واحد * وكانوا يحجون على مقربة من حوران بالجزيرة وهي ما بين
النهرين ويعظمون الكعبة وأهرام منف زاعمين أن الأهرام مقابر شيث وابنييه ادريس
وصابئ ويزعمون أن هؤلاء وضعوا دين الصابئية فكانوا يتقربون عند تلك الأهرام بجعل أسود
وديك ويحرقون شيئا من البخور وكانوا يقولون أنهم انما سموا بالصابئة نسبة الى صابئ ولد
شيث المذكور والمرجح عند بعض أهل التاريخ أنهم سمو بهذا الاسم من لفظ صبأت
أوصباءوت يعنى الجنود السماوية لعبادتهم اياها ويسمهم أيضا أهل السياحة بنصارى مارى
يوحنا المعمدان وهم يدعون ذلك أيضا ولهم ضرب من المعمودية تشبهه معمودية النصارى
ولذلك كان العرب الآخرون يسمونها المغتسلة ويقال ان هذا الدين هو أحد الأديان التي
تغاضى عنها صاحب النريعة الاسلامية بشرط أداء الجزية * ومن أديانهم اليهودية أيضا

في حمير وكنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة وأما النصرانية فكانت قد انتشرت فيهم وتمكنت
 تمكنا قال الفيروزآبادي واجتمعت على النصرانية قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة وهم
 العباد وتنصر كثير من ملوك اليمن والحيرة وكذا كان ملوك غسان كلهم نصارى وكانت
 النصرانية في ربيعة وقضاة و بهر وتوخ وتغلب وبعض طيى وكانت قريش نصبت في جلة
 أصنامها في الكعبة تمثل مريم العذراء أم عيسى المسيح مزوقا وابنها عيسى في حجرها قاعدا
 وذلك في العمود الذى يلي باب الكعبة ولم تطمس صورتها لما دخل صاحب الشريعة الكعبة
 بل بقيتا الى عهد ابن الزبير فاحترقنا في الحريق ذكره النويرى والازرقى * ومن أصنامهم
 أيضا إساف في صورة رجل ونائلة في صورة امرأة جرى بهما من الشام ووضع أحدهما في
 الصفا والآخر في المروة وزعم العرب أنهما جرهميان وان إسافا هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل
 ففجرا في الكعبة فسجنهما الله تعالى ججرين ذكره ابن الجنبى

(الفصل الثالث)

(في علوم العرب وآدابهم)

وكان العرب يفاخرون بعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب وكانوا
 موصوفين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان وكانت لهم
 مع ذلك معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وأمطارها على حسب
 ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لاعلى
 طريق تعلم الحقائق وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله سبحانه شيئا منه ولاهيا طباعهم للعناية
 به وكان الشعرديون خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها
 والشاهد على حكامها به يأخذون واليه يصيرون وكانوا لا يهتئون الا بغلام يولد أو شاعر ينبغ
 فيهم أو فرس تنتج * قال الصقدي بل ما كان للعرب ما تفخرو به الا السيف والضيف
 والبلاغة * وكانوا كل حول يتقاطرون الى سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون
 ويتعاكظون ولقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد من
 الشعر القديم فكتبها بجماء الذهب في القباطى المدرجة فقبل لها مذاهب ويقال لها أيضا
 معلقات لانها علفت في أستار الكعبة * وكان أسلوبهم في الخطابة مخالفا لخطباء الروم
 واليونان والفرس فكانت فقراتهم مثل الجواهر المنثورة لا ارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت
 أكثر ما تروى مستعجبا بتبريزهم على غيرهم في هذا الاسلوب فكانوا يزعمون أنه ليس في
 الامم كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب ويتلوهم الفرس

وكانت عكاظ التي يتفانرون باشعارهم في سوقها قريية بصعراء بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة وكان لها سوق أسبوعية يوم الاحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر موسمها عشرين يوما تجتمع فيها قبائل العرب فيتمتعوا كظنون أى يتفانرون ويتناشدون قالوا وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون في هذه الاسواق ويتباينون وكانت فرسانهم اذا كانت سوق عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا أن يتقنعوا حتى لا يعرفوا وان كانت هذه السوق يؤذن فيها بالتعامل والاخذ والعطاء الا أنه كان الغرض الاهم منها اجتماع خول الشعراء والفضهاء والبلغاء من أهل العربية لابتداء نتاج أفكارهم واطهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ في ذلك مثل سوق ذى المجاز خلف عرفات ولهم أسواق أخر غير هذه ولكنها كانت غاية في المهابة والاحترام يزورهم فيها الشعراء من كل صوب وحذب فيقوم الشاعر منهم ويبرز في الميدان وأرباب المجلس ثابتون في أماكنهم فينشد الاشعار من قريضة وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فم بمجرد النطق بها فيحفظونها عن ظهر قلب

وكان أول ما يبرز الشاعر يظهر بظهور الشجاعة والحماس ويتمشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والاعجاب ليحقق من حماس بنات فكره ثم يصعد الى مرتفع فينشد بصوت جهورى قصيدته بتمامها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة بالبدية وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهياها لينشدها في الجمع ولكن كان الغالب على خول شعرائهم أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لا يقدر غيرهم على الاتيان به ومنهم من كان بخلاف ذلك كما روى عن زهير بن أبى سلمى أنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ويهذبها بنفسه في أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه في أربعة أشهر ثالثة فلا يشهرها حتى يأتي عليها حول كامل ولذلك كانت تسمى قصائده بالحوليات ومع هذا فقد قيل انه كان أشعر الجميع * وكان اذا فرغ الشاعر من الانشاد أمعن الحاضرون النظر في شعره فاما أن يستحسنوه واما أن يعيبوه

وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة ثم يعود الى اتمام انشاده بهمة ونشاط ويجلى عن بنات أفكاره فرائد فيكتب في ذلك المحفل ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة الى هذا الحين وقد مضى عليها أجيال طويلة وكان يجتمع بسوق عكاظ أيضا سادات العرب وملوكهم ورؤساء قبائلهم وعرفاؤهم وكان لمدح الشعراء وقدحهم تأثير في النفوس يترتب عليه كثير من الامور الخطيرة كالحقض والرفع والاعزاز والاذلال وغير ذلك * قيل ان الاعشى كان يأتي عكاظ في كل سنة فمر على بنى كلاب وكان المحلق الكلابي فقيرا خامل الذكرو له بنات لم يخطبهن أحد من الأزواج رغبة عن أبيهن لفقره فقالت له امرأته ما يمنعك يا ابن كلاب من التعرض لهذا الشاعر والتعرف به واكرامه فما رأيت أحدا آواه اليه وجذبه الاوأ كسبه خيرا فقال ويحك

ما عندي الاناقتي فقالت الله يحلقها عليك فتلقاه قبل أن يسبق اليه أحد من الناس وكان
الاعشى بصيرا وله ابن يقوده فأخذ المحلق بمخاطم نافة الاعشى فقال الاعشى من هذا الذي
غلبنا على خطامنا فقيل المحلق فقال شريف كريم ثم سله ابنه اليه فأنزله ونحمله المحلق ناقته
وأحاطت به بناته يخدمونه فقال ماهذه الجوارى حولي قال بنات أخيك وهن ثمان نصيبن
قليل فقال الاعشى هل لك حاجة قال المحلق تشيد بذكرى فعلى أشهر فخطب بناتي فنهض
الاعشى من عنده ولم يقل فيه شيئا فلما وافى سوق عكاظ اذ هو بمكان قد اجتمع الناس عليه
فأنشد قصيدته القافية التي منها

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار باليقاع تحترق

تشب لمقرورين يصطليانها * وبات على النار الندى والمحلق

فاشتهرت هذه الابيات في العرب وما أتت على المحلق سنة حتى زوج البنات وكانت
تضرب للنابغة الذبياني قبة جحرا من آدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها وأول
من أنشده الاعشى ثم أنشدته الخنساء فكان للنابغة التقدم على جميع شعراء عصره وهو من
خول الطبقة الاولى المقدمين على سائر الشعراء قال رباعي بن خراش قال لنا عمر رضى الله عنه
يامعشر غطفان من الذي يقول

أنتك عاريا خلقا ثيابي * على خوف تظن بي الظنونا

قلنا النابغة قال ذلك أشعر شعرائكم وقال عمر بن المنتشر المرادي وقدنا على عبد الملك
ابن مروان فدخلنا عليه فقام رجل فاعتذر اليه من أمر وحلف عليه فقال له عبد الملك أما
كنت سريرا أن تفعل ولا تعتذر ثم أقبل على أهل الشام فقال أيكم يروى من اعتذار النابغة
الى النعمان

حلفت فلم أترك لنفسي ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فأقبل على فقال أترويه قلت نعم فأنشده القصيدة كلها فقال
هذا أشعر العرب وكان الشاعر المجيد يحسب نخرا لقبيلته وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر
صنعت الاطعمة وأنت القبائل فهنأتها بذلك واجتمعت النساء يضررن بالمزاهر كما يصنعن
في الاعراس وتبشرون الرجال والولدان لانه يكون حياية لاعراضهم وذودا عن أحسابهم وتخليدا
لما ترهم وصيانة لنسائهم وإشادة بذكرهم ذكره ابن رشيقي في العدة * وكان العرب اذا أتوا
الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل دخولهم في السوق ومن لم يضع
سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل وكانت هذه السوق أيضا مجمع مكارم الاخلاق كما كانت
بجمع الفصاحة والفروسية فقد حكى أن عامر بن الطفيل العامري التجدي أحد أنتراف
الشعراء كان ينادى مناديه في هذه السوق هل من راحل فنحمله أو جائع فطعمه أو خائف
فتموته ومن شعره

فاني وان كنت ابن فارس عامر * وسيدها المشهور في كل موكب

فما سؤدتني عامر عن ورائته * أبي الله أن أسمو بأب ولا أب
ولكنني أحى جاسعا وأتقى * أذاها وأرحى من رماها بمنسكب

وكانت أيضا هذه السوق في أيام هذا الموسم كديوان ملوك العرب فقد كان بعض ملوكهم يأخذ مالهم من الاناوة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم مثل جذيمة العبسي فانه كان يأخذ الاناوة من هوازن في هذه السوق فاذا تأخروا هتدهم بالحرب وكانت العرب تقيم بهذه السوق شهر شوال جميعه أو عشرين يوما منه ثم تنتقل من تلك السوق بعد انقضاها الى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوما من ذي القعدة ثم تنتقل منها الى سوق ذى المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج * وكانت هذه السوق أيضا من مسيبتات القتال بين العرب كما وقع ذلك في الفجار الاول والفجار الثاني روى أن سبب الفجار الاول أن بدر بن معشر الغفاري كان له مجلس يجلس فيه في سوق عكاظ ويقفخ على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل من أشرف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقتلوا وسبب الفجار الثاني أن امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من فريش من بني كنانة فسألها أن تكشف عن وجهها فأبت فجلس خلفها وهي لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس وقيل لها قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يا بني كنانة فثاروا كذلك فقامت الحرب بين الفريقين على سافها ثم جاز ثالث ثم رابع قيل ان صاحب الشريعة الاسلامية شهد هذا الفجار وهو في الرابعة عشرة من عمره وقد خرج مع عمومه ورمى فيه بالنبل رواه ابن سعد

وأما الكتابة فقد حكوا أن ثلاثة نفر من طيء وكانوا على دين المسيح وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فنظمه قوم من الانبار وجاء الاسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر انسانا ولقلة القراطيس عندهم عمدوا الى كنف الحيوان فكتبوا عليها وكان الناس فرقتين أهل كابة وأميون والأمى من لا يعرف الكتابة فكان اليهود والمسيحيون بالمدينة والاميون وهم الوثنيون بمكة

وأما الطب عندهم فقد كانت معارفهم فيه قليلة جدا وكانت تغلب عليهم التجربة والاستقراء أو التقليد أحيانا وكان المشهور من أطبائهم رجل يقال له لقمان بن عاد يزعمون أن أباه عاد بن الحسين بن عاد بن عوص بن اران بن سام بن نوح وان لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وذلك عمر سبعة أنسر ثم آخر من تيم الرباب اسمه ابن حزيم ويضربون به المثل بالحدافة في الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك أطب من ابن حزيم وهو أطب العرب عندهم ويفضلونه على الحرث قال أوس بن حجر

فهل لكم فيها الى فاني * بصير بما أعيا النطامي حزيمًا

أما الحرث المذكور فهو الحرث بن كلاة من بني تقيف من أهل الطائف رحل الى أرض

فارس وأخذ الطب عن أهله بجند يسابور وغيرها في الجاهلية وطب في أهل فارس وحصل
 مالا ثم تآقت نفسه الى الرجوع الى بلده فرجع وقيل انه مات سنة ثلاث عشرة للهجرة
 وقيل سنة عشرين مسموما * ومن أطباؤهم أيضا ابن أبي رومية التميمي وكان معاصرا
 للحرث المذكور ونصر بن الحرث بن علقمة بن كلاة بن عبيد مناف بن عبيد الدار بن قصي
 كان من الجاهلية أخذ أسيرا يوم بدر فقتل وهؤلاء كانوا أشهر أطباء العرب في الجاهلية وقد
 بقي من كلامهم في الطب ما قاله لقمان بن عاد المتقدم كل داء حسم بالكي ولذلك قالوا في
 أمثالهم * آخر الطب الكي * وما قاله الحرث بن كندة أيضا من سره البقاء ولا بقاء
 فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء قال بعضهم يريد بخفة الرداء
 ان لا يكون عليه دين ومن أنواع معالجتهم أيضا معالجة الاحول بادامة النظر الى حجر
 الرجي في حال دورانها يزعمون ان العين تستقيم به ويعالجون الخدر وهو التشنج الذي يعتري
 الاعضاء فلا تطيق الحركة بأن يدعو صاحبه أحب الناس اليه قال بعضهم وعليه قول بعضهم
 يخاطب محبوبته

رأى الله ياسلمى حياتي * وفي يوم الحساب كما أراك

الى كم تمجرين في معنى * اذا خدرت له رجل دعالك

فلما جاء الاسلام اتسع نطاق الطب وعلت منزلته وتعلمه الكثير من العرب عن علماء
 النصرانية واليهودية والفارسية ونبغوا فيه ونفسي بينهم
 وأما السيف والفروسية فقد كانوا غاية في التمرن عليهما والندب اليهما وذلك لكثرة ما كان
 يشجر بينهم وكانوا يقولون ان الله ميزهم باربعة ابدلهم العمام من التيجان والخيام من الدور
 والحدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع ولم يكن لهم في الجاهلية لعلم
 العروض قانون يضبط قواعده ويقرر احواله وانما هم ذلك بعد ظهور صاحب الشريعة
 الاسلامية يوضع سنين اى حينما ظهر الخليل بن أجد الفراهيدي في خلافة الرشيد العباسي
 ودون أصول العروض * روى الصقدي أن عروضا بمصر يدعى أبا جعفر جلس يوما عند
 مقياس النيل في سنة لم يرتفع الماء فيها كعادته وكان لذلك يخشى القحط فيها فأخذ ذلك
 العروضي يقطع يات شعر على تفاعله فربه رجل لم يفهم قصده من هذا التقطيع فظن أنه
 يتلوسحرا على الماء حتى لا يرتفع فتدفعه في النيل فغرق

(الفصل الرابع)

(فيما كانت عليه قریش قبل الاسلام)

اجتمعت كلمة جماعة من أصحاب التاريخ على أن قریشا في الجاهلية احتصوا بكثير من

المزايا منها أن اللسان العربي العذب الفصيح الذي نطقت به فحول الخطباء والشعراء هو لسان قريش ومنها أنهم كانوا سكان بيت الله الحرام ولذلك كانوا دائما آمينين في امتبارهم وتنقلاتهم في رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخطفون من حولهم فاذا عرض لهم عرض عارض قالوا نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد وكان هاشم يؤلف الى الشام وعبد شمس الى الحبشة والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار بمجال هؤلاء الاربعة الاخوة ولا يتعرض لهم أحد وكان كل أخ منهم قد أخذ جبلا من ملك ناحية سفره امانا له كالاجازة وكانت قبائل قريش قبيل ظهور قصي بن كلاب متفرقة في البوادي فجمعها وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل هذا التجميع النضرين فكانت فلما جمعهم وأسكنهم في البيت سمو قريشا من التقریش وهو التجميع * وقال بعضهم انما سميت قريش قريشا لدابة في البحر هي أعظم دواب البحر خطرا لا تنظر بشيء من دواب البحر الا اكلته فسميت قريش قريشا لانها أعظم العرب فعلا وأعزهم جابا

قال بعض أصحاب التاريخ وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصي لتكون مجلس القوم نهارا يجلسون فيها للشاورة في الامور المهمة فلم يكن لهم امر مهم الا اجتمعوا فيها وقصي هو الذي بنى المسجد الحرام بأشراف المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسمى مشعرا وأمروا بالوقوف عنده وتم لقريش في ذلك العهد أن صارت لهم الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة * قالوا فالحجابة هي سدانة البيت الحرام أى تولية مفتاح بيت الله * والسقاية سقى الحاج كلهم الماء العذب وكان نادرا بمكة يجلب اليها من الخارج لسقاية الحاج بل ويتسبد لهم التمر والزبيب للشرب أيضا * وأما الرفادة فهي اطعام الطعام لسائر الحجاج فكانت تمتد لهم الاسمطة في أيام الحج * وأما الندوة فهي المشورة فكان يجتمع فيها من قريش وغيرهم من العرب من أهل الرئاسة من بلغ في العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد نكاح لقريش الا فيها * وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الاعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاوتون عندها * والقيادة امارة الجيش ورئاسة الحرب * قيل كانت هذه المناصب كلها لقريش وانتهت الى عشرة ابطن منها وبقيت لهم في الاسلام أيضا والعشرة الابطن هم هاشم وأميمة ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجح وسهم قالوا فكان من بني هاشم العباسيون وعبد المطلب يسقى الحج وبقي له ذلك في الاسلام ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وكانت اذا حفظت عند رجل أخرجها اذا حجت الحرب فان اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه * ومن بني نوفل الحرث ابن عامر وكانت اليه الرفادة وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج * ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة له اللواء والسدانة أى خدمة الكعبة مع الحجابة ويقال والندوة أيضا في بني عبد الدار * ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك أن

رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخيروا وكانوا له أعوانا واستشهد يزيد المذكور وهو مع صاحب الشريعة بالطائف * وكان من بني تيم أبوبكر الصديق وكانت اليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والمغرم وكان اذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا جملة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه * ومن بني مخزوم خالد بن الوليد وكانت له القبة والاعنة فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجتمعون اليها ما يجهزون به الجيش وأما الاعنة فانه كان على خيل قريش في الحرب * ومن بني عدى عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وذلك أنهم كانوا اذا وقعت بينهم حرب يعنوه سفيرا وان نافرهم في المفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به * ومن بني جح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار والازلام فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي تسيره على يديه * ومن بني سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المنجزة التي سموها لاصنامهم قالوا فهذه الوظائف كلها كانت في قريش على النحو المذكور

وكان لبني هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم يكونوا ليرضوا في الجاهلية أن يملك عليهم ملك فاذا حدثت لهم حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضره صغيرا كان أو كبيرا وأمره وبالنفر للحرب * وكان للعرب جميعا في الجاهلية كثير من العوائد والاوابد وكانوا ينزلونها منزلة عظمي ويتنافسون في تعظيمها فمنها البعيرة والسائبة والوصيلة والحام والنجر والميسر والانصاب والازلام وواد البنات والرفادة في الحج (أما البعيرة) فهي ناقة كانت اذا نتجت خمسة أبطن وكان الاخير ذكرا يجرها أذنها أي شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمتع من ماء ولا مرعى (وأما السائبة) فهي أن الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلا يبقى بينهما عقد ولا ميراث (وأما الوصيلة) فتكون في الغنم فاذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وان ولدت ذكرا جعلوه لاصنامهم فان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أحاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم (وأما الحام) فهو الذكر من الابل كان اذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا حتى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمتع من ماء ولا مرعى (وأما النجر) فهو ما حامر العقل ومنه سميت النجر خرا وكان باعة النجر في الجاهلية ينصبون رايات ليعرف مكانهم بها ويسمونها الغاية وكان العرب يفتخرون بشربها وبالمقاهرة أيضا لانها من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تنافسهم في شرب النجر درجة يستدل عليها بما فعله أبوغبشان من بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر كما تقدم بيان ذلك في محله وما زالت هذه العوائد مرعية بينهم مألوفة في مذهبهم حتى ظهر صاحب الشريعة الاسلامية محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي وكان من أمر تحريمها والنهي عنها مالا موضع لذكروه هنا الآن

(المقالة الثانية)

(فيما كان بظهور الاسلام وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(في ظهور صاحب الشريعة الاسلامية)

قال أهل التاريخ وابن اسحق عن قيس مخزومة وقفات بن أثيم وابن عباس ان صاحب الشريعة الاسلامية ولد عام الفيل وقال ابن الكلبي ولد عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم لاربعة وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وأربعين من سلطانه وأرسله الله لمضى اثنتين وعشرين من ملك كسرى ابرويز بن كسرى هرهم بن كسرى أنوشروان وهاجر لاثنتين وثلاثين سنة مضت من ملك ابرويز * وقال ابن اسحق ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الاول وكان مولده بالدار التي تعرف بدار ابن يوسف قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبها عقيل بن أبي طالب فلم تزل في يده حتى توفي فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج فبني داره التي يقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجه الخيزران فجعلته مسجدا يصلى فيه * وقيل ولد لعشر خلون منه وقيل ليلتين خلتا منه * وأول من أرضع صاحب الشريعة ثوية مولاة أبي لهب بلبن ابن له يقال له مسروح وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الاسد المخزومي فكانت ثوية تأتي صاحب الشريعة بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها وتكرمها خديجة فأرسلت الى أبي لهب أن يبيعها اياها لتعتقها فأبى فلما هاجر صاحب الشريعة الى المدينة أعتقها أبولهب قال ثم أرضعت صاحب الشريعة بعد ثوية المذكورة حليلة بنت أبي ذؤيب واسمها عبدالله بن الحرث بن شجينة من بنى سعد بن بكر بن هوازن واسم زوجها الحرث بن عبيد العزى واسم اخوته صلى الله عليه وسلم من الرضاة عبدالله وأنيسة وخدامة وهي الشيماء عرفت بذلك وكانت الشيماء تحضنه مع أمه حليلة وودته حليلة الى أمه وجدته عبد المطلب وعمره خمس سنين في قول اه قال ابن اسحق هلك عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به * وقال ابن هشام توفي عبد الله أبو رسول الله بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون يوما * وقال الواقدي ثبت عندنا أن عبد الله بن عبد

المطلب أقبل من الشام في غير قريش وزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفي ودفن في دار النابتة الصغرى * وقال ابن اسحق وتوفيت آمنة وله صلى الله عليه وسلم ست سنين بالابواء بين مكة والمدينة كانت قدمت به المدينة على أخواله من بني النجار تزورهم فماتت وهي راجعة * وقيل ان عبد المطلب زار أخواله من بني النجار وحل معه آمنة وصاحب الشريعة فلما رجع توفيت بمكة ودفنت في شعب أبي ذر قيل والاول أصح * ولما سارت قريش الى أحد يعني الى حرب أحد وقلوبهم تلتب غيظا من صاحب الشريعة وهم في أشد ما يكون من النكايه به هموا باستخراج آمنة من قبرها يعني بنبشه فقال بعضهم ان النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائككم فكفوا بهذا القول وقال ابن اسحق وتوفي عبد المطلب ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن ثمان سنين وقيل ابن عشر سنين اه ولما مات عبد المطلب صار صاحب الشريعة في حجر عمه أبي طالب بوصية من عبد المطلب اليه بذلك لما كان يرى من بره به وشقيقته وحنوه عليه وأما نسبه وأخبار آبائه وأجداده فهو محمد بن عبد الله ويكنى عبد الله أبو قحطم وقيل محمد وقيل أحمد بن عبد المطلب وكان عبد الله أصغر ولد أبيه فكان عبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزيبر وعبد الكعبة وعاتكة وأميمة وبرة ولعبد المطلب أمهم جميعا فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة وكان عبد المطلب نذرحين لقي من قريش العنت في حفرة زمزم أنه إن ولله عشرة نفر وبلغوا معه حتى يمنعهو لينخرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم يمنعهو أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا كيف نضع قال يأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ففعلوا وأتوه بالقداح فدخلوا على هبل في جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم وهو على بئر يجمع فيه ما يهذى الى الكعبة وكان عند هبل سبعة قداح في كل قدح كتاب فقدح فيه العقل اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة وقدح فيه نعم للامر اذا أرادوه يضرب به فان خرج نعم عملوا به وقدح فيه لا فاذا أرادوا أمرا ضربوا به فاذا خرج لا لم يفعلوا ذلك الامر وقدح فيه منكم وقدح ملصق وقدح فيه من غيركم وقدح فيه المياه اذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به * وكانوا اذا أرادوا أن يتخسنا غلاما أو ينكحوا جارية أو يدفنوا جثة أو شكوا في نسب أحد منهم ذهبوا به الى هبل وبمائة درهم وجزور فاعطوها صاحب القداح الذي يضربها ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ثم قالوا يا الهنا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح اضرب فيضرب فان خرج عليه منكم كان وسيطا وان خرج عليه من غيركم كان حليفا وان خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لانسب له ولا حلف وان خرج عليه شيء سوى هذا مما يعملون به فان خرج نعم عملوا به وان خرج لا أخره عامهم ذلك حتى يأتيه به مرة أخرى ينتهون في أمورهم الى ذلك مما خرجت به بالقداح وقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على بنتي هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره

الذي نذر وكان عبد الله أصغر بن أبيه وأحبهم اليه فلما أخذ صاحب القداح يضرب قام
عبد المطلب يدعوا لله تعالى ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح على عبد الله فأخذ عبد
المطلب بيده ثم أقبل الى اساف وفائلة وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما فقامت
قريش من أنديةها فقالوا ما تريد قال أذبحه فقالت قريش وبنوه والله لا تذبحه أبدا حتى
تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتى يذبحه فقال له المغيرة بن عبد الله
ابن عمرو بن مخزوم والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فان كان فداؤه بأموالنا فديناه وقالت له قريش
وبنوه لا تفعل وانطلق الى كاهنة بالبحر فسلها فان أمرتك بذبحة وان أمرتك بمالك
وله فيه فرج قبلته فانطلقوا اليها وهي بخير فقص عليها عبد المطلب خبره فقالت ارجعوا
اليوم حتى يأتيني نأبي فأسأله فرجعوا عنها ثم غدوا عليها فقالت نعم قد جاءني الخبر فكم
الدية فيكم قالوا عشر من الابل وكانت كذلك قالت ارجعوا الى بلادكم وقرّبوا عشرا من
الابل واضربوا عليها وعليه بالقداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا عشرا حتى يرضى ربكم
وان خرجت على الابل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى أتوا مكة فلما
اجتمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعوا لله ثم قرّبوا عبد الله وعشرا من الابل فخرجت القداح على
عبد الله حتى بلغت الابل مائة ثم ضربوا فخرجت القداح على الابل فنحرت ثم تركت لا يصد
عنها انسان ولا سبع

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بأمنة ابنة وهب أم صاحب الشريعة فإنه لما
فرغ عبد المطلب من الابل انصرف بابنه عبد الله وهو أخذ بيده وخرج به حتى أتى وهب
ابن عبد مناف بن زهرة وهو سيد بن زهرة فزوجه ابنته أممنة بنت وهب وهي ليرة بنت
عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي وبرة لام حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي
وأم حبيب ليرة بنت عوف بن عبيد بن عريج بن عدى بن كعب فدخل عبد الله عليها حين
أملكها مكانها فحملت بمحمد صاحب الشريعة الإسلامية * وقال الزهري أرسل عبد المطلب
ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم عمرا فمات بالمدينة وقيل بل كان بالشام فأقبل في غير قريش
فقتل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ودفن في دار النابغة الجعدي وله خمس وعشرون سنة
وقيل ثمان وعشرون سنة وتوفى قبل أن يولد له محمد صلى الله عليه وسلم وهو محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر
ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان
اه وكانت وفاة عبد المطلب بعد الفيل بثمان سنين أعني بعد حرب الفيل بثمان سنين
وأوصى أبا طالب بمحمد فكان أبو طالب هو الذي قام بأمره بعد جدّه ثم ان أبا طالب خرج
الى الشام فلما أراد السير لزمه صاحب الشريعة فرقه وأخذته معه وله يومئذ تسع سنين
ثم عادا معا الى مكة فلما بلغ الخامسة والعشرين تزوج خديجة بنت خويلد وهي يومئذ ابنة
أربعين سنة وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأكثرهن مالا وشرفا فولدت له أولاده كلهم الا

ابراهيم وهم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى وعبدالله والطاهر والطيب فلما بلغ الاربعين من عمره دعا الناس الى الاسلام وأخذ يندرهم بعذاب الله وينهاهم عما هم فيه من عبادة الاوثان * قال ابن اسحق وكان يذكر ذلك سرا الى من يطمئن اليه من أهله فكان أول من آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد وزوجته اه فتبعه نفر وكانوا اذا أرادوا الصلاة ذهبوا الى الشعاب فاستخفوا فبينما سعد بن أبي وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعد بن زيد يصلون في شعب اذا اطلع عليهم نفر من المشركين منهم أبو سفيان بن حرب والخنس بن شريق وغيرهما فسبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جعل فشجه قيل فكان أول دم أريق في الاسلام

وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم لما أنزل الله على رسوله وأنذر عشيرتكم الاقربين اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعا فجلس في بيته كلريض فأتته عماته يعسدنه فقال ما اشتكيت شيئا ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الاقربين فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير محبيك فدعاهم صلى الله عليه وسلم فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلا فبادره أبو لهب وقال هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصبابة يعني الخروج عن عبادة الاصنام * واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وان أحق من أخذك ففسدك بنو أبيك وان أقت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وعدهم العرب فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم في ذلك المجلس اه

ولبت يدعو الناس سرا ثلاث سنين ثم ظهر ونادى قومه بالاسلام قيل فلم يبعثوا منه ولم يردوا عليه الا بعض الرد حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أبجعوا على خلافه وحذب عليه عه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى صاحب الشريعة على ما هو عليه فلما رأت قريش أنه لا يعيتهم من شيء يكرهونه وان أبا طالب قد قام دونه ولم يسلم لهم مشى رجال من أشرفهم الى أبي طالب عتبه وشيبة ابنا ربيعة وأبوسفيان صخر بن حرب وأبو البختري بن هشام والاسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل وبنيه ومنبه ابنا الحجاج أو من مشى منهم فقالوا يا أبا طالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أعلامنا وضلل آباءنا فاما أن تكفه عنا واما أن نخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولا جيلا وردهم ردا رفيقا فانصرفوا عنه ومضى محمد لما هو عليه ثم سرى الامر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثر قريش من ذكر محمد وما يأتيه في كل يوم وقد تآمروا فيه ومشوا الى أبي طالب مرة أخرى وطلبوا أن يخلي لهم عنه والا قاتلوا حتى يهلك أحد الفريقين فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له فبعث الى صاحب الشريعة فاعلمه ما قالت قريش وقال له أبق على نفسك وعلى ولا تخملي من

الامر مالا أطيق ثم ان قريشا اشتدت على من في القبائل من الصحابة الذين أسلموا فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويقتلونهم عن دينهم وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم الى منع محمد فأجابوا الى ذلك واجتمعوا اليه الا ما كان من أبي لهب عم صاحب الشريعة واشتد القوم على من أسلم فجعلوا يحسونهم ويضربونهم ويعذبونهم بالجويع والعطش ورمضاء مكة والنار ليقتلوه واشتد أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب على صاحب الشريعة شدة بالغة وكذلك اشتد على المسلمين وكان عظيم التكذيب لصاحب الشريعة دائم الاذى فكان يطرح العذرة والنتن على باب محمد وكان جاره فكان محمد يقول أي جوار هذا يا بني عبد المطلب

ولما رأى صاحب الشريعة ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من الشدة وانه لا قبل له بمنع خصومه وقد كثروا جمع اليه المسلمين وقال لهم لو خرجتم الى أرض الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا نخرجوا جميعا مهاجرين فكانت أول هجرة في الاسلام نخرج عثمان وزوجته رقية ابنة صاحب الشريعة معه وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته معه سهلة بنت سهيل والزبير بن العوام وغيرهم ثمانية عشر رجلا وقيل أحد عشر رجلا وأربع نسوة قيل وكان سيرهم في رجب سنة خمس من نبوة صاحب الشريعة قالوا وهي السنة الثانية من اظهار الدعوة فأقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس المذكورة ولكن لم يدخل أحد منهم الى مكة الا بجوار أو مستخفيا فدخل عثمان في جوار أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية فأمّن بذلك ودخل أبو حذيفة بن عتبة في جوار أبيه ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة وأقام المسلمون بعد ذلك بمكة يؤذون فلما اشتد بهم الحال رجعوا مهاجرين الى الحبشة ثانية نخرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون الى الحبشة فأكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلا وصاحب الشريعة مقيم بمكة على ما هو عليه من دعوة الناس الى الاسلام ولم يقو الاسلام قليلا الا بدخول حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فيه وقد اختلف الرواة في سبب اسلامهما ولا سيما عمر فقال بعضهم قال عمر لما أسلمت أتيت باب أبي جهل بن هشام فضربت عليه بابي نخرج الى وقال مرحبا يا بني أخي ما جاء بك قلت جئت لأخبرك أني قد أسلمت وأمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقت بما جاء به قال فضرب الباب في وجهي وقال فبكم الله وقبح ما جئت به ولما رأت قريش الاسلام يفسدو يزيد اثمروا في أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ولا ينكحوا اليهم ولا يبيعوهم ولا يتاعوا منهم شيئا فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا لذلك الامر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك المحاز بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا وخرج من بنى هاشم أبو لهب بن عبد المطلب الى قريش فلقى هندا بنت عتبة فقال كيف رأيت نصرى اللات والعزى قالت لقد أحسنت فأقاموا على

ذلك سنتين وقيل ثلاثا حتى جهد المسلمون فكان لا يصل الى أحد منهم شيء الاسرا وكانوا نازلين بالشعب مع صاحب الشريعة ثم قام بعد ذلك نفر من قريش في نقض الصخيفة وشقوها فخرج المسلمون من الشعب وبعث خروجهم بقليل مات أبو طالب فعظمت مصيبتة على صاحب الشريعة واشتدت قريش بعد موته على صاحب الشريعة شدة بالغة ونالت منه حتى كان ينثر بعضهم التراب على رأسه وبعضهم كان يطرح عليه رحمة الشاة وهو يصلي وغير ذلك من الايذاء فلما اشتد عليه الأمر خرج ومعه زيد بن حارثة الى ثقيف يلتمس منهم النصر فلما انتهى اليهم عمد الى ثلاثة نفر منهم هم يوشذ سادة ثقيف وهم عبد باليل ومسعود وجيب بن عمرو بن غير فدعاهم الى الاسلام وكلهم في نصرته والقيام معه على من خالفه فلم ينصروه وقد سخروا به وأغروا به سفهاءهم فاجتمعوا عليه وألقوه الى حائط (١) لعنة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه ثم رجع السفهاء عنه وعاد هو الى مكة فجعل يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب فلم يبق منهم أحد لنصرته

(الفصل الثاني)

(في هجرة صاحب الشريعة وفي غزواته وما وقع له بعد ذلك)

واشتد القوم بمكة على صاحب الشريعة وكان معه علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وخافت قريش خروجه من مكة وما يكون من وراء ذلك فاجتمعوا في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب وتشاوروا فيها فتقررت القاعدة بينهم على قتله وقد علم صاحب الشريعة بذلك فخرج من مكة ولم يشعر به أحد وخرج معه أبو بكر من خوخة في بيت أبي بكر ثم عمدا الى غار ثور فدخله وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلا فكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما في الغار ثلاثا وجعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتابهما دليلهما وهو وثني اسمه عبد الله بن أرقط كانوا قد استأجروه ليدلهم على الطريق يغيريهما فربكا وأردف أبو بكر مولاه عاصم بن فهيرة ليخدمهما في الطريق وساروا قاصدين المدينة فمزقوا بها وكان علي قد تخلف عنهم بمكة ليؤدى الودائع لاربابها فلما أداها وافاهم الى المدينة بعد ثلاث ولحق بهم من أسلم فلما كان بعد سبعة أشهر عقد صاحب الشريعة لعمه حمزة لواء أبيض في ثلاثين رجلا من المهاجرين ليتعرضوا لعير قريش فلقى أبا جهل في ثلاثمائة رجل فجز بينهم مجسدي ابن عمرو الجهني وكان يحمل اللواء أبو مرثد وهو أول لواء عقده ثم عاد فعقد لواء لعبيدة بن الحرث بن المطلب وكان أبيض يحمله مسطح بن أثانة فالتقى هو والمشركون فكان بينهم

(١) الحائط هو البستان

الرحى دون المسابقة فخرج من الفريقين ثم عقد لواء ثالثا لسعد بن أبي وقاص وسيره الى الابواء وكان يحمل اللواء المقداد بن الاسود وكان مسيره في ذى القعدة وجميع من معه من المهاجرين فلم يلق حربا (جعل الواقدي هذه السرايا جميعها في السنة الاولى من الهجرة) وجعلها ابن اسحق في السنة الثانية فقالا على رأس اثني عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة خرج غازيا واستخلف على المدينة سعد بن عباد فبلغ ودان يريد قريشا وبني ضمرة من كنانة وهي غزاة الابواء بينهما ستة أميال فوادعتهم فيها بنو ضمرة ورئيسهم مخشى بن عمرو ثم رجع الى المدينة ولم يلق حربا اهـ وذكر ابن اسحق بعد هذه الغزوة غزوة عبيدة بن الحرث ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب وابنتي في هذه بالمدينة مسجدا ودارا لسكناء في قطعة أرض كانت قبل ذلك مریدا وقيل مقبرة وكانت في ملك يتيمن يقال لهما سهل وسهيل ابنا عمرو فاستراها صلى الله عليه وسلم منهما ثم ان المدينة كانت تسمى يثرب قبل استيطان صاحب الشريعة بها ثم سميت بالمدينة بعد استيطانها

وخرج صاحب الشريعة بعد ذلك يريد غزاة بواط في مائتين من أصحابه في شهر ربيع الآخر يعني سنة اثنتين يريد قريشا حتى بلغ بواط من ناحية رضوى وكان في غير قريش أمية ابن خلف الجمحي في مائة ومعهم ألفان وخمسمائة بعير فرجع ولم ينل منهم وكان حامل اللواء في هذه الغزوة سعد بن أبي وقاص وقد كان استخلف على المدينة قبل خروجه منها سعد بن معاذ ثم غزا غزوة العشرة من يبع في جادى الاولى يريد قريشا حين ساروا الى الشام فلما وصل العشرة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ورجع ثم غزا غزوة أخرى ليست من الالهية بشئ * وزوج علي بن أبي طالب فاطمة في صفر من السنة الثانية * وفي هذه السنة في شهر رمضان منها في سابع عشره وقيل ناسع عشره كانت غزوة بدر الكبرى وسيبها قتل عمرو بن الحضرمي واقبال أبي سفيان بن حرب في غير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلا أو أربعون وقيل قريب من سبعين رجلا من قريش منهم مخزومة ابن نوفل الزهري و عمرو بن العاص فمات فيها كثير من قريش وانهمزت قريش شر هزيمة ولما كان لهذه الغزوة ذكر مشهور في التاريخ رأيت أن أنلص خبرها هنا * خرج أبو سفيان متاجرا الى الشام في ألف من غير قريش فسمع به صاحب الشريعة ومن معه من الانصار والمهاجرين ومن لاذ بهم من العرب فهموا بالخروج اليه فحترز وتأهب للقتال فلم ينالوا منه فانتظروا الى أن عاد قافلا يريد مكة فكمناؤه فأعلم بذلك قريشا واستنفرهم الى أموالهم فأسرعوا اليه بجيولهم ورجلهم وكانوا في نحو مائة فارس وثمانمائة راجل وكان صاحب الشريعة في ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون من المهاجرين والباقيون من الانصار فلما بلغ صاحب الشريعة وادى بدر جاء الخبر أن العير مقبلة من جهة وقريشا مقبلة من جهة أخرى فشاور أصحابه في أى الطائفتين يتعدى لها أولا فأجمع رأيهم على ترك العير ومقابلة قريش أولا فترزوا على أدنى ماء من القوم وصف رجاله وشدد عزائمهم ووعدهم

بالنصران صدقوا في القتال ثم بنى له عريش فصار عليه مع أبي بكر وجعل يناشد ربه في النصر فقال اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لانعبد واشتد المشركون على أصحاب صاحب الشريعة حتى كادوا ينالون منهم قيل فنزل صاحب الشريعة عن العريش وأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ثم رماهم بها وقال شأهت الوجوه قيل فسمعوا صوته فانتخلعت قلوبهم وخيل لهم أن الملائكة تقاتلهم فانهمزوا وقتل من صناديدهم سبعون فاعينت جنتهم وأسر سبعون فانتدوا أنفسهم بأربعة آلاف درهم الأبا معيط والنضر بن الحارث وكانا شديدي الأذى لصاحب الشريعة فأمر بهما فقتلا صبرا ثم أدرك أصحابه غير قريش فانتبهوها وكان خمس صاحب الشريعة منها عشرين ألف درهم فقفل الى المدينة غامما

ثم كانت بعد ذلك غزوة قينقاع ثم غزوة الكدر ثم غزوة السويق ثم غزوة أحد وكانت من أشد الغزوات مات فيها من الفريقين خلق كثير وكانت نساء قريش يحترضن الرجال على اصطلاء نار الوغى ويضربن خلفهم بالدفوف وبينهن امرأة تقول هذه الايات

نحن بنات طارق * نمشي على النمارق
مشى القطا البوارق * والمسك في المفارق
والدر في المخانق * ان تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق * أو تدبروا نفارق
* فراق غير وامي *

وكانت تقول أيضا

ويها بنى عبد الدار * ويها حماة الديار * ضربا بكل بتار

فكانت تندفع أبطال قريش في ميدان القتال اندفاع الاسود الضواري غير هيايين ولا حاسيين للوت حسابا * ثم كانت غزوة الرجيع وقد قتل فيها كثير من المسلمين وبينهم خبيب أخذ أسيرا فبقى أياما ثم قتله صبرا ثم كانت غزوة ذات الرقاع وسميت بذلك لجبل كانت الواقعة فيه ثم غزوة بدر الثانية وتعرف أيضا بغزوة السويق ثم غزوة الخندق وهي غزوة الاحزاب كانت في شوال وكانت من الغزوات الكبيرة وذلك أن يهود بنى قريظة كان بينهم وبين صاحب الشريعة عهدان لا يعينوا عليه أحدا ولا يتهربوا عليه حربا ويتركهم وشأنهم نخالفوا ونقضوا وحزبوا العرب لاستئصال المسلمين فاجتمع منهم خلق كثير جدا وساروا الى المدينة فحشد المسلمون حولهم وتوسوا بالمدينة وقاتلوا فينماهم كذلك اذ قامت ريح عاصفة فاقتلعت خيام الاعداء فانتخلدوا ثم اختلفوا وتفرقوا وساروا عن المدينة وتركوا متاعهم وكان من وراء ذلك غزوة يهود بنى قريظة وموت الكثير منهم ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة قال بعض أهل التاريخ كانت هذه الغزوة بعد غزوة ذي فرد وكانت في شعبان من سنة ست فلما كانت سنة سبع وقد تقوت عزيمة صاحب الشريعة وعلت كلمته بعث رسلا من عنده

الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام فأرسل طاب بن أبي بلتعة الى المقوقس بمصر وأرسل
 شجاع بن وهب الاسدي الى الحرث بن أبي شهر الغساني وأرسل دحية الى قيصر وأرسل
 سليط بن عمرو والعامري الى هوزة بن علي الحنفي وبعث عبدالله بن حذافة الى كسرى وأرسل
 عمرو بن أمية الضمري الى النجاشي وأرسل العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوا أخي
 عبيد القيس وكان لكل من هؤلاء الملوك مع الرسل المذكورين شأن لا يحل له هنا فأما
 المقوقس عظيم القبط بمصر فقبل انه قبل الكتاب وأهدى اليه مع الرسول أربع جوار منهن
 مارية أم ابراهيم ولد صاحب الشريعة ثم كانت غزوة خيبر سار اليها صاحب الشريعة في ألف
 وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس وكان مسيره اليها في المحرم سنة سبع واستخلف على المدينة
 سباع بن عرفطة الغفاري غضى حتى نزل بالرجيع ليحول بين أهل خيبر وعطفان لانهم كانوا
 مظاهرين لهم وكانت هذه الغزوة من الغزوات الكبرى وفتحت البلدة في صفر من هذه السنة فلما
 استقر بها أهدت اليه زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية مسمومة فوضعتها
 بين يديه فأخذ منها مضغة قيل فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور فأكل منها * قال
 الراوي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة ثم دعا المرأة
 فاعترفت فقال ماجلأك على ذلك قالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت ان كان نبيا
 فسيخبر وان كان ملكا استرحنا منه قال فتجاوز عنها اه

ومات بشر من تلك الاكلة وكان صاحب الشريعة يقول في مرضه الذي مات به لقد
 وجدت الآن انقطاع أجهري من أكلة خيبر فكان المسلمون يرون أنه مات شهيدا مع كرامة
 النبوة * ولم يرض على صاحب الشريعة الا بضع سنين حتى ظهرت كلمته وعلت شهرته ونال
 الظفر في أكثر مغازبه * ومنها غزوة أحد فلما كانت السنة الثانية من هجرته خرج
 معتمرا الى مكة في ألف وأربعمائة رجل وكان مسالما لا يريد حربا فلما بلغ الحديبية وهي
 موضع بعضه في الحل وبعضه في الحرم أرسل اليه قريش يعلمونه أنهم لا يأذنون له في دخول
 مكة أو يدخلها عنوة فجمع رجاله وأخذ عليهم بين الطاعة وبياعوه بيعة الرضوان وعزم على
 مناجزة القوم بمكة فجاءه من قبلهم عروة بن مسعود كبير الثقفين يسأله الصلح * وفي رواية
 ان الذي جاءه في ذلك سهيل بن عمرو وان عروة انما ذهب اليه أولا يقول انهم لا يدعونه يدخل
 مكة الا عنوة أي بعد قتال * فاتفقا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وكتبوا بذلك
 عهدا وكان مما جاء في العهد ان من أحب أن يدخل في عقد محمد دخل فيه ومن أحب أن
 يدخل في عقد قريش دخل فيه * ولما عاد عروة بن مسعود الى قريش قال لهم اني جئت
 كسرى وقيصر في ملكهم فوالله ما رأيت ملكا في قومه مثل محمد في أصحابه كان لا يتوصأ الا
 ابتدروا وضوءه ولا يصبق الا ابتدروا بصاقه ولا يسقط من شعره شيء الا أخذوه تبركا *
 ذكره ابن الاثير وأبو الفداء وابن هشام والقاضي عياض
 وفي ذي الحجة من السنة أي سنة سبع اعتمر صاحب الشريعة عمرة القضاء وساق معه

سبعين بدنة وخرج معه المسلمون من كان معه في عمرته الاولى فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش أنه وأصحابه في عسر وجهه فاصطفوا له عند دار الندوة فلما دخلها اضطجع بردائه فأخرج عضده اليمنى ثم قال رحم الله امرأ أراهم اليوم قوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول وأصحابه وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة أخذاً بمخظام ناقته ويقول

خلوا بني الكفار عن سبيله * خلوا فكل الخير في رسوله
يارب انى مؤمن بقيله * أعرف حق الله في مقوله
نحن قتلناكم على نأويله * كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

ولما كانت سنة ثمان غزا غزوة ذات السلاسل ثم غزوة الخبط وغيرها ثم غزوة مؤتة وكانت في جمادى الاولى من هذه السنة وهى من الغزوات الكبرى ومؤتة قرية انحاز اليها المسلمون يوم القتال ثم ان بنى بكر بن عبد مناة غدت على خزاعة وهم على ماء لهم باسفل مكة يقال له الوثير وكانت خزاعة في عهد صاحب الشريعة وبكر في عهد قريش في صلح الحديبية وكان سبب ذلك أن رجلا من بنى الحضرمي اسمه مالك بن عباد كان حليفا للاسود بن رزن الديلى ثم البكرى في الجاهلية خرج تابرا فلما كان بأرض خزاعة قتله فعدت خزاعة على بنى الاسود بن رزن وهم سلمى وكنوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة وكانوا من أشرف بنى بكر فبينما خزاعة وبكر على ذلك اذ جاء الاسلام واشتغل الناس به فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة في عهد صاحب الشريعة ودخلت بكر في عهد قريش اغتتم بنو بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقتل بنى الاسود فخرج نوفل بن معاوية الديلى بن تبعه من بكر حتى بيت خزاعة على ماء الوثير وقيل كان سبب ذلك أن رجلا من خزاعة سمع رجلا من بكر ينشد هجاء صاحب له فشجبه فهاج الشريينهم ونارت بكر بخزاعة حتى يتوهم بالوثير وأعاتت قريش بنى بكر على خزاعة بشئ من السلاح والدواب وقائل معهم جماعة من قريش أيضا محتفين قيل منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهل بن عمرو فانحازت خزاعة الى الحرم فقال بنو بكر يا نوفل انا قد دخلنا الحرم الهك الهك فقال لاله الله اليوم يا بنى بكر أصيبوا ثأركم فلمرى انكم لتسرفون فى الحرم أفلاتصيبون ثأركم فيه فلما انقضت بكر وقريش العهد الذى بينهم وبين صاحب الشريعة خرج عمرو بن سالم الخزاعى ثم الكعبى حتى قدم على صاحب الشريعة المدينة فوقف عليه ثم أنشد

يارب انى ناشد محمددا * حلف أينا وأبييه الاتلدا
فوالدا كذا وكنت الوادا * تمت أسلمنا فلم نستزع يدا
فانصر رسول الله نصرأ أعتدا * وادع عباد الله يا نوا مسدا
فيهم رسول الله قسد تجردا * أبيض مثل اليد تنمى صعدا

ان سيم خسفا وجهه تربدا * في فليق كالبحر يجرى مزبدا
 ان قريشا أخلفوك الموعدا * ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وجه لولاي في كداء رصدا * وزعموا أن لست أدعو أحدا
 وهم أذل وأقل عددا * هم يتونوا بالونير هجدا
 وقتلونا ركعا وسجدا

فقال صاحب الشريعة لقد نصرت يا عمرو بن سالم

(الفصل الثالث)

(في فتح مكة)

تأهب صاحب الشريعة وأمر الناس بالتأهب لفتح مكة فلما شاع الخبر كتب حاطب
 ابن أبي بلتعة كتابا الى قريش يعلمهم الخبر وسيره مع امرأة من مزينة اسمها كنود وقيل مع
 سارة مولاة لبني المطلب تعلمهم الخبر وسيره معها فعلم صاحب الشريعة بذلك فأرسل عليا
 والزبير فأدركاها وأخذها منها الكتاب وجاءه اليه فأحضر حاطبا وقال ماجلتك على هذا فقتل
 والله اني مؤمن ما بدلت ولا غيرت ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة فصانعتهم
 عليهم فقال عمر دعني أضرب عنقه فانه قد نافق وجاء الخبر بتأهب صاحب الشريعة لقتالهم
 على مكة فخافوا وخشوا العاقبة وسيروا أبا سفيان الى صاحب الشريعة لتلافي الامر وتجديد
 العهد فلم يأذن له صاحب الشريعة في الدخول عليه فقصد أبا بكر وعليا فلم يلبياها فرجع الى
 مكة خائبا وتجهز صاحب الشريعة يريد أخذ قريش قبل أن يتأهبوا وخرج لعشر مضين
 من رمضان واستخلف على المدينة أبا رهم كاثوم بن حصين الغفاري فلم يصل مكة حتى بلغ
 جيشه عشرة آلاف ولما رأى أهل مكة أن لا قبل لهم بمثل هذا الجيش العظيم نزلوا على
 حكم صاحب الشريعة وداؤوا يدينه وأسلم كذلك أبو سفيان وقتل من المشركين ثمانية وعشرون
 رجلا قتلهم خالد وأسلم أهل مكة كافة الا ستة رجال وأربع نسوة كانوا أشد جرما عند
 صاحب الشريعة من غيرهم وكان بعضهم قد ارتد عن الاسلام ثم قتلوا منهم ثلاثة رجال
 وامرأة واحدة وأسلم الباقيون وفازت واحدة من النسوة بالهرب فلم يوقف لها على أثر الا
 بعد حين فكان فتح مكة لعشرين من رمضان

ولما فتحت مكة بعث صاحب الشريعة الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كدى
 قال سعد حين وجهه * اليوم يوم المحمة * اليوم تسحل فيه الكعبة * قال فسمعها
 رجلا من المهاجرين فأعلم صاحب الشريعة فقال لعلي بن أبي طالب أدركه فخذ الراية
 وكن أنت الذي تدخل بها وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من البيط في بعض

الناس وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب فلما وصل صاحب الشريعة الى ذى طوى وقف على راحلته وهو معتبر بشقة برد حبرة أجر ثم تقدم ودخل من أواخر بأعلاها وضربت قبته هناك

ووقف صاحب الشريعة على باب الكعبة وقال يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم فلذلك سمي أهل مكة (الطلاق) وطاف صاحب الشريعة بالكعبة سبعا ودخلها وصلى فيها ثم جلس للبيعة في الصفا وعمر بن الخطاب تحته واجتمع الناس لبيعته فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فكانت هذه بيعة الرجال ثم أخذ يبايع النساء فأتاه منهن نساء من قريش منهن أم هانئ بنت أبي طالب وأم حبيبة بنت العاص بن أمية وكانت عند عمرو بن عبد ود العامري وأروى بنت أبي العيص عمة عتاب بنت أسيد وأختها عاتكة بنت أبي العيص وكانت عند المطلب بن أبي وداعة السهمي وأميمة بنت عثمان بن أبي العاص أخت عثمان وكانت عند سعد حليف بني مخزوم وهند بنت عتبة وكانت عند أبي سفيان وبسيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وأم حكيم بنت الحرث بن هشام وكانت عند عكرمة ابن أبي جهل وفاخته بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف وريطة بنت الحجاج وكانت عند عمرو بن العاص وغيرهن وكانت هند متسكرة لصنيعها بحمزة فهي تخاف أن تؤخذ به وقال لهن تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئا قالت هند انك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذ على الرجال فسنؤتيك قال ولا تسرقن قالت والله ما كنت أصيب من مال أبي سفيان الا الهنة بعد الهنة فقال أبو سفيان وكان حاضرا أما ماضى فأنت منه في حل فقال صاحب الشريعة أهند قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك قال ولا ترين قالت وهى ترى الحرة قال ولا تقتلن أولادكن قالت ريبيهاهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا فأنت وهم أعلم فضحك عمر قال ولاتأتين بهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن قالت والله ان اتيان البهتان لقبيح وما تأمرنا الا بالرشد ومكارم الاخلاق قال ولاتعصينني في معروف قالت ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك فقال صاحب الشريعة لعمر بايعهن ففعل * قال أهل التاريخ ولما جاء وقت الظهر أمر صاحب الشريعة بلالا أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال فلما أذن وقال أشهد أن محمدا رسول الله قالت جويرة بنت أبي جهل لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نبيق بلال فوق الكعبة وقال خالد بن أسعد لقد أكرم الله أبي فلير هذا اليوم وقال الحارث بن هشام ليتني مت قبل هذا اليوم وقال جماعة نحو هذا القول تحاملا واستخفافا

(الفصل الرابع)

(في ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته)

ابتدأ المرض بصاحب الشريعة في أواخر صفر في بيت زيتب بنت بحش وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه في بيت ميمونة فجمع نساءه فاستأنهن أن يمرض في بيت عائشة وبينما هو في مرضه اذ وصلت الاخبار بظهور الاسود العنسي باليمن ومسيمة باليمامة وطلحة في بني أسد وعسكر بسيمراء فناخر مسير أسامة وكان قد عقد له لواء وأمره بالغزو قبل أن يثقل به مرضه وكذلك تأخر لخبر الاسود العنسي ومسيمة فخرج صاحب الشريعة عاصبا رأسه من الصداع وأمر بانفاذ جيش أسامة ولعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وخرج أسامة فضرب بالحرف المعسكر وتمهل الناس وثقل صاحب الشريعة ولم يشغله شدة مرضه عن انفاذ الغزوة فأرسل الى نفر من الانصار في أمر الاسود فأصيب الاسود في حياة صاحب الشريعة قبل وفاته بيوم فأرسل الى جماعة من الناس يحثهم على جهاد من عندهم من المرتدين وقد اشتد به المرض شدة بالغة وازداد ألمه * قال ابن مسعود نبي الينا نبينا وحيينا نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة فنظر الينا فشد ودمعت عيناه وقال مرحبا بكم حياكم الله رحمكم الله أو اكرم الله حفظكم الله رفعكم الله وفقكم الله سلمكم الله قبلكم الله أو صيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم وأستخلفه عليكم حذركم الله اني لكم منه نذير وبشير أن لاتعولوا على الله في عباده وبلاده فانه قول لي ولكم تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولافسادا والعاقبة للمتقين * قلنا في أجلك قال دنا الفراق والمنقلب الى الله وسدرة المنتهى والرفيق الاعلى وحنسة المأوى فقلنا من يغسلك قال أهلي قلنا فيم نكفئك قال في ثيابي أو في بياض قلنا فن يصلي عليك قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا فبكينا وبكى ثم قال دعوني على سريري على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة ليصلي على جبريل واسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ثم ادخلوا على فوجا فوجا فصلوا على ولا تؤذوني بتزكية ولارثة أقرؤا أنفسكم مني السلام ومن غاب من أصحابي فأقرؤه مني السلام ومن تابعكم على ديني فأقرؤه مني السلام اه قال ابن عباس يوم الخميس وما يوم الخميس * ثم جرت دموعه على خديه * اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه ووجهه فقال اتوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتابا لاتضلون بعدى أبدا فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يم حجر فجعلوا يعيدون عليه فقال دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني اليه فأوصى أن يخرج

المشركون من جزيرة العرب وأن يجاز الوعد بنحو مما كان يجيزهم وسكت عن الثالثة عمدا
أو قال نسبتها اه

وخرج علي بن أبي طالب من عند صاحب الشريعة في مرضه فقال الناس كيف أصبح
رسول الله فقال أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده العباس فقال أنت بعد ثلاث عميد العصا
وان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى في مرضه هذا واني لاعرف الموت في وجوه بني
عبد المطلب فاذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله فيمن يكون هذا الامر فان
كان فينا علمناه وان كان في غيرنا أمره فأوصى بنا فقال علي لئن سألتها رسول الله صلى الله
عليه وسلم فمغناها فلا يعطيناها الناس أبداً والله لأسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
فما اشتد الضحى حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم * وكان موته يوم الاثنين لليلتين
خلنا من ربيع الاول * ولما توفي كان أبو بكر بمنزله بالسنخ لانه كان قد تخلف عن الخروج
في جيش أسامة لما تحقق من شدة مرض صاحب الشريعة وقرب وفاته وعمر حاضر فلما
شاع خبر موته كثرت توارد العرب من كل صوب وحسب وعلت الضوضاء وارتفعت الجلبة
واشتمت الهرج والمرج وظهرت دلائل الردة وقام كل ذى مرض في الصدر وافتتوا أوكادوا
فقام عمر بينهم فقال ان رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي
وانه والله مامات ولكنه ذهب اليربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله صلى
الله عليه وسلم فيقطع أيدى وأرجل رجال زعموا أنه مات وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس
وهم في ضجة فدخل على صاحب الشريعة وهو مسجى في ناحية البيت فكشف عن
وجهه ثم قبله وقال بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا أما الموته التي كتب الله عليك فقد متها
ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكون فأبى وعلا صوته وشد
القول فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله
وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله
فان الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية * وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان
مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله
الشاكرين * قال الراوى فوالله لكأن الناس ماسعوا لها الامنه وقال عمر فوالله ما هو الا اذ
سمعتها فعفرت حتى وقعت على الارض ماتت لى رجلاى وقد علمت أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد مات اه

ولما مات صاحب الشريعة ووصل خبره الى مكة وعامله عليها عتاب بن أسيد بن أبي
العاص بن أمية استخفى عتاب وارتجبت مكة وكاد أهلها يرتدون واجتمعوا حول الكعبة وكثر
ضجيجهم فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال يا أهل مكة
لا تنكفوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليمنن الله هذا الامر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقد رأيت فاعلموا ما هذا وحده وهو يقول قولوا لله لا اله الا الله كلمة تدين لكم بها العرب

وتؤدى لكم العجم الجزية والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله فمن بين مستهزئ
ومصدق فكان ما رأيتم والله ليكونن الباقي فامتنع الناس من الردة وقيل الهرج وتطامنت
القلوب واجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ليبياعوا سعد بن عبادَةَ فبلغ ذلك أبا بكر فأناهم
ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح فقال ما هذا فقالوا منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر منا
الامراء ومنكم الوزراء ثم قال أبو بكر قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة
أمين هذه الامة * فقال عمر أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قدمهما النبي صلى الله عليه
وسلم فبايعه عمر وبايعه الناس فقالت الانصار لا نباع الا عليا وتخلف علي وبنو هاشم والزبير
وطلحة عن البيعة وقال الزبير لأعمد سيفا حتى يبايع علي فقال عمر خذوا سيفه واضربوا
به الحجر ثم أناهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع علي ببيعة أبي بكر خرج في قيص ماعليه
ازار ولا رداء بجلا حتى بايعه ثم استدعى ازاره ورداه فقبله * قال بغض أهل التاريخ والصحيح
أن عليا ما بايع الا بعد ستة أشهر وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر أقبل أبو سفيان
وهو يقول انى لارى بحاجة لا يطفئها الا دم يا آل عبيد مناف فيم أبو بكر من أموركم أين
المستضعفان أين الاذلان علي والعباس ما بال هذا الامر في أقل حى من قريش ثم قال لعلى
ابسط يدك أبايك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا فأبى علي عليه فتمثل بشعر المناس
ولن يقيم علي خسف يراد به * الا الاذلان غير الحى والوئد
هذا على الخسف مربوط برمته * وزا يشج فلا يرى له أحد

قيل فزجره علي وقال والله انك ما أردت بهذا الا الفتنة وانك والله طالما بغيت للاسلام
سرا لاحاجة لنا في نصيحتك * وقال ابن عباس كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف القرآن
فخج عمر وحببنا معه فقال لي عبد الرحمن شهدت أمير المؤمنين اليوم بنى وقال له رجل
سمعت فلانا يقول لومات عمر لبايعت فلانا فقال عمر انى لقاؤم العشيبة في الناس أحذرهم
هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم قال فقلت يا أمير المؤمنين ان الموسم
يجمع رعاة الناس وغوغاهم وهم الذين يغلبون على مجلسك وأخاف أن تقول مقالة لايعوها
ولايحفظوها ويطيروا بها ولكن أمهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فنقول ما قلت فيمعاون مقاتلتك فقال والله لأقومن بها أول مقام أقومسه
بالمدينة قال فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن فلما جلس عمر على
المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال بعد أن ذكر الرجم وما نسخ من القرآن فيه * انه بلغنى أن
قائلا منكم يقول لومات أمير المؤمنين بايعت فلانا فلا يغرن امرا أن يقول ان بيعة أبي
بكر كانت فلتة فقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس منكم من تقطع اليه الاعناق
مثل أبي بكر وانه كان خيرنا حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وان عليا والزبير ومن
معهما تخلفوا عنانى بيت فاطمة وتخلف عنا الانصار واجتمع المهاجرون الى أبي بكر فقلت له
انطلق بنا الى اخواتنا من الانصار فانطأقنا نحوهم فلقينا رجلا من الانصار أحدهما

عويم بن ساعدة والثاني معن بن عدى فقالا لنا ارجعوا اقضوا امركم بينكم قال فأتينا الانصار وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة وجع فقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه وقال * أما بعد فجنح الانصار وكتيبة الاسلام وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا وقد دفت الينا دافة من قومكم فاذا هم يريدون أن يعصبونا الامر فلما سكت وكنت قد زورت في نفسى مقالة أقولها بين يدي أبي بكر فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر على رسلك فقام فحمد الله وماترك شياً كنت زورت في نفسى الاجابه أوبأحسن منه وقال * يامعشر الانصار انكم لاتذكرون فضلا الاوائتم له أهل وان العرب لاتعرف هذا الامر الا لقريش وهم أوسط العرب دارا ونسبا وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ يدي ويدي أبي عبيدة بن الجراح واني والله ما كرهت من كلامه كلمة غيرها ان كنت أقدم فتضرب عنقي فيما لا يقربني الى اثم أحب الى من أن أوامر على قوم فيهم أبو بكر * فلما قضى أبو بكر كلامه قام منهم رجل فقال أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير وارتفعت الاصوات واللغط فلما خفت الاختلاف قلت لابي بكر ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعته وبايعه الناس ثم تزونا على سعد بن عبادة فقال قائلهم قتلتم سعدا فقلت قتل الله سعدا وانا والله ما وجدنا أمرا هو أقوى من بيعة أبي بكر خشيت ان فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فاما أن نتابعهم على ما لانرضى واما أن نخالفهم فيكون فسادا اه

وقال أبو عمرة الانصارى لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الانصار في سقيفة بني ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليولوه الامر وكان مريضا فقال بعد أن حمد الله * يامعشر الانصار لكم سابقة وفضيلة ليست لاحد من العرب ان محمدا صلى الله عليه وسلم لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما آمن به الا القليل ما كانوا يقدرون على منعه ولا على اعزاز دينه ولا على دفع ضيق حتى اذا أراد الله بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة ورزقكم الايمان به وبرسوله والمنع له ولاصحابه والاعزاز له ولدينه والجهاد لاعدائه فكنتم أشد الناس على عدوه حتى استقامت العرب لامر الله طوعا وكرها وأعطى البعيد المقادة صاغرا فدانت لرسوله باسمايفكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين استبدوا بهذا الامر دون الناس فانه لكم دونهم * فأجابوه بأجمعهم قد وفق وأصبت الرأي ونحن نوليك هذا الامر فانك مقنع ورضاء للمؤمنين ثم انهم ترادوا الكلام وأبي المهاجرون من قريش وقالوا نحن المهاجرون وأصحابه الاولون وعشيرته وأولياؤه فقالت طائفة منهم فانا نقول منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبدا فقال سعد هذا أول الوهن وسمع عمر الخبير فأتى منزل صاحب الشريعة وأبو بكر فيه فأرسل اليه أن اخرج الى فارس اليه افي مشغل فقال عمر قد حدث أمر لابدلك من حضوره فخرج اليه فأعلمه الخبر ففضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة قال عمر فأتيناهم وقد كنت زورت كلاما أقوله لهم فلما دنوت أقول أسكتني أبو بكر وتكلم

بكل ما أوردته حمد الله وقال * ان الله قد بعث فينا رسولا شهيدا على أمته ليعبدوه ويوحده
وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب فغظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم
نخص الله المهاجرين الاولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومه
وتكذيبهم اياه وكل الناس لهم مخالف زائر عليهم فلم يستوحشوا لقله عددهم وشنف الناس
لهم فهم أول من عبد الله في هذه الارض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق
الناس بهذا الامر من بعده لا يمتازعهم الا ظالم * وأتم بامعشر الانصار من لا ينكر فضلهم في
الدين ولا سابقتهم في الاسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته فليس بعد
المهاجرين الاولين عندنا بمنزلةكم فحن الامراء وأتم الوزراء لاتفاوتون بمشورة ولا تقضى
دونكم الامور * فقام الحباب بن المنذر بن الجوح فقال * يامعشر الانصار املكوا عليكم
أمركم فان الناس في ظلكم ولن يجترئ مجترئى على خلافكم ولا يصدروا الاعن رأيكم أنتم أهل
العز وأولو العدد والمنعة وذوو البأس وانما ينظر الناس ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد
عليكم أمركم أبي هؤلاء الامام سمعتم فمنا أمير ومنكم أمير فقال عمر هيات لا يجتمع اثنان
والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمنع العرب أن تولى أمرها من كانت
النسبة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته فقال
الحباب بن المنذر يامعشر الانصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا
بنصيبكم من هذا الامر فان أبوا عليكم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذا الامر
فأنتم والله أحق بهذا الامر منهم فانه بأسيا فكتم دان الناس لهذا الدين أنا جديلهما المحكك
وعذيقها المرجب أنا أبو سبل في عرينة الاسد والله لئن شئتم لنعيدننا جذعة فقال عمر اذن
ليقتلك الله فقال بل اياك يقتل * فقال أبو عبيدة يامعشر الانصار انكم أول من نصر فلا
تكونوا أول من بدل وغير * فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال * يامعشر الانصار انا
والله وانكأ أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين ما أوردنا به الارضاء ربنا وطاعة نبينا
والكدح لانفسنا فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نتغنى به الدنيا إلا ان محمدا صلى
الله عليه وسلم من قريش وقومه أولى به وإيم الله لا يراني الله أنأزعهم هذا الامر فاتقوا الله
ولا تخالفوهم * فقال أبو بكر هذا عمر وأبو عبيدة فان شئتم فبايعوا فقالا والله لا نتولى هذا
الامر عايك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة وهي
أفضل دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فلما ذهبنا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناده
الحباب بن المنذر عقت عقتا أنفسنا على ابن عمك الامارة فقال لا والله ولكني كرهت أن
أنأزع القوم حقهم * ولما رأأت الاوس ما صنع بشير وما تطلب الخروج من تأمير سعد قال
بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيبا والله لئن وليتها الخزرج حرة لازالت لهم
عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيبا أبدا فقوموا فبايعوا أنا بكر فبايعوه فانكسر
على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ثم تحوّل سعد

ابن عبادة الى داره فبقي أياما وأرسل اليه ليبايع فان الناس قد بايعوا فقال لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي وأخضب سنناني رحى وأضرب بسيفي وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني ولو اجتمع معكم الجن والانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي فقال عمر لا تدعه حتى يبايع فقال بشر بن سعد انه قد بلغ وأبي ولا يبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولا يضركم تركه وانما هو رجل واحد فتركوه * وجاءت أسلم فبايعت فقوى أبو بكر بهم وبايع الناس بعد * قيل ان عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد متى يبيع أبو بكر قال يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كرهوا أن يبيعوا بعض يوم وليسوا في جماعة * قال الزهري بقي علي وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبابكر حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها فبايعوه فلما كان الغد من بيعة أبي بكر جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال * أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندي حتى أخذله حقه والقوى ضعيف عندي حتى أخذته الحق ان شاء الله تعالى لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الاضربهم الله بالذل أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله اه

ولما يبيع أبو بكر أقبل الناس على جهاز صاحب الشريعة ودفن يوم الثلاثاء وقيل يوم الاربعاء وقيل بقي ثلاثة أيام لم يدفن وكانت مدة مرضه أربعة عشر يوما وقيل سبعة أيام بذات الجنب فلما كان اليوم السابع من مرضه مات * قال ضمران مات وتحتته في مرضه شهة حراء وعليها مات وفيها أدرج بعد موته وورى التراب بغير غسل ولا أكفان * وروى عمران بن حضير الخزازي أنه غسل وأدرج في ثلاثة أبواب سخوية أي بيض يمانية وان الذي يولي ذلك معه علي بن أبي طالب والفضل بن العباس بن عبد المطلب عمه واختلفوا أين يدفنونه فقال أبو بكر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما قبض نبي الا دفن حيث قبض فرفع فراشه ودفن موضعه حفرة أبو طلحة الانصاري لحدا ودخل الناس يصاون عليه أرسالا الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد ودفن ليلة الاربعاء وقيل ليلة الخميس واختلفوا في عمره يوم مات فقال ابن عباس وعائشة ومعاوية وابن المسيب كان عمره ثلاثا وستين سنة وقال ابن عباس أيضا ودغفل بن حنظلة كان عمره خمسا وستين سنة وقال عروة بن الزبير كان عمره ستين سنة والله أعلم بالحقيقة

بعيرا وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له
وسوف تمرون بأقوام قد فخصوا أواسط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم
بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله * وأوصى أسامة أن يفعل ما أمره به صاحب الشريعة
فساروا وأوقع قبائل من ناس قضاة التي ارتدت وغنم وعاد وكانت غيبته أربعين يوما
وقيل سبعين يوما

قال أصحاب التاريخ وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب
قالوا لولم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه
وقال بعضهم لما مات صاحب الشريعة ارتدت العرب ومنعت الزكاة فجمع أبو بكر الصحابة
وشاورهم في الامر وفي قتال العرب فاختلفوا عليه وقال له عمر كيف تقاتل الناس وقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فمن قالها فقد
عصم مني دمه وماله الا بحقه وحسابه على الله عز وجل فقال أبو بكر والله لا فإتلفن من فرق
بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لومنعوني عنها كانوا يؤدونها رسول الله
لقاتلهم على منعها قال عمر فوالله ما هو الا أن شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه
الحق * وفي رواية قال عمر فقلت تألف الناس وارتد بهم فقال أجبارا في الجاهلية وخوارا في
الاسلام يا عمر انه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حتى ثم خرج لقتالهم

وقال ابن قتيبة ارتدت العرب الا القليل منهم فجاهدهم الصديق حتى استقاموا وفتح
اليمامة وقتل مسيلة الكذاب بها والاسود العنسي الكذاب بصنعاء وبعث الجيوش الى الشام
والعراق * وأخرج ابن عبد الحكم عن علي بن رباح النخعي قال بعث أبو بكر الصديق رضي
الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا الى المقوقس بمصر فر على ناحية قرى
الشرقية فعاهدهم وأعطوه فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص فقاتلوه وانتقض
ذلك العهد * وقال عبد الملك بن مسلمة وهي أول هدنة كانت بمصر (قلت) ولم أرى في قول
أحد من أهل التاريخ شيئا من نحو ذلك البتة * وأقام أبو بكر يدبر الامر وبعث البعث
والسرايا الى الآفاق ويستد على من ارتد من القبائل ويعمل في رقاب أصحاب الفتنه بالسيف
حتى استقام له الامر وعلت كلمة الاسلام ولاحت طوابعه في سماء السعادة وما زال حتى مرض
ونقل به المرض ومات وله ثلاث وستون سنة قيل ولما مرض ترك التطيب تسليما للامر فعاده
الصحابة وقالوا ألا ندعوك طبيبا ينظر اليك فقال نظر الى فقالوا وما قال لك قال قال لي اني
فعال لما أريد * وتوفي ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جادى الآخرة سنة
ثلاث عشرة من الهجرة ودفن في حجرة عائشة مع صاحب الشريعة وكانت خلافته سنتين
وثلاثة أشهر وثمانية أيام

(الفصل الثاني)

(في خلافة عمر بن الخطاب)

ثم قام بالامر بعده عمر بن الخطاب ببيع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر بوصية من أبي بكر اليه * فهو عمر الفاروق وهو أول من سمي بأمر المؤمنين وهو أول المهاجرين الاولين قيل صلى الى القبلتين وشهد بدرا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع صاحب الشريعة ولما أسلم تعزبه الاسلام * واختلف الكتاب في اسلام عمر بن قائل بعد تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة ومن قائل بعد أربعين رجلا واحدى عشرة امرأة ومن قائل بل أسلم بعد خمسة وأربعين رجلا واحدى وعشرين امرأة * وكان رجلا جلدا منيعا شديد البأس جبارا وكان اسلامه بعد هجرة من هاجر من أصحاب صاحب الشريعة الى الحبشة قيل وكان أصحاب صاحب الشريعة لا يقدرون أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قائل قريشا حتى صلى صاحب الشريعة عندها وصلى معه أصحابه وكان قد أسلم قبل عمر حزة ابن عبيد المطلب فقوى بهما الاسلام وتحقق المسلمون أنهم ما سمعان صاحب الشريعة والمسلمين واختلفوا أيضا في سبب اسلامه بعد الذي كانوا يرونه من شدته وجبروته على المسلمين * قالت أم عبدالله بنت أبي حمزة وكانت زوج عامر بن ربيعة انا نزلت الى أرض الحبشة وقد ذهب عامر لبعض حاجته اذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف على وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدّة فقال أنتظقون يا أم عبدالله قالت قلت نعم والله لنخرجن في أرض الله فقد آذيتونا وقهرتونا حتى يجعل الله لنا فرجا قالت فقال سبحانه الله ورأيت له رقة وحزنا فلما عاد عامر أخبرته وقلت له لورأيت عمر ورقته وحزنه علينا قال أطمعت في اسلامه قلت نعم فقال لايسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين قالت فهدها الله تعالى فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين

وقال جماعة ان سبب اسلامه ان أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن زيد ابن عمرو العدوى وكانا مسلمين يتخفيان اسلامهما من عمر وكان نعيم بن عبيد الله النخام العدوى قد أسلم أيضا وهو يخفى اسلامه خوفا من قومه وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوما ومعه سيفه يريد قتل صاحب الشريعة وأصحابه وهم مجتمعون في دار الارقم عند الصفا وعندئذ من لم يهاجر من المسلمين في نحو أربعين رجلا فلقبه نعيم بن عبيد الله فقال أين تريد يا عمر فقال أريد محمدا الذي فرق أمر قريش وعاب دينها فأقتله فقال نعيم والله لقد غرتك نفسك أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا أفلا ترجع الى أهلك فتقيم أمرهم فقال وأى أهلى فقال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلمها فرجع عمر اليهما وعندئذ خباب بن الارت

يقرئهما القرآن فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتهما تحت
 فخذهما وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال ما هذه الهيئة قالوا ما سمعت شيئا قال انك
 تابعتما محمدا وبطش بجمته سعيد بن زيد فقامت اليه أخته تكفه فضربها فشحجها فلما فعل
 ذلك قالت له أخته قد أسلمنا وأمانا بالله ورسوله فاصنع ماشئت فلما رأى عمر ما بأخته من
 الدم ندم وقال لها أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتمكم تقرؤون فيها الآن حتى أنظر الى ما جاء
 به محمد فقالت انا نخشاك عليها خلف أنه يعيدها قالت وقد طمعت في اسلامه انك نجس
 على شركان ولا يمسه الا المطهرون فقام فاغتسل فأعطته الصحيفة وقرأها وفيها طه وكان
 كاتبها فلما قرأ بعضها قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع خباب خرج اليه وقال
 يا عمر اني والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فاني سمعته أمس وهو يقول اللهم
 أيد الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام فآله الله يا عمر فقال عمر عند ذلك فدلني
 يا خباب على محمد حتى آتبه فأسلم فذله خباب فأخذ بسيفه وجاء الى صاحب الشريعة
 وأصحابه وضرب عليهم الباب فقام رجل منهم ينظر من الباب فرآه متوثجا بسيفه فأخبر
 صاحب الشريعة فقال حجة أثذن له فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له وان أراد شرا قتلناه
 بسيفه فأذن له فنهض اليه صاحب الشريعة حتى لقيه فأخذ بجماع رداؤه ثم جذبته جذبة
 شديدة وقال ما جاء بك ما أراك تنتهي حتى ينزل الله عليك قارعة فقال عمر يا رسول الله قد
 جئت لأومن بالله وبرسوله فكبر صاحب الشريعة تكبيرة شديدة * قال عمر ولما أسلمت أتيت
 باب أبي جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج الى وقال مرحبا بابن أخي ما جاء بك
 قلت جئت لأخبرك أني قد أسلمت وآمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقت ما جاء به قال
 فضرب الباب في وجهي وقال فبحك الله وقبح ماجئت به اه وقيل في اسلامه غير ذلك
 * وكانت العرب لاتحب تولية عمر الخلافة بعد أبي بكر لغلظته وشدة نزل أبي بكر الموت
 دعا عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرني عن عمر فقال انه أفضل من رأيت الآن فيه غلظة
 فقال أبو بكر ذلك لانه يراني رقيقا ولو أفضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو عليه وقد رمقته
 فكنت اذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه واذا كنت الى رجل أراني الشدة عليه ثم دعا
 عثمان بن عفان وقال له أخبرني عن عمر فقال سيرته خير من علانيته وليس فينا مثله فقال
 أبو بكر لهما لاتذكرا مما قلت لكما شيئا ولو تركته ما عدوت عثمان والخيرة له الآن أن يلي من
 أموركم شيئا ولو ددت أني كنت من أموركم خلوا وكنت فيمن مضى من سلفكم * ودخل طلحة
 ابن عبيد الله على أبي بكر فقال استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت
 معه وكيف به اذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسألتك عن رعيتك * فقال أبو بكر أجلسوني
 فأجلسوه فقال أبا لله نخوفني اذا لقيت ربي فسألتني قلت استخلفت على أهلك خير أهلك ثم
 ان أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خاليا ليكتب عهد عمر فقال له اكتب * بسم الله الرحمن
 الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبي عفاة الى المسلمين أما بعد ثم أنعمي عليه فكتب عثمان

أما بعد فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيرا ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ
 عليّ فقرأ عليه قال الراوي فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس ان مت في
 غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيرا عن الاسلام وأهله فلما كتب العهد أمره أن يقرأه علي
 الناس بجمعهم وأرسل الكتاب مع رسول له ومعه عمر فكان عمر يقول للناس أنصتوا واسمعوا
 نخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يألكم نصحا فسكن الناس فلما قرئ عليهم الكتاب
 سمعوا وأطاعوا وكان أبو بكر أشرف على الناس وقال أترضون عن استخلفت عليكم فاني
 ما استخلفت عليكم ذا قرابة واني قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فاني والله
 ما ألوت من عهد الرأي فقالوا سمعنا وأطعنا ثم أحضر أبو بكر عمر وقال له اني قد استخلفتك
 علي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصاه بتقوى الله ثم قال له * يا عمر ان الله حقا
 بالليل لا يقبله في النهار وحقا في النهار لا يقبله في الليل وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة
 ألم ترى يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقل عليهم
 وحق لميزان لا يوضع فيه غدا الا حق أن يكون ثقيلاً * ألم ترى يا عمر أنما خفت موازين من خفت
 موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لا يوضع فيه الا باطل
 أن يكون خفيفاً * ألم ترى يا عمر انما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة وآية الشدة مع آية الرخاء
 ليكون المؤمن راغبا راغبا لا يرغب رغبة يتبني فيها على الله ما ليس له ولا يرهب رهبة يلقى
 فيها بيديه * ألم ترى يا عمر أن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم فاذا ذكرتهم قلت اني
 لارجو أن لا أكون منهم وانه انما ذكر أهل الجنة باحسن أعمالهم لانه تجاوز لهم عما كان
 من سيئ فاذا ذكرتهم قلت أين علي من أعمالهم فان حفظت وصيتي فلا يكون غائب أحب
 اليك من حاضر من الموت ولست بمجتهز به * وتوفي أبو بكر فلما دفن صعد عمر بن الخطاب
 فخطب الناس ثم قال انما مثل العرب مثل جبل أنف اتبع قائده لينظر قائده حيث يقوده
 وأما أنا فورب الكعبة لاجلنكم على الطريق قال بعض الكتّاب وهو أول من عس في
 عمله أي كان يمشي ليلا لحفظ الدين والناس فهابه الناس هيبة عظيمة حتى تركوا الجلوس
 بالاقنية فلما بلغه هيبة الناس له جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه فحمد
 الله وأثنى عليه ثم قال قد بلغني أن الناس قد هابوا شدتي وخافوا غلظتي وقالوا قد كان عمر
 يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر رضى الله عنه
 والينا دونه فكيف الآن وقد صارت الامور اليه ولعمرى ان من قال ذلك فقد صدق كنت
 مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى
 راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم ولى أمر الناس أبو بكر رضى الله عنه فكنت خادمه
 وعونه أخلط شدتي بليته فأكون سيفا مسلولا حتى يغدني أو يدعني فما زلت معه كذلك حتى
 قبضه الله تعالى وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم انى وليت أموركم فاعلموا أن
 تلك الشدة قد تضاعفت ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين وأما أهل

السلامة والدين والقصد فانا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحدا يظلم أحدا ويتعدى عليه حتى أضع خده على الارض وأضع قدمي على خده حتى يدعن للحق ولكم على أيها الناس أن لا أخبأ عنكم شيأ من خراجكم واذا وقع عندي أن لا يخرج الابحثة ولكم على أن لا ألقىكم في المهالك واذا غبتم في البعوث فانا أبو العيال حتى ترجعوا أقول قولي هذا! وأستغفر الله العظيم لي ولكم اه قال سعيد بن المسيب وفي والله عمر وزاد في الشدة في مواضعها واللين في مواضعه * قيل ولما رجع من الشام الى المدينة انفر دعن الناس ليعترف أخبار رعيته فتر بجوز في خبائها فقصدها فقالت يا هذا ما فعل عمر قال قد أقبل من الشام سالما فقالت لا جزاء الله عنى خيرا قال ولم قالت لانه والله مانالني من عطائه منذ ولي أمر المؤمنين دينار ولا درهم فقال وما يدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع فقالت سبحان الله والله ما ظننت أن أحدا يلي على الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها فبكي عمر وقال واعمر اه كل أحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر ثم قال لها يا أمة الله بكم تبيعي ظلامتك من عمر فاني أرحه من النار فقالت لا تهزأ بنا رجك الله فقال لست بهازي فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا فبينما هو كذلك اذ أقبل على بن أبي طالب وابن مسعود فقالا السلام عليك يا أمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت واسوأناه شمت أمير المؤمنين في وجهه فقال لها عمر لا بأس عليك رجك الله ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها * بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها مذ ولي الى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين دينارا مما تدعى عند وقوفها في المشرك بين يدي الله تعالى فحمر منه برىء وشهد على ذلك على بن أبي طالب وابن مسعود * ثم دفع الكتاب الى ولده وقال اذا أنا مت فاجعله في كفى ألقى به ربي * قال بعض الكتاب وهو أول من أرخ التاريخ وذلك في سنة ست عشرة وفيها كان فتح بيت المقدس صلحا وفيها نزل سعد بن أبي وقاص على الكوفة وحصرها وهو أول من دون الدواوين ومصر الامصار وفتح الفتوحات الكثيرة ففتح دمشق ثم الروم ثم فارس ثم انتهى الفتح الى حص وحلوان والرقه والرها وحران ورأس العين وخابور ونصيبين وعسقلان وطراباس وما يليها من الساحل وبيسان واليرموك والاهواز وقيسارية

قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبي جعفر وعياش بن عباس العتابي وغيرهما يزيد بعضهم على بعض قالوا ولما كانت سنة ثمان عشرة وفد عمر بن الخطاب الجابية قام اليه عمرو بن العاص نخلابه فقال يا أمير المؤمنين ائذني أن أسافر الى مصر وحرضه عليها وقال انك ان فتحها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم وهي أكثر الارض أموالا وأعجزهم على القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر فعد له على أربعة الاف رجل كلهم من عك ويقال على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر سر

وأنا متخير الله في مسيرك وسيأتي اليك كتابي مسرعا ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكانت تخوف على المسلمين في وجههم ذلك فكتب الى عمرو بن العاص أن ينصرف عن مصر فكتب الى عمرو بن العاص ان هو أخذ الكتاب وفتحته أن يجد فيه الانصراف كما عهد اليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين فج والعريش فسأل عنها فقبيل انها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو ألسنتم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلى فقال ان أمير المؤمنين عهد الي وأمرني ان لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا مصر فسيروا وامضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه الى الفسطاط وكان أول موضع قوتل فيه الفرما فانته الروم قتالا شديدا نحو شهر حتى فتح الله على يديه وكان بالاسكندرية أسقف للقبط اسمه بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب الى القبط يعلمهم انه لا يكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع وبأمرهم يتلقى عمرو ومعاونته على الروم فصار القبط الذين في الفرما يومئذ لهم وأعوانا ثم توجه عمرو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى نزل القواصر فنزل ومن معه ثم تقدم وهو لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى بليس فقاتلوه بها نحو من شهر حتى فتحها ثم مضى لايدافع الا بالامر الخفيف حتى أتى أمدين فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح فكتب الى عمر يستمه فأمدته بأربعة آلاف رجل تمام ثمانية آلاف فسار عمرو عن معه حتى نزل على الحصن فحاصروهم بالقصر الذي يقال له باب ليون حينما قاتلهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب الى عمر بن الخطاب يستمه فأمدته بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل وكتب اليه اني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم ان معك اثني عشر ألفا ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة * وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سلك الحديد موتدة بأبنية الابواب فلما قدم المدد الى عمرو بن العاص أتى الى القصر ووضع عليه المخنثيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الاعيرج واليا عليه وهو مندقور فرمى عمرو بالمخنثيق على الروم وطال القتال بين الفريقين أباما كثيرة والقبط يعاونون العرب على القتال سراكرها في الروم فلما أبطأ الفتح قال الزبير اني أهب نفسي لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سبعا الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام وأمرهم ان سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا فما شعروا الا بالزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجماع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير تبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد

افتحموا جميعا فهزموا فعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقفتم المسلمون الحصن
 فحينئذ سأل المقوقس عمرو بن العاص الصلح ودعاه اليه على أن يفرض للعرب على القبط
 دينارين على كل رجل منهم فأجابهم عمرو الى ذلك قيسل وكان مكثهم على باب القصر حتى
 فتحوه سبعة أشهر وكان قد نضح المقوقس وجاعة من أكبر القبط وخرجوا من باب القصر
 القبط الى فلقوا بالجزيرة وأمرهم بقطع الجسر وذلك في جري النيل وتخلف الاعرج في الحصن
 ثم ركب هو وأهل القوة والشرف بعد قليل وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ولحقوا بالمقوقس
 في الجزيرة فأرسل المقوقس الى عمرو بن العاص يقول « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألحتم في
 قتالنا وطال مقامكم في أرضنا وانما أنتم عصابة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا عليكم
 ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى في أيدينا فأرسلوا لنا
 رجلا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الامر فيما بيننا على ما نتجرب ونقطع
 عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جوع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه * فرد
 عليهم عمرو مع رساله أن ليس بيني وبينكم الا احدي ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام
 فنكنتم لنا اخوانا وكان لكم مالنا وان آيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون واما ان
 جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فرد اليه المقوقس رساله
 وقال ابعدوا الينا رسلا منكم نعاملهم وتداعى نحن وهم على ما عسى أن يكون فيه صالح
 لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وهو أقدم من أدرك
 الاسلام من العرب وطوله عشرة أشبار وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم فلما ركبوا
 السفن الى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة وتكلم معه وقال انظر الذي تريد فيبينه لنا فليس
 بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم اليها الا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت بذلك
 أمرني الامير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل الينا
 فلم يقبل أصحاب المقوقس ذلك وأمرهم بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة فعاد الفريقان
 بعد ذلك للقتال وانحازت السفن كلها الى الجزيرة وصار المسلمون قد أحذق بهم الماء من كل
 وجه لا يقدر على أن ينفذوا أو يتقدموا نحو الصعيد ولا الى غير ذلك من المدائن والقرى
 وراسل عمرو بن العاص المقوقس وبلغ فأجابهم المقوقس وقال نجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي
 ونفر من أصحابك فان استقام الامر بيننا تم لنا ذلك وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه فاستشار
 عمرو أصحابه في ذلك وقال قد علمت ما عهد الي أمير المؤمنين في عهده فان أجابوا الى خصلة من
 الخصال الثلاث التي عهد الي بها أحببتهم اليها وقبلت منهم مع ما قد حال بيننا وبين ما تريد
 من قتالهم فأذعنوا واجتمعوا على عهد بينهم وتقررت القاعدة على أن يفرضوا على جميع من
 بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضعهم ومن بلغ الحلم
 منهم ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء وعلى المسلمين
 عليهم النزول لمساكنهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك

كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وان لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها قط ووافق المقوقس على ذلك وفرض عمرو بن العاص على نفسه القيام بكرامة المقوقس وأن لا يشاغبه على ما في يده ولا يسلبه حقه وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم اثني عشر ألف ألف دينار كل سنة وقيل بلغت غلتم ثمانية آلاف ألف

وشرط المقوقس للروم أن يتخبروا فمن أحب منهم أن يقيم على هذا الشرط أقام على هذا الأمر الذي هو مفترض عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل فان قبل ذلك ورضيه جازعاهم والا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله * قال الراوي فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول في كتابه انما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروه هم عنا ولا أراهم الا فاعلون ذلك فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قدر آيت فجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كبريتكم وقوتكم على قدر قوتهم وضعفهم كما كلفناهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك * وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا لجماعته واتفق المقوقس وعمرو بن العاص على أن يكون القبط له أعوانا ويقبواله الانزال والضيافة والاسواق والجنسور ما بين القسطنطينية ففعلوا واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم التقوا ببلدة سلطيس فاقتتلوا بها قتالا شديدا ثم انهزموا ثم التقوا بالكربون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو واشتد القتال المسلمين شدة بالغة وأبلى المسلمون بلاء حسنا وما زال القتال حتى بلغ الروم الاسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لاترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الاطعمة والعلافة وغير ذلك ورسل ملك الروم يختلف إلى الاسكندرية في المراكب بمائة الروم وتجهز هرقل ملك الروم لقتال المسلمين بمدينة الاسكندرية فأدرسته المنية قبيل قيامه ومات سنة خمس وأربعين وسبعمائة لليباد أي سنة ثلاث وعشرين للهجرة ٦٦٠ وما زالوا على قدم القتال حتى فتحت الاسكندرية وهرب الروم في البر والبحر فغلب عمرو بن العاص بالاسكندرية من أصحابه ومضى بمن معه في طلب من هرب من الروم في البر فرجع من كان هرب من الروم في البحر

الى الاسكندرية فقتلوا من كان بها من المسلمين الا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرو بن العاص
فكر راجعا ففتحها وأقام بها وكتب الى عمر بن الخطاب ان الله قد فتح علينا بالاسكندرية عنوة بغير
عقد ولا عهد فكتب اليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره أن لا يجاوزها * قال ابن عبد الحكم
وحدثنا عثمان بن صالح عن أبي لهيعة قال بعث عمرو بن العاص معاوية بن حديج وافدا
الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشيرا له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معي كتابا قال له
عمرو وما تصنع بالكتاب ألت رجلا أعرايبا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم
على عمر وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا وقال الحمد لله * قال وحدثنا ابراهيم بن سعد
البلى قال كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أما بعد فاني فتحت مدينة
لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف
يهودى وأربعائة ملةسى للولث * وأخرج عن ابراهيم بن سعد البلى المذكوران سبب فتح
الاسكندرية أن رجلا كان يقال له ابن بسامة كان بوابا فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على
نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل

(مطلب)

(فى الخلاف بين العلماء فى مصر هل فتح صلحا أو عنوة)

من قائل انها فتحت صلحا قال ابن عبد الحكم حدثنى عثمان بن صالح أخبرنا الليث
قال كان يزيد بن أبى حبيب يقول مصر كلها صلح إلا الاسكندرية فانها فتحت عنوة
وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر بصلح غير الاسكندرية
وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس ومصيل وبلهيت * وأخرج ابن عبد
الحكم عن يزيد بن أبى حبيب قال كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقضوا العهد فسيبوا
منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطا وقرى
سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى قراهم وصيرهم وجاعة
القبط أهل ذمة * وأخرج يحيى بن أيوب ان أهل سلطيس ومصيل وبلهيت ظاهروا
الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنا فى
مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه
وكتب اليه عمر أن يجعل الاسكندرية وهؤلاء النسلات قريات ذمة للمسلمين وبضربون
عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلون فينا
ولا عبيدا ففعل ذلك

ومن قائل انها فتحت عنوة قال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الملك بن مسلمة وعثمان بن

صالح قال أخبرنا ابن لهيعة عن ابن هبيرة أن مصر فتحت عنوة وقال أخبرنا عبد الملك بن
 عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال سمعت أشياخنا يقولون ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا
 عقد وقال أنبأنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن وهب عن داود بن عبد الله الحضرمي أن أبا
 حيان أيوب بن أبي العالصة حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول لقد قدمت
 مقعدى هذا وما لاحد من قبض مصر على عهد ولا عقد الا أهل انطابلس فان لهم عهدا
 يوفى لهم به * حدثنا عبد الملك حدثنا ابن لهيعة عن أبي قتيبان به وزاد ان شئت قتلت وان
 شئت خست وان شئت بعث * وأخرج عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص قال فتحت
 مصر بغير عهد ولا عقد وان عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شيء تطرا
 للاسلام وأهله * وأخرج عن زيد بن أسلم قال كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل ما كان بينه
 وبين أحد من عاهده فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد * وأخرج عن الصلت بن أبي عاصم أنه
 قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح ان مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد
 ومن قال ان بعضها صلح وبعضها عنوة قال ابن عبد الحكم حدثنا يحيى بن خالد
 عن راشد بن سعد عن عقيل بن خالد عن ابن شهاب قال كان فتح مصر بعضها بعهد وزمة
 وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعا ذمة وحملهم على ذلك فمضى فيهم ذلك الى اليوم
 قلت * وقد أثبت أصحاب التاريخ من غير العرب من المتقدمين والمتأخرين أن مصر فتحت
 كلها صلحا بانفاق مع المقوقس عظيم القبط يومئذ تخلصا من ربة ظلم الروم وعسفهم وقد
 تلخص الفضاى فى كتابه انطط قصة فتح مصر تلخيصا وجيزا هو أقرب للصواب * قال لما قدم
 عمرو بن العاص رضى الله عنه من عند عمر رضى الله عنه كان أول موضع قاتل فيه الفرما
 قتالا شديدا نحو من شهر قال قال أبو عمرو الكندي وكان أول من شد على باب الحصن
 حتى اقتحمه اسمعق بن ولاة السبائي واتبعه المسلمون فكان الفتح وتقدم عمرو لا يدافع الا
 بالامر الخفيف حتى أتى أم دنين وهى المقس فقاتلوه بها قتالا شديدا وكتب الى عمر يستمه
 فامده باثني عشر ألف نفر فوصلوا اليه أرسلالا يتبع بعضهم بعضا وكان فيهم أربعة آلاف
 عليهم أربعة وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد
 وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ثم أحاط المسلمون بالحصن وأمير الحصن يومئذ
 المنصور الذى يقال له الاعيرج من قبل المقوقس بن قرقم اليوناني وكان المقوقس ينزل
 الاسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضرا الحصن حين حاصره المسلمون ونصب عمرو
 فسطاظه فى موضع الدار المعروفة بلسراييل التى على باب زقاق الزهرى ويقال فى دار أبى الزوام
 التى فى أول زقاق الزهرى ملاصقة لدار اسراييل وأقام المسلمون على باب الحصن محاصرين
 للروم سبعة أشهر * ورأى الزبير خلاهما بلى دار أبى صالح الحوراني الملاصقة لحمام ابن نصر
 السراج عند سوق الحمام فنصب سلما وأسنده الى الحصن وقال انى أحب نفسى لله عز وجل
 فئن شاء أن يتبعنى فليتبعنى فتمعه جماعة حتى أوفى على الحصن فكبر وكبروا ونصب شرحبيل

ابن حسنة المرادي سما آخر مما يلي ذقاق الزمامرة ويقال ان السلم الذي صعده عليه الزبير كان موجودا في داره التي بسوق وردان الى أن وقع حريق فاحترق ولما رأى المقوقس أن العرب قد ظفروا بالحصن جلس في سفنه هو وأهل الرفعة من القوم وكانت ملصقة بباب الحصن الغربي فلهقوا بالجزيرة وقطعوا الجسر وتحصنوا هناك والنيل حينئذ في مده وتكلموا في أمر الصلح فبعث عمرو بعبادة بن الصامت الى المقوقس فصالحه المقوقس على القبط والروم على أن للروم الخيبر في الصلح الى أن يوافي كتاب ملكهم فان رضى تم ذلك وان سخط انتقض ما بينه وبين الروم وأما القبط فبغير خيبر قال وكان الذي انعقد عليه الصلح أن فرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس في كل سنة من البالغين شريفهم ووضعهم دون الشيوخ والاطفال والنساء على أن للسلم عليهم النزل والضيافة حيث نزلوا وضيافة ثلاثة أيام لكل من ينزل منهم وأن لهم أرضهم وبلادهم لا يتعرضون في شيء منها أبدا اه **قلت** **﴿** فن قال ان مصر فتحت صلحا تعلق بهذا الصلح وقال الامر لم يتم الا بما جرى بين عبادة ابن الصامت وبين المقوقس وعلى ذلك أكثر العلماء من أهل مصر منهم عقبة بن عامر ويزيد بن أبي حبيب والليث بن سعد وغيرهم وذهب الذين قالوا ان مصر فتحت عنوة الى أن الحصن فتح عنوة فكان جميع الارض كذلك وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وذكر يزيد بن أبي حبيب أن عدد الجيش الذي كان مع عمرو بن العاص خمسة عشر ألفا وخمسمائة وقال عبد الرحمن بن سعد بن مقدم ان الذين جرت سهامهم في الحصن من المسلمين اثنا عشر ألفا وثلاثمائة بعد من أصيب منهم في الحصار من القتل والموت ويقال ان الذين قتلوا في مدة هذا الحصار من المسلمين دفنوا في أصل الحصن ثم سار عمرو الى الاسكندرية في شهر ربيع الاول سنة عشرين وقيل في جمادى الآخرة فأمر بفسطاطه أن ينزع فاذا بيمامة قد باضت في أعلاه فقال قد تحرمت في جوارنا أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها فأقروا الفسطاط في موضعه فلذلك سميت الفسطاط * وقال ابن قتيبة وانما العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط اه ونقل عمرو بن العاص الى الاسكندرية بعد افتتاحها والمقام بها في ذى القعدة سنة عشرين قال الليث أقام عمرو بالاسكندرية في حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل الى الفسطاط فاتخذها دارا اه

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبنائها مفروغا منها هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها فكاتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذن في ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل فكاتب عمر الى عمرو بن العاص اني لأحب نزول المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف فتحوّل عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط * ولما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل موضع الفسطاط

انضمت القبائل بعضها الى بعض وتقاتلوا في المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج
التجيبى وشريك بن سمى الغيطى بن مراد وعمرو بن حزم الخولانى وحيويل بن ناسرة المعافرى
فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك في سنة احدى وعشرين * ذكره
الكندى * وقد كان المسلمون حين اختطوا تركوا بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق
دوابهم وتأديبها فلم يزل الامر على ذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان فأقطع في الفضاء وبنيت به
الدور * وأما الاسكندرية فلم يكن بها تخطيط وانما كانت أخاذ من أخذ منزلا نزل فيه هو
وبنوه وبنو يمه وفي قول ليزيد بن أبى حبيب ان الزبير بن العوام اختط الاسكندرية * وفتح
عمر بن الخطاب في خلافته أيضا عدا ماتقدم ذكره تستر ونهاوند والرى ومايلها واصهان
وبلاد فارس واصطخر وهمذان والنوبة والبرلس والبربر وغير ذلك قيل وكانت درته
أهيب من سيف الحجاج ومع ذلك كله بقى على حاله كما كان قبل الولاية في لباسه وزيه وأفعاله
وتواضعه يسير منفردا في حضره وسفره من غير حرس ولا حجاب لم تغيره الامرة ولم يستطل
على مسلم بلسانه ولا حاجب أحدا في الحق

وقتل عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين للهجرة قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة
واسمه فيروز وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم لانه كان يصنع الارحاء فلقى عمر يوما
فقال يا أمير المؤمنين ان المغيرة قد أثقل على غلتي فكلمه لى ليخفف عني فقال له عمر اتق
الله وأحسن الى مولائك فغضب أبو لؤلؤة وقال يا عجباه قد وسع الناس عدله غيرى وأصر على
قتله واصطنع له خنبرا له رأسان وسمه ويحين به عمر فجاء عمر الى صلاة الغداة * قال عمرو بن
ميمون انى لقائم في الصلاة وما بينى وبين عمر الا ابن عباس رضى الله عنهما فما هو الا أن
كبر فسمعه يقول قتلنى الكلب حين طعنه وطار العلي بسكين كانت ذات طرفين لا يمر على
أحد يمينا وشمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات سبعة وقيل تسعة فلما رأى
ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما علم أنه مأخوذ نحر نفسه فقال عمر قاتله الله لقد
أمرت به معروفا ثم قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الاسلام وكان أبو لؤلؤة
مجوسيا توفى في ذى الحجة لاربع عشرة ليلة مضت منه في السنة المذكورة بعد طعنه بيوم
وليلة عن ثلاث وستين سنة ودفن مع صاحبه في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم اه

قال صاحب حياة الحيوان في باب الدال المهملة روى مسلم وغيره أن عمر رضى الله عنه
خطب الناس يوما فحمد الله وأثنى عليه ثم قال انى رأيت رؤيا لم أرها الا لخصور أجلي وهى
أن ديبكا تقرنى ثلاث نقرات * وفي لفظ رأيت كأن ديبكا أجر تقرنى نقرة أو نقرتين فحدثتها
أسماء بنت عميس فحدثتنى بأنه يقتلنى رجل من الاعاجم وكان هذا القول منه يوم الجمعة
فطعن يوم الاربعاء رضى الله عنه اه قال وروى الحاكم عن سالم بن أبى الجعد عن معدان
ابن أبى طلحة عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال على المنبر رأيت فى المنام كأن ديبكا
تقرنى ثلاث نقرات فقلت أبعمنى يقتلنى وانى جعلت أمرى لهؤلاء الستة الذين توفى رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وهو عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فمن استخلفوه فهو الخليفة * وذكر ابن خلكان وغيره أن عمر لما طعن اختار من الصحابة ستة نفر وهم المتقدم ذكرهم وكان سعد بن أبي وقاص غائبا وجعل عبد الله ابنه مشيرا وليس له من الامر شئ وأقام المسورين مخزومة وثلاثين نفسا من الانصار وقال ان اتفقوا على واحد الى ثلاثة أيام والافاضروا رقاب الكل فلا خير للمسلمين فيهم وان افرقوا فرقتين فالفرقة التي فيها عبد الرحمن بن عوف * وأوصى أن يصلى صهييب بالناس ثلاثة أيام فأخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الشورى واختار عثمان فبايعه الناس (قلت) وقد نسب أهل التاريخ هذه الفعلة لعمر من أشنع الفعال وأشدّها ضررا بالاسلام وأهله ونقل ابن العباس بن عبد المطلب انه قال لعلي يا ابن أخي لا تدخل نفسك في الشورى مع القوم فاني أخاف أن يخرجوك منها فتبقى وصمة فيك فلم يقبل منه * قال ولما طعن عمر سئل ما أحب الاشربة اليك يا أمير المؤمنين قال النبيذ فسقوه نبذوا نخرج من برحه فقال قوم نبسند وقال قوم دم فسقوه لبنا نخرج من برحه فقبل له أوص يا أمير المؤمنين فأوصى بالشورى قال ويقال ان عبيد الله بن عمرو وب علي الهرمزان قتلته وقتل معه رجلا نصرانيا من أهل نجران كانا قد اتهما باغراء أبي لؤلؤة بعمر رضى الله عنه وقتل بنتا طفلة لابي لؤلؤة ووارهم عثمان رضى الله عنه وخلق عبيد الله بمعاقبة في خلافة علي رضى الله عنه * قال وكان في أيام عمر الفتوحات العظام وهو الذي سمى الغزوات الشواتي والصوائف وهو أول من أרך التاريخ بعام الهجرة وأول من دعى أمير المؤمنين وأول من ختم الكتب وكان في يده خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول من ضرب بالدرة وجلها وأول من قال أطال الله بقاءك قالها لعلي رضى الله عنهما وهو الذي أقر المقام الى موضعه اليوم وكان ملصقا بالباب وهو أول من جمع الناس على امام واحد في التراويح وحج بالناس عشرين متواصلة آخرها سنة ثلاث وعشرين ومعه نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهوادج ورجع الى المدينة فرأى الرؤيا المتقدمة اه

واستعمل عمر بن الخطاب في خلافته على مصر بعد فتحها في سنة تسع عشرة للهجرة عمرو بن العاص فضرب عمرو على أهلها الجزية كما تقدم بك بيانه وبالغ في ارباب الناس واذلالهم وجمع ما عندهم من الاموال والكنوز واخطط مصر قيسل والاسكندرية والجزيرة وكان الى هذا الحين قد تم له فتح سائر البلاد الا دمياط وكان العامل عليها يومئذ من قبيل الروم (الهاموك) أحد أهارب المقوقس فراسله عمرو في الادعان والتسليم فامتنع وقال لا يبيل الى ذلك فطاوله فلم يذعن وأصر على ما هو عليه فأنفذ له عمرو المقداد بن الاسود في جماعة من المسلمين فلاقاه (الهاموك) في عسكر واقتتل الفريقان قتالا شديدا فكانت بينهم سجالا ومات ابن الهاموك في ساحة القتال فارتد الهاموك الى دمياط وجمع اليه أصحاب الرأي وكلهم في الامر قيل وكان بينهم رجل حكيم مسموع الكلمة فقال أيها الاميرانا لم نسمع عن هؤلاء القوم

منذ جاؤا الى هذه الديار ووطؤا أرضها الا مايدل على تأييدهم ونصرهم وهاهم قد فتحوا البلاد
 وقهروا العباد وبسطوا يدهم على نلك الممالك الواسعة فالرأى عندى أن تعقد مع القوم صلحا
 تحقن به الدماء وتحفظ الاعراض والاموال وانظرالى ماجرى مع المقوقس وأصحابه فقد صالحوا
 القوم وكفاهم الله شرهم قيل فلم يقبل الهاموك كلامه وبناتوا ليلتهم تلك وأصبح الهاموك فنادى
 فى عسكره بالخروج لقتال المسلمين فلم يتكامل خروجهم حتى سمعوا تكبير المسلمين على أسوار
 المدينة فسقط الهاموك فى يده وتسلم المسلمون المدينة وجاء الخبر الى عمرو بن العاص بالفتح
 ففرح فرحا لا يوصف وسار المقداد بن الاسود بن بقی معه من المسلمين الى فتح تانس
 فقاتله أهلها قتالا شديدا وما زال يقاتلها أياما حتى تم له فتحها فلم يبق بعد ذلك شئ بغير فتح
 واشتد عمرو بن العاص فى احصاء أهل البلاد وتقدير الجزية عليهم فكان يحبس منهم ما يحتاج
 اليه ويبعث الى عمر بن الخطاب بما بقى منها * قال ابن عبد الحكم وكان عمرو بن العاص
 لما استوثق له الامر أقر قبضها على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية
 وكثر أهلها زيد عليهم وان قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساؤها
 فيتناظرون فى العارة والخراب حتى اذا أقرؤا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى
 الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم
 ترجع كل قرية الى قسمتهم فيجمعونها وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة فيبدؤن
 فيخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وجماداتهم ومعدياتهم من جصلة الارض ثم يخرج
 منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا الى ما فى كل قرية من الصنيع
 والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما
 كانت الا للرجل الذاب أو المتزوج ثم نظروا فيما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد
 الارض ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم فان عجز أحد منهم وشكى
 ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة
 أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فان تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على
 قراريط الدينار أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الارض على ذلك وجعل عليهم عمرو بن
 العاص لكل فدان نصف اردب قمح وويتين من شعير الا القرظ فلم يكن عليه ضريبة * قال
 عبد الملك بن الليث بن سعد كانت وية عمر بن الخطاب فى ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد
 واستقامت الامور لعمرو فعمد الى اصلاح ما أفسدته الحروب وعينت به أيدي الجور
 والعسف من العمار والترع والخليجان والجسور فهد الطرق وسهل المسالك وحفر الخليجان
 لرى الاراضى وأصلح مقياس النيل وأعادها الى ما كان عليه من قبل وأقام العرفاء والمشايخ
 للقرى والبلاد من أنبائها فاستقامت الاحوال واطمأنت قلوب الرعية وخلدوا الى السكون
 والطاعة ورتب المحاكم للفصل فى الخصومات بين أهل البلاد فلم يكن لعمرو ولا لغيره من
 أصحاب الفتح دخل فى ذلك البتة ولا كلمة مقولة وأوسع صدره للعظام والكبراء من أهل

البلاد فأحبوه ومالوا اليه وأخلصوا له النية فعلت كلمته وعظمت شهرته ودانت له عظام
 الامور وعمرت القرى وازدهت البلاد واتسعت مائة ثروتها وعادت الى رونقها القديم وضافت
 بأهلها أوكدت * حدثنا عثمان بن صالح وعبدالله بن صالح قالوا حدثنا الليث بن سعد قال لما
 ولي ابن رفاعة مصر خرج ليخصى عدة أهلها ويتطرفي تعديل الخراج عليهم فقام في ذلك ستة
 أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الاعوان والكتاب يكفونه ذلك بجهد وتشهير
 وثلاثة أشهر بأسفل الارض فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يخص فيها
 في أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية قال وحدثنا
 عبدالله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمرا جبي مصر اثني عشر ألف ألف وجباها المقوقس
 قبله ستة وعشرين ألف ألف فعند ذلك كتب اليه عمر بن الخطاب * بسم الله الرحمن الرحيم
 من عبدالله عمر أمير المؤمنين الى عمرو بن العاص * سلام عليك فاني أجد اليك الله الذي لا اله
 الا هو * أما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه فإذا أرضك أرض واسعة عريضة
 ربيعة وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة في بر وبحر وانها قد عاجلتها الفراعنة وعملوا فيها
 عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم فحجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف
 ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير خطوط ولا جذب ولقد أكثرت في مكاتبك في
 الذي على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تراث ورجوت أن تفيق فترفع
 الى ذلك فاذا أنت تأتيني بعاريض تعابها لا توافق الذي في نفسي ولست قابلا منك دون
 الذي كنت تؤخذه من الخراج قبل ذلك ولست أدري مع ذلك ما الذي نفرط من كتابي وقبضك
 فلئن كنت مجربا كافيا صحبنا ان البراءة لنا فعة وان كنت مضيعا نطعا ان الامر لعلي غير
 ما تحدث به نفسك وقد تركت أن أتلي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع الى
 ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا ان عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلقف اتخذوك
 كهفا وعسدي باذن الله دواء فيه شفاء عما سألك فيه فلا تجزع أبا عبدالله أن يؤخذ منك
 الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق أبلج ودعني وما عنى تتلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام
 فكتب اليه عمرو بن العاص * بسم الله الرحمن الرحيم * لعبدالله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن
 العاص سلام عليك فاني أجد اليك الله الذي لا اله الا هو * أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في
 الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيها من عمل الفراعنة قبلي وإعجابها من خراجها
 على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمري الخراج يومئذ أوفر وأكثر والارض أعمر
 لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام وذكرت أن
 النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها وأكثر في كتابك وأنت وعرضت وثربت وعلمت
 أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فحئت لعمري بالمقطعات المقذعات ولقد كان لك فيه
 من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد علمنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم
 ولئن بعده فكنا بمحمد الله مؤدين لاماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك

فبيحا والعمل به شيئا فتعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر
 السيم والاجترأ على كل مأثم فأمص عملك فان الله قد زهني عن تلك الطعم الدنيسة والرغبة
 فيها بعد كتابك الذي لم تسبق فيه عرضا ولم تكرم فيه أبا والله يا ابن الخطاب لانا حين براد
 ذلك مني أشد غضبا لنفسي ولها انزاها واكراما وما علمت من عمل أرى عليّ فيه تعللا ولكني
 حفظت ما لم تحفظه ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء
 كنت بها عالما وكان الانسان بهامني ذلولا ولكن الله عظم من حقلك ما لا يبجل والسلام

فكتب اليه عمر بن الخطاب من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني
 أجد اليك الله الذي لا إله الا هو * أما بعد فاني قد تعجبت من كثرة كتبك اليك في ابطائك
 بالخراج وكتابك التي بثنيات الطرق وقد علمت أني لست أرضى منك الا بالحق البين ولم أقدمك
 الى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن
 سياستك فاذا أتاك كتابي هذا فاجل الخراج فانما هو فيء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم
 محصورون والسلام

فكتب اليه عمرو بن العاص * بسم الله الرحمن الرحيم * لعمر بن الخطاب من عمرو بن
 العاص سلام عليك فاني أجد اليك الله الذي لا إله الا هو * أما بعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين
 يستبطني في الخراج ويرغم أني أحميد عن الحق وأنكب عن الطريق واني والله ما أرغب عن
 صالح ما تعلم ولكن أهل الارض استنظروني الى أن تدرك غلتم فنظرت للمسلمين فكان الرفق
 بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما اغني بهم عنه والسلام

فلما استبطن عمرو بن الخطاب الخراج كتب اليه أن ابعث الى رجلا من أهل مصر فأرسل
 اليه رجلا قديما من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الاسلام فقال يا أمير المؤمنين
 كان لا يؤخذ منها شيء الا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر الى العمارة وانما يأخذ ما ظهر له كأنه
 لا يريد الا للامام واحد فعرف عمر مقاله وقبل من عمرو بن العاص ما كان يعتذره * وقال ابن
 عبد الحكم حدثنا هشام بن اسحق العامري قال كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى
 عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتي عمارتها وخراجها فسأله عمرو فقال
 له المقوقس تأتي عمارتها وخراجها من خمسة وجوه أن يخرج الخراج في لبنان واحد عند
 فراغ أهلها من زرعها ويدفع خراجها في لبنان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها
 وتحفر في كل سنة خلجها وتسدد ترعها وجسورها ولا يقبل مظل أهلها يريد البغي فاذا فعل
 هذا فيها عمرت وان عمل فيها بخلافه خربت * قال ابن عبد الحكم حدثنا عثمان بن صالح عن
 ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال كانت فريضة مصر لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء
 قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألفا معهم الطوريات والمساحي والاداءة يعقبون
 ذلك لا يدعون شتاء ولا صيفا اه

وكان في خلال المدة من مجيء هرقل ملك الروم الى مصر واشتداده على المتأصلين من

أهل البلاد كما تقدم الكلام على ذلك في محله الى فتوح مصر على يدي عمرو بن العاص قد مات اطناسيوس بطرک الاسكندرية بعد أن أقام اثنتي عشرة سنة وقد اختلف الكتاب فيما اذا كان هو الذي هاداه اطناسيوس بطرک انطاكية وقدم عليه زائرا أو هو داميانوس خامس ثلاثي بطاركة الاسكندرية فلما مات أقاموا بعده اندرونيقون وهو سابع ثلاثيهم فلبث ست سنين ومات في ثامن طوبة * وفي أيامه خربت جميع الديارات واشتد الامر على النصارى شدة عظيمة للغاية وأبقى الكثير من الرهبان والراهبات الى بعض الجبال فرارا ثم أقاموا بعده بنيامين وهو ثامن ثلاثيهم وكان متأصلا وهو من مريوط وكان ورعا تقيا فعمل في أيامه دير أبو بشاي ودير سيدة أبو بشاي وهما في وادي هيب فلما جاءت الفرس ديار مصر كما تقدم بيان ذلك في محله واشتدوا على النصارى فزهاربا منهم وبقي مختفيا حتى زالت دولة الفرس على يدي هرقل وذلك أن هرقل المذكور لما نزل على مصر وحارب الفرس وطردهم من أرضها أقام بطرکا من الملكيين بالاسكندرية اسمه نيرش وكان مناسبا مع أن هرقل كان مارونيا وطلب بنيامين البطرک المذكور وسعى خلفه ليقتهله فلم يتمكن منه فظفر باخيه مينا فقبض عليه وأحرقه بالنار تشفيا وانتقاما وبنيامين هذا هو الذي راسل المقوقس وعظماء القبط في أمر المسلمين ومعاونتهم على قتال الروم وامدادهم بالذخرة والميرة فلما استتب الامر لعمرو بن العاص أرسل اليه في سنة عشرين هجرة فقدم على عمرو بالقاهرة فأكرمه وأجله وبالغ في تعظيمه لانه كان عونته على الروم بجلس في منصب البطرکيكية بعد غيابه عنه ثلاث عشرة سنة منها عشر سنين في ملك فارس على مصر وباقيها بعد ذلك وأخذ يتصرف في الأمور فأحسن التدبير وكديعيد للقبط ما أزالته عنهم الحروب والخطوب المتراكمة من العز والسودد وظل مهيبا معظما موقرا مسموع الكلمة حتى مات كما سيأتي ذكر ذلك في محله وكانت خلافة عمر بن الخطاب عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال وفي رواية وثلاثة عشر يوما فقام بالامر بعد موته عثمان بن عفان

(الفصل الثالث)

(في خلافة عثمان بن عفان)

ثم قام بالامر بعده عثمان بن عفان تشاور أهل الحل والعقد بعد دفن عمر بثلاثة أيام واتفقوا على مبايعته وهو ابن عم صاحب الشريعة الاعلى بوبيع له بالخلافة في أول يوم من سنة أربع وعشرين للهجرة أي سنة أربع وأربعين وستمائة لليلاد * قال أصحاب التاريخ انه لم يرل اسمه في الجاهلية والاسلام عثمان ويكنى بأبي عمرو وأبي عبد الله والاول أشهر وينسب الى أمية بن عبد شمس فيقال الاموي يجتمع مع صاحب الشريعة الاسلامية في

عبد مناف ويدي بنى النورين قبل لانه تزوج بانتي صاحب الشريعة رقية وأم كاثوم وهو أول من هاجر الى الحبشة فأزا بدينه ومعه زوجته رقية وعد من البدرين ومن أهل بيعة الرضوان ولم يحضرهما وكان غنيا كثيرا المال وكانت له شفقة ولما نوى زاد تواضعه وشفقته برعيته وكان يطعم الناس طعام الامارة ويا كل انخل والزيت وجهاز جيش العسرة بتسمائة وخمسين بعيرا باحلاسها وأقتابها وأتم الالف بخمسين فرسا * قال ابن قتيبة وافتتح في أيامه الاسكندرية (قلت نزل وجهها في خلافته) وسابور وافرقة وقبرص وسواحل الروم واصطخر الاخرى وفارس الاولى وخورستان وفارس الاخرى وطبرستان وكرمان وسجستان والاساورة وافرقة من حصون قبرص وساحل الاردن ومرو ولما عمرت المدينة وصارت وافرة من الانام وكثرت فيها الخسرات والاموال وجرى اليها بالخراج من الممالك وبطرت الرعية من كثرة الاموال والخير والنعم وفتشوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا جعلوا ينقون على خليفتهم عثمان لانه كان له الاموال العظيمة وكان له ألف مملوك ولانه كان يعطى المال لا قاربه ويوليههم الايالات الجليلة فأحس عثمان بذلك وسير في طلب عماله وكتب الى أهل الامصار اني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم وقد رفع الى أهل المدينة أن أقوما يشتمون ويضربون فمن ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم بأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالي أو تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين قبل فلما قرئ ذلك بالامصار بكى الناس ودعوا لعثمان وقدم عليه في الموسم بعض عماله وهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن سعد معاوية وأدخل معهم أيضا سعيد بن العاص وعمرا فقال ويحكم ما هذه الشكاية والاذاعة اني والله خائف أن تكونوا مصدوقا عليكم وما يصعب هذا الابي فقالوا ألم تبعث ألم يرجع اليك الخبر عن العوام ألم يرجع رسلك ولم يشفاهم أحد بشئ والله ما صدقوا ولا بوا ولم نعلم لهذا الامر أصلا ولا يحل الاخذ بهذه الاشاعة فقال عند ذلك أشيروا على فقال سعيد هذا أمر مصنوع يلقي في السر فيتحدث به الناس ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين خرج هذا من عندهم * وقال عبد الله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم اذا أعطيتهم الذى لهم فانه خير من أن تدعهم * وقال معاوية قد وليت فوليت قوما فلا يأتكم عنهم الاخير والرجلان أعلم بناحيتهما والرأى حسن الادب وقال عمرو أرى أنك قد نلت لهم رخصت عليهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن نلزم طريفة صاحبك فنشدت في موضع الشدة وتلين في موضع التين * قال عثمان قد سمعت كل ما أنتم به على ولكل أمر باب يؤتى منه ان هذا الامر الذى يخاف منه على هذه الامة كائن وان باب الذى يغلق عليه ليفتح فنسكفكفه بالين والمواناة الا فى حدود الله فان فتح فلا يكون لاحد على حجة وقد علم الله أنى لم آل الناس خيرا وان رضى الفتنة لادارة فطوبى لعثمان ان مات ولم يحركها سكنوا الناس وهبوا لهم حقوقهم فاذا تعوطيت حقوق الله فلانداهمنوا فيها * ثم افترقوا على ذلك وانفق المخرفون على عثمان على يوم يخرجون فيه بالامصار جميعها اذا سارعنا الامراء وخلت منهم فلم يتبأ لهم ذلك وكان بمصر محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة يحرضان على

عثمان فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وقيل في
 ألف وفيهم كنانة بن مبشر الليثي وسودان بن جران السكوني وقنبرة بن فلان السكوني
 وتقدمهم جميعا الغافقي بن حرب العكي وخرج أيضا أهل الكوفة وهم في عداد أهل مصر أو
 ما يقرب منه وخرج أهل البصرة وهم بعداد أهل مصر وأميرهم حرقوص بن زهير السعدي
 وكان خروجهم جميعا في شوال وأظهروا أنهم انما يريدون الحج فلما كانوا بالمدينة على ثلاث
 مراحل تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وكانوا يميلون الى طلحة وتقدم ناس من
 أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير ونزلوا الاعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وكانوا يميلون
 الى عليّ ونزل جميعهم بذي المروة ومنى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر
 وعبدالله بن الاصم وقالوا لهم لا تخرجوا حتى ندخل المدينة ونزاد لكم فقد بلغنا انهم عسكروا
 لنا فوالله ان كان هذا حقا واستحلوا قتالنا بعد علم حالتنا ان أمرنا لباطل وان كان الذي بلغنا
 باطلا رجعنا اليكم بالخير فذهبوا ودخلا المدينة فلحقيا أزواج صاحب الشريعة وطلحة والزبير
 فكاهما أبي ونهاهما فرجعا الى أصحابهما وكتب عثمان الى أهل الامصار يستجدهم وبأمرهم
 بالبحث لمنع عنه ويتعرف ما للناس فيه من الهرج والتألب على خلع بيعته واقامة خليفة
 غيره * قال بعض أهل التاريخ فخرج أهل الامصار على الصعب والذلول وسير كل عامل جماعة
 من عنده الى المدينة فلما كانت الجمعة التي على اثر دخولهم المدينة خرج عثمان فصلى بالناس
 ثم قام على المنبر فقال * يا هؤلاء الله الله فوالله ان أهل المدينة ليعلمون انكم ملعونون على
 لسان محمد صلى الله عليه وسلم فامحوا الخطأ بالصواب * فقام عند ذلك محمد بن مسلمة فقال أنا
 أشهد بذلك فأقعدته حكيم بن جبلة فقام زيد بن ثابت فأقعدته محمد بن أبي كريمة وثار القوم
 بأجمعهم وقامت الضوضاء واشتد اللجاج فخصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد عنوة
 وحصبوا عثمان حتى صرع من المنبر مغشيا عليه فأدخل داره * واستقتل جماعة من أهل
 المدينة مع عثمان منهم سعد بن أبي وقاص والحسين بن عليّ وزيد بن ثابت وأبو هريرة فأرسل
 اليهم عثمان في الانصراف فانصرفوا وأقبل عليّ وطلحة والزبير فذهبوا الى عثمان يعودونه
 من صرعته ويشكون اليه ما يجدون وكان عند عثمان نفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم
 فقاموا كلهم في وجه عليّ وقالوا أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذي تريد
 لتمررن عليك الدنيا فقام مغضبا وعاد هو ومن كان معه الى منازلهم * قال أهل التاريخ
 وصلى عثمان بالناس بعد ذلك ثلاثين يوما ثم منعه الصلاة وصلى بالناس أميرهم الغافقي
 واشتد بعض الناس لعثمان وكثرت أعداؤه وطلبوه ونزلوا ذاخشب كما تقدم القول
 يريدون قتله ان لم يقاع عما يكرهون منه فاشتد قلق عثمان وجاء الى عليّ بن أبي طالب فدخل
 عليه بيته فقال له يا ابن عم ان قرابتي قريبة ولى عليك حق عظيم وقد جاء ماترى من هؤلاء
 القوم وهم مصحبيّ ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك وأحب أن تركب اليهم فتردهم
 عنى فان في دخولهم عليّ توهينا لأمرى وحرارة عليّ فقال عليّ على أي شئ أردتهم عنك قال

على أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيتني فقال عليّ اني قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك
 فخرج فنقول ثم ترجع عنه وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد
 فانك أطعتم وعصيتني قال عثمان فانا أعصيم وأطيعك في أمر الناس قيل فركب عليّ ومعه
 من المهاجرين والانصار ثلاثون رجلا فأولوا المصريين فكلموهم وكان الذي يخاطبهم عليّ ومحمد
 ابن مسلمة فسمعوا مقالتهما ورجعوا إلى مصر ورجع عليّ إلى المدينة وأخبر عثمان برجوعهم
 وكلمه بما في نفسه فلما كان اليوم الثاني دخل مروان على عثمان فقال له تكلم وأعلم
 الناس أن أهل مصر قد رجعوا وانهم لم يتحققوا بطلان ما بلغهم عن امامهم (يعني عثمان)
 فأطاعه عثمان في ذلك فلما خطب الناس قال له عمرو بن العاص اتق الله يا عثمان فانك قد
 ركبت أمورا وركبناها معك فتب إلى الله تب فناداه عثمان وانك هناك يا ابن النابغة قلت والله
 جيتك منذ عزلتك عن العمل فصاح صائح من جهة أخرى تب يا عثمان إلى الله فرفع يديه
 وقال اللهم اني أول تائب فخرج عمرو بن العاص إلى الشام وجعل يحرض الناس على خلع
 بيعة عثمان * قال عمرو والله اني كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان * ولم يكن بأسرع من
 أن عاد المصريون إلى المدينة فانطلق اليهم محمد بن مسلمة يسألهم عن سبب عودهم فأخرجوا
 صحيفة في أنبوبة رصاص وقالوا وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من ابل الصدقة
 فقتلنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن
 الحنق وعروة بن المبياع وجسهم وحلق رؤسهم ولحاهم وصلب بعضهم * وفي رواية أخرى ان
 الذي كان يحمل الصحيفة الاعور السلمي فلما رأوه سألوه عن مسيره وهل معه كتاب فقال
 لا تسألوني في أي شيء هو ففتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والمصريون
 فلما عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة فدخل عليّ ومحمد بن مسلمة على عثمان وأخبراه
 بما قاله أهل مصر فاقسم بالله ما كتبته ولا علم لي به فقال محمد صدق هذا من عمل مروان
 ودخل عليه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فعرفوا الشرفهم وتكلموا فدكر ابن عديس
 ما فعل عبد الله بن سعد بالمسلمين في مصر وبأهل البلاد فيها أيضا والاستئثار في الغنائم فاذا
 قيل له في ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين وذكروا شيئا مما وقع بالمدينة أيضا ثم قاله وخرجنا
 من مصر ونحن نريد قتلك فردنا علىّ ومحمد بن مسلمة وضمنا النزوع عن كل ما تكلمنا فيه
 فرجعنا إلى بلادنا فرأينا غلامك وكتابك وعليه خاتمك تأمر عبد الله بجلدنا والمثلة بنا وطول
 الحبس فعند ذلك حلف عثمان انه ما كتب ولا أمر ولا علم * قال أصحاب التاريخ فقال عليّ
 ومحمد صدق عثمان فقال المصريون فمن كتبه قال لأدري قالوا فيجترأ عليك ويبعث غلامك
 ويحل من الصدقة (يعني من جمال عثمان المعدة للصدقة) وينقش على خاتمك ويبعث
 إلى عاملك بهذه الامور العظيمة وانت لاتعلم قال نعم فقال ما أنت الا صادق أو كاذب فان
 كنت كاذبا فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق وان كنت صادقا فقد
 استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الامر وغفلتك وخبت بطانتك ولا ينبغي لـا أن

تترك هذا الامر بيد من تقطع الامور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعتك الله فقال
 عثمان لا نزع قيصا ابسنيه الله ولكني اوتوب وانزع قالوا لو كان هذا اول ذنب تبته منه قبلنا
 ولكنك ارايتك تتوب ثم تعودولسنا منصرفين حتى نخلعك اوتنقتلك اوتلحق ارواحنا بالله تعالى وان
 منعك اصحابك واهلك قائلناهم حتى نخلعك اليك فقال اما ان اتبرا من خلافة الله فالقتل احب
 الى من ذلك واما قولكم تقاتلون من معنى فاني لا امر احدا بقاتلكم فن قاتلكم فبغير امرى قاتل
 ولو اردت قتالكم لكتبت الى الاجناد فقدموا على اولوجت ببعض اطرافي * وكثرت الاصوات
 واللفظ وعلت الضوضاء فقام على نخرج وأخرج المصريين ومضى على الى منزله فخاصر المصريون
 عثمان واشتد الحصار عليه قيل فارسل الى علي وطلحة والزبير فخصروا فاشرف عليهم عثمان
 وقال ايها الناس اجلسوا بجلسوا المحارب والمسلم فقال لهم يا اهل المدينة استودعكم الله
 واسأله ان يحسن عليكم الخلافة من بعدى ثم قال انشدكم بالله هل تعلمون انكم دعوتم الله
 عند مصاب عمر ان يختار لكم ويجمعكم على خيركم اتقولون ان الله لم يستجب لكم وهنتم
 عليه وانتم اهل حقه ام تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولي والدين لم يتفرق اهله
 يومئذ ام تقولون لم يكن اخذ عن مشورة انما كان مكابرة فوكل الله الامة اذ عصته ولم
 يشاوروا في الامامة ام تقولون ان الله لم يعلم عاقبة امرى * وانشدكم بالله اتعلمون لي من
 سابقة خبير وقدم خير قدمه الله لي * يحق على كل من جاء بعدى ان يعرفوا لي فضلها فهلا
 لا تقتلونني فانه لا يحل الاقتل ثلاثة رجل زني بعد احصانه او كفر بعد ايمانه او قتل نفسا بغير
 حق فانتم اذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف ابدا
 فقالوا اما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فان كل ما صنع الله خيرة ولكن الله
 جعلك بليمة ابتلي بها عباده واما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله صلى الله عليه
 وسلم فقد كنت كذلك وكنت اهلا للولاية ولكن احدثت ما علمته ولا تترك اقامة الحق عليك
 مخافة الفتنة عاما قابلا واما قولك انه لا يحل الاقتل ثلاثة فانا نجد في كتاب الله قتل غير
 الثلاثة الذين سميت * قتل من سعى في الارض فسادا وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه وقتل
 من حال دون شئ من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكبرت عليه
 ولم تقد من نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالامارة علينا فان زعمت أنك لم تكابرنا عليها فان
 الذين قاموا دونك ومنعوك منا انما يقاتلون لتمسكك بالامارة فلو خاعت نفسك لانصرفوا عن
 القتال معك * قيل فسكت عثمان ولزم الدار وامر اهل المدينة بالرجوع واقسم عليهم فرجعوا
 الا الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير واشسباههم واجتمع اليه
 ناس كثير فكانت مدة الحصار اربعين يوما وقد اشتدوا في الحصار بعد ثمان عشرة ليلة مضت
 شدة بالغة ومنعوا كل شئ حتى الماء * قيل ان طلحة هو الذي امر بذلك وناروا الى باب دار
 عثمان يريدون الدخول عليه وقتله فلم يمنعهم احد منه والباب مغلق لا يقدر على الدخول
 منه بخاوا بنار فأحرقوه والسقيفة التي على الباب ونار اهل الدار وعثمان يصلي فلما فرغ

جلس الى المصحف يقرأ فيه وقرأ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
 فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فقال لمن عنده بالداران رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قد عهد الى عهدا فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب الا وهم يطلبون ما هو أعظم
 منه فافتحم الناس الدار من الدور التي حولها ودخلوا من دار عمرو بن حزم الى دار عثمان حتى
 ملؤها ولم يشعر من بالباب وغلب الناس على عثمان ونهبوا رجلا يقتله فانتدب له رجل
 يدخل عليه فدخل عليه البيت فما سمع كلامه حتى عاد مدحورا وولى عن أصحابه ثم
 دخل آخر وآخر وكان آخر من دخل عليه من رجع محمد بن أبي بكر فقال له عثمان ويحك
 أعلى الله غضب هل على لك جرم أو حق أخذته منك فأخذ محمد بلحيته أى لحية عثمان
 وقال قد أخزالك الله يا عتل فقال لست بعتل ولكني عثمان وأمير المؤمنين فقال محمد ما أغنى
 عنك معاوية وفلان وفلان فقال عثمان يا ابن أخي فما كان أبوك ليقبض عليها يعني على لحية
 فقال محمد لوراك أبي تعمل هذه الاعمال أنكرها عليك والذي أريد بك أشد من قبضى عليها
 فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه وخرج وقيل بل طعن جبينه بمشقص كان
 في يده فلما خرج محمد وعرفوا انكساره نار قتيبة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي
 بمحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف واستقر بين يدي عثمان وسالت عليه
 الدماء وجاء سودان ليضربه فانكببت عليه امرأته وانفتحت السيف بيدها فقطع أصابعها فولت
 وضرب عثمان فقتله * وقيل ان الذي قتله كنانة بن بشر التميمي ودخل غلعة لعثمان لينصروه
 على القوم فانقضوا على سودان فضربوا عنقه ووثب قتيبة على الغلام الذي قتل سودان فقتله
 وانتهبوا ما في البيت وخرجوا ثم أغلغوه على ثلاثة قتلى فلما خرجوا وثب غلام لعثمان على
 قتيبة فقتله ونار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا ما على النساء وأخذ كل قوم التميمي
 مائة على نائلة فضربه غلام لعثمان فقتله وأتوا بيت المال فأنتموه وماج الناس وكثر
 الضجيج والاصياح قيل ووثب عمرو بن الحق على صدر عثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات
 قال فأما ثلاث منها فاني طعنت اياه الله تعالى وأما الستة فلما كان في صدرى عليه * وأرادوا
 قطع رأسه فووقت نائلة زوجها عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه فقال ابن عديس
 اتركوه وأقبل عمير بن ضائب فوثب عليه فكسر ضلعا من أضلاعه وقال سجننت أبي حتى مات
 في السجن * أخرج ابن عساکر عن أبي خلدة قال سمعت عليا رضى الله عنه يقول ان بنى
 أمية يزعمون أنى قتلت عثمان لا والله الذى لا إله الا هو ما قتلت ولا مالأت وقد نهيت فعصوني
 وعن سمرة قال ان الاسلام كان في حصن حصين وانهم ثلوا في الاسلام ثلثة بقتلهم عثمان
 لا تستد الى يوم القيامة وان أهل المدينة كانت تتم الخلافة فيهم فأخرجوها ولم تعد اليهم اه
 وقال المدائني قتل رضى الله تعالى عنه * يعنى عثمان * يوم الاربعاء بعد العصر ودفن يوم
 السبت قبل الظهر وقيل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين * وقال
 المهدي قتل في وسط أيام التشريق وأقام ثلاثة أيام لم يدفن ولم يصل عليه رضى الله تعالى

عنه وقيل صلى عليه جبير بن مطعم ودفن ليملا واختلف في مدة الحصار فقتل أكثر من
عشرين يوما وقيل تسعة وأربعون يوما * وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة الاثني عشر
يوما وقتل وهو ابن ثمانين سنة قاله ابن اسحق * وقال عميرة كانت خلافته احدى عشرة
سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وقتل وعمره ثمان وثمانون سنة * وقيل كانت خلافته
اثنتي عشرة سنة وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وقيل ابن ثلاث وثمانين سنة وقيل تسعين
وقيل غير ذلك

وفي أيامه انتقض عهد الاسكندرية * قال ابن عبد الحكم حدثنا ابن صالح عن الليث بن
سعد قال عاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين قدم فيها عليه عمرو قدمين استخلف
في احدهما زكرياء بن جهم العبدى على الجند ومجاهد بن جبير مولى بنى نوفل على الخراج فسأله
عمر عن استخلف فذكر له مجاهد بن عبيد فقال عمر مولى بنى غزوان قال نعم انه كاتب فقتل
عمر ان العلم ليرفع صاحبه واستخلف في القدمة الثانية عبد الله بن عمر قال حدثنا ثوبان بن أبي
رقية عن حيوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عن أبي رقية قال كان سبب نقض
الاسكندرية العهد أن صاحب اخنا قدم على عمرو بن العاص فقال أخبرنا ما على أحدنا
من الجزية فقال عمرو لو أعطيتني من الركن الى السقف ما أخبرتك انما أنتم خزنة لنا ان
كثرت علينا كثرتنا عليكم وان خفت عنا خففنا عنكم فغضب صاحب اخنا فخرج الى الروم
فقدم بهم فهزمهم الله وأسر القبطى فأقى به الى عمرو فقال له الناس اقتله قال لا بل انطلق
فجئنا بجيش آخر اه وقال عبد الله بن صالح كانت الاسكندرية انتقضت وجاءت الروم
وعليهم منويل الخصى في المراكب حتى أرسى بالاسكندرية فأجابهم من بها من الروم ولم يكن
المقوقس تحرك ولا نكث وكان عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قد عزل عمرو بن
العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم بالاسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر
عمرا حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة في قلب العدو ففعل وكان على
الاسكندرية سورها خلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم لهدم سورها حتى يكون
مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان فخرج عمرو في البر والبحر وضموا الى المقوقس من أطاعه
من القبط فأما الروم فلم يطعه منهم أحد فقال خارجة بن خزيمة لعمرو ناهضهم القتال قبل
أن يكثروا عددهم ولا آمن أن تمتص مصر كلها فقال عمرو لا ولكن أدهم حتى يسبوا
الى فأنهم يصيبون من مروا به فيخزي الله بعضهم ببعض فخرجوا من الاسكندرية ومعهم
من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرى فيشربون خورها وبأكلون أطعمتها وينهبون
ما مروا به فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نيقوس فلاقوهم في البر والبحر فبدأت الروم فرموا
بالنشاب فى الماء رميا حتى أصاب النشاب يومئذ فرس عمرو فى ابته وهو فى البر فقتر فنزل
عنه عمرو ثم خرجوا من البحر فاجتمعوا هم والذين فى البر فنضحوا المسلمين بالنشاب فاستأخر
المسلمون عنهم فحملوا على المسلمين جملة شديدة فولى المسلمون منها وانهمزم شريك بن سمى فى

خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفها خلف صفوف بني شد المسلمون عليهم فكانت هزيمتهم فطردهم المسلمون حتى ألحقوهم بالاسكندرية ففتح الله عليهم وقتل منويز الخصى وهدم سور الاسكندرية كله * فلما هزمت الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله ابن سعد على الخراج فقال عمرو أنا اذن كسك البقرة بقرنيها وآخر يحملها فأبى عمرو * ولما قتل عثمان بن عفان تولى الخلافة بعده علي بن أبي طالب وكان من أمر ولاية مصر ماسيدكر في محله

(الفصل الرابع)

(في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)

ثم قام بالأمر بعد قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد اختلف أهل التاريخ في كيفية بيعته فذهب بعضهم الى أنه لما قتل عثمان اجتمع أصحاب صاحب الشريعة من المهاجرين والانصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا عليا وضربوا عليه الباب ودخلوا وقالوا ان هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من امام ولا نعلم أحدا أحق بها منك قال لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به فقالوا ما نختار غيرك فردهم عن ذلك فأبوا فقال ان أيتم الابيعتي فان بيعتي لا تكون سرا ولا تكون الا في المسجد وكان في بيته وقيل في حائط لبني عمرو بن مبدول

ولما أصبحوا يوم البيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس المسجد وجاء علي وعليه ازار وطاق وعمامة خز ونعلاه في يده متوكئا على قوس فصعد المنبر وقال * أيها الناس عن ملا واذن ان هذا أمركم ليس لاحد فيه حق الا من أتمرتم وقد افرقنا بالامس على أمر وكنتم كارها لامركم فأيتم الا ان أكون عليكم ألا وانه ليس لي دونكم الا مفاتيح مالكم معي وليس لي أن آخذ درهما دونكم فان شئتم قعدت لكم والا فلا آخذ على أحد * فقالوا نحن على ما فارقتك عليه بالامس * فقال اللهم اشهد ولما جاؤا بطلحة لبياع فقال انما أبيع كرها فبائع وكان به شلل فقال رجل يعتاف وقيل حبيب بن ذؤيب لنا لله وإنا اليه راجعون أول يد بايعت يد شلاء لايتم هذا الامر ثم جرى بالزبير فقال مثل ذلك وبائع وفي الزبير اختلاف وقيل ان عليا قال لطلحة والزبير ان أحببتهما أن تبايعاني وان أحببتهما بايعتكما فقالا بل نبايعك * قال بعض أهل التاريخ وقد قال بعد ذلك انما فعلنا ذلك خشية على نفوسنا وعرفنا أنه لا يبايعنا ثم هربا الى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ولم يبايعه كثير من أهل مكة والمدينة وكان ممن لم يبايعه النعمان بن بشير وكان قد أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قطعت في دفاعها عن عثمان يوم قتله وقبص عثمان الذي قتل فيه وهرب به فلهق بمعاوية

في الشام فكان من وراء ذلك ما سيذكر في محله * وقيل ان صهبيا وسلمة بن سلامة بن
وقش وأسامة بن زيد لم يبايعوا عليا ولم يدعوا له بدا * ثم جئ به بعده بقوم كانوا قد تحلفوا
فقالوا نبايع علي إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزير والذليل فبايعهم ثم قام العامة
فبايعوا وصار الامر أمر أهل المدينة وكانهم كما كانوا فيه وتفرقوا الى منازلهم وبويع يوم
الجمعة نجس بقين من ذى الحجة والناس يحسبون بيعته من قبل عثمان وأول خطبة
خطبها حين استخلف جد الله وأثنى عليه ثم قال * ان الله أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير
والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر * الفرائض الفرائض أدوها الى الله تعالى يؤدكم الى
الجنة ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدد بالاخلاص
والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق لا يحمل دم امرئ
مسلم الا بما يجب * بادروا امر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وان
ما خلفكم الساعة تحذوكم تخففوا لتهقوا فانما ينتظر بالناس أخراهم * اتقوا الله عباد الله
في بلاده وعباده انكم مسؤولون حتى عن البقاع والهائم * أطيعوا الله فلا تعصوه واذا
رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض
ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية

خذها اليك واحذرن أبا حسن * انا غمّرت الأمر امرار الرسن
صولة أقوام كاشداد السفن * بمشقيات كغدران اللبن
ونطعن الملائ بلين كاشططن * حتى يمزون على غير عن

فقال علي

اني عجزت بحجة لا أعتذر * سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذبلي ما كنت أجر * وأجمع الامر الشيت المنتشر
ان لم يشاغبني العجول المنتصر * ان تتركوني والسلاح يبتدر
ثم نزل ورجع الى بيته وجعل يفرق عماله على الامصار فبعث عثمان بن حنيف على
البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على
مصر وسهل بن حنيف على الشام فلم يفلحوا وظهر معاوية بن معه ليفسد الامر على
علي وأرسل رجلا من بني عباس يدعى قبيصة الى علي ومعه طومار مختوم عنوانه من
معاوية الى علي وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول
فقدم الرجل الى المدينة في ربيع الأول فدخلها وقد رفع الطومار فقبضه الناس يتظرون
اليسه وعلوا أن معاوية معترض * قال ابن عباس أتيت عليا بعد قتل عثمان عند عودي من
مكة فوجدت المغيرة بن شعبه مستخليا به فخرج من عنده فقلت له ما قال لك هذا فقال قال
لي بعد مرته هذه ان لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس وان رأى اليوم تحرز
به ماني غد وان الضياع اليوم يضيع به ماني غد أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على

أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم اعزل من شئت فأبيت عليه ذلك وقلت لأداهن في ديني ولا أعطى الدنيا في أمرى قال فان كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية فان في معاوية جراءة وهو في أهل الشام يستمع منه ولك حجة في اثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاء الشام * فقلت لا والله لا أستعمل معاوية يومين ثم انصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنه يود أني مخطئ ثم عاد اليّ الآن فقال اني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتنى فيه ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان * قال ابن عباس فقلت لعلي أما المرة الاولى فقد نصحك وأما المرة الثانية فقد غشك قال ولم نصحني قلت لان معاوية وأصحابه أهل دنيا فتي ثبتم لا يبالون من ولي هذا الامر ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الامر بغير شوري وهو قتل صاحبنا ويؤلمون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع لك فعلى أن أقبله من منزله فقال علي والله لأعطيته الا السيف ثم قتل

وما ميتة ان متها غير عاجز * بعار اذا ما غالت النفس غولها

فقلت يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحرب خدعة فقال بلى فقلت أما والله لئن أطعني لاصدرنهم بعد ورد ولا تركنهم يتظرون في دبر الامور ولا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا ثم لك * فقال يا ابن عباس لست من هنالك ولا من هنات معاوية في شيء * قال ابن عباس فقلت له أطعني وألحق بمالك ينبع وأغلق بابك عليك فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجرد غيرك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحمانك الناس دم عثمان غدا فأبى عليّ فقال تشير عليّ وأرى فاذا عصيتك فأطعني قال فقلت افعل ان أيسر مالك عندي الطاعة فقال له عليّ تسير الى الشام فقد وليتها فقل ابن عباس ما هذا برأى معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان وان أدنى ما هو صانع أن يجلسني فيمحقكم عليّ لقرابتي منك وان كل ما حمل عليك حمل عليّ ولكن اكتب الى معاوية فخنه وعده فقال لا والله لا كان هذا أبدا * وكان المغيرة يقول نصحته فلم يقبل فغشسته وخرج فلحق بمكة وجعل عليّ يتجهز لاهل الشام ويكثر من جمع الرجال اذ جاءه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو آخر وانهم على الخلاف فاعلم عليّ الناس ذلك وان عائشة وطلحة والزبير قد مخطوا امارته ودعوا الناس الى الاصلاح * وكان سبب اجتماع طلحة والزبير وعائشة بمكة أن عائشة كانت خرجت اليها وعثمان محصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة فلما كانت بسرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن أبي سلمى وهو ابن أم كلاب فقالت له عائشة مهيم قال قتل عثمان وبقوا ثمانيا قالت ثم صنعوا ماذا قال اجتمعوا عليّ ببيعة عليّ فقالت ليت هذه انطبقت علي هذه ان تم الامر لصاحبك ردوني ردوني

فانصرفت الى مكة وهي تقول قتل والله عثمان مظلوما والله لا ظلمين يدمه فقال لها ولم والله ان أول من أمال جرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر قالت انهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الاخير خير من قولي الاول فقال لها ابن أم كلاب

فمنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام * وقلت انا انه قد كفر
فهينا أظعنالك في قتله * وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا * ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرا * يزيل الشبا ويقيم الصغر
ويبلس للحرب أوأبها * وما من وفي مثل من قد غدر

فانصرفت الى مكة فقصدت الحجر فسترت فيه فاجتمع الناس حولها فقالت * أيها الناس ان الغوغاء من أهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالامس وتموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحى سماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام والله لا يصعب من عثمان خير من طباق الارض أمثالهم والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا نخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماصوه * فقال عبد الله بن عامر الحضرمي وكان عامل عثمان على مكة هاأنا أول طالب فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية على ذلك وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان الى مكة ورفعوا رؤسهم وكان أول ماتكم بالجواز وتبعهم سعيد ابن العاص والوليد بن عقبة وسائر بنى أمية * وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية وهو ابن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم فأناخ بالابطح وقدم طلحة والزبير من المدينة فلقيا عائشة وانفقوا على الشخصوس الى البصرة فجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديا ان أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون الى البصرة فن أراد اعزاز الاسلام وقتال المهلين والطلب بشار عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا في ألف وقيل في تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة آلاف رجل فبعثت أم الفضل بنت الحرث أم عبد الله بن عباس رجلا من جهينة يدعى ظفرا فاستأجرته على أن يأتي عليا بالخبر فقدم على علي بكتابها فلما جاءه الخبر سار في تعينته التي تعبها لاهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخفين في تسعمائة وهو يرجو أن يدرك أصحاب عائشة فيجول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم وساروا حتى انتهوا الى الربرة فلما انتهوا اليها أتاهم خبر سبق عائشة ومن معها فأقام بها يأتمر ما يفعله وأتاه ابنه الحسن في الطريق فقال له لقد أمرتك فعصيتني فقتلت

غدا معصية لاناصر لك فقال له عليّ انك لا تزال تتحنن خنين الجارية وما الذي أمرتني فعصيتك
قال أمرتك يوم أحبط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل وليست بها ثم أمرتك يوم قتل
أن لا تباع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمرا دونك فأيت
عليّ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا
فإن كان الفساد كان عليّ يد غيرك فعصيتني في ذلك كله * فقال أي بني قد بايعوني طائعين غير
مكرهين فأنا مقاتل من خالفني عن أطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فكف عنك
يا بني * وأرسل إلى المدينة فأناه ما يريد من دابة وسلاح وأمر أمره وقام في الناس فخطبهم وسار
من الريزة وعليّ مقدمته أبو ليل بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعليّ
على ناقة حراء يقود فرسا كيتا فلما التقى الجمعان ترددت الرسل بينهما وطال الكلام في أمر
الصلح ووضع الحرب فأبى قوم عائشة الا القتال وأقبل كعب بن سور فأبى عائشة فقال أدركي
فقد أبى القوم الا القتال لعل الله أن يصلح بك فركبت وألبسوا هودجها الأذراع فلما برزت
من البيوت وهي على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وفتت واقتل الناس قتالا عظيما جدا
وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كاف عنه ويقول
أنتقلني يا أبا اليقظان فيقول لا يا أبا عبد الله * قال أهل التاريخ وإنما كف الزبير عنه
لقول صاحب الشريعة تقتل عمارا الفئة الباغية قالوا ولو لذلك لقتله * وبينما عائشة
واقفة اذ سمعت ضجة شديدة فقالت ما هذا قالوا ضجة العسكر قالت بخير أو بشر قالوا بشرفنا
بخافها الا الهزيمة فغضى الزبير من وجهه إلى وادي السباع وأما طلحة فأتاه سهم فأصابه
فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادي إلىّ إلىّ عباد الله الصبر الصبر ثم دخل البيوت ودمه
يسيل وهو يقول اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى فلما امتلأ خفه دما وثقل قال لغلامه
أردفني وأمسكني وأبلغني مكانا أنزل فيه فدخل البصرة فأنزله في دار خربة مات فيها وقيل
انه اجتاز به رجل من أصحاب عليّ فقال له أنت من أصحاب أمير المؤمنين قال نعم فقال امدد
يدك أبايعك فبايعه تخاف أن يموت وليس في عنقه بيعة ولما قضى دفن في بني سعد وكان
الذي رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره وأما الزبير فإنه مر بعسكر الاحنف بن قيس
فلما رآه الاحنف قال من يا بني بخير هذا وأشار إليه فقال رجل اسمه عمرو بن جرموز أنا
ثم تبعه فلما لحقه نظر إليه الزبير قال ما ورايك قال إنما أريد أن أسألك فقال غلام للزبير
كان معه انه معك قال الزبير ما بهولك من رجل وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز
الصلاة الصلاة فقال الزبير الصلاة ونزل ليصلي فاستدبره ابن جرموز وطعنه فقتله وأخذ
فرسه وسلاحه وخاتمه وخبلى عن الغلام فدفنه بوادي السباع ورجع إلى الناس بالخبير ثم سار
إلى عليّ ودفع إليه سيف الزبير فنظر إليه وقال طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم

وقالت عائشة لما انحلت الواقعة وانهمز الناس لكعب بن سور دخل عن الجمل وتقدم

بالعصف فادعهم اليه وناولته معصفا فاستقبل القوم فرموه بالسهم فقتلوه ورموا عائشة في هودجها فجعلت تنادى البقية البقية يابني ويعلوصونها الله الله اذكروا الله والحساب فلم يمتنعوا عنها فجعلت تحرض الناس فجعلت مضر البصرة حتى قصفت مضر الكوفة حتى زحم على وكانت راية على مع ابنه محمد فخنس على قفا ابنه محمد وقال له اجمل فتقدم وأخذ على الراية من يده وقال يابني بين يدي واشتدت الحرب وكثر الهول والسكر وتساقت النبال تباعا وأبى أهل الكوفة الا القتال ولم يريدوا الا عائشة وتزاحف الناس بعضهم على بعض ونظرت عائشة من يسارها فقالت من القوم عن يساري فقال لها صبرة بن شيمان بنوك الازد فصاحت يا آل غسان حافظوا اليوم جلاذكم الذي كنا نسمع به وعملت

وجاله من غسان أهل حفاظها * وكعب وأوس جالدت وشبيب فكان الازد يأخذون بعرجل يشموه ويقولون بعرجل أمنا ريحه ريح المسك وقالت لمن عن يمينها من القوم عن يميني قال بكر بن وائل قالت لكم يقول القائل وجاؤا الينا في الحديد كأنهم * من الغرة القعساء بكر بن وائل واشتد الفريقان في القتال شدة بالغة فكثرت الجرحى والقتلى في العسكر جميعا فقال قوم لا تزال الحرب أو يصرع الجمل وكره القوم بعضهم بعضا وأخذ عميرة بن يثربى برأس الجمل فكان لا يتقدم اليه أحد الا قتله حتى قتل هودون زمام الجمل ولم يزل الامر كذلك حتى قتل على خطام الجمل أربعون رجلا * قالت عائشة مازال جملي معتدلا حتى فقدت أصوات بني ضبة * قيل وأخذ الخطام سبعون رجلا من قريش وكلهم يقتل وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشه فكان لا يأخذ الخطام أحد الا قتل وما زال حتى ضاع الخطام ونادى على اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا فضربه رجل فسقط واجتمع القعقاع وزفر على قطع بطان البعير وجلا الهودج فوضعه وفروا من كان وراءه من الناس وتمت هزيمة أصحاب عائشة فلما انهزموا أمر على مناديا فنادى ألا لا تتبعوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور ثم رسم الى نفر أن يحملوا الهودج من بين القتلى فوضعه وليس قربه أحد وأتى على عائشة فقال كيف أنت يا أمه قالت بخير قال يغفر الله لك قالت ولك فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبي بكر البصرة فأنزلهما في دار عبد الله بن خلف الخزاعي وتسلى الجرحى من بين القتلى ليلا ودخلوا البصرة فأقام على بظاهر البصرة ثلاثا وأذن للناس في دفن موتاهم قيل وكانت القتلى زهاء عشرة آلاف نصفهم من أصحاب على ونصفهم الآخر من أصحاب عائشة وقيل ثلاثة عشر ألفا وقيل غير ذلك

ودخل على البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة ثم جهز على عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك وبعث معها كل من نجا من خرج معها الا من أحب المقام واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات وسير

معها أنها محمد بن أبي بكر وخرجت يوم السبت غرة رجب فشيعةا على أميالا وسرح بنيه معها يوما فكان وجهها الى مكة ووقف على مودعا لها وحضر الناس فودعتهم فقالت وهي خارجة يابني لايعتب بعضنا على بعض انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم الا ما يكون بين المرأة وبين أحماها وانه على معتبتي لمن الاخيار فقال علي صدقت والله ما كان بيني وبينها الا ذلك وانها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة

قلت واختلف الكتاب وأهل التاريخ فيما دعا عائشة وعليا الى هذه الحرب المشؤمة وركوب هذا المركب الخشن فتمهم من قال ان الحرب انما كانت منها أخذنا بثأر عثمان لانها كان ترمي عليا بقتله أو بالتألب عليه * ومنهم من قال بل لكرهتها فيه وحقدتها عليه منذ كانت تحت صاحب الشريعة خصوصا ما كان من علي بعد خروجها مع صاحب الشريعة الى غزوة بني المصطلق وتشديده على صاحب الشريعة في طلاقها بعد الذي قاله أهل الافك فيها * وتحرير الخبر كإروته عائشة * أن صاحب الشريعة كان اذا أراد السفر أفرع بين نسائه فأيتها خرج سهمها خرج بهامعه فلما كانت غزوة بني المصطلق أفرع بين نسائه فخرج سهم عائشة فخرجت معه فلما قفل صاحب الشريعة من سفره ذلك وكان قريبا من المدينة بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل بالناس وكانت عائشة قد خرجت لحاجتها وفي عنقها عقد من جزع أظفار انسل من عنقها ولا تدرى فلما رجعت التمس العقد فلم تجده فخرجت الى المكان الذي كانت فيه تلتسه فوجدته وجاء القوم الذين يرحلون بعيرها فأخذوا الهدج وهم يظنون أنها فيه وانطلقوا ورجعت هي الى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب فالتفت بجلبابها واضطجعت وهي تنظر احدى خلال ثلاث اما هلاكها جوعا وعطشا أو أن يفترسها سبع من سباع البر أو يرجع اليها منشد * وبينما هي على هذا الحال اذ أقبل عليها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد عزم وراء العسكر لحاجته فلم يبت مع الناس فوقف عليها وكان يعرفها جيدا قبل أن يضرب الجباب فقال لها ما خلفك ههنا ثم قرب بعيره وقال اركبي فركبت وأخذ برأس البعير وسارا حتى أتيا الجيش وبينما كان يقودها اذ مر ببعض المنافقين وبينهم عبدالله بن أبي الذي كان يدعو صاحب الشريعة رأس النفاق فقال من هذه فقيل له عائشة زوج النبي مع صفوان فقال والله ما نجت منه ولا نجا منها وقال امرأة نبيكم بانت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها * وقال هو وغيره ما قالوه افكوا وحاضوا في الحديث * وعلم بالامر صاحب الشريعة فأقلقته فقام في الناس فخطبهم ثم قال * أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون علمين غير الحق ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه الا خيرا وما دخل بيتا من بيوتى الا معي اه وكان قد كبر ذلك عند عبدالله بن أبي ابن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قاله مسطح وجمته بنت جحش وهما من أهل الافك * وذلك أن زينب أختها كانت عند صاحب الشريعة فأشاعت حجة من ذلك كلاما كثيرا * فلما قال صاحب الشريعة تلك المقالة وقع الهرج وعلت الضوضاء بين الناس وتشاوروا حتى كاد يكون بينهم شر فنزل صاحب الشريعة ودعا

علي بن أبي طالب وأسماء بن زيد فاستشارهما فأما أسماء فأتني خيرا وأما علي فقال ان النساء لكثير وسل الخادمة تصدقك فدعا صاحب الشريعة بريرة الخادمة يسألها فقام اليها علي فضربها ضربا مبرحا وهو يقول اصدقني رسول الله فقالت والله ما أعلم الا خيرا ثم قالت ما قالت * وهبط جبريل بثمان عشرة آية من سورة النور في براءة عائشة * قال الزمخشري في تفسير هذه الآيات * لو قلبت القرآن كله وفنشت عما أوعده به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغلظه في إفك عائشة ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ما أنزل في إفك عائشة على طرق مختلفة وأساليب مقلنة فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الاوثان الا ما هو دونه في القضاة اه وأقامت عائشة على بغضها لعلي والتأب عليه في خلافته فكانت لا تنكف عن التشنيع عليه بالقول انه حذف من القرآن وأسقط وبدل وحرف فمن ذلك آية المتعة قالت انه أسقطها بته وكان يجلد من يقرؤها وينهى عنها * وكانت عوناً لمن خرج على علي من الاحزاب حتى مات

وبعث علي قيس بن سعد أميراً على مصر وقيس هذا كان صاحب راية الانصار على عهد صاحب الشريعة وكان من ذوى الرأى والبأس فقال له علي سر الى مصر فقد وليتها واخرج الى رحلك واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها وأحسن الى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامه والخاصة فان الرفق بين * فخرج قيس حتى دخل مصر في سبعة من أصحابه ودخل المسجد وصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب علي فقرأ على أهل مصر بامارته وبأمرهم بما بعته ومساعدته واعانته على الحق ثم قام قيس خطيباً فقال الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين * أيها الناس انا قد بايعنا خير من نعم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم * فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر واطمأنت القلوب وبعث عليها عماله الا قرية اسمها خربت هذه فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان واستكبروه وكانوا قيساً يدعونه الى الطلب بدم عثمان وطال بينهم وبينه الاخذ والرد ثم تهادنوا وكان قيس ذا تدبير وحيلة فلما فاض الخبر بما وقع بين عائشة وعلي ونهض معاوية بن أبي سفيان الى شق عصا الطاعة كان معاوية يخشى كثيراً من قيس المذکور مخافة أن يقبل علي في أهل العراق وقيس في أهل مصر فيقع بينهما معاوية فكتب معاوية الى قيس كتاباً يقول فيه سلام عليك * أما بعد فانكم نقتم على عثمان ضربة بصوت أو شتمه رجل أو تسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم أن دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيمها وجئتم أمراً إذا قتب الى الله يافيس فانك من المجلبين على عثمان فأما صاحبك فانا استيقنا أنه الذى أغرى الناس وجملهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان استطعت يا قيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولاك سلطان العراقين اذا ظهرت ما بقيت ولن أحببت من أهلك سلطان الحجاز مادام لى سلطان

وسلني ما شئت فاني أعطيك واكتب اليّ برأيك اه فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبري
 له أمرا ولا يتعجل الي حربه * قال أصحاب التاريخ فكتب اليه يقول * أما بعد فقد فهمت ما
 ذكرته من قتله عثمان فذلك شيء لم أقاربه وذكرته أن صاحبي هو الذي أغرى به حتى قتله
 وهذا مما لم أطلع عليه وذكرته ان عظم عشيرتي لم تسلم فأقول الناس كان فيه قياما عشيرتي
 وأما معارضته من متابعتك فهذا أمر لي فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف
 عنك وليس بأتيتك من قبلي شيء تكرهه حتى ترى ونرى ان شاء الله تعالى * قالوا فلما قرأ معاوية
 كتاب قيس رآه مقاربا مباعدا فكتب اليه * أما بعد فقد قرأت كتابك فلم أرك تدينوا فاعدك سلما
 ولا متباعدا فأعدك حربا وليس مثلي يصانع المخادع ويتخدع للكاييد ومعه عدد الرجال وأئمة
 الخيل والسلام * قالوا فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لانفيد معه المدافعة والمماطلة أظهره ما
 في نفسه فكتب اليه * أما بعد فالجيب من اغترارك بي وطمعك في واستسقاطك اياي أتسومني
 الخروج عن طاعة أولى الناس بالامارة وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلا وأقر بهم من رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وسيلة وتأمرنى بالدخول في طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الامر
 وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلا وأبعدهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة ولذالين
 مضلين طاعوت من طواعيت ابليس وأما قولك اني مالي عليك مصر خيلا ورجلا فوالله
 ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون أهم اليك انك لوجود والسلام * فلما رأى معاوية كتابه
 أيس منه ونقل عليه مكانه فجعل يكيدله وافتعل كتابا عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان
 والدخول معه في ذلك وقرأه على أهل الشام وطير خبره الي الآفاق فبلغ ذلك عليا أبلغه
 آياه محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر بن أبي طالب وأعلمته عيونهم بالشام فكبر عليه هذا
 الامر جسدا وأعظمه فدعا ابنه وعبد الله بن جعفر فأخبرهم بالخبر فقال ابن جعفر يا أمير
 المؤمنين دع ما يرييك الي ما لا يرييك اعزل قيسا عن مصر فقال علي اني والله ما أصدق بهذا
 عنه فقال عبد الله اعزله يا أمير المؤمنين فان كان هذا حقا لا يعترلك فبينما هم على هذا
 الحال اذ جاءهم كتاب من قيس يخبرهم بأسير المؤمنين بأمر المتحزبين الطالبين بدم عثمان وأنه
 كف عن مشاغبتهم وقتالهم فقال ابن جعفر ما أخوفني أن يكون ذلك مما لأه منه فره
 بقتالهم فكتب اليه علي يأمره بقتالهم فلما قرأ الكتاب كتب جوابه * أما بعد فقد
 عجبت لامرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك مفرغيتك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك
 عدوك فأطعني يا أمير المؤمنين واكفف عنهم فان الرأي تركهم والسلام * قيل فلما قرأ علي
 الكتاب قال ابن جعفر يا أمير المؤمنين ابعث محمد بن أبي بكر علي مصر واعزل قيسا فقد
 بلغني أن قيسا يقول ان سلطانا لا يستقيم الا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء فأطاعه علي
 وبعث محمد بن أبي بكر لمصر وقيل بعث قبله الاشر النخعي فبات بالطريق فبعث محمدا فلما
 قدم علي قيس بمصر قال له قيس ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل أحد بيني وبينه قال
 لا وهذا السلطان سلطانك فقال لا والله لأقيم وخرج منها مقبلا الي المدينة وهو غضبان لعزله

بجاءه حسان بن ثابت وكان عثمانيا يشمت به فقال له قتلت عثمان وزعك على فبقى عليك
الائم ولم يحسن لك الشكر فقال له قيس يا أعمى القلب والبصر والله لو ألقى بسين رهطى
ورهطك حربا لضربت عنقك اخرج عنى ثم خاف من مروان بن الحكم بالمدينة فرحل
عنها

ولما قدم محمد بن أبي بكر مصر قرأ كتاب على على أهل مصر ثم قام فخطب فقال * الحمد
لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا وإياكم كثيرا مما كان عمى عنه
الجاهلون * ألا ان أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد الى ماسمعتهم وما توفيقى الا بالله عليه
توكلت واليه أنيب فان يكن ماترون من امارتى وأعمالى طاعة لله فأجدوا الله على ما كان
من ذلك فانه هو الهادى له وان رأيتم عاملا لى عمل بغير الحق فارفعوه الى وعابونى فيه فانى
بذلك أسعد وأنتم جديرون * وفقنا الله وإياكم لصالح الاعمال برحمته * ثم نزل وابت شهرًا كاملا
حتى بعث الى اولئك المعتزلىن من الطالبين بدم عثمان وقال لهم اما أن تدخلوا فى طاعتنا واما
أن تخرجوا من بلادنا فأجابوه اننا لانفعل هذه ولا هذه وامتنعوا وأخذوا حذرهم فسير اليهم
الحرث بن جهمان الجعفى فى جمع كبير فاتهمم فقاتلوه وقتلوه فبعث اليهم أيضا ابن مضاءم
الكلبى فقتلوه ووصل الخبر بذلك الى معاوية فكتب اليه يسبه ويقبح فعالة ويتوعده

وكتب على الى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ونكث طهته
والزبير وحر به اياهما ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار من طاعته
فاستشار معاوية عمرو بن العاص فى ذلك وكان قد لحق بمعاوية قبل قتل عثمان بقليل كى
لا يقتل عثمان وهو فى المدينة فقال عمرو اجمع أهل الشام وقاتله أخذنا بشار عثمان حتى
تظفر ففعل معاوية ذلك وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقبص عثمان
الذى قتل فيه مخضوبا بالدم بأصابع زوجته نائلة لأصبعان منها وشئ من الكف وإصبعان
مقطوعتان من أصولهما ونصف الابهام وضع معاوية القميص على المنبر وجمع الاجناد اليه
وكلهم فى أمر القتال والخروج على على والزمامه بدم عثمان فبكوا جميعا مدة وهو على المنبر
والاصابع معلقة فيه وأقسم رجال من أهل الشام ان لا يمسه الماء الا للغسل من الجنابة وان
لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتله عثمان ومن قام دونهم قتلوه وكان هذا كله بحضور رسول
على فرجع الرسول اليه وأخبره بالخبر وان أهل الشام اجتمعوا على قتاله فكبر الامر على
على ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا وعسكروا بالخيالة ففرق فيهم الاعطية وجهاز معاوية
وتجهز الناس وحضهم عمرو بن العاص على القتال وقال لمعاوية سرالى على بنفسك ولا تغب
عنه برأيك ومكيدتك فبالغ معاوية فى التأهب والاستعداد ووقف عمرو وسط القوم وناداهم
انما سار اليكم على فى سرذمة قليلة وقد قتل خليفتمكم فآله الله فى حقتكم ان تضعوه وفى
دمكم أن تطلوه * ففقد له معاوية لواء لابنيه عبدالله ومحمد ولواء لغلामه وردان وجاءهم
الخبر بان عليا عقد لواء لغلामه المدعو قنبر فأنشد عمرو بن العاص فى ذلك

هل يغنين وردان عنى قنبرا * أو تغنى السكون عنى حبرا

إذا الكفاة لبسوا السنورا

وساروا حتى التقوا جميعا وسير علي جماعة من بكر قومه الى معاوية ليجتبا عليه
ويدعوه الى الطاعة فدخلوا عليه وكلوه في الامر طويلا فقال ليس بيني وبين علي الا السيف
فعادوا وأخبروا عليا بما جرى وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اصطف الفريقان ودارت
الحرب بينهما ما على السهل الخفيف اذ كرهوا أن يجمعوا أهل العراق بأهل الشام في قتال
خوفا من الاستئصال والهلاك فكانوا يخرجونهم جماعات قليلة فاقتتلوا على هذا الحال أيام
ذى الحجة كلها من سنة ست وثلاثين وربعا اقتتلوا في اليوم الواحد مرتين ثم عادوا بعد المحرم
في سنة سبع وثلاثين الى القتال فرتب علي أصحابه وحضهم على القتال حتى يموتوا أو يكتنهم
الله من عدوهم * وضرب معاوية له قبة عظيمة وألقى عليها الثياب فباعه أكثر أهل الشام
على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق ودارت الحرب بين الفريقين فاقتتلا قتالا عنيفا وكان
معاوية يعلق قيص عثمان وفيه أصابع نائلة زوجته فاذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا
غیظا وحادثة في أمرهم فاذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص حرک لها حوارها
تحن فيعلق القيص * واشتد أهل الشام في قتالهم لأصحاب علي وأجهزوا عليهم وأطبقوا من
كل صوب وحذب وما زالوا كلما انهزمت طائفة من أصحاب علي وانكشفت عنه سار الى
استنهاض الأخرى وكان الاشر أحد بكر أصحاب علي ينادي في الناس ويقول انصروا أمير
المؤمنين واددوا عدوكم اللقاء ان الله مع الصادقين * وكثر القتل في أصحاب علي وكذلك في
أصحاب معاوية واشتد علي بن معه في القتال فلما رأى عمرو بن العاص ما صاروا اليه قال لمعاوية
هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا الا اجماعا ولا يزيدهم الا فرقة قال نعم قال نرفع المصاحف
ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فان أبي بعضهم أن يقبلها وجددت فيهم من يقول ينبغي
لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم وان قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا الى أجل فأجابه معاوية الى
ماطلب وأمر فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم فلما
رأها الناس قالوا نجيب الى كتاب الله فقال لهم علي ان معاوية وعمرا ومن معهما ليسوا بأصحاب
دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا ثم رجالا فكانوا شر أطفالا وشر رجال
ويحكم والله ما رفعوها الا خديعة ووهنا ومكيدة * فقالوا له لا يسعنا أن ندعى الى كتاب الله
فناي أن نقبله وقال جماعة أحب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت اليه والا دفنناك برمتك
الى القوم أو نفعك بك ما فعلنا بان عفا * فقال لهم احفظوا عنى نهي اباكم واحفظوا
مقاتلتكم لي فان تطيعوني فقاتلوا وان تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم * واختلفوا فيما بينهم حتى
كادوا يفترون وسب أهل الكوفة الاشر وضربوا وجهه دابته بسياطهم لانه كان يحض عليا على
القتال وعدم وضع الحرب ويقول لهم ان رفع المصاحف انما هي حيلة ومشورة من ابن النابغة
يعنى به عمرو بن العاص * فلما رأى علي اشتداد الخلاف وتفريق الكلمة سير الاشعث بن

قيس الى معاوية يسأله عما يريد فقال معاوية انما أريد أن نرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به في كتابه تبعثون رجلا ترضون به ونبعث نحن رجلا نرضى به نأخذ عليهما أن يعلا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه * فرجع الأشعث الى علي وأخبره بما قاله معاوية وفاض الخبير بذلك بين أصحاب علي فقالوا قد رضينا وقبلنا وقال أهل الشام قد رضينا عمرا وقال أصحاب علي ونحن قد رضينا بأبي موسى الأشعري فمانعهم علي في ذلك فأصروا علي بتحكيم أبي موسى * وجاء أبو موسى حتى دخل المعسكر وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتبوا القضية بحضوره فكتبوا * بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تناقضى عليه أمير المؤمنين فقال عمرو هو أميركم وأما أميرنا فلا * فقال الاحنف لأمع اسم أمير المؤمنين فاني أخاف إن محوتها أن لا ترجع اليك أبدا لأمعها وان قتل الناس بعضهم بعضا قيل فأي ذلك علي مليا من النهار ثم ان الأشعث بن قيس قال امح هذا الاسم فحاه فقال علي الله أكبر سنة بسنة والله اني لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فمكتبت محمد رسول الله وقالوا لست برسول الله ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه فقلت لا أستطيع فقال أرنه فأرنيته فحاه بيده وقال انك ستدعي الى مثلها فتجيب * فقال عمرو بن العاص سبحان الله أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ووقع بينه وبين أمير المؤمنين علي كلام كثير ثم كتب الكتاب * هذا ما تناقضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم اننا نزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وان كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته نجح ما أحيا ونبت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص وعلا به ومالم يجدها في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة اه ثم أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن العسكرين من العهود والمواثيق انهما آمانان على أنفسهما وأهلهم ما والامة لهما أنصار على الذي يتفاضيان عليه واتفقوا على أن يكون الحكم في رمضان أو بعده وشهد بذلك جماعة من أصحاب علي وآخرون من أصحاب معاوية وكتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يوافي علي على موضع الحكيم بدومة الجندل أو بأذرح في شهر رمضان وتفرقت جموع كثيرة من أصحاب علي وسار من بقي معه عن صفين الى الكوفة ونزل بها

ولما جاء وقت اجتماع الحكيم أرسل علي أربع مائة رجل عليهم شريح بن هاني الحارثي وأوصاه أن يقول لعرو بن العاص ان عليا يقول لثان أفضل الناس عند الله عز وجل من كان العمل بالحق أحب اليه وان نقصه من الباطل وان زاده ويحك لا تكن للخائنين خصيما وللظالمين ظهيرا * وأرسل معاوية عمرو بن العاص في أربع مائة من أهل الشام حتى يوافقوا جميعا على دومة الجندل بأذرح فلما اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري قال عمرو لابن موسى يا أبا موسى ألا تعلم أن عثمان قتل مظلوما قال أشهد قال ألسنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه

قال بلي قال فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت فان خفت أن يقول الناس ليست له سابقة وجدته وليّ عثمان المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابه وقد صحبه وعرض له بسلطان * فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فان هذا ليس على الشرف لولاه أهله ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح انما هو لأهل الدين والفضل مع اني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفا أعطيته على بن أبي طالب * وأما قولك ان معاوية وليّ دم عثمان فوله هذا الامر فلم أكن لا وليه وأدع المهاجرين الاولين * وأما تعريضك لي بالسلطان فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كله لما وليته وما كنت لارتشي في حكم الله ولكنك ان شئت أن تحيي اسم عمر بن الخطاب رحمه الله * قال له عمرو وما يمنعك من ابني وأنت تعلم فضله وصلاحه فقال ابنيك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة * فقال عمرو ان هذا الامر لا يصلح الا لرجل يأكل ويطمم وكانت في ابن عمر غفلة فقال له ابن الزبير أفطن فانته به فقال والله لا أأرشو عليها شيأ أبدا وقال يا ابن العاص ان العرب قد أسدت الديك أمرها بعد ما تقارعوا بالسيوف فلا تردهم في فتنة فلما اختلفوا فممن يتولاها قال عمرو بن العاص لابي موسى خبرني ما رأيك قال أبو موسى أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الامر شورى فيختار المسلمون لانفسهم من أحبوا فقال عمرو الرأي ما رأيت فقاما وأقبلا الى الناس وهم مجتمعون وكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في الكلام ويقول أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسن مني فقال حينئذ يا أبا موسى اعلم الناس أن رأينا قد اتفق فتكلم أبو موسى فقال ان رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الامة فقال عمرو صدق وبرّ تقدم يا أبا موسى فقال له ابن عباس ويحك والله اني لاظنه قد خدعك ان كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده فانه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فاذا قت في الناس خالفك * قال بعض الكتاب وكان أبو موسى مغفلا فقال إنا قد اتفقنا والتفت الى الناس وقال * أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألم لشعبها من أمر قد أجمع رأي ورأي عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا وانى قد خلعت عليا ومعاوية ثم تنحى وأقبل عمرو وقال * ان هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه وليّ ابن عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بتمامه * فعند ذلك وقع الهرج بين الناس وعلت الضوضاء وتشتام أبو موسى وعمرو بن العاص وتسابا وضرب شريح بن هانئ عمرو بن العاص بسوط كان في يده فقام عليه ابن عمرو فضربه كذلك وكثر الصياح من الفريقين وطلب أهل الشام أبا موسى فهرب الى مكة وعاد عمرو بن العاص بأهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة ورجع ابن عباس وشريح الى عليّ وأخبره بما كان فاغتم غما شديدا وصار اذا صلى الغداة يقنت فيقول اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الاعور وحبيبا وعبد الرحمن

ابن خالد والضحاك بن قيس والوليد فبلغ ذلك معاوية فكان اذا قنت أيضا سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والاشتر * وتآلب أصحاب علي على قتال معاوية وأصحابه وأبوا عليا فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت * وكتب علي إلى أهل النهر * بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى يزيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس * أما بعد فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكيمين قد خالفا كتاب الله واتبعا هواهما بغير هدى من الله فلم يعلا بالسنة ولم ينفذا القرآن حكما فبرئ الله منهما ورسوله والمؤمنون فإذا بلغنكم كتابي هذا فأقبلوا الينا فاناسا يرون إلى عدونا وعدوكم ونحن على الأمر الأول الذي كافيته فكتبوا إليه * أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والافقد نبذناك على سواء ان الله لا يحب الخائنين * فلما قرأ الجواب أيس منهم وسار عن مال معه حتى نزل على أهل الكوفة واستنصرهم فاجتمع له منهم زهاء ثلاثة آلاف مقاتل وقيل ثلاثة آلاف ومائتين وخروج معه من أهل الكوفة اربعون ألف مقاتل وسبعة عشر ألفا من الانبياء ممن أدركت وثمانية آلاف من الموالى والعبيد فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفا فسار بهم علي لقتال من خرج عن دعوته من أهل النهر وغيرهم فقاتلهم واستظهر عليهم ثم نادى فيمن معه بالخروج لقتال معاوية فراجعهم في ذلك الأشعث بن قيس وقال يا أمير المؤمنين لقد نفذت نبأنا وكنت سيفونا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصدا فارجع إلى مصرنا نستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا فإن عدونا أقوى منا فأجابه علي إلى ذلك وما زالوا حتى نزلوا بالخيصة فأمر الناس بأن يلزموا المعسكر ويتأهبوا للزحف على العدو وأن يلقوا من زيارة أبنائهم ونساءهم حتى يسيروا إلى عدوهم فلبشوا على هذا الحال أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا البيوت الانفرا من وجوه الناس وأصبح علي وقد رأى المعسكر خاليا فحزن واشتد به الحزن ودخل الكوفة وقد انكسر عليه رأيه في المسير ولكنه قد كبر عليه الأمر واستعظمه فجعل يستنفرهم ويحثهم على الخروج فلم يطيعوا وبقوا على هذا الحال أياما فجمع رؤساءهم وبارهم وقام فيهم فقال عباد الله ما بالكم اذا أمرتكم أن تنفروا تنافلتم إلى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلفا وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة وكأن قلوبكم مألوسة وأنتم لاتعقلون فكأن أبصاركم مبهمة وأنتم لاتبصرون لله أنتم ما أنتم إلا أسد الشمرى في الدعة ونعالب رواقعة حين تدعون إلى البأس انكم تكادون ولا تكيدون وينقص أطرافكم وأنتم لاتنحشون ولا تنام أعينكم وأنتم في غفلة ساهون إلى أن قال * فلم يلتفتوا إلى مقاتله وكادوا يخذلونه وبينما كان علي على هذا الحال من الضعف والوهن وتفريق كلمة أصحابه إذ جاءه الخبر بفساد أهل مصر على محمد بن أبي بكر عامه بها وخروج معاوية بن خديج السكوني بها يطالب بدم عثمان واجتماع الكثير إليه فكبر الأمر على علي * قال بعض الكتاب فكتب

الى الاشر وهو بنصيبين يستدعيه فلما حضر أخبره خبر أهل مصر وقال له ليس لها غيرك
فاخرج اليها فاني قد وليتك اياها واستعن بالله فخرج الاشر يتجهز الى مصر وأنت معاوية
عيونه بذلك فعظم عليه الامر وخشى عاقبته لانه علم أن الاشر ان قدمها كان أشد عليه من
محمد بن أبي بكر فأرسل معاوية الى المقدم على أصحاب الخراج بالقلم يقول ان الاشر قد ولي
مصر فان كفيتميه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت فقام الرجل من ساعته وسار حتى أتى
القلم وأقام به وخرج الاشر من العراق يريد مصر فلما انتهى القلم استقبله ذلك الرجل
فعرض عليه الضيافة فنزل عنده فأناه بطعام فأكل فأناه بشربة من عسل قد وضع له فيها
سما فشرب فمات لساعته وجاء الخبر بموته الى معاوية ففرح فرحا لا يوصف وقام في الناس
خطيبا فقال بعد كلام قد كانت لعل عيinan فقطعت احدهما بصفين يعني بموت عمار بن
ياسر وقطعت الاخرى اليوم يعني بموت الاشر وعلم محمد بن أبي بكر بما فعله علي من
ارساله الاشر مكانه فكبر عليه الامر جدا وأرسل الى علي في ذلك فكتب اليه علي يقول
* أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الاشر الى عملك واني لم أفعل ذلك الا استبطاء
لك في الجهاد ولا ازديادا مني لاني في الجهد ولو نزلت ما تحت يدك لوليتك ما هو أيسر عليك مؤنة
منه وأعجب اليك ولاية * ان الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيحا وعلى عدونا
شديدا وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب
اصبر لعدوك وشدد للعرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله
والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهدمك ويعينك على ما ولاك * فكتب اليه محمد أما
بعد فقد انتهى الى كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أَرْضى برأى أمير المؤمنين ولا أجهد
على عدوه ولا أرفأ بوليه مني وقد خرجت فعسكرت وأمنت الناس الا من نصب لنا حربا
وأظهرنا خلافا وأنا متبع أمير المؤمنين وحافظه والسلام وقيل انما تولى الاشر مصر بعد
قتل محمد بن أبي بكر وقيل غير ذلك * وكان معاوية شديد الخوف من أهل مصر بهابهم
جدا لقرههم منه وشدهم على من قام يطالب بدم عثمان ولم يكن يخشى غيرهم لاسيما بعد
اختلاف الناس على علي بالعراق فجعل يدبر الحيلة في ذلك ثم دعا عمرو بن العاص وحبيب بن
مسلمة وبسر بن أرطاة وآخرين وشاورهم في أمر مصر ومن بها من أصحاب علي فأشار
عليه عمرو بن العاص بفتحها والركوب على من بها من الاحزاب حتى يتم النصر فكتب
معاوية الى بعض من خالف عليا بصرف في أمر ذلك فنوه بالنصر واستنصوه فأمر عمرو بن
العاص ليتجهز اليها وسير معه ستة آلاف رجل فنزلوا على مقربة من أرض مصر فاجتمع اليه
من قام يطالب بدم عثمان فنفقوت بهم عزيمته وكتب الى محمد بن أبي بكر أما بعد فتخ عنى
بدمك يا ابن أبي بكر فاني لا أحب أن يصيبك مني ظفر ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا
على خلافك وهم مسلولون فاخرج منها انى لك من الناصحين وبعث معه كتابا من معاوية
أيضا فأرسل محمد الكتائبين الى علي وأخبره بنزول عمرو بن العاص على حدود مصر وطلب

منه المدد لتناقل الناس وتقاعدهم فوعده عليّ برسالة نجدة عاجلة وحضه عليّ أن يضم
شيعته اليه

واشتبك القتال بين محمد بن أبي بكر وعمرو بن العاص ومن بمصر من أصحاب عثمان واشتد
شدة بالغة واجتمع أهل الشام حول محمد وأصحابه وأخذوهم بالرماح والسيوف من كل صوب
وكان كثانة بن بشر عليّ مقدمة أصحاب محمد فلما رأى ذلك كثانة نزل عن فرسه ونزل معه أصحابه
فضارب أهل الشام بسيفه حتى قتل وبلغ محمد بن أبي بكر خبر موته فأنزعه وتفرق عنه
أصحابه وأطبق عليه عمرو بن معاوية ففر محمد عليّ وجهه حتى انتهى الى خربة في الطريق
فأوى اليها وساق عمرو بن العاص بن معاوية يريد الفسطاط وخرج معاوية بن حديج في طلب
محمد بن أبي بكر فدل عليه رجل فأخرجوه من الخربة وقد كاد يهلك عطشا فقال يا ابن حديج
اسقني فقال له لاسقاني الله ان سقيتك فطرة أبدا انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلك
حتى يسقيك الله من الحميم والغساق فقتله ابن حديج ثم ألقاه في جيفة جمار ثم أحرقه بالنار وجاء
الخبر الى عليّ بن أبي بكر فخرن كثيرا وحزنت عائشة وجزعت عليه جزعا
شديدا وجعل عمرو يدير الامور بمصر وقد أخذ البيعة لمعاوية بن أبي سفيان وجمع اليه كلمة
الاحزاب فقويت بهم شوكتهم واتسعت كلمته وهابه عليّ فاجهم عن تسمير الجند لقتاله بعد أن
نادى فيهم بالرحيل * واختلفت كلمة أصحاب عليّ وتفرقوا عنه أو كادوا ومعاوية يبعث البعث
الى الآفاق لتعم دعوته وتعلو كلمته فلما دخلت سنة ست وثلاثين للهجرة فرق معاوية جيوشه
في العراق ورسم لهم بقتال كل من لم يذعن لسلطانه فعاثوا وقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا ما لا خير
فيه وكذلك فعلوا باهل البوادي وبلغوا مكة والمدينة وفعلوا بها ما فعلوا وكبر الامر على عليّ
وكاد يسقط في يده فكانت الاخبار تأتيه في كل يوم بتناقل الناس عن الخروج لقتال عدوه
فكان يخطب ويحض ويعذر ويؤنب ويقول يا أيها الناس انصروا من هو على الحق ويحكم
المفرور من غررتوه ومن فاز بكم فاز بالنهم الاخيبي انا لله وانا اليه راجعون والناس مع
ذلك في تناقل وسلطانه في إديار * فلما اشتد الحال وعظم الخلاف بين المخازين اجتمع
عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي الصرمي وقبيل اسم البرك الخجاج
وعمر بن بكر التميمي السعدي وهم من الخوارج فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمل ولايتهم
ثم ذكروا قتلى النهر فترجوا عليهم وقالوا مانصنع بالبقاء بعدهم فلوشربنا أنفسنا وقتلنا أئمة
الضلالة وأرحنا منهم البلاد لكان في ذلك المصلحة فقال ابن ملجم ويحكم أنا أكفيكم علينا
وكان ابن ملجم هذا من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله وأنا أكفيكم معاوية وقال عمرو
ابن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجه
اليه حتى يقتله أو يموت فأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وقصد
كل منهم الجهة التي يريد فأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بالكوفة وكتبهم أمره ورأى يوما

أصحابا له من تيم الرباب وكان عليّ قد قتل منهم يوم النهر عدة فتسدا كروا قتلى النهر ورأى معهم امرأة من تيم الرباب اسمها قعام وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أخذت قلبه فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تستني لي فقال وما تريدني قالت ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل عليّ فقال أما قتل عليّ فما أراك ذكرتيه وأنت تريدني قالت بلى التمس غزته فان أصبته شفيت نفسك ونفسي ونفعلك العيش معي وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها قال والله ما جاءني الاقتل عليّ فلك ما سألت قالت سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك ويعنت الى رجل من قومها اسمه وردان وكنيته فأجلها وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فقال له هل لك في شرف الدنيا والآخرة قال وماذا قال قتل عليّ قال شبيب نكلمك أمك لقد جئت شيئا إذا كيف تقدر عليّ قتله قال أكن له في المسجد فاذا خرج الى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فان نجونا فقد شفينا أنفسنا وان قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها قال ويحك لو كان غير عليّ كان أهون * فلما كانت ليلة الجمعة سابع عشرة رمضان سنة أربعين استيقظ عليّ سحرا وقال لابنه الحسن رأيت الليلة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الاود واللدد فقال لي ادع الله تعالى عليهم فقلت اللهم أبدلني بهم خيرا لي منهم وأبدلهم بي سرا لهم مني ودخل المؤذن فقال الصلاة فخرج عليّ من الباب ينادي أيها الناس الصلاة الصلاة فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف فأصاب جبهته ووصل الى دماغه فشد عليه الناس من كل جانب فأمسك وأوثق وأقام عليّ الجمعة والسبت ويوفي ليلة الاحد وغسله الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر ومحمد بن الحنفية وصلى عليه الحسن ودفن بدار الامارة بالكوفة ليلا وأخفى قبره لئلا ينشه الخوارج وأما البرك فانه ضرب معاوية فأصاب أوراكه وكان معاوية عظيم الاوراك فقطع منه عرق النسكاح فلم يولد له بعد ذلك ولد فأمر معاوية باتخاذ المقصورة في الجوامع من ذلك الوقت وأما عمرو بن بكر فانه رصد عمرو بن العاص بمصر فاشتكى عمرو بطنه فلم يخرج الى الصلاة فصلى بالناس رجل من بني عامر يقال له خارجة فضربه ابن بكر فقتله واليه أشار ابن عبدون في قصيدته الرائية

فلمتها اذ فدت عمرا بخارجة * فدت عليا بمن شاعت من البشر

وقيل ان عليا كان اذا رأى ابن ملجم يتمثل بهذا البيت

أريد حياته ويريد قتلي * عذرك من خيلك من مرادى

وأخذوا ابن ملجم فعذبوه وقطعوه اربا بعد موت عليّ قال غير واحد انه لما ضربه ابن ملجم أوصى الحسن والحسين وصية طويلة وفي آخرها * يا بني عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوفا تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن بي غير قاتلي اضربوه ضربة بضرية ولا تتلوا به فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اياكم والمثلي * ولما مات عليّ قتل الحسين ولده عبد الرحمن بن ملجم المذكور فقطع يديه ورجليه وكحل عينيه بمسحار محمي في النار قيل

كل ذلك ولم يتأوه ولم يجزع فلما أرادوا قطع لسانه تأوه وجزع فسئل عن ذلك فقال والله ما تأوه فزعا ولا جزعا من الموت وإنما أتأوه لأن عمر على ساعة من ساعات الدنيا لأذكر الله تعالى فيها فقطعوا لسانه فمات بعد ذلك * ومات على وعمره سبع وقيل ثمان وخمسون وقيل ثلاث وقيل ثمان وستون سنة وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ويوما واحدا وكانت مدة إقامته بالمدينة أربعة أشهر ثم سار إلى العراق وقتل بالكوفة قيل وكان قبل موته قد بايعه أربعون ألفا من عسكره على الموت فقتل قبل أن يخرج بهم لقتال عدوه * وكان يجتمع على مع صاحب الشريعة في عبد المطلب الجند الأدنى وينسب إلى هاشم فيقال القرشي الهاشمي ولم يزل اسمه في الجاهلية والاسلام عليا وبكنى أبا الحسن أسلم وهو ابن سبع سنين وقيل ابن تسع وقيل ابن عشر وقيل ابن خمس عشرة وقيل غير ذلك والصحيح الأول وشهد المشاهد كلها الا تبوك فان صاحب الشريعة خلفه في أهله وكان عزيز العلم ولما هاجر صاحب الشريعة أقام بعده ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عنه الودائع وكان لعلي شفقة على رعيته فكان متواضعا ورعا ذاقوة في الدين وكان قوته من دقيق الشعير يأخذ منه قبضة فيضعها في القدح ثم يصب عليه ماء فيشربه وقد تفرق عليه الخوارج واعتقد فيه الناس الالوهية قيل ولما بلغ عائشة قتل علي قالت

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرعينا بالاياب المسافر

قالت من قتله فقيل رجل من مراد فقالت

فانيك نائبا فلقد نعاه * نعي ليس في فيه التراب

فقالت زينب بنت أبي سلمة أتقولين هذا لعلي فقالت اني أنسى فاذا نسيت فذكروني ومات في أيامه بنيامين بطرك الاسكندرية بعد أن أقام تسعا وثلاثين سنة على المشهور وكان فيها من الحوادث والمحن ما مر بك ذكره فاقم بعده اغاثو وهو ناسع ثلاثهم وكان في أيامه من الحوادث ما سيذكر بعد * ولما مات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خلفه ابنه الحسن

(الفصل الخامس)

(في خلافة أمير المؤمنين حسن بن علي)

ثم قام بالامر بعد أمير المؤمنين علي الحسن ابنه وكنيته أبو محمد ولقبه الذكي وأمه فاطمة الزهراء بوبيع له بالخلافة بعد موت أبيه في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة أي سنة إحدى وستين وستمئة ميلادية فكان الناس في ريب من بيعته لأنه كان يقول لهم أشترط عليكم في بيعتي انكم مطيعون تسالمون من سالم وتجاربون من حاربت فقالوا ها هذا لكم بصاحب

وما يريد هذا الا القتال ثم سار الى المدائن واستقر بها فبينما هو بالمدائن اذ نادى مناد ان قيسا قتل وكان الحسن قد جعله على مقدمة الجيش وهو قيس بن سعد بن عباد بن نجران فخرج الحسن لذلك وخرج معه الكثير من الناس وانفسلوا وقد نهبوا متاع الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته فازداد لهم بغضا وكاد يسقط في يده وكان بينهم الجراح الاسدي فهزأ الجراح على الحسن وهو يسير معه ووجه بالخنجر في ثغره فقال الحسن قتلتم ابي بالامس ووثبتم على اليوم تريدون قتلى زهدا في العادلين ورغبة في القاسطين ووالله لآتمن نبأه بعد حين * وسار وهو يريد تسليم الامر الى معاوية بغضا في القوم فخلعهم اياه ثم كتب الى معاوية بتسليم الامر اليه واشترط عليه شروطا فأجابها معاوية الى ما التمس منه وسير له ما اشترط عليه فسلم الامر الى معاوية وبادع له نجس بقسين من ربيع الاول قال بعض الكتاب لانه رأى المصلحة في جمع الكلمة وترك القتال ويقال انه أخذ من معاوية ألف ألف درهم وقال قوم انه صالحه بأذرح في جمادى الاولى وأخذ منه مائة ألف دينار ويقال أربع مائة ألف درهم وقيل انه شرط عليه أن يمكنه من بيت المال يأخذ منه حاجته وأن يكون ولي العهد من بعده ففرح معاوية بذلك فخلع الحسن نفسه وسلم الامر الى معاوية وصالحه ودخل هو وایاه الكوفة فسمى هذا العام عام الجامعة لاجتماع الامة بعد الفرقة على خليفة واحد وقيل انه لما راسل معاوية في تسليم الخلافة اليه خطب الناس حمد الله وأثنى عليه وقال إنا والله ما يئسنا عن أهل الشام شك ولا ندم وانما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم في سيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبتم اليوم ودينياكم أمام دينكم الا وقد أصبحتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له وقبيل بالنهر وان تطلبون بثأره وأما الباقي فخاذل وأما الباكي فثائر ألا وان معاوية دعانا لاهم ليس فيه عز ولا نصفة فان أردتم الموت رددناه عليه وما كنا الى الله عز وجل بظبا السيوف وان أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا * فعند ذلك ناداه الناس من كل جانب اليقية البقية فأمضى الصلح * قال الليث شهدت خطبة الحسن رضی الله تعالى عنه حين صالح معاوية وخلع نفسه من الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فان أ كيس الكيس التقى وأحق الحق الفجور وان هذا الامر الذي اختلفت أنا ومعاوية فيه ان كان له فهو أحق به مني وان كان لي فقد تركته له ارادة لاصلاح الامة وحقق الدماء عن سفكها والعار على النار

قال بعض أصحاب التاريخ لما مرض الحسن رضی الله تعالى عنه كتب مروان بن الحكم الى معاوية بذلك فكتب اليه معاوية أن أقبل المظى الى بخير الحسن فلما بلغ معاوية موته سمع تكبيره من الخضراء فكبر أهل الشام لذلك التكبير فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية أقر الله عينك ما الذي كبرت لاجله فقال مات الحسن فقالت أعلى موت الحسن بن فاطمة تكبير فقال والله ما كبرت شماتة في موته ولكن استراح قلبي * ودخل عليه ابن عباس

فقال له يا ابن عباس هل تدري ما حدث في أهل بيتك فقال لأدري ما حدث إلا أني أراك
مستبشرا وقد بلغني تكبيرك فقال مات الحسن فقال ابن عباس يرحم الله أباحمد ثلاثا والله
يا معاوية لا تستد حفرتة حفرتك ولا يزيد عمره في عمرك ولئن كنا قد أصبنا بالحسن فلقد أصبنا
بإمام المتقين وخاتم النبيين خير الله تلك الصدعة وسكن تلك العبرة وكان الله الخلف علينا
من بعده

وكان الحسن قد سمته امرأته جعدة بنت الأشعث فحكث شهرين يرفع من تحتمه في
اليوم كذا وكذا مرة طست من الدم وكان يقول سقيت السم حرارا وما أصابني فيها ما أصابني
في هذه المرة وكان قد أوصى لآخيه الحسين وقال إذا أنا مت فادفني مع جدى رسول الله صلى
الله عليه وسلم إن وجدت إلى ذلك سبيلا وإن منعوك فادفني في بقيع الخرقد فلما مات لبس
الحسين ومواليه السلاح وخرجوا ليدفنوه مع جده نخرج مروان بن الحكم في موالى بنى
أمية وهو يومئذ عامل على المدينة فنع الحسين من ذلك وكانت وفاته في شهر ربيع الاول
سنة تسع وأربعين وقيل سنة تسعين وصلى عليه سعيد بن العاص ودفن مع أمه فاطمة وقيل
دفن بالبقيع في قبر بقية العباس ودفن في هذا القبر أيضا على زين العابدين وابنه محمد
الباقر وابن ابنه جعفر بن محمد الصادق فهم أربعة في قبر واحد * فكانت خلافة الحسن
سنة أشهر وخمسة أيام وقيل ستة أشهر إلا أياما ومات وعمره سبع وأربعون سنة فتم عونه
الامر لمعاوية وانقطع عونه جيل الخلفاء الراشدين وقامت بعدهم الخلافة الاموية فكانت
مدة خلافة الراشدين عبارة عن ثلاثين سنة هجرية وبعض أشهر وكان عددهم خمسة خلفاء
أولهم أبوبكر وآخرهم الحسن بن علي بن أبي طالب

(المقالة الرابعة)

(في الخلفاء الامويين وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(في خلافة معاوية بن أبي سفيان)

لما خلع الحسن نفسه من الخلافة على الشروط التي تقدم الكلام عليها تم الامر لمعاوية
واستقام له الملك وصفت له الخلافة وعلت كلمته وطارت شهرته وكان قد بويع له بالخلافة يوم
التحكيم بايعه أهل الشام واختلف عليه أهل العراق إلى أن صالحه الحسن بن علي فأجمع

الناس على بيعته في جادى الاولى سنة اثنتين وأربعين هجرية أى سنة اثنتين وستين وستمائة
ميلادية

وكان مولد معاوية بالخيف من منى أسلم قبل أبيه أبى سفيان وصحب صاحب الشريعة
وكتب له وكان في عسكر أخيه يزيد بن أبى سفيان وكان عاملا لعمر بن الخطاب في سنة
عشرين هجرية على الشام فلم يزل متوليا عليه عشرين سنة وذلك بقية خلافة عمر بن الخطاب
وخلافة عثمان وفي خلافة على متغلبا عليها الى أن أسلم اليه الحسن الخلافة فاجتمع له الامر
وبعث نوابه الى البلاد وذلك في سنة احدى وأربعين للهجرة أى سنة احدى وستين وستمائة
للبيلاد فسمى هذا العام عام الجماعة قالوا لان الامة اجتمعت فيه بعد الفرقة على امام واحد
قال بعض الكتاب وكانت امرأة استشارت صاحب الشريعة في أن تزوج بمعاوية فقال
لها صلوك لاملال له ثم بعد هذا القول باحدى عشرة سنة صار نائب دمشق ثم بعد الاربعين
صار ملك الدنيا * فلما استقرت به الخلافة وتصرف في الامور خرج عليه فروة بن نوفل الأشجعي
الحروري وورد الكوفة وهو أول الخوارج فكتب معاوية الى أهل الكوفة لازمة لكم عندي
حتى تكفوني أمره فقاتلوه وقتلوه بشهر زور وقيل ببعض السواد ثم خرج بعده معن الخارجي
وهو معن بن عبد الله رجل من محارب فقبض عليه المغيرة وجبسه وبعث الى معاوية يخبره
أمره فكتب اليه ان شهد أنى خليفة نخل سيده فأحضره المغيرة وقال له أتشهد أن معاوية
خليفة وأنه أمير المؤمنين فقال أشهد أن الله عز وجل حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها
وأن الله يبعث من في القبور فأمر به فقتل ثم خرج أبو هريرة مولى بنى الحرث بن كعب ومعه
امرأتان فطام وكيلة فكان أول من خرج معه النساء على الخليفة فعاب ذلك عليه بعض
قومه فقال قد قاتل النساء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين بالشام قال
وسأردهما فردهما فوجه اليه المغيرة رجالا فقاتلوه وقتلوه

ولما كانت سنة اثنتين وأربعين سير معاوية جنودا ضخما لبلاد الروم للغزو فاقنلوا
قتالا شديدا ثم دخل بسرين أرضهم سنة ثلاث وأربعين قيل وبلغ القسطنطينية
ثم دخل عبد الله بن خالد وكان على حصص فشتى بهم وغزاهم بسرتلك السنة بجرا ثم دخل
اليها عبد الرحمن السبيعي سنة ست وأربعين فشتى بها وشتى أبوه على أنطاكية ثم دخلوا سنة
ثمان وأربعين فشتى عبد الرحمن بانطاكية ودخل عبد الله بن قيس في تلك السنة بالصائفة
وغزاهم مالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشتى بأرض الروم ودخل عبد الله بن كرز الجبلي
بالصائفة وشتى يزيد بن ثمره الرهاوى في بلاد الروم بأهل الشام في البحر وعقبه بن نافع بأهل
مصر كذلك * وسير أيضا في سنة ثمان وأربعين للهجرة الى سنة خمسين أى سنة ثمان وستين
وستمائة لميلاد جيشا كثيفا الى قسطنطينية مع سفيان بن عوف فأوغلوا في بلاد الروم وألقوا
الحصار على المدينة وكان في الجيش يومئذ ابن عباس وعمرو بن الزبير وأبو أيوب الانصارى
الذى شهد بدرًا وأحدا وحرب صفين فمات أيام الحصار ودفن بقرب سور القسطنطينية

وبعد أن هاجموا المدينة هجمات كثيرة وشدوا عليها من كل جانب هزمهم الروم شر هزيمة وعرقلت النار الاغريق بقية حركاتهم فكانت تحرق وتبيد وتهلك من فوق ومن تحت الماء وكان معاوية قد أمر ابنه يزيد بالغزو معهم فمناقل واعتل فأمسك عنه أبوه وأصاب الناس في غزوتهم هذه جوع ومرض شديد وفاض الخبز بذلك وتحدثت الناس فيه فأنشأ يزيد بقول

ما ان أبالي بما لاقت جوعهم * بالفرقدونة من حبي ومن شوم
إذا اتكأت على الانعاط مرتفعا * بدر مران عندي أم كلثوم

وأم كلثوم هي امرأته ابنة عبد الله بن عامر فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليطلقن بسيفان من أرض الروم ليصبيه ما أصاب الناس فساد ومعه جمع كثير أضافهم اليه أبوه ثم رجع يزيد والجيش الى الشام * قال أصحاب التاريخ فكانت هذه أول مرة لقيت فيها عساكر المسلمين صدًا * وكان معاوية قد عقد لعرو بن العاص النيابة على مصر في مدة اختلافه مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كما تقدم القول وكتب الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج وهما كبار العاملين على أخذ ثار عثمان بن عفان بمصر يخبرهم بقدم عمرو بن العاص ومن معه من الجند لاخذ مصر فأجابوه بجهز معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف فصار اليها واجتمعت عليه العثمانية وهم عشرة الاف فكتب عمرو الى محمد بن أبي بكر ما كتب وكان ما كان من أمر قتل محمد بن أبي بكر واحراق جثته مما مر بيانه في محله فلما تم الامر الى عمرو ابن العاص ودانت له الامور كتب الى معاوية يخبره بما كان من الامر وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر فأقام عمرو أميراً عليها الى أن مات بها ليلة عيسد الفطر سنة ثلاث وأربعين على المشهور ودفن بالمقطم من ناحية النجج وكان طريق الناس يومئذ الى الحجاز فأحب أن يدعو له من مرتبه وهو أول أمير مات بمصر وفي ذلك يقول عبدالله بن الزبير

ألم تر أن الدهر أخنى بريرة * على عمرو السهمي يجي له مصر
فأضحى نبيذا بالعراء وضلت * مكايده عنه وأممواله الدر
ولم يغن عنه جمعه المال برهة * ولا كيدته حتى أتبع له الدهر

ولما مات عمرو بن العاص ولى معاوية على مصر ولده عبد الله بن عمرو المذكور * قال الواقدي فعل له عليها سنتين وقال غيره بل أشهر ثم عزله وولى عقبه بن عامر سنة أربع وأربعين فأقام الى سنة سبع وأربعين فعزله وولى معاوية بن حديج فأقام الى سنة خمسين فعزله وولى مسلمة بن مخلد ووجعت له مصر والغرب وهو أول وال جمع له ذلك * قال ابن عبد الحكم حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن بعض شيوخ أهل مصر قال أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر الكنيسة التي خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد المذكور فأنكر ذلك الجند على مسلمة وقالوا له أتقر لهم أن ينوا الكنيسة حتى كاد يقع بينهم وبينه شرفا حتى عليهم يومئذ مسلمة فقال انها ليست في قبر وانكم وانما هي خارجة في أرضهم فسكتوا عن ذلك

فأقام مسلمة أميرا الى سنة تسع وخسين وكان عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة
الثقفي المشهور بابن أم حكيم وهي أخت معاوية أميرا على الكوفة فأساء السيرة في أهلها
فأخرجوه من بين أظهرهم طريدا فرجع الى خاله معاوية فقال لأولئك مصر خيرا منها
فولاه مصر فلما سار اليها تلقاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مصر فقال ارجع
الى خالك فلمرى لاتسير فينا سيرتك في أهل الكوفة فرجع ابن أم حكيم وحقه معاوية بن
حديج وافدا على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم حكيم وهي أم عبد الرحمن
الذي طرده من مصر فلما رآه معاوية قال بخ بخ هذا معاوية بن حديج فقالت أم حكيم
لامرحبا تسمع بالمعدي خير من أن تراه فقال معاوية بن حديج على رسلك يا أم حكيم
أما والله لقد تزوجت فما أكرمت وولدت فما أنجبت أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير
فينا كما سار في أهل الكوفة فما كان الله ليريد ذلك ولو فعل لضربنا ابنك ضربا يطأطئ
منه وان كره هذا الجالس فالتفت اليها معاوية فقال كفى فاستمر مسلمة على إمرة مصر الى أن
مات في خلافة يزيد في ذى الحجة سنة اثنتين وستين

ولما كانت سنة ست وخسين بايع الناس يزيد بن معاوية بولاية عهد أبيه وكان الذي
أشار على معاوية بذلك المغيرة بن شعبة وذلك لان معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة
ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك فقال رأى أن أثنى على معاوية فاستغفبه
ليظهر للناس كراهته للولاية فسار الى معاوية وقال لاصحابه حين وصل اليه ان لم أكسبكم
الآن ولاية وامارة لأفعل ذلك أبدا ومضى حتى دخل على يزيد وقال له انه قد ذهب أعيان
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وآله وكبراء قريش وذوو أنسابهم وانما بقي أبنائهم وأنت من
أفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك
البيعة قال أو ترى ذلك يتم قال نعم فدخّل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر
المغيرة وقال له ما يقول يزيد فقال يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف
بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك
ولانسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لي بهذا قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد
أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فأرجع الى عملك وتحدثت مع من
تثق اليه في ذلك وترى ونرى فودعه ورجع الى أصحابه فقالوا مه قال لقد وضعت رجل معاوية
في غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتنت عليهم فتقا لا يرتق أبدا وتمثل

بمثل شاهدي التجوى وغالى * بي الاعداء وانلصم الغضابا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق اليه ومن يعلم أنه شيعة لبنى أمية أمر
يزيد فأجابوا الى بيعته فأوفد منهم عشرة ويقال أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم
وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزبنوا له بيعة يزيد ودعوه الى عقدها
فقال معاوية لاتجملوا باظهار هذا وكونوا على رأيكم * وجعل معاوية يعطى المقارب ويدارى

المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز في ألف فارس فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن علي أول الناس فلما نظر إليه معاوية قال لا مرحبا ولا أهلا بدنة يترقرق دمها والله مهريقه قال مهلا فاني والله لست بأهل لهذه المقالة قال بلى ولشر منها ولقيه ابن الزبير فقال لا مرحبا ولا أهلا خب صب تلعة يخرج رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره نحياء عني فضرب وجهه راحلته ثم لقيه عبد الرحمن بن أبي بكر فقال له معاوية لأهلا ولا مرحبا شيخ قدسوف وذهب عقله ثم أمر فضرب وجه راحلته ثم فعل ما بين عمرو نحو ذلك فاقبلوا معه لا يلتفت اليهم حتى دخل المدينة فحضرها بابه فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه ما يحبون فخرجوا إلى مكة فأقاموا بها * وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فدحه وقال من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيهم بوائق تجتث أصولهم وقد أئذرت ان أغنت النذر ثم أنشده متمثلا

قد كنت حذرتك آل المصطلق * وقلت يا عمرو أطعني وانطلق

انك ان كلفتنى مالم أطق * ساء لك ما سر لك منى من خلق

دونك ما استسقيته فاحس وذق

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه فقال لا تقتلهم ان لم يبايعوا فتسكاهم اليها فوعظته وقالت له بلغني أنك تتهددهم بالقتل فقال يا أم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكني بايعت ليزيد وبايعه غيرهم أفترين أن أنقض بيعة قد تمت قالت فارفق بهم فانهم يصيرون إلى ما تحب ان شاء الله قال أفعل ومكث بالمدينة ماشاء الله ثم خرج إلى مكة فلقبه الناس قال بعض الكتاب فقال أولئك النفر تنلقاه فلعله قد ندم على ما كان منه فلقوه بيطن مر فكان أول من لقيه الحسين فقال له معاوية مرحبا وأهلا يا ابن رسول الله وسيد شباب المسلمين وأمر له بدابة فركب وسار به ثم فعل بالباقيين مثل ذلك وأقبل يسايرهم لا يسير معه غيرهم حتى دخل مكة فكانوا أول داخل وأخر خارج ولا يعصى يوم الا ولهم صلة ولا يذكر لهم شياً حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره فقال بعض أولئك النفر لبعض لا تتخذوا فما صنع بكم هذا لحبكم وما صنعه الا لما يريد فأعدوا له جوابا فانفقوا على أن يكون الخطاب له ابن الزبير فأحضرهم معاوية وقال قد علمت سيرتي فيكم وصلاتي لأرحامكم وجملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسيمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك فسكنوا فقال الأتحيبيون مرتين ثم أقبل على ابن الزبير فقال هات لعمرى انك خطيهم فقال نعم فخيرك بين ثلاث خصال قال اعرضهن قال فصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر قال معاوية ما صنعوا قال قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر قال ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف قالوا صدقت فاصنع كما صنع أبو

بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه وان شئت فاصنع كما صنع
 عمر جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه * قال معاوية
 هل عندك غير هذا قال لا * ثم التفت الى من لم يتكلموا وقال فانتم قالوا قولنا قوله قال
 فاني قد أحبيت أن أتقدم اليكم انه قد أعذر من أنذر اني كنت أخطب منكم فيقوم الى
 القائم منكم فيكذبني على رؤس الناس فأجمل ذلك وأصفح واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن
 رد علي أحدكم كلمة في مقامى هذا لاترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا
 يبقين رجل الاعلى نفسه * ثم دعا صاحب حرسه بمحضرهم فقال أقم على رأس كل رجل من
 هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يد علي كلمة بتصديق أو تكذيب
 فليضرب به بسيفهما ثم خرجا وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال * ان
 هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى الا عن مشورتهم وانهم
 قدرضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله * فبايع الناس وكانوا يترصبون بيعة هؤلاء النفر
 ثم ركب رواحله وانصرف الى المدينة فبايعه أهل المدينة ثم انصرف الى الشام وقد تم له
 ما أراد وقضى الامر ولم يختلف فيه اثنان

وخطب معاوية قبل مرضه فقال اني كزرع مستخصد وقد طالت إمرتي عليكم حتى
 مللتكم وملتوموني وتميت فراقكم وتميت فراقى ولن يأتيكم بعدى الا من أنا خير منه كما أن
 من قبلي كان خيرا مني وقد قيل من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه اللهم اني قد أحبيت
 لقاءك فأجيب لقائى وبارك لي فيه فلم يمض غير قليل حتى ابتدأ به مرضه فلما مرض
 المرض الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقال يا بني اني قد كفيبتك الشد والترحال ووطأت لك
 الامور وذلت لك الاعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجعت لك مالم يجمعه أحد فانظر
 أهل الخجاز فانهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فان
 سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مائة
 ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعينتك فان رايك من عدوك شئ فانصر
 بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم
 واني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الامر الأربعة نفر من قريش الحسين بن علي
 وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر فأما ابن عمر فانه رجل قد
 وقفته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين بن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه
 أهل العراق حتى يخرجوه فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رجاء ماسة وحقا
 عظيما وقربة مع محمد صلى الله عليه وسلم وأما ابن أبي بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيا
 صنع مثله ليس له همة الا في النساء والهو وأما الذى يجثم لك جنوم الاسد ويراوغك مراوغة
 الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فذلك ابن الزبير فان هو فعلها بك فظفرت به فقطعه
 اربا اربا واحقن دماء قومك ما استطعت اه قال ابن الاثير الجزرى * ذكر في هذه الرواية

عبد الرحمن بن أبي بكر وليس ذلك بصحيح فان عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد مات قبل معاوية
 ٥١ وقال بعض أهل التاريخ ان يزيد كان غائبا في مرض أبيه وموته وان معاوية أحضر
 الضحالك بن قيس ومسلم بن عقبة المري فأمرهما أن يؤدبا عنه هذه الرسالة الى يزيد ابنه *
 قلت وهذا هو المشهور * ولما حضرته الوفاة جمع أهله فقال ألسنم أهلى قالوا بلى فذالك الله
 بنا فقال وعليكم حزنى ولكم كدى وكسبى فقالوا بلى فذالك الله بنا قال فهذه نفسى قد
 خرجت من قدى فردوها على ان استطعتم فبكوا وقالوا والله مالنا الى هذا سبيل فرفع صوته
 بالبكاء ثم قال فبن تغزى الدنيا بعدى * قال بعض أهل التاريخ ولما ثقل به الضعف وتحديث
 الناس أنه الموت قال لاهله احشوا عيني انما وأسبغوا رأسى دهنا ففعلوا وبرقوا وجهه
 بالدهن ثم مهدوا له مجلسا وأسدوه وأذنوا للناس فدخلوا وسلموا عليه قياما ولم يجلس أحد
 فلما خرجوا عنه قالوا هو أصح الناس فقال معاوية عند خروجهم

وتجلدى للشامتين أريمهم * انى لريب الدهر لا أتضعضع

فسمعه رجل من العلوين فأجابه

واذا المنية أنشبت أظفارها * ألفت كل تميمه لا تنفع

قيل انه أوصى أن تدق قلامة أظافر صاحب الشريعة وكانت عنده وتجعل في منافذ
 وجهه وان يكنن في ثوب صاحب الشريعة * ومات بدمشق في نصف رجب وقيل في مستهل
 رجب سنة ستين هجرية أى سنة ستين وثمانمائة ميلادية وصلى عليه الضحالك بن قيس لغيبة
 الخليفة يزيد ابنه ببيت المقدس واختلف في عمره فقيل ثمانون وقيل خمس وسبعون سنة
 وقيل خمس وثمانون وقيل ثمان وثمانون وقيل تسعون سنة * وكانت خلافته منذ خلاص له
 الامر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام وكان أميرا وخليفة أربعين سنة منها أربع
 سنين في خلافة عمر بن الخطاب وكان مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الخشمة يلبس الثياب
 الفاخرة والعدّة الكاملة ويركب الخيل المسومة وكان كثير البذل والعتاء محسنا الى رعيته
 كبير الشأن له في العلم أخبار كثيرة وهو أول من اتخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب وأول
 من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة وأول من تنعم في مأكله ومشربه وملبسه وكان
 حليبا يجتمع مع صاحب الشريعة في عبد مناف بن قصي وينسب الى أمية بن عبد شمس
 فيقال الأموى

(الفصل الثانى)

(فى حلافة يزيد بن معاوية)

ثم قام بالامر بعد معاوية ابنه يزيد بربيع له بانطلاقه يوم موت أبيه فى رجب سنة احدى

وستين هجرية أى سنة ثمانين وستمائة ميلادية وقيل سنة ستين هجرية وقد كان بمحصر
 فقدم منها وبادر الى قبر أبيه ثم دخل دمشق الى الخضراء وكانت دارا لاسلطنة نخطب الناس
 بها وبايعوه بالخلافة وكتب الى الآفاق بذلك فبايعوه ولم يبايعه الحسين بن علي ولا عبد الله
 ابن الزبير واختفيا من عامله الوليد بن عقبة بن أبي سفيان وأقاما مصرين على الامتناع وبيان
 ذلك * أنه لما امتنع الحسين وابن الزبير من البيعة ليزيد خرج الحسين الى مكة فلقبه
 عبد الله بن مطيع فقال له جعلت فداك أين تريد قال أما الآن فمكة وأما بعد فإني أستخير
 الله قال خار الله لك وجعلنا فداك فاذا أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤمة
 بها قتل أبوك وخذل أخوك الزم الحرم فانك سيد العرب لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا
 ويتداعى اليك الناس من كل جانب ولا تفارق الحرم * فسار الحسين الى مكة ونزل بها
 فكان أهلها يختلفون اليه ويأتونه وعبد الله بن الزبير بها لا يريد الا خروج الحسين عنها
 لأن أهل الحجاز لا يبايعون الزبير مادام الحسين باقيا بالبلد * ولما بلغ أهل الكوفة امتناع
 الحسين ومن امتنع عن مبايعة يزيد وأنه سار الى مكة ونزل بها اجتمع جماعة من كبارهم
 وكتبوا الى الحسين يقولون * بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك فإنا نحمد اليك الله
 الذى لا إله سواه * أما بعد فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه
 الامة فابتزها أمرها وغصبها دنياها وتأمر عليها بغير رضا منها ثم قتل خيارها واستبقى
 شرارها وانه ليس علينا امام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير
 فى قصر الامارة لسنا نجتمع معه فى جمعة ولا عيد ولولبعنا اقبالك لنا أخرجناه حتى
 نلقه بالشام ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته * وسيروه اليه ثم كتبوا
 كتابا آخر وسيروه بعد ليثين فكتب الناس معه نحو من مائة وخمسين صحيفة ثم أرسلوا اليه
 رسولا ثالثا يخبرونه على المسير اليهم فتاقت نفس الحسين عند ذلك الى الامارة وسير مسلم بن
 عقيل الى الكوفة وأمره بكتمان أمره والالطف فان رأى الناس مجتمعين له جعل اليه بذلك
 فسار مسلم حتى أدرك الكوفة وأقبلت الشيعة تحتلف اليه فبلغ ذلك النعمان بن بشير وهو
 يومئذ أمير الكوفة نخطب فى الناس وحذرهم من العاقبة وكتب عبدالله بن مسلم من سعيد
 الحضرمي حليف بنى أمية الى يزيد يعلمه بخبر قدوم مسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له
 ويقول له ان كان لك فى الكوفة حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك
 فى عدوك فان النعمان ضعيف أو هو يتضعف تخلع يزيد النعمان وولى عبيد الله بن مرجانة
 فسار اليها وتمكن من مسلم بن عقيل فقتله وأعلم يزيد بالخبر فسر به جدا وكتب اليه يقول بلغنى
 أن الحسين قد توجه نحو العراق فضع المراصد والمسالح واجترئ واحبس على التهمة وخذ
 على الظنة غير أن لا تقتل الا من قاتلك * ولما أراد الحسين المسير الى الكوفة حسب كتب
 أهل العراق أنه الكثير من أشياعه يسألونه العدول عن المسير ويحذرونه العاقبة فلم يقبل
 وسار وهو لا يعلم ما جرى بمسلم بن عقيل وبينما هو فى طريقه الى الصفاح اذ لقيه الفرزدق

الشاعر فقال له أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب فقال له الحسين بين لي خبر الناس خلفك فقال الخبير سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء * فقال الحسين صدقت لله الامر يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا في شأن ان نزل القضاء بما تحب فحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وان حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريره

وجعل الحسين يرسل الرسل وهو في الطريق الى أهل الكوفة يعرفهم بقدمه وبأمرهم بالجد في أمرهم فكان أصحاب يزيد يقبضون عليهم فيقتلونهم وجاء الخبر الى الحسين بمقتل ابن عقيل بالثعلبية فتكدر جدا ووثب بنو عقيل مع الحسين يطلبون بثار عقيل وأتاه أيضا خبر مقتل أخيه من الرضاة عبد الله بن بقطر وكان سرحه الى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله فأخذته خيل الحصين وأعلم الحسين الناس بخبر قتل أخيه من الرضاة ومسلم بن عقيل وقال قد خذلنا شيعتنا فن أحب أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا زمام فتفرقوا بيننا وشمالا حتى بقي في أصحابه الذين جاؤا معه من مكة فلما سار من شراف وانتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له مم كبرت قال رأيت النخل * يريد نخل العلفه وانهم قريبون فيها * فقال رجل من بني أسد ما بهذه الارض نخلة قط فقال الحسين فما هو قال هي هوادي الخيل فقال الحسين وأنا أيضا أراه ذلك أما لنا ملجأ نلجأ اليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ثم مال بن معه الى ذو حشم وهو جبل هناك فلم يكن بأسرع من أن ظهر أصحاب يزيد وهم ألف فارس فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه في نحر الظهيرة وكان مقدم قوم يزيد الحر بن يزيد التيمي فوقع بينه وبين الحسين كلام مما هم فيه ثم سار الفريقان كل في ناحية حتى أتى الحسين قرية اسمها العقر فنزل بها هو ومن معه وذلك يوم الخميس الثاني من المحرم سنة احدى وستين فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد ابن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف وجاء عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس من قبل يزيد من مرو فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام فلما اشتد العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن علي فسار في عشرين راجلا يحملون القرب وثلاثين فارسا قدفوا من الماء فقالتوا عليه وملؤا القرب وعادوا ثم بعث الحسين الى عمر بن سعد عمرو بن قرظ بن كعب الانصاري أن القسي اللينة بين عسكري وعسكري نخرج اليه عمرو فاجتمعوا وتحادنا طويلا ثم انصرف كل واحد منهما الى عسكري فحدثت الناس في ذلك وقالوا ان الحسين قال لعمر اختاروا مني واحدة من ثلاث اما أن أرجع الى المكان الذي أقبلت منه أو أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيه واما أن تسيروا بي الى أي نغر من نغور المسلمين شتم فأكون رجلا من أهله لي مالهم وعلي ما عليهم فكتب عمر الى ابن زياد عامل يزيد بعلمه بالخبر ويسأله أن يجابو الحسين الى خصلة من هذه الثلاث فلما علم ابن زياد ما في كتاب عمر وقد حرضه شمر بن ذى الجوشن

على أن لا يمكن الحسين من شيء مما سألت كذب ابن زياد الى عمر يقبح فعله ويقول له اني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاول ولا لتقعده له عندى شافعا انظر فان نزل هو وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعثته الى سالما وان أبوا فازحف اليهم واقتلهم ومثل بهم فان قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره فانه عاق شاق فاطع ظلوم أوتعتزل ويكون الامر لذى شمر وسلم الكتاب لشمر المذكور فلما جاء عمر الكتاب ركب والناس معه بعد العصر وساروا الى الحسين فأرسل لهم الحسين العباس في عشرين فارسا فتقررت القاعدة بينهم على أن يلتقوا في غداة غد فافترقوا على ذلك وباتوا ليلتهم تلك فلما كانت عشية الليلة سمعته أخته زينب وهو في خيابه له يقول وعنده حوى مولى أبي ذر الغفارى يعالج سيفه

يادهر أف لك من خليل * كم لك بالاشراق والاصيل

من صاحب أو طالب قتيل * والدهر لا يقنع بالسدليل

وانما الامر الى الجليل * وكل حتى سالك السبيل

فأعادها مرتين أو ثلاثا فلما سمعته لم تملك نفسها أن وثبت نجر ثوبها حتى انتهت اليه وصاحت وانكلاذ ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم مانت فاطمة أمى وعلى أبى والحسين أخى يا خليفة الماضى وغال الباقى * فلما سمعها قام اليها وقال يا أخية لا يذهبن حملك الشيطان فقالت بأبى أنت وأمى استقتلت نفسى لنفسك الفداء فترقرقت عيناه وقال لو ترك القطا لنام فلطمت وجهها وقالت واويلنا أفتغصبك نفسك اغتصبا فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسى ثم لطمت وجهها وشقت جيها ونخرت مغشية عليها فقام الحسين فصب الماء على وجهها وقال اتق الله وتعزى بعزاء الله واعلمى أن أهل الارض يموتون وأهل السماء لا يموتون وان كل شئ هالك الاوجه الله أبى خير منى وأمى خير منى وأخى خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ثم قال لها يا أخية انى أقسم عليك لاتشقى على جييا ولا تخمشى على وجهها ولا تدعى على بالويل والثبور ان أنا هلكت * وأصبح الحسين وقد أمر أصحابه أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الاطناب بعضها فى بعض ويكونوا بين أيدي البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم وباتوا ليلتهم تلك وفى غداة السبت وقيل الجمعة يوم عاشوراء خرج عمر بن سعد فيمن معه من الناس وعبي الحسين أصحابه وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون رجلا فجعل زهير بن القيس فى ميمنة أصحابه وحبيب بن مطهر فى ميسرةمهم وأعطى رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت فى ظهورهم ثم ركب دابته ودعا بصحف فوضعه أمامه ونادى الحسين عمر وأصحابه ونهاهم عن قتاله وبالغ فى التهى وقال دعونى أنصرف الى مأمنى من الارض فقال له قيس بن الأشعث أولاتنزل على حكم ابن عمك يعنى ابن زياد فانك لن ترى الا ماتحب فقال له الحسين أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم ابن عقيل لا والله ولا أعطيهم بيدي عطاء الذليل ولا أقر اقرار العبد ثم التفت الى القوم وقال

عباد الله انى عدت برى وربكم أن ترجونى أعوذ برى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ثم أناخ راحلته ونزل عنها وخرج زهير بن القين أحد أصحابه على فرس له فى السلاح فقال مقالة طويلة ونهى أصحاب يزيد عن القتال وجعل يعرض بذكر ابن زياد وبسبه فغضب القوم ومالوا على زهير بالسب والشتم وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ونبعث به وبأصحابه الى الامير عبيدالله بن زياد

ورتب عمر أصحابه وأحكم ترتيبهم ثم اشتبك القتال بين الفريقين وحى الوطيس وكثر الرمي بالنبال والحجارة وسالت الدماء وجلت رجال عمر بن سعد على أصحاب الحسين فأعلموا فيهم السيف حتى أفنوهم واشتد العطش بالحسين فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن غير بسهم فوقع فى فمه فجعل يتلقى الدم بيده ورمى به الى السماء وقال اللهم انى أشكو البك ما يصنع باين بنت نبيك اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم ان شمر ابن ذى الجوشن أقبل فى نفر نحو العشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فقالوا بينه وبين رحله وأحاطوا بالحسين وهو يطاردهم ويدفعهم عنه فنادى شمر فى الناس ويحكمم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه نكلتكم أمهاتكم فحملوا عليه من كل جانب وطعنه سنان بن أنس النخعي برمح فوقع يخطب فى دمه ونزل اليه فذبحه وأخذ رأسه فرفعه الى خولى وسلب الحسين ما كان عليه ومال الناس على الفرش والحملل والابل فانتهبوها ونهبوا نقله ومتاعه وما على النساء حتى ان كانت المرأة لتتزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ثم انتهوا الى على بن الحسين زين العابدين فأراد شمر قتله فنع عمر بن سعد قتله ومنع الناس من الدخول الى بيوت النساء وانتدب عمر بن سعد المذكور عشرة من أصحابه فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدرة وكان عدة من قتل مع الحسين من أصحابه اثنين وسبعين رجلا منهم من أولاد على أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة ثم ان عبيدالله بن زياد جهز على بن الحسين ومن كان مع الحسين من النساء الى يزيد بن معاوية وهو يومئذ بدمشق مع شمر بن ذى الجوشن فى جماعة من أصحابه فساروا حتى قدموا دمشق ودخلوا على يزيد بن معاوية ومعهم رأس الحسين فرمى به بين يدي يزيد ثم تكلم شمر بن ذى الجوشن فقال يا أمير المؤمنين ورد علينا هذا يعنى الحسين فى ثمانية عشر رجلا من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا اليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيدالله بن زياد أو القتال فأختاروا القتال فغدونا عليهم عند شروق الشمس وأحطنا بهم من كل جانب فلما أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوزون كابلوز الحمام من الصقور فما كان الامقدار جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة ونحدودهم معفرة تسقى عليهم الرياح زوارهم العقبان ووفودهم الرخم

فلما سمع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل

الحسين لعن الله ابن مرجانة أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه ثم قال يرحم الله أبا عبد الله وتمثل بقول الشاعر

يفلقن هاما من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم أمر بالذرية فادخلوا دار نسائه وكان يزيد اذا حضر غداؤه دعا علي بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه ثم وجه الذرية صحبة علي بن الحسين الى المدينة ووجه رجلا في ثلاثين فارسا يسير أمامهم حتى انتهوا الى المدينة * قال أصحاب التاريخ * وكان بين وفاة صاحب الشريعة وبين اليوم الذي قتل فيه الحسين خمسون عاما وقيل ان الحسين لما وصل كربلاء سأل عن اسم المكان فقيل له كربلاء فقال ذات كرب وبلاء لقد مر أبي بهذا المكان عند سيره الى صفين وأنا معه فوقف وسأل عنه فأخبروه باسمه فقال ههنا محط رحالهم وههنا مهراق دمائهم فسئل عن ذلك فقال نفر من آل محمد ينزلون ههنا ثم أمر بانقاله فخطت في ذلك المكان * وكان قتل الحسين يوم عاشوراء سنة ستين للهجرة وقيل احدى وستين أى نحو سنة ثمانين وستمائة ميلادية ذكره أبو حنيفة في الاخبار الطوال وقتل مع الحسين في هذه الواقعة سبعون رجلا وقتل معه العباس بن علي وأمه أم البنين بنت حزام وقتل جعفر بن علي وأمه أم البنين أيضا وقتل عبدالله بن علي وأمه أم البنين أيضا وقتل عثمان بن علي وأمه أم البنين أيضا وقتل محمد بن علي وأمه أم ولد وقتل أبو بكر بن علي وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية وقتل علي بن الحسين بن علي وأمه ليلى ابنة أبي مرة بن عروة الثقفي وقتل عبدالله بن الحسين بن علي وأمه الرباب ابنة امرئ القيس الكلبي وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن وقتل القاسم بن الحسن وقتل عون بن أبي جعفر بن أبي طالب وقتل محمد ابن عبد الله بن جعفر وقتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب وقتل عبد الرحمن بن عقيل وقتل عبد الله بن عقيل وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة كما تقدم القول وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وقتل محمد بن أبي سعيد بن عقيل * وفي هذه السنة أى سنة ستين دعا ابن الزبير الى نفسه بالخلافة بمكة وعاب يزيد بشرب الخمر واللعب بالكلاب والتهاون بالدين وأظهر ثلبه وتنقصه فبايعه أهل تهامة والحجاز * فلما بلغ يزيد ذلك نذب له الحصين بن نمير السكوني وروح بن زبياع الجذامي وضم الى كل واحد جيشا واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المزني وجعله أمير الامراء ولما ودعهم قال يا مسلم لا تردون أهل الشام من شيء يريدونه بعدوهم واجعل الطريق على المدينة فان حاربوك فإخرجهم فان ظفرت بهم فأبجها ثلاثا فصار مسلم بن عقبة حتى نزل الحرة فخرج أهل المدينة وعسكروا بها وأميرهم عبد الله بن حنظلة وهو غسيل الملائكة فدعاهم مسلمة ثلاثا فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل الشام وقتلوا أمير المدينة عبد الله بن حنظلة وسبعائة من المهاجرين والانصار ودخل مسلم المدينة وأباحتها ثلاثة أيام ثم شخص بالجيش الى مكة وكتب الى يزيد بما صنع بالمدينة فلما بلغ مسلم (هرشي) اعتل ومات فتولى امره الجيش الحصين بن نمير السكوني فسار حتى

وإلى مكة فتحصن منسه ابن الزبير في المسجد الحرام بجميع من كان معه فنصب الحصين
 المخنثيقي على أبي قبيس وروى به الكعبة فيمناهم كذلك إذ ورد الخبر للحصين بموت يزيد بن
 معاوية فأرسل إلى ابن الزبير يسأله المواعدة فأجابته إلى ذلك وفتح الأبواب واحتاط العسكران
 بطوفان بالبيت فبينما الحصين يطوف ليلة بعد العشاء إذا استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين
 بيده وقال له سرّا هل لك في الخروج معي إلى الشام فأدعو الناس إلى بيعتك فإن أمرهم
 قد فرج ولأدرى أحدا أحق بها اليوم منك ولست أعصى هنالك فأحتدب ابن الزبير يده
 وقال وهو يجهر بقوله دون أن يقتل بكل واحد من أهل الخجاز عشرة من أهل الشام فقال
 الحصين لقد كذب الذي يزعم أنك من دهاة العرب أكلت سرا فتكلمني علانية وأدعوك إلى
 الخلافة وتدعوني إلى الحرب ثم انصرف عن معاوية إلى الشام

ومات يزيد بن معاوية في ربيع الأول سنة أربع وستين أي سنة ثلاث وثمانين وستمائة
 للميلاد ودفن بقبعة باب الصغير وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل وثمانية أشهر
 وترك من البنين أحد عشر ذكرا لامهات شتى * ومما يحكى عن نجابته وشدة حدقه
 ما قاله محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبي قال * نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة إلى
 يزيد وأمه ترحله فلما فرغت منه قبلته فقالت ابنة قرظة لعن الله سواد ساقى أمك فقال
 معاوية أما والله لما تفرجت عنه وركها خيرا مما تفرجت عنه وركاك وكان لمعاوية من
 ابنة قرظة عبد الله وكان أحق فقالت له لا والله ولكنك تؤثر هذا فقال سوف أبين لك ذلك
 فأمر فدعى له عبد الله فلما حضر قال أي بنى أنى أردت أن أعطيك ما أنت أهله ولست
 بسائل شيئا إلا أجبته اليه فقال حاجتي أن تشتري كلبا فارها وجارا فقال أي بنى أنت
 جبار وأشتري لك جارا قم فأخرج * ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لآخيه نخر ساجدا ثم
 قال حين رفع رأسه الحمد لله الذي بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه في هذا الرأي حاجتي أن
 نعتقى من النار لأن من ولى أمر الأمة ثلاثة أيام أعتقه الله من النار فتعقد لى العهد
 بعدك وتوليتي العام الصائفة وتأذن لى فى الحج إذا رجعت وتوليتي الموسم وتزيد لاهل الشام
 كل رجل عشرة دنانير وتفرض لايتام بنى ججيج وبنى سهم وبنى عدى لانهم حلفائى * فقال
 معاوية قد فعلت وقبل وجهه ثم نظرا لى امرأته ابنة قرظة وقال كيف رأيتى فقالت أوصه
 به يا أمير المؤمنين قيل ففعل * وله لطائف أخرى واستعمل فى أيامه على مصر فى أواخر سنة
 اثنتين وستين سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي فبقي إلى خلافة الزبير وعزل

ومات فى أيامه أعاثو بطرك الاسكندرية تاسع ثلاثين بعد أن أقام سبع عشرة سنة ولم يحدث
 فى أيامه شئ يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الاربعون من بطاركتهم وأصله من مدينة سمنود وفى
 أيامه صارت الشدة على النصارى وعظم عليهم الخطب واشتد الكرب وكثر البلاء وتبعهم أهل
 الفساد بالقتل والنهب والسلب فكان حازما وقورا صبوراً لا يتزعزع بحسن السياسة كثير التفكير
 ولما مات يزيد تولى الخلافة بعده ابنه معاوية

(الفصل الثالث)

(في خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان)

ثم قام بالامر بعد يزيد معاوية ابنه ببيع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة أربع وستين هجرية أي نحو ثلاث وعشرين وثمانمائة ميلادية فأقام فيها أربعين يوما وكان خيرا من أبيه فيه دين وعقل وقيل أقام خمسة أشهر وأياما ثم خلع نفسه عن رضا ورغبة * قال أصحاب التاريخ * ان معاوية بن يزيد هذا لما خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلا ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء ثم ذكر النبي بأحسن ما يذكر به ثم قال * أيها الناس ما أنا بالراغب في الائتار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم واني لأعلم أنكم تكرهوننا أيضا لانا بلينا بكم وبليتم بنا الا أن جدي معاوية رضى الله عنه قد نازع في هذا الامر من كان أولى به منه ومن غيره لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظم فضله وسابقته أعظم المهاجرين قدرا وأشجعهم قلبا وأكثرهم علما وأولهم ايمانا وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأخوه زوجته صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وجعله لها بعلا باختيارها وجعلها له زوجة باختيارها له أوسطية وسيدى شباب أهل الجنة وأفضل هذه الامة تربية الرسول وابنى فاطمة البتول من الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية فركب جدى معه ما تعلمون وركبتم معه مالا تجهلون حتى انتظمت لجدى الامور فلما جاءه القدر المحتوم واخترته أيدي المنون بقي مرتها بعمله فريدا في قبره ووجد ما قدمت يداه ورأى ما ارتكبه واعتمده ثم انتقلت الخلافة الى يزيد أبي فتقلد أمركم لهوى كان أبوه فيه ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله واسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ما أقدم من جرائته على الله وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت مدته وانقطع أثره وراجع عمله وصار حليف حفرته رهين خطيئته وبقيت أوزاره ومعايبه وحصل على سدم وندم حيث لا ينفعه الندم وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه فليت شعري ماذا قال وماذا قيل له هل عوقب بأسائه وجورى بعمله وذلك ظنى * ثم اختسفته العبرة فبكي طويلا وعلا فحبه * ثم قال وصرت أنا ثالث القوم والساخط على أكثر من الراضى وما كنت لانتهمل أن ألامكم ولا يرانى الله جلّت قدرته متقلدا أوزاركم وألقاه بتبعاتكم فسانتكم أمركم نخذوه ومن رضيتكم به عليكم فولوه فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم والسلام * فقال له مروان بن الحسك وكان تحت المنبر أسنة عمرية يا باليلي * فقال اعزب عنى أعن ديتى نخذ عنى فوالله ما ذقت حلوة خلافتكم حتى أتجرع مرارتها ايتنى برجل مثل رجال عمر رضى الله تعالى عنه على أنه ما كان من حين جعلها شورى وصرف بها عن لايشك في عدالته ظلوما والله لئن كانت الخلافة مغنما لقد نال أبى منها

مغرما ومأتما ولئن كانت سوا فحسبه منا ما أصابه * ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكي فقالت له أمه * ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك * فقال وددت والله ذلك * ثم قال وبلى ان لم يرجني الله * ثم ان بنى أمية قالوا لمؤتبه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته آياه وصرفته عن الخلافة وزينت له حب علي وأولاده وجلته على ما وسمنا به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق وقال بما قال فقال والله ما فعلته ولكنك مجبول ومطبوع على حب علي فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حيا حتى مات

ووفى معاوية بن يزيد بعد خلعه نفسه باربعين ليلة وقيل بتسعين وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة وقيل احدى وعشرين سنة وقيل ثمان عشرة ولم يعقب واجتمع بنو أمية وانتخبوا مروان بن الحكم ليقوم بالامر بعده وكان ذلك في سنة أربع وستين للهجرة

(الفصل الرابع)

(في خلافة مروان بن الحكم المعروف بالطريد)

ثم قام بالامر بعد معاوية مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بويج له بالخلافة بالحاسية سنة أربع وستين للهجرة أى سنة ثلاث وعشرين وستائة لليلاد ثم دخل الشام فاذعن أهلها له بالطاعة وكان يقال له ابن الطريد لان صاحب الشريعة كان قد طرد أباه الى الطائف وردّه عثمان حين ولي وكان مروان قد لحق صاحب الشريعة وهو صبي وولى نيابة المدينة مرات وهو قاتل طلحة أحد العشرة وكان كاتب السر لعثمان وبسببه جرى عليه ماجرى كما تقدم الكلام عنه * ولما بويج لمروان بالشام قام أهل مكة بمبايعة عبدالله بن الزبير وكان مروان وقتئذ بالمدينة فقصده السير الى عبدالله وممانعته ثم سار مع من سار من بنى أمية الى الشام * وبابيع لابن الزبير أهل البصرة واجتمعت له أهل الحجاز واليمن وبعث الى بلاد العراق فبايعه أهلها وبابيع له في الشام سرا الضحالك بن قيس وبمحض النعمان بن بشير الانصارى وبقي بن زهر بن الحارث قال بعض أهل التاريخ ولو صانع الزبير بنى أمية قليلا لاستقر له الامر * وكان ابن الزبير شجاعا كثير العبادة هذا ما كان من أمر ابن الزبير * أما ما كان من أمر بنى أمية فانهم لم يقبلوا به وكان مروان كما تقدم القول بالشام فاجتمع بنو أمية واقتروا أهل الشام الى عمانية مع مروان والى قيسية مع الضحالك بن قيس وجرت بينهما أمور يطول شرحها ثم اقتتلوا بمرج راهط قتالا شديدا فانهمز الضحالك وأصحابه سرهزيمة وقتل كثير من فرسان قيس وقتل الضحالك وقتل معه أيضا عثمانون رجلا من أشرف أهل الشام وذلك في الحرم سنة خمس وستين وقيل في أواخر سنة أربع وستين ودخل مروان دمشق وذهب الى دار الخلافة واجتمع اليه الناس وانحاز له زفر بن الحرث وكان يفسرين بيابيع لابن الزبير

واستوثق الشام لمروان والحجاز والعراق واليمن لابن الزبير فلما استقر مروان بالشام ودانت له
أمورها سار الى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جندم القرشي يدعو الى ابن الزبير فخرج
الى مروان فبين معه فبعث مروان عمرو بن سعيد من وراء عبد الرحمن حتى دخل مصر
فأمسى عبد الرحمن وكانه بين منتطح عنزيرين فلما أحس بذلك رجع خائبا فباع الناس
مروان ودانت له الامور بمصر أيضا كما دانت له بالشام

وفي هذه الايام هدم ابن الزبير الكعبة وحفر أساسها وأدخل الحجر الاسود فيها وأعادها الى
ما كانت عليه فأمر مروان قومه بان لا يخرجوا الى هناك بل الى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب
الشام مع مروان وبني فاطمة فقام مروان ومزق الفاطميين وأبادهم وتفرغ لحرب الشيعة
من الجيم فبدهم أيضا من سهول عين وما زال حتى استتب له الامر ودانت له المصاعب * فلما
كانت سنة خمس وستين هجرية رسم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز وكان السبب في ذلك
أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير عند ما وجهه أخوه عبد الله الى الشام
لقتال معاوية ومن معه من الاحزاب ورجع عمرو الى دمشق ظافرا غائما بلغ مروان أن عمرا
يقول ان الامر لي من بعد مروان فأكبر ذلك جدا وأرسل في طلب حسان بن مالك بن محمد
فلما حضر اليه أخبره بخبر عمرو وما يقوله وقال اني أريد أن أبايع ولدي عبد الملك وعبد العزيز
فقال له حسان أنا أكفيك عمرا فلما اجتمع الناس عند مروان عشيا قال * انه قد بلغنا أن رجلا
يتنون أمانتي * قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده فقاموا جميعا لساعتهم وبايعوا
عن آخرهم وكان مروان قبلا قد حلف أنه يعهد لخالد بن يزيد فعتب عليه خالد فغضب
وسماه ابن زانية وكان مروان متزوجا بام خالد بن يزيد المذكور فقام خالد ودخل على أمه
فأخبرها بما كان من مروان فقالت له لا يعلمن ذلك منك الا أنا أنا أكفيك فدخل عليها
مروان فقال لها هل قال لك خالد في شيء فقالت لانه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك
شيئا فصدقتها وابث أياها * ثم انه نام عندها ليلة فقامت عليه ووضعت على وجهه رداء
مشربا بالسّم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها حتى مات فكانت خلافته عشرة أشهر وقيل
تسعة أشهر وعمره ثلاث وستون سنة وقيل احدى وستون سنة * روى الحاكم في كتاب
الفتن والملاحم من المستدرک عن عبد الرحمن بن عوف قال * كان لا يولد لاحد مولود الا أتى
به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعوه فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال هو الوزغ
ابن الوزغ الملعون بن الملعون اه وكان مروان قصيرا أجرد أوقص يكنى أبا الحكم وأبا عبد
الملك قيسل وأعتق في يوم واحد مائة رقبة وهو أول من قدم الخطبة في صلاة العيود قبل
الصلاة ولما مات بويج لولده عبد الملك في اليوم الذي مات فيه

(الفصل الخامس)

(في خلافة عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالامر بعد مروان ابنه عبد الملك بويوع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة ست وستين للهجرة أي سنة خمس وثمانين وستمائة للبلاد وهو أول من سمي بعبد الملك في الاسلام وأول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدنانير قبل ذلك نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية * قيل انه لما أتمه الخلافة كان قاعدا والمصحف في حجره فأطبقة وقال هذا آخر العهد بك * وكان عامله بمصر أخوه عبد العزيز بطاعة عبد الملك ولم يكذب يستتب له الامر بالشام ومصر حتى خرج في سنة ست وستين المختار من العلوية بالكوفة وأراد الاخذ بشار الحسين فباعه الناس واجتمع اليه خلق كثير واستولى على الكوفة وأراد الاخذ بدم أهل البيت وطلب شهر بن ذى الجوشن فظفر به وقتله وأحاط بدار خولى الاصبحي صاحب رأس الحسين وقتله وأحرقه بالنار ثم قتل عمرو بن سعد بن أبي وقاص صاحب الجيش الذي قتل الحسين وقتل جعفر بن عمرو المذكور وبعث برأسيهما الى محمد بن الحنفية بالخجاز واتخذ له كرسيًا وادعى أن فيه من السر ما كان في تابوت عهد بنى اسرائيل ومن خبر هذا الكرسي ماهو غريب * قال الطفيل بن جعدة بن هبيرة أضفنا اضافة شديدة * يعني أنه كان في حاجة للقوت * فخرجت يوما فاذا جارلي زيات عنده كرسي ركبته الوسخ فقلت في نفسي لو قلت للمختار في هذا شيئاً فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو بيض قال الراوي فقلت للمختار اني كنت أكنمك شيئاً وقد بدالى أن أذكره لك * ان أبي جعدة كان يجلس على كرسي عندنا ويروي أن فيه أثر من عليّ قال سبحان الله أخرته الى هذا الوقت ابعث به فأحضرته عنده وقد غشي فامر لي باني عشر ألفاً ثم دعا الصلاة جامعة فاجتمع الناس فقال المختار انه لم يكن في الامم الخالية أمر الا وهو كائن في هذه الامة مثله وانه كان في بنى اسرائيل التابوت وان هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسي على بغل وقد غشي فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك قنمة وكبر اعتقادهم في ذلك الكرسي وارتفعوا حتى تعاطوا الكفر قال ابن جعدة فندمت على ما صنعت اه ثم أرسل المختار عسكريا لقتال عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان وكان عبيد الله واليا على البصرة فولاه يزيد على الكوفة فقدم عليها ليري ما كان الناس عليه وهو الذي قتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب الذي كان الحسين قد أرسله الى الكوفة ليأخذ له البيعة كما تقدم بيان هذا كله في محله وكان المختار قد استولى على الموصل لما أرسل لقتال عبيد الله وقد تم على الجيش ابراهيم بن الاشر فاقتملوا قتالا شديدا وانهمز أصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل له ابراهيم المذكور وأخذ رأسه ثم أحرقوا جثته بالنار ورميت بالتراب

وولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فاستدعى مصعب المهلب بن أبي صفرة من
 خراسان فأناه عمال ورجال كثيرة وسار الى قتال المختار وحصره في قصر الامارة بالكوفة وما
 زالا يقاتلنه حتى قتل المختار وأصحابه وكانوا سبعة آلاف وكان عبد الملك بن مروان يراقب
 الفرص ويتحين انتفاعها فلما علم بنظر مصعب وقتله للمختار خشى استفحال أمر مصعب
 واتساع كلمته فجهز وسار في جيش عظيم الى العراق فالتقى الجمعان واقتتلا وكان أهل
 العراق قد كاتبوا عبد الملك سرا فتخلفوا عن مصعب وقتل مصعب وابنه بدير الجاثليق
 عند نهر دجيل وله من العمر ست وثلاثون سنة وكان مصعب هذا صديق عبد الملك قبل
 خلافته فدخل عبد الملك الكوفة وبايعه الناس واستوثق ملك العراق واستتاب عليها أخاه
 بشر بن مروان وكررا جعلا الى دمشق ثم جهز الحجاج بن يوسف الثقفي في جيش لحرب ابن الزبير
 وكان السبب في تسيير الحجاج المذكور دون غيره أن الحجاج قال لعبد الملك قد رأيت في المنام
 اني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثني اليه وولني قتاله فبعثه في ثلاثة آلاف من أهل
 الشام وكتب معه أمانا لابن الزبير ومن معه ان أطاعوا فسار في جمادى الاولى سنة اثنتين
 وسبعين ولم يتعرض للمدينة ونزل الطائف فكان يبعث الخيل الى عرفة ويبعث ابن الزبير أيضا
 فيقتتلون بعرفة فتنهزم خيل ابن الزبير في كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالنظر ثم كتب الحجاج
 الى عبد الملك يستأذنه في دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرق أصحابه
 ويستتدنه فكتب عبد الملك الى طارق يأمره بالحاق بالحجاج فقدم المدينة في ذى القعدة سنة
 اثنتين وسبعين وأخرج عامر بن الزبير عنها وجعل عليها رجلا من أهل الشام اسمه نعلبة
 فكان نعلبة يخرج المخ وهو على منبر صاحب الشريعة ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغيب
 أهل المدينة وكان مع ذلك شديدا على أهل الزبير * وقدم طارق على الحجاج بمكة في سلح ذي
 الحجة في خمسة آلاف فحاصر الحجاج ومن معه ابن الزبير ونصب المنجنيق على أبي قبيس وهو
 جبل هناك ورمى به الكعبة وجم ابن عمر تلك السنة فأرسل الى الحجاج يقول اتق اللهوا كفف
 هذه الحجارة عن الناس فانك في شهر حرام وبلد حرام وقد منعت الناس عن الطواف فبطل
 الرمي حتى عاد الناس من عرفات وطاقوا وسعوا فنادى منادى الحجاج انصرفوا الى بلادكم فانا
 نعود بالحجارة على ابن الزبير المحمد فكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلى فلا
 ينصرف وكان أهل الشام يقولون عند الرمي بالمنجنيق هذه العبارة

* يا ابن الزبير طامنا عصيكا * وطالما عنتنا اليكا * لتجزين بالذي أتىكا *

يعنون عصيت وأنت * وطال القتال بين الفريقين واشتد الشاميون أصحاب الحجاج
 على ابن الزبير وأصحابه فغلت الاسعار عنده وأصاب الناس سحابة شديدة حتى ذبح فرسه
 وقسم لحمها في أصحابه وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهما وكانت
 بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمر * وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده وكان
 يحفظ ذلك ولا ينفق منه الا بما يمك الرمي ويقول نفوس أصحابي قوية ما لم يقن * فلما كان

قبيل مقتله تفرق الناس عنه وخرجوا الى الحجاج بالامان فكانوا نحو عشرة آلاف فلما تفرق أصحابه عنه خطب الحجاج الناس وقال * قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد والضيق ففرح أصحاب الحجاج واستبشروا وتقدموا مغلوا ما بين الحجون الى الابواء فهال ابن الزبير الامر ودخل على أمه فقال يا أماه قد خذاني الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معي الا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبته يتلعب بها غلمان بني أمية وان كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قاتل معك وان قتلته كنت على حق فلما وهن أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا القتل أحسن فقال يا أماه أخاف ان قناني أهل الشام أن يملوا بي ويصلبوني قالت يا بني ان الشاة لا تألم بالسليخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وخرج يقاتل الحجاج وطارقا وأصحابهما فكانت مدة القتال أربعة أشهر وقيل سبعة وبينما هو يحمل عليهم سقطت عليه شرافة من شراريف المسجد نخر منها فبادروا اليه واحتروا رأسه وذلك يوم الثلاثاء من جادى الآخرة من السنة المذكورة وله ثلاث وسبعون سنة * وسير الحجاج رجلين الى عبد الملك بالخبر فلما شاع الخبر بين أهل الشام كبروا وفرحوا بقتله وأمر الحجاج بجثته فصلبها على الثنية اليمنى بالحجون قيل وكان ابن الزبير قبل موته بقى أياما يستعمل الصبر والمسك لثلاثين فلما صلب ظهرت منه رائحة المسك فقيل ان الحجاج صلب معه كلبا ميتا فغلب على ريح المسك وقيل بل صلب معه سنورا * قال بعض أصحاب التاريخ ولما قتل عبدالله ركب أخوه عروة ناقة ليس لها مثيل فسار الى عبد الملك فقدم الشام قبل وصول رسل الحجاج بخبر قتل عبدالله فأتى باب عبد الملك فاستأذن فأذن له فلما دخل سلم عليه بالخلافة فرد عليه عبد الملك السلام ورحب به وعانقه وأجلسه على السرير فقال عروة

ممت بأرحام اليك قريبة * ولا قرب للارحام مالم تقرب

ثم تحسنا حتى جرى ذكر عبدالله فقال عروة انه كان فقال عبدالله وما فعل قال قتل نحر ساجدا فقال عروة ان الحجاج صلبه فهب جثته لأمه فقال نعم وكتب الى الحجاج يعظم صلب عبدالله وكان الحجاج لما غاب عروة كتب الى عبد الملك يقول له ان عروة كان مع أخيه فلما قتل عبدالله أخذ مالا من مال الله فهرب فكتب اليه عبد الملك انه لم يهرب ولكنه أتاني مبيعا وقد أمنته وحلته مما كان وهو قادم عليك فإياك وعروة * وعاد عروة الى مكة وسلم الى الحجاج كتاب عبدالله فأنزله الحجاج جثة عبدالله ودفعها الى أمه فغسلته ودفنته وقيل ألقيت جثته في مقابر اليهود ثم دخل الحجاج مكة فأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك ابن مروان وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم وسار الى المدينة وكان عبد الملك قد استعمله على مكة والمدينة فكانت خلافة ابن الزبير بالحجاز واليمن تسع سنين لا غير

ودانت لعبد الملك الامور فعملت كلمته وكبرت هيئته وقاتل الخوارج من اصحاب العباسيين
 واقام المستشفيات للرضى والحنانات للغرباء بدمشق فامتدت في عهده وكثرت بعد ذلك في
 جميع بلاد المسلمين وقد كانت لا تعرف قبله * ولما كانت سنة اثنتين وثمانين هم عبد الملك
 بخلع اخيه عبد العزيز من ولاية العهد ومبايعة ابنه الوليد وكان عبد العزيز يومئذ عاملا على
 مصرفكلم قبيصة بن ذؤيب في ذلك وكان قبيصة المسدكور صاحب الخاتم فنهاه قبيصة عن
 ذلك وقال لا تفعل فانك تبعث على نفسك صوت عاد ولعل الموت ياتي بك فكتب عبد الملك عن
 اخيه وفي نفسه ما فيها وبينما هو على هذا الحال اذ دخل عليه روح بن زبعا وكان روح هذا
 اجل الناس عند عبد الملك فكلمه عبد الملك في ذلك فقال يا امير المؤمنين لو خلعتني ما انتطح
 فيه عزان وانا اول من يجيبك الى ذلك ففرح عبد الملك وقال نصبح ان شاء الله وبات روح
 عند عبد الملك ليلته تلك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وقد جاءه الخبر بموت عبد العزيز فلما
 دخل سلم عليهما فقال عبد الملك ما وراءك يا قبيصة قال اجر الله في عبد العزيز اخيك قال هل
 توفي قال نعم فاسترجع ثم اقبل على روح وقال كفانا الله ما كنا نريد فقال قبيصة يا امير المؤمنين
 ان الرأى كله في الائمة فقال عبد الملك وربما كان في العجالة خير * وكانت وفاة عبد العزيز في جمادى
 الاولى في مصر سنة خمس وثمانين فطمع عبد الملك عمه الى ابنه عبد الله وولاه مصر وكان حين
 ولي على مصر حدثا فكان اهل مصر يسمونه تكيس قاله ابن خلكان وقيل ان الخجاج كتب الى
 عبد الملك يزين له بيعة الوليد وسير اليه في ذلك وفدا فلما اراد عبد الملك خلع عبد العزيز
 والبيعة للوليد كتب الى عبد العزيز يقول رأيت ان يصير هذا الامر لابن اخيك فابي فكتب
 اليه ليجعل الامر له ويجعله له ايضا من بعده فكتب اليه عبد العزيز اني ارى في ابني ابي
 بكر ما ترى في الوليد فكتب اليه عبد الملك ليحمل له خراج مصر فأجابه عبد العزيز * اني واياك
 يا امير المؤمنين قد بلغنا سنا لم يبلغها احد من اهل بيتك الا كان بقاؤه قليلا وانا لا ندرى اينا
 ياتي الموت اولاً فان رأيت ان لا تفسد على بقية عمري فافعل فرق له عبد الملك وتركه وكان
 عبد الملك قبل الخلافة متعبدا ناسكا عالما تقيا واسع العلم حازما لا يكل امره الى سواء محبا
 للفخر مقداما على سفك الدماء ولذلك كان عماله الخجاج بالعراق ومحمد بن يوسف اخو الخجاج
 باليمن ومحمد بن مروان بالجزيرة وكل من هؤلاء ظلم غشوم جبار * قال الليث بن سعد * وعبد الله
 ابن عبد الملك اول من نقل في عماله على مصر الدواوين الى العربية وانما كانت بالقبطية (قلت)
 وقد قال بعض اصحاب التاريخ انها بقيت بالقبطية والعربية معا زمنا طويلا حتى زالت
 القبطية من جميع الدواوين وبقيت العربية فاشية الى يومنا الذي نحن فيه * وهو اول من
 نهى الناس عن لباس البرانس وشدت في المنع واقام الى سنة تسعين هجرية أي سنة عشر
 وسبعائة ميلادية حتى عزله اخوه الوليد

ومن غريب ما سمع فيما حكاه ابن خلكان ان علي بن عبد الله بن عباس ومحمدا ابنه دخلا
 على عبد الملك بن مروان وعنده قائف فأجلسهما ثم قال للقائف اتعرف هذا قال لا ولكن

أعرف من أمره أن هذا الذي معه ابنه وأنه يخرج من عقبه فراغسة يملكون الارض
لايناويهم مناو الاقتلوه فتغير لون عبد الملك ثم قال زعم راهب إيليا وكان قد رآه عندي أنه
يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكا ووصفهم بصفاتهم * وذكر أبو حنيفة في الاخبار الطوال أن
عبد الملك أوصى ابنه الوليد لما ثقل في مرضه فقال يا وليد لألفينك اذا وضعتني في حفرتي
تعصر عينيك كالامة الولهاء بل اترزوشمر والبس جلد النمر وادع الناس الى البيعة فن قال
برأسه كذا أي لا فقل بالسيف كذا أي اضرب عنقه اه

وكان عبد الملك طويل العنق رقيق الوجه مشدود الاسنان بالذهب شديد البخل يلقب
برشح الحجر لخله ويلقب أيضا بأبي ذباب لبحره وكان يلقب بحمامة المسجد لقبه به ابن عمر
قيل لابن عمر أرايت لوتفاني أصحاب صاحب الشريعة فن سأل بعدهم فقال سلوا هذا الفتى
يعني عبد الملك * ووج بالناس عبد الملك فخطب الناس بالمدينة فقال بعد حمد الله والثناء عليه
أما بعد فاني لست بالخليفة المستضعف يعني عثمان ولا بالخليفة المداهن يعني معاوية
ولا بالخليفة المأفون يعني يزيد ألا واني لأداوي هذه الامة الابالسيف حتى تستقيم لي قناتكم
وانتم تحفظون أعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل أعمالهم وانتم تأمرونا بتقوى
الله وتسون ذلك من أنفسكم والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت
عنقه ثم نزل فأكبر الناس أمره * ومات عبد الملك في شوال سنة ست وثمانين وقيل
سنة خمس وثمانين هجرية أي سنة أربع وسبعمائة ميلادية وله ثلاث وستون سنة وقيل
ستون سنة وخلف سبعة عشر ولدا ولي الخلافة منهم أربعة وكانت خلافته احدى وعشرين
سنة وخمسة عشر يوما منها ثمان سنين مزاجا لابن الزبير ثم انفرد بالملك الى أن مات
وكان عاقلا حازما أديبا لييبا عالما قال عمران بن موسى المؤدب كان يروي أن عبد
الملك المذكور لما اشتد مرضه قال ارفعوني على شرف ففعلوا ذلك فتمسم الروح ثم قال
يا دنيا ما أطيبك ان طويلك لقصير وان كبيرك لحقير وان كامنك لني غرور وتمثل بهذين
البيتين

ان تناقش يكن نقاشك يارب عذابا لا طوقى بالعذاب
أو تجاوزت رب صفوح * عن مسيء ذنوبه كالتراب

ويروي أن هذه الايات تمثل بها معاوية

وفي أيامه مات يوحنا بطررك الاسكندرية فكانت مدته ثمان سنين وفي أيامه صارت
الشدّة على النصارى وكبر عليهم الامر وعظم الخطب وكانت أيام هذه الشدائد طويلة فأقيم
بعده ايساك وهو اسحق وكان متأسلا وهو حادى أربعهم وأصله من اقليم الغربية فأقام
ستين وأحمد عشر شهرا وفي رواية ستين فقط ومات وكان تقيا وهو الذي أعاد الصلح بين
ملك الحبشة وملك النوبة وعمل على اعزاز الدين وجمع المتشردين من المسيحيين فأقيم بعده
سيمون وهو سمعان وكان متأسلا من اقليم الشرقية ويلقب بالسرياني وهو ثلثي أربعهم

فأقام بطركا سبع سنين وقيل سبع سنين وستة أشهر ومات وفي أيامه قدم رسول أهل الهند في طلب أسقف يقيمهم لهم فامتنع من ذلك حتى أذن له الخليفة ففعل وكان ورعا تقيا جدا صالحا متعبدا ذكر انه دعا الله سبحانه وتضرع اليه فأحيا على يديه قسيسا كان ميتا وخلا الكرسي بعده ثلاث سنين بغير بطرك ثم قدم المتأصلون بعده الاكسندروس من أهالي نيامواسير وهو ثالث أربعهم وكان راهبا في دير الزجاج مرت به متاعب وشدائد عظيمة للغاية وقد صودر فيها مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نفرة فكانت أول جزية أخذت من الرهبان خلافا للعهد * قال أصحاب التاريخ واشتد عبدالله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قره بن شريك أيضا في ولايته على مصر فقتلوا وأحرقوا وخربوا وأراقوا الدماء بجورا وأنزلا بالنصارى شدائد لم يتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا واحنا ورزايا ومحنا

ولما مات عبد الملك بن مروان تولى الخلافة بعده ولده الوليد

(الفصل السادس)

(في خلافة الوليد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد عبد الملك ابنه الوليد بعهد منه بويع له بالخلافة يوم مات والده في شوال سنة ست وثمانين للهجرة أي سنة خمس وسبع مائة لليلاد ولم يدخل دار الخلافة حتى صعد المنبر فقال الحمد لله انا لله وانا اليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بأمر المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة قوموا فبايعوا فكان أول من عزى نفسه وهناها وقيل انه لما صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال * أيها الناس لا مقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم وهذا كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحوله عرشه وهو الموت وقد صار الى منازل الابرار ولي هذه الامة بالذي يحق لله عليه في الشدة على المرئيب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزا ولا مفرطا * أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه * ثم نزل وجعل يتصرف في الامور وفتح الفتوحات العظام مثل الهند والاندلس واتسع ملكه في الاندلس واقر يقيمته اتساعا عظيما بما منحها لاهلها من الحرية والمساواة حتى ضعفت النصرانية فيها وانحسرت أوكدت تنحس منها وانمحت آثارها من افر بريمة كلها وصار نصارى اسبانيا يحنون ويمتنعون من شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الاسلامية حتى كان يقال لهم ميزارابي ومعناها انصاف عرب وحارب الروم وغزاهم عدة غزوات وامتدحهم في مسافة مائة يوم من المشرق الى المغرب من التنابرية الهندية الى الاقيناوس وقد وصلت فتوحات

العرب يومئذ الى العجم والشام وافريقية وسردينيا واسبانيا ونحوها وامتدوا الى فواحي
الصين وكان أهل سروقة وقرطبة وغيرهما يتكلمون بالعربية وهي فاشية بينهم
ورسم الوليد بالاقلاع عن استعمال اليونانية وأرقامها في الحساب فامتدت لذلك الارقام
الهندية التي تلقها العرب عن الهنود وراجت بذلك الامور الحسابية واتسع نطاق الرياضة
ونحوها وكان الوليد يركب المركوب الحسن الجيد ويتقى الركوب والسفر في الحرب في أيام
معلومة في كل شهر وينهى عن ذلك قال الحافظ ابن عساكر وكان الوليد عند أهل الشام من
أفضل خلفائهم بنى مساجد بدمشق وأعطى الناس وفرض للجنودين وقال لانسأوا الناس
وأعطى كل مة معد نادما وكل أعمى قائدا وكان يرحله الكتاب ويقضى عنهم دينهم
وبنى الجامع الاموي وهدم كنيسة ماري يوحنا وزادها في الجامع المذكور وذلك سنة ست
وثمانين في ذى القعدة وذكر أنه كان في الجامع وهو بيني اثنا عشر ألف مرخم وبنى الوليد
ولم يمه فآتمه سليمان أخوه فكان جلة ما أنفق على بنائه أربعمئة صندوق في كل صندوق
ثمانية وعشرون ألف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهبا للتناديل وما زالت الى أيام عمر
ابن عبد العزيز فجعلها في بيت المال واتخذ عوضها صفرا وحديدا وبنى قبة الصخرة بيت
القدس وبنى المسجد النبوي ووسعه حتى دخلت حجرة صاحب الشريعة فيه قيل وله آثار حسنة
كثيرة جدا * قلت وقوله ان الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر وانما بنى قبة الصخرة عبد الملك
ابن مروان في أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفا من أن يأخذ
منهم ابن الزبير البيعة فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة الى أن قتل ابن الزبير
وكان الوليد أراد أن يخاع أخاه سليمان ويبيع لولده عبد العزيز فأبى سليمان فكتب الى
عماله ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا الجحاج وقتية وخوفا من الناس فكتب الوليد الى
سليمان يأمره بالقدوم عليه فأبى فغزم الوليد على المسير اليه ليخلعه وأخرج خيمه ففاجأته
المنية قبل أن يسير اليه وكان موته في خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين
للحجرة أى سنة أربع عشرة وسبعمئة للميلاد عن ست وأربعين سنة وقيل ثمان وأربعين وقيل
خمسین سنة وترك أربعة عشر ولدا وحل على أعناق الرجال ودفن في مقابر باب الصغير وبنى
دفنه عمر بن عبد العزيز فكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر وقيل عشر سنين وروى
أن عمر بن عبد العزيز قال لما لحدت الوليد ارتكض في أكفانه وغلت يده الى عنقه
نسأل الله العافية

واستعمل على مصر في خلافته بعد عزله لآخيه عبد الله كما تقدم قره بن شريك العبسي
فقدمها يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الاول فقال في ذلك أحد الشعراء

عجب ما عجبت حين أتانا * أن قد أمرت قره بن شريك

وعزت الفتى المبارك عنا * ثم ضللت فيه رأى أبيك

وكان قره ظلوما غشوما عسوقا قيل كان يدعو بالبحر والملاهي في جامع مصر * أخرج أبو

نعيم في الحلية قال قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقره بمصر وعثمان
ابن حيان بالحجاز امتلأت والله الارض جورا وقال ابن عبد الحكم أنبأنا سعد بن عفير
ان عمال الوليد بن عبد الملك كتبوا اليه ان بيوت الاموال قد ضاقت من مال الخس فكذب
اليهم أن ابنا المساجد فأول مسجد بنى بفسطاط مصر المسجد الذي في أصل حصن الروم
عند باب الريحان قبالة الموضع الذي يعرف بالقالوس يعرف بمسجد العيلة * وأقام قره واليا
بمصر الى أن مات سنة ست وتسعين فولى بعده عبد الملك بن رفاعة القيني فأقام الى سنة
تسع وتسعين في خلافة سليمان بن عبد الملك ومات ولما مات الوليد خلفه أخوه سليمان
ابن عبد الملك

(الفصل السابع)

(في خلافة سليمان بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد الوليد أخوه سليمان وذلك لان أباهما عقد لهما جميعا بالامر من بعده
فبويغ له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد في خامس عشرى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين
هجريه أى سنة أربع عشرة وسبعمائة ميلادية وكان سليمان بالزلة فلما جاءته الخلافة عزم
على الإقامة بها ثم توجه الى دمشق وكل عمارة الجامع الاموى وجهز أخاه مسلمة بن عبد الملك
في سنة سبع وتسعين الى غزو الروم فانهى الى القسطنطينية فنازلها على عهد انسطاسيوس
قيصر وكان عدد أصحاب مسلمة مائة وعشرين ألفا من العرب والعجم وحارب في طريقه طيان
وعمرية وفرغانة من أسية الصغرى ودخل بوزار كليبولى وتجاوز البحر من المكان المدعو عمر
العرب ودخل أوروبا وقطع على سواحل بحر مرمره الى أن قابل القسطنطينية من الجنوب
وأقام مضارب جنوده وأعلن الحرب على الروم وأتى على المدينة الحصار وكان انسطاسيوس
قيصر قد علم قيام العرب عليه فاستعد لقتالهم وأمر الروم بالتأهب لحصار ثلاث سنين وأن
يترك الذين لاقدرة لهم القسطنطينية وملاء الساعات والاهراء بالذخائر وأصلح الاسوار وحصنها
وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهم والابحار ونحوها ثم لم يلبثوا أن
بعثوا بقوم ليحرقوا عمارة العرب ويناوشوا العدو قبل أن يناوشهم هو فلم يفلحوا اذ افتتوا
وقتلوا رئيسهم وتركوا راياتهم في رودس وتفرقوا في تلك الاطراف أشمتا الى أن قام الملك
ثودوسيوس ولم يكن أهلا لهذا المنصب اذ كان من آحاد الخراسان على بيت المال وكان ساذجا
غير مدرب فعفا عن أولئك القوم ولم يؤاخذهم بما فعلوه فلم يستقر به المنصب الا شهرا وخلع
وقام بعسده ليون اسوريكوس وكان مهيبا مقداما عريقا بالملك فلما قدمت عساكر مسلمة
ونظرهم الروم بالقسطنطينية داخلهم الخوف واستولى عليهم الخين فعرضوا على المسلمين الصلح
بأن يؤدوا لهم الجزية في كل سنة عن كل نفس ديناراً فلم يقبل مسلمة وداخله الطمع وتقوى

حيث قدمت عليه عمارته البحرية من الشام وكانت قد مرت بعمارة المصريين التي كانت يومئذ على ثغور بلاد الفرنسيس وأنت بها فكانت جميعها نحو ألف وثمانمائة سفينة أكبرها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم

أما الروم فانهم لما شاهدوا تلك السفن الكثيرة أمروا فرفعت السلسلة الحامية ليلنا لكي تدخل السفن المذكورة وتستأن من داخل البوغاز وأمر مسلمة قومه بالتأهب لمصادمة الروم في تلك الليلة برا وبحرا فتقدمت السفن الى جانب السلسلة ووقفت مترددة بين أن تدخل المينا وبين أن تقضى ليلتها في مكانها خوفا من الحيلة فيمنعهم على هذا الحال اذ اشتعلت النار الاغريقية من كل جانب وتساقطت عليها تساقط المطر فأحرقتها كلها ولم تبق منها واحدة وهلك من فيها من الجند ثم أتى بعبد ذلك النبأ موت سليمان بن عبد الملك وذلك في سنة تسع عشرة وسبعائة لليلاد أي سنة تسع وتسعين للهجرة فأنفشل من بقي منهم وفترت همهم وانجسوا عن موافقهم وكادوا يتمرقون أشتاتا * وكان سليمان عادلا حكيما طويلا جيلا به عرج مولعا بالنساء شديد الغيرة وفي عهده خصى أبو بكر محمد بن عمرو الانصاري الخنسين بالمدينة قيل وكان العامل على المدينة أبا بكر عمر بن حزم فكاتب اليه سليمان يقول أحص من عندك من الخنسين واتفق أن نقطة من السطر الاول وقعت على الحاء فصارت حاء فخصاهم * وما يحكي من محاسنه أن رجلا دخل عليه فقال يا أمير المؤمنين أنشدك الله والاذان فقال له سليمان أما أنشدك الله فقد عرفناها - فما الاذان قال قوله تعالى فأذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين فقال له سليمان ما ظلامتك فقال ضيعتي الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الارض وقال والله لارفعت خدي من الارض حتى يكتب له برد بيعة فكتب الكتاب وهو واضع خده وقيل انه أطلق من سجن الحجاج ثلثمائة ألف مابين رجل وامرأة وصادر آل الحجاج وأعمل فيهم القتل والتشريد واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا ومشيرا وأراد أن يستكتب يزيد بن أبي مسلم وزير الحجاج فقال له عمر بن عبد العزيز سألتك الله يا أمير المؤمنين لانتحي ذكر الحجاج باستكتابك يزيد فقال يا عمر اني لم أجد عنده خيانة في درهم ولا دينار فقال يا أمير المؤمنين ان ابليس أعف منه في الدرهم والدينار وقد أغوى الخلق كلهم جميعا فأضرب سليمان عما عزم عليه وفي كامل المبرد وغيره أن يزيد هذا دخل على سليمان بن عبد الملك وكان يزيد دميما فيجا فقال له سليمان فيج الله رجلا أجرتك رسنه وأشركك في أمانته فقال يا أمير المؤمنين لانقل هذا قال ولم قال لانك رأيتني والامر عني مدبر ولورأيتني والامر على مقبل لاستحسننت ما استعجبت مني ولاستهظمت ما استصغرت مني فقال له سليمان ويحك أو قد استقر الحجاج في قعر جهنم بعد أم لا فقال يا أمير المؤمنين لانقل ذلك في الحجاج قال ولم قال لان الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وأنه يأتي يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك فخيما كانا كان

وكان سليمان فصيحاً بليغاً أديباً محسننا لعلم العربية مترفعاً عن سفك الدماء قال ابن
خلكان في ترجمته انه كان يأكل في كل يوم نحو مائة رطل شامى ولما ولي رد الصلاة الى
ميقاتها الاول وكان من قبله من خلفاء بني أمية يؤخرونها الى آخر وقتها ولذلك قال محمد بن
سيرين ان سليمان افتتح خلافته بخير افتتاحها بأقامة الصلاة لميقاتها واحتمها باستخلافه لعمر
ابن عبد العزيز وذكر المفضل وغيره أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام في يوم الجمعة
فلبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وبسط ماحوله بالخضرة
ثم نظر في المرأة وكان جميلاً فأعجبه جماله فشم عن ذراعيه وقال * كان فينا نبينا محمد صلى الله
عليه وسلم نبيا ورسولا وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه صديقا وكان عمر رضى الله تعالى
عنه فاروقا وكان عثمان رضى الله تعالى عنه حبيبا وكان علي رضى الله تعالى عنه شجاعا
وكان معاوية رضى الله تعالى عنه حليما وكان يزيد صبورا وكان عبد الملك سائسا وكان
الوليد جبارا وأنا الملك الشاب ثم خرج لصلاة الجمعة فوجد حظية له في صحن الدار
فانشدته هذه الايات

أنت نعم المتاع لو كنت نبي * غير أن لابقاء للانسان

ليس فيما بدلنا منك عيب * عابه الناس غير أنك فاني

فلما فرغ من الصلاة ودخل داره قال لتلك الحظية ما قلت لي في صحن الدار وأنا
خارج قالت ما قلت لك شيئا ولا رأيتك وأنى لي بالخروج الى صحن الدار فقال إنا لله وإنا
اليه راجعون نعت الى نفسى فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات وقيل انه سعد المنبر
وخطب وان صوته ليسمع في أقصى المسجد فأخذته الحى فما زال صوته يمتحنى حتى لم يسمعه
من تحته وقال ابن خلكان انه حم ومات من ليلته وقيل انه مات بذات الجنب وقيل انه
قبل موته أكل زنبيلين من التين والبيض أطفه بهما بعض المسيحين فأمر بأن يقشر
البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بمج وسكر فأكل فاحتم
ومرض ومات * مات في عاشر صفر سنة ثمان وتسعين هجرية وقيل سنة تسع وتسعين
برج دابق من أرض قنسرين وله تسع وثلاثون سنة وقيل خمس وأربعون سنة وكانت
خلافته سنتين وثمانية أشهر واستعمل في أيامه على مصر عبد الملك بن رفاعة القيني الى سنة
تسع وتسعين التي مات فيها سليمان

(الفصل الثامن)

(في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز)

ثم قام بالامر بعد سليمان الخليفة الراشد أبو حفص عمر بن عبد العزيز بويبع له بالخلافة يوم

مات سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين هجرية أى سنة سبع عشرة وسبعائة ميلادية
وكانت خلافته بعهد من سليمان له وذلك أنه لما كان سليمان بدابق ومرض مرضه الذى
مات فيه عهد في كتاب كتبه لاحد أولاده وهو غلام لم يبلغ أشده فعلم رجاء بن حيوة بالخبر
فدخل عليه وقال له ما نضع يا أمير المؤمنين ان مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على
الناس الرجل الصالح فقال سليمان يارجاء انى مستخير الله وسأنظر ولم أعزم ولبث سليمان يوما
أو يومين ثم مزق الكتاب ودعا رجاء فقال له يارجاء ماترى في ولى داود فقال رجاء هو
غائب عند القسطنطينية ولا ندرى أى أم لا قال فن ترى قال رجاء رأيك يا أمير المؤمنين
قال فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز قال رجاء فقلت أعلمه والله خيرا فاضلا سلما
فقال سليمان هو على ذلك واثن وليته ولم أول أحدا سواء لتكون قننة ولا يتركونه أبدا
بلى عليهم الا أن يجعل أحدهم بعده قال وكان عبد الملك قد عهد الى الوليد وسليمان أن
يجعلا أحاهما يزيد ولى عهد فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر وكان يزيد
غائبا في الموسم قال رجاء فقلت رأيك فكتب سليمان * بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب
من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز انى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك
يزيد بن عبد الملك فامعواله وأطيعوا واتفقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم * قال وختم الكتاب
ثم أرسل الى كعب بن جابر العبسى صاحب شرطته فقال ادع أهل بيتي فجمعهم كعب فلما
اجتمعوا قال سليمان لرجاء اذهب اليهم بكتابي وأخبرهم بما فيه ومرهم فلبيايعوا من وليت
فيه ففعل رجاء فلما علموا ما في الكتاب قالوا ندخل فنسلم على أمير المؤمنين ثم دخلوا فقال
لهم سليمان في هذا الكتاب الذى في يد رجاء بن حيوة عهدى فامعوا وأطيعوا لمن سميت
فيه فبايعوا عمر رجلا رجلا ثم تفرقوا ونقل المرض بسليمان فمات قال رجاء بن حيوة فمخضته
وبجيته وأغلقت الباب وأجلست على الباب من أتق به ثم خرجت فأرسلت الى كعب بن
جابر فجمع أهل بيت سليمان في مسجد دابق فقلت بايعوا فقالوا قد بايعنا مرة قلت وأخرى
هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا الثانية قال فلما بايعوا بعد موته رأيت أن قد أحكمت الامر
فقلت قوموا الى صاحبكم فقد مات

ذكر غير واحد عن محمد الروزى قال أخبرت أن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه
لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للارض هدة أو رجة فقال ما هذه فقيل
هذه مراكب الخلافة قربت اليك يا أمير المؤمنين لتركها فقال ما لى ولها نحوها عنى وقربوا
الى دابق فقربت اليه فركبها فجاه صاحب الشرطة ليسيرون يديه بالحربة على عادة الخلفاء
قبسه فقال له تنع عنى ما لى ولا أنا رجل من المسلمين ثم سار مختلطا بين الناس حتى
دخل المسجد فصعد المنبر فاجتمع اليه الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال * أيها
الناس انى ابتليت بهذا الأمر بغير رأى منى فيسه ولا طلبه ولا مشورة من المسلمين وانى قد
خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاخترأوا لانفسكم غيرى فصاح المسلمون صيحة عظيمة قد

اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك أميرنا باليمن والبركة فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وصلى
 على نبيه ثم قال * أوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله تعالى خلف من كل شيء وليس من
 تقوى الله خلف واعملوا لآخرتكم فان من عمل لآخرته كفاه أمر دنياه وآخرته وأصلحوا
 سرائركم يصلح الله علانيتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم
 فانه هادم اللذات وانى والله لأعطي أحدا باطلا ولا أمنع أحدا حقا * يا أيها الناس من أطاع
 الله وحببت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له أطيعوني ما أطعت الله فان عصيته فلا
 طاعة لى عليكم * ثم نزل ودخل دار الخلافة فأمر بالستور فتهتك وبالسط فرفعت وأمر
 ببيع ذلك وادخال ثمنه فى بيت مال المسلمين ثم ذهب يتقبوا مقيلا فأتاه ابنه عبد الملك فقال
 ما تريد أن تصنع يا أبت قال يا بنى أقبل قال تقبل ولا ترد المظالم قال أى بنى انى قد سهرت
 البارحة فى أمر عمك سليمان فاذا صليت الظهر رددت المظالم فقال يا أمير المؤمنين من أين
 لك أن تعيش الى الظهر فقال ادن منى يا بنى فدنا منه فقبله بين عينيه وقال الحمد لله الذى
 أخرج من ظهري من يعينى على دينى فخرج ولم يقل وأمر مناديه أن ينادى الأكل من
 كانت له ظلامة فليرفعها قبل فتقدم اليه ذمى من أهل حمص فقال يا أمير المؤمنين أسألك
 كتاب الله قال وما ذلك قال ان العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى والعباس جالس فقال عمر
 ماتقول يا عباس فقال ان أمير المؤمنين الوليد أظعننى اياها وهذا كتابه فقال عمر ماتقول
 يا ذمى قال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب
 الوليد أردد اليه أرضه يا عباس فردها اليه ثم جعل لا يدع شيئا مما كان فى يد أهل بيته من
 المظالم الا رده مظلمة مظلمة فلما بلغ الخوارج سيرته وما رد من المظالم اجتمعوا وقالوا ما ينبغي
 لنا أن نقاتل هذا الرجل وبلغ عمر بن الوليد خبر رد الضيعة التى كانت للذمى كتب الى
 عمر بن عبد العزيز * انك قد زريت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت
 بغير سيرتهم بغضاهم وشينا لمن بعدهم من اولادهم وقطعت ما أمر الله به أن يوصل
 اذ عمدت الى أموال قريش ومواريتهم فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا ولن تترك على هذا
 الحال والسلام * فلما قرأ كتابه كتب اليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من عبد الله عمر بن
 عبد العزيز الى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين * أما بعد فقد بلغنى
 كتابك أما أول شأنك يا ابن الوليد فأملك بنانة أم السكون كانت تطوف فى سوق حمص وتدخل
 فى حوانيتها ثم الله أعلم بها ثم اشتراها زيان من بيت مال المسلمين فأهداها لبيك فحملت بك
 قبئس المولود ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا تزعم أنى من الظالمين اذ حرمتك وأهل بيتك مال
 الله الذى فيه حق القرابة والمسكين والأرامل وان أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك
 صيبا سفيا على جنود المسلمين تحكمم فيهم برأيتك ولم يكن له فى ذلك نية الاحب الوالد
 لولده فويل لايبك ما أكثر خصماءه يوم القيامة وكيف ينبو أبوك من خصمائه وان أظلم
 منى وأترك لعهد الله من جعل لغالمة البربرية فى خمس العرب نصيبا فرويدا يا ابن بنانة فلو

التقت حلقتا البطان وردّ النبي لاهله لتفرغت لك ولاهل يبتك فوضعهم على المحجة البيضاء
فظالما تركتم الحق وأخذتم في الباطل ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رأيته من بيع
رقيبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والارامل فان لكل فيك حقا والسلام على من
اتبع الهدى ولا ينال سلام الله القوم الظالمين

قيل انه وقع في زمانه غلاء عظيم فقدم عليه وفد من العرب فاختراروا رجلا منهم لخطابه
فقدم اليه وقال يا امير المؤمنين انا وفدنا اليك من ضرورة عظيمة وراحتنا في بيت المال وماله
لا يتخلوا ما أن يكون لله أولعباده أولئك فان كان لله فانه غنى عنه وان كان لعباده فآتهم
اياهم وان كان لك فتصدق به علينا ان الله يجزي المتصدقين * قيل فتغرغرت عينا عمر بالدموع
وقال هو كما ذكرت وأمر بجوائجهم فقصيت فهم الاعرابي بالانصراف فقال عمر كما أوصلت
أيها الرجل حوائج عباد الله الى فأوصل حاجتي وفاقتي الى الله فقال الاعرابي الهى اصنع
بعمري عبد العزيز كصنيعه في عبادك قيل فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم وأمطرت
السماء مطرا كثيرا فجاء في المطر بردة كبيرة فوقعت على جرة فانكسرت فخرج منها كأغد
مكتوب فيه * هذه براءة من الله العزيز الغفار لعمر بن عبد العزيز من النار * قلت ولعل
هذا من مبالغات الكتاب تذكرة وعبرة

ولما استقامت لعمر الامور ودانت له الخلافة لم يوجه غنائه الى تميم الغزوات التي بدأ
بها سليمان وترك مسلمة بن معه من المسلمين في حصار قسطنطينية طول الشتاء كراهة في مسلمة
وكان ذلك الشتاء فارسا جدا شديدا دامت فيه الثلوج مغطية للارض مائة يوم فمات خلق
كثير من المسلمين ولبثوا على هذا الحال يقاسون العناء حتى دخل الربيع وورد على من بقي
منهم الخبر بقدم عمارتين فيهما من الرجال والنخاض شديدا كثير لجدتهم احدهما أربع مائة
سفينة مشحونة قحما من الاسكندرية وثانيتهما ثلثمائة وستون سفينة من افرقيصة ولكنه
لم يتم فرحهم بقدوم تلك العمارتين حتى شاع الخبر ثانية بأنه حل بهما ما حل بالعمارة الاولى
فلم يحصلوا منهما الا على ما قل ففشا الجوع والمرض في جنود المسلمين وعادوا بأكلون
ما يجدونه من الميتة وغيرها واستنصر ليون قيصر الروم على من بقي منهم بالبغايرين واستأجرهم
لذلك فجاء منهم عدد كثير واقتتلوا مع المسلمين قتالا عنيفا فقتلوا منهم زهاء عشرين ألفا
وطيروا الاخبار بتجهيز الفرنجة برا وبحرا للنجدة فتشددت بذلك عزائم الروم وخافت العرب
جدا ولبثوا يتوقعون الشر من كل جانب فوردت الى مسلمة الاخبار بأن يرجع عن معه
من المسلمين فقام على الفور وسار بمن بقي معه وهم قليلون فتر بمضيق كليبولي من حيث
أتى فلم يعارضه معارض فلما وصل بتينة قام عليه أهلها وقتلوا بمن كان معه خائفا كثيرا ولم
يصل من جميع تلك العمارتين الا خمسة فقط جاءت بالاخبار الى الاسكندرية فكانت
مدة حصار مسلمة لقسطنطينية في هذه الغزوة ثلاثة عشر شهرا * قال أهل التاريخ وكان
اخفاق مسلمة في غزونه هذه سببا في منع العرب من تحطى أوروبا من جهة المشرق ولكنهم

لم يلبثوا أن عادوا فشنوا الغارة على بلاد الفرنسيس من جهة المغرب بمعاونة عرب الاندلس وجعلوا يتهدونها في كل آونة ولا ينكفون عن مناوشتها كلما تمكنوا من ذلك * وكان عمر يكره الحرب جدا ولا يهتم بالفتوحات فلم يضم الى دولته في خلافته الاجرجان وطبرستان وكتب في سنة مائة هجرية الى ملوك الهند يدعوهم الى الاسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وقد كانت سيرته وأجناده وصلت اليهم فأسلم حيشبة بن زاهر وتسمى بعض ملوكهم من هذا الحين بأسماء العرب وكان عمر قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم فغزا بعض الهند قطفر وبقى ملوك الهند مسلمين على بلادهم أيام عمر بن عبدالعزيز وي زيد بن عبد الملك فلما كان أيام هشام ارتدوا عن الاسلام وكان سببه ماسيدكر في محله ان شاء الله

وتحالف بنو أمية لاسباب عدة على بغض عمر بن عبدالعزيز فرشوا عبدا أسود فسقاه السم وروى أنه دعا بخادمه الذي سقاه السم فقال له ويحك ما جئتك على أن سقيتني السم قال ألف دينار أعطيتها قال هاتها فجاء بها فأمر بطرحها في بيت المال وقال لخادمه اخرج بحيث لا يراك أحد ولما ثقل به مرضه قالوا له لو تدأويت قال لو كان دوائي في مسح أذني ما مسحتها نعم المذهوب اليه ربي * قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه أعوده في مرضه الذي مات فيه فاذا عليه قيص وسخ فقلت لفاطمة بنت عبد الملك يا فاطمة اغسلي قيص أمير المؤمنين فقالت تفعل ان شاء الله تعالى ثم عدت فاذا القيص على حاله فقلت يا فاطمة ألم أمرك أن تغسلي قيص أمير المؤمنين فان الناس يعودونه فقالت والله ماله قيص غيره قال وكان عمر رضي الله عنه كثيرا يتمثل بهذه الابيات

نهارك يا مغرور سهو وغفلة * وليك نوم والردى لك لازم

يغرك ما يفتني وتفرح بالمسنى * كما غر بالذات في النوم حالم

وشغلك فيما اليوم تـكـره غبه * كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وكان مرضه بدير سمعان بأرض حمص وكانت شكواه عشرين يوما فلما احتضر قال أجلسوني فأجلسوه فقال * الهى أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ولكن لا اله الا الله ووفى نجس وقيل لست مضين وقيل لعشرة بقين من رجب الفرد سنة احدى ومائة للهجرة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر وقيل وهو ابن أربعين سنة وقبره بدير سمعان ظاهر يزار فكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وكان يقال له أشج بن أمية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فمهر جدته من قبل أمه وهو تابعي روى الحديث عن أنس بن مالك والسائب بن زيد وروى عنه جماعة ومولده بصر سنة احدى وستين * قال الامام أحمد ليس أحد من التابعين قوله الا عمر بن عبد العزيز اه وكان عمر عقيفا زاهدا ناسكا عبدا مؤمنا تقيا صادقا وهو أول من اتخذ دار الضيافة وأول من فرض لابناء السبيل وأزال ما كانت بنو أمية تذكره عليا على المنابر من اللعن وجعل مكان ذلك ان الله يأمر بالعدل

والاحسان وآيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون
فقال فيه كثير عزة لذلك

وليت ولم تسبب عليا ولم تحف * بر يا ولم تقبل مقالة مجرم
وصادقت بالقول الفعال مع الذى * آتيت فأسمى راضيا كل مسلم
فما بين شرق الارض والغرب كلها * مناد ينادى من فصيح وأجمي
يقول أمير المؤمنين ظلمتني * بأخذك دينارى وأخذك درهمي
فأريح بها من صفقة لمبائع * وأكرم بها من بيعة ثم أكرم
قال ميمون بن مهران قال عربن عبد العزيز لما وضعت الوليد في حفرته تطرت فاذا
وجهه قد اسود فاذا مت ودفنت فاكشف عن وجهي قال ميمون ففعلت فرأيت به أحسن
مما كان أيام تنعمه ورتناه الشعراء فأكثروا في رثائه وبالغوا جدا
واستعمل على مصر في خلافته أيوب بن شرحبيل الاصبغى فأقام بها عاملا الى سنة
احدى ومائة وعزل في خلافة يزيد بن عبد الملك * وبعد موت عربن عبد العزيز خلفه في الملك
يزيد بن عبد الملك بن مروان

(الفصل التاسع)

(في خلافة يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد عربن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك بن مروان ببيع له بالخلافة يوم
مات ابن عمه عمر سنة احدى ومائة للهجرة أى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد بعهد له من
أخيه سليمان في ذلك فلما ولى قال خذوا بسيرة عربن عبد العزيز فساروا بسيرته أربعين
يوما فدخل عليه أربعون رجلا من مشايخ دمشق وحلفوا له أنه ليس على الخلفاء حساب
ولا عقاب في الآخرة وخذعوه بذلك فانخدع لهم وكان طائفة من جهال الشاميين يعتقدون
ذلك * قال بعض أهل التاريخ ان يزيد هذا هو المعروف بالفاسق وهو غلط وانما الفاسق واده
الوليد كما اشتهر اه وقيل انه لما احتضر عربن عبد العزيز قال له اكتب الى يزيد فأوصه
بالامة قال بماذا أوصيه انه من بنى عبد الملك ثم كتب اليه * أما بعد فاتى يزيد الصرعة بعد
الغفلة حين لانقال العثرة ولا تقدر على الرجعة انك تترك ما تترك لمن لا يحمدك وتصير الى
من لا يدركك والسلام * ولما استقرت يزيد الخلافة عمد الى كل ما عمده عربن عبد العزيز
مما لم يوافق هواه فردّه ورد المكوس التي أزالها عربن عبد العزيز عن أهل اليمن وغير ذلك
وجهاز جيشا عظيما لقتال يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وسيره مع أخيه مسلمة والعباس ابن
أخيه وكان ابن المهلب قد كثرت لمومه واجتمع اليه من أهل الكوفة والبصرة والثغور وغيرها

فالتقى مسلمة بأهل الشام وابن المهلب في لوميه وعسكره الجرار فاقتتلوا قليلا وكان يزيد بن عبد الملك قد أمر باحراق جسركان على الفرات ليأخذوا الطريق على ابن المهلب وأصحابه فلما علا دخان الحريق سأل أصحاب ابن المهلب عنه فقيل لهم حرق الجسر فانهزموا فقيل لابن المهلب انهزم الناس فقال لم انهزموا هل كان قتال ينهزم من مثله فقيل له قالوا أحرق الجسر فلم يلبث أحد فقال فجهم الله بقى دخن عليه فطار ثم خرج ومعه أصحابه وقال اضربوا وجوه المنهزمين ففعلوا ذلك بهم وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بموت أخيه حبيب فاغتم غما شديدا واستنقل وتقايس عن الحرب فتسلل عنه من يكره القتال وبقي معه جماعة من جنسه فانقض عليه أهل الشام وعلى أصحابه فقتلوه وقتلوا أخاه محمد بن المهلب وآخرين معه واختلقوا فيمن قتله واحتزوا رأس يزيد بن المهلب وأتوا بها الى مسلمة فسيرها الى يزيد ابن عبد الملك وأسرا أهل الشام من أصحاب يزيد بن المهلب خلقا فسيرهم مسلمة الى الكوفة فجاء كتاب يزيد بن عبد الملك الى محمد بن عمرو بن الوليد يأمره بضرب رقابهم فأمر صاحب شرطته أن يخرجهم عشرين عشرين وثلاثين ثلاثين فقام نحو ثلاثين رجلا من تميم فقالوا نحن انهزمنا بالناس فابدؤا بنا قبل الناس فضرب رقابهم ثم جاء محمد بن عمرو كتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الاسرى وأقبيل مسلمة حتى نزل الحيرة واجتمع أهل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا للركوب في البحر وحلوا أموالهم وعيالاتهم حتى وصلوا الى حبال وساروا في البر فسير مسلمة في أثرهم مدرك بن ضب الكلبى فأدركهم في عقبه فعضقوا عليه وقتلوه واشتد قتالهم فقتل أكثر أصحاب ابن المهلب وقتل أولاد المهلب عن آخرهم وحلت رؤسهم والأسرى الى مسلمة بالحيرة فبعثهم الى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد الى العباس بن الوليد وهو على حلب فنصب الرأس وفرح يزيد بقتل آل المهلب فرحا عظيما وقد كان يتمنى قتلهم وقطع شأفتهم لعداوة سابقة بينه وبين يزيد بن المهلب قبيل تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة * قال صاحب الكامل ان ابن المهلب خرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضحخ بالغالية فاجتاز بيزيد بن عبد الملك وهو الى جانب عمر بن عبد العزيز فقال يزيد فيج الله الدنيا لو ددت أن مثقال غالية بألف دينار فلا ينالها الا كل شريف فسمع ابن المهلب فقال له بل وددت أن الغالية لو كانت في جبهة الاسد فلا ينالها الا مثلي فقال له يزيد بن عبد الملك لئن وليت يوما لاقتلنك فقال له ابن المهلب والله لئن وليت هذا الامر وأنا حتى لا ضرب بن وجهك بخمسين ألف سيف فهذا كان سبب البغض بينهما وقيل غير ذلك اه وكان قد جرى الى يزيد ابن عبد الملك بثلاثة عشر رجلا من الاسرى فلما أدخلوهم عليه وعنده كثير عزة أنشد

حليم اذا ما نال عاقب مجحلا * أشد العقاب أوعقا لم يترب

فعفو أمير المؤمنين وحسبه * فخاتانه من صالح لك يكتب

أساؤا فان تصفح فانك قادر * وأفضل حلم حسبه حلم مغضب

فقال يزيد بن عبد الملك هيات يا أبا سخر طف بك الرحم لاسبيل الى ذلك ان الله عز وجل

أفاد بنهم بأعمالهم الخبيثة ثم أمرهم بقتلوا وبقي غلام صغير فقال اقتلونني فما أنا بصغير
فأمر به يزيد فقتل أيضا * وكان أهل المهلب مشهورين بالكرم والجود والفتوة ولهم أخبار
طويلة لا يحل لذكرها هنا

وبينما كان مسلمة بن عبد الملك أخو يزيد والعباس بن أخيه يقاثلان آل المهلب إذ دخل
على يزيد بن عبد الملك جماعة من المتقرين إليه وقالوا يا أمير المؤمنين ان أهل العراق أهل
غدر وارجاف وقد توجهنا محاربين والحوادث تحدث ولا نأمن من أن يرحف أهل العراق
فيقولون مات أمير المؤمنين فيقت ذلك في أعضادنا فلو عهدت الى عبد العزيز بن الوليد
لكان رأيا صوابا فيبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فأخى أخاه يزيد فقال يا أمير المؤمنين أيما أحب
إليك أخوك أم ابن أخيك فقال بل أخى فقال فأخوك أحق بالخلافة فقال يزيد إذا لم تكن
في ولى فأخى أحق بها من ابن أخى كما ذكرت قال فإنيك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبد الملك
ثم بعده لابنك الوليد وكان الوليد يومئذ ابن احدى عشرة سنة فبايع بولاية العهد لهشام
ابن عبد الملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد وعاش اليزيد حتى بلغ ابنه الوليد أشده فكان
إذا رآه يقول الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك وظلت ولاية العهد لهشام حتى ولى
الخلافة * وفي أيام يزيد بن عبد الملك ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن علي
في ربيع الآخر وهو السفاح وقدم على أبيه محمد بن علي أبو محمد الصادق من خراسان
وجاعة من أصحابه فأخرج اليهم أبا العباس مقمطا بقط ولقائف وله خمسة عشر يوما وقال
لهم هذا صاحبكم الذى يتم الامر على يده فقبلوا أطرافه وقال لهم والله ليتمن الله هذا الامر
حتى تدركوا تارككم من عدوكم

وخرج في أيام يزيد كثير من طوائف الترك وقاتلوا المسلمين وأجلاوا من كان منهم بارمينية
والجزيرة والمتولى عليهما يومئذ ابن هبيرة فجهاز يزيد الجراح لقتالهم وردتهم الى الطاعة فقاتلهم
قتالا شديدا وأخس في قتلهم وسبى ذراريهم وقاتل سائر الخوارج حتى أرجعهم الى الطاعة
وكانت يزيد بالفتح وطلب المدد فوعده ولم يكن المنية عاجلته وكانت وفاة يزيد باربل من
أرض البلقاء وقيل بالجولان وحمل على أعناق الرجال الى دمشق ودفن بين باب الجابية
وباب الصغير لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وله أربعون سنة وقيل خمس وثلاثون
سنة وكانت خلافته أربع سنين وشهرا وأياما * ذكر الحافظ ابن عساكر أن سبب موت يزيد
ابن عبد الملك هذا أنه كان اشترى في أيام أخيه سليمان جارية من عثمان بن سهل بن حنيف
بأربعة آلاف دينار وكان اسمها حبابة وأحبها حباشديدا فبلغ أخاه سليمان ذلك فقال هممت
أن أحجر على يزيد فبلغ ذلك يزيد فباعها خوفا من أخيه سليمان فلما أفضت الخلافة اليه
قالت له زوجته يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من الدنيا شيء قال نعم فقالت وما هو قال
حبابة فاشترتها له وهو لا يعلم وزينتها وأجلستها من وراء سترها ثم قالت يا أمير المؤمنين هل

بقي في نفسك من الدنيا شيء قال أو ما علمتك أنها حياية فرفعت السر وقالت ها أنت وحبابة
وتركته وإياها فخطيت عنده وغلبت على عقله ولم ينتفع به في الخلافة وانه قال يوما ان
بعض الناس يقولون انه لن يصفوا لاحد من الملوك يوم كامل من الدهر واني لا كذبهم في
ذلك ثم أقبل على لذاته واختلى بحبابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل ما يكره
فبينما هو على تلك الحالة في صفو عيشه وزيادة فرجه وسروره اذ تناوت حباية حبة رمان
وهي تضحك فغصت بها فماتت فاحتل عقل يزيد وتكدر عيشه وذهب سروره ووجد عليها
وجدنا شديدا وتركها أياما لا يدفننها وهو يقبلها ويستشفها حتى أتت وفاحت فامر بدفنها ثم
نشقها من قبرها وله معها أخبار طوال أضربنا عن إيرادها وغنته يوما

وبين التراقي واللاهة حرارة * وما طعنت يوما بسوع فتبردا

فأهوى عند سماعه قولها ليظير فقالت يا أمير المؤمنين ان لنا فيك حاجة فقال والله
لأطيرن فقالت على من تخلف الامة والملك قال عليك والله وقبل يدها فخرج بعض خدمه
وهو يقول سخنت عينك ما أخفك

ولما عاد من دفنها سمع جارية له تتمثل بعدها

كفي حزنا بالهائم الصب أن يرى * منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكي بكاء مرا واشتد به الحبيب ولم يعش بعدها الا خمسة عشر يوما وكان مرضه بالسل
وقال فيها

فان تسل عنك النفس أودع الهوى * فبالأس تسـ لو عنك لا بالتجلد

وكل خليل زارني فهو قائل * من آجلك هذا هالك اليوم أوغد

قال صاحب الكامل ولم يعلم بموت يزيد أحد حتى ناحت سلامة حظيته * هي حظية
أخرى غير حباية كان يحبها فقالت

لا تلنا ان خشعنا * أو هم منا بخشوع

قد لعمرى بت ليلي * كأخى الداء الوجيع

ثم بات الهم منى * دون من لي بضجيع

الذي حل بنا اليو * م من الامر القطيع

كلما أبصرت ربعا * خاليا فاضت دموعي

قد خلا من سيد كا * ن لنا غير مضيع

ثم نادى وا أمير المؤمنيناه فعلموا بموته قال والشعر لبعض الانصار اء واستأمر يزيد على
مصر في خلافته بشر بن صفوان الكلبي فأقام الى سنة ثلاث ومائة ثم خلعه وولى أخاه
حنظلة فأقام الى سنة خمس ومائة وهي السنة التي مات فيها يزيد بن عبد الملك ثم عزل ولما مات
يزيد خلفه في الملك هشام بن عبد الملك

(الفصل العاشر)
(في خلافة هشام بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد يزيد أخوه هشام بن عبد الملك بن مروان ببيع له بالخلافة يوم مات أخوه يزيد سنة خمس ومائة هجرية أي سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة ميلادية بعهد منه إليه ولما أتته الخلافة كان بالرصافة فمسجد وسجد أصحابه لما بشر بها وسار الى دمشق * قال مصعب الزبيري زعموا أن عبد الملك بن مروان رأى في منامه أنه بال في الحراب أربع مرات ففس من يسأل سعيد بن المسيب وكان يعبر الرؤيا فقال يلك من صلبه أربعة فكان آخرهم هشاما اه

فلما كانت السنة الاولى من خلافته سير مسلم بن سعيد لغزو الترك فعبّر النهر وعاث في بلادهم وخرب وأتلف وأراق الدماء وقتل فتأثره الترك فعبّر النهر ولم يسألوا منه أربا ثم غزا افشين فلم يروا بدا من مصالحته على ستة آلاف رأس وسلوا اليه القلعة ثم غزا غزوة أخرى في سنة ست ومائة فأبطأ عنه الناس وكان ممن أبطأ البختری بن درهم فأرسل مسلم نصر بن سيار الى بلخ وأمره أن يخرج الناس اليه وكان العامل على بلخ يومئذ عمرو بن مسلم فذهب نصر وأحرق باب البختری وزیاد بن طريف الباهلي ومنعهما عمرو من دخول بلخ فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة فانهم نصر المذکور وأمرهم بأن يلحقوا بمسلم بن سعيد * ولما قطع مسلم النهر ولحقه من لحقه من أصحابه سار الى بخارى فغنا كتاب خالد بن عبد الله القسري بولايته ويأمره باتعام الغزوة فسار الى فرغانة وبلغه أن خاقان كان قادمًا عليه بخيله ورجله فارتحل فلحقه خاقان بعد ثلاث مراحل وأحاط بالمسلمين ونزلهم وقتل المسيب بن بشر الرياحي والبراء من فرسان المهلب وغيرهما من الإبطال وسار مسلم بالناس ثمانية أيام والترك مطيفون بهم وكان مسلم قد أحرق ما نقل من أمتعة المسابن ما قيمته ألف ألف وأصبحوا في اليوم التاسع قريب النهر ودونه أهل فرغانة والشاش فأمر مسلم أصحابه أن يختلطوا سيوفهم ويحملوا على الأعداء فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر فعبّر مسلم وأصحابه واتبعهم ابن خاقان فكان حميد بن عبد الله على السافة من وراء النهر متخفا بالجراح فبعث الى مسلم بالتربص وعطف على جموع الترك وقائلهم قتالا شديدا وأسرفائدهم وقائد الصغد وبينهما هو يدبر أمر أصحابه إذ أصابه سهم فمات ثم أتى مسلم وقومه بخنذة وقد أهلكهم الجوع

ولما كانت سنة اثنين وعشرين ومائة ظهر زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يريد منصب الخلافة وأقبل الى الكوفة ولبث بها مستخفيا ينتقل في المنازل وأقبلت الشيعة تختلف اليه تباعه فباعه أناس من وجوه أهل الكوفة قال أهل التاريخ * وكانت بيعته انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وجهاد الظالمين ونصر أهل البيت

أنبايعون على ذلك فإذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم ويقول * عليك عهد الله وميثاقه
 وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم لتفنين بييعتي ولتقاتلن عدوى ولتصحن لي في السر
 والعلانية فإذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال * اللهم اشهد * فبايعه خمسة عشر ألفا وقيل
 أربعون ألفا فأمرهم بالاستعداد ولما شاع خبر خروجه أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من
 صاحب الشريعة الإسلامية وحقه فأحسن وبالغ ثم قال له أنشدك الله كم بايعوك قال
 أربعون ألفا قال فكتم بايع جسدك قال ثمانون ألفا قال فكتم فقل معه قال ثلثمائة قال
 أنشدتك الله أنت خير أم جدك قال جدي قال فهذا القرن خير أم ذلك القرن قال ذلك
 القرن قال أفتطمع أن يني لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك قال قد بايعوني ووجبت البيعة
 في عنتي وأعتاقهم قال أفتأذن لي أن أخرج من هذا البلد فلا آمن أن يحدث حدث فلا
 أملك نفسي فأذن له فخرج إلى اليمامة وأكثر زيد من دعاء الناس إلى بيعته فبايعه ناس كثير
 منها ورسم لأصحابه فيها بالخرج معه من كان يريد الوفاء له بالبيعة فعلم يوسف بن
 عمر بخبره وهو على الحيرة يومئذ وبعث في طلبه وكان على الكوفة الحكم بن الصلت فخاف
 جماعة ممن خرج مع زيد واجتمع بكارهم وتكلموا مع زيد فيما هو فيه ثم فارقوه وتكلموا
 ببيعه وقالوا سبق الامام * يعنون محمد الباقر * وكان قد مات وقالوا جعفر ابنه امامنا اليوم
 بعد أبيه فسماهم زيد بن علي لذلك الرافضة * قال صاحب الكامل * وهم يزعمون أن المغيرة
 سماهم الرافضة اه وكانت طائفة أنت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة
 زيد فقال بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا فعادوا وكتبوا ذلك وخرج زيد فيمن بقي معه من
 أهل الكوفة واقتتل مع أصحاب يوسف والريان وأهل الشام فقتل عن نهر عن بقي معه
 فلما رأى زيد خذلان الناس أباه قال لتصر بن خزيمه وقد كان يقاتل مع زيد أنا أخف أن
 يكونوا قد فعلوا حسينية * يعني كما فعلوا بالحسين * فقال نصر بن خزيمه أما والله لا قاتلن
 معك حتى أموت وإن الناس في المسجد فأض بنا نحوهم فساروا حتى انتهوا إلى باب المسجد
 بعد قتال جمل أصحابه يدخلون رباتهم من فوق الابواب ويقولون يا أهل المسجد اخرجوا من
 الذل إلى العز اخرجوا إلى الدين والدنيا فانكم لستم في دين ولادنيا فرماهم أهل الشام بجحارة
 من فوق المسجد فانصرفوا ثم عادوا بعد ذلك إلى القتال فاشتد أصحاب يوسف بن عمر على
 أصحاب زيد بن علي واشتد كذلك أصحاب زيد واقتتلوا قتالا عنيفا فقتل نصر بن خزيمه
 ومعاوية بن اسحق الانصاري بين يدي زيد ورمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت
 في دماغه وأحضر أصحابه طبيبا فانتزع النصل فضج زيد ومات لساعته واختلف أصحابه في
 أين يدفونه فقال بعضهم نطرحه في الماء وقال بعضهم بل نحتز رأسه ونلقيه بين القتلى فمات
 ابنه يحيى وقال والله لا يأكل لحم أبي الكلاب فقال بعضهم ندفنه في الحفرة التي يؤخذ منها
 الطين ونجعل عليه الماء ففعلوا فلما دفنوه أبحروا عليه الماء وقيل أنه دفن بنهر يعقوب سكر
 أصحابه الماء ودفنوه ثم أبحروا الماء وكان معهم مولى لزيد بن علي من أهل السند قيل أنه

رأهم فلما تفرق الناس وتبع يوسف بن عمر الجرجي دله السندي المذكور على موضع زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها الى الحيرة وأمر فصلبوا جثته بالكناسة ومعه نصر بن خزيمية ومعاوية بن اسحق وزباد النهدي وسيروا رأس زيد الى هشام بن عبد الملك فأمر بها فصلبت على باب دمشق ثم أرسلها الى المدينة وبقيت الجثة مصلوبة الى أن مات هشام وولى الوليد فأمر بانزالها واحراقها

وكررت في أيام هشام الخوارج والدعاة وكان لهم مع عماله وقائع مشهورة يطول شرحها وكان هشام حازما عاقلا صاحب سياسة حسنة ورأى ودهاء وحزم وفيه حلم فكان لذلك موقفا وكان يوصف بالبخل والحرص ويقال انه جمع من الاموال ما لم يجمعه خليفة قبله * قال عقاب ابن شبة دخلت على هشام وعليه قباء فذك أخضر فوجهني الى خراسان وجعل يوصيني وأنا أنظر الى القباء فظن فقال مالك فقلت رأيت عليك قبل أن تلي الخلافة قباء مثل هذا فجعلت أتأمل أهو هذا أم غيره فقال هو والله ذلك وأما ماترون من جمعي المال وصونه فهو لتكم * قال وكان محشوا عقلا اه وكان حسن الخلق قال يجمع بن يعقوب الانصاري شتم هشام رجلا من الاشراف فوبخه ذلك الرجل وقال أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في أرضه فاستحي منه وقال اقتص مني فقال اذا أنا سفيه مثلك قال نخذ مني عوضا من المال قال ما كنت لأفعل قال فهما لله قال هي لله ثم تكس هشام رأسه واستحي وقال والله لأعود الى مثلها أبدا * ذكر صاحب الكامل أن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام فآخذه هشام وسيره الى خالد القسري وهو يومئذ على العراق وأمره بقتله فحبسه خالد ولم يقتله فبلغ الخبر هشاما فكتب الى خالد يألوه ويعزم عليه أن يقتله فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه فلما صلى العيود يوم الاضحى قال في آخر خطبته انصرفوا وضجوا يقبل الله منكم فاني أريد أن أضحي اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول ما كالم الله موسى ولا اتخذ ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل وذبحه اه وكان هشام شديد التمسك بدينه قيل انه تفقد بعض ولده فلم يحضر الجمعة فقال مامنك من الصلاة قال نفقت دابتي قال أفجمزت عن المشي وأمر فنحوه الدابة سنة ومات هشام بالرصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وكان مرضه الذبحة وعمره خمس وخمسون سنة وقيل ست وخمسون فكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأحد عشر يوما

واستعمل على مصر في خلافته أخاه محمد بن عبد الملك وعزله وولى بعده الحر بن يوسف ثم ولى حفص بن الوليد فأقام الى آخر سنة ثمان ومائة وولى بعده في سنة تسع ومائة عبد الملك ابن رفاعة ثم صرفه في سنته وولى أخاه الوليد فأقام الى أن توفي سنة تسع عشرة فولى بعده عبد الرحمن بن خالد النهمي فأقام سبعة أشهر وصرف وأعيد حنظلة بن صفوان في سنة عشرين ثم صرفه وأعاد حفص بن الوليد فأقام ثلاث سنين ثم عزل وكان عبد الله بن الحجاب متولى الخراج بمصر في سنة سبع ومائة للهجرة أى سنة سبع وعشرين وسبعائة للميلاد فاشتمد

على القبط في تحصيل الخراج شدة بالغة وزاد قيراطا في كل دينار فاسترحوه فلم يقبل فانتقض عليه عامة الخوف الشرقي من القبط فخار بهم وقتل وسبي ونهب وخرب وأراق الدماء أبحرا وقد كان قبله في سنة أربع ومائة للهجرة اشتد أسامة بن زيد التنوخي متولى الخراج عليهم وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بجملة حديد منقوش عليها اسم الراهب وديره وتاريخه فكان اذا وجد أحدهم بغير وسم قطع يده وشهره وكتب الى جميع العمال بان من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كان منه بعد ذلك أن كبس دياراتهم وقبض على كثير من الرهبان بغير وسم فضرب أعناقهم وضرب باقئهم بالسياط حتى ماتوا تحت الضرب ثم أمر فهدموا الكنائس ونهبوا ما فيها فكانت شدة عظيمة للغاية ووصل الخبر بذلك الى هشام بن عبد الملك فكتب هشام الى مصر بان يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد فلم يعمل حظالة بن صفوان بما رسم به هشام بل شدد عليهم في ولايته الثانية وزاد في الخراج وأحصى الناس والبهايم وجعل على كل رجل منهم وسمما صورة أسد وتبعهم فن وجد يده بغير وسم قطع يده فازدادت الشدة وعظم أمرها أياما كثيرة وكادت تمب الفتنة وتعم سائر البلاد تخاف العمال وانكفوا وسكنت الاحوال

ومات في خلافة هشام الاكسندروس بطرك الاسكندرية فكانت مدته اربعا وعشرين سنة قاسى فيها من البلايا والمحن ما مترك بيانها نغلا الكرسى بعده اربع سنين فأقيم بعده قسما أو هو قزمان وهو رابع اربعينهم وأصله من نبا موسى فأقام سنة ومات ولم يعرف من أخباره شيء فقام بعده تاودورو وهو خامس اربعينهم وكان في دير أبو جونس وفي أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحرة ظاهر مدينة مصر فقام جماعة من المسلمين في سنة سبع عشرة ومائة للهجرة أى نحو سنة سبع وثلاثين وسبع مائة للميلاد على الوليد بن رفاعة أمير مصر يومئذ بسببها وشدوا في طلب هدمها وكادت الفتنة تنشر ويعظم ضررها وبقي الحال هكذا أياما كثيرة ثم سكنت * وفي سنة سبع ومائة أى في خلافة هشام بن عبد الملك تمكن ملك الروم يومئذ من اقامة بطرك للملكية بالاسكندرية فحضى ومعه هدية سنوية للغاية الى هشام فكتب له برد كنائس الملكية اليهم فأخذوا يومئذ من المتأصلين كنيسة البشارة وكان الملكيون أقاموا سبعا وسبعين سنة بغير بطرك في أرض مصر من عهد عمر بن الخطاب الى خلافة هشام بن عبد الملك فغلب المتأصلون في هذه المدة على كنائس مصر كافة وأقاموا منهم بها أساقفة وبعث اليهم أهل بلاد النوبة في طلب أساقفة فسيروا اليهم جماعة فصارت النوبة من ذلك العهد على مذهب دسقورس وبقيت كذلك الى أن تفشت فيها الديانة الاسلامية وعت سائر أرجائها فدانت بها الى هذا الحين * ولما مات هشام بن عبد الملك تولى الخلافة بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالامر بعد هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق ببيع له بالخلافة فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة أى نحو سنة اثنتين وأربعين وسبعائة ليلاد يوم موت عمه هشام بالرصافة وقد كان أبوه حين احتضر عهد بالامر الى هشام أخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد فلما مات هشام ببيع له وهو اذ ذلك بالبريه فارا من عمه هشام لانه كان بينه وبين عمه منافسة بسبب استخفافه بالدين وشربه الخمر واشتاره بالفسق فهم هشام بقتله ففر منه وصار لا يقيم بأرض خوفا من هشام فلما كانت الليلة التى قدم عليه البريد فى صبيحتها بالخلافة فلقى تلك الليلة فلما شديدا فقال لبعض أصحابه ويحك انه قد أخذنى الليلة فاقى فاركب بنا حتى تنتفس فسارا مقدار ميلين وهما يتحدثان فى أمر هشام وما يتعلق به مما كتبه اليه بالتهديد والوعيد ثم نظرا فرأيا من بعد رهجا وصونا ثم انكشف ذلك عن بريد يطلبونه فقال لصاحبه ويحك ان هذه رسل هشام اللهم اعطنا خيرهم فلما قرب البريد منهما وأثبتوا الوليد معرفة ترجلوا وجاهوا فسلموا عليه بالخلافة فبغت وقال ويحك أمات هشام قالوا نعم ثم أعطوه الكتب فقرأها وسار من فورهم الى دمشق وكتب الى الآفاق بأخذ البيعة فجاءته بيعتهم وكتب اليه مروان بن محمد ببيعته واستأذنه فى القدوم عليه فلما استقرت به الخلافة أجرى على زنى أهل الشام وعيهم وكساهم وأمر لكل انسان منهم بخادم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد فى العطاء وزاد الوفود قال صاحب الكامل ولم يسئل فى شئ الاوقال

ضمنت لكم ان لم يعقنى عاقق * بأن سماء الضر عنكم ستقطع

سيوشك الحاق بمن زيادة * وأعطية منى عليكم تبرع

فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم * به تكتب الكتاب شهرا وتطبع

وقال حاتم الوادى المغنى كتاب مع الوليد وأناه خبر موت هشام وهنى بولاية الخلافة وأناه

القضيب وانخاتم ثم قال فأمسكنا ساعة ونظرنا اليه بعين الخلافة فقال غنوتى

طاب يومى ولذ شرب السلافه * وأنا ناعى من بالرصافه

وأنا السبريد يعنى هشاما * وأنا نا بخاتم للخلافه

فأصطبحننا من خمر عانة صرفا * ولهونا بقينة عرفاه

قال وحلف لا يبرح من موضعه حتى يعنى فى هذا الشعر وشرب عليه ففعلنا ذلك ولم

نزل نغنى الى الليل اه وعقد فى هذه السنة يعنى السنة التى تولى الخلافة فيها لولديه الحكيم

وعثمان البيعة من بعده وجعلهما وليي عهده أحدهما بعد الآخر وجعل الحكيم مقديما
 وكتب بذلك الى الأفاق وجعل يتنسم خبر أولاد الحسين بعد خروج زيد بن علي وقتله في
 خلافة هشام عه * فلما كانت سنة خمس وعشرين جاء الخبر الى الوليد بالقبض على يحيى
 ابن زيد بن علي بن الحسين بخراسان وقد كان هرب اليها بعد موت أبيه زيد وسار منها الى
 بلخ محتفيا فأقام بها عند الحرث بن عمرو بن داود فكتب الوليد بأمره أن يؤمنوه ويخلوا
 سبيله وسبيل أصحابه فأطلقوهم فساروا الى نيسابور وبها عمرو بن زرارة وكان مع يحيى
 سبعون رجلا فرأى يحيى تجارا وجماعة من أبناء السبيل فسلمهم متاعهم وأخذ هو وأصحابه
 دوابهم وطلق بالجوزجان فسار في أثره سالم بن أحوز فلحقه بها فقاتله قتالا شديدا فقتل
 أصحاب يحيى عن آخرهم وأصاب يحيى بسهم في جبهته فاحتزوا رأسه وسلبوه قميصه وصلبوا
 جثته بالجوزجان * قال صاحب الكامل فلم يزل مصلوبا حتى ظهر أبو مسلم الخراساني
 واستولى على خراسان فأنزله وصلى عليه ودفنه وأمر بالنياحة عليه في خراسان وأخذ أبو
 مسلم ديوان بني أمية وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى فمن كان حيا قتله ومن كان ميتا
 خلفه في أهله بسوء وكانت أم يحيى ريطة بنت أبي هانم عبد الله بن محمد بن الحنفية

وكان الوليد يتظاهر بالكفر والزندقة منهم كما على شرب الخمر واللاذات والقصف واللهو
 قليل الاهتمام بأمر الرعية * قال الحافظ ابن عساكر وغيره انه مك الوليد في شرب الخمر ولذاته
 ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين وكان يضرب
 بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف وكان قد انتهك محارم الله تعالى حتى قيل له الفاسق وكان
 مع ذلك أكمل بني أمية أدبا وفصاحة ونظرفا وأعزفهم بالنحو واللغة والحديث وكان جوادا
 مفضالا ولم يكن في بني أمية أكثر ادمانا للشرب والسماع ولا أشد مجونا وتمسكا واستخفافا لأمر
 الامة من الوليد المذكور * ويقال انه واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنون بالصلاة
 خلف أنه لا يصلي بالناس الا هي فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرى قال
 ويقال انه اصطنع بركة من خمر فكان اذا طرب ألقى بنفسه فيها وشرب منها حتى بين النقص
 في أطرافها اه * ولما أثار مجونه وزاد حبه وولوعه للمعاورة وشرب الخمر واتيان المنكرات
 والاستخفاف بأمر الرعية قام عليه أهل دمشق واجتمعوا على خلعهم وبايعوا ابن عمه يزيد بن
 الوليد بن عبد الملك الملقب بالناص نخرج عليه يزيد وأتعب على دمشق وكان الوليد يومئذ
 بناحية تدمر في الصيد فجهز يزيد عسكرا وسار بهم نحو حماربوه الى أن أحاطوا به بحصن البجرة
 من أرض تدمر وشدوا في القتال وأخذوا عليه جميع الطرق وتسوروا عليه وذبحوه وأتوا
 برأسه على رمح فأمر به يزيد فنصبوه على سور دمشق * وقيل لما حصره أصحاب يزيد هم
 أصحابه بالقتال فنهاهم عن ذلك فأفلتوا من حوله فدخل عليه أصحاب يزيد في قصره فقال يوم
 كيوم عثمان فقيل له ولا سواء فقطع رأسه وطيف به في دمشق ثم نصب على قصره ثم على

أعلى سور دمشق * وكان أكثر الناس بغضا إليه وأكبرهم حقدا عليه أهل اليمن فسعوا
في قتله وأغروا به يزيد حتى ركب عليه وقتله * وقال حمزة بن بيض في الوليد
وصلت مماء الضرب بالضر بعدما * زعمت مماء الضرب عنا مستقلع
فليت هشاما كان حيا يسومنا * ونكا كما نكنا نرجي ونطمع
وقال أيضا

يا وليد انخنا تركت الطريقا * واضحاوار تكبت فيا عييقا
وتعديت واعتمدت وأسرف * ت وأغويت وانبعثت فسوقا
أبداهات ثم هات وهاتي * ثم هاتي حتى تختر صعيقا
أنت سكران مانقيق فماتر * تقي فتقا وقد فتقت فتوقا

وحكي الماوردي في كتاب أدب الدين والدنيا عن الوليد بن يزيد المذكور أنه تفاعل
يوما في المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وطاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وأنشأ
يقول

أوعد كل جبار عنيد * فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ماجت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزقني الوليد

قال فلم يلبث إلا أياما قليلة حتى قتل شرقية وصب رأسه على قصره ثم على أعلى
سور بلده اه قتل في جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة وكانت خلافته سنة واحدة
وقيل سنة وشهرين وعموته اضطربت الامور واختل نظام البلاد واضطربت نار الفتنة واستنصر
على بني أمية أعداؤهم فزال هيبتهم وذببت شوكتهم فلم تقم لهم قائمة بعده كما سيد كرفي محله *
ومع ماشتهر به الوليد من الزندقة والتظاهر بالمنكرات فقد كان له محاسن أخرى فما نقل عنه
من حسن الكلام ما قاله لما مات مسلمة بن عبد الملك لهشام وهو جالس للعزاء فقد أتاه
الوليد المذكور وهو نشوان يجر مطرف خز عليه فوقف على هشام فقال يا أمير المؤمنين ان
عقبى من بقى لحوق من مضى * وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى * واختل النغر فهوى
وعلى اثر من سلف * يمضى من خلف * فترودوا فان خير الزاد التقوى اه فأعرض هشام ولم
يجر جوابا وسكت القوم فلم ينطقوا * قيل وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه
عنه وقالوا انه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح * وكان من قتيان بنى أمية ونظر قائمهم
وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم وله شعر جيد للغاية لاسيما في النجر والغزل والعتاب وقد أخذ
كثير من الشعراء معانيه في وصف النجر فسرقوها وأدخلوها في أشعارهم وخاصة أبا نواس
فانه أكثرهم أخذها لها * قال المدايني دخل ابن النجر بن يزيد أخى الوليد على الرشيد فقال له
من أنت فقال من قريش قال من أيها فأمسك فقال قل وأنت آمن ولو أنك مروان فقال أنا
ابن النجر بن يزيد فقال رحم الله عمك الوليد واعن يزيد الناقص فانه قتل خليفة جمعا عليه
ارفع حوائجك فرفعها ففضاها

وفي أيامه انتقض القبط بصعيد مصر من جور العمال وشقوا عصا الطاعة فوَقعت الحرب بينهم وبين الجند المرابط بمصر واقتتلوا أياما كثيرة فقتل خلق ثم خرج يحنس القبطي وكان من خول زمانه وبار القوم وعظماؤهم في مدينة سمندو فحارب العمال وقتلهم قتالا عنيفا ودامت الفتنة أياما كثيرة اشتد فيها المسلمون على النصارى شدة بالغة وطال الاخذ والردّ وعت الصعيدين ثم انجلت بموت يحنس المذكور وخلق معه فكانت فتنة عظيمة للغاية على جميع النصارى وبموت الوليد بن يزيد تولى الخلافة بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(الفصل الثاني عشر)

(في خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالامر بعد الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك بوبع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه الوليد سنة ست وعشرين ومائة هجرية أي سنة ثلاث وأربعين وسبعائة ميلادية وهو أول خليفة كانت أمه أمة وكان بنو أمة يتخرفون ذلك تعظيما للخلافة ولما سقط اليهم أن ملكهم يزول على يد خليفة أمه أمة كانوا يتخوفون من ذلك إلى أن ولي الخلافة الوليد بن يزيد فعلموا أن ملكهم قد انقضى * وكان يزيد المذكور يسمى الناقص وانما سمي بذلك لأنه نقص أعطيات الناس وردّهم إلى ما كانوا عليه أيام هشام وقيل لنقصان كان في أصابع رجله وأول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد * ولما تولى الخلافة خطب الناس فذم الوليد وذكر الحادّه وأنه انما قتله لفعله الخبيث ثم قال * أيها الناس ان لكم عليّ أن لا أضع حجرا على حجر ولا بسنة ولا اكترى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة وولدا ولا أنقل مالا عن بلد حتى أسد نغره وخصاصة أهله بما يغنيهم فما فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ولا أجركم في نغوركم فأفتنكم ولا أغلق بابي دونكم ولا أحجل على أهل جزيتكم ولكم أعطياتكم كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى يكون أقصاكم كأذناكم فان وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة وان لم أف فلكم أن تخلموني الا أن أتوب وان علمتم أحدا ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم وأردتم أن تباعوه فأنا أول من يبايعه أيها الناس لاطاعة لمخلوق في معصية الخلاق اه

وأقام يزيد في الخلافة والامور مضطربة عليه اذ قامت الفتنة على ساقها وهاجت وخرج أهل حصص واختلف أهل فلسطين ووثبوا على عمالهم ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وكان قد حبسه الوليد بها فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الاموال وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليد ويسبهه وخرج أهل اليمامة أيضا على عاملهم يوسف ابن عمر واقتتلوا واشتد الاضطراب وعم الخلل ولم تكن تستقر به الخلافة حتى مرض في سنة ست وعشرين ومائة هجرية فلما علم جماعة القدرية وهم شيعته بمرضه دخلوا عليه وما زالوا

به حتى رسم بالبيعة لآخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ومات لعشر
 بقين من ذى الحجة وقيل في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة هجرية وهو
 ابن أربعين سنة وقيل ست وأربعين وقيل سبع وثلاثين سنة فكانت خلافته ستة أشهر
 وليتني وقيل ستة أشهر واثني عشر يوما وقيل خمسة أشهر واثني عشر يوما وكان موته
 بدمشق وكان يظهر التنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز وكان ذا دين وورع
 قال الشافعي ولي يزيد بن الوليد فدعا الناس الى القدر اه وهو أول من خرج بالسلاح يوم
 العيد خرج بين صفيين يحملون السلاح وكان آخر ماتكم لما احتضر واحسرتاه وأسفاه
 ولما مات تولى الخلافة بعده أخوه ابراهيم بن الوليد

(الفصل الثالث عشر)

(في خلافة ابراهيم بن الوليد)

ثم قام بالامر بعد يزيد أخوه ابراهيم بعهد من يزيد ببيع له بالخلافة في اليوم الذي مات
 فيه أخوه سنة ست وعشرين ومائة هجرية أي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للميلاد ولم
 يثبت له الامر لاضطراب الأمور ووقوع الخلاف فكان جمعة يسلم عليه بالخلافة وجمعة
 بالامارة وجمعة لا يسلم عليه بالخلافة ولا بالامارة وما زالت الامور مضطربة والفتنة تمتد
 لهما من بلد الى آخر الى أن قتله مروان بن محمد وصلبه وكان مروان المذكور واليا على
 الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان ولاة عليها الوليد خوفا من خروجه عليه فقد كان
 حضر في جيش عظيم لقتال الوليد وردّه عن الملك ولم يبايعه حتى ولاة ما ذكر نخرج في
 ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وأهل قنسرين وأهل حمص فسير لقتالهم ابراهيم بن الوليد جندا
 من دمشق مع سليمان بن هشام فنزل عين الجرف في مائة وعشرين ألفا ونزلها أيضا مروان في
 ثمانين ألفا ودعاهم مروان الى الكف عن قتاله واطلاق ابني الوليد الحكيم وعثمان من
 السجن وضمن لهم أنه لا يطلب أحدا من قتلة الوليد فلم يجيبوه الى شيء من ذلك وجدوا في
 قتال بعضهم وكثر القتل بينهم واشتد فانهزم أصحاب سليمان بن هشام ووضع أهل حمص
 السلاح فيهم فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأتوا مروان من أسراهم بمثل القتلى فأخذ مروان عليهم
 البيعة لولدي الوليد الحكيم وعثمان وكانا معتقلين وهرب سليمان بن هشام مع من بقي
 واجتمعوا مع ابراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض ان بقي ولدا الوليد حتى
 يخرجهما مروان وبصر الامر اليهما لم يستبقيا أحدا من قتلة أبيهما فأمروا بقتلهما وأخرج
 يوسف بن عمر فضربت عنقه وأرادوا قتل أبي محمد السفيناني فدخّل بيتا من بيوت السجن
 وأغلقه فلم يقدروا على فتحه فأرادوا احراقه فلم يؤتوا بالنار لاحراقه حتى قيل قد دخلت

خيل مروان المدينة فهربوا واختفى ابراهيم وانتهب مروان ماني بيت المال فكان شياً كثيراً
 وكانت خلافة ابراهيم شهرين وعشرة أيام فبايع الناس مروان على ماسيد كرفي محله
 واستوثق له الامر قبل ظهور ابراهيم بن الوليد ودخل عليه ونزل له عن الخلافة وذلك سنة
 سبع وعشرين ومائة هجرية أي سنة أربع وأربعين وسبعمائة ميلادية * واستعمل على مصر
 في خلافته حسان بن عتاهية الخبيبي ثم عزله وأعاد حفص بن الوليد فبقي الى أن عزل في
 سنة ثمان وعشرين ومائة هجرية

(الفصل الرابع عشر) (في خلافة مروان بن محمد)

لما قتل ابراهيم بن الوليد بويع مروان بن محمد المنبوز بالحجاز بالخلافة سنة ست وعشرين
 ومائة هجرية أي سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية * وتحريروا الخبر أنه لما دخل مروان
 دمشق وهرب ابراهيم بن الوليد ومن معه كما تقدم القول نار من بدمشق من موالي
 الوليد الى دار عبدالعزيز بن الحجاج بن عبيد الملك فقتلوا الحجاج ونبشوا قبر يزيد بن الوليد
 وأخرجوا جثته وصلبوها على باب الجابية وكبرت الفتنة وأتى مروان بولدى الوليد الحكم
 وعثمان مقتولين ويوسف بن عمر فدفنهم وأخرج محمد السفيفاني من محبسه يجر في قيوده
 فلما وقف السفيفاني بين يديه سلم عليه بالخلافة وقد كان يسلم على مروان الى ذلك اليوم
 بالامرة فأسكنه مروان فقال محمد السفيفاني انهما جعلاهما لك بعدهما * قال صاحب الكامل
 وأنشده شعرا قاله الحكم

ألا من مبلغ مروان عني * وعي الغر طال به حيننا
 بأني قد ظلمت وصار قومي * على قتل الوليد مشايعينا
 أيذهب كلهم بدى ومالي * فلا غنا أصبت ولا مينا
 ومروان بأرض بني نزار * كليت الغاب مفترس عربنا
 أنتكث بيعتي من أجل أمي * فقد بايعستم قبلي هيينا
 فان أهلك أنا وولي عهدى * فمروان أمير المؤمنيننا

ثم قال مروان أبسط يدك أبايعك وسمعه جميع من حضر فكان أول من بايع معاوية
 ابن يزيد بن حصين بن غير وعظماء أهل حمص والناس بعدهم فلما استقر له الامر رجع الى
 أهله بمجوران فتقدم اليه جماعة في طلب الأمان لابراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمنهما
 فدما عليه وبايعاه كما تقدم القول * ولم تستقر به الخلافة حتى ظهر الاضطراب وظهر عبد
 الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا الناس الى نفسه وتغلب

على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والرى وكثرت لمومه وخرج اليه عبيد أهل الكوفة وانتقض أهل حص فقاتلهم مروان ودخل حص وأعمل في أهلها السيف وهدم من سورها نحو غلوة وخالف أهل الغوطة فحصرهم دمشق ومقدمهم يومئذ يزيد بن خالد فسير اليهم مروان عشرة آلاف من حص فقاتلوهم قتالا شديدا وأخذوا مقدمهم يزيد بن خالد المذكور فاحتزوا رأسه وبعثوا به الى مروان بحمص * واختلف أيضا أهل فلسطين وانتقضوا فسير اليهم مروان عسكريا ومقدمهم أبو الورد فقاتلوهم وشدد أبو الورد في قتالهم حتى هزمهم وجاء مروان الخبر وهو يومئذ بدير أيوب ففرح بذلك وبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك * قال أصحاب التاريخ فجمع لذلك بني أمية واستقام له الشام ما خلا تدمر فسار اليها وأرسل من يقاتلها فاستأمن من بها بعد القتال وهدم سورها * وأرسل مروان الى الشام بعد ذلك في طلب الجند لقتال الضعالك بالعراق وقد كان خرج عن طاعة مروان وتقدم مروان الى قرقيسيا فبينما هو بها اذ رجع عشرة آلاف عن كان أخذهم من أهل الشام لقتال الضعالك فنزلوا بالرصافة وحببوا الى سليمان بن هشام بن عبد الملك خلع مروان بن محمد ومنوه بالخلافة ان هو فعل ذلك فأجابهم وسار باخوته ومواليه معهم فحسروا بقرقرين وكتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان فرجع اليه من قرقيسيا واجتمع الى سليمان بن هشام نحو من سبعين ألفا من أهل الشام وغيرهم وعسكر بقرية خساف من أرض قنسر بن بجاه مروان عند وصوله واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم سليمان ومن معه واتبعهم خيل مروان تقتل وتأسر واستباحوا عسكرهم فبلغ قتلى أصحاب سليمان زهاء ثلاثين ألفا وقتل ابراهيم بن سليمان وأكبر ولده ومضى سليمان حتى دخل حص وانضم اليه من بقي من عسكره فتحصن بها ورمم ما تحزب من أسوارها فتبعه مروان وقاتله فهزمه فخرج سليمان ومضى الى تدمر فأقام بها ونزل مروان على حص فحاصر أهلها عشرة أشهر قال أصحاب التاريخ ونصب عليهم نيفا وثمانين مجنيقا يرمى بها الليل والنهار فلما تتابع عليهم البلاء طلبوا الامان فأتتهم

وفي خلال هذه الخطوب والحروب ظهر أبو مسلم الخراساني وهو عبد الرحمن صاحب الدعوة العباسية بخراسان وظهر السفاح بالكوفة فلما استقر للسفاح الامر وظهرت آثار الدعوة لبني العباس على ما سئذ ذكره في محله ان شاء الله جهز السفاح عمه عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل وجعل كل فريق يرتب عسكره ويبالغ في ترتيبها فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز باعبد العزيز ان زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كما الذين ندفعها الى المسيح عليه السلام وان قاتلونا فأقبل الزوال فانا لله وانا اليه راجعون * وأرسل مروان الى عبدالله بن علي مقدم عسكر السفاح يسأله الموادعة فقال عبدالله كذب ابن رزيق لا تزول الشمس حتى أوطئه الخليل ان شاء الله فقال مروان لا أهل الشام

فقوالا تبتدوهم بالقتال وجعل ينظر الى الشمس فحمل الوليد بن معاوية بن مروان بن الحكم
 وهو ختن مروان بن محمد على ابنته فغضب مروان من ذلك وشتمه وأمر عبد الله الناس بان
 ينزلوا عن خيلهم فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب ولم يظهروا عزمًا على القتال فاندفع
 عليهم أصحاب مروان وقتلوهم فجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون فنأدى عند ذلك
 عبد الله بن علي بأهل خراسان بالنارات ابراهيم يا محمد يا منصور واشتد بينهم القتال وحى
 الوطيس وضعفت هم أصحاب مروان وتناقلوا عن القتال فكان مروان ذلك اليوم لا يدبر
 شيئًا الا كان فيه الخلل وانفشل عسكره فشلا عظيمًا وانهمزوا وانهمز مروان وقطع الجسر
 فكان من غرق يومئذ عند عبور ذلك الجسر أكثر من قتل * وكتب عبد الله بن علي الى
 السفاح بالفتح وحوى عسكر مروان بما فيه فكان فيه من السلاح والكرع والاموال شيئًا
 كثيرًا للغاية فلما وصل الكتاب الى السفاح فرح فرحًا لا يوصف وخر ساجدًا لله تعالى وأمر
 لمن شهد الواقعة بخمسمائة دينار ورفع أرزاقهم الى ثمانين * ولما تمت هزيمة مروان تبعه عبد
 الله الى أن وصل نهر الاردن فلقى جماعة من بني أمية وكانوا نيفًا وثمانين رجلًا فقتلهم عن
 آخرهم ثم أمر عبد الله بسحبهم فسحبوا وبسط عليهم بساط وجلس هو وأصحابه فوقهم
 واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحتهم فقال عبد الله يوم كيوم الحسين ولا
 سواء ولما رأى مروان اشتداد القنسة واستفحال الخطب وان الاعداء كادوا يطبقون عليه
 من كل جانب وكان قد نزل بجوران قام منها قاصداً بأبوعون عبد الملك بن يزيد الاسدي الذي
 ولاء السفاح على شهر زور فلاقاه جند عبد الله بن علي العباسي فرقى أشهر أمة بالموصل
 فرأى الرايات سودا وهي رايات العباسيين فذهب الى حوران وأقام نيفًا عن عشرين يوماً
 حتى دنا منه عسكر السفاح فسار الى حمص ثم الى دمشق ثم الى فلسطين وكان السفاح قد
 كتب الى عمه عبد الله فتيبته عبد الله الى دمشق وجهاز السفاح أيضاً عمه صالح بن علي بن علي
 طريق السماوة فلتحق بأخيه عبد الله وقد نزل دمشق وقتحتها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض
 عبد الله سورها فلم يبق فيه سحرا على حجر وهرب مروان الى مصر فتيبته صالح بن علي
 ومروان ينهمز أمامه حتى أدركه أبوعون وجماعة أصحاب صالح بعد حين في كنيسة بأبي صير من
 صعيد مصر وقد تبددت أصحابه ولم يبق معه الا القليل جسداً فقاتلوه ليلاً وكان أصحاب صالح
 قليلين خافوا ان هم أصبحوا ورأوا أصحاب مروان قتلهم أهلكوهم فتحالفوا على القتال ليلاً
 وكسروا أجفان سيوفهم وجعلوا على أصحاب مروان فانهزموا وجعل رجل على مروان قطعته
 وهو لا يعرفه وصاح صائح صرعى أمير المؤمنين فابتدروه واحتزوا رأسه وبعثوا به الى صالح
 فلما وصل اليه أمر أن يقص لسانه فقطعوا لسانه وتركوه لحظة لطيفة فأنت هرة فأخذته
 فقال صالح ماذا ترىنا الايام من العجائب والعبر هذا لسان مروان قد أخذته هرة وذلك
 في ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية وقيل ثلاث وثلاثين ومائة أى نحو سنة
 خمسين وسبعمائة ميلادية وهو ابن ست وخمسين سنة فكانت خلافته خمس سنين وشهرين

وعشرة أيام وهو آخر خلفاء بني أمية فكانوا أربعة عشر خليفة أولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم مروان الجعدي المنبوز بالجار وكانت مدة خلافتهم نيفا وثمانين سنة وهي ألف شهر * ورجع صالح الى الشام ومعه رأس مروان وخلف أبا عون بمصر فلما رفع صالح رأس مروان الى السفاح سجد لله شكرا * وذكر أنه بينما كان مروان يجارب على الزاب ترجل عن فرسه لحاجة طبيعية فرجع الفرس الى الورا فظن عسكره أنه قتل فوقع فيهم الخوف وانفشلوا وهر بوافضار ذهب ملكهم مثلا فليل * انتهى ملك بني أمية ببولة * ولما قتل مروان هرب ولده عبيد الله وعبدالله الى أرض الحبشة فقتل عبيد الله قتله الحبشان ونجا عبدالله في عدد من أصحابه وبقي الى خلافة المهدي حتى قبض عليه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين وبعث به الى المهدي * وكان مروان المذكور بطلا شديدا شجاعا ذاهبية أبيض ربعة أشهل ضخما كث اللحية وكان حازما سياسيا واستعمل على مصر في خلافته الخوثر بن سهيل الباهلي ثم ولي بعده المغيرة بن عبيد الفزاري سنة احدى وثلاثين ومائة ثم ولي عبد الملك بن مروان مولى نهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة فلما قامت الدولة العباسية واستقام الامر للسفاح على ماسند كرفي محله وانهمزم مروان الجار وهرب الى مصر ولي السفاح نيابة الشام ومصر صالح بن علي بن عبد الله بن عباس فسار صالح بعد قتل مروان الى الشام واستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد الاسدي كما تقدم القول

(فصل)

(في كيفية الدعوة لبني العباس وفي ظهور دولتهم)

لما كان ظهور الدولة العباسية من الاهمية التاريخية بكان لاسيما وفي ذكر حوادث ذلك الظهور وأصل الدعوة لبني العباس وما ترتب عليها تذكرة وعبرة رأيت أن لأبأس بإيراد تفصيلها هنا اظهارا لاصل الدعوة وكيف كان كتمانها بين الاحزاب أعواما مع كثرة الدعاة وتحلفهم على الناس * قال أصحاب التاريخ لما كان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس نازلا بأرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام خرج أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الى الشام يريد لقاء سليمان بن عبد الملك فاجتمع به محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المذكور فأحسن صحبته واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ورأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وخافه فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه في لبن فلما أحس أبو هاشم بذلك قصد الحجمة وبها محمد بن علي بن عبد الله المذكور فنزل عليه فأخبره بخبره وأعلمه أن أمر الخلافة صائر الى ولد محمد بن علي بن عباس المذكور وعرفه ما يعمل وأوصاه بكتمان الامر

وكان أبو هاشم قد أعلم شيعة من أهل خراسان والعراق عند ترددهم اليه أن أمر
 الخلافة صائر الى ولد محمد بن عليّ وأوصاهم بقصده بعده * فلما مات أبو هاشم قصدت
 شيعة محمد بن عليّ وبابعه وعادوا فدعوا الناس اليه فأجابوهم وسير محمد بن عبد الله الى
 الآفاق جماعة فوجهه ميسرة الى العراق ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو
 أبو محمد الصادق وحيان العطار وخال ابراهيم بن سلمة الى خراسان وعليها الجراح الحكيم
 وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم الى
 محمد بن عليّ فدفعوها الى ميسرة فبعث بها ميسرة الى محمد بن عليّ ففرح بها واختار أبو
 محمد الصادق لمحمد بن عليّ اثني عشر نقيباً وسبعين رجلاً آخر فكتب لهم محمد بن عليّ
 كتاباً ليكون لهم مثالا وسيرة يسرون بها وذلك سنة مائة للهجرة فعملوا به وجعلوا يدعون
 الناس فظهر أمرهم بخراسان فجاء رجل الى سعيد بن خزيمه عامل خراسان فقال له ان
 ههنا قوما قد ظهر منهم كلام قبيح وأعلمه حالهم فبعث سعيد اليهم فأتى بهم فقال من
 أنتم قالوا ناس من التجار قال فما هذا الذي يبكى عنكم قالوا لاندرى قال جئت دعاء
 قالوا ان لنا في أنفسنا وتجارتنا شعلا عن هذا فقال من يعرف هؤلاء فجاء ناس من أهل
 خراسان أكثرهم من أهل ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا ان أتاك منهم شيء
 تكرهه نخلي سبلهم فظفوا على ما كانوا عليه من الدعوة الى محمد بن عليّ وابن خزيمه
 لاه عنهم

فلما كانت سنة أربع ومائة هجرية ولد (أبو العباس عبدالله) بن محمد بن علي بن محمد بن
 علي في ربيع الآخر وهو السفاح وجاء الى أبيه محمد بن عليّ (أبو محمد الصادق) من خراسان
 في عدة من أصحابه فأخرج اليهم محمد بن عليّ ولده أبا العباس المذكور في خرقة وله خمسة
 عشر يوماً وقال لهم هذا صاحبكم الذي يتم الامر على يده ففرحوا به وقبلوا أطرافه وقال لهم
 والله ليمتن الله هذا الامر حتى تدر كوا ناركم من عدوكم * قالوا وكان أول من قدم
 خراسان من دعاء بني العباس زياد أبو محمد مولى همدان في ولاية أسيد بعث به محمد بن عليّ
 ابن عبد الله بن عباس وقال له انزل في اليمن والطف بمصر ونهاه عن رجل بنيسابور يقال له
 غالب لانه كان مفرطاً في حب بنى فاطمة ويقال أول من أتى خراسان بكتاب محمد بن عليّ
 حرب بن عثمان مولى بنى قيس بن نعلبة من أهل بلخ فلما قدم زياد دعا الى بنى العباس
 وذكروا بنى أمية وظلمهم وأطعم الناس الطعام فقدم عليه غالب من نيسابور فتناظروا في
 تفضيل آل عليّ وآل العباس ثم افتروا وأقام زياد بمرو وشوة فكان يختلف اليه من أهلها
 جماعة فعلم أسيد بخبره فدعاه وقال ما هذا الذي بلغني عنك قال الباطل انما قدمت الى
 تجارة وقد فرقت مالي على الناس فاذا اجتمع خرجت فقال له أسيد اخرج عن بلادى
 فانصرف من عنده وعاد الى ما كان عليه من دعوة الناس فرفعوا أمره الى أسيد ثانية
 وخوفوه من جانبه فأحضره وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة ولم ينج منهم الا صغيران

وقيل بل أمر زياد أن يوسط بالسيف أي يقطع نصفين فضربوه بالسيف فلم يعمل فيه فكبر الناس فقال أسيد ما هذا قيل نبا السيف عنه ثم ضرب أخرى فنبأ السيف عنه ثم ضربه الثالثة فقطعه اثنتين وعرض البراءة على أصحابه فبن تبرأ خلى عنه وذلك قبل الاضخى بأربعة أيام * فقام بالامر بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيرا فنزل على أبي النخيم فكان يأتي اليه كل من تبع مقالة زياد وبقي على هذا الحال سنة أوستين * واشتد ابن أسيد والى خراسان على من بها من الاحزاب فقتل وجلد وحبس منهم خلقا ووجه بكير بن ماهان في نحو سنة ثمان عشرة ومائة هجرية عمار بن يزيد واليا على شبيعة بن العباس فنزل مرو وغير اسمه وتسمى بخدش ودعا الى محمد بن علي فتسارع اليه الناس وأطاعوه فلما ظهرت كلمته غير مادعاهم اليه وأظهر دين الخزمية ورخص لبعضهم في نساء بعض وقال لهم انه لا صوم ولا صلاة ولا حج وان تأويل الصوم أن يصام على ذكر الامام فلا يباح باسمه والصلاة الدعاء له والحج قصد اليه وكان يتأول بعض آيات القرآن وكان ممن اتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم الاعمى وغيرهما فأخبرهم أن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس أمر بذلك فبلغ خبره أسيد بن عبدالله والى خراسان فظفر به فأغلظ القول لأسيد فقطع لسانه وسمل عينيه ثم صلبه * وكان لما ظهر أمر خدش المذكور وأطاعه من أطاعه من الاحزاب بخراسان أهمل محمد بن علي بن عبد الله أمرهم وترك مكاتبتهم ومزاسلاتهم فلما قتل خدش وجهوا اليه سليمان بن كثير ليعلمه أمرهم وما هم عليه فغنفه محمد في ذلك ثم صرفه الى خراسان ومعه كتاب مختوم فلما فضوه لم يروا فيه الا بسم الله الرحمن الرحيم فعظم ذلك عليهم وعلموا مخالفة خدش لأمره ثم وجه اليهم بكير بن ماهان بعد ذلك وكتب معه اليهم يعلمهم كذب خدش فلم يصدقوه واستخفوا به فعاد بكير الى محمد فبعث معه بعضى مضببة بعضها بمحيد وبعضها بنحاس فجمع بكير النقباء والشبيعة ودفع الى كل واحد منهم عصا فعلموا أنهم مخالفون لسيرته فتأبوا ورجعوا

وما زال السر مكنوما والدعوة الى ولد العباس جارية والنقباء يعملون على جمع القلوب واستمالة الناس حتى كانت سنة تسع وعشرين ومائة هجرية ظهر أبو مسلم الخراساني فكان تمام الامر على يديه * قال جماعة الكتاب وأبو مسلم هذا هو ابراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جودزده من ولد بزرجهر الفارسي ويكنى أبا اسحق ولد باصهان ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى الى عيسى بن موسى السراج فحمله الى الكوفة وهو ابن سبع سنين وقال بعضهم انه من أهل ضياع بنى معقل الجبلية باصهان أو غيرها من الجبل وكان اسمه ابراهيم ويلقب حيكبان وكان مع أبي موسى السراج صاحبه يخرز الاعنة ويعمل السروج وله معرفة بصناعة الأدم والسروج فكان يحملها الى اصهان والجبال والجزيرة والموصل ونصيبين وأمد وغيرها يتجر فيها فأنصل بإبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الامام أحد الأئمة الاثنى عشر من ولد العباس فتخيل فيه النجابة والقنوة وتحقق أن الامر يتم على يديه لبني العباس

فقال له غير اسمك فإنه لا يتم لنا الامر الا بتغيير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ويكنى
أبا مسلم وكان له من العمر يومئذ تسع عشرة سنة ثم تزوجه ابراهيم الامام ابنة عمران بن
اسماعيل الطائي المعروف بأبي النجم وهي بخراسان مع أبيها فبنى بها أبو مسلم بخراسان وولدت
له ابنتين فاطمة وأسماة وفاطمة هي التي تذكرها الخرمية في مذهبهم الذي دعاهم اليه خداس
* قال ابن خلكان ونشأ أبو مسلم عند عيسى بن معقل بن عمير أخي ادريس بن معقل بن جسد
أبي دلف العجلي برستاق فابق فلما ترعرع اختلف مع ولده الى المكتب فخرج أديباً ليبياً يشار
اليه في صغره ثم انه اجتمع على عيسى بن معقل وأخيه ادريس بقايا من الخراج تقاعداً من
أجلها عن حضور مؤدى الخراج باصهان فأخى عامل اصهان خبرهما الى خالد بن عبد الله
القسري والى العراقيين فأنفذ خالد من الكوفة من جلها اليه بعد قبضه عليهما فتركهما خالد
في السجن فصادفاً فيه عاصم بن يوسف العجلي محبوساً بسبب من أسباب الفساد وقد كان
عيسى بن معقل قبل أن يقبض عليه أنفذ أبا مسلم الى قرية من رستاق فابق لاحتمال غلثها
فلما اتصل به خبر عيسى بن معقل باع ما كان احتمله من الغلة وأخذ ما كان اجتمع عنده
من ثمنها ولحق بعيسى بن معقل فأنزله عيسى بداره في بني عجل وكان يختلف الى السجن
ويتعهد عيسى وادريس ابني معقل وكان قد قدم الكوفة جماعة من نقباء الامام محمد بن
علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مع عدة من الشيعة الخراسانية فدخلوا على
العجليين السجن مسلمين فصادفوا أبا مسلم عندهم فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه وأدبه ومال
هو اليهم ثم عرف أمرهم وأنهم دعاة وانفق مع ذلك أن هرب عيسى وادريس من السجن
فعدل أبو مسلم من دور بني عجل الى هؤلاء النقباء ثم خرج معهم الى مكة حرسها الله تعالى
فأورد النقباء على ابراهيم بن محمد الامام وكان قد تولى الامامة بعد وفاة أبيه عشرين ألف دينار
ومائتي ألف درهم وأهدوا اليه أبا مسلم فأعجب به وبمنطقه وعقله وأدبه وقال لهم هذا عضلة
من العضل وأقام أبو مسلم عند الامام يخدمه حضراً وسفراً ثم ان النقباء عادوا الى الامام
وسألوه رجلاً يقوم بأمر خراسان فقال اني جرت هذا الاصحاني وعرفت ظاهره وباطنه
فوجدته سحر الارض ثم دعا أبا مسلم وقلده الامر وأرسله الى خراسان فكان من أمره ما كان
وكان ابراهيم الامام قد أرسل الى أهل خراسان سليمان بن كثير بن الحراني يدعوهم الى أهل
البيت فلما بعث أبا مسلم أمر من هناك بالسمع والطاعة وأمره أن لا يخالف سليمان بن
كثير فكان أبو مسلم يختلف ما بين ابراهيم وسليمان اه

ويقال ان أبا مسلم المذكور ولد بمدينة بجى الاصبهانية وكان أول ظهوره بمرو يوم الجمعة
لتسع بقين من رمضان سنة تسع وعشرين ومائة والوالى بخراسان يومئذ نصر بن سيار الليثي
من قبل مروان بن محمد المنبوز بالحجار آخر خلفاء بني أمية فكاتب نصر يومئذ الى مروان
يقول

أرى جدنا ان يثنى لم يقوريض * عليه فبادر قبل أن يثنى الجذع

وكان مروان يومئذ مشغولا عن أبي مسلم بغيره من خرج بالجزيرة وغيرها فلم يجبه عن كتاب نصر بن سيار ولم يكن أبو مسلم يومئذ الا في خمسين رجلا فكتب نصر ثانية الى مروان يقول

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالزئدين توري * وان الحرب أولها كلام
لست لم يطفها عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب لبت شعري * أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا حينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام

فلم يرد عليه الجواب ولما علم مروان بخبر ابراهيم الامام وتخلف الناس اليه وتقر بهم منه سير رجلا للقبض عليه ووصف له صفته وهي صفة أبي العباس لأنه كان يسمع أن في الكتب أن من كانت هذه صفته يفتنهم ويسلبهم ملكهم * قال ابن أشعث قال خالد بن يزيد ابن معاوية لعبد الملك بن مروان أما اذا كان الفتق من سجستان فليس عليك منه بأس انما كما تقول لو كان من خراسان يعنى حيث غلب أبو مسلم * وقال محمد بن علي بن عبدالله لنا ثلاثة أوقات موت الطاغية يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتق افرقيقة فعند ذلك يدعولنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيلهم ويستخرجون ما كثر الجبارون اه وقال مروان لرسوله ان اسم الذي قبض عليه ابراهيم بن محمد فلما وصل الرسول أخذ أبا العباس بالصفة التي قال له عنها مروان وقد كان ابراهيم محتفيا فظهر وأمن جانب الرسول فقال جماعة لرسول مروان انك انما أمرت بالقبض على ابراهيم وهذا الذي قبضت عليه عبدالله فأخذ الرسول بتولهم وخلي عن أبي العباس وقبض على ابراهيم فانطلق به الى مروان وتحقق ابراهيم أنه مقتول فنعى نفسه الى أهل بيته وأمرهم بالمسير الى الكوفة مع أخيه أبي العباس عبدالله وبالسمع له والطاعة وأوصى الى أبي العباس وجعله الخليفة بعده فسار أبو العباس بن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة في صفر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهر الكوفة * ولما وصل رسول مروان ومعه ابراهيم دخل به على مروان فقال مروان ليست هذه الصفة التي وصفت لك فقال هذا ابراهيم الذي سميت فأمر به مروان فحبسه وأعاد جماعة آخر في طلب أبي العباس

وكان من تمام حظ أبي مسلم وقوع الخلاف بين الكرماني ونصر عاملي مروان على مروان فسار أبو مسلم النقباء الى طخارستان فما دون بلخ ومرو الروذ والطاقان وخوارزم يدعون الناس الى طاعة بني العباس وقال لهم ان أعجلكم عدوكم دون الوقت بالاذى والمكروه فقد حل لكم أن تدفعوا عن أنفسكم وتجردوا السيوف وتجاهدوا أعداء الله ومن شغله منكم عدوه عن الوقت فلا حرج عليكم أن تظهروا بعد الوقت * وكان قد اشتدت الخلاف بين الكرماني ونصر عاملي مروان وقامت الحرب بينهما وحى وطيسها فاشتدت

عزيرة أبي مسلم وبث دعائه بين الناس وأظهر أمره بالتحاش فأناه في ليلة واحدة أهل ستين قرية فلما كانت ليلة الخميس نجس بقين من رمضان من السنة أي سنة تسع وعشرين ومائة عقد الاسواء الذي كان الامام بعث به الذي يسمونه الظل على ربح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير * ولبسوا السواد هو وسليمان ابن كثير واخوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سفيدنج وأوقدوا النيران ليلتهم تلك لشيعتهم وكانت علامتهم فجمع اليه الناس حين أصبحوا معدّين فقال لهم اني مؤول لكم الظل والسحاب * ان السحاب يطبق الارض وان الارض كما لا تتخلو من الظل كذلك لا تتخلو من خليفة عباسي الى آخر الدهر ففرحوا بمقاتته واشتدت عزائمهم

وقدم على أبي مسلم الدعاء بن أجاب الدعوة فكان أول من قدم عليه أهل التقادم مع أبي الوضاح في تسعمائة راجل وأربعة فرسان ومن أهل هرمز قره جماعة وقدم مع أبي القاسم محرز بن ابراهيم الجوباني ألف وثلاثمائة راجل وستة عشر فارسا ودخلوا جميعا الى معسكر أبي مسلم وهم يصيحون بأصوات التهليل والتكبير وكان أبو مسلم قد عسكر بسفيدنج فلما رأى هذه الجوع فرح بها وحصن حصن سفيدنج ورمه سد دروب سفيدنج ولبث على هذا الحال الى يوم عيد الفطر فأمر أبو مسلم في ذلك اليوم سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة صلاة العيد ونصب له منبرا بالعسكر ورسم له أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة * قال بعض الكتاب وكان بنو أمية يبدؤن بالخطبة قبل الصلاة وبالاذان والاقامة * ورسم له أيضا بست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويقع الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن وكان بنو أمية يكبرون في الاولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات فلما قضى سليمان الصلاة نهض أبو مسلم والشيعة الى طعام قد أعد له فأكوا فرحين مسرورين * ولم يرض الا القليل حتى خرج الكرماني ونصر الى القتال في واقعة يقال لها واقعة الخندقين فاقتلوا قتالا شديدا فلما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثنى صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب الى أصحاب الكرماني يذم أصحاب نصر والى أصحاب نصر يذم أصحاب الكرماني حتى صار هوى الفريقين معه وأقبل حتى نزل بين خندق الكرماني وخندق نصر فهابه الفريقان وبعث الى الكرماني يقول له اني معك ففرح الكرماني بذلك فانضم أبو مسلم اليه فلما علم نصر بذلك أكره جدا وأرسل الى الكرماني يقول ويحك لا تغتر فوالله اني لخائف عليك وعلى أصحابك منه وطال بين الفريقين الاخذ والرد فمال الكرماني الى مقالة نصر وخرج ليكتب كتاب الصلح بينه وبين نصر فأبصر نصر منه غرة فوجه اليه نحو من ثلاثمائة فارس فالتقوا بها واشتد القتال بينهما فظعن الكرماني في حاصرته فخر عن دابته فأخذه وقتلوه وأمر نصر فصلبوا جنته وصلبوا معها سمكة فانضم حينئذ على بن الكرماني بن كان مع أبيه الى عسكر أبي مسلم وقاتلوا نصرا قتالا شديدا وطالت الحرب بين أبي مسلم ونصر بن سيار فكانت

مجالا والدعوة قائمة والاحزاب تكثر واختلفت كلمة العرب وتفرقوا عن قتال أبي مسلم وأصحابه بعد أن كانوا يدا واحدة عليه ثم دخل أبو مسلم الى مرو والقتال قائم فيها بين علي بن الكرماني وأصحابه ونصر بن سيار ومضى أبو مسلم الى قصر الامارة وأرسل الى الفريقين أن كفوا ولينصرف كل فريق الى عسكره فلم يروا بدا من الكف عن القتال وصفت مرو لابي مسلم فأمر بأخذ البيعة من الجند وكان الذي يأخذها أبو منصور طلحة بن رزيق أحد النقباء عالما بمحجج الهاشمية ومعاييب الاموية وكان النقباء اثني عشر رجلا عمدة حوارى المسيح اختارهم محمد بن علي من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله الى خراسان سنة ثلاث ومائة وأربع ومائة * وكانت البيعة أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعناق والمشي الى بيت الله الحرام وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طمعا حتى يتدثركم به ولا تكم

ووردت الاخبار الى أبي العباس بما صار اليه أمر أبي مسلم وكان يومئذ بالجمعة فهم بالمسير منها الى الكوفة فأعلم أهل بيته بعزمه فوافقوه وخرجوا معه وكانوا أخوه أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد أبناء ابراهيم الامام وأعمامه داود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس وما زالوا حتى قدموا الكوفة فلقبهم أبو سلمة الخلال أحد مقدمي شيعتهم فانزلهم دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم وكنم أمرهم عن الناس نحو ما من أربعين ليلة فلم يعلم بهم أحد لامن القواد ولا من الشيعة وكان اذا سئل عن الامام أبي العباس يقول لا تجملوا وكان أبو سلمة يميل الى جعل أمر الخلافة في آل أبي طالب ولكنه كان يرى دون ذلك صعوبات وجعل جماعة من الشيعة يترددون على الامام في مخبئه ويأترون بأمره حتى اتفق جماعة من القواد على أن يلقوا الامام ويتفقوا معه على ما فيه المصلحة والتظهور بعدهما الانكاش فساروا اليه ودخلوا عليه وسلموا عليه بالخلافة وعزوه في أخيه ابراهيم الامام ورجعوا فباؤا ليلتهم تلك وأصبحوا يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الاول فلبسوا السلاح واصطفوا لخروج أبي العباس وأبوا بالدواب فركب أبو العباس وركب من معه من أهل بيته ودخلوا دار الامارة فلبث بها برهة لطيفة ثم خرج الى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم صعد المنبر فقال مقالته التي سيأتي ذكرها في محلها * قيل التقي داود بن علي وابنه موسى بأبي العباس وأهل بيته وهم في طريقهم الى الكوفة فسألهم داود عن خبرهم فقص عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم فقال له داود يا أبا العباس تأتي الكوفة وشيخ بني أمية مروان بن محمد بجزان مظل على العراق في أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد بن هبيرة بالعراق في جنسد العرب فقال يا عمي من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الاعشى

فما مية ان منها غير عاجز * بعار اذا ما عالت النفس غولها

فالتفت داود الى ابنه موسى وقال صدق والله ابن عمك فارجع بنا معه نعش أعزاء
وغوت كرماء فرجعوا جميعا فكان عيسى بن موسى يقول اذا ذكر خروجهم من الجهمية
يريدون الكوفة * ان نفرا أربعة عشر رجلا خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا
لعظمة همتم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم اه وتمت البيعة بعد ذلك لابي العباس علي ما
سيذكر في محله

(المقالة الخامسة)

(في الخلفاء العباسيين وفيها فصول)

(الفصل الاول)

(في خلافة أبي العباس السفاح)

كان أول خلفاء الدولة العباسية السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن
عبد الله بن عباس الهاشمي بويع له بالخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة يوم الجمعة ثالث
عشر ربيع الأول أي سنة تسع وأربعين وأربعمائة ميلادية وصعد المنبر حين بويع له
فقام في أعلاه وصعد محمد بن داود بن علي فقام دونه فتملك أبو العباس فقال الحمد لله الذي
اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا فأيدنا بنا وجعلنا أهله وكهفه
وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها
وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشأنا من آباءنا وأبنائنا من شجرته
واشتقنا من نبعته جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنفنا وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى
عليهم فقال تبارك وتعالى فيها أنزل من محكم كتابه انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل
البيت ويطهركم تطهيرا وقال تعالى قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى وقال وأنذر
عشيرتك الاقربين وقال وما آفأه الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذی القربى
وقال واعلموا انما غنمتم من شئ فان لله خمسة وللرسول ولذی القربى واليتامى فاعلمهم جل
ثناؤه فضلنا وأوجب عليهم حقنا ومودتنا وأجزل من النية والغنمة نصيبنا تكملة لنا وفضلا
علينا والله ذو الفضل العظيم * وزعت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة
والخلافة منا فتاهت وجوههم ولم أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم وبصرهم
بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهرنا الحق ودحض الباطل وأصلح بنا منهم ما كان
فاسدا ورفع بنا الخبيسة وتم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل

التعاطف والبر والمواساة في دنياهم واخوانا على سرر متقابلين في آخرتهم فتح الله ذلك منسة
 وبهجة لمحمد صلى الله عليه وسلم فلما قبضه الله اليه وقام بالامر من بعده أصحابه وأمرهم
 شورى بينهم حووا موارث الامم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا
 نجاصا منها ثم وثب بنو حرب وبنو مروان فابتزوها وتداولوها فخاروا فيها واستاثروا بها
 وظلموا أهلها بما ملأ الله لهم حيناً حتى أسقوه فلما أسقوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا
 حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمتن بنا على الذين استضعفوا في الارض
 وختم بنا كما افتتح بنا واني لارجو أن لا يأتيتكم الجور من حيث جاءكم الخير ولا الفساد من حيث
 جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت الابالله يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا
 أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدرتكم زماننا
 وأنا كم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم عليها وقد زدتمكم في أعطياتكم مائة
 درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المنيع اه وكان موعوكا فاشتد عليه الوعك فجلس على
 المنبر وقام معه داود على مرافق المنبر فقال * الحمد لله شكرا الذي أهلك عدونا وأصار البنا
 ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم * أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا وانكشفت
 غطاؤها وأشرفت أرضها ومساؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبرز القمر من مبرغه وأخذ
 القوس باربها وعاد السهم الى منزعه ورجع الحق في نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة
 والرحمة بكم والعطف عليكم * أيها الناس إنا والله ماخرجنا في طلب هذا الامر لنكثر لجينا
 ولا عقيانا ولا نخفر نهرا ولا نبنى قصرا وإنما أخرجنا الانفسه من ابتزازهم حقنا والغضب
 لبني عمن وما كرهنا من أموركم فلفقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشد علينا
 سوء سيرة بني أمية فيكم واستنزلهم لکم واستثأرهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم
 لكم نعمة الله تبارك وتعالى وندمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وندمة العباس رجه الله علينا
 أن نحمكم فيكم بما أنزل الله ونهل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول
 الله صلى الله عليه وسلم تبا لبني حرب بن أمية وبنو مروان آثروا في مدتهم العاجلة على
 الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الآثام وانتهكوا المحارم
 وغشوا بالجرائم وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد وخرجوا في أعنة المعاصي
 وركضوا في ميدان الغي جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله فأناهم بأس الله بيانا وهم نائمون
 فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعد القوم الظالمين وأدانا الله من مروان وقد غره بالله
 الفرور أرسل لعدو الله في عنائه حتى عثر في فضل خطامه أظن عدو الله أن لن تقدر عليه
 فنأدى حزبه وجع مكايده ورمي بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر
 الله وبأسه ونقته ماأمات باطله ومحا ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد
 الينا حقنا وارثنا * أيها الناس ان أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد الى المنبر بعد
 الصلاة لانه كاره أن يخلط بكلام الجمعة غيره وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك

فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية فقد بدلتم الله مروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع
السفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بآبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين بالشاب
المكتهل المتمهل المقتدى بساقيه الأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم
الهدى ومناهج التقوى * فعج الناس له بالدعاء ثم قال يا أهل الكوفة! نا والله مازلنا مظلومين
مقهورين على حقنا حتى أتانا الله شيعتنا أهل خراسان فأحيابهم حقنا وأبلى بهم حجتنا
وأظهر بهم دولتنا وأراكم الله بهم ما لستم تتظنون فأنظروا فيكم انخليفة من هاشم وبيض
به وجوهكم وأدلكم على أهل الشام ونقل اليكم السلطان وأعز الإسلام ومن عليكم بامام
منحه العدالة وأعطاه حسن الأيالة فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن
أنفسكم فإن الأمر أمركم وإن لكل أهل بيت مصرا وانكم مصرنا الأوانه ما سعد منبركم
هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير
المؤمنين عبد الله بن محمد * وأشار بيده إلى أبي العباس السفاح * واعلموا أن هذا الأمر
فينا ليس بخارج منا حتى نسله إلى عيسى بن مريم عليه السلام والحمد لله على ما أبلانا وأولانا
ثم نزل أبو العباس ومشى داود بن علي أمامه حتى دخل القصر وأجلس أخاه أبا جعفر
المنصور ليأخذ البيعة على الناس في المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم
المغرب وجنهم الليل فدخل القصر ولما تمت له البيعة على وجه ما ذكر أنفذ أخاه المنصور
واليا على الجزيرة وأذربيجان وارمينيا وولى عمه داود المدينة ومكة واليمن واليمامة وولى
ابن أخيه عيسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمه عبد الله وعلى مصر أبو عون بن يزيد
وعلى خراسان والجلال أبو مسلم وجعل عمه سليمان على البصرة وكوردجلة والبحرين وعمان
واستعمل ٤٤ اسمعيل بن علي على الأهواز واشتد في الانتقام من بني أمية وبالغ في تشكيل
من بقي من الذراري ومحا آثارهم وقتل سليمان بن هشام وغيره من كبار القوم الذين كانوا
مع الأمويين باغراء الشريف وكان خصيصة به حيث أنشده يوما هذه الأبيات
لا يغررك ماترى من رجال * ان تحت الضلوع داء دوبا
فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فسوق وجهها أمويا

وقد كان السفاح آمن سليمان بن هشام المذكور * وتطاولت أيدي العباسيين إلى
نبش قبور جميع بني أمية بدمشق وهتكوا حرمة الاموات فلما أتوا إلى قبر هشام وجدوا
جسده صحيحا فأمر بصلبه ثم حرقه بالنار فخرق وأفلت من الأمويين عبد الرحمن بن معاوية
المعروف بالداخل حيث فر هاربا إلى الأندلس وقبلوه وأسس الخلافة الأموية في قرطبة سنة
تسع وثلاثين ومائة هجرية أي نحو سنة ست وخمسين وسبعمائة ميلادية وكان من أمره
وأمر من ملك بعده مالا علاقة لنا به هنا * وقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس جماعة
من بني أمية وألقاهم في الطرق فأكلتهم الكلاب وصارت تطوف بمشاش عظامهم في الأزقة
وأخذ بنو إبراهيم بن محمد والحسين بن علي بن أبي طالب من قاتليهما بالكيل الوافي

ولما قتل مروان بأبي صير بمصر كما تقدم بقيت نساؤه وذراريه بالكنيسة وكان قد وكل بهم خادما وأمره أن يقتلن جميعا اذا هو قتل فلما قتل مروان كبس أصحاب صالح بن علي بن عبد الله بن العباس على من بالكنيسة وأخذوا نساء مروان وبناته وسيروهن الى صالح بن علي فلما دخلن عليه تقدمت ابنة مروان الكبرى فقالت باعم أمير المؤمنين حفظ الله لك من أمرك ما تحب حفظه نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك فليسعنا من عفوك ماوسعك من جورنا فقال والله لأستبقى منكم واحدا ألم يقتل أبوك ابن أخي إبراهيم الامام ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن علي بن الحسين وصلبه في الكوفة ألم يقتل الوليد ابن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ألم يقتل ابن زياد الدعي مسلم بن عقيل ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي وأهل بيته ألم يخرج اليه بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا فأوقفهن موقف السبي ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه فما الذي يحملني على الابقاء عليكن * قالت فليسعنا عفوك فقال أما هذا فنعم وان أحببت زوجتك ابني الفضل فقالت وأي عز خير من هذا بل تلحقنا بحرمان غملمن اليها فلما دخلتها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهن بالبكاء وأكثرن من العويل * وخاف العمال الذين كانوا على عهد بني أمية فتنهم من استأمن ونجلى عن العمالة ومنهم من تحصن وقايل مع أهل عمالته كأبي الورد مجزة بن الكوثر بن زفر بن الحرث الكلابي وكان من أصحاب مروان وقواد عسكره فلما شاع خبر خروجه انضم اليه جماعة كثيرة من أهل قنسرين وأهل حصص وتدمر ومعهم أبو محمد ابن عبد الله بن يزيد بن معاوية فدعوا اليه وقالوا هذا السفيفاني الذي كان يذكر وهم في نحو من أربعين ألفا فعسكروا بمرج الاخرم فسار عبد الله بن علي لقتالهم وكان يقايل حبيب بن مرة المري بالبثنية وحووران فاقتتلوا قتالا شديدا ونبت أبو الورد وأصحابه وقتل من أصحاب عبد الله خلق كثير فاشتد عبد الله في قتال أبي الورد ونبت حتى انهزم أصحاب أبي الورد وانكشف ولم يبق معه الا خمسمائة من فرسانه فقتلوا جميعهم وهرب أبو محمد ومن معه حتى جاؤا تدمر فأمن عبد الله أهل قنسرين ودخلوا تحت الطاعة وبايعوه فرحل عنهم الى دمشق وقد خرج أهلها فلما علموا بحضوره اليهم خافوا وعادوا الى الطاعة فأمنهم ولم يؤاخذهم بما كان منهم * قال أصحاب التاريخ وكان حرب عبد الله وأبي الورد في سلخ ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة

ولما رأى قسطنطين ملك الروم من اختلال الامور وسقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين وعدم استقرار أمرهم نشط الى رد ما أخذه المسلمون من أملاك الروم فجهز جيشا على ملطية وكبح فنانزل كبح أولا وقتلها قتالا عنيفا فهزم من بها من المسلمين شرهزيمة وانقلب على ملطية وراسل أهلها في الاستسلام وانفروج من البلد الى أي بلد أخرى من بلاد المسلمين فلم يقبلوا فنصب المنجنيقات وعزم على الرمي على البلد فاذعنوا وسلوا البلد على الامان وانتقلوا الى بلاد الاسلام وجعلوا ما قدروا على جملة من متاعهم وألقوا ما لم يقدروا على جملة بالآبار

والمجاري وتفرقوا في الجزائر ثم سار ملك الروم الى قاليقلا وحاصرها وفتحها عنوة على يد قائد
جيشه كوشان الارمني وغنم وسبي منها ثم رحل عنها واسترجع صقلية وعمر فيها الحصون
والمعاقل وعززها بمرابط الحرب تطوف بالجزيرة وتذب عنها وتغزو ما تصادفه من مرابط
المسلمين التي تحمل التجارة * ومع هذا كله فقد دانت للسفاح الامور وعلت كفته واستوزر
أبا مسلمة حفصا الخلال وهو أول من لقب بالوزير واستمر اللقب لمن بعده الى زمن صاحب
واستمر الوزراء من بعده على هذا الحال ولما كانت سنة ست وثلاثين ومائة عقد السفاح لآخيه
أبي جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة من بعده وجعله ولي عهد المسلمين ومن بعد أبي جعفر
ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي وجعل العهد في ثوب وخته بخاتمه وخواتيم أهل
بيته ودفعه الى عيسى بن موسى فلم يتم عليه هذا الحول حتى مات بالانبار لثلاث عشرة ليلة
مضت من ذي الحجة وقيل لاثنتي عشرة مضت منه بالجدرى وعمره ثلاث وثلاثون سنة
وقيل ست وثلاثون وقيل ثمان وعشرون فكانت ولايته من وقت قتل مروان الى أن مات
أربع سنين ومن يوم أن بويع بالخلافة الى أن مات أربع سنين وثمانية أشهر وقيل وتسعة
أشهر وقد كان قبل موته يتحول من الحيرة الى الانبار * قال ابن خلكان في ترجمة السفاح ان
السفاح نظر يوما في المرأة وكان من أجل الناس وجها فقال اللهم اني لأقول كما قال سليمان
ابن عبد الملك ولكني أقول اللهم عمرني طويلا في طاعتك متمتعا بالعافية قال فما استم
كلامه حتى سمع غلاما يقول لغلام آخر الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام فتطير من
كلامه وقال حسبي الله ولا حول ولا قوة الا بالله عليه توكلت وبه استعنت فما مضت الايام
المذكورة حتى أخذته حتى فرض ومات بعد شهرين وخمسة أيام بالجدرى بالانبار بالمدينة
التي بناها وسمها الهاشمية وكان أبيض مليحا جميلا حسن اللحية والهيئة قال الامام أبو
الفرج بن الجوزي وغيره ان السفاح خطب يوما فسقطت العصا من يده فتطير من ذلك فقام
رجل من أصحابه ومسح العصا وناولها اياها وأنشد

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما قرعنا بالاياب المسافرس

فسرى عنه وسر بذلك

ومات في أيام السفاح تاودوروس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة
فأقيم بعده ميخائيل وهو سادس أربعينم وأصله من دير بومقار وفي أيام تاودوروس
المذكور خالفت القبط من مدينة رشيد من جور العمال وتسلطهم فقاتلهم عبد الملك بن
موسى بن نصير عامل مصر يومئذ وقاتلوه قتالا عظيما وما زالوا حتى هزمهم وقبض على
ميخائيل البطرك فاعتقله وألزمه بحال كثير فسار بأساقفته في أعمال مصر يسأل أهلها
فوجدتهم في شدة عزيمة وعبودية لانطاق فعاد الى القسطنطينية حيث عبد الملك ودفعه ما حصل
عليه فأفرج عنه ثم لم يلبث أن قبض عليه بعد أيام فلائل وأنزل به بلاء كبيرا وبطش
بالنصارى وأعمل فيهم السيف وأحرقت في هذه الاثناء مصر وجميع غلاتها وأسر كثيرا من

النساء الراهبات ببعض الديارات ونهب ما فيها وخربها تخريبا وراود عبد الملك احدى النساء الراهبات عن نفسها فاحتمالت عليه ودفعته عنها بان رغبته في دهن معها اذا دهن به الانسان جسده لا يعمل فيه السيف ووثقته بان مكنته من التجربة في نفسها فتمت حملتها عليه وأخرجت زيتا ودهنت به نفسها ثم مدت عنقها فضربها عبد الملك بسيفه أطار رأسها فعلم أنها اختارت الموت على الزنا رجها الله وما زال البطرك وبكار القبط في الاعتقال مقيدين بالحديد يتجرعون مريض الشدة وألم الضيق حتى أفرج عنهم في خلافة السفاح أى بعد زوال دولة بني أمية وذهاب ملكهم وظهور الدولة العباسية * وقد خلع السفاح أبا عون عبد الملك المذكور وولى بدله صالح بن علي ثم صرفه وأعاد أبا عون المذكور سنة سبع وثلاثين ومائة للهجرة حيث مات السفاح وموت السفاح قام بالامر بعده أخوه أبو جعفر المنصور

(الفصل الثاني)

(في خلافة أبي جعفر المنصور)

ثم قام بالامر بعد السفاح أخوه أبو جعفر المنصور وهو عبد الله بن محمد المنصور بويج له بالخلافة يوم وفاة أخيه سنة ست وثلاثين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ميلادية بعهد منه وكان السفاح قد ولاه امرأة الخاج فأنته الخلافة بمنزل صفية فقال صفت لنا إسماء الله * وكتب الى أبي مسلم الخراساني يستدعيه فأقبل أبو مسلم عليه فأخبره أبو جعفر بخبر موت السفاح ثم بكى وجزع جزعا شديدا فقال له أبو مسلم ولم هذا الجزع وقد أنتك الخلافة قال أتخوف شر عمي عبد الله بن علي وشعبه علي فقال لا تخفه فأنا أكفيك ان شاء الله فسرى عنه وبياع له أبو مسلم والناس وأقبلا حتى أتيا الكوفة وطبروا الخبر بذلك الى الآفاق وأرسلوا في طلب البيعة الى المنصور فلما جاء الخبر بذلك الى عبد الله بن علي وكان عبد الله يومئذ بدلولك وهى بأفواه الدروب في عسكر الصائفة أمر مناديه أن ينادى الصلاة جامعة فاجتمعوا عليه فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح ثم دعا الناس الى بيعته وقال لهم اعملوا انه لما أراد السفاح أن يوجه الجنود لقتال مروان بن محمد دعا بني أبيه فأرادهم على المسير اليه فقال من انتدب منكم فسار اليه فهو ولي عهدي فلم ينتدب غيري وعلي هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت * وشهد له بعض قواده بذلك فبايعوه ثم سار عبد الله حتى نزل حران وقاتل من بها وضيق عليها وكان أبو جعفر المنصور قد عاد من مكة ومعه أبو مسلم الخراساني فسيره لقتال عبد الله فسار أبو مسلم في جنوده فقاتل عبد الله عند نصيبين خمسة أشهر ورجل أهل الشام حلة رجل واحد على عسكر أبي مسلم فأزالوا صفهم وجالوا جولة فانهمز عسكر أبي مسلم فأمر أبو مسلم مناديا فنادى يا أهل خراسان ارجعوا فان العاقبة لمن اتقى فترجع الناس وارتجز أبو مسلم يومئذ فقال

من كان ينوي أهله فلا يرجع * فتر من الموت وفي الموت وقع

فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين
 ومائة التقوا فافتنلوا فمكر بهم أبو مسلم وأمر أحد قواده أن يعي الميمنة أكثرها إلى اليسرة
 ويترك في الميمنة أشد الجند بأسا فلما رأى ذلك أهل الشام كشفوا مبسرهم وانضموا إلى
 ميمنتهم بإزاء اليسرة أبي مسلم فأمر أبو مسلم أهل القلب فحملوا على من بقى في ميمنته على اليسرة
 أهل الشام فخطموهم فانهمز أصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم فأخذ أصحاب أبو مسلم ما فيه
 وأرسل أبو مسلم الخبر بذلك إلى المنصور وهرب عبد الله إلى البصرة ونزل عند أخيه سليمان
 ابن علي فأقام زمانا محتفيا وأمن أبو مسلم الناس بعد هزيمة عبد الله وكف عنهم فلما علم المنصور
 بما جرى لعبد الله أرسل أبا النضيب إلى أبي مسلم ليكتب ما أصاب من أموال عبد الله فأراد
 أبو مسلم قتله وقال أنا أمين على الدماء خائن في الأموال وشم المنصور فرجع أبو النضيب إلى
 المنصور فأخبره بما جرى له فخاف المنصور من رجوع أبي مسلم إلى خراسان لئلا يفسد عليه
 الأمر فكتب إليه يقول اني قد وايتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه إلى
 مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فاني أحب لقاءك * فلما أتاه الكتاب
 غضب وقال يوليني الشام ومصر وخراسان لى * فكتب الرسول إلى أبي جعفر المنصور بذلك
 وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعا على الخلاف وسار يريد خراسان فانتقل المنصور من الأنبار
 إلى المدائن * قال صاحب الكامل * وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه فكتب إليه أبو
 مسلم وهو بالزاب انه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدوا الا أمكنه الله منه وقد كاد يروى
 عن ملوك آل ساسان ان أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء فخن نافرون عن قريك
 حريصون على الوفاء لك ماوفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها
 السلامة فان أرضالك ذلك فانا كأن حسن عبيدك وان آيت الآن تعطى نفسك ارادتها نقضت
 ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى * فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم قد فهمت
 كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشيشة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب جبل الدولة
 لكثرة جرائمهم فانما راحتهم في انتشار نظام الجماعة فلوسويت نفسك بهم فانت في طاعتك
 ومناصحتك واطلاعتك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريعة
 التي أوجبت منك سمعا واطاعة وحل اليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن اليها
 ان أصغيت وأسأل الله أن يحول بين الشيطان وزغائه وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك
 أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك

فخرج أبو مسلم مراغما وأخذ طريق حلوان فقال المنصور لعمه عيسى بن علي ومن حضر
 من بنى هاشم اكتبوا إلى أبي مسلم فكتبوا اليه يعظمون أمره ويشكرونه ويسألونه أن يتم
 على ما كان منه وعليه من الطاعة ويحذرونه عاقبة البغي ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور
 وبعث المنصور الكتاب مع أبي حميد المروروذى وقال له كام أبا مسلم بألين ماتكم به أحدا

منه وأعلمه أنى رافعه وصانع به مالم يصنعه به أحد ان هو صلح وراجع ما أحب فان أبي أن يرجع فقل له يقول لك أمير المؤمنين است من العباس وانى برى من محمد ان مضيت مشاقا ولم تأتى ان وكأت امرك الى أحد سواى وان لم آل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتمتها حتى أقتاك أو أموت قبل ذلك ولاتقوان هذا الكلام حتى تأس من رجوعه ولاتطامع منه فى خير * قال فسار أبو حميد فقدم على أبي مسلم بجولان فدفع اليه الكتاب وقال له الناس يبلغونك عن أمير المؤمنين مالم يقوله وخلاف ما عليه منك حسدا وبغيا يريدون ازالة النعمة وتغييرها فلا تفسد ما كان منك وكلمه وقال يا أبا مسلم انك لم تزل أمير آل محمد يعرفك بذلك الناس وما ذخّر الله لك من الاجر عنده فى ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك فلا تحبط أجرك ولا يستهوينك الشيطان * فقال له أبو مسلم متى كنت تكلمنى بهذا الكلام فقال انك دعوتنا الى هذا الأمر والى طاعة أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بنى العباس وأمرتنا بقتال من خالف ذلك فدعوتنا من أرضين متفرقة وأسباب مختلفة فجاءنا الله على طاعتهم وألف ما بين قلوبنا وأعزنا بنصرنا لهم ولم نلق منهم رجلا الا بما كذب الله فى قلوبنا حتى أتيناهم فى بلادهم ببصائر نافذة وطاعة خالصة أفتريد حين بلغنا غاية منانا ومنتهى أملنا أن نفسد أمرنا وتفرق كلمتنا وقد قلت لنا من خالفكم فاقتلوه وان خالفكم فاقتلونى فأقبل أبو مسلم على أبي نصر مالك بن الهيثم فقال أما تسمع ما يقول لى هذا ما كان بكلامه يا مالك قال لاتسمع قوله ولا يهولك هذا منه لعمري ما هذا كلامه ولما بعد هذا أشد منه فامض لامرك ولا ترجع فوالله لئن أتيتيه ليقتلنك ولقد وقع فى نفسه منك شئ لا يأمرك أبدا ثم شاور أبو مسلم غيره من أصحابه فأشاروا عليه بأن لا يذهب الى أبي جعفر المنصور وأن ينزل الرى ويقيم بها فان استقام له المنصور استقام هو له أيضا وان أبي المنصور كان أبو مسلم فى جنده بالرى فدعا أبا حميد فقال له ارجع الى صاحبك فليس من رأى أن أتيتيه وقد عزمت أن لا أعود اليه أبدا فلما يئس من رجوعه معه قال له ما أمره به أبو جعفر المنصور فوجم طويلا ثم قال قم وقد أخذته الخوف وأوجس من المنصور الشر * وكان المنصور قد كتب الى أبي داود خليفة أبي مسلم بخراسان يقول له ان لك امره خراسان مادمت على قيد الحياة فكتب أبو داود المذكور الى أبي مسلم يقول ما هذا لانا لم نخرج لمعصية خلفاء الله فى أرضه وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلا تخالفن امامك ولا ترجعن الا باذنه * واتفق وصول كتاب أبي داود ليد أبي مسلم وهو على تلك الحال مع رسول أبي جعفر المنصور فزاده خوفا وهما فأرسل الى أبي حميد فقال له اعلم انى كنت عازما على المسير الى خراسان ولكنى عدلت عن ذلك حتى أوجه أبا اسحق الى أمير المؤمنين فىأتينى برأيه فان أبا اسحق بمن أنقوبه فلما تمثل بين يدى المنصور أحله وقال له اصرف أبا مسلم عن وجهه ولك منى ولاية خراسان وأجازه فانصرف أبو اسحق وقال لأبى مسلم ما أنكرت قط شيا وما رأيت بنى هاشم الامعظمين لحقك يرون لك ما يرون لانفسهم وما زال به حتى حجب اليه الشخصوص الى حيث أمير المؤمنين والاعتذار اليه مما كان

منه فلما قصد المسير قال له نيزك أحسد قواده هل أجمعت على الشخوص الى أمير المؤمنين
قال نعم وتمثل

ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الاقوام

فقال له نيزك هذا ما اختاره الله تعالى لك واحفظ عني واحدة اذا دخلت عليه فاقتله
وبايع من شئت فان الناس لا يخالفونك * وسار أبو مسلم قاصدا الخليفة في ثلاثة آلاف رجل
واستخلف أبا نصر في عسكره وقال له أقم حتى يأتيك كتابي فان كان محتوما بنصف ختم فأنا
الذي كتبته وان أتاك بخاتم كامل فلم أكتبه فلما علم أبو أيوب وزير المنصور بقدم أبي مسلم
خاف منه ومن أصحابه وخشى انهم يقتلون المنصور ثم يقتلونه هو أيضا فدبر الحيلة على اغتيال أبي
مسلم قبل أن يتمكن من الفتك بالخليفة وبه فدعا سلمة بن سعيد بن جابر وقال له تأتي أبا مسلم فتلقاه
وتكلمه في أن يعطيك كسكر اقطاعا اذا ولده أمير المؤمنين عند قدومه جميع ما وراء بابه فان أمير
المؤمنين على عزم أن يوليه ذلك ويربح نفسه فقال حتى يأذن لي أمير المؤمنين فأذن له المنصور
وأمره أن يبلغ سلامه وشوقه الى أبي مسلم فسار اليه سلمة ولقيه في الطريق وأخبره الخبر فطابت
نفس أبي مسلم وزال عنه الخوف والغم فلما وصل تلقاه بنوهانم والناس ثم قدم فدخل على المنصور
فقبل يده وأمره أن ينصرف ويروح نفسه لثلاثة فانصرف فلما كان الغد دعا المنصور عثمان
ابن نهمك وأربعة من الحرس منهم شبيب بن واج وأبو حنيفة حرب بن قيس قال صاحب
الكامل فرسم لهم بقتل أبي مسلم اذا صفق بيده وتركهم خلف الرواق وأرسل الى أبي مسلم
يستدعيه وكان عنده عيسى بن موسى يتعدى فدخل على المنصور فقال له المنصور أخبرني
عن نصلين أصبتهما مع عبدالله بن علي فقال أبو مسلم هذا أحدهما قال أرنيسه فانضاه وناوله
إياه فوضعه المنصور تحت فراشه وأقبل عليه يعاتبه وقال له أخبرني عن كتابك الى السفاح تنهاه
عن الموات أردت أن تعلمنا الدين فقال ظننت أن أخذه لا يحل فلما أتاني كتابه علمت انه أهل
بيت معدن العلم قال فأخبرني عن تقدمك اباي بطريق مكة قال كرهت اجتماعنا على الماء
فيضرب ذلك بالناس فتقدمت للرفق قال فقولك لمن أشار اليك بالانصراف الى بطريق مكة
حين أتاك موت أبي العباس الى أن تقدم فترى رأينا ومضيت فلا أنت أقت حتى ألحقك ولا
أنت رجعت الى قال منعني من ذلك ما أخبرتك من طلب الرفق بالناس وقلت تقدم الكوفة
وليس عليك من خلاف قال بخارية عبد الله أردت أن تأخذها فقال لا ولكني خفت أن
تضيع حملتها في قبسة وركت بها من يحفظها قال فمن أرفقتك ونحروك الى خراسان قال
خفت أن يكون قد دخلك مني شيء فقلت آتى الى خراسان فاكتب اليك بعذري فأذهب ما في
نفسك قال فالمال الذي جمعته بخراسان قال أنفقته بالجند تقوية لهم واستصلاحا قال
ألسن الكاتب التي تبدأ بنفسك وتخطب عني آمنة ابنة علي وترزعم أنك ابن سليط بن عبدالله
ابن عباس لقد ارتقيت لا أم لك مرتقي صعبا ثم قال وما الذي دعاك الى قتل سليمان بن

كثير مع أثره في دعوتنا وهو أحد قتياننا قبل أن يدخلك في هذا الامر قال أراد الخلاف
وعصاني فقتلته

فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم لا يقال هذا إلى بعد بلائي وما كان مني فقال له
المنصور يا ابن الخبيثة والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت انما علمت في دولتنا وبريحتنا فلو
كان ذلك اليك ما قطعت قتيلا * فعند ذلك أخذ أبو مسلم بيد المنصور وجعل يقبلها ويعركها
ويعتذر اليه فقال له المنصور ما رأيت كالذي اليوم والله ما زدتنني الا غضبا فقال أبو مسلم دع هذا
فقد أصبحت ما أخاف الا الله تعالى فغضب المنصور وقال له قتلني الله ان لم أقتلك ثم صفق
بأحدى يديه على الاخرى فخرج اليه القوم وخبطوه بسيوفهم والمنصور يصيح اضربوه قطع
الله أيديكم * وكان أبو مسلم قد قال عند أول ضربة استبقيني بأمر المؤمنين لعدوك قال لا
أبقاني الله أبدا ان أبقيتك وأتى عدو أعدى منك * وكان قتله يوم الخميس لخمس بقين من شعبان
سنة سبع وثلاثين ومائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وسبعمائة ميلادية * ولما قتل
أبو مسلم أمر المنصور فأدرجوه في بساط فدخل على المنصور جعفر بن حنظلة فقال له ما تقول
في أمر أبي مسلم فقال يا أمير المؤمنين ان كنت أخذت من رأسه شعرة فاقتل ثم اقتل ثم اقتل
فقال المنصور وفقك الله ها هو في البساط فلما نظر اليه قتيلا قال يا أمير المؤمنين عد هذا
اليوم أول خلافتك فأنشد المنصور

فألفت عصاها واستقر بها النوى * كما قرعنا بالاياب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم طرح بين يده وأنشد

زعمت أن الدين لا ينقضى * فاستوف بالكيل أباحجرم

اشرب بكا من كنت تسقى بها * أمر في الخلق من العلقم

ثم كتب أبو جعفر المنصور بعد قتل أبي مسلم الى أبي نصر مالك بن الهيثم الذي استخلفه
أبو مسلم في عسكره كما تقدم بأمره على لسان أبي مسلم بنقل الاثقال وما خلف عنده وأن
يقدم وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم فلما رأى الخاتم تأما علم أن أبا مسلم لم يكتب فقال
فعلموها ثم اتحدروا الى همدان يريد خراسان فكتب المنصور لابن نصر عهده على شهر زور
وكتب الى زهير بن التركي وهو على همدان ان مر بك أبو نصر فأحبسه فسبق الكتاب الى
زهير وأبو نصر في همدان فلما وصل أبو نصر قال له زهير قد صنعت لك طعاما فلو أكرمتني
بدخول منزلي فأجابه الى ذلك فقبض عليه زهير وحبسه ثم خلى عنه لما رأى عهد أمير
المؤمنين معه * ولما قتل المنصور أبا مسلم خطب الناس فقال * أيها الناس لا تخرجوا من
أنس الطاعة الى وحشة المعصية ولا تمسوا في ظلمة الباطل بعد سعيكم في ضياء الحق ان
أبا مسلم أحسن مبتدئا وأساء معقبا وأخذ من الناس نبا أكثر مما أعطانا ورجح قبيح باطنه
على حسن ظاهره وعلمنا من خبث سريره وفساد نيته ما لو علمه اللأم لنا فيه لعذرنا في قتله
وعنفنا في امهالنا وما زال يتقض ببعثته ويخوف ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه

فكنا فيه حكمه لنا في غيره ولم يمنعنا الحق له من امضاء الحق فيه وما أحسن ما قال النابغة
الذي ياني للنعمان

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته * كما أطاعك وأدله على الرشيد

ومن عصاك فمأقبه معاقبة * تنهى الظلم ولا تقعد على ضميد

وقد تقدم الكلام على أبي مسلم المذكور بما فيه الكفاية ونقول هنا أيضا أنه كان طاغية
داهية جبارا ذا رأى وعقل وتدبير * قيل أنه خطب يوما فقام إليه رجل فقال ما هذا السواد
الذي أرى عليك فقال على الفور حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه
وسلم دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء وهذه ثياب الهيمية وثياب الدولة بأغلام
أضرب عنقه فضرب عنقه فأطاحها * قتل في أيامه ستمائة ألف نفس صبوا ماعدا من قتل
في الحروب * ولم يرض على قتل أبي مسلم إلا القليل حتى خرج رجل اسمه سنياد من خراسان
يريد الأخذ بثأر أبي مسلم فكثرت جوعه وكان عامتهم من أهل الجبال فسار بهم إلى نيسابور
فغلب عليها وعلى قومس والري وقتل وسبا وتسمى فيروز اصبهند وأخذ خزائن أبي مسلم من
الري وكان قد تركها بها عند ذهابه إلى المنصور فسار إليه المنصور عسكريا كبيرا مع جمهور بن
مرار العجلي فالتقوا بين همدان والري وعزم جمهور على مطاولته لكثرة لمومه فأمر سنياد فحملوا
السبائب من النساء المسلمات على الجمال فلما رأين عسكر المسلمين صحن وقن في الحامل ونادين
والمحمدا ذهب الاسلام وبينهما هما على هذا الصباح والعيوب والنداء على عسكر المسلمين إذ
ارتفعت ريح ووقعت في أتوابهن فنقرت الابل وعادت على أعقابها إلى عسكر سنياد فانفشلوا
وتفرقوا وكان ذلك سبب الهزيمة وتبع المسلمون الابل ووضعوا السيوف في أصحاب سنياد
فقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وسبوا نساءهم وذراتهم ثم قتل سنياد بين طبرستان
وقومس

ولما كانت سنة أربع وأربعين ومائة ظهر أمر محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن
ابن الحسين بن علي بن أبي طالب بالمدينة فأهتتم المنصور بأمر محمد حيث أعلموه بأن محمدا
كان يزعم أن المنصور ممن بايعه بالخلافة يوم تشاور بنو هاشم بمكة فممن يعقدون له الخلافة
حين اضطرب أمر مروان بن محمد فخافه المنصور وخشى عاقبة ظهوره وشدد في طلبه
ووكل أمر البحث عنه لجماعة من رقيق الأعراب فخرجوا في طلبه في ظهر المدينة واستعمل
المنصور كل حيلة ودهاء في طلب ابني عبد الله فأدرك عبد الله فحبسه وضيق عليه وزل محمد
في بني راسب بالبصرة فعلم المنصور بخبره فسار إليه فرحل محمد عن البصرة قبل وصول
المنصور إليها فرجع المنصور واشتد خوف محمد وإبراهيم ابني عبد الله وضائق الدنيا عليهما
فخرجتا حتى أتيا عدن ثم سارا إلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة فكان إذا ظهر محمد
بين الناس صاحوا وهلوا وقالوا هاهو المهدي وكان إذا أرسل المنصور في طلبه اختفى فكتب
للنصور إلى محمد بن خالد بن عبد الله القسري وقد ولاه المدينة أن يكشف المدينة وأعراسها

في طلب محمد فطاف بيوت الناس وكبس على من بها فلم يجده محمدًا فخلعه المنصور واستعمل رباح بن عثمان بن حيان المري مكانه وألزمه بالقبض على اخي عبد الله فخذ رباح في طلبهما وشدد فأخبر أن محمدًا في شعب من شعاب رضوى جبل جهينة من أعمال ينبع فرسم الى عامله هناك بطلب محمد فلما أحس محمد بذلك هرب على الاقدام وكان معه ولد صغير ولد له وهو في الهرب وجارية له أيضا فسقط ولده المذكور من الجبل عند ما هم بالهرب فتقطع فيكي عليه وأنشد

مخزق السربال يشكو الوجي * مسكنه أطراف مرّ وحداد

شرده الخسوف فأزرى به * كذلك من يكره حرّ الجلال

قد كان في الموت له راحة * والموت حتم في رقاب العباد

وما زال رباح يجتد في الطلب وينفق الاموال الطائلة للعيون والارصاد حتى قبض على جميع بني الحسين وقيدهم بالحديد وكان محمد قد بعث بابنه عليّ الى مصر يدعو اليه الناس فقبض عليه عامل مصر وشيعة الى المنصور فاعترف له وأخبره باسماء أصحاب أبيه فأمر به فقبضه وبقي محبوسا الى أن مات المنصور * وقتل المنصور أكثر بني الحسن صبوا ولم يظفر بمحمد فلما كانت سنة خمس وأربعين ومائة ظهر محمد بالمدينة في جمع من أصحابه فكسر أبواب السجن وأخرج من به وقبض على رباح وأخيه عباس وابن مسلم بن عقبة المري فحبسهم في دار الامارة ثم خرج الى المسجد فصعد على المنبر فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه * قال صاحب الكامل * ثم قال أما بعد فانه قد كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندا لله في ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وانما أخذ الله فرعون حين قال * أنار بكم الاعلى * وان أحق الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين والانصار المرأسين اللهم انهم لأحلوا حرامك وحرموا حلالك وأتمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت اللهم فأحصبهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا * أيها الناس اني والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسي والله ما جئت هذه وفي الارض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذ لي فيه البيعة اه

واستولى محمد على المدينة واستعمل عليها عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير ومال اليه الناس واستفتوا مالك بن أنس في الخروج مع محمد وقالوا ان في أعناقنا بيعة لابن جعفر المنصور فقال انما بايعتم مكرهين وليس على مكره بين فأمرع الناس الى محمد ثم تفرق بعضهم لما سمعوا عن اسمعيل بن عبيد الله بن جعفر بن أبي طالب وكان شيخا كبيرا انه يقول ان محمدا مقتول لامحالة قيل ففدس له محمد من قتله * فلما ظهرت كلمة محمد بالمدينة أخذ المنصور في التأهب لقتاله وشاور أصحاب الرأي في أمره فحسنوا له التجميل في الخروج اليه وأخذ فكتب اليه المنصور يقول * بسم الله الرحمن الرحيم * انما جزاء الذين يحاربون الله

ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض الآتين * ولك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله أن تؤمنك بجميع ولدك واخلوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الخواصج وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من في حبسى من أهل بيتك وأن تؤمن كل من جاءك وبائعك واتبعتك أو دخل في شيء من أمرك ثم لا أتبع أحدا منهم بشيء كان منه أبدا فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه الى من أحببت يأخذ لك منى الامان والعهد والميثاق وما تتوثق به والسلام * فلما وصل الكتاب الى محمد كتب اليه يقول طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * الى يحذرون * وأنا أعرض عليك من الامان مثل ما عرضت على فان الحق حقنا وانما ادعيتم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيعتنا وحظيتم بفضله فان أبانا عليا كان الوصى وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ثم قد علمت انه لم يطلب الامر أحد مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آباؤنا لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء وليس ميت أحد من بنى هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل وإنما بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الاسلام دونكم ان الله اختارنا واختار لنا فولدنا من النبيين محمد أفضلهم ومن السلف أولهم اسلاما على ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى الى القبلة ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء العالمين وأهل الجنة ومن المولودين في الاسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد حسنا مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل حسن وحسين وانى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أباً لم نعرف في العجة ولم تنازع في أمهات الاولاد فما زال يختارلى الآباء والامهات في الجاهلية والاسلام حتى يختارلى في الاشرار فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة وأهونهم عذابا في النار ولك الله على ان دخلت في طاعتي وأجبت دعوتى أن تؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته الاحدا من حدود الله أوحقنا لمسلم أومعاهد فقد علمت ما يلزمنى من ذلك وأنا أولى بالامر منك وأوفى بالعهد لانك أعطيتنى من الامان والعهد ما أعطيته رجالا قبلى فأى الامانات تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم * قال صاحب الكامل فلما ورد كتابه يعنى كتاب محمد على المنصور قال له أبو أيوب اليزيدى دعنى أجبه عليه قال لا اذا تقارعتنا على الاحساب فدعنى وإياه ثم كتب اليه المنصور * بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك فاذا جعلت فخرك بقرابة النساء لتفضل به الحفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والاولياء لان الله جعل الم أبابداً به في كتابه على الوالدة الدنيا ولو كان اختار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رجاء وأعظمهن حقاً وأولى من يدخل الجنة ولكن اختار الله نخلقه على علمه فيما مضى منهم

واصطفائه لهم وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها فإن الله لم يرزق أحدا من
 ولدها الاسلام لابنتا ولا ابنا ولو أن رجلا رزق الاسلام بالقرابة لرزقه عبد الله ولكان أولاهم
 بكل خير من الدنيا والآخرة ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ولقد بعث الله
 محمدا صلى الله عليه وسلم وله عمومة أربعة فأئزله الله عز وجل * وأئذ عشرينك الاقربين
 فأئذهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبي وأبي اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه
 ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولائمه ولا ميراثا * وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن
 خير الاشرار وليس في الكفر بالله صغير ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير وليس في الشر
 خيار ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب
 ينقلبون * وأما أمر حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك
 مرتين خير الاولين والاخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلدته هاشم الا مرة ولا عبد
 المطلب الا مرة * وزعمت أنك أوسط بنى هاشم وأصرحهم أما وأبا وانه لم يلدك العجسم ولم
 تعرف فيك أمهات الاولاد فقد رأيتك نخرت على بنى هاشم طرا فانظر ويحك أين أنت من
 الله غدا فانك قد تعدت طورك ونفرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولادا وأخا ابراهيم
 ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وماخير بنى أبيك خاصة وأهل الفضل منهم الابنوامهات
 الاولاد ما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علي بن الحسين وهو لام
 ولد ولهو خير من جدك حسن بن حسين وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي وجدته أم ولد
 ولهو خير من أبيك ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد وهو خير منك * وأما قولك انكم بنو
 رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى يقول في كتابه ما كان محمد أبأ أحد من رجالكم
 ولكنكم بنو بنته وانها لقرابة قريبة ولكنها لايجوز لها الميراث ولا ترث الولاية ولا يجوز لها
 الامامة فكيف تورث بها واقدم طلبها أبوك بكل وجه فأخرج فاطمة نهارا ومرضاها سرا ودفنها
 ليلا فأبى الناس الا الشيطان ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها من المسلمين أن الجد أبا
 الام وانحال وانخاله لا يورثون * وأما ما نخرت به من علي وسابقته فقد حضرت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذه وكان
 في الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ولم يروا له حقا فيها * وأما عبد الرحمن فقد قدم عليه
 عثمان وهو له منهم وقاتله طلحة والزبير وأبي سعد بيعته فأغلق بابيه دونه ثم بايع معاوية بعده
 ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفترق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبل الحكومة ثم حكم
 حكيمين رضى بهما وأعظاهما عهد الله وميثاقه فاجتمعا على خلعه ثم كان حسن فباعها من
 معاوية بخرق ودرهم وطلق بالبخار وأسلم شيعته بيد معاوية ورفع الامر الى غير أهله وأخذ مالا
 من غير ولايته ولا حله فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم منه ثم خرج عمك حسين على
 ابن مرجانة فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه اليه ثم خرجتم على بنى أمية فقاتلوكم
 وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد

بجمراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وجلوهم وطاء في المحامل كالسبي الجلوب الى الشام حتى خرجنا عليهم فطلبنا بتأركم وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أراضهم وديارهم وسيننا سلفكم وفضلناه فانخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا انما ذكرنا أبالك لتقدمة ما له على حجة والعباس وجعفر وايس ذلك كما ظننت ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين متسلا منهم مجتمعا عليهم بالفضل وابتلى أبوك بالقتال والحرب وكانت بنو أمية تلغنه كما تلغن الكفرة في الصلاة المكتوبة فاحتججنا وذكروناهم فضله وصفاته وظلمناهم بما نالوا منه فلقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحاج الاعظم وولاية زحزم فصارت للعباس بين اخوته فنازعنا فيها أبوك ففضى لنا عليه عمر فلم نزل نلها في الجاهلية والاسلام ولقد خط أهل المدينة فلم يتوسل عمر الى ربه ولم يتقرب اليه الا بأينا حتى يعيثنهم الله فسقاهاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسلوا به ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره فكانت وراثته من عمومته ثم طلب هذا الامر غير واحد من بني هاشم فلم ينله الا ولده فالسقاية سقايته وميراث النبي له والخلافة في ولده فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا اسلام في الدنيا والآخرة الا والعباس وارثه ومورثه وأما ما ذكرت من بدر فان الاسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ويتفق عليهم للارزاق التي أصابته ولو أن العباس أخرج الى بدر كارها لمات طالب وعقيل جوعا وللحساجفان عتبة وشيبة ولكنه كان من المطعنين فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤنة ثم فدى عقيل يوم بدر فكيف تفخر علينا وقد غلبناكم في الكفر وفديناكم وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الانبياء وطلبنا بتأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لانفسكم والسلام عليكم ورحمة الله اه فلم يرد عليه محمد ثم سير أبو جعفر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى لقتال محمد بن عبد الله المذكور بالمدينة واستخضعه في ذلك وشدد عليه فقال عيسى شاور عمومك يا أمير المؤمنين ثم قال فأين قول ابن هرثة

نزور امرأ لا يخض القوم سره * ولا ينجي الاذنين عما يحاول

اذا ما أتى شياً مضى كالذي أتى * وان قال انى فاعل فهو فاعل

فقال المنصور امض أيها الرجل فوالله ما يراد غيرى وغيرك وما هو الا أن تشخص أنت أو أنخص أنا فسار وسير معه الجنود فلما صار عيسى بن موسى على قيد أربعة أميال من المدينة رتب عسكره وأرسل الى محمد بن عبد الله بأمان أبي جعفر المنصور ان هو أطاع وانكف عما هو فيه فأبى محمد الطاعة وبرز عيسى بن موسى بعسكره للقتال وكذلك محمد بن عبد الله فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فمفرق أكثر أصحاب محمد بن عبد الله حتى لم يبق معه الا رهء ثلثمائة رجل وذهب عيسى بن حضير وهو من أصحاب محمد فأحرق السجل الذي فيه أسماء الذين بايعوا محمدا خوفا من وقوعه في يد عيسى بن موسى اذا هو دخل المدينة بعسكره وجعل محمد يقاتل عن بقى معه حتى ضربه أحد أصحاب عيسى بن موسى دون شحمة أذنه

البيئي فبرك لركبته وجعل يذب عن نفسه ويقول ويحكم ابن نبيكم يجرح مظلوم قطعنه
ابن فطحبة في صدره فصرعه ثم نزل اليه فأخذ رأسه وأتى به عيسى وهو لا يعرف من هو لكثرة
الدماء فأرسل عيسى الرأس الى المنصور مع محمد بن أبي الكرام بن عبد الله بن علي بن عبد
الله بن جعفر بن أبي طالب فأمر المنصور فطيف برأس محمد في الكوفة وسيره الى الآفاق
وكان قتل محمد المذكور في يوم الاثنين بعد العصر لاربعة عشرة خلت من شهر رمضان وكان
محمد هذا يلقب بالمهدي وبالنفوس الزكية ورثاه هو وأخاه عبد الله بن مصعب بن ثابت
بهذه القصيدة

يا صاحبي دعا الملامة واعلمها * أن لست في هذا بألوم منكبا
وقفا بقبر للنبي فسلمها * لأبأس أن تقفأ به وتسلمها
قبر تضمن خير أهل زمانه * حسبا وطيب سجية وتكرما
رجل نبى بالعدل جور بلادنا * وعفا عظيمات الامور وأنما
لم يجتنب قصد السبيل ولم يحد * عنه ولم يفتح بفاحشة فما
لوأعظم الحدان شيئا قبله * أحدا لكان قصاره أن يسلمها
ضحوا بإبراهيم خير ضخمة * فتصومت أيامه فتصمرما
بطلا يخوض بنفسه غمرانه * لاطائشار عشا ولا مستسلمها
حتى مضت فيه السيوف وربما * كانت حتوفهم السيوف وربما
أضحى بنو حسن أبج حريمهم * فينا وأصبح نهمهم متقسما
ونسأوهم في دورهن نوائح * سجع الحمام اذا الحمام ترغا
يتوصلون بقتله ويرونه * شرفا لهم عند الامام ومغنا
والله لو شهد النبي محمد * صلى الاله على النبي وسلمها
اشراع أمته الاسنة لابنه * حتى تقطر من طبائهم دما
حقا لأيقن أنهم قد ضيعوا * تلك القرابة واستحلوا المحرما

ولما قتل محمد أنصب عيسى بن موسى بعض الألوية بالمدينة ونادى مناديه من دخل
تحت لواء منها فهو آمن ثم أخذ أصحاب محمد فصلهم ما بين ثنية الوداع الى دار عمر بن عبد
العزيز صفين وبقوا على هذا الحال ثلاثا فأمر بهم عيسى فألقوهم على مقابر اليهود ثم بعد
ذلك في خندق في أصل ذباب وزال عن أبي جعفر المنصور ما كان يلاقيه من خروج محمد
ابن عبد الله

وخرجت في خلافة المنصور أيضا الراوندية وهم قوم من خراسان على مذهب أبي مسلم
كانوا يقولون بالتناضح ويزعمون أن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك وان ربهم الذي
يقيمهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور فلما ظهوروا وأتوا الى قصر المنصور في سنة احدى
وأربعين ومائة للهجرة أى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة لليلاد قالوا هذا ربنا نجس المنصور

رؤساءهم وكانوا نحو مائتين فهاجوا وماجوا وأخذوا نعشا وحملوه ومشوا به كأنهم يشيعون جنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب السجن وأخرجوا أكبرهم ثم طلبوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل فتنادى الناس وأغلقت الابواب ووقع خوف عظيم وخرج المنصور ماشيا واجتمع عليه خلق كثير وكان معن بن زائدة مستخفيا خوفا لانه كان حارب مع ابن هبيرة الشيباني فظهر وحارب الراوندية بين يدي المنصور فعفا عنه وكان ذلك يوم استئصال الراوندية وقطع دابرهم * وكره المنصور بعد واقعة الراوندية الاقامة بالهاشمية فدلوه على أن تكون اقامته على نهر الفرات ليكون متوسطا ما بين البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وتكون دجلة والفرات خنادق مدينته فوقع اختياره على مكان اسمه بغداد ومعناه بستان دار واستشار المنجمين في اختيار وقت البناء فأخبروه فوكل البناء لأربعة من القواد وأمر أن يكون عرض أساس القصر من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا ووضع بيده أول لبنة وهو يقول باسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * ثم قال ابنوا على بركة الله وأمر بابوان كسرى فنقض ونقل الى المدينة الجديدة ونقضت شرفة من القصر الابيض فوجد أنه يلزم لنقض ذلك أكثر من كلفة الجديد فعدل عن ذلك فتمت على أحسن مثال ويوارد اليها السكان من العراقيين والشام والجزيرة والحجم والعرب ومصر وغيرها وسُميت دار السلام ثم تحول المنصور عن مدينة أبي هبيرة الى بغداد مدينته الجديدة ونقل أبواب مدينة واسط اليها وخلع ابن أخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد وبايع لابنه محمد المهدي بعد أمور أضربنا عن ارادها هنا صفحا

وظهر في أيامه رجل ادعى النبوة اسمه استاذيس في جهة خراسان فاجتمع اليه نحو ثلثمائة ألف مقاتل من أهل هراة وباذغيس وسجستان فسار اليه الاجشم عامل مرو وروذ في عسكر فقاتل الاجشم وأصحابه وتتابع القواد في هجماته حتى هزمهم شرهزيمة فبعث المنصور وهو بالراذان خازم بن خزيمه الى المهدي في اثني عشر ألفا فولاه المهدي حربه فزحف عليه في عشرين ألفا وبعد قتال شديد تقوى المسلمون عليه وقتلوا من عسكره نحو سبعين ألفا وأسروا نحو أربعة عشر ألفا وأسرا استاذيس المذكور وبنوه وتفرق الباقيون من قومه قيل ان استاذيس هذا هو أبو مراحيل أم المأمون وابنه غالب خال المأمون وهو الذي قتل الفضل بن سهل * ثم خرج المنصور قاصدا الحج في سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة أي سنة أربع وسبعين وسبعمائة للميلاد فخرج ولده المهدي معه ليودعه فقال له * يا بني اني أهجس بالموت ولا أدري اذا كنا نجتمع بعد هذا فاني ولدت في ذى الحجة ووليت في ذى الحجة وأخشي أن أموت في ذى الحجة من هذه السنة واني لذلك عزمت على الحج والآن أوصيك بمخاض وما أظنك تفعل واحدة منها * وكان له سفظ قيل ان فيه أوراق عمه وعليه قفل لا يفتح غيره فقال للمهدي انظر الى هذا السفظ فاحتفظ به فان فيه علم آباءك ما كان وما هو كائن الى يوم القيامة

فان أحنك أمر فانظر في الدفتر الكبير فان أصبت فيه ما تريد والا فني الثاني حتى بلغ سبعة
 فان نقل عليك فالكراسة الصغيرة فانك واجد فيها ما تريد وما أظنك تفعل * وانظر هذه المدينة
 وياك أن تستبدل بها غيرها وقد جمعت لك فيها من الاموال ما انكسر عليك الخراج عشر
 سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصحة البعوث فاحتفظ بها فانك لاتزال عزيزا
 مادام بيت مالك عامرا وما أظنك تفعل * وأوصيك بأهل خراسان خيرا فانهم أنصارك
 وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن
 اليهم وتجاوز عن سيئهم وتكافئهم عما كان منهم وتختلف من مات منهم في أهله وولده وما
 أظنك تفعل * وياك أن تبني مدينة الشرقية فانك لاتم بناءها وأظنك ستفعل * وياك أن
 تستعين برجل من بني سليم وأظنك ستفعل * وياك أن تدخل النساء في أمرك وأظنك
 ستفعل * فاتق الله فيما أعهد اليك من أمور المسلمين بعدى يجعل الله لك مخرجا في كربك
 ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لاتحسب * يا بني احفظ محمدا صلى الله عليه وسلم
 في أمته يحفظك الله ويحفظ عليك أمورك * وياك والدم الحرام فانه حوب عند الله عظيم
 وعار في الدنيا لازم مقيم والزمن الحدود فان فيها خلاصك في الآجل وصلاحك في العاجل
 ولاتعتد فيها فتمبور فان الله تعالى لو علم أن شيئا أصلح منها لدينه وأزجر عن معاصيه لأمر به في
 كتابه * واعلم أن من شدة غضب الله لسultanه أنه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على
 من سعى في الارض فسادا مع ماذخره من العذاب العظيم فقال انما جزاء الذين يحاربون الله
 ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا . الآية . فالسلطان حبل الله المتين
 وعروته الوثقى ودينه القيم فاحفظه وحصنه وذبح عنه وأوقع بالمخدين ولقع المارقين منه وقابل
 الخارجين عنه بالعقاب ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن واحكم بالعدل ولا تشطط فان
 ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدو وأنجع في الدواء وعف عن النية فليس بك اليه حاجة مع
 ما خلفه لك واقترح بصله الرحم وبر القرابة وياك والاثرة والتبديد لاموال الرعية واشحن الثغور
 واضبط الاطراف وأمن السبيل وسكن العامة وأدخل المرافق عليهم وادفع المكراه عنهم وأعد
 الاموال واحزها فان الثواب غير مأمونة وهي من شيم الزمان وأعد الاكراع والرجال والجند
 ما استطعت وياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فتمتدرك عليك الامور وتضيع وجد في احكام
 الامور النازلات في أوقاتها أولا فأولا واجتهد وثمر فيها وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون في
 النهار ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل وبأشر الامور بنفسك ولا تضجر ولا تنكسل واستعمل
 حسن الظن وأسئ الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من تثبت على بابك وسهل
 أذنك للناس وانظر في أمر النزاع اليك وكن بهم عينا غير نائمة ونفسا غير لاهية ولا تم فان
 أباك لم ينم منذ ولي الخلافة ولا دخل عينه الغمض الاوقله مستيقظ * هذه وصيتي اليك والله
 خليقتي عليك * ثم ودعه وبكى وبكى ولده المهدي * وسار المنصور فاشتدت به علته وأدركته
 منيته ببئر ميمونة محرما بمرضه وهو القيام وذلك في ذي الحجة وهو ابن ثلاث وستين سنة فسكانت
 خلافته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما وأمه بربرية وكان طويلًا

أمير خفيفا خفيف اللحية رحب الجبهة وكان عينيه لسانان ناطقان صارمان مهيبا ذا جبروت
وسطوة وحزم ورأى وشجاعة وكال عقل ودهاء وعلم وفقه وخبرة بالامور

قيل ولما قرب من مكة في حجه التي مات فيها رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت * سنوك وأمر الله لا بد واقع

أبا جعفر هل كاهن أو منجم * لك اليوم من ريب المنية دافع

فلما قرأها تبين فراغ أجله قيل فمات بعد ثلاثة أيام وقيل غير ذلك والله سبحانه

وتعالى أعلم

ومات في أيامه خائل بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثلاثا وعشرين سنة فاقم بعده

مينا وهو سابع أربعمهم وفي أيام مينا هذا اشتمت الولاة والعمال على القبط وضيقوا عليهم

وساموهم الخسف فخرج منهم جماعة بناحية سخا وأخرجوا العمال وطردوا أرباب الجباية

وذلك سنة سبعين وسبعائة للبلاد أي سنة خمسين ومائة للهجرة فبعث اليهم يزيد بن حاتم

ابن قبيصة أمير مصر إذ ذلك عسكرا عظيما فأتاهم القبط ليلا وقتلوا منهم عدة كثيرة وهزموا

باقية شر هزيمة وشردهم فاشتد البلاء بأسباب ذلك على النصارى في الأقاليم القبلية والبحرية

وزادوا في التضييق عليهم حتى احتاجوا الى أكل الميتة والجيف وهدمت جميع الكنائس

بمصر فكان منها كنيسة العذراء التي بجوار أبي شنودة بمصر وهدمت أيضا كنائس محارب

قسطنطين فبذل أهل البلاد اسليمان بن علي أمير مصر يومئذ في تركها خمسين ألف دينار

قأبي فلما ولي بعده موسى بن عيسى أذن لهم في بناءها فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد

وعبد الله بن لهيعة قاضي مصر يومئذ واحتجا بأن بناءها من عمارة البلاد وبأن الكنائس

التي بمصر لم تبني الا في الاسلام في زمن الصحابة والتابعين * واستعمل جعفر المنصور في أيامه

على مصر موسى بن كعب التيمي بعد ولاية أبي عون التي كانت الى سنة احدى وأربعين

ومائة فأقام موسى المذكور سبعة أشهر ومات وولى بعده محمد بن الأشعث الخزازي ثم عزل

سنة اثنتين وأربعين وولى نوفل بن الفرات ثم عزل نوفل وولى بعده حميد بن قحطبة الطائي

ثم صرف سنة أربع وأربعين وولى يزيد بن حاتم المهلبى فأقام الى سنة اثنتين وخمسين فعزل

وولى محمد بن سعيد فأقام الى أن استخلف المهدي فعزله في سنة تسع وخمسين ومائة * ولما

مات أبو جعفر المنصور ولى الخلافة بعده محمد المهدي ابنه

(الفصل الثالث)

(في خلافة محمد المهدي)

ثم قام بالامر بعد أبي جعفر المنصور ابنه أبو عبد الله محمد المهدي بالله بويعل له بالخلافة يوم

مات أبوه المنصور بعهد منه وهو يومئذ ببغداد ثم بويع له البيعة العامة بها الاحدى عشرة
 خلت من ذى الحجة سنة ثمان وخسين ومائة للهجرة أى نحو سنة أربع وسبعين وسبعماية
 لبيسلا * قال صاحب الكامل ذكر على بن محمد النوفلى عن أبيه قال خرجت من البصرة
 حاجا فاجتمعت بالمنصور بذات عرق فكنت أسلم عليه كلما ركب وقد أشقنى على الموت فلما
 صار بيتر ميمونة نزل به ودخلنا مكة فقضيت عسرتى وكنت أخطف الى المنصور فلما كان في
 الليلة التى مات فيها ولم نعلم صليت الصبح بمكة وركبت أنا ومحمد بن عون بن عبد الله بن
 الحرث وكان من مشايخ بنى هاشم وساداتهم فلما صرنا بالابطح لقينا العباس بن محمد ومحمد
 ابن سليمان فى خيل الى مكة فسلمنا عليهما ومضينا فقلت لمحمد أحسب الرجل قد مات فكان
 كذلك ثم أتينا العسكر فاذا موسى بن المهدي قد صدر عن عود السرادق والقاسم بن المنصور
 فى ناحية السرادق وسمعنا منهما بكاء وخرج أبو العنبر خادم المنصور مشقق الاقبية وعلى
 رأسه التراب وصاح وا أمير المؤمنين فأتى أحد الاقمام ثم تقدموا ليدخلوا عليه فغصهم الخدم
 وقال ابن عياش المنتوف سبحان الله أما شهدتم موت خليفة قط اجلسوا وجلسوا وقام القاسم
 فشق ثيابه ووضع التراب على رأسه وموسى على حاله ثم خرج الربيع وفى يده قرطاس ففحصه
 فقرأه فاذا فيه * بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين الى من خلف
 من بنى هاشم وشيعته من أهل خراسان دعائه المسلمين ثم بكى وبكى الناس ثم قال قد أمكنكم
 البكاء فانصتوا رحمة الله ثم قرأ * أما بعد فانى كتبت كتابي هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام
 الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة أقرأ عليكم السلام وأسأل الله أن لا يفتنكم بعسدي
 ولا يلبسكم شيئا ولا يذيق بعضكم بأس بعض * ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى واذ كرهم
 البيعة له وحثهم على الوفاء بعهده * ثم تناول يد الحسن بن زيد وقال قم فبايع فقام الى
 موسى فبايعه الناس الاول فالاول ثم أدخل بنو هاشم على المنصور وهو فى أكفانه مكشوف
 الرأس فحملناه حتى أتينا به مكة ثلاثة أميال قال فكأننى أنظر اليه والريح تحرك شعير
 صدغيه وذلك أنه كان وفر شعره للعلق وقد فصل خضابه حتى أتينا به حفرة وكان أول
 شئ ارتفع به على بن عيسى بن ماهان أن عيسى بن موسى أبى من البيعة فقال على بن عيسى
 ابن ماهان والله لتبايعن أو لاضربن عنقك فبايع ثم وجه موسى بن المهدي الى المهدي بنجر
 وفاة المنصور وبالبيعة له مع منارة مولى المنصور وبعث أيضا بالقضيب والبردة وبخاتم الخلافة
 وقدم الخبير مع منارة فى منتصف ذى الحجة فبايعه أهل بغداد * قال بعض أهل التاريخ
 ان الربيع كتم موت المنصور وألبسه ثيابه على أحسن ما كان يلبس وأسندته وجعل
 على وجهه كفة خفيفة يرى شخصه منها ولا يفهم حاله وأدخل أهله عليه وأدناهم منه ثم قرب
 منه هو (أى الربيع) كأنه يخاطبه ثم رجح اليهم وقال لهم أمير المؤمنين يقول لكم
 جددوا البيعة الى المهدي فبايعوه ثم أخرجهم ولم يلبث أن خرج اليهم بايكا مشقق الجيب
 لاطما رأسه وهو يصيح وا أمير المؤمنين فعملوا بأن أمير المؤمنين مات * قالوا فلما بلغ ذلك

المهدي أنكروه على الربيع وقال أما منعتك جلالة أمير المؤمنين أن تفعل به ما فعلت وضربه *
 وقال آخرون لم يضح ضربه * ولما استقر بالمهدي الخلافة تقرب منه جماعة من بني هاشم
 وشدوا أزره وكلموه في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة لموسى الهادي بن
 المهدي ووافقته شعبة المهدي على ذلك أيضا فسر المهدي هذا الأمر وأعجبه جدا وكتب إلى
 عيسى بن موسى بالقدوم وهو بقربة الرحبة من أعمال الكوفة فأحس عيسى بالذي يراد
 منه فامتنع من القدوم فسير المهدي روح بن حاتم إلى الكوفة وولاه عمالها وأمره أن
 يتصرف في عيسى بن موسى ويضربه فلم يجد روح سببا للاضرار به لانه كان لا يأتي من القرية
 إلى الكوفة الا نادرا وألح المهدي على عيسى انك ان لم تجيئني الى أن تخلع نفسك من ولاية
 العهد لموسى وهرون استخالت دمك بعصيتك ما يستحل من أهل المعاصي وان أجبتني عوضتك
 منها ما هو أجدي عليك وأجمل نفعا * فلم يقدم عليه وخاف انتقامه فوجه إليه المهدي
 عمه العباس بن محمد برسالة وكتب يستدعيه فلم يحضر معه فلما عاد العباس وجه إليه المهدي
 أبا هريرة محمد بن فروخ القائد في ألف من أصحاب المهدي المنتسبين له وجعل مع كل واحد
 منهم طبلا وأمرهم أن يضربوا طبولهم جميعا عند ما يدخلون القرية التي بها عيسى فوصلوا
 إليها يحركوا وضربوا طبولهم تخاف عيسى واضطرب اضطرابا شديدا ودخل عليه أبو هريرة
 وأمره بالشخص معه فاعتسل بالشكوى فلم يقبل منه وأخذ معه وأزله دار محمد بن سليمان
 في عسكر المهدي فأقام أياما يأتي فيها إلى المهدي فلا يكلمه بشيء ولا يرى ما يروعه
 واتفق أنه حضر الدار يوما قبل حضور المهدي فجلس في مقصورة للربيع وقد اجتمع
 شعبة رؤساء المهدي على خلعه فناروا به وهو في المقصورة فأغلق الباب دونهم فضربوا الباب
 بالعمد حتى كسروه وشتوا عيسى أفجج الشتم وجاء المهدي إلى مجلسه فأظهر انكارا لما فعلوه
 فلم يرجعوا فبقوا على هذا الحال أياما إلى أن كلمه في ذلك أهل بيته وألح عليه المهدي فأبى
 وقال ان عليه أعيانا في أهله وماله فأحضره من القضاة والفقهاء عدة فافتوه بما رأوا فأجاب
 إلى خلعه نفسه فأعطاه المهدي عشرة آلاف ألف درهم وضياعه بالزاب وكسكر فكان خلعه
 لنفسه لاربع بقين من المحرم وبابيع للمهدي ولابنه موسى الهادي ثم جلس المهدي من الغد
 وأحضر أهل بيته وأخذ يبعثهم ثم خرج إلى الجامع وعيسى معه وخطب الناس وأعلمهم
 بخلع عيسى والبيعة للهادي ودعاهم إلى البيعة فسارع الناس إليها وأشهد على عيسى
 بالخلع * قال صاحب الكامل * فأنشد في ذلك بعض الشعراء
 كره الموت أبو موسى وقد * كان في الموت نجاة وكرم
 خلع الملك وأضحى ملبسا * ثوب لوم ماترى منه القدم
 ولما دانت للمهدي الامور وتم له ما أراد من البيعة للهادي تفرغ للغزو والجهاد فأرسل في
 سنة تسع وخسين ومائة عبد الملك بن شهاب المسمي في جمع كثير من الجنود والمتطوعة إلى
 بلاد الهند فركبوا البحر من فارس ونزلوا بأرض الهند وفتحوا با يزيد عنوة فلجأ أهلها إلى

البلد فأحرقوه عليهم ثم أصاب المسلمين يومئذ وباء عظيم فرجع من بقي منهم وبرجوعهم عصفت بهم الرياح عند ساحل حوران فكسرت جميع سفنهم ولم ينج إلا النزر اليسير وتجهز أيضا لحرب الروم في سنة اثنتين وتسعين وسبعائة للميلاد أى سنة ثلاث وستين ومائة للهجرة وجمع عسكره من خراسان ونحوها وقام الى البندنون وترك والده موسى ببغداد وأخذ معه هرون الرشيد ثم سمع وهو في طريقه أن بحلب من الزنادقة شئ كثير فعرج اليها وأقام بها أياما فجمع سائر من بها من هذه الطائفة وقتلهم وأحرق كتبهم ثم نهض الى جيجان وجيش ولده هرون الرشيد للغزو فتغلغل هرون في البلد وفتح وأنحضع وظفر وغنم وعاد بالغنائم * وظهر في هذا الحين رجل اسمه يوسف ادعى الولاية واستغوى خلقا كثيرا وظهر أيضا بوشيا وادعى النبوة فبعث اليه المهدي جيشا عظيما وأتى به بعد قتال فصلبه ثم ظهر المقنع الخراساني واسمه عطاء وكان رجلا غريبا قيل انه خيسل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس عن بعد شاسع نحو شهرين فتبعه خلق كثير جدا فأرسل اليه المهدي جيشا وما زال يقاتله والحرب بينهم سجال حتى قتله وقد أشار ابن سينا الى ما كان يصنع المذكور فقال

اليك فابدر المقنع طالعا * بأسحر من الخاظ بدرى المعجم

قيل وتعالى المقنع فادعى الربوبية واستمال جماعة وكان يقول بالحلول الالهى في الانبياء كلهم الى أن حل فيه فأنسعت كلمته وطارت شهرته وكبرت هيئته وعمر قلعة تسمى بسيام وقيل تكس بما وراء النهر من رستاق كش وتمحصن بها وكان يقول بالتناسخ فاجتمع اليه أصحاب المهدي وحصروه في قلعته وشددوا في الحصار أياما كثيرة فلما يئس من نفسه سقى نساءه سما فتن ثم تناوله بنفسه فمات ودخل العسكر قلعته وقتلوا من بها من أصحابه بحد السيف قال بعض الكتاب وبعد أن تناول السم رعى بنفسه الى النار خوفا من أن العدو يلقى جسده وتبعه جنده فصارت القلعة خالية خاوية وكانت فعلته هذه سببا في زيادة افتتان من بقي من شيعته بما وراء النهر حتى قالوا انه صعد الى السماء وكان قبل ذلك قد أعلمهم بأن روحه ستحول الى هيكل رجل أشمط على برذون أشهب وانه يعود اليهم ويملكهم سائر المعمور من الارض فكانوا ينتظرونه وهم يعرفون الى ذلك الحين (بالمبيضة) وكان المقنع المذكور في بداية أمره قصارا من أهل كاوه من أعمال مرو وكان مشوه انطلق قصيرا أعور اتخذ له برقا من الذهب فكان لا يسفر عن وجهه أبدا ولذلك سمي بالمقنع وكان المهدي مولعا باللهو ويأذن بالشرب في حضرته فنهاه عن ذلك وزيره يعقوب ابن داود بن طهمان فألقاه في السجن فقال فيه بشار بن برد

بنى أمية هبوا طال نومكم * ان الخليفة يعقوب بن داود

صاعت خلافتكم باقوم فالتمسوا * خليفة الله بين الناي والعود

وبقي يعقوب مسجوننا الى خلافة الرشيد فأخرجه وقد عى فلقى بمكة وقتل المهدي

بشارا المذكور لقوله هذين البيتين وهو أول من رتب البريد بين مكة والمدينة واليمن من بغال
وابل

ومات المهدي بقرية من قرى ماسبذان وذلك أنه ساق خلف صيد فدخل خربة فدق
ظهره باب الخربة من قوة سوق الفرس فتلف لوقته * وقيل بل سمته جاريته حسنة وذلك أنه
خرج يريد الهادي بجرجان فلما بلغ ماسبذان عمدت حسنة جاريته الى كثرى فأهدتها الى
جارية أخرى كان المهدي يحبها وكانت سميت كثرة منها وهي الاطيب فر المهدي وكان
يحب الكثرى فأخذ تلك الكثرة المسمومة وأكلها فصاح من وقته جوفى جوفى فسمعت
حسنة وجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول قصدت أن أنفرد بك فقتلتك ومات من يومه
وقيل في موته غير ذلك وهو أنه لما خرج الى ماسبذان كان يريد خلع ابنه موسى الهادي
والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديعه على الهادي فبعث اليه وهو بجرجان في أن يخلع نفسه
فأبى فبعث اليه في القدوم عليه فضرب الرسول وامتنع فسار المهدي يريده فلما بلغ ماسبذان
أكل طعاما ثم قال انى داخل الى البهو أنام فلا توظونى حتى أكون أنا الذى أنتبه فدخله
فنام ونام أصحابه فاستيقظوا بيكائه فأتوه مسرعين فقال وقف على الباب رجل فقال

كأنى بهذا القصر قد باد أهله * وأوحش منه ربهه ومنازله

وصار عيد القوم من بعد بهجة * وملك الى قبر عليه جنادله

فلم يبق الا ذكره وحديثه * تنادى عليه معولات حلاله

فبقى بعد ذلك عشرة أيام ومات * ويحكى أيضا أنه لما هم المهدي بالخروج الى ماسبذان
قدم الى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت الى طوفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوى
وكان رئيس المنجمين تقول أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فحشمنا سفرا لم يكن
في الحساب فمجل الله موتك وأراحنا منك فلما بلغت الرسالة قال للجارية ارجعي اليها وقولي
لها ان هذه الاشارة ليست منى وأما دعاؤك على تهجيل الموت فهذا الشئ قد قضى الله به
وموفى سريع فلا توهمى أنه بدعوتك ولكن أعدى لنفسك ترابا كثيرا فاذا مت أنا فاجعليه
على رأسك * قيل فما زالت متوقعة تأويل قوله هذا الى أن مات المهدي بعد عشرين
يوما * قال أبو الفرج وكان طوفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من
مذاهب النصارى وله كتاب في التاريخ حسن ونقل كتاب أوميروس الشاعر على فتح مدينة
ايايون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بأبلغ ما يكون من العبارات اه

وكان موت المهدي لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة للهجرة أى نحو سنة
خمس وثمانين وسبعمائة للميلاد ولم يوجد له نعش يحمل عليه حمل على باب ودفن تحت
شجرة جوز وله اثنتان وأربعون سنة ونصف وقيل ثلاث وأربعون سنة وكانت خلافته عشر
سنين وشهرا وكان جوادا ممدوحا محبا للريعية حسن الخلق والخلق يقال ان أباه خلف في
الخرائن مائة ألف درهم وستين ألف ففرقها ويقال انه أجاز شاعرا بمائة ألف درهم

واستعمل في أيامه على مصر بعد عزله محمد بن سعيد في سنة تسع وخمسين أبا ضمرة محمد بن سليمان كذا في تاريخ ابن كثير وأما الجزائر فقتل انه ولي بعد يزيد بن حاتم عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التميمي ثم ولي بعده أخوه فأقام سنة وشهرين ثم ولي بعده موسى ابن علي اللخمي سنة خمس وخمسين فأقام الى سنة احدى وستين ثم ولي عيسى بن اللخمي ثم ولي واضح مولى المنصور سنة اثنتين وستين ثم صرف من عامه وولى منصور بن يزيد المجبري ثم ولي بعده يحيى بن داود أبو صالح الخراساني ثم ولي سالم بن سواده التميمي سنة أربع وستين ثم ولي ابراهيم بن صالح العباسي سنة خمس وستين ثم ولي موسى بن كعب مولى ختم ثم ولي الفضل بن صالح العباسي سنة تسع وستين وهي السنة التي مات فيها المهدي كما تقدم ومات في خلافة المهدي مينا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان سنين فأقاموا بعده يوحنا وهو ثامن أربعمسم وأصله من نبا وأبو صير وكان راهبا بدير أبو مقار * وفي أيامه خرج القبط بناحية بلهيت فبعث اليهم موسى بن علي أمير مصر يومئذ جندا فقاتلهم وطال القتال بينهم أياما ثم سكنت الفتنة وعاد العمال الى مجاملتهم خوف اشتداد الفتنة فعادوا الى ما كانوا عليه من الطاعة والسكون وكان في أيام يوحنا هذا من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الرابع)

(في خلافة موسى الهادي)

ثم قام بالامر بعد محمد المهدي ابنه موسى الهادي بوبيع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة تسع وستين ومائة هجرية أي سنة خمس وثمانين وسبعمائة ميلادية وكان مقبلا بجزيرة يحارب أهل طبرستان وكان الرشيد مع المهدي بماسذان فسار منها الى بغداد بالجند وأرسل أحد القواد الى الهادي بالخاتم والقضيب والتعزية والتنشئة * فلما جاء الخبر الى الهادي نادى في عسكره بالرحيل وركب هو على البريد مجتهدا فبلغ بغداد في عشرين يوما فتلقيه الناس وبأيعوه وكتب الى الاتاق بوقاة المهدي والبيعة له واستوزر الربيع وجعل يتصرف في الامور فلم يرض على خلافته حول كامل حتى ظهر الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة * قال صاحب الكامل * وكان سبب ذلك أن الهادي استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فلما وليها أخذ أبا الزنت حسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ومسلم بن جندب الشاعر الهذلي وعمر بن عبد السلام مولى آل عمر على نبيذ لهم فأمر بهم فضربوا جميعا وجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة فجاء الحسين بن علي الى العمري وقال له قد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لان أهل العراق لا يرون به بأسا فلم تطوف بهم فأمر بهم فردوا وحبسهم ثم ان الحسين بن

عليّ ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلا الحسن بن محمد فأخرجه العمري من الحبس وكان
 قد ضمن بعض آل أبي طالب بعضا وكانوا يعرضون فغاب الحسن بن محمد عن العرض يومين
 فأحضر العمري الحسين بن عليّ ويحيى بن عبد الله وسألهم عنه وأغظ لهما حلف له يحيى
 أنه لا ينام حتى يأتيه به أو يدق عليه باب داره حتى يعلم أنه جاء به فلما خرجا قال له الحسين
 سبحان الله مادعنا إلى هذا ومن أين تجرد حسنا تحلف له بشيء لا تقدر عليه فقال والله
 لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال له الحسين ان هذا يتقض ما كان بيننا وبين
 أصحابنا من الميعاد وكانوا قد واعدوا عليّ أن يظهرنا وبني وعكة في الموسم فقال يحيى قد كان
 ذلك فانطلقا وعملا في ذلك من ليلتهم وخرجوا في آخر الليل وجاء يحيى حتى ضرب عليّ العمري
 باب داره فلم يجده وجاءوا فاقحموا المسجد وقت الصبح فلما صلى الحسين وقت الصبح أتاه
 الناس فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه للترضى من آل محمد وجاء خالد البريدي في مائتين من
 الجند وجاء العمري ووزير بن اسحق الازرق ومحمد بن واقد الشروى ومعهم ناس كثير فذنا
 خالد منهم فقام اليه يحيى وادريس ابنا عبد الله بن الحسن فضربه يحيى على أنفه فقطعه
 ودار له ادريس من خلفه فضربه فصرعه ثم قتلاه فانهمز أصحابه ودخل العمري في المسوذة
 فعمل عليهم أصحاب الحسين فهزموهم من المسجد وانتهوا بيت المال وكان فيه بضعة عشر
 ألف دينار وقيل سبعون ألفا وتفرق الناس وأغلق أهل المدينة أبوابهم فلما كان الغد اجتمع
 عليهم شيعة بني العباس فقاتلوهم وفشت الجراحات في القريتين واقتتلوا إلى الظهر ثم افرقوا
 ثم ان مباركا التركي أتى شيعة بني العباس من الغد وكان قدم حاجا فقاتل معهم فاقتتلوا أشد
 قتال إلى منتصف النهار ثم تفرقوا ورجع أصحاب الحسين إلى المسجد وواعد مبارك الناس
 في الرواح إلى القتال فلما غفلوا عنه ركب راحله وانطلق وراح الناس فلم يجده فقاتلوا
 شيئا من قتال إلى المغرب ثم تفرقوا وقيل ان مباركا أرسل إلى الحسين يقول له والله لأن أسقط
 من السماء فخطفتني الطير أسرع عليّ من أن تشوكك شوكة أو أقطع من رأسك شعرة ولكن
 لا بد من الاعذار فيبتني فاني منهزم عنك فوجه اليه الحسن وخرج اليه في نفر فلما دنوا من
 عسكريه صاحوا وكبروا فانهمز هو وأصحابه وأقام الحسين وأصحابه أياما يتجهزون فكان مقامهم
 بالمدينة أحد عشر يوما ثم خرجوا است بقين من ذى القعدة فلما خرجوا عاد الناس إلى المسجد
 فوجدوا فيه العظام التي كانوا يأكلون وآثارهم فدعوا عليهم ولما فارق المدينة قال بأهل
 المدينة لأخلف الله عليكم بخير فقالوا بل أنت لأخلف الله عليك ولاردك علينا وكان
 أصحابه يحدوثون في المسجد فغسله أهل المدينة * ولما أتى الحسين مكة أمر فتودى أياما عبد
 أانا فهو حر فاتاه العبيد فانتهى الخبر إلى الهادي وكان قد حج تلك السنة رجال من أهل
 بيته منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن عليّ والعباس بن محمد بن عليّ وموسى
 واسماعيل ابنا عيسى بن موسى فنكتب الهادي إلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب
 وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لحوف الطريق فاجتمعوا بنى طوى وكانوا قد

أحرموا بعمره فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وأحلوا من العمرة وعسكروا بنى طوى وانضم اليهم من حج من شيعتهم ومواليهم وقوادهم ثم انهم اقتتلوا يوم التروية فانهزم أصحاب الحسين وقتل منهم وجرح وانصرف محمد بن سليمان ومن معه الى مكة ولا يعلمون ما حال الحسين فلما بلغوا ذا طوى لحقهم رجل من أهل خراسان يقول البشري البشري هذا رأس الحسين فأخرجه ويجهته ضربة طولى وعلى قفاه ضربة أخرى وكانوا قد نادوا الامان بخاء الحسن بن محمد بن عبد الله أبو الزنت فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد فأخذه موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس بن محمد فقتلاه فغضب محمد بن سليمان غضبا شديدا وأخذ رؤس القتلى فكانت مائة رأس ونيفا وفيها رأس الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وأخذت أخت الحسين فتركت عند زينب بنت سليمان واختلط المنهزمون بالحاج وأتى الهادي بستة أسرى فقتل بعضهم واستبقى بعضهم وغضب علي موسى بن عيسى في قتل الحسن بن محمد وقبض أمواله فلم تزل بيده حتى مات وغضب علي مبارك التركي وأخذ ماله وجعله سائس الدواب فبقى كذلك حتى مات الهادي * وأقلت من المنهزمين ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي فأتى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن المنصور وكان شيعيا لعلي فحمله على البريد الى أرض المغرب فوقع بأرض طنجة بمدينة ولسلة فاستجاب له من بها من البربر فضرب الهادي عنق واضح وصلبه وقيل ان الرشيد هو الذي قتله وان الرشيد دس الى ادريس الشماخ اليمامي مولى المهدي فأناه وأظهر أنه من شيعتهم وعظمه وآثره على نفسه فمال اليه ادريس وأنزله عنده ثم ان ادريس شكا اليه مرضا في أسنانه فوصف له دواء وجعل فيه سما وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر فأخذه منه وهرب الشماخ ثم استعمل ادريس الدواء فمات منه فولى الرشيد الشماخ بريد مصر * قال أصحاب التاريخ وولد لادريس المذكور ولد جاءت منه الدولة الادريسية ثم المغربية ثم المهديية ثم المرابية عند بناء مراکش وكان تأسيسها في سنة ثلاث وستين وأربعمائة هجرية أى نحو سنة سبعين وألف ميلادية

ولما وضع رأس الحسين بين يدي الهادي قال كأنكم قد جئتم برأس طاغوت من الطواغيت ان أقل ما أجزىكم أن أحرمكم جوائزكم فلم يعطهم شيئا * وكان الحسين شجاعا كريما قدم على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها في الناس ببغداد والكوفة وخرج من الكوفة لايملك ما يلبسه الا قروا ليس تحته قميص * ولما فرغ الهادي من قتال الحسين وأصحابه ودانت له الامور حسد في خلع هرون الرشيد والبيعة لابنه جعفر فوافقه على ذلك جماعة من قواده وجعلوا يعيبون الرشيد وينقصونه في مجالسهم وأمر الهادي أن لا يسار بين يدي الرشيد بالحربة فاجتنبه عند ذلك الناس وتركوا السلام عليه وكان الذي يتولى أمور الرشيد بأمر الهادي يحيى بن خالد بن برمك فخوفوا الهادي منه وقالوا ان الذي يفسد عليك أمرك انما هو يحيى لا هرون فبعث اليه الهادي يتهدده ثم استدعاه ليلة فخاف وأوصى

وتحنط وتغل بين يديه فقال له يا يحيى مالى ولك قال ما يكون من العبيد الى مولاه الا طاعته
 فقال لا تدخل بينى وبين اخى وتفسد على فقال من انا حتى ادخل بينكما انما صيرنى المهدي
 معه ثم امرتني انت بالقيام بأمره فانتهيت الى امره فسكر غضب الهادي وقد كان هرون
 اذعن نخلع نفسه فغنه يحيى فلما أحضره الهادي وكلمه في خلع هرون قال له يا امير المؤمنين
 انك ان جلت الناس على نكث الایمان هانت عليهم ايمانهم وان تركتهم على بيعة اخيك ثم
 بايعت بلعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة فقال الهادي صدقت يا يحيى وسكت عنه فلم يرض
 بذلك القواد والشيعة الذين بايعوه وعادوا فحملوا الهادي على معاودة الرشيد بالنخلع فقبض على
 يحيى بن خالد وحجسه فأرسل اليه يحيى يقول عندي نصيحة فأحضره بين يديه فقال له يا امير
 المؤمنين رأيت ان كان الامر لا يباعه ونسأل الله ان يعدنا قبله * يريد بذلك موت الهادي
 * أظن الناس يسلمون الخلافة بلعفر وهو لم يبلغ الخلفاء أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزاهم
 قال ما أظن ذلك فقال يا امير المؤمنين أفتأمن ان يسموا اليها كبار أهلك مثل فلان ويطمع
 فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك والله لو أن هذا الامر لم يعقده المهدي لأكخيك لقد كان ينبغي
 ان تعقده أنت له فكيف بأن يحمله عنه وقد عقده المهدي ولكني أرى ان تقر الامر على
 أخيك فاذا بلغ جعفر أنت بالرشيد نخلع نفسه له وبإيعه فقبل قوله وقال له نهيتني الى امر
 لم أتبه له وأطلقه ثم ان القواد عاودوا القول في خلع الرشيد فأرسل الهادي الى الرشيد في
 ذلك وشدد وضيق فقال يحيى للرشيد استأذن أمير المؤمنين في الخروج الى الصيد فاذا خرجت
 فابعده ودافع الايام ففعل فأذن له فمضى الى قصر بني مقاتل فقام أربعين يوما ثم استدعاه
 فتمل فشد في طلبه فحضر ثم خرج الهادي الى حديقة الموصل فمرض بها واشتد مرضه
 فلما ثقل أجمع جميع القواد الذين كانوا بايعوا جعفرا على قتل يحيى بن خالد ولكنهم عدلوا
 عن ذلك وخافوا من الهادي ان تراجعته اليه صحته ولم تطل أيام مرض الهادي حتى مات
 في ربيع الاول سنة سبعين ومائة هجرية فكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وقيل كانت أربعة
 عشر شهرا وكان عمره ستا وعشرين سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ودفن بعيساباذ الكبرى
 في بستانه * قيل ان وفاته كانت من قبل جوار لامة الخيزران كانت أمرتهن بقتله وكان سبب
 ذلك أنه لما ولي الخلافة جعلت تستبد بالامر حتى مضى أربعة أشهر فتزاحم الناس على
 بابها وكانت المواكب تغدو وتروح الى بابها فكلمته يوما في حاجة لم يجدها الى اجابته اليها
 سبيلا فقالت لا بد من اجابتي فقال والله لا قضيتها لك قالت اذن والله لا أسألك حاجة أبدا
 قال لا أبالي والله فغضبت وقامت فقال مكانك والله والا أنا نفي من قرابتي من رسول الله صلى
 الله عليه وسلم لئن بلغني انه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتي لاضر بن عنقه ولا قبض
 ماله ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكر لك أو
 بيت يصونك اياك واياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي فانصرفت وهي لا تعقل من الغيظ فوضعت
 جواربها عليه لما مرض فقتلته بالغم والجلوس وقيل بل مات بقرحة في جوفه * وكان طويلا

جسيما أبيض مشربا بحمرة وكان بشسفته العليا نقص وتقلص وكان أبوه قد وكل به خادما يقول له موسى أطبق فيضم شفته فلقب لذلك موسى أطبق * وكان شديدا جدا على الزنادقة أصحاب ماني فأعمل فيهم القتل والتشريد والصلب بوصية من أبيه المهدي وذلك أنه قال له يوما يا بني إذا صار الأمر اليك فجزد لهذه العصاة يعني أصحاب ماني فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللعوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخرة الظلمة ثم تبيع بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطرق لتنفذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرّد السيف فيها وتقرب بامرها إلى الله فاني رأيت جدي العباس رضي الله عنه في المنام قلدي سيفين لقتل أصحاب الاثنين * فلما ولي الهادي أعمل فيهم القتل وأمر أن يهيا له ألف جذع ليرفع عليها كل من يأتون به من أصحاب ماني فمات ولم يدرك منشوده واستعمل على مصر في خلافته علي بن سليمان العباسي في سنة تسع وستين بعد عزله للفضل بن صالح العباسي ثم ولي موسى بن عيسى العباسي فبقي إلى أن مات الهادي في سنة سبعين ومائة كما تقدم القول

(الفصل الخامس)

(في سلافة هرون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد الهادي أخوه هرون الرشيد بن محمد المهدي وكان أبوهما قد أخذ لهما ولاية العهد معا كما هو ببيعة له بالخلافة في الليلة التي مات فيها أخوه في ربيع عشر ربيع الأول سنة سبعين ومائة هجرية أي سنة ست وعشرين وسبعائة ميلادية وله من العمر اثنتان وعشرون سنة وكان مولده بالري وولد له في تلك الليلة المأمون فكانت ليلة عجيبة لم ير مثلها في بني العباس وذلك لأنه مات فيها خليفة وولد خليفة وولي خليفة * قيل لما مات الهادي جاء يحيى بن خالد إلى الرشيد وهو نائم في فراشه فقال له قم يا أمير المؤمنين فقال كم تزعمني اعجابا منك بخلافتي فكيف تكون حالتني مع الهادي ان بلغه هذا فأعلمه بموته وأعطاه خاتمه فلبس ثيابه وخرج فصلى على الهادي بعيساباذ * ودخل خزعة بن خازم في الليلة التي مات فيها الهادي على جعفر بن الهادي فحمله من فراشه وقال له لتعلمنها أو لا ضربن عنقك فلم يربقا من الاجابة إلى الخلع وركب من الغد خزعة وأظهر جعفر للناس فأشهدهم جعفر بالخلع وأقال الناس من بيعتهم * ولما بويغ إلى هرون بالخلافة فلد يحيى بن خالد البرمكي وزاره وقال له قد قلديك أمر الرعيصة فاحكم فيها بما ترى واعزل من رأيت واستعمل من رأيت ودفن اليه خاتمه فقال ابراهيم الموصلي في ذلك

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هرون أشرق نورها

بين أمين الله هرون ذى الذى * فهرون واليهابى ويحيى وزيرها

ورسم بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وفسرين وجعلها حيزا واحدا وسماها العواصم وعمر مدينة طرسوس وبذل الجهد فى مد نطاق ملكه وتأييد سلطانه وكان سعيد الطالع موفقا فى جميع أعماله وعزل عمر بن عبد العزيز العمرى عن المدينة وولى مكانه اسحق بن سليمان بن عبد الله بن عباس ثم حج الرشيد ودخل مكة محرما وقسم فى الحرمين مالا كثيرا * وفى سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة قامت الفتنه بدمشق بين المضربيه واليمانية فى ولاية عبد الصمد بن على * فجمع الرؤساء وسعوا فى الصلح فتكلموا مع بنى القين فأجابوا اليه وكلموا اليمانية فحاولوا وساروا الى بنى القين وقتلوا منهم ستمائة نفر فاستنجد بنو القين قضاءه وسلميا فلم ينجدهم فاستجاشوا قيسا فأجابوهم وقتلوا من اليمانية نحو ثمانمائة واشتد القتال فعزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولاه ابراهيم بن صالح فأحسن سياستها * وحج فى سنة ست وثمانين ومائة ومعه أولاده الثلاثة محمد الامين وعبد الله المأمون والقاسم وكان قد ولى الامين العهد وأعطاه العراق والشام الى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعده وضم اليه همدان الى آخر المشرق وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خالعه واثباته للمأمون وجعله فى حجر عبد الملك بن صالح وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم ومز بالمدية فأعطى فيها ثلاثة أعطية واحد منه وآخر من الامين وآخر من المأمون فبلغ ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار ثم سار الى مكة فأعطى مثلها وأحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كُتُبى العهد وأشهد فيهما بالوفاء للامين والمأمون وعلقهما فى الكعبة * فتطير الناس من ذلك وخافوه جدا وأشهد على أن ما فى عسكريه من الاموال والخزائن والسلاح والكرع للمأمون وجدد له البيعة عليهم فى طبرستان وأرسل الى بغداد فجدد له العهد على الامين

قال الكسائى دخلت على الرشيد يوما فلما قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام فقال اقعده فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ولم يبق الاخصته فقال لى يا على ألا تحب أن ترى محمدا وعبد الله قلت ما أشوقنى اليهما يا أمير المؤمنين وأسرتنى بمعينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما فأمر باحضارهما فلم ألبث ان أقبلا ككوكبى أفق بزينهما هذو ووقار وقد غضا أنصارهما وقاربا خطوهمما حتى وقفنا على باب المجلس فسلما على أبيهما بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فأمرهما بالانومنه فسير محمدا عن يمينه وعبد الله عن يساره ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ففعلت فما سألتها عن شئ الا أحسنا الجواب فيه والخروج منه فسر بذلك الرشيد حتى تينته فيه ثم قال لى يا على كيف ترى مذهبهما وجوابهما فقلت يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

أرى قرى مجد وفرعى خلافة * بزينهما عرق كريم ومحمد

يا أمير المؤمنين هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتعكنت فى الثرى عروقه وعذبت

مشاربه أبوهما أغر نأفذ الأمر واسع العلم عظيم الحلم يحكم بحكمه ويستضيئ بنوره وينطقان بلسانه ويتقلبان في سعادته فامتع الله أمير المؤمنين بهما وأنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب لسانا ولا أحسن ألفاظا ولا أشد اقتدارا على تأدية ما حفظا منهما ودعوت لهما دعاء كثيرا وأمن الرشيد على دعائى ثم ضمهما اليه وجمع يديه عليهما فلم يسطهما حتى رأيت الدموع تحدر على صدره ثم أمرهما بالخروج فلما خرجا أقبل على فقال كأنك بهما وقد عم القضاء ونزلت مقادير السماء وبلغ الكتاب أجله قد تشنت كلمتهما واختلف أمرهما وظهر تعاديهما ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء وتقتل القتلى وتمتلك ستور النساء * ويتنى كثير من الاحياء أنهم في عداد الموتى * قلت أليكون ذلك بأمر المؤمنين لا امر رؤى في أصل مولدهما أو لا تزوق لامير المؤمنين في مولدهما فقال لا والله إلا بأثر واجب حملته العلماء عن الاوصياء عن الانبياء اه ويقال ان العماني الشاعر قام بحضرة الرشيد فلم يزل يحرضه على محمد ويحرضه على تجديد العهد له فلما فرغ من كلامه قال له أبشر يا عماني بولاية العهد له فقال اى والله يا أمير المؤمنين سرور العشب بالغيث والمرأة التزور بالولد والمريض المدنف بالبرء لانه نسج وحده وحامى مجده وشبيه جدّه قال فما تقول في عبدالله قال مرعى ولا كالسعدان فتبسم الرشيد وقال قاتله الله ما أعرفه بمواضع الرعية أما والله انى لأتعرف في عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي وعز نفس الهادى والله لوشاء الله أن أنسبه الى الرابعة لتسبته اليها * وقال الاصمعي بينما أنا سائر الى الرشيد ذات ليلة اذ رأيته قد قلق قلقلنا شديدا فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكى ثم أنشأ يقول

فقد أمور عباد الله ذا نفة * موحد الرأى لانكس ولا برم

واترك مقالة أقوام ذوى خطل * لا يفهمون اذا ما معشر فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ثم قال لمرؤان الخادم على يحيى فما لبث أن أتاه فقال يا أبا الفضل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية والاسلام جذع والايمان جديد وكلمة العرب مجمعة قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر وكان من خبره ما قد علمت وان أبى بكر صير الامر الى عمر فسلبت الامة له ورضيت بخلافته ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت الى غير أهلها وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصويره الى من أرضى سيرته وأحد طريقته وأثق بحسن سياسته وأمن ضعفه ووهنه وهو عبدالله وبنو هاشم ماثلون الى محمد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حوته يده ومشاركته النساء والاماء في رأيه وعبد الله المرضى الطريقة الاصيل الرأى الموثوق به في الامر العظيم فان ملت الى عبد الله أسخطت بنى هاشم وان أفردت محمدا بالامر لم امن تخليطه على الرعية فأشر على في هذا الامر برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها لانك بحمد الله

مبارك الرأي لطيف النظر * فقال يا أمير المؤمنين ان كل زلّة مستقالة وكل رأى يتلافى خلا
 هذا العهد فان الخطأ فيه غير مأمون والزلّة فيه لا تستدرك وللنظر فيه مجلس غير هذا فعلم
 الرشيد أنه يريد الخلو فأمروني بالتخفى فتمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما فما زالوا في
 مناخاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الامر لعبد الله بعد محمد *
 ودخلت أم جعفر على الرشيد فقالت ما أنصفت ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعربته
 من العدد والقواد وصيرت ذلك الى عبد الله دونه فقال لها وما أنت وتميز الاعمال وأخبار
 الرجال اني وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب وصاحب الحرب أحوج الى الرجال من المسالم
 ومع ذلك فانا نخوف ابنك على عبد الله ولا نخوف عبد الله على ابنك ان يبيع * ويحكى
 عن سعيد بن عامر البصرى قال حججت في هذه السنة يعنى سنة ست وثمانين ومائة التي
 حج فيها الرشيد وولدها وقد كتب الشرطين بينهما وعلقهما في الكعبة وقد استعظم الناس
 أمر الشرط والايمان في الكعبة فرأيت رجلا من هذيل يقود بعيرا ويقول

وبيعة قد نكثت أيمانها * وقتنة قد سمرت نيرانها

فقلت له ويحك ما تقول قال أقول ان السيف ستسل والفتنة ستقع والتنازع في الملك
 سيظهر قلت وكيف ترى ذلك قال أما ترى البعير واقفا والرجلان يتنازعا والغريبان قد
 وقعا على الدم والتطخابه والله لا يكون آخر هذا الامر الا محاربة وشرا * وروى أن الأمين
 لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر ابن يحيى وقال له فان
 غدرت بأخيك خذلك الله حتى فعل ذلك ثلاثا كلها يحلف له فامتعضت لذلك أم جعفر
 وحقدت على جعفر بن يحيى فكانت ممن حرّض الرشيد على أمره وبعثته على ما نزل به * وقد

كان من أمر الفتنة بينهما ما سأبأى ذكره في محله ان شاء الله تعالى

ولما كانت سنة ست وثمانين ومائة للهجرة أى سنة ست عشرة وثمانمائة لليلاد أوقع
 الرشيد بالبرامكة وأبادهم وقد اختلف الكتاب في الاسباب وتباينت أقوالهم والاكثر انه
 لابنان جعفر عباسه أخت الرشيد فانه كان زوجها من جعفر ليحل له النظر اليها لان الرشيد
 لم يكن يبصر على أخته ولا غنى له عن جعفر فباشرها جعفر فحبلت منه وجاءت بغلام وقيل
 انها ولدت توأمين وقيل لان الرشيد كان حبس يحيى بن عبد الله بن الحسن عند يحيى فأسراه
 وقيل قتل البرامكة خوفا منهم على ملكه لانهم كانوا عظموا واشتهروا بالجود والكرم ومال
 اليهم الناس وأحبوهم * وعندى أن ذلك أقرب الى الصواب * قال ابن خلدون وانما نكب
 البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتيازهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب
 اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف
 في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيبتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم
 وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكفاية وقيادة وحجابة وسيف وقلم يقال انه كان يدار
 الرشيد من ولدي يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحوا

فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح بما لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولي عهد وخليفة حتى شب في حجره ودرج من عنده وغاب على أمره وكان يدعوه بأبى توجه الأيثار من السلطان اليهم وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرف نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت اليهم من أقصى الخوم هدايا الملوك وتحف الامراء وتسربت الى خزائهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنز وكسبوا من بيونات الاشراف المعتمد وفكوا العاني ومدحوا بما لم يدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلوات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأحققوا الخاصة وأعصوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية حتى لقد كان بنو قطنية أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقع في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا ردعتهم أوامر القرابة وقارن ذلك عند مخدومهم نواشي الغيرة والاستنكاف من الحجر والائفة وكانت الحقود التي بعثتها منهم صغار الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبار المخالفة كقصتهم في يحيى بن عبد الله ابن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخى محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذى استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطة وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبرى ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فقبسه مدة ثم حملته الدالة على تخليه سبيله والاستبداد بحمل عقابه حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة على السلطان فى حكمه وسأله الرشيد عنه لما وثى به اليه فظن وقال أطلقته فأبى له وجه الاستحسان وأسرها فى نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى نزل عرشه وأقيمت عليهم سماؤهم وخسفت الارض بهم وبادرهم وذهبت سلفا ومثلا للآخرين أيامهم الى أن قال * وانظر ما نقله ابن عبد ربه فى مفاوضة الرشيد عنه داود بن علي فى شأن نكبتهم وما ذكره فى باب الشعراء فى كتاب العقد فى محاورة الاصمعي للرشيد والفضل بن يحيى فى سمارهم تفهم أنهم انما قتلهم الغيرة والمنافسة فى الاستبداد من الخليفة فى دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للعتسين من الشعر احتيالا على اسماعه للخليفة وتحريك حفاظته لهم وهو قوله

ليت هندا أنجزتنا ما تعد * وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة * انما العاجز من لا يستبد

وأن الرشيد لما سمعها قال اى والله انى عاجز حتى بعنوا بامثال هذه كما من غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال اه قال صاحب الكامل لما رجع الرشيد من الحج نزل العمر الذى عند الانبار سلخ المحرم وأرسل

مسرورا الخادم ومعه جماعة من الجنيد الى جعفر ليلا وعنده ابن بختيشوع الطبيب وأبو
 زكار المغني وهو في لهوه وأبو زكار يعني

فلا تبعد فكل فتى سيأتي * عليه الموت بطرق أويغداي

وكل ذخيرة لا بد يوما * وان كرمت تصير الى نفاق

قال مسرور فقلت له يا أبا الفضل الذي جئت له هو والله ذلك قد طرقك أجب أمير
 المؤمنين فوقع على رجلي يقبلها وقال حتى أدخل فأوصي فقلت أما الدخول فلا سبيل اليه
 وأما الوصية فاصنع ماشئت فأوصي بما أراد وأعتق مما يملكه وأتتني رسل الرشيد تستعني
 فضيت به اليه فأعلمته وهو في فراشه فقال ائتني برأسه فأتيت جعفرا فأخبرته فقال الله
 الله والله ما أمرك الا وهو سكران فدافع حتى أصبح أوراجعه في ثانية فعادت لاراجعه
 فلما سمع حسى قال ياماص بظر أمه ائتني برأسه فرجعت اليه فأخبرته فقال أمره فرجعت
 فخذني بعمود كان في يده وقال نفيت من المهدي ان لم تأتني برأسه لاقتلك قال فخرجت
 فقتلته وحملت رأسه اليه * وكان قتل جعفر بالانبار في صفر وبعد قتله أرسل من أحاط بيحيي ولده
 وجميع أسبابه وأخذ جميع ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وغير ذلك وكتب الى كافة
 البلاد بقبض أموالهم وأرسل رأس جعفر وجثته الى بغداد وأمر بوضع الرأس على جسر وجثته
 على جسر آخر ولكنه مع ذلك لم يتعرض لمحمد بن خالد بن برمك قالوا لبراءته * وكان عمر جعفر
 لما قتل سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة والبرامكة عائلة من فارس واسعة
 السمعة كانت لهم رتبة الامانة والكهانة قبل الاسلام بمائتي سنة وقد قال يحيي بن خالد
 عند ما نكب * الدنيا دول والمال عارية ولنا بن قبلنا أسوة وفتنا لمن بعدنا عبرة *
 وشوهد بعد قتله في حضنه رفعة مكنوب فيها * المقرف يذهب والمعرق يتبعه قريبا
 وسينتصب الاثنان أمام قاض عدل حيث لاتغني الكتابات والاعذار شيئا * وسار الرشيد الى
 الري ثم رجع الى العراق ودخل بغداد وأمر بإحراق جثة جعفر ثم مضى الى الرقة ومات
 يحيي بن خالد في هذا الحين في السجن في الرقة وعمره سبعون سنة ومات الفضل بن يحيي
 ابن خالد بن برمك مسجوناً في السنة الثانية وعمره خمس وأربعون سنة قيل ولم ير أجل منه
 فلم يكن الرشيد بعد قتل البرامكة يطبق المقام ببغداد فبارح السنة المذكورة الرقة الى
 خراسان ثم سار طالبا حرب رافع بن الليث بما وراء النهر ونظر وجهه بسمرقند فلما كان في طوس
 بجي * يبشر بن الليث أسيرا فقال له الرشيد والله لو لم يبق من أجلى الا أن أحرك شفتي بكلمة
 لقلت اقتلوه ثم أمر قصابا ففصل أعضائه ومثله تمثيلا * وكان الرشيد قد غضب على عبد
 الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب فأمر به فالتقوه في السجن
 مكبلا على غير سبب ظاهر فلما كان في بعض الايام استحضره وجعل يعنفه ويوبخه شديدا
 قال غوث بن المدرع عن الرباشي قال سمعت الاصمعي يقول كنت عند الرشيد وأنى

بعبد الملك بن صالح يرقل في قيوده فلما نظر اليه قال هيه يا عبد الملك كافي أنظر الى شؤوبها
قد همع وعارضها قد لمع * وكأني بالوليد قد أفلح عن براجم بلامعاصم وروؤس بلا
غلاصم مهلا مهلا بنى هاشم والله والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدر وألقت
اليكم الامور أزمتمها نخذوا حذرکم مني قبل حلول داهية خموط باليد ليموط بالرجل * فقال له
عبد الملك أفذا أنكلم أو توأما فقال بل توأما قال فاتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولانك
وراقبه في رعاياك التي استرعاك * قد سهلت والله لك الوعر * وجمعت على طاعتك القلوب
في الصدور * وكنت كما قال أخو بني جعفر بن كلاب * يعني لبيدا *

ومقام ضيق فترجته * ببيان ولسان وجهد

لا يقوم الفيل أو فياله * زل عن مثل مقامى أورحل

قال فأراد يحيى بن خالد البرمكي أن يضع من مقام عبد الملك عند الرشيد فقال له يا عبد الملك
بلغني أنك حقوق فقال أصح الله الوزير ان يكن الحق هو بقاء الخير والشر عندي فانهما
لباقيان في قلبي فالتفت الرشيد الى الاصمعي فقال يا أصمعي حررها فوالله ما احتج أحد
للحق بدليل ما احتج به عبد الملك ثم أمر به فرد الى محبسه ثم التفت الى الاصمعي وقال والله
يا أصمعي لقد نظرت الى موضع السيف من عنقه مرارا وتمعني من ذلك ابقائي على قومي
في مثله اه

وكان هرون الرشيد موفق الغزوات ميمون الطالع كتب اليه نيقفور ملك الروم الذي
قام بعد خلع ايرميني الملك كتابا يقول فيه * من نيقفور ملك الروم الى هرون الرشيد ملك
العرب أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي قد أقامتك رجا وأقامت نفسها بسدا فحملت
اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه اليها وما ذلك الا من ضعف النساء وحقتهن
فاذا قرأت كتابي فاردد علينا ما سلبته من أموالنا والا فالسيف يقضى فيما بيننا * فلما تقدم
السفراء بالكتاب أخذه الرشيد وقرأه ولما وصل الى قوله فالسيف يقضى فيما بيننا ألقى
السفراء المذكورون ضمة سيوفهم أمامه فنظر اليها الرشيد وهو يتبسم قيل واستل سيفه وضرب
به تلك السيوف الرومية فبرأها كما يرى الكاتب القلم ثم كتب على ظهر الجواب * بسم
الله الرحمن الرحيم * من هرون الرشيد أمير المؤمنين الى نيقفور ملك الروم قد قرأت
كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لاما تسمعه * وعندى أن هذا من مبالغة الكتاب لان
الرشيد كان أدبيا مهيبا حسن السياسة غير مشاغب ولا متسرع الى حش القول وهو من
العلم وسعة الصدر بكان * قالوا ثم ركب الرشيد على نيقفور من يومه حتى نزل هرقلة ففتح
وغنم وحرب وبعث داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفا غازيا في أرضهم وفتح شرحبيل
ابن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وفتح يزيد بن مخلد حصن الصقاصف ومقلاوية
وأناخ عبد الله بن مالك على حصن ذى الكلاع واستعمل الرشيد حميد بن معيوف على
الاساطيل من سواحل الشام ومصر الى قبرص فهزم وخرّب وسبي من أهلها سبعة عشر

ألفا وجاء بهم الى الرافقة فبيعوا بها وبلغ فداء أسقف قبرص يومئذ ألفي دينار * وسار
 الرشيد الى طوانة فنزل بها وحاربها وحاصرها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبته بن جعفر
 فسأله نيقفور الصلح على خراج يحمله في كل سنة فصالحه ورجع الى قصره على الفرات ثم لم
 تلبث الروم حتى انتقضوا في الشتاء فركب عليهم ثمانية ولم تمنعه تلوج الجبال وقائلهم قيل
 فقتل منهم أربعين ألفا وجرح نيقفور في ثلاثة محال ثم عصى ثلثة بجيش عليه وأخضعه *
 وكان الرشيد يركب على مائة وخمسة وثلاثين ألفا من العساكر المرتقة سوى من لا
 ديوان له والمتطوعة الجميع نحو ثمانمائة ألف وقد تجاوز بجميع هذه الجنود مدن آسية
 الصغرى حتى أنقرة وحاصرها مدة شهرًا وخربها وأخذ ما فيها من الخيرات والكنوز وما زال
 يخرب ويسلب ويأسر ويشدد على نيقفور الى أن تصالحا على أن تبقى مدينة هرقة خربة
 أمثلة وذكرا لظفر الرشيد وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسمه واسم أولاده
 الثلاثة فكان ذلك

ومات الرشيد في سنة ثلاث وتسعين ومائة ثلاث خلون من جمادى الآخرة في ليلة
 السبت بطوس وهو ابن سبع وأربعين سنة وقيل خمس وأربعين وكان به مرض فاشتدت
 عنته بمرجان فسار الى طوس ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون الى مرو وكان قد حفر
 قبره في وسط الدار التي كان فيها قيل ولما احتضر خاف وانزعج وغشى عليه ثم أفاق فرأى
 الفضل بن الربيع فقال يا فضل

أحسين دنا ما كنت أخشى دنوه * رمتني عيون الناس من كل جانب
 فأصبت مرحوما وكنيت محسدا * فصبرا على مكروه تلك العواقب
 سأبكي على الوصل الذي كان بيننا * وأندب أيام السرور الذواهب

فبكي الفضل عند سماعه هذه الايات وترك الرشيد اثني عشر ابنا وخمس عشرة بنتا
 وكان جوادا ممدوحا غازيا مجاهدا شجاعا مهيبا مليحا أبيض طويلًا عسل الجسم قد وخطه
 الشيب ويقال انه منذ استخاف كان يصلي كل يوم وليلة مائة ركعة ويتصدق من ماله الخالص
 بألف درهم وكان له معرفة جيدة بالعلوم وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وأشهرًا وقيل
 ثلاثا وعشرين فقط وكان مولده بالرى

واسنًا أمر على مصر في خلافته مسلمة بن يحيى الأزدي بعد خلعه موسى بن عيسى
 العباسي في سنة اثنتين وسبعين ثم ولي بعده محمد بن زهير الأزدي سنة ثلاث وسبعين ثم ولي
 داود بن يزيد المهلبى سنة أربع وسبعين ثم أعاد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم عزله
 الرشيد سنة ست وسبعين وولى عليها جعفر بن يحيى البرمكى فاستتاب عليها عمر بن مهران
 شيعيا ردىء الشكل أحول وكان سبب ذلك أن الرشيد بلغه أن موسى بن عيسى عزم على
 خلعه فقال والله لأولين عليها أخس الناس فاستدعى عمر بن مهران هذا وولاه عليها نيابة عن
 جعفر فسار عمر اليها على بغل وغلّامه أبو درة على بغل آخر فدخلها كذلك فأنتهى الى مجلس

موسى بن عيسى فجلس في أخريات الناس حتى انفضوا فأقبل عليه موسى وهو لا يعرف من هو فقال ألك حاجة يا شيخ قال نعم أصلح الله الأمير ثم مال بالكتب فدفعها إليه فلما قرأها قال أنت عمر بن مهران قال نعم قال لعن الله فرعون حين قال أليس لي ملك مصر ثم سلم إليه العمل وارتحل عنها

ثم في سنة سبع وسبعين ومائة عزل الرشيد جعفرًا عن مصر وولى عليها اسحق بن سليمان كذا في تاريخ ابن كثير وغيره وذكر الأديب أبو الحسن الجزار في أرجوزته في أمراء مصر خلاف ذلك فإنه قال أعيد موسى بن عيسى سنة خمس وسبعين ثم أعيد إبراهيم بن صالح العباسي سنة ست وسبعين ثم ولى عبد الله بن المسيب الضبي ثم ولى اسحق بن سليمان العباسي سنة سبع وسبعين كذا قال اه ثم عزل اسحق سنة ثمان وسبعين وولى هرثة بن أعين فأقام نحوًا من شهر ثم عزل وولى عبد الملك بن صالح العباسي فأقام الى سلخ سنة ثمان وسبعين وولى عبد الله بن مهدي العباسي سنة تسع وسبعين ثم أعيد موسى بن عيسى سنة ثمانين ثم أعيد عبيد الله المهدي وصرف في رمضان سنة احدى وثمانين ثم صرف وولى الليث بن الفضل البيوردي ثم ولى أحمد بن اسمعيل العباسي سنة سبع وثمانين ثم ولى عبيد الله بن محمد العباسي ثم ولى الحسين بن جميل الأزدي سنة تسعين ثم ولى مالك بن دلهم الكلبي سنة اثنين وتسعين ثم ولى الحسن سنة ثلاث وتسعين وهي السنة التي مات فيها الرشيد ومات في أيامه يوحنا بطررك الاسكندرية بعد أن أقام ثلاثًا وعشرين سنة وكان تقيا محبا للفقراء ولم تصبه شدائد بل كانت أيامه كلها سلاما فأقيم بعده مرقس المعروف بالجديد وهو تاسع أربعين وأصله من مدينة الاسكندرية ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل السادس)

(في خلافة محمد الأمين بن هرون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعد هرون الرشيد ابنه محمد الأمين بوبيع له بالخلافة يوم توفى أبوه بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة هجرية أي سنة ثمان وثمانمائة ميلادية واستتاب أخاه علي ممالك خراسان وهو إذ ذلك يبغداد فورد عليه بها خاتم الخلافة والبردة والقضيب وهما لصاحب الشريعة ثم بوبيع له بها البيعة التامة في سائر الآفاق وكان الرشيد قد جدد البيعة بطوس بولاية العهد لابنه المأمون بعد الأمين كما تقدم القول وأشهد على نفسه أن جميع مأمعه من مال وسلاح وغير ذلك للمأمون وأوصى أن يكون مأمعه من الجيوش مضمومين معه بخراسان فلما مات الرشيد نادى الفضل بن الربيع في عسكر الرشيد بالرحيل الى بغداد وخالف وصية

الرشيد فعظم ذلك على المأمون وكتب الى الفضل يذكره بالعهد التي أخذها عليه الرشيد
 ويحذره البغي ويسأله الوفاء فلم يلتفت الفضل اليه فكان هذا الامر سبب ابتداء الوحشة
 بين الأمين والمأمون * وكان الأمين عديم السياسة فلم يلبث على كرسي الخلافة طويلا حتى
 أمر بإبطل ذكر اسم المأمون من الخطبة واستبدله باسم ابنه موسى ولقبه الناطق بالحق وكان
 يومئذ طفلا فأدى ذلك الى وقوع الوحشة واشتداد الخلاف بينه وبين المأمون وطال الاخذ
 والرد بين الفريقين حينما فكثرت أحزاب المأمون وانضم اليه ناس من كبار الدولة وأمرء
 الجند بعد أمور قد أضرنا عن إيرادها هنا وتجهز كل منهما لقتال الآخر فأرسل الأمين على بن
 عيسى بن ماهان بجيش عظيم لقتال المأمون في خراسان وجهاز المأمون كذلك طاهر بن الحسين
 بعسكر قليل وأرسله الى الري فخلع طاهر بيعة الأمين بن معسه من الجند وبايع المأمون
 فقامت الحرب بينه وبين علي بن عيسى وقاتل عليا قتالا شديدا وقتل علي وأخذت رأسه الى
 طاهر وانزعم عسكره فأرسل الأمين عسكرا آخر صحبة أحمد بن مرشد وعبد الله بن حميد بن
 قحطبة وكان مع كل واحد عشرون ألفا وساروا الى حلوان لقتال طاهر فلما وصلوا الى خافقين
 وقع فيهم الخلاف فرجعوا دون قتال فتقدم طاهر ونزل في حلوان ولحقه هرثة بجيش آخر من
 عند المأمون وكتب بأمره بالقيام الى الأهواز ولما بلغ المأمون قتل ابن ماهان أمر أن يخطب
 له بأمره المؤمنين وعقد للفضل بن سهل على المشرق من همذان الى التبت طولا ومن بحر
 فارس الى بحر الديلم وجرجان عرضا ولقبه بذي الرياستين يعني رياسة الحرب ورياسة القلم
 * وولى الحسن بن سهل ديوان الخواج ثم استولى طاهر على الأهواز وواسط والمدائن ونزل
 صرصر في سنة ست وتسعين ومائة أي نحو سنة احدى عشرة وثمانمائة للبلاد وفي التي
 بعدها ألقى هرثة وطاهر الحصار على بغداد وأوقعا فيها النهب والحريق ومنعا الميرة فعلا فيها
 سمر كل شيء ودام الحصار وشدة الحال السنة بطولها وهجم طاهر بعد ذلك على بغداد وبعد
 قتال شديد انجلى عن عزيق شمل جنسد الأمين وتفريقهم أيدي سبا وخذلهم للخليفة نادى
 منادى طاهر من لزم بيته فهو آمن وتخصن الأمين في مدينة المنصور وتفرق عنه عامة جنده
 وخصيانه فحاصره طاهر وست عليه المنافذ ثم طاب الأمين الامان من هرثة وأن يطلع
 اليه فلم يقبل فرجع طاهر في ذلك فأبى فلما كانت ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة
 ثمان وتسعين ومائة هجرية أي سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للبلاد خرج الأمين وعليه ثياب
 بيض وطميلسان أسود فأرسل اليه هرثة يمنعه من ذلك وأن يبقى الى الليلة القنابلة فلم يقبل
 ودعا الأمين بابنيه وضههما اصدده وقبلهما وبكى ثم مضى راكبا الى الشط فوجد حراقة هرثة
 فصعد اليها فأحتضنه هرثة وضمه اليه وقبل يديه ورجليه وقد علم أصحاب طاهر بحضرة فشدوا
 على حراقة هرثة حتى أغرقوها فأخرج الملاح هرثة من الماء أما الأمين فانه لما سقط شق
 ثيابه وعدا سابحا الى الجانب الثاني فأمسكوه وأخذوه عربان ووضعوه في بيت حتى جاء الليل
 وأرسل اليه طاهر بعض الاجسام فقتلوه وأخذوا رأسه فنصبه طاهر على برج من أبراج بغداد

الى أن أرسلت الى المأمون وكتب له بالفتح وأرسل له البردة والقضيب ودخل طاهر المدينة وأقام خطبة المأمون نهار الجمعة واستتب له الخلافة واستوثق له الامر مشرقا ومغربا بعد أمور أضر بنا عن إرادها هنا

قال أبو حنيفة في الاخبار الطوال وغيره عن الكسائي انه قال ان الرشيد ولاني تأديب الأمين والمأمون فكنت أشدد عليهما في الادب وأخذهما به أخذاً شديداً وخاصة الأمين فأتتني ذات يوم خالصة جارية زبيدة وقالت يا كسائي ان السيدة تقرأ عليك السلام وتقول لك حاجتي اليك أن ترفق بابني محمد فإنه قررة عيني وعمرة فؤادي واني أرق عليه رقة شديدة فقلت لخالصة ان محمداً مترشح للخلافة بعد أبيه ولا يجوز التقصير في أمره فقالت خالصة ان لركة هذه السيدة سببا أنا أخبرك اياه انها في الليلة التي ولدته فيها رأت في منامها كأن أربع نسوة أقبلن اليه فاكتفنهن عن عينه وشماله وأمامه ووراءه فقالت التي بين يديه ملك قليل العمر كثير الكبر ضيق الصدر واهى الامر كبير الوزر شديد الغدر * وقالت التي من ورائه ملك قصاب مبذر متلاف قليل الانصاف كثير الاسراف * وقالت التي عن عينه ملك عظيم البذل ثقيل الحمل كثير الاثم قطوع للرحم * وقالت التي عن يساره ملك غدار كثير العثار سريع الدمار * قال ثم بكت خالصة وقالت يا كسائي وهل ينفع الخدر من القدر اه

ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكثت عهده ونقض ميثاقه واستخف عيونه فقال اسكت الله أبوك فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأيا حيث يقول لا يجتمع خلان في أجمه ثم جمع القواد وشاورهم فاتبعوه في مراده الى أن بلغ الى هرعثة بن حازم فقال يا أمير المؤمنين لن ينحك من كذبك ولن يفشك من صدقك لا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهود فينكثوا عهدك وبيعتك فان الغادر مخذول والنكاث مغلول فأقبل الأمين على علي بن عيسى بن ماهان فتبسم محمد وقال لكن شيخ هذه الدعوة ونائب هذه الدولة لا يخالف إمامه ولا يوهن طاعته ثم رفعه الى موضع مارفعه اليه فيما مضى فكان علي بن عيسى هذا أول من أجاب الى خلع المأمون فأكبره الأمين وقربه وسيره في جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الري قيل له ان طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهرا لا يثبت له فقال ما طاهر الا شوكة من أغصاني وشرارة من نارى وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما بينه وبين الأمين الا أن تقع عينه على سوادكم فان السخال لا تقوى على نطاح الكباش والنعالب لا تقدر على لقاء الأسد فقال له ابنه ابعت طلائع وارشد موضعا لعسكرك فقال ليس طاهر يستعد له بالمكائد والتحفظ ان حال طاهر يؤدى الى أمرين اما أن تحصن بالرى فينبه به أهلها ويكفونا مؤنته أو يخلها ويدبر راجعا اذا قربت خيولنا منه فقال له ابنه ان الشرارة ربما صارت ضراما فقال ان

طاهرا ليس قرنا في هذا الموضع وانما يحترس الرجال من أقرانها * وسار على بن عيسى وبث
عساكره من الرى وتبين ما عليه طاهر من الجند وأهبة الحرب وضم الاطراف فعدل الى رستاق من
رستاق الرى متيامرا عن الطريق فنزل وانبطت عساكره وأقبل طاهر في نحو من أربعة
آلاف فارس فأشرف على عساكر على وتبين كثرتها وعدة ما فيها فعلم أن لاطافة له بذلك
الجيش فقال لخواصه ومن معه فجعلها خارجية وكردس خيله كراديس وصمد في نحو القلب
في سبعائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج اليه من القلب العباس بن
الليث مولى العهد وكان فارسا فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فأقى عليه وكان على بن
برذون فسقط كيت بين أرجل الرجال فتمالوا على رأسه وتنازعوا في خاتمه ورأسه فذبحه رجل
يعرف بطاهر بن الرابي وقبض آخر على خصلة من شعر لحية وآخر على خاتمه وكان سبب
هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعا للعباس بن الليث وبذلك سمى طاهر ذا اليمينين لجمع
السيف بيديه * وذكروا أحد بن هشام وكان من وجوه القواد قال جئت الى مضرب طاهر وقد
توهم اني قتلت في المعركة ومعى رأس على فقلت البشرية هذه خصلة من رأس على مع غلامى في
الخلافة فطرحتها قدامه ثم أتى بجثته وقد شدد يداه وربلاه كما يفعل بالدواب اذا ماتت فأمر به
طاهر فالتى في بئر وكتب الى ذى الرياستين فكان في الكتاب * أطال الله بقاءك وكتب أعدائك
كأبى اليك ورأس على بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي والحمد لله رب العالمين * فسرا المأمون
بذلك وسلم عليه في ذلك الوقت بالخلافة * وحدثت ابراهيم بن المهدي قال بعث الى الأمين
وهو محاصر فصرته اليه فاذا هو جالس في طارمة خشبها من عود وصنديل عشرة في عشرة
واذا سليمان بن أبي جعفر المنصور معه في الطارمة وهي قبة كان اتخذ لها فراشا مبطناً بأنواع
الحرير والديباج المتسوج بالذهب الاحمر وغير ذلك من أنواع الابريسم فسلمت فاذا قدامه
قدح بلور محروق فيه شراب ينقد مقداره خمسة أرطال وبين يدي سليمان قدح مثله فجلست بازاء
سليمان فأتيت بقدح كالأول والثاني قال فقال الامين انما بعثت اليك لما بلغنى قدوم طاهر
ابن الحسين الى النهروان وما قد صنع في أمرنا من المكرهه وقابلنا به من الاسائة فدعوتك
لأفرج بك وبمحدثك فأقبلنا نخدته ونؤنسه حتى سلا عما كان يجده وفرح ودعا بجارية من
خواص جواربه تسمى ضعفا قال فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال فقال لها غنينا
فوضعت العود في حجرها وغنت

كليب لعمري كان أكثر ناصرا * وأكثرت جعاع منك صرّج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها اسكتي قبضك الله ثم عاد الى ما كان عليه من الغم
والاقطاب فأقبلنا عليه نخدته ونبسطه الى أن سلا وضحك ثم أقبل عليها وقال هات ما عندك
فغنت

هم قتلوه كي يكونوا مكانه * كما غدرت يوما بكسرى مراربه

فأسكتها وزأرها وعاد الى الجمالة الاولى فسليناه حتى عاد الى الضحك فأقبل عليها الثالثة فقال غنى فغنت

كأن لم يكن بين الخجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كننا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والحدود العواثر

وقيل بل انها غنت

أما ورب السكون والحرك * ان المنيا كثيرة الشرك

فقال لها قومي عنى فعل الله بك وصنع بك فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسرتة فأهريق الشراب وكانت ليلة قراء ونحن على شاطئ دجلة فى قصره المعروف بالخلد فسمعنا قائلا يقول قضى الامر الذى فيه تستفتيان * قال ابن المهدي فتمت وقد وثب فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين

لا تعجب من العجب * قد جاء ما يقضى العجب
قد جاء أمر فادح * فيه لذي عجب عجب

قال فما قنا معه بعدها الى أن قتل

ومات محمد الأمين وهو ابن ثمان وعشرين سنة وقيل سبع وعشرين وكان طويلا أبيض بديع الحسن وكانت خلافته أربع سنين وثمانية شهور وقيل ثلاثة أعوام وأياما لانه خلع فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة ومن حسب له الى موته لخلافته خمس سنين خلا أشهرها وكان مبدرا للأموال لعبا لا يصلح للخلافة مشتغلا باللهو والقصف والاقبال على اللذات فقال فيه بعضهم

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا * فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس فى الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب

قال صاحب الكامل وأكثر الشعراء فى مرثى الأمين وهجائه فما قيل فى مرثيه قول

الحسين بن الضعالك وكان من ندمائه وكان لا يصدق بقتله ويطمع فى رجوعه

يا خير أسرته وان زعموا * انى عليك لمثبت أسف

الله يعلم أن لى كعبدا * حرى عليك ومقله تكف

ولئن شجيت لما رزئت به * انى لأضمر فوق ما أصف

هلا بقيت لسد فاقنا * أبدا وكان لغيرك التلف

فلقد خلفت خلاثفا سلفوا * أوليس يعوز بعدك الخلف

لا بات رهطك بعد هونهم * انى رهطك بعدها شف

هتكوا الحرمتك التى هتكك * حرم الرسول ودونها السجف

وزيت أقاربك التى خذلت * وجميعها بالذل معترف

تركوا حريم أبيهم نفلا * والمحصات صوارخ هتف

أبدت مخلخلها على دهش * أبكارهن ورنت النصف
 سلبت معاجرهن واختلست * ذات النقاب وفوزع الشنف
 فكأنهن من خلال منتهب * در تكشف دونه الصدف
 سلك تخوف نظمه قدر * فوهى فصرف الدهر مختلف
 هيات بعدك أن يدوم لنا * عز وأن يبقى لنا شرف
 أقبعد عهد الله تقاتله * والقتل بعد أمانة سرف
 فستعرفون غدا بعاقبة * عز الاله فأوردوا وقفوا
 يامن يخون نومه أرقا * هدت الشجون وقلبه لهف
 قد كنت لي أملا غنيت به * فضى وحل محله الأسف
 مريح النظام وعاد منكرنا * عرفا وأنكر بعده العرف
 والشمل منتشرا لفقرك * والدينيا سدى والباب منكشف

وأسرف الحسين بن الضحالك في مراى الأمين وذم المأمون فلهذا حجب المأمون عنه ولم
 يسمع مدحه مدة ثم أحضره وقال له أخبرني هل رأيت يوم قتل أخى هاشمية قتلت وهتكت
 قال لا قال فما قولك

وبما شجى قلبي وكشف عبرى * محارم من آل النبي استحلت
 الايات فقال يا أمير المؤمنين لوعة غلبتني وروعة فاجأتني ونعمة سلبتها بعد أن عمرتني
 واحسان شكرته فأنطقني وسيد فقدته فأقلقني فان عاقبت فبحقك وان عفوت فبفضلك
 فدمعت عين المأمون وقال قد عفوت عنك وأمرت بادرار أرزاقك عليك وعطائك ما فاتك
 مما جعلت عقوبة ذنبك امتناعي من استخدامك اه

واستعمل الامين على مصر في خلافته حاتم بن هرثة بن أعين ثم صرفه في سنة خمس
 وتسعين ثم ولى المطلب بن عبد الله الخزاعي سنة ثمان وتسعين ثم صرفه وولى العباس بن
 موسى في السنة التي قتل فيها الأمين أى سنة ثمان وتسعين ومائة للهجرة

(الفصل السابع)

(فى خلافة عبد الله المأمون بن هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد الأمين أخوه عبد الله المأمون بويع له بالخلافة البيعة العامة
 صبيحة الليلة التي قتل فيها الأمين باجماع من الامة على ذلك سنة ثمان وتسعين ومائة
 هجرية أى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ميلادية خلا ما كان من أمير الأندلس فانه كان
 هو والامراء قبله وبعده لم يتقيدوا بطاعة العباسيين لبعث الديار واستبدادهم بالأمر فيها

فلما استوثق الامر للمأمون تم مبادأ به أبو جعفر المنصور جده من تعميم المعارف بين الرعية واستجلب ما تصل اليه قدرته من كتب الفلسفة والرياضيات وغيرها واستأجر لترجمتها من اللغات الاجممية مهرة المترجمين ونجباء العلماء ورتب المجالس للناظرة في الأديان والفلسفة والتجويد وحث الرعية على ترك ما يرغب فيه الصين والترك ومن نحا نحوهم من التنافس في دقة الصنائع العلمية وغيرها فارتقت العرب في أيامه الى أرقى درجات العلوم والمعارف وفارقتهم أو كادت العوائد البدوية القديمة في عهد قريب جدا لم يكن في حسابان

وظهر في أيامه بالكوفة محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن الحسن العلوي المعروف بابن طباطبا ودعا الناس اليه وكان القائم بامره أبو السرايا فبايعه أهل الكوفة واستوثقوا له فأرسل اليه المأمون الحسن بن سهل الضبي في عشرة آلاف فهزمهم ابن طباطبا واستباحهم ولكنه لم يلبث أن مات فجاء وقيل سمه أبو السرايا ليستبد بالامر وأقام غلاما من أولاد علي يقال له ابن زيد صورة والكلمة لابي السرايا ثم قام ففتح البصرة وواسطا وجرى بينه وبين جند المأمون عدة وقائع انجلى الامر فيها عن فرار أبي السرايا من الكوفة بثمانمائة فارس بعد أن حصره هرثة ودخل هرثة الكوفة ونادى بالامان فسار أبو السرايا الى جلولاء فتفرق عنه أصحابه وظفر به جاد الكندغوش وقبض عليه وعلى من بقى معه وأتى بهم الى الحسن بن سهل وهو في النهر وان فقتله وسير رأسه الى المأمون

وكان المأمون يبغض لآل علي ويحب عليا الرضا بن موسى الكاظم فعهد اليه بالخلافة من بعده وأمر جنده بخلع الاسود ولبس الاخضر وكتب بذلك الى الآفاق فشق الأمر على بني العباس ووقع الخلاف وهاج الناس وهموا في بغداد ببيعة ابراهيم بن المهدي وخلع المأمون لهذا السبب ولتقديمه الحسن بن سهل فبايعوا ابراهيم المذكور في سنة اثنتين ومائتين ولقب بالمبارك وكان القيم على أمور ابراهيم المطلب بن عبد الله بن مالك فاستولى ابراهيم على الكوفة وجمع عسكره الى المدائن واستعمل على الجانب الغربي من بغداد العباس ابن موسى الهادي وعلى الجانب الشرقي اسحق بن الهادي فسار يومئذ المأمون من مرو الى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عياد وعند وصوله الى برخس وثب أربعة رجال بالفضل بن سهل فقتلوه وعمره يومئذ ستون سنة فغضب المأمون وجعل لمن يقبض عليهم عشرة آلاف دينار فأمسكهم العباس بن الهيثم الدينوري فأمر المأمون بضرب أعناقهم وقام طالبا العراق فبلغ ذلك ابراهيم بن المهدي والمطلب وأصحابه فترك المطلب ابراهيم وتمارض وسار الى بغداد واشتغل سرا بجانب المأمون وخلع ابراهيم فعلم ابراهيم بذلك وكان في المدائن فقصد بغداد وأمر بالمطلب فنهت دور أهله ولم يظفروا به وعظمت الفتنة وكاد ينسح نطاقها وكان المأمون قد تزوج ابنته من علي الرضا الذي عهد اليه بالخلافة بعده فلم يلبث حتى مات في السنة التالية لزواجه فدفن عند قبر الرشيد وكتب المأمون الى بغداد يعلم أهلها بموته ويقول لهم ان من نعتني علي بسببه قد مات فارجعوا الى خيلقتكم فرجعوا

وخلعوا بيعة ابراهيم بن المهدي ودعوا للمأمون فاخفى ابراهيم وقدم المأمون الى بغداد وانقطعت بعودته الفتن وكان لابسا الاخضر فدخل عليه الناس وسلموا بالاخضر ثم رجعوا الى اللباس الاسود كما رسم هو

وظهر في أيامه القول بخلق القران وقيل ظهر في أيام الرشيد وكان الناس فيه بين أخذ وترك الى زمن المأمون فحمل الناس على القول بخلق القران وكل من لم يقل بخلقه عاقبه أشد عقوبة وكان الامام أحمد امام أهل السنة من المتسعين عن القول بخلق القران فحمل الى المأمون مقيدا فمات المأمون قبل وصوله اليه * ودخل المأمون بلاد الجزيرة والشام وأقام بها مدة طويلة ثم غزا الروم وفتح فتوحات عظيمة للغاية وبث العيون بعد ذلك في طلب ابراهيم بن المهدي فظفر به لثلاث عشرة ليلة نخلت من شهر ربيع الآخر سنة سبع ومائتين في الدرب المعروف بالطوبل ببغداد فادخل الى المأمون وهو في زى امرأة ومعه امرأتان أخذته حارس أسود في الدرب المذكور فلما رآه المأمون على هذه الحالة قال له هيه يا ابراهيم فقال أمير المؤمنين وليّ الثار محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الزمان واستولى عليه الاغترار بما مثله من أسباب الشقاق أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذى ذنب دوني فان تعاقب فيحسبك وان تعف فيفضلك * قال بل العفو يا ابراهيم فكبر ابراهيم ثم خر ساجدا ثم أمر المأمون بالاحتفاظ به الى بكرة فلما كان الغد أقعد ابراهيم في دار المأمون والمقنعة التي تنقع بها في عنقه والملحمة على صدره ليرى الناس الحال التي أخذ عليها ثم حوله الى أحمد بن أبي خالد ثم عفا عنه من بعد أن كان وكل به فقال ابراهيم في ذلك من كلمة له

ان الذي قسم الخلافة حازها * من صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها * وحوى رداؤك كل خير جامع
فبذلت أعظم ما يضيّق ببذله * وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عن لم يكن عن مثله * عفو ولم يشفع اليك بشافع
وهي طويلة ومطلعها

ياخير من رفلت يمانية به * بعد النبي لايس أو طامع

فذكر أن المأمون قال حين أنشده هذه القصيدة * أقول كما قال يوسف لاختوته

لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين

واختلف أهل مصر في أيام المأمون وخرج عن طاعته عبد الله بن السرى واستقل بحكم البلاد فأكبر المأمون هذا الامر جدا وسير عبد الله بن طاهر الى قتال ابن السرى فقدم ابن طاهر في سنة عشر ومائتين فلما قرب من مصر وصار على مرحلة قدم قائدا من قواده اليها لينظر موضعا يعسكر فيه وكان ابن السرى قد خندق على مصر وبث العيون والارصاد فجاء الخبر بوصول قائد ابن طاهر الى ما قرب منه فخرج اليه في أصحابه فالتقى هو والقائد

واقنتلوا قتالا شديدا وكان القائد في قلة فسير بيدا الى عبد الله بن طاهر يخبره بما هو عليه
 فجعل عبدالله الرجال على البغال وجنّبوا الخيل وأسرعوا السير فلحقوا بالقائد وهو يقاتل ابن
 السرى فلما رأى ابن السرى ذلك خاف ولم يقدر على الصبر في القتال فانهمز وتساقت أكثر
 أصحابه في الخندق فكان من هلك منهم بسقوط بعضهم على بعض أكثر من قتله الجند
 بالسيف ودخل ابن السرى مصر وأغلق الباب عليه وعلى أصحابه وحاصره عبد الله فلم يعد
 ابن السرى يخرج اليه واشتد على ابن السرى الامر فأرسل الى عبد الله ألف وصيف
 ووصيفة مع كل واحد منهم ألف دينار وكان ارسالهم ليلا فردّهم عبدالله وكتب اليه لوقبلت
 هديتكم نهارا لقبيلتها ليلا بل أنتم بهديتكم تفرحون أرجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل
 لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون فعند ما وصل الكتاب الى ابن السرى خاف كثيرا
 وطلب الامان

وبعد أن فرغ عبد الله من قتال ابن السرى وتم له فتح مصر سار بعسكره الى الاسكندرية
 لاستخلاصها من أيدي المنغليين عليها فقد كان خرج جمع من الاندلس فنغلبوا عليها واستتب
 قدمهم فيها وأحدثوا بها من الاحداث ما راق لهم فلم يكن لاهل الاسكندرية قبل على ردهم
 لقيام فتنة ابن السرى وغيره من خرج وكان يقدم هؤلاء القوم رجل يدعى أبا حفص وكان
 داهية حسن السياسة فلما رأى أبو حفص كثرة عسكر عبدالله وأن لا قبل له على قتاله أجاب
 الى الطاعة وسأله الامان على أن يتحمل بن معه عن الاسكندرية الى حيث أطراف الروم
 فأعطاهم الامان على ذلك فرحلوا ونزلوا بجزيرة اقريطس واستوطنوها وأقاموا بها فأعقبوا
 وتنازلوا وجعل عبدالله يدبر الامور ويسوس البلاد حتى استوثقت منه الرعية بالطاعة فولاه
 المأمون الولاية على مصر والشام والجزيرة وأطلق كلمته فكبرت هيئته وحسده الناس وقال
 للمأمون بعض اخوته ان عبد الله بن طاهر عيل الى ولد على بن أبي طالب ويقنى أن تكون
 الخلافة فيهم وكذا كان أبوه قبله فأنكر المأمون ذلك ولم يصدقه فعاوده أخوه المعتصم وبالغ
 في الامر لسكراته في عبد الله فوضع المأمون رجلا وقال له امش في هيئة القراء والنسك
 الى مصر فادع جماعة من كبارها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ثم سر الى عبد الله بن
 طاهر فادعه اليه واذكر له مناقبه ورغبه فيه واجتث عن باطنه واثقني بما تسمع ففعل الرجل
 ذلك فاستجاب له جماعة من الاعيان فقعده بباب عبد الله بن طاهر فلما خرج عبد الله يريد
 الركوب نهض اليه الرجل وناوله رقعة فتناولها وسار فلما عاد الى منزله أرسل يطلب الرجل فلما
 دخل عليه الرجل قال له قد فهمت ما في رقعتك فهات ما عندك فقال ولي أمانك قال نعم فدعاه
 الى القاسم من ولد على بن أبي طالب وذكّر فضله وزهده وعلمه فقال عبد الله أنصفني يا هذا
 قال نعم قال هل يجب شكر الله على العباد قال نعم قال فتجنيء الى وأنا في هذه الحالة من
 النعم لي خاتم في المشرق جائز وخاتم في المغرب جائز وفيما بينهما أمرى مطاع ثمما ألتفت عن
 يميني ولا شمالي وورائي وأمامي الا رأيت، نعمة لرجل (يعني المأمون) أنعمها علي ومنسة ختم

بها رقبتى وبدا لأتخه بيضاء ابتدأتني بها تفضلا وكما فهل اذن تدعوني الى أن أكفر بهذه النعم
وهذا الاحسان وتقول اغدر بن كان أولى بهذا وأحرى واسع في ازالة خيط عنقه وسفك دمه
أترك لودعوتني الى الجنة عيانا أ كان الله يحب منى أن أغدر به وأكفر احسانه وأنكث
بيعته فسكت الرجل فقال له عبد الله ما أخاف عليك الا نفسك فارحل عن هذا البلد فان
السلطان الاعظم اذا بلغه ذلك كنت الجاني على نفسك ونفس غيرك فلما أيس منه جاء الى
المأمون فأخبره فاستبشر وقال ذلك غرس يدي والف أدبى وقراب سيقى ثم كتم الامر على
عبد الله حتى مات المأمون

ولما كانت سنة اثنتي عشرة ومائتين نادى منادى المأمون برئت الذمة من أحد من
الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب الرسول وتكلم في أشياء من التسلاوة
انها مخلوقة وغير ذلك * قلت * وتنازع الكتاب في السبب الذي من أجله أمر بالنسداء
في أمر معاوية فقيل في ذلك أقاويل منها أن بعض سماره حدثت بحديث عن مطرف بن
المغيرة بن شعبة الثقفي وقد ذكر هذا الخبر ابن بكار في كتابه في الاخبار المعروفة بالموقفيات
التي وضعها للوفى وهو ابن الزبير * قال سمعت المسدائني يقول قال مطرف بن المغيرة بن شعبة
وفدت مع أبي المغيرة الى معاوية فكان أبي يأتيه يتحدث عنده ثم ينصرف الى فيذكر معاوية
ويذكر عقله ويحجب مما يرى منه اذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء فرأيته مغتما فانتظرته
ساعة وظننت أنه لشيء حدث فينا أو في عملنا فقلت له مالي أراك مغتما منذ الليلة قال يا بني
اني بحثت من عند أخيت الناس قلت له وما ذلك قال قلت له وقد خلوت به انك قد بلغت
منا يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا فأنك قد كبرت ولو نظرت الى اخوتك
من بنى هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه فقال لي هيات هيات
ملك أخوتهم فعدل وفعل ما فعل فوالله ما عندهم أن هلك فهلك ذكره الا أن يقول قائل أبو
بكر ثم هلك أخو عدى فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ما عندهم أن هلك فهلك ذكره الا أن
يقول قائل عمر ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه فعمل ما عمل وعمل به
فوالله ما عندهم أن هلك وهلك ذكره وذكر ما فعل به وانأ هاشم يصرخ به في كل يوم خمس
مرات (أشهد أن محمدا رسول الله) فأى عمل يبقى مع هذا * لا أم لك * والله الا دفنا دفنا
قال وان المأمون لما سمع هذا الخبر بعثه ذلك على أن أمر بالنسداء على حسب ما وصفنا
وانتشرت الكتب في الآفاق بلغنه على المنابر فأعظم الناس ذلك وأكبروه واضطربت العامة
فأشير عليه بترك ذلك فتركه

قال صاحب مروج الذهب أخبرنا القاضي أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يزيد الدمشقي
بدمشق قال لما توجه المأمون غازيا ونزل البسديون جاءه رسول ملك الروم فقال له ان الملك
يخبرك بين أن رد عليك نفقتك التي أنفقتها في طريقك من بلدك الى هذا الموضع وبين أن
يخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار وبين أن يعمر لك كل بلد

للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان وترجع عن غزاتك فقام المأمون ودخل خيمة
 فصلى ركعتين واستخار الله عز وجل وخرج فقال الرسول قل له أما قولك ترد على نفقتي
 فاني سمعت الله تعالى يقول في كتابنا حاكيا عن بلقيس * واني مرسل اليهم بهدي فناظرة
 بما يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أعتدوني بحال فما آتاني الله خيرا مما آتاكم بل أنتم
 بهديتكم تفرحون * وأما قولك انك تخرج كل أسير من المسلمين في بلد الروم فما في يدك
 إلا أحد رجلين اما رجل طلب الله عز وجل والدار الآخرة فقد صار الي ما أراد واما رجل
 الدنيا فلا فك الله أسره * وأما قولك انك تعمر كل بلد للمسلمين قد خربت الروم فلو أني
 قلعتم أقصى حجر في بلاد الروم ما اعتضت بامرأة عثرت عثرة في حال أسرها فقالت واحمداه
 واحمداه * عد الي صاحبك فليس بيني وبينه الا السيف يا غلام اضرب الطبل فرحل
 فلم ينثن عن غزاته حتى فتح خمسة عشر حصنا وانصرف فزل على عين البديدون المعروفة
 بالقشيرة فأقام هنالك حتى ترجع رساله من الحصون فوقف على العين ومنع الماء فأعجبه
 ماؤها وبرده وصفائوه وبياضه وطيب حسن الموضع وكثرة الخضرة فأمر بقطع خشب
 طوال وأمر به فبسط على العين كالبخر وجعل فوقه كالازج من الخشب وورق الشجر
 وجلس تحت الكنيسة التي عقدت له والماء تحته وطرح في الماء درهم صحيح فقرأ كتابته وهو في
 قرار الماء لصفاء الماء ولم يقدر أحد أن يدخل يده في الماء من شدة برده * فبينما هو كذلك
 اذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنها سبيكة فضة فجعل لمن يخرجها سيفا فبادر بعض الفراشيين
 فأخذها وصعد فلما صارت على حرف العين أو الخشب الذي عليه المأمون اضطربت وأفلقت
 من يد الفرش فوقعت في الماء كالخجر فنضح من الماء على صدر المأمون ونحره وترقوته فبلت
 ثوبه ثم انحدر الفرش ثابته فأخذها ووضعها بين يدي المأمون في منديل تضطرب فقال المأمون
 تقلى الساعة ثم أخذته رعدة من ساعته فلم يقدر أن يتحرك من مكانه فغطى بالحف والدواويج
 وهو يرتعد كالسعة ويصيح البرد البرد ثم حوّل الي المضرب ودرّ وأوقدوا النيران حوله وهو
 يصيح البرد البرد ثم أتى بالسمكة وقد فرغ من قلبها فلم يقدر على الذوق منها وشغله ما هو فيه عن
 تناول شيء منها ولما اشتد به الامر سأل المعتصم بختيشوع وابن ماسويه في ذلك الوقت عن
 المأمون وهو في سكرات الموت وما الذي يدل عليه علم الطب من أمره وهل يمكن برؤه وشفائوه
 فتقدم ابن ماسويه وأخذ إحدى يديه وأخذ بختيشوع يده الأخرى وأخذوا الجسة من كتف يديه
 فوجدوا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء والانحلال والترقت أيديهما ببشرته لعرق كان
 يظهر من سائر جسده كالزيت أو كالعاب بعض الافاعي فأخبر المعتصم بذلك فسألها عن ذلك
 فأنكرتا وانهما لم يجدها في شيء من الكتب وانه دال على انحلال الجسد * ثم أفاق المأمون
 من غيبته وفتح عينيه من رقدته فأمر باحضار ناس من الروم فسألهم عن اسم الموضع
 والعين فأحضر واليه عدة أسرى وأدلاء وقيل لهم فسروا هذا الاسم (القشيرة) فقيل له تفسيره
 مدرجيلك فلما سمعها اضطرب من هذا القول وتطير منه وقال سلوهم ما اسم الموضع بالعربية

فقالوا الرقة وكان فيما علم من مولد المأمون أنه يموت بالموضع المعروف بالرقة وكان المأمون كثيرا ما يجيد عن المقام بمدينة الرقة فرارا من الموت فلما سمع هذا من الروم علم أنه الموضع الذي وعد به فيما تقدم من مولده وان فيه وفاته وقيل ان اسم البديون تفسيره مد رجليلك والله أعلم بكيفية ذلك وأحضر المعتصم الاطباء حوله يؤمل خلاصه مما هو فيه فلما ثقل قال آخر جوفى أشرف على عسكري وأنظر الى رجالي وأتئين ملكي وذلك في الليل فأخرج فأشرف على الخيام والجيش وانتشاره وكثرته وما أوقدوا من النيران فقال * يامن لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ثم رد الى مرقد * وأجلس المعتصم رجلا يلقنه الشهادة لما ثقل مرضه فرفع الرجل صوته ليقولها فقال له ابن ماسويه لا تصيح فوالله لا يفرق بين ربه وبين ماني في هذا الوقت ففتح عينيه من ساعته وبهما من العظم والكبر والاحرار ما لم ير مثله قط وأقبل يحاول البطش بيديه بآبن ماسويه ورام مخاطبته فججز عن الكلام فرمى بطرفه الى السماء وقد امتلأت عيناه دموعا فانطلق لسانه وقال يامن لا يموت ارحم من يموت وقضى من ساعته وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين وحمل الى طرسوس فدفن بها فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وقيل في سبب علته وموته غير ذلك أيضا * قال ابن خلكان وكان المأمون عظيم العفو جوادا بالمال عارفا بالنجوم والنحو وغيرهما من أنواع العلوم خصوصا علم النجوم وكان يقول لو يعلم الناس ما أجده في العفو من اللذة لتقربوا اليّ بالذنوب وقال غيره أنه لم يكن في بني العباس أعلم من المأمون وكان يشتغل بعلم النجوم كثيرا وفي ذلك يقول أبو سعد الخزومي

هل رأيت النجوم أغنت عن الماء * مـون شـياً ومـلكـه المـائـوس

خلفوه بعـرصـتى طـرسـوس * مثـلـها خـلفـوا أبـاه بطـوس

وكان أبيض مليح الوجه مر بوعا طويل اللحية دينا عارفا بالعلم فيه دهاء وسياسة وخبرة

بالامور

واستأمر على مصر في خلافته المطلب في سنة تسع وتسعين ومائة ثم ولي السرى بن الحكم سنة مائتين ثم ولي سليمان بن غالب سنة احدى ومائتين ثم أعيد السرى بن الحكم في السنة فما زال الى أن مات في سنة خمس ومائتين فولى بعده أبو نصر محمد بن السرى ثم تغلب عليها عبد الله بن السرى في سنة ست وأقام مستبدا بحكمها الى سنة عشرة وقد استفعل أمره وكادت تظهر كفته ويستقل بملكها فوجه اليه المأمون عبد الله بن طاهر في عسكر عظيم فقاتله وطال القتال بينهما واشتد ومازالا حتى استنقذها منه ابن طاهر بعد حروب يطول ذكرها وقد ذكر الوزير أبو القاسم المغربي أن البطيخ العبد لاوى الذي بعصر منسوب الى عبد الله ابن طاهر هذا قال ابن خلكان اما لانه كان يستطيه أولاده أول من زرعه بها * ثم ولي بعده عيسى بن يزيد الجلودى ثم في سنة ثلاث عشرة ومائتين ثار رجلان بصر وهما عبد السلام وابن حليس فخلعا طاعة المأمون واستحوذا على الديار المصرية وتبعهما طائفة من القيسية

واليمانية القاطنين بمصر وقطعا الخطبة للمأمون واستبدا بالحكم فشق ذلك على المأمون واستعظمه جدا وولى أخاه أبا اسحق بن الرشيد نيابة مصر مضافة الى الشام فقدمها سنة أربع عشرة ومائتين وقاتل عبد السلام المذكور وابن حليس قتالا عنيفا ومازال حتى فتحها عنوة وقبض على عبد السلام وابن حليس وقتلها وأقام بمصر ثم ولى عليها عمر بن الوليد التميمي ثم صرف وولى أبو عبيد عيسى بن يزيد الجلودي ثم ولى عبدويه بن جبلة سنة خمس عشرة ومائتين ثم صرف وولى عيسى بن منصور مولى بني نصر وفي أيامه قدم المأمون الى مصر وزار الكثير من مدنها وقرها وبقى عيسى الى سنة ثمان عشرة ومائتين وهي السنة التي مات فيها المأمون كما تقدم

ومات في خلافة المأمون مرقس بطررك الاسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة وقيل عشرين سنة وسبعين يوما فأقيم بعده يعقوب وهو خسيهم وأصله من مدينة الاسكندرية وهو راهب من دير أبو مقار وفي أيام مرقس هذا كانت الفتنة بين الامين وعبد الله المأمون وولى هرون الرشيد كما تقدم بيانه في محله فانتهت النصارى يومئذ بالاسكندرية وأحرقت لهم مواضع كثيرة جدا وأحرقت أيضا ديارات وادى هيب ونهبت فلم يبق من رهبانها الا نفر قليل وكانت شدة عظيمة * وفي أيامه مضى بطررك الملكية الى بغداد وعالج بعض خطايا أهل الخليفة وقد كان طبييا ماهرا عارفا بالطب جيدا حاذقا فيه فلما عوفيت تقدم الى الخليفة في رد كائس الملكية التي كانت القبط تغلبت عليها وأخذتها منهم فكذب الى عامله بمصر بردها فاستردها قهرا وتغلب الملكيون وقهروا المتأصلين وعلت كلمتهم وتولى البطررك المذكور بطركية الملكية أربعين سنة ثم مات واشتد الجور على القبط لذلك وسامهم العمال الخسف وضيق عليهم أصحاب جباية الاموال فلما ضاق بهم الخناق انتقضوا في سنة ست عشرة ومائتين فأوقع بهم الأوفشين وقاتلهم قتالا عنيفا حتى نزلوا على حكم عبد الله المأمون ورجعوا الى الطاعة فحكم فيهم بقتل الرجال وبيع النساء والذرية فبيعوا وسبوا أكثرهم ومن هذا الحين ذلت القبط في أرضهم وغلبهم المسلمون على عامة القرى وشددوا عليهم وضيقوا وبالغوا في تذليلهم فاتخذوا كتابة الخراج حرفة يستعينون بها على الوقت بعد أن كانوا سادة البلاد وأصحاب حقولها ومزارعها وغياضها وبساتينها وكان لهم بعد ذلك مع المسلمين أخبار كثيرة سيأتي ذكرها في محله

(الفصل الثامن)

(في خلافة أبي اسحق ابراهيم المعصم بن هرون الرشيد)

ثم قام بالامر بعد المأمون أخوه أبو اسحق ابراهيم المعصم بن هرون الرشيد ببيع له

بالخلافة يوم موت أخيه سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية أى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة
 ميلادية بعهد منه فلما استوثق له الامر قام ملك الروم المسمى طيوفيل قيصر في جمع عظيم
 وبلغ زمطة فسبي وقتل وحرق وخرّب وسبى من المسلمين والمسلمات خلقا كثيرا حتى بلغ ملطية
 وغيرها فقام المعتصم لقتاله وكان مغازيا شجاعا ليس في بنى العباس أشجع ولا أقوى قلبا
 منه وقصد عورية التي كانت أعظم المدن عند الروم فوصلها وحاصرها خمسة وخمسين يوما
 وخرّب أسوارها ودخلها عنوة قتل وقبّل فيها ثلاثين ألفا وسبى مثلها وفعل أفعالا قد
 أضربنا عن إيرادها هنا * وكان المعتصم قد وجه بجيف بن عنبسة الى بلاد الروم لقتالها
 ولكنه لم يطلق يده في النفقات كما أطلق يد الافشين ولم يدحه على شئ فعله البتة وقد
 استقصر أمره فأحس بجيف بذلك وأكبره جدا فدخّل على العباس بن المأمون يوما وجعل
 يويخه على فعله من مبايعة المعتصم عند وفاة المأمون ثم أخذ يشجعه على خلع بيعة
 المعتصم وارجاع الامر لنفسه فقبل العباس قوله وتآقت نفسه الى الاستبداد بالامر قدس
 رجلا اسمه الحرث السمرقندي أحد أقارب عبيد الله بن الواضح وكان العباس يأنس به ويعيل
 اليه وكان الحرث أديبا له عقل ومدارة فجعله العباس رسوله وسفيره الى القواد فجعل يدور
 في العسكر حتى استماله جماعة من القواد وبايعوه وجماعة من خواص المعتصم فكان يقول
 لكل من بايعه اذا أظهرنا أمرنا فليثب كل منكم بالقائد الذي هو معه ووكل من بايعه من
 خواص المعتصم بقتل المعتصم وكذلك فعل مع غيرهم من بقية الخواص الذين بايعوه
 فضمنوا له ذلك فلما كان اليوم الذي دخل فيه المعتصم الدرب بعسكره يريد أنقرة وعمورية
 أشار بجيف الى العباس أن يثب بالمعتصم في الدرب ويقتله ويرجع الى بغداد فان الناس
 يفرحون بانصرافهم من الحرب فأبى العباس ذلك وقال لأفسد هذه الغزوة حتى دخلوا بلاد
 الروم وافتتحوا عمورية فعاود بجيف العباس في الركوب على المعتصم وقتله ودس الى العسكر
 بأن ينتهبوا الغنائم التي غنمها من عمورية كي لا يبقى مع المعتصم أحد فيتمكن العباس من
 قتله فلم يظاوعه العباس ولم يأذن أحدا ممن بايعوه بالوثوب وعلم المعتصم بما ينويه العباس
 وبالخال جيمه وبجميع من بايعه من القواد وغيرهم فأحضر العباس ليلة في مجلس الشراب
 وجعل يسقيه حتى سكر ثم استخلفه أن لا يكتمه من أمره شيئا فشرح له أمره كله فأمر به
 فقيدوه في الخال وسلّمه الى الافشين فقبسه وتبّع المعتصم أولئك القواد فلما نزل بمنج طلب
 العباس الطعام فقدم اليه طعاما كثيرا فأكل ومنع الماء وأدرج في مسخ فمات من يومه
 وفعلوا كذلك بجيف ومن كان معه ثم قدم راجعا الى الثغور

وعم المعتصم المدينة التي كان أنشأها الرشيد ولم يستتمها وذلك في سنة عشرين ومائتين
 وسماها سمرن رأى فرخها الناس وقالوا سامرا وصارت دارا لملك العباسيين من خلافة
 المعتصم * والمعتصم هذا أول من استخدم الترك في جنده لشدهم وبأسهم وخبرتهم بالحروب
 إذ كانت قد قلت حماسه العرب وارتاحوا للعيشة الرافهة حتى أنهم لم يجسروا على مقابلة

الروم عند ما قام ملكهم طيوفيل لقتال المعتصم ولم يرده الا الترك وكان لذلك يجب الاتراك وشراءهم من ايدى مواليم فاجتمع له منهم اربعة آلاف فالبسهم انواع الدباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وابانهم بالرى عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوما في حوفى مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنقذ رجال خراسان من الفراغنة وغيرهم من الاشروسية فكثرت جيشه وضمهم وكانت الكلمة بين عساكره للترك فتكبروا وجاروا وظلموا وكافوا يؤذون العوام بمدينة بغداد بجرهم الخيول في الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمة لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير فأغضب ذلك المعتصم وعزم على النقلة منهم والجلاء عن بغداد وأن ينزل في فضاء من الارض فنزل الراذان على اربع فراسخ من بغداد فلم يستطع هواءها فلم يزل ينتقل وينقر المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هنالك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذوا من دجلة فبنى هنالك قصرا وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وختل من السكان الا اليسير وكان فيما قاله بعض العيارين في ذلك معيرا للمعتصم بانتقاله عنهم

أيا ساكن القاطول بين الجرامقة * تركت ببغداد الكباش البطارقة

وكان المعتصم داهية كبير السياسة مقداما صعب المراس طلب الامام أحمد قبل غزوته لمعوية وكان الامام في سجن المأمون وامتحنه بمخلق القرآن بناء على وصية أخيه المأمون وعقد له مجلسا للمناظرة وفيه عبد الرحمن بن اسحق والقاضى أحمد بن أبى دواد وغيرهما فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم في جدال الى اليوم الرابع فأمر بضربه فضرب بالسياط قيل ولم يزل عن الصراط الى أن أنجى عليه ونحسه بحيف بالسيف ورعى عليه بارية وديس عليه ثم حل وصار الى منزله وكانت مدة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهرا ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويقفى ويحدث الى أن مات المعتصم وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من القول بمخلق القرآن وقال للامام أحمد لا تجتمعن اليك أحدا ولا تساكنى في بلد أنا فيه فأقام الامام أحمد محتفيا لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فرفع المحنة وأمر باحضار الامام أحمد وكرامه واعزازة وأطلق له مالا كثيرا قيل فلم يقبله وفرقه وأجرى المتوكل على أهل الامام وولده في كل شهر اربعة آلاف درهم قيل فلم يرض الامام بذلك * وذكر العراقي في مجمع الاخبار وغيره ان الامام أحمد فوثر في الايام الثلاثة وان المعتصم كان يخلويه ويقول له ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق واني لاشفق عليك مثل شفقتى على ابى هرون يعنى الواثق فأجبتنى فواته لئن أجبتنى لأطلقن غلك يدي ولأطأن عتبتك ولأركبن اليك بجنسدى فيقول يا أمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله تعالى أوسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا طال به المجلس فحجر وقام ورد أحمد في الموضع الذى كان فيه وتتردد اليه رسل المعتصم يقولون يا أحمد أمير المؤمنين يقول لك

ما تقول في القرآن فيرد عليهم كما ردّ أولا فلما كان في اليوم الثالث طلب للمناظرة فأدخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك الزيات والقاضي أحمد بن دواد فقال المعتصم كلمه وناظره فلم يزالوا معه في جدال الى أن قالوا يا أمير المؤمنين اقبله ودمسه في أعناقنا فرجع المعتصم يده ولطم بها وجه الامام أحمد فخر مغشيا عليه فتمعرت وجوه قواد خراسان وكان عم أحمد منهم نخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا عماء ورش على وجهه فلما أفاق من غشيته رفع رأسه الى عمه وقال يا عم لعل هذا الماء الذي رش على وجهي غصب عليه صاحبه فقال المعتصم ويحك أما ترون ما يتحجم به على هذا وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رفعت السوط حتى يقول القرآن مخلوق ثم التفت الى أحمد وقال وأعاد عليه القول فرد أحمد كالاول فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس فعند ذلك قال عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك غير هذا خذوه اخلعوه استحبوه فأخذ وسحب وخلع ثم قال المعتصم السياط قال العراقي وشدوا يديه فخلعت ولم يزل أحمد يتوجع منها حتى مات ثم قال المعتصم للجلادين تقدموا ونظروا الى السياط فقال ائتوا بغيرها ثم قال لاحدهم زمه وأوجع قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ثم قال لآخر أزمه وشد قطع الله يدك فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ولم يزل يدعو رجلا رجلا فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ثم قام المعتصم وجاء وهم محددون به وقال يا أحمد تقتل نفسك أجبن حتى أطلق عنك بيدي وجعل بعضهم يقول له يا أحمد امامك على رأسك قائم فأجبه وبعيف ينخسه بالسيف ويقول أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم وبعضهم يقول يا أمير المؤمنين اجعل دمه في عنقي فرجع المعتصم الى الكرسي ثم قال للجلاذ زمه قطع الله يدك ثم جاء المعتصم اليه ثانيا وقال يا أحمد أجبن فقال كالاول فرجع المعتصم وجلس على الكرسي ثم قال للجلاذ شتد عليه قطع الله يدك * قال أحمد فذهب عقلي فما عقلت الا وأنا في حجرة مطلق عني قال الراوى وكل ذلك وهو صائم لم يفطر رضى الله عنه وضرب ثمانية عشر سوطا * ووجه المعتصم رجلا ينتظر الضرب والجراحات ويعالجه فنظر اليه وقال والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت أشد ضربا من هذا ثم عاجله وبقي أثر الضرب بينا في ظهره الى أن مات والكلام على المهنة بخلق القرآن كثير جدا أضربنا عن ايراده هنا خوف الاطالة

ومات المعتصم في سنة سبع وعشرين ومائتين على دجلة في قصره المعروف بالخاقاني يوم الخميس لثمان عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الاول وقيل لساعتين من ليلة الخميس وهو ابن ثمان وأربعين سنة وقيل ست وأربعين سنة وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية شهور وثمانية أيام وهو الثامن من خلفاء بني العباس قبل وخلف من الذهب ثمانية آلاف دينار ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف درهم ومن الخيل ثمانية آلاف فرس ومثلها من الجمال والبغال ومن الممالك ثمانية آلاف مملوك وثمانية آلاف جارية وكان يقال له الثماني لاجل ذلك وكان أميا وذلك أنه كان له مملوك صغير يذهب معه الى الكتاب فمات فقال له

الرشيد مات مملوكاً يا ابراهيم فقال استراح من الكتاب يا أمير المؤمنين فقال الرشيد أوبلغ منك الكتاب الى هذا الحد اتركوا ولدي لاتعلموه فكان أمياً لذلك * قال زمام الزمان أفاق المعتصم في علقته التي مات فيها فركب في الزلال في دجلة وأنا معه فمر بأزاء منزله فقال يا زمام ازمر لي

يا منزلاً لم تبل أطلاله * حاشي لاطلالك أن تبلى
لم أبك أطلالك لكنني * بكيت عيشي فيك أدولى
والعيش أولى ما بكاه الفتى * لا بد للحزون أن يسلى

قال فما زلت أزمر له هذا الصوت وأكرره وقد تناول منديلاً بين يديه فما زال يبكي فيه وينتخب حتى رجع الى منزله اه ولما احتضر جعل يقول ذهبت الحيل ليست حيلة حتى أصمت ثم مات ودفن بسامرا

واستعمل المعتصم على مصر في خلافته نصر بن كيدر السعيدى سنة تسع عشرة ثم ولى المظفر بن كيدر ثم ولى موسى بن أبى العباس الحنسى ثم ولى مالك بن كيدر سنة أربع وعشرين ومائتين وبقى أميراً عليها في خلافة الواثق بالله الى سنة تسع وعشرين ومائتين كما سيأتى ذكره في محله

ومات في خلافة المعتصم يعقوب بطرك الاسكندرية بعد اقامته بطركا عشر سنين وقيل عشر سنين وثمانية أشهر فأقيم بعده سيمان وهو سمعان حادى خسيهم وفي أيام يعقوب البطرك المذكور خفت الشدة وزال البأس عن المسيحيين فعمرت ديارات القبط وعاد رهبانهم الى مواطنهم وعمرت كنيسة بيت المقدس لمن يرد اليها من الحاج من نصارى مصر وقدم على يعقوب المذكور ديونفوسيس بطرك انطاكية زائراً فأكرم وفادته ولبث طويلاً ثم عاد الى كرسيه ومات أيضاً سمعان البطرك بعد أن أقام سنة وقيل سبعة أشهر وستة عشر يوماً وقيل غير ذلك وكان راهباً من رهبان دير أبو مقار فغلب على كرسي البطريركية بعده سنة وسبعة وعشرين يوماً ثم أقيم بعده يوساب وهو يوسف ثانى خسيهم وأصله من رهبان دير أبو مقار أيضاً وكان تقدمه في سنة سبع وعشرين ومائتين بدير أبو مقار بوادى هيب وهى السنة التي مات فيها الخليفة المعتصم بن هرون الرشيد كما تقدم

(الفصل التاسع)

(فى خلافة هرون الواثق بالله)

ثم قام بالامر بعد المعتصم ابنه هرون الواثق بالله بويج له بالخلافة بسر من رأى التي

هي مدينة السامرة يوم موت أبيه المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين هجرية * أي سنة
 احدى وأربعين وثلثمائة ميلادية وتقدمت البيعة الى بغداد واستقر له الأمر ببغداد وغيرها
 وكان واسع المعروف متعظفا على أهل بيته محبا للرعية ولكنه سلك مسلك أبيه وعه في القول
 بخلق القرآن على انه في سنة ثلاثين ومائتين لما كانت الفدية بين المسلمين والروم على نهر
 اللامس على مسيرة يومين من طرسوس بعد ما وقع بين الفريقين من الحروب الهائلة أمر
 الواثق خاقان خادم الرشيد الذي كان الفداء على يديه يومئذ أن يسأل أسرى المسلمين واحدا
 فواحدا فن قال منهم بخلق القرآن وان الله سبحانه وتعالى لا يرى في الآخرة بالابصار فودي
 به وأعطى دينارا ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم * فلما كان في يوم عاشوراء أنت
 والروم ومن معهم من الاسرى وكان الامر بين الفريقين فكان المسلمون يطلقون أسيرا
 والروم أسيرا فيلتقيان وسط الجسر ومازالوا حتى فرغوا قتل وكانت عدة أسارى المسلمين أربعة
 آلاف وأربعمائة وستين والصبيان ثمانمائة ومائة من أهل الذمة فلما فاض الخبر بما فعله الواثق
 من اكرام الناس على القول بخلق القرآن أكبروا هذا الامر وأعظموه جدا فخرج على الواثق
 لذلك أحمد بن نصر أحد الفقهاء وقام معه آخر اسمه هرون السراج وآخر اسمه طالب وغيرهما
 ودعوا الناس الى أحمد بن نصر فبايعه خلق على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفرقوا
 الاموال في الناس دينارا لكل واحد ففشا أمره وعلم فأرسل الواثق من قبض على أحمد بن
 نصر المذكور وعلى طالب ومن نحا نحوهما وأرسلوا الى الواثق في سامرا قيل فجلس لهم
 مجلسا عاما حضر فيه أحمد بن أبي داود فلم يسأله الواثق عن خروجه بل سأله عن خلق القرآن
 فقال هو كلام الله ثم سأله عن رؤية الله عز وجل في الآخرة فقال جاءت بها الاخبار الصحيحة
 ونصحتي أن لا يخالف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل الواثق العلماء حوله فقالوا
 باستباحة دمه فدعا الواثق بالصمصامة وهو سيفه المشهور فأتضاه ومشى اليه وضربه على
 جبل عاتقه ثم على رأسه ثم وخزه في بطنه ثم أمر سيبا الدمشقي بأن يحجز رأسه فحزها ونصبه
 ببغداد وصلب شلوه عند بابها فزالت الفتنه واحتقن أمرها * وكان الواثق محبا للنظر مكرما
 لاهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآدابهم ممن تقدم وتأخر من
 الفلاسفة والمتطبيين فجرى بحضرته أنواع من العلوم في الطبيعيات وما بعد ذلك من
 الالهيات فقال لهم الواثق قد أحييت أن أعلم كيفية ادراك معرفة الطبيب وما أخذ أصوله
 أدلك من الحس أم من القياس والسنة أم يدرك من جهة العقل أم علم ذلك وطريقه يعلم
 عندكم من جهة السمع كما يذهب اليه جماعة من أهل الشريعة وقد كان ابن بختيشوع
 وابن ماسويه وميخائيل فيمن حضر وقيل ان حنين بن اسحق وملويه فيمن حضر في هذا
 المجلس فقال منهم قائل * زعم طوائف من الاطباء وكثير من متقدمهم أن الطريق الذي
 يدرك به الطب هو التجربة فقط وحدوه بان يتكرر الحس على محسوس واحد في أحوال
 متغايرة فيوجد بالحس في آخر الاحوال كما يوجد في أولها والحافظ لذلك المجرى وزعموا أن

التجربة ترجع الى مباد أربعة هن لها أوائل ومقدمات وبها علت وصحت والها تنقسم التجربة فصارت بذلك أجزاء لها فزعموا أن قسما من تلك الاقسام طبيعي وهو مانفعله الطبيعة في الصحيح والمريض من العرق والرعاف والاسهال والقيء التي تعقب في المشاهدة منفعلة أو ضررا وقسما اراديا وهو مايقع من قبل النفس الناطقة وذلك كمثل منام يراه الانسان وهو أن يرى كأنه عالج مريضاه علة مشاهدة معقولة بشئ من الاشياء معروف فبئرا ذلك المريض من مرضه أو يخطر مثل ذلك بياله في حال فكره فيتردد ويغلب ظنه بعطبه فيجربه بان يفعله كما يرى في منامه فيجده كما يرى أو يخالف ذلك فيفعله مرارا فيجده كذلك وقسما هو نقل وهو على ثلاثة أقسام اما أن ينقل الدواء الواحد من مرض الى مرض يشبهه وذلك كالنقلة من ورم الحجرة الى الورم المعروف بالتملة واما من عضو الى عضو يشبهه وذلك كالنقلة من السفرجل الى الزعرور في علاج انطلاق البطن وكل ذلك لايعمل به عندهم الا بالتجربة وذهب طائفة أخرى منهم الى أن الحيلة في تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها أن ترد أشخاص من العلال ومولداتها الى الاصول الحاصرة الجامعة لها اذا كان لاغاية لتولدها وأن يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر الموجود في الحال والوقت دون الاسباب الفعالة التي عدت ودون الازمان والأوقات والاسباب والعادات ومعرفة طبائع الاعضاء وحدودها الى آخر ما قال مما لا موضع هنا لايراده * قال السعدي * وللوائق أخبار حسان مما كان في أيامه من الاحداث وما كان يجري من المباحثة في العقليات والسمعيات في جميع القروع والاصول مما لايسع المقام شرحها

واعتل الوائق فصلى بالناس يوم النحر أحمد بن أبي دواد وكان قاضي القضاة يومئذ فدعا في خطبته للوائق فقال اللهم اشفه مما ابتليته قيل وكان الوائق مؤثرا لكثرة الجماع فقال لطيبه اصنع لي دواء لذلك فقال الطيب بأمر المؤمنين لاتهمم بدنك بهذا الفعل واتق الله في نفسك فقال لا بد من ذلك فأمر الطيب أن يؤخذ لحم سبع فيغلى عليه سبع غليات ينخل نحر ويتناول منه عند الشراب وزن ثلاثة دراهم ولا يتجاوز هذا القدر فأمر بنذبح سبع فذبح وطبخ لحمه وصار ينقل منه على شرايه فلم يكن الا قليلا حتى استسقى فأجمع رأى الاطباء على أن لا دواء له سوى أن يزل بطنه ثم يترك في تنور قد سجر بحطب زيتون حتى يصير جرا ثم يبل فيه ففعل ذلك ومنع من الماء ثلاث ساعات فجعل يستقيث ويطلب الماء فلم يسقوه فصار في جسده نقاطات مثل البطيخ ثم أخرجه فجعل يقول ردوني في التنور والامت فردوه فسكن صياحه ثم انفجرت تلك النقاطات وقطار منها ماء فأخرج من التنور وقد اسود جلده ومات بعد ساعة قيل ولما احتضر جعل يقول

الموت فيه جميع الناس تشرك * لاسوقه منهم يبقى ولاملك

ماضراهل قليلا في مقابرهم * وليس يغنى عن الملائك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خده بالارض وجعل يقول يا من لايزول ملكه ارحم من

قد زال ملكه * فلما مات غطوه بثوب واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرد من
 البستان فاستل عينيه وذهب بهما ولم يعلموا به حتى غسلوه وهذا من أغرب ما سمع * قال
 صاحب حياة الحيوان * حكى أن ذلك له سبب وهو أن أحمد بن محمد الواثق قال كنت
 أمرض الواثق إذ لحقته غشية فما شككت أنه قد مات فقال بعضنا لبعض تقدموا فما
 جسر أحد منا فتقدمت أنا فلما أردت أن أضع اصمعي على أنفه فتح عينه فكذت أن
 أموت فرعما وتأخرت إلى خلفي فعلمت قبيلة سيف بالعتبة وذعرت فاندق السيف فكاد أن
 يدخل في لمحي فخرجت وطلبت سيفاً غيره ثم رجعت فوقفت عنده فوجدته مات بلا شك
 فشدت لحيته ونمضته وأخذ الفراشون تلك الفرش الثينة ليردوها إلى الخزانة وترك
 وحده في البيت فقال لي أحمد بن أبي دواد القاضي إنا نستغل بعقد البيعة فاحفظه حتى
 يدفن فرجعت وجلست عند الباب فسمعت بعد ذلك حركة أرعبتني فدخلت فإذا يجرد قد جاء
 فاستل عينيه فأكلهما فقلت لاله الاالله هذه العين التي فتحها من ساعة فعثرت واندق سيني
 هيبة لها اه * ومات الواثق بسر من رأى في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين هجرية أي سنة
 تسع وستين وثمانمائة للميلاد وهو ابن ست وثلاثين سنة وأشهر وكانت خلافته خمس سنين
 وتسعة أشهر وكان أبيض مليحاً بعلوه اصفرار حسن اللحية في عينه نكتة عالماً أديباً جيد
 الشعر شجاعاً مهيباً حازماً فيه جبروت كايه

واستعمل على مصر في خلافته عيسى بن منصور حيث أعاده إليها ثانية بعد خلع مالك
 ابن كيدر في أخريات سنة تسع وعشرين ومائتين وبقى أميراً عليها إلى خلافة جعفر
 المتوكل في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كما سيأتي ذكره في محله

(الفصل العاشر)

(في خلافة جعفر المتوكل على الله)

ثم قام بالأمر بعد الواثق أخوه جعفر المتوكل على الله ببيعة له بالخلافة بسر من رأى
 التي هي سامرا يوم موت أخيه الواثق بعهد منه في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين
 للهجرة أي سنة ست وأربعين وثمانمائة للميلاد وذلك أنهم كانوا أنوا بمحمد ولد الواثق ليبياعوه
 خلافاً للعهد فألبسوه قلنسوة سوداء وكان حرداً صغيراً فلما رأوه على هذا الحال عدلوا عن
 رأيهم وأحضروا جعفرًا أما الواثق بن المعتصم وبياعوه وأخلوا عن ولده محمد المذكور ولقبوا
 جعفرًا بالمتوكل وكان عمره يوم ببيعة ستاً وعشرين سنة وأول من سلم عليه بالخلافة أحمد بن
 أبي دواد وألبسه الطويلة وعمه وقبل بين عينيه وقال له السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله

وركانه فلما استقرت به الخلافة رفع المحنة بمخلق القرآن وأظهر السنة وأمر بنشر آثار صاحب الشريعة قال ابن خلكان في ترجمته انه قال ركبت الى دار الواثق في مرضه الذي مات فيه لاعوده جلست في الدهليز أنتظر الاذن فيينا أناجالس اذ سمعت النياحة عليه واذا بايдах ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتعلان في أمرى فقال نقله في التنوير وقال ايдах بل ندعه في الماء البارد حتى يموت ولا يرى عليه أثر القتل فيبيناهما على ذلك اذ جاء أجد بن أبي دواد القاضي فدخّل وحدثهما كلاما لأعقله لما دخلني من الخوف وشغل القلب بأعمال الخيلة في الهرب فيبينما أنا كذلك واذا بالعلمان يتعادون ويقولون انهض يا مولانا فلم أشك أنى داخل لأبايع ولد الواثق ثم ينفذ في ما قدر فلما دخلت بايعوني فسألت عن الحال فأعلمت أن ابن أبي دواد كان السبب في ذلك ثم ان المتوكل قتل ايдах بالماء البارد وابن الزيات في التنوير وهذا من أغرب الانفاق وبغيب الظفر ومن العجب أيضا أن محمد بن عبد الملك الزيات هو الذي صنع التنوير ليعذب فيه الناس فعذب الله فيه * انتهى

وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب وذريته فأمر في سنة ست وثلاثين ومائتين بهدم قبر الحسين بن عليّ وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من اتيانه فنأدى بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبر الحسين بعد ثلاثة أيام حبسناه في المطبخ نخاف الناس وهربوا وتركوا زيارته وخرّب وزرعوا موضعه فلم يبق له أثر وكان للمتوكل نديم اسمه عبادة الخنث فكان اذا حضر عند المتوكل في مجلس شراب يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع ثم يرقص بين يدي المتوكل والمغنون يغنون قد أقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين يريدون بذلك عليّ بن أبي طالب فانه كان كذلك والمتوكل يشرب ويضحك ففعل ذلك يوما والمنتصر حاضر فأوما الى عبادة يتهده فسكت عبادة خوفا منه فقال المتوكل ما حالك يا عبادة فقام وأخبره فقال المنتصر يا أمير المؤمنين ان الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس انما هو ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك فكل أنت لحمه اذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه فقال المتوكل للمغنين غنوا جميعا

غار الفتى لابن عمه * رأس الفتى في حرّ أمه

قيل فكان ذلك من الاسباب التي استحل بها المنتصر قتل المتوكل وقيل ان الذي أغراه على بغض عليّ وأهل بيته انما هم جماعة ممن اشتهروا بالتعصب والبغض لعليّ * قال صاحب الكامل منهم عليّ بن الجهم الشاعر الشامي من بني شامة بن لؤي وعمرون فرخ الرنجي وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة من موالى بني أمية وعبد الله بن محمد بن داود الهاشمي المعروف بابن أترجة وكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بأبغادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الواقعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين ولم

يرحوا به حتى ظهر منه ما كان فغطت هذه السيئة جميع حسناته وكان من أحسن الناس سيرة ومنع الناس من القول بمخلق القرآن الى غير ذلك من المحاسن اه

وفي خلافة المتوكل جاءت الروم الى دمياط في ثلثمائة مراكب حربية مع ثلاثة من كبار البحر وأرسوا على مقربة من دمياط وانفق قبل وصولهم أن عنيسة بن اسحق الضبي الذي كان يومئذ على معونة مصر لما حضر العيد أرسل في طلب جميع الجنود الذين بدمياط الى مصر فساروا منها فجاءها الروم وهي خالية فدخلوها وأعمالوا في أهلها القتل وأحرقوا وسبوا ودمروا جامعها وأخذوا ما بها من سلاح وكراع وغير ذلك وسبوا من النساء المسلمات والمسيحيات زهاء ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك وكان عنيسة قد حبس بشر بن الاكشفي بدمياط لامر نقيه عليه فلما أحس بشر بدخول الروم الى البلد كسر قيوده وخرج فقاتلهم وتبعه في ذلك جماعة وسارت الروم الى اشتموم (تنيس) وكان عليه سور وبابان من حديد قد بناه المعتصم في خلافته فنهبوا ما فيه من السلاح والمتاع وأخذوا البايين وأقبلوا راجعين ولم يزل منهم أحدا * وفي خلافته قامت الفتنة بين البيعة أهل النوبة وأهل مصر وقد كان بينهما هدنة من أيام الفتح وكان في بلاد البيعة معادن الذهب يؤدون منها الخس الى مصر فامتنعوا أيام المتوكل وقاموا على من كان من أهل مصر يتلك المعادن فقتلوه فكتب صاحب البريد بذلك الى المتوكل فاستشار في غزوهم فقالوا له انهم أهل ابل وشاه وان بين بلادهم وبلاد المسلمين مسيرة شهر ولا يد فيها من الزاد وان قنيت الازواد هلك الجنود فأمسك عنهم وخاف أهل الصعيد من شرهم فولى المتوكل محمد بن عبدالله القتي على اسوان وقفط والاقصر واسنا وأرمنت وأمره بحرب البيعة وكتب الى عنيسة بن اسحق الضبي عامل مصر يومئذ بتجهيز العساكر معه فسيره في عشرين ألفا من الجنود والمتطوعة وجمت المراكب من القلزم دقيقا وعمرا وأدما الى سواحل بلاد البيعة فلما انتهوا الى حصونهم وقلاعهم زحف عليهم ملكهم واسمه على بابا في أضعاف جنود القتي على المهاري وطاول على بابا عسكر القتي حتى تفتى أزوادهم فيها يكون بلا حرب ولا قتال فلما جاءت المراكب بالمائة ورفق القتي في أصحابه ناجزهم البيعة الحرب وكانت ابلهم نفورة فأمر القتي جنده بالتخاذ الاجراس بخيلهم ثم حملوا عليهم فانهمزموا وأثخن فيهم قتلا حتى استأمنوا على أداء الخراج عما مضى ولما باقى

وكانت أيام المتوكل أحسن الايام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالامن والعدل ولم يكن المتوكل يوصف في عطائه وبذله بالجلود ولا بتركه وامساكه بالخنل ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل مما قد استفاض في الناس تركه الا المتوكل فانه السابق الى ذلك والمحدث له وأحدث أشياء من نوع ما ذكر اتبعه فيها الكثير من خواصه وأكثر رعيته فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه وقواده من يوصف بجود أو افضال أو بتهالي عن مجون وطرب وكان القتيح بن خاقان

التركي مولاه أغلب الناس عليه وأقربهم منه وأكثرهم تقدما عنده ولم يكن الفتح المذكور مع هذه المنزلة من الخلافة ممن يرجى فضله أو يخاف شره ولما كانت سنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية عقد المتوكل البيعة لابنيه الثلاثة وهم محمد ولقبه المنتصر بالله وأبو عبد الله محمد وقيل طلحة وقيل الزبير ولقبه المعترف بالله وإبراهيم ولقبه المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل وأقطع كلا منهم اقطاعا محدودا وطير الاخبار بذلك الى الآفاق فزاد الناس في تعظيمهم وصارت المواكب تغدو وتروح على أبوابهم

وخرج الجند في خلافته وكادوا يشقون عصا الطاعة لولا ما استعمله من الدهاء والحيلة قال سعيد بن نكيس كنت واقفا بين يدي المتوكل في مضر به بدمشق اذ سعت الجند واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ثم خرجوا الى تجريد السلاح والرمي بالنشاب وأقبلت أرى السهام ترتفع في الرواق فقال لي يا أبا سعد ادع لي رجاء الحضاري فسدعونه فقال له يارحاه أما ترى ما خرج اليه هؤلاء فما الرأي عندك فقال يا أمير المؤمنين قد كنت مشفقا في هذا السفر من مثل هذا فاشرت بما أشرت من تأخيره قال المتوكل اليه وقال دع ماضى وقل الآن مما حضر برأيك فقال يا أمير المؤمنين اتوضع الأعطية فقال له فهذا ما أرادوا وفيه مع ما خرجوا اليه ما يعلم قال يا أمير المؤمنين مر بهذا فان الرأي بعده فأمر عبد الله بن يحيى بوضع الأعطية فيهم فلما خرج المال وبدئ بانفاقه دخل رجاء فقال مر الآن يا أمير المؤمنين بضرب الطبل للرحيل الى العسراق فانهم لا يأخذون مما أخرج اليهم شيئا ففعل ذلك فترك الناس الاعطية حتى ان المعطى ليعتلق بالرجل ليعطيه رزقه فلا يأخذه * قال سعيد وقد كان الاثران رأوا انهم يقتلون المتوكل بدمشق وكان حالها فلم يتمكن فيه حيلة بسبب بغا الكبير فدبروا في ابعاده عنه وطرحوا في مضر المتوكل وهو بدمشق الرقاع يقولون فيها ان بغا دبر أن يقتل أمير المؤمنين والعلامة في ذلك أن يركب في يوم كذا في خياله ورجله فيأخذ عليه أطراف عسكره ثم يأخذ جماعة من الغلمان العجم يدخلون عليه فيفتكون به فقرأ المتوكل الرقاع فبهت مما تضمنته ودخل في قلبه من بغا كل مدخل وشكا الى الفتح ذلك وقال له في أمر بغا والاقدام عليه وشاوره في ذلك فقال يا أمير المؤمنين ان الذي كتب الرقاع قد جعل الامر دلائل في وقت بعينه من ركوب الرجل الاطراف من العسكر وتوكيله بنواحيه فبعد ذلك يتبين الأمر وأنا أرى أن تمسك فان صح هذا الدليل نظرنا كيف يفعل وان بطل ما كتب به فالجهد لله وأقبلت بعد ذلك الرقاع تطرح في كل وقت على جهة النصح والصدق فلما علموا بما علم به الخليفة وتمكن به ما عندهم من الأمر كتبوا رقاعا فطرحوها في مضر بغا يقولون فيها ان جماعة من الغلمان والاثرك قد عزموا على الفتك بالخليفة في عسكره ودبروا ذلك وانفقوا عليه وتعاقدوا على أن يأتوه من نواحي كذا ونواحي كذا فآله الله الاما احترست لامير المؤمنين وحوسته في هذه الليلة من هذه المواضع

وحصنتها بنفسك ومن تثق به فانا قد نصحننا وصدقنا وأكثروا طرح الرقاع بهذا المعنى
 والتوكيد في حراسة الخليفة فلما وقف بغا عليها وتابعت عليه لم يأمن أن يكون ما كتب
 اليه فيها حقا مع ما كان وقف عليه من الامر قبل ذلك فلما كانت الليلة التي ذكروها جمع
 جيوشه وأمرهم بالركوب بالسلاح وركب بهم الى المواضع التي ذكرت فأخذها على المتوكل
 وحرسها واتصل الخبر بالمتوكل فلم يشك أن ما كتب له حق فأقبل يتوقع من يوافيه فيفتك
 به وسهر ليلته وامتنع عن الأكل والشرب فلم يزل على تلك الحال الى الغداة وبغا يحرسه
 والأمر عند المتوكل على خلاف ذلك وقد اتهم بغا واستوحش من فعله فلما عزم المتوكل على
 الانصراف قال له يا بغا قد أتت نفسي مكانك منى ورأيت أن أقتلك هذا الصقع وأقر عليك
 ما كان لك من رزق وجه ونزل ومعونة وكل سبب فقال أنا عبدك يا أمير المؤمنين فافعل ما شئت
 وأمرني بما أحببت فخلقه بالشام وانصرف فأحدث الموالى عليه ما أحدثوا فلم يعلم المتوكل
 وجه الحيلة ولم يعرف كل واحد منهما الحيلة في ذلك الى أن تمت الحيلة وذلك انه لما عزم بغا الصغير
 على قتل المتوكل دعا بياغر التركي وكان قد اصطنعه واتخذة وملا عينه من الصلات وكان
 مقدما أهوج فقال له يا باغر أنت تعلم محبتي لك وتقديمي اباك وإيثاري لك واحساني عليك واني
 قد صرت عندك في حد من لا يعصى له أمر ولا يخرج عن محبته وأريد أن أمرك بشئ فعرفني
 كيف قلبك فيه فقال أنت تعلم كيف أفعل فقل لي كيف شئت حتى أفعله قال ان ابني فارسا
 قد أفسد على علي وعمل على قتلي وسفك دمي وقد صح عندي ذلك منه قال فتريد منى ماذا
 قال أريد أن يدخل على غدا فالعلامة بيننا أن أضع قلنسوتي في الارض فاذا أنا وضعتها في
 الارض فاقتله قال نعم ولكن أخاف أن يبدو لك أو تجذب في نفسك على قال قد آمنك الله
 من ذلك فلما دخل فارس حضر باغر ووقف موقف الضارب فلم يزل يراعي بغا أن يضع
 قلنسوته فلم يفعل وظن أنه نسي فغمره بعينه أي افعل قال لا فلما لم ير العلامة وانصرف
 فارس قال له بغا اعلم اني فكرت في أنه حدث وانه ولدي وقد رمت أن أستخلصه هذه المرة
 فقال له باغر أنا قد سمعت وأطعت وأنت أعلم وما دبرت وقد تدرت عليه فيه صلاحه ثم قال
 له وههنا أمر أكبر من ذلك وأهم فعرفني كيف تريد أن تكون فيه قال له قل ما شئت حتى
 أفعله قال أخي وصيف قد صح عندي أنه يدبر على وعلى رفقائي وان مكاننا قد ثقل عليه
 وانه عول على أن يقتلنا ويفيننا وينفرد بالامر قال فماذا تريد أن يصنع به قال افعل هذا فانه
 يصير الى غدا فالعلامة أن أنزل عن المصلى الذي يكون معي قاعدا عليه فاذا رأيتني نزلت
 عنه فضع سيفك عليه واقتله قال نعم فلما صار وصيف الى بغا حضر باغر وقام مقام المستعد
 فلم ير العلامة حتى قام وصيف وانصرف قال فقال له بغا يا باغر اني فكرت في أنه أخي واني
 قد عاقده وحلفت له فلم أستجري أن أفعل ما دبرته ووصله وأعطاه ثم أمسك عنه مدة مديدة
 ودعاه فقال يا باغر قد حضرت حاجة أكبر من الحاجة التي قدمتها فكيف قلبك قال قلبي
 على ما تحب فقل ما شئت حتى أفعله فقال هذا المنتصر قد صح عندي أنه على ايقاع التدبير

على وعلى غيرى حتى يقتلنا وأريد أن أقتله فكيف ترى نفسك في ذلك ففكر باغر في ذلك
ونكس رأسه وقال هذا لا يجيء منه شيء قال وكيف قال يقتل الابن والأب باق اذن
لا يستوى لكم شيء ويقتلكم أبوه كلكم به قال فما ترى عندك قال نبدأ بالاب أولاً فنقتله ثم
يكون أمر الصبي أيسر من ذلك فقال له ويحك ويفعل هذا ويتهماً قال نعم أفعله وأدخل
عليه حتى أقتله فجعل يردد عليه فيقول لانفعل غير هذا ثم قال له فادخل أنت في أثرى فان
قتله والافاقتنى وضع سيفك على وقال أراد أن يقتل مولاه فعلم بغا حينئذ أنه قاتله وتوجه
له في التدبير في قتل المتوكل وكانت الوحشة قائمة بين المتوكل وابنه المنتصر على ما تقدم بيانه
فعمل المنتصر مع بغا على قتل أبيه المتوكل والتخلص منه فبينما المتوكل في قصره يشرب
مع ندمائه وقد سكر اذ دخل عليه بغا الصغير وأمر الندماء بالانصراف ولم يبق عنده الا الفتح
ابن خاقان فاذا الغلمان الذين عينهم المنتصر لقتله قد دخلوا عليه وبأيديهم السيوف فهجموا
فقال الفتح بن خاقان وبلدكم أمير المؤمنين ثم رمى بنفسه عليه فقتلوهما معا ثم خرجوا الى
المنتصر فسلخوا عليه بالخلافة * ذكر عن علي بن يحيى المنجم أنه قال كنت أقرأ على المتوكل
قبل قتله بأيام كتابا من كتب الملاحم فوقف على موضع فيه ان الخليفة العاشر يقتل في
مجلسه فتوقفت من قرأته فقال مالك فقلت خير قال لا بد من أن تقرأه فقرأته وحدث عن
ذكر الخلفاء فقال ليت شعري من هذا الشقي المقتول * قال أبو الوارث قاضي نصيبين رأيت
في النوم آتيا وهو يقول

يانائم العين في جثمان يقظان * ما بال عينك لاتسكى بتهتان

أما رأيت صروف الدهر ما فعلت * بالهاشمي وبالفتح بن خاقان

فأني البريد بعد أيام بقتلهما * وكان قتل المتوكل في شوال سنة سبع وأربعين ومائتين للهجرة
وعمره نحو أربعين سنة وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام وكان
أمير رقيقا مليح العينين خفيف اللحية ليس بالطويل فيه قصف وانهمال على اللهو والمنا كهة
ولكنه أحيا السنة وأمات بدعة القول بخلق القرآن وكان قد عزم على خلع ولده المنتصر من
ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه لفرط محبته لأمه وأخذ يؤذيه ويتهدده ان لم يخلع
نفسه واتفق مصادرته لوصيف وبغا فعلا مع المنتصر على قتله كما تقدم * حدث البخترى قال
اجتمعنا ذات يوم مع الندماء في مجلس المتوكل فتذاكرنا أمر السيوف فقال بعض من حضر
بلغنى بأمر المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له مثيل فأمر
المتوكل بكتاب الى عامله بالبصرة يطلبه بشرائه بما يبلغ فنفذت الكتب على البريد وورد
جواب عامل البصرة ان السيف اشتراه رجل من أهل اليمن فأمر المتوكل بالبعث الى اليمن
يطلب السيف وابتياعه فنفذت الكتب بذلك قال البخترى فيينا نحن عند المتوكل اذ دخل
عليه عبيد الله والسيف معه وعزفه أنه ابتيح من صاحبه باليمن بعشرة آلاف درهم فسر بوجوده
وسجد الله على ما سهل من أمره واتضاه فاستحسنه وتكلم كل واحد منا بما يحب وجعله تحت

ثني فراشه فلما كان من الغداة قال للفتح اطلب لي غلاما تثق بشجاعته ونجدته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسي لا يفارقني في كل يوم ما دمت جالسا قال فلم يستم الكلام حتى أقبل باغر التركي فقال الفتح بأمر المؤمنين هذا باغر التركي قد وصف لي بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أراد أمير المؤمنين فدعا به المتوكل فدفع اليه السيف وأمره بما أراد وقدم أن يزداد في مرتبه وأن يضعف له الرزق قال البختري فوائده ما انتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع اليه الا في الليلة التي ضربه فيها باغره قال ولقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عجباً وذلك أننا تذاكرنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوكة من الجبروت فجعلنا نخوض في ذلك وهو يتبرأ منه ثم حوّل وجهه الى القبلة فسجد وعقر وجهه بالتراب خضوعاً لله عز وجل ثم أخذ من ذلك التراب فنثره على لحينه ورأسه وقال انما أنا عبد الله وان من صار الى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يتكبر قال البختري فتطيرت له من ذلك وأنكرت ما فعله من نثر التراب على رأسه وطيئته ثم قعد للشرب فلما عمل فيه غنى من حضره من المغنين صوتا استحسنته ثم التفت الى الفتح فقال يا فتح ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيري وغيرك ثم أقبل على البكاء قال البختري فتطيرت من بكائه وقلت هذه ثانية فانا في ذلك اذ أقبل خادم من خدم قبيجة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها اليه قبيجة فقال له الرسول بأمر المؤمنين تقول لك قبيجة اني استعمت هذه الخلعة لأمر المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها قال فاذا فيه دراعة حراء لم أر مثلها قط ومطرف خز أحمر كأنه ديبق من رفته قال فلبس الخلعة والتحف المطرف قال فاني على ذلك اذ تحرك المتوكل فيه وقد كان التف عليه المطرف فجذبته جذبته فزقه من طرفه الى طرفه قال فأخذه ولفه ودفعه الى خادم قبيجة الذي جاء بالخلعة وقال قل لها احتفظي بهذا المطرف عندك ليكون كفنا لي عند وفاتي فقلت في نفسي انا لله وانا اليه راجعون انقضت والله المدة قال وسكر المتوكل سكرًا شديدًا وكان من عادته أنه اذا تمايل عند سكره أن يقيه الخدم الذين عند رأسه فينما نحن كذلك ومضى من الليل ثلاث ساعات اذ أقبل باغر ومعه عشرة نفر من الاتراك وهم مثلثون والسيوف في أيديهم تبارق في ضوء تلك الشموع فهجموا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى صعد باغر وآخر معه من الاتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولا كم فلما رأهم الغلمان ومن كان حاضرا من المجلساء والنسباء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويمانعهم قال البختري فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف الذي كان المتوكل دفعه اليه على جانبه الا عين فقدته الى خاصرته ثم ثاب على جانبه الايسر ففعل مثل ذلك وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبججه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في بطنه فأخرجه من منته وهو صابر لا يتنحي ولا يزول قال البختري فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ثم طرح بنفسه على المتوكل فانا جميعا فلفنا في البساط الذي قتلنا فيه وطرحنا ناحية فلم يزالا على حالتهما في ايلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت

الخليفة المنتصر فأمر بهما دفنهما جميعا وقيل ان قبحة كفته بذلك المطرف الممزق بعينه اه
 وكان أوتامش غلام الوائق مع المنتصر فكان المتوكل يبغضه لذلك وكان بغا الصغير توحش من
 المتوكل فكان المنتصر يجتذب قلوب الاتراك اليه وأوتامش يساعده على ذلك وكان عبيدالله
 ابن خاقان الوزير والفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر مائلين الى المعتز بن المتوكل وكانا
 قد أوغرا قلب المتوكل على ولده المنتصر فكان المتوكل لا يبعد أحدا من الاتراك الا اجتذبه
 المنتصر اليه حتى استمال قلوب الاتراك وكثير من الفراغنة والاشروسية الى أن كان من
 الامر ما تقدم وقال الجعترى في غدر المنتصر بأبيه وفتكته به من قصيدة له

أ كان ولي العهد أضمر غدره * فبن عجب أن ولي العهد غادره
 فلا ملك الباقي تراث الذي مضى * ولا جلت ذلك الدعاء منساره

واستعمل المتوكل على مصر في خلافته هرثة بن النضر الجبلي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين
 ثم ولي ابنه حاتم في السنة فأقام شهرا وصرف ثم ولي على بن يحيى سنة أربع وثلاثين
 وصرف ثم ولي أخوه اسحق بن يحيى الجبلي سنة خمس وثلاثين ثم ولي عبيد الواحد بن
 يحيى مولى خزاعة سنة ست وثلاثين ثم ولي عنبسة بن اسحق الضبي سنة ثمان وثلاثين ثم
 عزله وولى يزيد بن عبدالله من الموالى سنة اثنتين وأربعين وبقى الى خلافة المعتز بالله فعزله
 وولى مكانه من سيأتي ذكرهم في محله ان شاء الله

ومات في خلافة المتوكل يوسف بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة وقيل
 سبع عشرة سنة وفي أيام يوسف هذا قدم الى مصر يعقوب مطران الحبشة وقد كانت نفته
 زوجة النجاشي لامر نفته عليه وأقاموا عوضه أسقفا آخر فبعث النجاشي يطلب من البطرك اعادته
 وشدت في ذلك فبعث به اليه وبعث أيضا عدة أساقفة الى افريقية وفي أيامه مات بطرك أنطاكية
 الذي كان قدم الى مصر في السنة الثامنة عشرة من بطركيته وفي أيامه أيضا أوفى سنة
 خمس وثلاثين ومائتين أمر المتوكل الخليفة أهل الذمة يعنى القبط بلبس الطيالسة العسلية
 وشد الزنابير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين في مؤخر السرج وعمل رقعتين على
 لباس الرجال مخالفة للون الثوب قدر كل واحدة منهما أربع أصابع ولون كل واحدة منهما
 غير لون الاخرى ومن خرجت من النساء لبست ازارا عسليا * ولم يقف المتوكل عند هذا الحد
 من الشدة والجبروت حتى منعهم أيضا من لبس المناطق وهدم البيع المحدثه ورسم بأخذ
 العشر من المنازل وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان
 بهم في أعمال السلطان وأن لا يعلم أحد منهم مسلما وكانوا يومئذ هم أصحاب المعارف والعلوم
 على اختلافها وأن لا يظهرها في عيد الشعانين صليبا ولأن يشعلوا في الطريق نارا وأن
 تسوى قبور موتاهم بالارض حتى لا يظهر لها رسم وكتب بذلك جميعه الى الآفاق ولما
 كانت سنة تسع وثلاثين ومائتين هجرية أمر أيضا بأن يلبس الرجل منهم دراعتين عسليتين
 على الدرايع والاقبية وبالاقصص في مراكبهم على ركوب البغال والحير دون الخيل والبراذين

وغير ذلك من صنوف الشدائد والبلايا مما لا يسعنا ابراده هنا * ولما مات يوساب البطرك
في خلال هذه المحن والبسوع الغربية خلا الكرسي بعده ثلاثين يوماً ثم أقيم قسيس يدبر
بوحس اسمه ميخائيل وهو المعروف أيضاً بمخائيل ثالث خسيهم وأصله راهب بالدير المذكور
وكان من الحوادث في أيامه ما سيدكر في محله

(الفصل الحادى عشر)

(في خلافة محمد المنتصر بالله)

ثم قام بالامر بعد المتوكل ابنه محمد المنتصر بويج بالخلافة في الليلة التي قتل فيها
أبوه وبويج له من الغد البيعة العامة وذلك في شهر شوال سنة سبع وأربعين ومائتين
للهجرة أى نحو سنة احدى وستين وثمانمائة لليلاذ فلم تطل مدته ولم يتمتع بالملك وكانت
بيعته بالقصر المعروف بالجعفرى الذى أحدث بناءه المتوكل وهو ابن خمس وعشرين سنة
وقيل ست وعشرين

ذكر عن أبى عثمان سعيد الصغير أنه قال * لما كانت الليلة التي قتل فيها المتوكل كنانى
الدار مع المنتصر فكان كلما خرج الفتح خرج معه واذا رجع قام لقيامه واذا ركب أخذ
بركبه وسوى عليه ثيابه في سرجه وكان اتصل بنا انظر أن عبيدالله بن يحيى قد أعد قوما
في طريق المنتصر ليغتالوه عند انصرافه وكان المتوكل قد أسمع وأحفظه ووثب عليه فانصرف
غضبان وانصرفنا معه الى داره وكان واعد الاتراك على قتل المتوكل اذا نزل من التبيذ قال
فلم ألبث اذ جاءنى رسوله أن احضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين الى الأمير ليركب قال فوقع
في نفسى ما كنا سمعنا من اغتيال المنتصر فركبت في سلاح وعدة وجات باب المنتصر فاذا هم
يخرجون واذا واجن قد جاءه فأخبره أنهم قد فرغوا من المتوكل فركب فلحقته في بعض الطريق
وأنا مرعوب فرأى منى ذلك فقال ليس عليك بأس أمير المؤمنين قد شرق بقدح شربه فحات
رجه الله تعالى فشق علينا ومضينا ومعنا أحد بن الخصب وجماعة من القواد حتى دخلنا
القصر ووكل بالأبواب فقلت له يا أمير المؤمنين لا ينبغي أن تفارقك مواليك في هذا الوقت قال
أجل وكن أنت خلف ظهرى فأحطنا به وبإيعه من حضر وكل من جاء يوقف حتى جاء سعيد
الكبير فأرسله خلف المؤيد وقال امض أنت الى المعتز حتى يحضر فأرسلنى فخصيت وأنا آيس
من نفسى ومعى غلامان لى فلما صرت الى باب المعتز لم أجده به أحدا من الحرس والبوابين
فصرت الى الباب الكبير فدققتسه دقا عنيفا فأجبت بعد مدة من أنت فقلت رسول أمير
المؤمنين المنتصر فضى الرسول وأبطأ وخفت وضاق على الأرض ثم فتح الباب وخرج بي دون

الخادم وأغلق الباب ثم سألني عن الخبر فأخبرته أن المتوكل شرب بكأس شربه فمات لساعته وأن الناس قد اجتمعوا وبايعوا المنتصر وقد أرسلني لأحضر الأمير المعتز ليبياع فدخول ثم خرج فأدخلني على المعتز فقال لي ويلك ما الخبر فأخبرته وعزيتة وقلت تحضر وتكون في أول من يبايع وتأخذ بقلب أخيك فقال حتى نصبح قال فما زلت به أنا ويبدون حتى ركب وسرنا وأنا أحدثه فسألني عن عبيد الله بن يحيى فقلت هو يأخذ البيعة على الناس والفتح قد بايع فأبىس وأتينا باب الخبر ففتح لنا وصرنا إلى المنتصر فلما رآه قرّبه وعانقه وعزاه وأخذ البيعة عليه ثم وافى سعيد الكبير بالمؤيد ففعل به مثل ذلك فأصبح الناس وأمر المنتصر بدفن المتوكل والفتح ولما أصبح الناس شاع الخبر في الماخورة وهي مدينة المتوكل وفي أهل ساحرها يقتل المتوكل فتوافى الجند والساكينة بباب العامة والجعفرية وغيرهم من الغوغاء والعامة وكثر الناس وتسامعوا وركب بعضهم بعضا وتكلموا في أمر البيعة فخرج اليهم عتاب بن عتاب وقيل زرافة فوعدهم عن أمير المؤمنين المنتصر فأسمعوه فدخول عليه فأعلمهم فخرج المنتصر وبين يديه جماعة من المغاربة فصاح بهم وقال خذوهم فدفعوهم فقتلوا وقد مات منهم ستة أنفس

ولما استقام له أمر الخلافة اجتمع أحمد بن الحبيب ووصيف وبغا وهم يومئذ أصحاب الرأي في دولة المنتصر بالله وتآمروا على خلع المعتز والمؤيد ابني المتوكل من ولاية العهد خوفا منهم لأمور كانت بينهم وتعاهدوا على ذلك ووكلا جماعة الأتراك بالعمل فخذوا في ذلك وألحوا على المنتصر وقالوا لا بد من خلعهما من الخلافة ومبايعة ولدك عبد الوهاب ولم يرأوا به حتى أجابهم وسير إلى المعتز والمؤيد من أحضرهما بعد أربعين يوما من خلافته وجعلوا في دار فأحس المعتز بما وراء ذلك وعلم أنهم إنما أتواهما للخلع فكلم أخاه المؤيد في ذلك فقال المؤيد لا أظن أن أمير المؤمنين يفعل ذلك فينهماهما على هذا الحال إذ دخل عليهما جماعة من قواد المنتصر يطلبون منهما الخلع فقال المؤيد السمع والطاعة وقال المعتز لا أخلع نفسي أبدا فان أريدتم القتل فماتكم فاعلموا الخليفة بذلك ثم عادوا وهم أشد مما كانوا عليه وقالوا لا بد من الخلع وقبضوا على المعتز بعنف وأدخلوه بيتا وأغلقوا عليه الباب فلما رأى المؤيد ذلك خشى العاقبة وصاح في وجوههم ويلكم يا كلاب تفاعلون بمولاكم هذه الفعال خلوا عنه ودعوني وإياه حتى أكله فسكتوا عنه وسألوا المنتصر في ذلك فأذن له فدخول عليه المؤيد وقال يا جاهل كيف تأتي الخلع وأنت تعلم أنهم نالوا من أبيك وهو ما نالوا ويحك لا تراجعهم فقال المعتز وكيف أخلع وقد جرى في الآفاق فقال هذا الأمر كان سبب قتل أبيك وهو يقتلك لاحتالة فان كان في سابق علم الله أنك تلي الخلافة يوما لتلين فقال أفعال فخرج المؤيد وقال قولوا لأسير المؤمنين انه أجاب إلى الخلع فذهبوا وعادوا ومعهم كاتب فجلس وقال للمعتز اكتب بخطك خلعك فامتنع فقال المؤيد للكاتب هات قرطاسك أملا على ما شئت فأملى عليه كتابا إلى المنتصر يعلمه فيه ضعفه عن هذا الأمر وأنه لا يحل له أن يتقلده وكره أن

يأثم المتوكل بسببه إذ لم يكن موضعا له ويسأله الخلع ويعلمه أنه قد خلع نفسه وأحل الناس
 من بيعته ثم تناول الورقة المعتز وقال له اكتب فأبى فقال اكتب ويملك فكتب وخرج الكاتب
 عنهما فلم يكن بأسرع من أن دعاهما المنتصر فدخلا عليه فأجلسهما وقال هذا كتابكما فقالا
 نعم يا أمير المؤمنين فقال لهما وطوائف الترك وقوف بين يديه أتراني خلعتكما طمعا في أن
 أعيش حتى يكبر ولدي وأبابع له والله ما طمعت في ذلك ساعة قط وإذا لم يكن لي في ذلك طمع
 فوالله لأن يلبها بنو أبي أحب إلي من أن يلبها بنو عمي ولكن هؤلاء الترك وأوما إليهم بين قائم
 وقاعد ألحوا علي في خلعكما وشددوا في ذلك تخفت ان لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة
 فيأتي عليكما ترياقي صانعا اذن أقتله فوالله ماتني دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت اجابتهم
 الى ما سألوا أسهل علي وأقرب الى المصلحة فقبلا يده فضمهما الى صدره ثم انهما أشهدا علي
 أنفسهما القضاة وبنو هاشم والقواد ووجوه الناس وغيرهم بالخلع وكتب بذلك المنتصر الى
 محمد بن عبد الله بن طاهر والي غيره * حكى عن أبي العباس محمد بن سهل قال كنت أكتب
 لعتاب بن عتاب علي ديوان جيش الشاكرية في خلافة المنتصر فدخلت الى بعض الاروقنة
 فاذا هو مفروش ببساط سوسجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحجرة والزرقنة وحول البساط
 دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية واذا عن عيين
 المصلى صورة ملك وعلي رأسه تاج كأنه ينطق فقرأت الكتابة فاذا هي صورة شيرويه القتال
 لابيهِ ابرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صور ملوك شتى ثم انتهى بي النظر الى صورة
 عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد
 ابن عبد الملك ملك ستة أشهر فحجبت من ذلك واتفاقه عن عيين مقعد المنتصر وعن سماه
 فقلت لأرى أنه يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق
 الى مجلس وصيف وبغا وهما في الدار الثانية فقلت لوصيف أعجز هذا الفراش أن يفرش تحت
 أمير المؤمنين الا هذا البساط الذي عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه
 قاتل أبيه ابرويز وعاش ستة أشهر بعد ما قتل بجزع وصيف من ذلك وقال علي بأيوب بن
 سليمان النصراني خازن الفرش قتل بين يديه فقال له وصيف لم تجد ما يفرش في هذا اليوم
 تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذي كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك
 الفرس وغيره وقد كان ناله آثار الدماء قال سألتني أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال ما فعل
 البساط فقلت عليه آثار دماء فاحسنة وقد عزمتم أن لا أفرشه من ليلة الحادثة فقال لم
 لاتغله وتطويه فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من أثر الحادثة
 فقال ان الامر أشهر من ذلك يريد قتل الاتراك لابيهِ المتوكل فطوينا وبسطناه تحته فقال
 وصيف وبغا اذا قام أمير المؤمنين من مجلسه نخذه وأحرقه بالنار فلما قام أحرق بحضرة وصيف
 وبغا فلما كان بعد أيام قال المنتصر لا يوب بن سليمان افرش ذلك البساط فقال وأين ذلك البساط
 فقال وما الذي كان من أمره قال ان وصيفا وبغا أمراني باحراقه فسكت المنتصر ولم يعد في أمره

شيأ الى أن مات * وكان خلع المنتصر لآخويه المعتز و ابراهيم من ولاية العهد بعده في سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية وقد كان المتوكل أخذ لهم العهد في كتب كتبها وشروط اشترطها وأفرز لكل واحد منهم جزءاً من الاعمال رسمه له وجعل ولي عهده والتالي للملك محمد المنتصر وتالي المنتصر وولي عهده المعتز وتالي المعتز وولي عهده ابراهيم المؤيد وأخذت البيعة على الناس بذلك وفرق فيها أموالا وعم الناس بالجوائز والصلوات وتكلم في ذلك الخطباء ونطقت به الشعراء وكان من الاعمال المشهورة فلم تلبث أن زالت وانطوى خبرها وخرج في أيام المنتصر بناحية اليمن والبوازيح والموصل أبو المود الشادي فحكم واشتد أمره فممن انضاف اليه من المحكمة من ربيعة وغيرهم من الاكراد فسر ح اليه المنتصر جيشا عليهم سما التركي فكانت له مع الشادي حروب فأسر الشادي وأتى به المنتصر فجاد عليه بالعمو وأخذ عليه العهد وخلي سبيله * أخبر أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال رأى بعض الكتاب في المنام في الليلة التي استخلف في صيحتها المنتصر كأن قائل يقول

هذا الامام المنتصر * والملك الحادي عشر

وأمره اذا أمر * كالسيف مالاقي بتر

وطرفه اذا تطر * كالدهر في خير وشر

وأظهر المنتصر الانصاف في الرعية فالت اليه قلوب الخاصة والعامه مع شدة الهيبة منها له واستوزر أحمد بن الخصب ثم ندم على ذلك ونفى عبد الله بن حاقان وذلك أن ابن الخصب ركب ذات يوم فظلم اليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها في صدر المنظلم فقتله فحدث الناس بذلك وقال بها بعض الشعراء يومئذ * حكى عن أبي العباس أحمد بن محمد بن موسى بن الفرات قال كان أحمد بن الخصب سيء الرأي في والده وكان عاملا له فجاءني مخبر من خدم الخاصة فقال ان الوزير قد ندب لاعمالكم فلانا وقد أمره في والدك بكل مكروه وأن يصادره على جملة من المال غليظة ذكرها فقعدت وعندي بعض أصدقائنا من الكتاب أبادر بالكتاب الي والدي بذلك فاشتغلت عن جليبي الكاتب فانسكا على الوسادة وغفا فانتبه مرعوبا وقال قد رأيت رؤيا عجيبه رأيت أحمد بن الخصب واقفا في هذا الموضع وهو يقول يموت الخليفة المنتصر الي ثلاثة أيام * قال قلت له الخليفة في الميدان يلعب بالصولجان وهذه الرؤيا ضرب من البلغم والمرار * وقد قدمنا الطعام فما استمنا الكلام حتى دخل علينا داخل فقال رأيت الوزير يدار الخاصة غير مسفر الوجه واني سألت عن سبب ذلك فقيل لي ان الخليفة المنتصر انصرف من الميدان وهو عرق فدخل الحمام ونام في الباذنج فضربه الهواء وركبته حتى هائلة فدخل عليه أحمد بن الخصب فقال ياسيدي أنت متلفس وحكيم الزمان تنزل من الركوب تعباً فتدخل الحمام ثم تخرج عرفاً فتنام في الباذنج فقال له المنتصر أتخاف أن أموت رأيت في المنام البارحة أتيا أتاني فقال لي تعيش خسا وعشرين سنة فعلمت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري واني أبقى

في الخلافة هذه المدة قال مات في اليوم الثالث فنظروا فاذا هو قد استوفى خمسا وعشرين سنة * وفي رواية ان المنتصر ضربته الرياح يوم الخميس نجس بقين من شهر ربيع الاول ومات مع صلاة العصر نجس ليل خلون من ربيع الآخر وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين وكان أول خليفة من بني العباس أظهر قبره وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك فأذن لها وأظهرته بسامرا وقيل أيضا ان الطيفوري الطيب سمه في مشروط حجه به وقد كان عزم على تفريق جمع الاتراك فأخرج وصيفا في جمع كثير الى غزاة الصائفة بطرسوس ونظر يوما الى بغا الصغير وقد أقبل في القصر وحوله جماعة من الاتراك فأقبل على الفضل بن المأمون فقال قتلتني الله ان لم أقتلهم وأفرق جمعهم بقتلهم المتوكل على الله فلما نظر الاتراك الى ما يفعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة وتدشكا ذات يوم حرارة فأراد الحجابة فخرج له من الدم ثلاثمائة درهم لما كان في الموضع من السم وشرب شربة بعد ذلك خلت قواه * ويقال ان السم كان في مبعض الطيب حين فصدته * وذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الملك بن سليمان بن أبي جعفر قال رأيت في نومي المتوكل والفتح بن خاقان وقد أحاطت بهما نار وقد جاء محمد المنتصر فاستأذن عليهما فنع الوصول ثم أقبل المتوكل على فقال يا عبد الملك قل لمحمد بالكاس الذي سقيتنا تشرب قال فلما أصبحت غدوت على المنتصر فوجدته محجوما فواظبت على عيادته فسمعتة في آخر علة يقول بعلنا فعوجلنا مات من ذلك المرض وذلك في سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة أشهر وأياما وعمره ستا وعشرين سنة وقيل خمسا وعشرين وأمه رومية وكان مربوعا سمينا أعين أقي الانف مليحا مهيبا كامل العقل يحب الخير سخيا أديبا عفيفا وكان يأخذ نفسه بكمارم الأخلاق وكثرة الانصاف وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة الى مثله قيل ولما احتضر أنشد يقول

وما فرحت نفسي بدنيا أخذتها * ولكن الى الرب الكريم مصيري

وكان محبا لعلي بن أبي طالب وأولاده فأمر الناس بزيارة قبر علي والحسين وأمن العلويين وكانوا في خوف أيام أبيه وأطلق وقوفهم وردلهم كثيرا مما أخذ منهم ومن كلامه والله ما عجز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ولاذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه ومات في أيامه ميخائيل بطرك المتأصلين بعد أن أقام سنة وقيل سنة وخمسة أشهر ودفن بدير أبو مقار وهو أول بطرك دفن بالدير المذكور نخسلا الكرسي بعده أحدنا وثمانين يوما ثم أقيم بعده شماس بدير أبو مقار اسمه قسيما وهو قرمان رابع خنسيهم وأصله من مدينة سمنود بأقليم الغربية وكان جليل القدر متواضعا ووقع من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الثاني عشر)

(في خلافة أحمد المستعين بالله)

ثم قام بالامر بعد المنتصر ابن عمه أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم ببيع له بالخلافة ليلة الاثنين لست خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين هجرية أي سنة اثنين وستين وثمانمائة لليلاد وعمره اذ ذلك ثمان وعشرون سنة * قال أصحاب التاريخ * لما مات المنتصر اجتمع غلمانه ومواليه ومماليكه وبينهم بغا الصغير وبغا الكبير وأونامش وغيرهم من كبار المماليك وانفقوا على أن لا يولوا الخلافة أحدا من أولاد المتوكل خوفا على أنفسهم من أولاد المتوكل وشدد أحمد بن الخصب في ذلك فاستحلفوا قواد الترك والمغاربة والاشروسية على ذلك وأجمعوا على أحمد بن محمد بن المعتصم كي لا يخرج الخلافة من ولد مولاهم المعتصم فبايعوه في الليلة المذكورة فلما كان يوم الاثنين سار المستعين الى دار العامة في زى الخلافة وسار ابراهيم بن اسحق بين يديه بالحربة واصطف له بعض الجند صنفين وحضر الدار أصحاب المراتب العالية من العباسيين والطلبين وغيرهم فبينما هم على هذا الحال إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق واذا نحو من خمسين فارسا قالوا انهم من أصحاب محمد بن عبد الله ابن طاهر ومعهم جماعة من أخلاط الناس والغوغاء والسوقة وشهروا السلاح وصاحوا النفير يامنصور وشدوا على من كان هناك من الجند واختلط بعضهم ببعض فحمل عليهم الجند فهزموهم حتى أدخلوهم أحد الدروب وتبعوهم فقتل جماعة من الفريقين ثم تفرقوا وقد كانت البيعة تمت للمستعين وانصرف من حضر من جماعة الأتراك والهاشميين وغيرهم فدخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة فانتهبوا ما كان في خزانها من الاسلحة والسيوف والتروس وغير ذلك فأدركهم بغا في طائفة من الترك فقتل منهم خلقا وأجلاهم عن الخزانة واشتد القتال بين الفريقين ثم تفرقوا وطبروا الخسر بالبيعة الى الآفاق فبايعوا جميعا * ولما قامت الفتنة وخرجت الغوغاء وانتهبوا دار العامة هم الأتراك بقتل المعتز والمؤيد فنعهم أحمد بن الخصب من ذلك وأشار بحبسهما فحبسوا في الجوسق ووكل بهما فلم تتم على ابن الخصب سنة حتى غضب عليه المستعين واستصنى ماله ومال ولده ونفاه الى اقريطش ثم كادت الامور تعطل ونظام الخلافة يختل اذ ظهرت الفتنة ببغداد وسامرا وقامت الغوغاء وانضم اليهم بعض الجنود ففتحوا الجوسق وأخرجوا من بها فبعثوا في طلبهم طائفة من الموالى فوثب العامة بهم فهزموهم فرسم الخليفة بركوب بغا وأونامش ووصيف وعامة الترك فقتلوا من العامة جماعة وصارت العامة تضرب بالاجار وما زالوا بهم حتى فرقوهم وانقضت الفتنة * واستوزر المستعين بالله أبا موسى أونامش المذكور فعملت كلمته واتسعت شهرته وأباح له الخليفة

التصرف في بيت المال وأطلق يده فأخذ وادخر والمواالي تنظر الى الاموال تؤخذ وهم في ضيق وشدة فناروا على أوتامش وانضم اليهم جماعة من العامة وزحفوا اليه وهو في الجوسق مع المستعين فأراد الهرب فلم يمكنه فاستجار بالمستعين فلم يجره وأقاموا على ذلك يومين ثم دخلوا الجوسق وأخذوا أوتامش فقتلوه وقتلوا كاتبه ونهبوا داره فأخذوا منه أموالا كثيرة وتحفا وثيابا فاخرة فلما قتل أوتامش استوزر المستعين أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزيد ثم وقعت بين بغا الصغير وأبي صالح المذكور وحشة فهرب أبو صالح الى بغداد واستوزر المستعين محمد بن الفضل الجرجاني بعده

وظهر بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن اسماعيل ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الطيار نخشى المستعين أمره وسير اليه من قتله وحل رأسه الى بغداد فأمر بصلبه فضج الناس من ذلك لما كان في نفوسهم من المحبة له لانه استفتح أمره بالكف عن الدماء والتورع عن أخذ شئ من أموال الناس وأظهر العدل والانصاف قيل وكان خروجه لذل نزل به وشدة لحقته ومحنة نالته من المتوكل وطوائف الترك ودخل الناس الى محمد بن طاهر يهنؤنه بالفتح وهم مع ذلك في ضجر من مقتل أبي الحسن يحيى ودخل عليهم أبو هاشم الجعفرى وهو داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بينه وبين جعفر الطيار ثلاثة آباء ولم يكن يعرف في ذلك الوقت أقعد نسبا في آل أبي طالب وسائر بني هاشم وقريش منه وكان ذا زهد وورع ونسك وعلم صحيح العقل سليم الخواص منتصب القامة فقال لابن طاهر ابها يا ابن طاهر وخرج من داره وهو يقول يا بني طاهر

فذل الحياة وعز الممات * وكل أراه طعاما وبيلا

فان كان لا بد من واحد * فسيرى الى الموت سيراجيلا

فلما أحس ابن طاهر بما وراء نصب الرأس من قيام الفتنة وخروج الناس أمر بائزها قال بعض الكتاب وكان قتل يحيى عند الناس من أكبر الكبائر فجزعت عليه النفوس جزعا كثيرا ورثاه القريب والبعيد وحن عليه الصغير والكبير * ولما كانت سنة تسع وأربعين ومائتين هجرية عقده المستعين لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة وعزم على البيعة له ولكن منعه من ذلك صغر سنه فطلب عيسى بن فرخا نشاء وهو وزير المستعين يومئذ من أبي النصر الشاعر أن يقول في ذلك شعرا يشرفه بالبيعة له فقال في ذلك قصيدة طويلة منها هذه الابيات

بك الله حاط الدين وانتاس أهله * من الموقف الدحض الذى مثله يردى

قول ابنك العباس عهدك انه * له موضع واكتب الى الناس بالعهد

فقد كان يحيى أوتي العلم قبله * صبيا وعيسى كاسم الناس في المهدي

وخرج في سنة خمسين ومائتين بالري محمد بن جعفر بن الحسن ودعا للحسن بن زيد صاحب طبرستان وكانت له حروب بالري مع أهل خراسان من المسودة فأسر وجعل إلى نيسابور إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فمات في محبسه قيل حنق أنفه * ثم ظهر بها أيضا أي بالري أحمد بن عيسى بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ودعا إلى الرضا من آل محمد وحارب محمد بن طاهر بالري وقام معه ناس كثير ثم انهزم عن الري وسارعها إلى مدينة السلام فدخلها ولم تنكد تسكن الفتنة حتى ظهر أيضا بقزوين الكركي وهو الحسن بن اسمعيل بن أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو من ولد الاوسط وتبيل ان اسم الكركي الحسن بن أحمد بن محمد بن اسمعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فسير المستعين لقتاله جماعة ومعهم موسى وبغا فرحل الكركي إلى الديلم ثم وقع في قبضة الحسن بن زيد الحسني فأهلكه وخرج كذلك بالكوفة الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب فسر ح إليه محمد بن عبد الله بن طاهر جيشا من بغداد فأنكشف الحسين واختفى لترك أصحابه له وتخلفهم عنه وذلك سنة إحدى وخمسين ومائتين

واشتد الخليفة المستعين في غضون هذه الحوادث على باغري التركي أحد كبار الأتراك الذين في خدمته لأسباب تقمها عليه لاموضع لا يراها هنا فانتقضت نفس باغري من الخليفة وأصر على قتله وجعل يدبر الحيلة في ذلك وكشف جماعة من الترك الذين كانوا معه في قتل المتوكل على مافي خاطره فوافقوه ومنوه فأنكشف إلى المستعين أمرهم وما حفي من سرهم فعاجل باغرا وأركب عليه جماعة من خواصه ومواليه فقبضوا عليه وحبسوه في حمام ثم قتله وبلغ الخبر طوائف الترك فوثبوا على اصطبل الخليفة فانتبهوه وركبوا مافي من الخيول وغيرها وحصروا الخوصق وشدوا في الحصار فأنحدر المستعين إلى بغداد في حراسة ومعه بغا ووصيف وشاهد الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد ودليل فلما علم الترك بأنحدره انعطفوا نحو دار دابيل ودور أهله وجيرانه فانتبهوا مافيها ومنعوا الناس من الانحدر إلى بغداد وشدوا في المنع فلم يجسر أحد على الانحدر ثم وصل إلى بغداد جميع القواد وكبار الجنود وجملة الكتاب والعمال وبني هاشم وغيرهم فأغضب جماعة الترك فعل المستعين فاختاروا منهم وفدا فدخلوا عليه وألقوا أنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذلا وخضوعا وسألوه الصبح عنهم فأغلظ عليهم في القول وقال انما أنتم أهل بغي وفساد واستقلال للنم ألم ترفعوا إلى في أولادكم فألحقتم بكم وهم نحو من أنبي غلام وفي بناتكم فأمرت بتصبيرهن في عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف وغير ذلك كله أحببتكم إليه وأدررت عليكم الارزاق فعملتم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسي لذتها وشهوتها وأنتم تزدادون شغبا وفسادا فعادوا وتضرعوا وسألوه العفو فقال قد عفوت فأرجعوا إلى ساحرا وأظنر أنا في أمرى فأنصرفوا آيسين منه وأخبروا من وراءهم بما جرى وزاد بغضهم له وحرصوا بعضهم على خلعه والبيعة للمعتز ولد أخيه وكان هو المؤيد

في حبس الجوسق وعاينهم من يحرسهم كما تقدم فساروا في جمع عظيم وأخرجوا المعتز
من الحبس وقد طال شعره وتغيرت أحواله فأخذوا من شعره وأصلحو حاله وبايعوه بالخلافة
فأمر للناس برزق عشرة أشهر للبيعة فلم يجدوا من المال ما يكفي فأعطوا شهرين وذلك في
يوم الأربعاء لحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة احدى وخسين ومائتين وركب من
ذلك اليوم الى دار العامة فأخذ البيعة على الناس وخلع على أخيه المؤيد وعقد له عقدين
أسود وأبيض فكان الأسود لولاية العهد بعينه والابيض لولاية الحرمين ونقلدهما وأتت
الكتب في سامرا بخلافة المعتز بالله من سائر الامصار وأرخت باسم جعفر بن محمد الكاتب
وأحدر أخاه أبا أحمد مع عدة من الموالي لحرب المستعين الى بغداد فكان أول حرب جرت
بينهم ببغداد بين أصحاب المعتز والمستعين وهرب محمد بن الواثق الى المعتز بالله ولم تزل الحروب
بينهم وبين أهل بغداد للنصف من صفر من هذه السنة واشتدت الحرب بينهم فكانت أمور
المعتز تقوى وحالة المستعين تضعف والفتنة قائمة فلما رأى محمد بن عبدالله بن طاهر ذلك كاتب
المعتز ورجح اليه ومال الى الصلح على خلع المستعين وعلمت العامة ببغداد بما قد عزم عليه
محمد بن عبدالله من خلع المستعين فماتت منكراً لذلك متحيرة الى المستعين ناصرة له فما زال
محمد بن عبدالله بالمستعين حتى أظهره على أعلى قصره فخاطبته العامة وعليه البردة فأبكر
ما بلغهم من خلعهم وشكر محمد بن عبدالله بن طاهر ثم التقى محمد بن عبدالله وأبو أحمد الموفق
بالشماسية فاتفقا على خلع المستعين على أن له الامان ولاهله وولده وما حوت أيديهم من
أملاكهم وعلى أنه ينزل مكة هو ومن يشاء من أهله وأن يقيم بواسط العراق الى وقت مسيره
الى مكة فكتب له المعتز على نفسه شروطاً أنه متى نقض شيئاً من ذلك فأنه ورسوله منه براء
والناس في حل من بيعته وعهودها غير هذه لا يسعها هذا المقام قيل وقد خذل المعتز بعد ذلك
لمخالفتها حين عاجل في نقضها فخلع المستعين نفسه من الخلافة وذلك يوم الخميس لثلاث خلون
من المحرم سنة اثنتين وخسين ومائتين فكان له مذ وافي مدينة السلام الى أن خلع سنة
كاملة وكانت خلافته مذ تقلد الامر على ما بيناه آنفاً الى أن زال عنه ثلاث سنين وثمانية
أشهر وثمانية وعشرين يوماً فقال بعض الشعراء في خلعهم

خلع الخليفة أحمد بن محمد * وسبيقتل التالى له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه ولا ترى * أحداً بملك منهم يتمتع
ايها بنى العباس ان سبيلكم * في قتل أعبدكم سبيل مهيع
رفعتم دنياكم فتمزقت * بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

وقال الجعفي الشاعر ومحمد بن مروان بن أبي الجنوب وغيرهما في خلعهم أسيانا كثيرة
كلها حكم أضربنا عن ارادها هنا * وأحدر الى دار حسن بن وهب ببغداد وجمع بينه وبين
أهله وولده ثم أحدر الى واسط وقد وكل به أحمد بن طولون التركي وذلك قبيل ولايته مصر

وعلم عجز محمد بن عبد الله بن طاهر عن قيامه بأمر المستعين حين استجاره وخذلانه إياه وميله إلى المعتز عليه السلام ولما كان من الأمر ما تقدم من خلع المستعين انصرف أبو أحمد الواثق من بغداد إلى سامرا فخلع عليه المعتز وتوجه ووشحه بوشاحين وخلع علي من كان معه من القواد وقدم على المعتز عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أخو محمد بن عبد الله بالبردة والقضيب والسيف وبجوهر الخلافة ومعه شاهك الخادم وكتب محمد بن عبد الله إلى المعتز في شاهك المذكوران من أنك بارث رسول الله صلى الله عليه وسلم لجدير أن لا تخف ذمته * واستتب الأمر إلى المعتز وانطلقت كلمته واتسعت وجعل المعتز يتوقع الغدر بأخيه المستعين والايقاع به * فلما كان في شهر رمضان من السنة أي سنة اثنتين وخمسين ومائتين بعث المعتز سعيد بن صالح الحاجب إلى واسط ليغتال المستعين ويوقع به وكان حين خلع من الخلافة سير به إليها مع جملة من أحرابه فسار إليه سعيد ونزل واسطا وما زال يراقب الفرص حتى مال عليه وقتله واحتز رأسه وحمله إلى المعتز وترك جثته ملقاة على الطريق حتى تولى دفنها جماعة من العامة وقيل في موته غير ذلك * ووصلت الرأس إلى المعتز وهو يلعب بالشطرنج فقيل له هذا رأس الخلوغ فقال ضعوها حتى أفرغ من الدست فلما فرغ نظر إليه وأمر بدفنه

(الفصل الثالث عشر)

(في خلافة المعتمد بالله بن جعفر المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد المستعين ابن عمه محمد المعتز بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل وأمه أم ولد يقال لها فيحمة ويكنى أبا عبد الله وله من العمر يومئذ ثمان عشرة سنة بويغ له بالخلافة لما خلع المستعين نفسه وذلك في يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم وقيل لثلاث خلون منه سنة اثنتين وخمسين ومائتين هجرية أي سنة ست وستين وثمانمائة ميلادية وبايعه القواد والموالي والشاكرية وأهل بغداد وخطب له في المسجد الجامع ببغداد في الجانبين وكان علي وزارنه جعفر بن محمد ثم صرفه واستوزر جماعة فكانت بعد ذلك تخرج الكتب باسم صالح بن وصيف التركي كأنه مرسوم بالوزارة وما زال علي هذا الحال يدبر الأمر حيناً فلما كان بعد ذلك بقليل أنهى إلى المعتز أن أخاه المؤيد يدبر عليه وأنه قد احتال على جماعة من الموالي لينصروه فقبض على المؤيد في الحال وحبسه وجلس معه أخاه أبا أحمد وهما لآب وأم وطولب المؤيد بأن يخلع نفسه من ولاية العهد فلم يقبل فضرب أربعين عصا إلى أن أجاب وأشهد على نفسه بذلك * ثم اتصل بالمعتز أيضاً أن جماعة من الترك اجتمع رأيهم على إخراج المؤيد من حبسه والانتصار له فأكبر المعتز هذا الأمر وخشى عاقبته وجعل يدبر على هلاك المؤيد فلما كان يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد وأحضر القضاة

والفقهاء قرأوه ولا أثر فيه ثم أمر بعد ذلك فأدرج في لحاف مسموم وشد طرفاه حتى مات فيه وضيق في حبس أبي أحمد فكان بين دخوله سامرا وما لقي بها من الأكرام وبين حبسه ستة أشهر وثلاثة أيام ثم شخص المعتز إلى البصرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان بعد قتل المؤيد بخمسين يوما ورتب اسمعيل بن قبيصة وهو أخو المعتز لابيه وأمه مكان المؤيد في ولاية العهد * واجتمع بعد ذلك بأيام سائر قواد الموالي على المعتز فسألوه الرضا عن وصيف وبغا وكانا على ما هما عليه من الذل والضيق فأجابهم إلى ذلك كارها وكانت هذه حيلة منهم للإيقاع به لما تقوه عليه فلما كان رجب سنة خمس وخمسين ومائتين دخلوا عليه في عدة وافرة بغير استئذان وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أعمال الحيلة على إفتائهم وقتل بكارهم واصطناعه للمغاربة والقراغنة دونهم وقد كانوا أحسوا منه بذلك وطالبوه بالأموال وكان المديز لهذه الفتنة صالح بن وصيف مع قواد الترك فلج المعتز وأنكر أن يكون قبله شيء من المال وقد كانوا يطلبون خمسين ألف دينار وأرسل المعتز إلى أمه أن تعطيه ذلك القدر فأرسلت تقول ما عندي شيء وقد كان عندها من المال والنفائس والجواهر الثمينة شيء كثير للغاية * فلما رأى الاتراك أنهم لم يحصل لهم من المعتز ولا من أمه شيء وليس في بيت المال شيء اتفقت كلمتهم وكلمة المغاربة والقراغنة على خلعهم فجلس على باب جماعة منهم بالسلاح وأرسلوا إليه أن اخرج الينا فامتنع واعتذر بأنه تناول دواء فأمر صالح أن يدخل عليه بعضهم فدخلوا وجروه برجله إلى باب حجرته وضربوه بالديابيس ومزقوا ثيابه وأوقفوه في الشمس في صحن الدار فكان لشدة حرارتها يرفع رجلا ويضع أخرى وكان بعضهم يلطمه على وجهه ويقول له اخلعها وهو يتقي بيديه ثم أدخلوه إلى حجرته وأشهدوا عليه جماعة بانطلع وبعثوا إلى مدينة السلام في طلب محمد بن الوائلي الملقب بالمهتدي وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأقن به في يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الأولياء في الطريق ودخل الجوسق فأعلموه بأنهم سيبايعونه في الحال وسألوه الموافقة على ذلك فامتنع وقال لا أقبل البيعة حتى أرى المعتز وأسمع كلامه فأقن بالمعتز وعليه قيص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد بن الوائلي وثب إليه وعانقه وأجلسه بجانبه على السرير وقال له يا أخي ما هذا الأمر فقال المعتز أمر لا أطيعه ولا أقوم به ولا أصليح له فأراد المهتدي أن يتوسط في أمره ويصلح الحال بينه وبين مقدمي الأتراك فقال المعتز لا حاجة لي فيها ولا يرضوني لها فقال المهتدي فأنا في حل من بيعتك قال أنت في حل وسعة فلما جعله في حل من بيعته حوّل وجهه عنه فأقيم من حضرته ورد إلى محبسه فقتل في محبسه بعد أن خلع بسنة أيام تسلمه صالح بن وصيف ومنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أنزله في سرداب وأطبقه عليه حتى مات ثم أخرجه وأشهد عليه أن لا أثر به وقيل أيضا أنه بعد خلعهم بخمسة أيام أدخله الحمام ومنعه الماء حتى عاب التلّف ثم أتوه بماء مالح فشربه فسقط ميتا وذلك في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وقيل وثلاثة وعشرين يوما وكان عمره كله أربعاً وعشرين سنة

سنة وكان أبيض أسود الشعر كثيفه حسن العينين والوجه أحر الوجنتين حسن الجسم
 طويل فصيحاً كبير المعرفة واسع الدراية والخبرة له في الفصاحة وحسن الالتقاء كلام كثير يدل
 على مبلغ علمه ۞ وهو أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سبقه من الخلفاء
 من بني العباس وكذلك جماعة من بني أمية لا يركبون الا بالحليسة الخفيفة من الفضة
 والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس في
 ذلك وفشت هذه العادة بينهم ثم تغالى فيها الخلفاء والسلاطين من بعده وبالغوا حتى
 واستعمل المعتز على مصر في خلافته أحمد بن مزاحم بن خافان سنة ثلاث وخمسين ومائتين
 وهو طاغية جباراً عسوقاً فولى الشرطة أرجوز التركي وكان أرجوز هذا أكبر ويلا منه وأشد
 عسفاً وجوراً فأكثر من الارهاب والتشديد على الرعية وبالغ في اذناء الناس بطرق وأنواع
 مختلفة ومنع النساء من الدخول الى الحمامات ومن زيارة قبور الاموات والولولة في الجنائزات
 وضيق على الخنثيين والنوائح وحبسهم وأكثر من الاحداثات والبدع الغريبة * فلما كانت
 سنة أربع وخمسين ومائتين منع من الجهر بالبسلة في الصلاة بالجامع وكان أهل مصر يجيرون
 بها منذ الاسلام الى ذلك الحين وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف فكان الموكل بذلك رجل
 من العجم يقوم ويبيده السوط الى مؤخر المسجد وأمر أهل الحلق بالتحول عن القبلة قبل
 اقامة الصلاة ومنع من المساند التي كان المصلون يستندون اليها ومن الحصر التي كانت
 للمجالس بالمساجد ورسم بأن تصلى التراويح في رمضان خمس تراويح وكان أهل مصر يصفونها
 ستاً الى أن منعهم من ذلك في تلك السنة ومنع من التشويب ورسم بالاذان يوم الجمعة في
 مؤخر المسجد وأن يغسل بصلاة الصبح * ونادى مناديه أن لا يشق ثوب على ميت أو يسود وجه
 أو يخلق شعر أو تصيح امرأة أو يولول من فعل شيء من ذلك عوقب وعاقب على ذلك وشدد
 فيه وكبر عسفه وظلمه فضايق خناق الناس وابتهلوا الى الله تعالى وما زالوا على هذا الحال معه
 حتى مات مزاحم وولى بعده الولاية باكيال التركي وقيل باكيال فالتمس باكيال من يستخلفه
 بمصر لقيامه هو بخدمة ركاب الخليفة * وقد كانت العادة أن من يتولى ولاية كصر أو غيرها
 من العمالات الكبيرة من الامراء والكبراء فلا يأتيها بل يبقى في خدمة الركاب ويوليهما من يشأ
 من مواليه أو ضائعه أو غيرهم ممن يثق به * فأشير على باكيال المذكور بأحمد بن طولون
 فولاه اياها فكان من أمره وسعد أحواله واقبال الدنيا عليه بحمد افيها وظهور دولته ما
 سيذكر في ترجمته في وصل بعد

(في ترجمته أحمد بن طولون ۞ وفي ظهور دولته بديار مصر)

هو أبو العباس أحمد بن طولون كان أبوه من الأتراك الذين أهداهم نوح ابن أسد الساماني
 عامل بخاري الى المأمون بن هرون الرشيد في سنة مائتين هجرية ويقال الى الرشيد في سنة

تسعين ومائة وولد ابنه أجد هذا في سنة أربع عشرة وقيل سنة عشرين ومائتين ثم مات طولون في سنة ثلاثين وقيل سنة أربعين ومائتين هجرية * وحكى ابن عساکر عن بعض مشايخ مصر أن طولون لم يكن أباً أجد ولكنه تبناه وأمه جارية تركية يقال لها هانم * وكان الترك قد طلبوا منه أن يقتل الخليفة المستعين لما سيروه معه الى واسط مبعدا فأبى وقال والله لا تجارات على قتل أولاد الخليفة فلما جاء مصر قال لقد وعدنى الترك ان قتل المستعين أن يولونى واسطاً نخفت الله ولم افعل فعوضنى ولاية مصر والشام وسعة الاحوال * وكان سبب ولايته على مصر وظهور دولته أنه لما تولى الخلافة المعتز بالله بن جعفر المتوكل استعمل على ديار مصر مزاحم بن خاقان أحد مقدمى الترك في دولة المعتز وكان مزاحم هذا طاغية جباراً قوى الشرطة أرجوز التركي فكان أرجوز أشد ويلاً وأكبر عسفاً وجوراً فأكثر من الارهاب والتهديد وبالغ في ابداء الناس ومنع النساء من الدخول الى الحمامات وزيارة قبور الاموات وغير ذلك من البدع والاحداث الغريبة كما مر بيان ذلك في موضعه فلما مات وتولى مكانه الامير باكيك وقيل باكيك واتصل به خبر ما يفعله أرجوز من الجور والعسف التمس من يستخلفه بمصر فاشير عليه بأجد بن طولون لما ظهر عنه من حسن السيرة وطيب السريرة فولاه مصر وسرحه اليها وكان بها ابن المدبر على الخراج وقد تحكم في البلد وأحدث الاحداث الغريبة وكان قهرماناً من دهاة الرجال وأبالسة الكتاب فضرب على الناس الضرائب الكثيرة وقرر المغارم القادحة وابتدع بدعا صارت سنة من بعده مزعومة الى يومنا هذا منها أنه أحاط بالنظرون ومنع الناس منه بعد أن كان مباحاً * وقرر على الكلا الذى ترعاه المشايبة مالا سماه المرامى وقرر على ما يطعمه الله من صيد البحر أيضاً مالا سماه المصائد فانقسم مال مصر من حينئذ الى قسمين خراجى وهلالى فالخرابى ما يؤخذ في كل سنة من الارض التى تزرع حبوباً ونخيلاً وكروماً وفاكهة وما شا كل ذلك والهلالى قسمه الى قسمين سماهما المرافق والمعاون وهو ما يؤخذ على الضرائب المحدثه كالمرامى والمصائد ونحوهما فكانت هذه المغارم وقرا ثقيلاً على الناس فكثرت بغضهم لابن المدبر وجعلوا يدبرون له المكائد ويتربصون الفرص للبطش به فلما أحس منهم بذلك جعل في خاصته نحواً من مائة غلام هندى ممتازين وزججهم بالسلاح فكانوا في خدمته لا يفارقونه في حله وترحاله * فلما قدم أجد بن طولون الى مصر واستقر به منصب النيابة كف يد ابن المدبر واستولى على البلد وكان باكيك قد استعمل أجد على مصر وحدها دون باقى الاعمال كالاكندرية ورشيد والصعيد الاعلى فلما قتل باكيك وصارت مصر الى ليارجوج التركي وكان بين ليارجوج وأجد بن طولون مودة متأكدة استعمله على ديار مصر جميعها وكان المتولى على الاكندرية يومئذ عيسى بن دينار فأقره ابن طولون على ولايتها وزلت هى وغيرها من بقية الثغور تحت حكم ابن طولون فلما تم له أمر ذلك قدم عليه ابن المدبر فى حاشيته وعلمانه ومعه شقيق الخادم غلام قبجة أم أمير المؤمنين المعتز وهو يومئذ على البريد فنظر ابن طولون واذا بين يدي ابن المدبر مائة غلام لهم خلق

حسن وطول أجسام وبأس شديد وعليهم أقبية ومناطق ثقال عراض وبأيديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقععة من الفضة وهم يقفون بين يديه في حافتي مجلسه اذا جلس ويركبون بين يديه اذا ركب فيصير له بهم هيبه وجماله في صدور الناس فداخل ابن طولون شئ من ذلك وكبرت هذه النعمة في عينيه وحسد ابن المدبر عليها * وقدم اليه ابن المدبر الهدايا النفيسة والتعابى الثمينة استجلابا لرضاه فلم يقبلها وردّها على ابن المدبر فنظر ابن المدبر الى شقير وقال ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الاطراف وخافه ابن المدبر وخشى عاقبة التقرب منه وكره المقام معه في مصر ثم اجتمع بشقير الخادم وتناجيا في أمر ابن طولون وكتبوا الى الخليفة المعتز يطلبان خلع ابن طولون عن مصر فلم يكن الايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول له * قد كنت أعزك الله أهديت لنا هدية وقع الغنا عنها ولم يجز أن يعتنم مالك كثره الله فرددناها توفيرا عليك ونحب أن تجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم أحوج منك * فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة هذه أخرى أعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاموال والاعراض ويستهدى الرجال ويثابر عليهم ثم لم يجد ابن المدبر بدا من أن يبعث بالغلمان ككارها فزال بعد ذلك هيبه ابن المدبر وكبرت هيبه ابن طولون وخافه الناس وجعل ابن المدبر يدبر الخيلة على خلع ابن طولون ويكاتب الخليفة في ذلك وأجد يعلم بالامر ويكتمه عن ابن المدبر حتى انقضت خلافة المعتز بالله

وظهرت كلمة ابن طولون واتسعت شهرته فأضيفت اليه نيابة الشام والعواصم والثغور وافريقية فعمد الى الفتح ففتح أنطاكية وعدة مدن أخرى وطالت ولايته فرتب الامور وأحكم السياسة وأمن الطرق ووسع أبواب الخير فكانت ظاهرة بينة وابنتى بالقاهرة جامعته المشهور والبيمارستان والعين التي أنشأها بالمعافر وقد وقعت عند جميع أهله وجيرانه أحسن موقع لانهم في حاجة زائدة الى الماء * قيل وكان السبب في انشائه اياها أنه ركب يوما فرس مسجد الاقدام وحده وتقدم عسكريه وقد كده العطش وكان في المسجد خياط فقال يا خياط أعندك ماء فقال نعم وأخرج له ركوة صغيرة وقال اشرب ولا تمدّ يعني لا تشرب كثيرا فتبسم أحمد بن طولون وشرب فمد فيه حتى شرب أكثرها ثم ناوله اياها وقال يا فتى سقينا وقلت لا تمدّ فقال نعم أعزك الله موضعنا هنا منقطع وأنا أخطب بشئ حتى أجمع عن راوية فقال له أو الماء عندكم ههنا معوز فقال نعم قال الراوى فحضى أحمد بن طولون ولما رجع الى داره قال علىّ بالخياط الذي في مسجد الاقدام فجاؤا به فلما رآه أحمد قال له سر مع المهندسين حتى يخطوا عندك موضع سقاية ويجري الماء وهذه ألف دينار خذها ثم ابشدا بالانفاق وأجرى على الخياط في كل شهر عشرة دنانير وقال له بشرنى ساعة يجرى الماء فيها فخذوا في العمل فلما جرى الماء أتاه مبشرا فخلع عليه وجعله واشترى له دارا يسكنها وأجرى عليه الرزق السنوي بكثره قال بعض أهل التاريخ وكان قد أشير عليه بأن يجرى الماء من عين أبي خليل المعروفة

بالنعش فقال هذه العين لاتعرف الا بأبي خليد واني أريد أن أستنبط بثراً فعبدل عن العين الى الشرق فاستنبط بثراً هذه وبني عليها القناطر وأجرى الماء الى الفسقية التي بقرب درب سالم وتولى بناء هذه السقاية قبضى من أقباط مصر حسن الهندسة حاذق ماهر قيل انه دخل على ابن طولون عشية من العشايا فقال له اذا فرغت مما تحتاج اليه فاعلمني لتركب اليها فتراها فقال يركب الامير اليها في غد فقد فرغت وتقدم المهندس المذكور فرأى موضعاً بها يحتاج الى قصيرة جدير وأربع طوبات فبادر الى عمل ذلك وأقبل ابن طولون يتأمل العين فاستحسن جميع ما شاهده فيها ثم أقبل الى الموضع الذي فيه قصيرة الخير فوقف بالاتفاق عليها فلرطوبة الخير غاصت يد الفرس فيه فكبا بأحد ولسوء ظنه قدّر أن ذلك لمكروه أراد به المهندس فأمر به فشق عنه ما عليه من الثياب وضربه خمسمائة سوط وأمر به الى المطبق فوضع فيه وانصرف ابن طولون وأقام المهندس بالمطبق الى أن أراد ابن طولون بناء جامع فقدره ثلاثمائة عمود فقبل له ما تجدها أو تنفذ الى الكائن في الارياض والضياع فتحمل ذلك فأنكره ولم يحتره وتعذب قلبه بالفكر في أمره وبلغ المهندس القبطي وهو بالمطبق الخير فكتب الى ابن طولون يقول أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عهد الاعودى القبلة فسرى ابن طولون بذلك وأحضر القبطي وقد طال شعره حتى تدلى على وجهه وقال له ويحك ما تقول في بناء الجامع فقال أنا أصوره للامير حتى يراه عياناً بلا عهد الاعودى القبلة فأمر بأن تحضر له الخلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه وأطلق القبطي وخلع عليه وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار وقال له أنفق وما احتجت اليه بعد ذلك أطلقناه لك فوضع البناء يد في الموضع الذي هو فيه وهو المعروف بجبيل يشكر فكان ينشر من الحجر ويعمل الخير ويبني الى أن فرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق عليه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء وصلى فيه وتصدق بصدقات عظيمة وأجاز المهندس بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات

وذهب ابن طولون في يوم الجمعة الى الجامع فلما رقى الخطيب أبو يعقوب البلخي المنبر وخطب دعا للخليفة وولده ونسى أن يدعو لأحمد بن طولون ونزل عن المنبر فأشار أحمد الى نسيم الخادم أن اضربه خمسمائة سوط فذكر الخطيب موهوه وهو على منبر فقعد وقال بعد الحمدلة والديباجة ولقد عهدنا الى آدم من قبل نفسي ولم نجد له عزماً اللهم وأصلح الامير أبا العباس أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين وزاد في الشكر والدعاء له بقدر الخطبة ثم نزل فنظر أحمد الى نسيم أن اجعلها خمسمائة دينار قال القضاعي وذكر أن السبب في بنائه يعني في بناء ذلك الجامع أن أهل مصر شكوا اليه ضيق الجامع يوم الجمعة من جنده وسودانه فأمر بإنشاء الجامع المذكور بجبيل يشكر بن جديلة من لحم فابتدأ في بنائه في سنة ثلاث وستين ومائتين وفرغ منه سنة خمس وستين ومائتين * وقيل ان

أحمد بن طولون قال انى أريد أن أبني بناء ان احترقت مصر بى وان غرقت بى فقيصل له
بني بالجير والرماد والاجر الاجر المشوى بالنار الى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام فانها
لاصبر لها على النار فبناه هذا البناء وكان من أمره واعادة ترميمه فى أيام دولة خليل بن
قلاون ما كان عمالا موضع هنا لذكركه

وبعد أن تم بناء السقاية رسم فكانت تفتح طول النهار لمن كشف وجهه للاخذ منها
ولن كان له غلام أو جار يته والليل للفقراء والمساكين واتخذ لها مستغلا فيه فضل وكفاية
لمصلحتها ثم بلغه أن قوما لا يستحلون شرب مائها * قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم الفقيه
كنت ليلة فى دارى اذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لى الامير يدعوك
فركبت مدعورا مرعوبا فعدلت بى عن الطريقى فقلت أين تذهب بى فقال الى الصحراء
فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم الله الله فى فانى شيخ كبير ضعيف مسن فتسدرى ما يراد منى
فارجئنى فقال احذر أن يكون لك فى السقاية قول وسرت معه واذا بالمشاعل فى الصحراء
وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشموع فنزلت وسلمت عليه فلم يرد على
فقلت أيها الامير ان الرسول قد أعيانى وكثرتى وقد عطشت فيأذن لى الامير فى الشرب
فأراد الغلمان أن يسقونى فقلت أنا آخذ لنفسى فاستقيت وهو يرانى وشربت وزدت فى
الشرب حتى كدت أنشقى ثم قلت أيها الامير سقالك الله من أنهار الجنة فلفقد أرويت
وأغنيت ولا أدرى ما أصف أطيب الماء فى حلاوته وبرده أم صفاه أم طيب ريح السقاية
قال فنظر الى وقال أريدك لامر وليس هذا وقته فاصرفوه فصرفت فقال لى الخادم أصبت
فقلت أحسن الله جزاءك فلولاك لهلكت وكان مبلغ ما أنفق على هذه العين فى بنائها
ومستغلها أربعين ألف دينار ثم كان من أمر ابن طولون ما سيدكر فى محله فى خلافة المهتمدى
ومن جاء بعده من الخلفاء

ومات فى خلافة المعتز قسيما بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وقيل سبع
سنين وخمسة أشهر تقلا الكرسي بعده أحدا وخمسين يوما وفى أيام هذا البطرك أمر نوفل
قيصر الروم بمحو الصور من الكنائس لامور فبعث اليه قسيما وناظره حتى أحفمه ورجع
به الى حسن الاعتقاد فرسم باعادة الصور الى ما كانت عليه فلما مات قسيما أقيم بعده
سانوتيو أو هو شمنوده خامس خمسيهم وبلده البتانون وكان راهبا بدير أبى مقار ووقع فى
أيامه من الحوادث ما سيدكر فى محله

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة جعفر المهتمدى بالله بن هرون)

ثم قام بالامر بعد المعتز بن عمه جعفر بن هارون الوائى بن المعتصم ولقب بالمهتمدى

وقيل ان اسمه محمد ويلقب بأبي اسحق بوبع له بالخلافة قبل الظهر من يوم الاربعاء ليلة
 بقيت من رجب الفرد سنة خمس وخمسين ومائتين هجرية أى سنة ثمان وستين وثمانائة
 ميلادية وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ويكنى بأبي عبدالله وله يومئذ سبع وثلاثون سنة
 وقيل تسع وثلاثون ولما استقر به المنصب أخرج الملاهي وحرم سماع الغناء والشراب
 وأمر بنى المغنيات وطرد الكلاب والسباع وألزم نفسه الاشراف على الدواوين والجلوس
 للناس وازالة المظالم وتغيير المنكرات وقال انى أستحي من الله أن لا يكون فى بنى العباس
 مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية وكان صالح بن وصيف بعد خلع المعتز وقتله قد خرج
 هاربا فلم يهتد له على محل فلما كان لثلاث بقين من المحرم زعم المهتدى ان امرأه دفعت
 الى سيبا الشرابى كتابا وقالت ان فيه نصيحة وان منزلها بمكان كذا وطلبت المرأة فلم توجد
 ودعا المهتدى القواد وسليمان بن وهب فأراههم الكتاب فزعم سليمان أنه خط صالح بن
 وصيف فقرأه على القواد فاذا فيه انه مستخف بسامرا وانما استر طلبا للسلامة وابقاه
 الموالى وطلبا لانقطاع الفتن وذكر ما صار اليه من أموال الكتاب ويدل فيه على قوة نفسه
 فلما فرغوا من قرأته جعل المهتدى يبحث الجماعة على الصلح مع ابن وصيف والانفاق
 والنهى عن التباعد والتباين فاتهمه الاثراك بأنه يعلم بمكان ابن وصيف ويميل اليه وطال
 بينهم وبينه الاخذ والرد فلما كان الغد اجتمعوا بدار موسى بن بغا وانفقوا على خلع
 المهتدى وكان بينهم الامير بايكال فقال لهم ويحكم انكم قتلتم ابن المتوكل وهو قتي
 حسن الوجه سخى الكف فاضل النفس وتريدون اليوم قتل هذا وهو مسلم تقي بصوم
 ولا يشرب النبيذ من غير ذنب والله لئن قتلتم هذا لالحقن بخراسان لأشيع أمركم هنالك
 فانصل خبر ذلك الى المهتدى فتحول من مجلسه وهو متقلد سيفه وقد لبس ثيابا نظافا
 ونظيب وأمر بادخالهم عليه فدخلوا فقال لهم بلغنى ما أنتم عليه ولست كن تقدمنى
 مثل المستعين والمعتز والله ماخرجت اليكم الا وأنا متحنط وقد أوصيت الى أخى بولدى وهذا
 سيفى والله لا ضربن به ما سمسك قائمه يدي والله لئن سقط منى شعرة لهلكن وليذهبن
 أكثركم كم هذا الخلاق على الخلفاء والاقدام والجرأة على الله سواء عليكم من قصد
 الابقاء عليكم ومن كان اذا بلغه هذا منكم دعا بالنبيذ فشربه مسرورا بمكروهمكم حتى
 تعلمون أنه وصل الى شئ من دنياكم أما انكم لتعلمون أن بعض المتصلين بكم أيسر من
 جماعة من أهلى وولدى سواء لكم يقولون انى أعلم بمكان صالح وهىل هو الا رجل من
 الموالى فكيف الإقامة معه اذا سارتكم فيه واذا أبرمت الصلح فيه كان ذلك ما أنفذه
 بجمعكم وان أبيتتم فشانكم واطلبوا صالحا وأما أنا فما أعلم مكانه فعند ذلك علت
 ضوضاء القوم وقالوا له احلف لنا على ذلك فقال أما اليمين فتم ولكنها تكون بحضرة بنى
 هاشم والقضاة غدا اذا صليت الجمعة فلم يتم شئ من ذلك وقد اشتد بغض الترك له ودموا
 بخلعهم فنعهم من ذلك خوف الاضطراب وقلة الاموال فاناهم مال من فارس عشرة آلاف

ألف درهم وخمسمائة ألف درهم وانتشر الخبر بين العامة أن القوم قد اتفقوا على خلع المهتدي والقتل به وانهم قد أرهقوه فجعلوا يكتبون الزقاع ويرمونها في الطرق والمساجد مكتوبا فيها يامعشر المسلمين ادعوا الله نخليفتكم العدل الرضا المصطفى لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه وتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فإن الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام وصلى الله على سيدنا محمد * واشتد الأتراك على المهتدي وبالغوا في أهانتهم حتى يخلع نفسه فلم يفعل وظهر بابك التركي ومن معه بشق عصا الطاعة والخروج على الخليفة فأمر الخليفة بقتله فقتل فهاج الترك ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة أنصار الخليفة واشتد الحال وطالت أيام القتال فقتل من الفريقين أربعة آلاف على رواية بعض أصحاب التاريخ وخرج المهتدي والمصحف في عنقه وهو يدعو الناس إلى نصرته على الترك ومع طوائف المغاربة وبعض العامة فملا عليهم طيبغا أتوا بابك فهزمهم ومضى المهتدي وهو مهزوم والسيوف في يده وقد جرح جرحين حتى دخل دار محمد بن يزيد فجمع الترك وهجموا على الدار وأخذوه أسيرا وجعل أحد بن خاقان وجعلوا يصفعونه ويقولون اخلعها وهو لا يفعل فسلم إلى رجل فوطئ مذاكيره حتى قتله وقيل مات بالخناجر ومنهم من روى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشد بالحبال إلى أن مات وقيل قتل خنقا وقيل كبس عليه بالسط والوسائد حتى مات فلما مات داروا به ينسوحون ويكفون عليه وندموا على ما كان منهم من قتله لما تبينوه من نسكه وقتل وله من الولد سبعة عشر ذكرا وست بنات قيل وكان قد ذهب في أمره إلى القصد والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم بيده وكان يقول يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلكتي عمر بن عبد العزيز في بني أمية وقتل من اللباس والفرش والمطم والمشرب وأمر بأخراج آنية الذهب من الخزائن فكسرت وضربت دنائير ودراهم وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فحجبت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء والديوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته وكانت الخلفاء قبله تنفق على مواثيقها في كل يوم عشرة آلاف درهم فأزال ذلك وجعل لمائده وسائر مؤنته في كل يوم نحو مائة درهم قيل وكان يواصل الليل بالنهار في التهجيد والعبادة وأنه لما قتل أخرج رجل من الموضع الذي كان يأوي إليه فأصيب له سبط مقفل فتوهموا أن فيه مالا أو جوهرا فلما فتح وجدوا فيه جبة صوف وغل وقيل جبة شعر فسألوا من كان يخدمه فقال كان إذا جن الليل لبسها وغل نفسه وكان يركع ويسجد إلى أن يدركه الصباح رحمه الله

وعرضت على المهتدي يوما دفاتر خزائن الكتب فإذا على ظهر كتاب منها هذه الأبيات
قالها المعتز بالله وكتبها بخطه

أني عرفت علاج الطب من وجعي * وما عرفت علاج الحب والخدع

جزعت للعب والحجى صبرت لها * انى لا عجب من صبرى ومن جزعى
 من كان يشغله عن إلفه وجع * فليس يشغلنى عن حبكم وجعى
 وما أمـل حبيبي لىتنى أبدا * مع الحبيب وبأيت الحبيب معى
 فقطب وجه المهتدى بالله وقال حدث وسلطان الشباب وكان كثيرا ما ينشد البيت الاول
 من هذا الشعر * وقال عبد الله بن ابراهيم الاسكافى جلس المهتدى للظالم فاستعداه رجل
 على ابن له فأمر باحضاره فأحضر وأقامه الى جانب خصمه ليحكم بينهما فقال الرجل للمهتدى
 والله يا أمير المؤمنين ما أنت الا كما قيل

حكمتوه قاضيا بينكم * أبلى مثل القمر الزاهر
 لا يقبل الرشوة فى حكمه * ولا يبالي بغبن الخاسر

فقال المهتدى أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك وأما أنا فما جلست حتى
 قرأت ونضع الموازين القسط ليوم القيامة الآية * قال فما رأيت بايكا أكثر من ذلك اليوم
 وقال أبو العباس بن هاشم بن القاسم الهاشمى كنت عند المهتدى بعض عشايا شهر رمضان
 فمقت لانصرف فأمرني بالجلوس فجلست حتى صلى المهتدى بنا المغرب وأمر بالطعام
 فأحضر وأحضر طبق خلاف عليه رغيقان وفى اناه ملح وفى آخر زيت وفى آخر خسل
 فدعانى الى الأكل فأكلت مقتصرا ظنا منى أنه يحضر طعاما جيدا فلما رأى أكلى كذلك
 قال أما كنت صائما فقلت بلى فقال أفلست تريد الصوم غدا قلت وكيف لا وهو شهر رمضان
 فقال كل واستوف عشاءك فليس ههنا غير ما ترى فنجيت من قوله وقلت ولم يا أمير المؤمنين
 قد أسبغ الله عليك النعمة ووسع رزقه فقال ان الامر على ما وصفت والحمد لله ولكنى
 فكرت فى أنه كان من بنى أمية عمر بن عبد العزيز فغرت لبنى هاشم أن لا يكون فى خلفائهم
 مثله وأخذت نفسى بما رأيت اه ومات ولم يستكمل الاربعين سنة وكان موته فى سنة
 ست وخسين ومائتين هجرية فكانت خلافته أحد عشر شهرا وخمسة عشر ليلة ودفن
 بسامرا وقيل كان مولده فى سنة ثمان عشرة ومائتين للهجرة

وفى خلافته كانت الامور قد انتظمت لاجد بن طولون بمصر واتسعت شهرته وبسط
 يده على مشرق الارض ومغربها مع ما انضاف الى مصر من الديار الشامية وأنطاكية
 والجزيرة فلما كانت أخريات سنة ست وخسين ومائتين هجرية خرج على ابن طولون ابراهيم
 الصوفى عامل اقليم اسنا بالصعيد الاعلى وبالغ فى العصيان وأكثر من الشدة وبسط يده
 على سائر بلاد ذلك الصقع وعاث وظلم وقتل من لم يطعه فأنفذ ابن طولون طائفة من
 العسكر لقتاله فاجتمع الفريقان واقتتلا فكانت الدائرة على أصحاب ابن طولون فانحدروا
 الى اخميم مدحور بن قسیر اليهم ابن طولون نجدة فقاتلت الصوفى وشدت فى قتاله حتى
 نظفرت وقهرت لمومه ومزقت شملهم كل ممزق ففر ابن الصوفى فى نفر من أصحابه وسار
 فى عرض البرية طلبا للنجاة واخفى أمره وانقطع ذكره ولم يكذب يخفى خبره ويتناسى

الناس فنته حتى خرج أيضا ابن شيخ على أعمال فلسطين والأردن واستبدت بها بعد موت أبيه أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني وقد كان أبوه يتقلد جنود تلك الاقضية وطامع ابن شيخ المذكور في الاستقلال على الشامات والتغلب عليها وأكثر أصحابه من الأرجاف ووردت الاخبار الى ابن طولون بأنه يريد ديار مصر ليأخذها وقد خرج والامور مضطربة ببغداد والفننة قائمة بين الأتراك والمغاربة وعامة أهل بغداد فلم يهتم ابن طولون ذلك ولا أحله محملا واتفق أن أرسل ابن المدبر صاحب خراج مصر سبعمائة وخمسين ألف دينار جلا من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في أصحابه فنقوت بها قلوبهم واشتدت عزيمتهم وطمعوا في المحال من التغلب والفوز وتأهبوا للتزول على مصر وأخذها من ابن طولون ثم كان من أمر الفريقين بعد ذلك ما كان مما سيذكر ان شاء الله في خلافة أبي القاسم أحمد المعتمد بن المتوكل حسب ترتيب حوادث كل خلافة وزمن وقوعها

(الفصل الخامس عشر)

(في خلافة أبي القاسم أحمد المعتمد على الله بن المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المهدي ابن عمه أحمد المعتمد على الله بن المتوكل على الله بن المعتمد بالله ببيع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه المهدي بسامرا سنة ست وخمسين ومائتين هجرية أي سنة تسع وستين ومئتمائة ميلادية فكان له اسم الخلافة فقط ولأخيه الموفق بن المتوكل تدبير الملك وما زال كذلك الى أن مات الموفق فقام بتدبير الملك بعده ابنه أحمد المعتمد وغلب على عمه المعتمد كما كان أبوه غالباً عليه قيل فكان المعتمد يطلب الشيء الحقيق فلا يناله ولم يكن له سوى الاسم فضاقت به الحال واشتد عليه الامر يوما فقتل في ذلك متوجعا

أليس من العجائب أن مثلي * يرى ما قتل متمنعا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا * وما من ذلك شيء في يديه

وكانت أيام المعتمد كلها حروبا هائلة وكروبا مستمرة وخروج الكثير من الخوارج مثل يعقوب بن الليث الصفار وصاحب الزنج وغيرهما وقد بالغ جماعة الكتاب في عدد من قتل في هذه الحروب والفتن فكافوا بين مكثروم قتل فأما المكثرون فكان يقول انه أنفى من الناس ما لا يدركه العتد ولا يقع عليه الاحصاء ولا يعلم ذلك الا اعلام الغيوب فيما فتح من هذه الامصار والبلدان والضياح وأباد أهلها والمقل يقول أنفى من الناس خمسمائة ألف ألف وكلا الفريقين يقول في ذلك ظنا وحسدا اذ كان شيئا لم يدرك ولم

يضبط وكان ممن تم خروجه في أيامه واستفعل أمره بتاتا ابن شيخ فانه استبد بحكم الشامات وقطع الجمل عن بغداد فسير اليه المعتمد حسيننا الخادم فكلمه في ذلك فاعتذر فأعطاه حسين عهده على أرمينية ليقم الدعوة للمعتمد وكان قد بالغ في الامتناع فأجابه الى ذلك بعد أمور وأخذ العهد وأقام الدعوة ولبس السواد الذي هو زي العباسيين ظنا منه أن الشام تكون بيده فلم يلبث على ذلك طويلا حتى أنفذ المعتمد أما جور التركي وقلده دمشق وأعمالها فسار اليها في ألف رجل فلما قرب منها أنقض عيسى اليه ولده منصورا في عشرين ألف مقاتل فلما التقوا انهزم عسكر منصور وقتل منصور فوهن عيسى وسار الى أرمينية من طريق الساحل فخلا الجولأماجور التركي وولى دمشق وجعل يتصرف في الامور على ما يهواه وكان الخليفة المعتمد قد أرسل الى أحمد بن طولون في مناجزة ابن شيخ وقتاله حتى يظفر به وسير الى ابن المدبر أن يطلق النفقة لابن طولون فتجهز ابن طولون وخرج في عسكر عظيم وجنائب ومواهي وطبول وغير ذلك واستخلف على ديار مصر أخاه موسى فينما هو في طريقه اذ جاءه مرسوم الخليفة بالعودة الى مصر وأن أماجور قد ولى قتال ابن شيخ فعاد أحمد بن طولون ودخل القاهرة في شعبان من هذه السنة

وداخل قلب ابن طولون من حب الاستبداد بملك مصر وشق عصا طاعة العباسيين ما أقلقه وعظمت رغبته في ذلك فجعل يشيد الحصون وبنى القلاع وينشئ المعاقل ويكثر من الكراع وآلات القتال وابن المدبر صاحب خراج مصر يحفظ له كل ذلك وكان ابن طولون الى هذا الحين يسكن خارجا عن سور القسطنطين في دار الامارة التي كانت لمن سلف من الامراء وهي في ضاحية العسكر وكانت ضاحية العسكر فيها الاسواق والبنيات العظيمة والطرق الواسعة فلم تكف موالى وغللمان وأتباع ابن طولون وضائق بأدواته وآلات حربه فصعد يوما الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين ضاحية العسكر وبين المقطم فضاء لاشئ فيه من البناء الا بعض المدافن لليهود والنصارى فأختارها للبناء قبيل ورسم بمرث المدافن وبنشها واخط في موضعها قصرا عظيما وميدانا وتقدم الى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لانفسهم حوله ففعلوا فاتصل بناؤهم الى عمائر القسطنطين فلما رأى ابن طولون كثرة البناء أعجبه وأمر بقطع القطائع وسمى كل قطعة منها باسم من سكنها فكانت لغللمان النوبة قطعة مفردة تعرف بهم وغللمان الروم قطعة مفردة وللغراشين قطعة وكذلك لغيرهم من بقية الموالى والاتباع * وابتنى كذلك القواد مواضع متفرقة فزادت القطائع ضخامة وتشعبت فيها الطرق والمسالك وبنيت المساجد العظيمة والافران والحمامات والطواحين واختص كل سوق منها باسم مخصوص فكان منها سوق الشوايين وسوق البقالين وصارت من هذا الحين هذه القطائع مدينة عظيمة أهلة للغاية فكانت غللمان ابن طولون تضرب في الميدان بالصوالة ثم عاد بعد حين فسمى القصر والميدان باسم الميدان وعمل له أبوابا لكل

باب اسم فكان منها باب الميدان ومن هذا الباب كان يدخل ويخرج معظم الجيش وباب الصوالة وباب الخاصة ولم يدخل منه الا خاصة ابن طولون وباب الجبل لأنه مما يلي المقطم وباب الحرم ولا يدخل منه الا النساء والخصيان وباب الدرmon قال بعض الكتاب وهذا كان يجلس عنده حاجب أسود ضخيم الجثة يتقلد جنائيات السود الرجاله فقط ويقال له الدرmon وباب دغاج وكان يجلس عنده حاجب اسمه دغاج وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج وباب الصلاة وهو في الطريق الموصل الى الجامع ويسمى أيضا بباب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجص وكانت جميع هذه الابواب تفتح في يوم عيد أويوم عرض الجيش أويوم صدقة وما عدا هذه الايام لا تفتح الا في أوقات معلومة على ترتيب مقرر معلوم وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من يدخل ومن يخرج وكان الناس يدخلون من باب الصوالة ويخرجون من باب السباع وكان على باب السباع مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع لدى حركات الغلمان وتأهيمهم وتصرفهم في حوائجهم وكان يشرف منه أيضا على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلي ذلك فكان مستزها حسنا للغاية * ولما تم تأهب ابن طولون واستعداده للاستعداد بمك مصر وشاع خبر ذلك خافه أما جور صاحب الشام وخشى عاقبة جواره وقيل بل حسده فكانت تأتي الى أماجور الاخبار ترى بعزم ابن طولون على قتاله وأخذ الشام منه فسير الى الخليفة المعتمد من يخبره بخبر ابن طولون ويحذره من شره ويقول انه اذا تركه شأنه ولم يعاجله الخليفة استفحل أمره واستعصى اخضاعه وتبعه في ذلك غيره من الولاة والعمال فأرسل الخليفة الى ابن طولون يقول تنح عن مصر عاجلا الى سامرا واستخلف عليها من تشاء من أصحابك فهم ابن طولون أن يفعل ذلك وجعل يتأهب للخروج فنعته من ذلك أحد خواصه وأعلمه بما يبطنه له الخليفة فنظن ابن طولون للامر وسير الى سامرا أجد الواسطي أحد خواصه وبكار ديوانه ومعه من الهدايا النفيسة والتعابى الثمينة لوزير الخليفة ما يجبل عن الوصف وأوصاه بأن يبالغ في استمالة الوزير وفي استرضائه فلما وصل ابن الواسطي الى سامرا تمثل بين يدي الوزير ودفع اليه الهدايا فأعجبته جدا وسر بها سرورا عظيما ومال الى ابن طولون وأحبه وكلم الخليفة في أمره واستمالة اليه واسترضاه عنه فوهبا الخليفة عماسلف من ابن طولون ورسم بتجديد الولاية له على مصر وأجاز له حمل نسائه وأولاده الى مصر وقد كانوا الى ذلك الحين في سامرا وعاد ابن الواسطي ومعه كتب ابن المدبر وشقيق الخادم التي كانوا يعنون بها الى الوزير بالوشاية في حق ابن طولون فجعل ابن طولون من هذا الحين يدبر على الفتك بهما فلم تكن الا أشهر حتى هلك شقيق الخادم ففرح ابن طولون بموته وجعل يكيد لابن المدبر فأرسل ابن المدبر الى أخيه وهو على خزائن الخلافة يومئذ يعلمه بما هو عليه من الشدة والخوف ويسأله أن يولييه خراج الشام والرحيل عن مصر خوفا من بطش ابن طولون فعلم ابن طولون بذلك وأن ابن المدبر سائر عنه الى الشام تخفف عنه فجعل ابن المدبر يحسن

السيرة معه ويتقرب اليه وبلاطفه وزوج ابنته لمارويه بن أحمد ووهب لها جميع ماله في ديار مصر من دور ومزارع واقطاعات ثم جاءه مرسوم الخليفة بعد ذلك بقليل بالجللاء عن مصر فرحل عنها الى الشام وتولى أمور خراجها وخطا الجولان طولون فبسط يده على مشرق البلاد ومغربها وأبطل بعض المغارم والمكوس واستشار ابن دسومة عبدالله أمين متولى الخراج يومئذ في ازالة الخراج الهلالى وهو ما كان يؤخذ على المصائد والمرامى ونحوهما مما أحدث ابن المدبر وكانت قيمته يومئذ مائة ألف دينار فقال أيها الامير ان الدنيا والاخرة ضرتان والحازم من لا يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فقتل في أعماله ويبطل سعيه وأفعال الامير أيده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطه لم يحكها ولو كائن نق بالنصر دائما طول العمر لما كان شئ عندنا أكثر من التضييق على أنفسنا في العاجل معاداة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات وترك الانسان ما قد أمكنه وصار في يده تضييع والعمل الذي جاءه من نفسه يكون سعادة لمن يأتي من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويحتمع للامير أيده الله بما قد عزم على اسقاطه من الهلالى فيضبط به الامير أيده الله أمر دنياه وهذه طريقة أمور الدنيا واحكام أمور الرياسة والسياسة وكل ما عني للامير من أمر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا رأيي والامير أيده الله على ما عساه يراه * وكان ابن دسومة هذا طاغية شيطانا من شياطين جباة الاموال وكان يكره أن ابن طولون يزيل هذه البدعة فأشغل قلب ابن طولون كلامه وقال سننظر ان شاء الله تعالى ونام ليلته تلك وهو مشغول البال بمقالة ابن دسومة قيل فرأى في منامه رجلا من اخوانه الزهاد في طرسوس يقول ليس فيما أشار به عليك ابن دسومة مصلحة ومن ترك شيا الله عز وجل عوقبه الله خيرا منه فأمض ما كنت عزمته عليه فأصبح وقد طير الخبر الى الاتاق بازالة ذلك الخراج ففرح الناس ومدحوه

ولما كانت سنة تسع وخسين ومائتين هجرية عاد ابن الصوفي العلوى وظهر بمصر وقد كان ظهر في سنة ست وخسين وهر ب الى الواحات واختمنى خبره فدعا الناس انفسه فتبعه خلق عظيم وسار بهم الى الاشمونين فاهتم ابن طولون بأمره وسير اليه جيشا كبيرا ومقدمه ابن ابي الغيث فوجده قد صعد الى لقاء ابن ابي عبد الرحمن العمري وكان العمري هذا قد ظهر بالنوبة وهو عبد الحميد بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب وكان سبب ظهوره بمصر أن الجباة الذين هم أهل النوبة أقبلوا يوم العيد فنهبوا وقتلوا وعاذوا غانمين وفعالوا ذلك مرات فخرج هذا العمري غضبا لله وللمسلمين وكان لهم في طريقهم فلما عادوا يشنون الغارة خرج عليهم وقتل مقدمهم وأئمن فبين كان معه من اللوم ودخل بلادهم فنهبها وأعمل في أهلها السيف ثم تابع عليهم الغارات وسبى وأغشى في القتل حتى أدوا له الجزية ولم يكونوا قبل ذلك أدواها لأحد ولا دانوا الى ملك من الملوك فظهرت كلمة العمري واتسعت شهرته فلما لافاه العلوى اقتتلا قتالا عنيفا فالتجلى الواقعة عن انهزام العلوى فولى منهزما الى أسوان فعث

فيها وقطع كثيرا من نخلها وعلم بان ابن أبي الغيث قائد عسكر ابن طولون يطلبه أيضا فولى هاربا الى عيذاب وعبر البحر الى مكة وتفرق أصحابه في أرض الله الواسعة فلما وصل مكة بلغ خبره الى واليها فقبض عليه وسجنه ثم سيره الى ابن طولون فأمر به فطيف به في البلد ثم سجنه أياما كثيرة ثم أطلقه فرجع الى المدينة فأقام بها الى أن مات * وصعد ابن أبي الغيث بمن معه من العسكر ومن جاء نجدة من ابن طولون لقتال العمري أيضا حيث علم بقدومه أصحابه بعد قتاله للعلوي فلما التقى الفريقان تقدم العمري وقال لابي الغيث مقدم عسكر ابن طولون ان ابن طولون لا يعرف خبري على حقيقته فاني لم أخرج للفساد ولم يتأذ بي مسلم ولا ذمي وإنما خرجت طالبا للجهاد فأكتب الى الامير أحمد وعرفه كيف حالي فان أمرك بالانصراف فانصرف وان أمرك بغير ذلك كنت معذورا فلم يجبه أبو الغيث الى ذلك وفاتله وكان العمري من القوة وكثرة اللوم على غير ما كان يظنه أبو الغيث فشد في قتال أبي الغيث حتى هزمه شهزامة ورجع من بقي من عسكره الى مصر وأخبروا بحال العمري فقال ابن طولون كنتم أنهيتم حاله الى فانه نصر عليكم بيغيكم وتركه فلما كان بعد مدة وثب على العمري غلامان من علمانه فقتلاه وجلا رأسه الى أحمد بن طولون فسألهما عن سبب قتله فقالا أردنا التقرب من الامير أيده الله فأمر بقتلهما فقتلا وأمر برأس العمري فغسل وكفن ودفن * ولم تكد تخدم فتنة ابن الصوفي العلوي والعمري حتى خرج آخر اسمه أبو نوعة ودعا الناس لنفسه فانضم اليه خلق عظيم فسار بهم في عرض البلاد فقتل وسبي وأراق الدماء فسير اليه ابن طولون طائفة من الجند فقاتلها وظفر بها وكاد يمزقها تمزيقا فأنجدها ابن طولون فقهرته وظفرت به وعادت غائمة

ولما كانت سنة احدى وستين ومائتين هجرية عصى أيضا على ابن طولون أهل برقة فأخرجوا أميرهم محمد بن الفرج الفرجاني فسير اليهم ابن طولون جيشا وعليه غلامه لؤلؤ وأمره بالرفق بهم وترك الشدة فان عادوا الى الطاعة فيها ونعمت والا فالسيف حتى يؤدوها صاغرين فسار لؤلؤ حتى نزل على برقة وحاصرها وفعل ما أمره به ابن طولون فطمع أهل برقة في عسكر ابن طولون وخرجوا يوما على بعض العسكر وهم نازلون على باب البلد فأوقعوا بهم وقتلوا منهم فأرسل لؤلؤ الى ابن طولون في أمرهم فرسم له بالجد في قتالهم فنصب عليهم المجانيق وجد في قتالهم فطلبوا الامان فأمتمهم ففتحو له أبواب البلد فدخل وقبض على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط وقطع أيدي بعضهم وأخذ معه جماعة منهم وعاد الى مصر واستعمل على برقة عاملا فلما دخل لؤلؤ القاهرة بعسكره خلع عليه ابن طولون خلعته فيها طوقان من ذهب فوضعهما في عنقه وركب في موكب حافل وأمامه الغنائم والأسرى وطاف المدينة فكان يوما مشهودا * واتفق أن مات في هذه السنة أيضا أما جاور مقطع دمشق فتولى ابنه مكانه وجاء الخبر بذلك الى ابن طولون فتأقت نفسه الى أخذ الشام وضمها الى ديار مصر فكتب الى ابن أما جاور يذكر له أن الخليفة المعتمد على الله قد أقطعته الشام وسائر

الثغور ويسأله النزول على حكه فأجابه ابن أماجور بالسمع والطاعة اذ كان يرى أن لا قبل له
 على مخالفته فسار ابن طولون في عسكر عظيم الى الشام واستخلف بمصر ولده العباس فلقبه
 ابن أماجور بالرملة فأقره عليها وسار الى دمشق فملكها وأقر قواد أماجور على أقطاعهم وسار
 الى حصص فملكها وملك كذلك حجة وحلب وكان المتولى على أنطاكية يومئذ سيما الطويل
 فراسله ابن طولون يدعوه الى طاعته ليقره على ولايته فامتنع فعاوده فلم يطعه فسار اليه
 وحاصر أنطاكية وشدت في حصارها وكان سيما المذكور سيئ السيرة مع أهل البلد فكاتبوا
 ابن طولون ودلوه على عورة البلد فنصب عليه المجانيق وقاتله فمك البلد عنوة والحصن الذي
 له فركب سيما وقاتل قتالا شديدا حتى قتل ولم يعلم به أحد فاجتاز بجيشه بعض قواده فعرفها
 فعمل رأسه الى ابن طولون فسأه قتله ورحل عن أنطاكية الى طرسوس فدخلها وعزم على
 المقام بها وملازمة الغزاة فلم يتمكن من ذلك لغلاء الاسعار وقلة الماء كوله بها وقد ضافت
 البلد عنه وعن عسكره فركب أهلها اليه بالخيم وقالوا له قد ضيقت بلدنا وأغليت أسعارنا
 فاما أقت في عدد يسير واما رحلت عنا وأغلظوا له في القول وشغبوا عليه فقال ابن طولون
 لأصحابه لتنهزموا من الطرسوسين وترحلوا عن البلد ليظهر للناس وخاصة العدو أن ابن طولون
 على بعد صيته وكثرة عسكره لم يقدر على أهل طرسوس وانهم لم يكونوا أهيب لهم في
 قلب العدو وعاد الى الشام فأنه الخبر أن ولده العباس الذي استخلفه بمصر قد شق عصا الطاعة
 وأخذ الاموال وسار الى برقة مشاققا لابيه فلم يمه ذلك ولم يزعجه وقضى أشغاله وحفظ أطراف
 بلاده وترك عسكرا بجزان وكذلك بالرقه مع غلامه لؤلؤ وكانت حزان يومئذ لمحمد بن أنامش
 وكان بطلا شجاعا مقداما فأخرجه ابن طولون عنها وهزمه شرهزيمة فاتصل خبر ماجرى له
 بأخيه موسى بن أنامش وكان بطلا كذلك شديد المراس فجمع عسكرا عظيما وسار نحو حزان
 وبها عسكر ابن طولون ومقدمهم أحمد بن جيعويه فلما اتصل به خبر مجيء موسى بن أنامش
 ألقه ذلك وأزعجه فظن له رجل من الاعراب يقال له أبو الاغر فقال أيها الأمير أراك مفكرا
 منذ أنك خبر ابن أنامش وما هذا محله فإنه طياش قلق ولوشاء الأمير أن آتبه به أسيرا لفعلت
 فغاظه قوله وقال قد شئت أن تأتي به أسيرا قال فاضم الي عشرين رجلا أختارهم قال فاعل
 فاختار عشرين رجلا وسار بهم الى عسكر موسى فلما قاربهم كن بعضهم وجعل بينهم وبينه
 علامة اذا سمعوها ظهروا ثم دخل المعسكر في السابقين في زى الاعراب وقارب مضارب موسى
 وقصد خيلا مربوطة فأطلقها هو وأصحابه فيها فنفرت وصاح هو ومن معه من الاعراب وأصحاب
 موسى غارتون وقد تفرق بعضهم في حوائجهم فانزعج العسكر وركبوا وركب موسى فانهم
 أبو الاغر من بين يديه فتبعه حتى أخرجه من المعسكر وجازبه النكين فنادى أبو الاغر بالعلامة
 التي بينهم فثاروا من النواحي وعطف أبو الاغر على موسى فأسروه فأخذوه وساروا به الى
 ابن جيعويه فسيره الى ابن طولون فاعتقله وعاد الى مصر وجعل يدبر الحيلة للقبض على ولده
 العباس فعلم أنه انما خرج عن الطاعة باغراء جماعة من أصحابه وقد حسنوا له أخذ الاموال

والخروج الى برقة ففعل ذلك ووصل برقة في ربيع الاول من السنة فأرسل اليه أبوه
 بلاطفه ويستعطفه فلم يرجع وخاف من كان مع العباس من ابن طولون فأشاروا على العباس
 بقصد افرريقية فسار اليها وكتب وجوه البربر فاتاه بعضهم وامتنع بعضهم وكتب الى ابراهيم
 ابن الاغلب يقول ان أمير المؤمنين الخليفة المعتمد على الله قد قلدى أمر افرريقية وأعمالها
 وسار حتى أتى حصن لبدة ففتح أهله له فعاملهم أسوأ معاملة ونهبهم قضى أهل الحصن الى
 الياس بن منصور والناقوسى مقدم الاباضية واستغاثوا به فكبر هذا الامر عليه وأعظمه
 جدا وسار في لوم عظيمة لقتال العباس وكان ابراهيم بن الاغلب قد سار الى عامل طرابلس
 جيشا عظيما ورسم له بقتال العباس أيضا فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا قاتل فيه العباس
 بيده فلما كان الغد وافاهم الياس بن منصور الاباضى في اثني عشر ألفا من الاباضية فاجتمع
 هو وعامل طرابلس على قتال العباس فقتل من أصحاب العباس خلق عظيم وانهمز سرهزيمة
 وكاد يسقط في يد الياس ونهبوا سواده وجميع ما حمله من مصر فعاد الى برقة وهو في أسوء
 حال * وجاء الخبر الى مصر بانهمزاه فاعتم أبوه غما شديدا وسير اليه عسكريا لما علم بسلامته
 فقاتلوه قتالا صبر فيه الفريقان فانهمز العباس ومن معه وكثر القتل في أصحابه وأخذ العباس
 أسيرا وجعل الى أبيه نجسه في حجرة في داره الى أن قدم باقي الأسرى من أصحابه فلما تكاملوا
 أتى بهم بين يدي ابن طولون وبينهم العباس فأمر ابن طولون واده العباس أن يقطع أيدي
 أعيانهم وأرجلهم ففعل ولم يتأخر خوفا من أبيه فلما فرغ من ذلك نظر اليه أبوه نظرة
 الاسف ووجهه وذمه وقال هكذا يكون الرئيس والمقدم لقد كان الاجدر بك أن تلتق بنفسك
 بين يدي وتطلب الصفح عنك وعنهم فيكون أعلى لمحكك من القلوب وتكون قد قضيت
 حقهم فيما أعانوك وفارقوا وأوطنهم لاجلك ثم أمر به فضرب مائة مفرعة ودموعه تجري على
 خذه رقة لولده ثم رده الى الحجرة واعتمله

وأما الخليفة المعتمد على الله فانه بايع بالخلافة لابنه جعفر وسماه المفوض الى الله وكان
 المعتمد قد آثر اللذة فغلبت عليه وغلب أخوه أبو أحمد الموفق على الامور كلها كما تقدم ثم لم
 يلبث أن حصر المعتمد وجبسه فكان أول خليفة قهر وحجر عليه ووكل به فلما اشتد به
 الحال وزاد به الضيق هرب وسار الى حديقة الموصل فسير أبو أحمد الموفق صاعدا الى سامرا
 وكتب الى اسحق بن كنداج فردّه من الموصل واستفعل أمر الخلاف بين المعتمد وأخيه الموفق
 فنطرق الخلل الى مقام الخلافة وكادت تزول هيبتها وتنقص عروتها وتحرك عقيب ذلك
 أيضا بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة وغذهبوا بمذهب دعاهم اليه رجل كان قد مرض
 بقرية من سواد الكوفة فأخذه رجل من أهل القرية اسمه كرميثة ومعناه باللغة النبطية أجر
 العين فلما عوفي من مرضه دعا باسمه ثم اختصر الى أن قالوا قرمط ثم كان من قرمط هذا
 أنه دعا قوما من السواد والبادية ممن لا يدينون بشئ الى دينه فأجابوه اليه * قال بعض الكتاب
 والمعروف من مذهبهم وتعليمهم أنه جاء بكتاب فيه * بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرغ بن

عثمان وهو من قرية يقال لها نصرانة انه داعية المسيح وهو عيسى وهو السكامة وهو المهدي وهو أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل * وذكر أن المسيح تصور بجسم انسان وقال له انك الداعية وانك الحجة وانك الناقة وانك الدابة وانك يحيي بن زكريا وانك روح القدس وعرفه أن الصلاة أربع ركعات ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان بعد غروبها وان الاذان في كل صلاة أن يقول المؤذن الله أكبر ثلاث مرات أشهد أن لا اله الا الله مرتين أشهد أن آدم رسول الله أشهد أن فوحا رسول الله أشهد أن ابراهيم رسول الله أشهد أن موسى رسول الله أشهد أن عيسى رسول الله أشهد أن محمدا رسول الله أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله * كل ذلك مرة وأن القبلة الى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيها شيء وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية وهو * الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المنجد لا وليائه بأوليائه قل ان الالهة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام وباطنها لاوليائي الذين عزفوا عبادي سبلي اتقوني بأولى الالباب أنا الذي لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم وأنا ابلو عبادي وأمتحن خلقي فمن صبر على بلائي ومحنتي واختياري أدخلته في جنتي وأخلدته في نعيي ومن زال عن أمري وكذب رسلي أخذته مهانا في عذابي وأتممت أجلي وأظهرت أمري على السنة رسلتي * أنا الذي لم يعمل على جبار الا وضعته ولا عزيز الا أذلته وبئس الذي أصر على أمره ودام على جهالته وقال لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين أولئك هم الكافرون * ثم ركع * ومن شرأعه أن يصام يومان في السنة وهما المهرجان والنيروز وحرم النبيذ وحل الخمر ومنع أكل ذى ناب وذى مخلب وقال لا غسل بعد جنابة والوضوء كوضوء الصلاة وغير ذلك من الاحكام والنواهي

وبلغت سيطرة الموفق وتصرفه في أمور الخلافة مبلغا عظيما جدا فعلت شهرته وكبرته هيئته فجعل يدس الدسائس بين عمال ابن طولون في الشامات وغيرها رجاء أن يفسد عليه الامر لما علمه من تقربه الى الخليفة المعتمد وتقرب الخليفة اليه ودس الى لؤلؤ غلام ابن طولون وفي يده يومئذ حصص وفسرين وحلب وديار مصر من الجزيرة فخرج عن طاعة مولاه وسار الى بالس فتمها وكتب الموفق في المسير اليه واشترط شروطا فأجاب الموفق اليها وكان بالرفة فسار الى الموفق ونزل قرقيسا وبها ابن صفوان العقيلي فخاربه وأخذها منه وسلمها الى أحمد ابن مالك بن طوق وسار الى الموفق فوصل اليه وهو يقاقل الخبيث العلوي وجاء الخبير بذلك الى ابن طولون فأهمه جدا وأكبره للغاية وجعل يدبر على الموفق وكتب المعتمد سرا في أمر الموفق وما يفعله وكان المعتمد قد ضجر وصغرت نفسه مما يلاقيه من الموفق اذ لم يكن له من الخلافة غير اسمها ولا ينفذ له توقيع لا في قليل ولا في كثير وكان الحكم كله للموفق والاموال تجبي اليه فكذب المعتمد الى ابن طولون يعلمه بتقديمه عليه بصبر فأشار عليه ابن طولون بالحقاق به ووعدته النصره وسير عسكرا الى الرقة ينتظر وصول المعتمد اليهم فاغتتم المعتمد غياب

الموفق عنه فسار في جادى الاولى ومعه جماعة من القواد فأقام بالكحيل يتصيد فلما صار الى
على اسحق بن كنداجيق وكان عامل الموصل وعامة الجزيرة وثب ابن كنداجيق بمن مع المعتمد
من القواد فقبض عليهم وهم نيزك وأحمد بن خاقان وخطار مش فقيدهم وأخذ أموالهم
ودوابهم وكان قد كتب اليه صاعد بن مخلد وزير الموفق في ذلك فقبض عليهم وحملهم مع
المعتمد حتى أدخلهم سامرا وعلم الموفق بما جرى فأشد بغضه لابن طولون ووهب لاسحق بن
كنداجيق سائر البلاد التي كانت تحت حكم ابن طولون فأمنه ملك ابن كنداجيق الى أطراف
افريقية واتسعت كلمته وعلم ابن طولون بالامر فجعل يكيد للموفق وجمع اليه القضاة والعلماء
بدمشق وكلهم في أمر الخليفة المعتمد وما يقاسيه من الشدائد وكيف يغلب الموفق عليه ويبسط
يده على جميع الامور فلم يترك له من الخلافة الا الاسم فتقررت القاعدة بينهم على أن يذكر
الخطيب كل ذلك عند صلاة كل جمعة ويدعو الله الى نصرته ويلعن الموفق فعلم الموفق بالخبر
فأكبره وأعظمه جدا وتقدم الى الخليفة المعتمد في لعن ابن طولون على المنابر فأجابته الى ذلك
كلها فصاروا يلعنونه على منابر العراق باللهم العنه لعنا يفل حده ويتعس حده واجعله مثالا
للعابرين انك لا تصلح عمل المفسدين * واشتد البغض بين الفريقين وجعل كل يتربص الفرص
للايقاع بصاحبه ثم عادا فتواددا وتحابا وتناسيا ما فات فعاتت الامور بين مصر ودار الخلافة
الى سابق مجراها وفرح الخليفة المعتمد على الله بذلك لميله الى ابن طولون وايثاره على الموفق ولم
يكن ليظمن قلب ابن طولون بعقد الصلح مع الموفق وزوال الوحشة من بينهما حتى جاءه الخبر
بمخروج بزماز وشقه عصا الطاعة فسار من فوره في عسكر الى طرسوس لقتاله وارجاعه الى
الطاعة فلما بلغ أذنة كاتبه وراسله يستميله فلم يلتفت بزماز الى ذلك فسار اليه ابن طولون
ونازله وحصره فخرق بزماز نهر البلد على معسكر ابن طولون فكادوا يهلكون جميعا فرحل
ابن طولون مغظا حنقا وكان الزمان شتاء وأرسل الى بزماز يقول اني لم أرحل الا خوفا أن
تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو وعاد الى أنطاكية ولبث بها أباما وطلب لبنا فأتوه بشيء
من لبن الجواميس فأكثر منه فأصابته هيضة فأشار عليه طبيبه سعيد بن شوقيل النصراني
بالحمية أباما فلم يمتثل فكبرت الهيضة حتى صارت ذربا وكان الطبيب يعالجه وهو بأكل ما يشاء
سرا فلم ينجح الدواء واشتدت علته واستعصت ففكر راجعا الى مصر جلا على أعناق الرجال
ووصل الى الفرما فأنزله في حراقة في النيل فصعدت به الى القسطاط وقد اشتدت علته
فجعل يتصدق على الفقراء والمساكين وخرج العلماء والمشايخ وبطرك المتأصلين الى المقطم
يدعون الله ويبتلون اليه في شفاء ابن طولون فلما كان يوم الاحد عاشر ذي القعدة سنة
سبعين ومائتين هجرية توفي فكانت امارته نحو ست وعشرين سنة وكان حازما عاقلا
كثير المعروف والصدقة متدينا وعمل كثيرا من أعمال البر ومصالح الخلق وترك من
الاموال عشرة آلاف دينار ومن العبيد المزججين بالسلاح سبعة آلاف وبغير سلاح أربعة
وعشرين ألفا وشيئا كثيرا جدا من الخيل والبغال والجمال ودواب الحمل وكان يجلس للنظر

في مظالم الرعية بنفسه ويتصدق في كل شهر بشئ كثير من المال وكان من تولى توزيع
 صدقاته ابراهيم بن قراطغان فدخل عليه يوما وقال أيد الله الأميراني أف في المواضع التي
 تفرق فيها الصدقات فتخرج لي الكف المحضوبه نقشا والمعصم الزائع فيسه الحديدية والكف
 فيها الخاتم فقال ابن طولون ويحك كل من مد اليك يده فأعطه فهذه والله هي اللطيفة المستورة
 التي ذكرها الله سبحانه في كتابه فقال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فأحذر أن ترد بدا
 امتدت اليك * ومات عن ثلاثين ولدا ذكرا وثلاث عشرة أنثى وحزن عليه الخليفة المعتد
 وبكاه * وكان أحمد قد عهد بالولاية من بعده الى ابنه خارويه فتولاها في ثاني يوم
 موت أبيه في ذي القعدة وله من العمر يومئذ عشرون سنة ولقب بأبي الجيش خارويه وجعل
 يتصرف في الأمور على أحسن ما يكون من الرفق بالرعية والنظر في الظلمات ونصرة
 الضعيف على القوي فأحبته الرعية ومالت اليه القلوب فلم يكن ليستقره منصب الولاية
 حتى طمع في أملاك مصر اسحق بن كنداجيق صاحب الموصل والجزيرة وكلم ابن الساج
 صاحب الشام في الخروج معه على خارويه وأخذ البلاد منه فأجابه ابن الساج الى ذلك وكانا
 الموفق بالله في ذلك فرسم لهما بقصد البلاد ووعدهما انفاذ الجيوش فجمعا وقصدا ما يجاورهما
 من البلاد فاستوليا عليه وأعاتهما نائب خارويه بدمشق ووعدهما بالانحياز اليهما فرحل من
 بالشام من فواب خارويه الى أنطاكية وحلب وحمص وعصى متولى دمشق المذكور واستولى
 ابن كنداجيق على تلك الاشياء وجاء الخبر الى خارويه بمصر بما جرى فأكبره جدا ورسم
 الى من كان بدمشق من العساكر بالزحف على ابن كنداجيق واجلائه عن البلاد فطاولهم
 ابن كنداجيق حتى يأتيه المدد من العراق فهجم الشتاء على الفريقين وأضر بأصحاب خارويه
 ضررا عظيما فتنفروا في المنازل بشيرز ووصل المدد من العراق الى عسكر ابن كنداجيق
 وعليهم أبو العباس أحمد بن الموفق وهو المعتضد بالله فسار بهم ابن كنداجيق مجدا الى عسكر
 خارويه بشيرز فلم يشعروا حتى كبسهم بالمنازل ووضع السيف فيهم فقتل منهم خلقا وفر من
 بقى الى دمشق فساق ابن الموفق خلفهم بعسكره فجلا عنها الى الرملة فملك ابن الموفق دمشق
 ودخلها في شعبان سنة احدى وسبعين ومائتين وأقام عسكر خارويه بالرملة وسيروا الخبر بما
 جرى الى خارويه فهاله الأمر وأزعجه وخرج من فوره من مصر في عسكر عظيم للغاية يريد
 الشام فلم يصل اليها حتى جاءه الخبر بوقوع الخلاف بين محمد بن أبي الساج واسحق بن كنداجيق
 وقد كانا على اتفاق في الخروج عن طاعة خارويه وكان سبب الاختلاف بينهما أن ابن أبي
 الساج نافر اسحق في الأعمال وأراد أن يتقدم عليه فلم يرض اسحق بذلك وامتنع عليه
 فأرسل ابن أبي الساج الى خارويه في طلب الطاعة والرجوع الى خدمة خارويه فأجابه خارويه
 الى ذلك فخطب له ابن أبي الساج بقنسرين وسير ولده يوداد الى خارويه رهينة فقال اليه
 خارويه وأرسل اليه مالا كثيرا له واقواده وطلبه فحضر اليه بيالس ثم عبر ابن أبي الساج
 الفرات الى الرقة فلقبه ابن كنداجيق واقتتلا قتالا عنيفا فكانت الدائرة على ابن كنداجيق

وعبر خجارويه الفرات ونزل الرقة ومضى ابن كنداجيق منهزما الى قلعة ماردين فخصمه ابن أبي الساج فيها ثم سار عنها فخرج ابن كنداجيق من ماردين نحو الموصل فلقبه ابن أبي الساج وكان قد تمكن له فانهزم وعاد فارا الى ماردين وقوى ابن أبي الساج وظهر أمره واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخجارويه فيها ثم لنفسه بعده وما زال على هذا الحال الى أن كانت سنة خمس وسبعين ومائتين خالف ابن أبي الساج وخرج عن طاعة خجارويه واستبد بالامر وقطع الخطبة لخجارويه في أعاليها كلها ووردت الاخبار بذلك الى خجارويه فسار عن مصر في عسكر عظيم يريد الشام فلاقاه ابن أبي الساج عند ثنية العقاب بقرب دمشق واقتتلا قتالا شديدا فانهزمت ميمنة خجارويه وأحاط باقي عسكره بابن أبي الساج ومن معه فغضى منهزما واستبج معسكره فأخذت دوابه وآلات حربه وجميع ما فيه وكان ابن أبي الساج قد ترك بمحصر شيئا كثيرا من الأموال والكرع وخجارويه يعلم بذلك فسير خجارويه الى حصص عسكرا فسبقوا ابن أبي الساج اليها ومنعوه من دخول البلد واستولوا على جميع ماله هناك فغضى منهزما الى حلب ومنها الى الرقة فتبعه خجارويه بعسكره فنارق الرقة فعب خجارويه الفرات في أثر ابن أبي الساج فلم يدركه فسير خلفه اسحق بن كنداجيق في عسكر عظيم وكان قد رضى خجارويه عن اسحق المذكور فكان بين اسحق وبين ابن أبي الساج أمور قد أضربنا عن إيرادها هنا خوف الإطالة

ولما كانت سنة ثمان وسبعين ومائتين هجرية مات الموفق فقام المعتضد بأمر الناس في التدبير مكان أبيه الناصر وهو الموفق وخلع جعفر المفوض بن المعتمد من ولاية العهد وقيل بل بايعه الناس بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد وخطب له يوم الجمعة بعد المفوض وذلك لسبع ليال بقين من صفر واجتمع عليه أصحاب أبيه وبنو ما كان أبوه نولاه وجعل يتصرف كما يحب ويختار فأقام اسمعيل بن بلبل في الوزارة بعد شغب كثير كان في مدينة السلام ثم لم يلبث أن قيد اسمعيل بن بلبل ووجه الى العباس بن أبي عبد الله بن سليمان بن وهب فأحضره وخلع عليه ورد إليه أمر كتابته وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين ولم يزل اسمعيل بن بلبل يعذب بأفواج العذاب وجعل في عنقه غلا في رمانة حديد والغل والرمانة مائة وعشرون رطلا وألبس جبسة صوف قدصيرت في ودك الأكارع وعلق معه رأس كلب ميت فلم يزل على ذلك حتى مات في جادى الأولى سنة ثمان وسبعين ومائتين ودفن بغله وقيوده وأمر المعتضد بضرب جميع الآنية التي كانت في خزائنه فضرمت وقرت في الخند

وخرج الخليفة المعتمد على الله يوما في الحرم افتتاح سنة تسع وسبعين وجلس للقواد واستدعى القضاة والوجوه وأرباب الدولة فلما تكامل مجلسهم أعلمهم أنه خلع ابنه المفوض الى الله جعفرا من ولاية العهد وعهد بها للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق فأكبروا هذا الامر وأعظموه وشهدوا على المفوض أنه قد تبرأ من العهد وأسقط اسمه من السكة

وانطبة والطرز وغير ذلك فلم ينقض شهر رجب من هذه السنة حتى مرض المعتمد ومات ليلة الاثنين لحدى عشرة ليلة بقيت منه وكان سبب موته أنه شرب يوما على الشط بيغداد شرابا كثيرا وتعشى فأكثر أيضا نجات ليللا فأحضر المعتضد القضاة وأعيان الناس فنظروا اليه وحمل الى سامرا فدفن بها وكان عمره خمسين سنة وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ذكره ابن الأثير * وقال المسعودي في كتابه مروج الذهب * وقد كان المعتمد قعد للغداء واصطحب يوم الاثنين لحدى عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين فلما كان عند العصر قدم الطعام فقال ياموشكيره للوكل به ما فعلت الرأس بأرقابها وقد كان قدّم من الليل أن يقدم له رأسا جلين وقد فصل فيهما رقابها فقدمتا وكان معه على المائدة رجل من ندمائه يعرف بقف الملقم ورجل آخر يعرف بخلف المضحك فأول من ضرب بيده الى الرأس الملقم فانتزع أذن واحدة منها وأما المضحك فإنه يقتلع اللهازم والاعين فأكلوا وأكل المعتمد وأتموا يومهم فأما الملقم صاحب اللقمة الأولى فإنه تهرى في الليل وأما المضحك فإنه مات قبل الصباح وأما المعتمد فإنه أصبح ميتا وقد لحق بالقوم ودخل اسمعيل بن حماد القاضي على المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلافة وكان هو أول من سلم عليه بها وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتمد ومعهم بدر غلام المعتضد يقول هل ترون به من بأس أوثر مات جفاة وقتلته مداومته على شرب النبيذ فنظروا اليه فاذا ليس به من أثر فغسل وكفن وحمل في تابوت أعدله الى سامرا فدفن بها وذكروا أيضا أن سبب موته أنه سقى نوعا من السم في شراهم الذي كانوا يشربونه وهو نوع يقال له البيش يحصل من بلاد الهند وجبال السترك والتبت وربما وجد في سبيل الطب وهو ألوان ثلاثة

ومات في خلافة المعتمد سانيوتيو بطرك الاسكندرية بعد أن أقام احدى عشرة سنة فأقيم بعده خائيل وهو سادس خسيم واشتد أحمد بن طولون في أيامه على خائيل المذكور شدة بليغة وألزمه بحمل عشرين ألف دينار * وكان سبب ذلك أن أسقفا اسمه سكا كانت بكنيسة الاسكندرية قد زاغ عن الأمانة المستقيمة وظهرت له تعاليم جديدة فاستناب خائيل البطرک المشار اليه فلم يتب فنهاه فلم ينته فخلعه وأبعده عن الكنيسة فحضى الأسقف المذكور الى ابن طولون ووشى في حق البطرک وبالغ في الواقعة فيه وقال لابن طولون ان لدى البطرک من الأموال والتحف والنفائس ما لا يدخل تحت الحصر وكان ابن طولون في ذلك الحين في حاجة الى المال للنفقة على العسكر المذهب الى الشام لرد الخوارج فسير ابن طولون في الحال في طلب خائيل البطرک فلما تمثل بين يديه طلب منه عشرين ألف دينار نقرة فاعتذر البطرک وقال من أين يكون لي هذا المال وأنا انما أعيش من صدقات أهل البر وحسنات ذوى البيوتات فشدّد ابن طولون في الطلب وبالغ في التشديد ثم أمر بخائيل البطرک فألقوه في السجن هو وتلميذه ابن المنذر فحضى عليهما حول وهما معتقلان وكان لابن طولون ديوانى اسمه موسى وله ولدان هما

يوحنا وإبراهيم فتقدما الى ابن طولون في كفالة البطرک في وفاة المال المطلوب بشرط الافراج عنه ليتمكن من جمعه فأجابهما ابن طولون الى ذلك وأطلق البطرک وتليذه وضرب للوفاء أجلا فجعل خائيل يبيع جميع متاع الكنائس الموقوفة عليها وباع كذلك أرض الحبش بظاهر الفسطاط والكنيسة الكائنة بجوار المعلقة من قصر الشمع لليهود وهي باقية في تصرفهم الى هذا اليوم وقرر الديارية على كل واحد من القبط قيراطا في السنة فلم يقيم مع هذا كله الا بنصف المقرر عليه فانكش في كنيسة العذراء بالمعلقة فعاد ابن طولون وقبض عليه وألقاه في السجن فلم يرض على ابن طولون بعد ذلك الا أيام قلائل حتى مات وخلفه ابنه خارويه وكان خارويه يعلم بأصل الفتنه وأن خائيل البطرک برى مما اتهم به فأطلق سيده وكف عن مطالبته بشئ بعد الذي آذاه فعقد عمل خارويه هذا حسنة من حسناته الكثيرة

(الفصل السادس عشر)

(في خلافة ابي العباس احمد المعتض بالله بن الموفق)

ثم قام بالامر بعد المعتض بن أخيه أبو العباس أحمد المعتض بالله بن الموفق بالله بويج له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه عمه المعتض على الله وهو يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة أي نحو سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة للبلاد فلما أفضت الخلافة اليه واستوثق له الامر سكنت الفتنه وصلحت شؤون البلاد فارتفعت الحروب ورنخت الأسعار وهذا الهرج وسالمة كل مخالف ودانت له الأمور وانفتح له الشرق والغرب وأدبل اليه أكثر المخالفين له والمنابذين لطاعته وأقر عبيد الله بن سليمان على وزارته وما زال عبيد الله وزيرا حتى مات فاستوزر بعده القاسم ابنه وولي غلامه بدرا الشرطة ومحمد بن الشاه بن مالك الحرس

وفي السنة التي تولى الخلافة فيها المعتض قدم الحسن بن عبد الله المعروف بابن الجصاص رسولا من مصر لخارويه بن أحمد بن طولون ومعه هدايا كثيرة وأموا جليظة فوصل الى المعتض فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه ثم سعى في تزويج ابنة خارويه المسماة قطر النداء من علي المكتنى فقال المعتض انما أراد أن يتشرف بنا وأنا أزيد في تشريفه أنا أتزوجها فتزوجها وتولى ابن الجصاص أمرها وحل جهازها فيقال انه حل معها جواهر لم يجتمع مثلها عند خليفة قط فانقطع ابن الجصاص بعضه وأعلم قطر النداء أن ما أخذ مودع لها عنده الى وقت حاجتها اليه فماتت والجواهر عنده فكان ذلك سبب غناه واستغلاله قيل وكان ما كان لابن الجصاص من بعد ذلك في أيام المقتدر من المحن والقبض عليه وما أخذ منه من الأموال

بهذا السبب وغيره * وجل المعتضد صدق قطر النداء وهو بمدينة بلد الى أبي الجيوش وكان
 الصداق ألف ألف درهم وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق وكان
 مما خص به أبا الجيوش في نفسه وجباه به بدره من الجواهر الثمين فيها در وياقوت وأنواع من
 الجواهر ووشاح وتاج واكيل وقيل فلنسوة وكردف وكان وصولهم الى مصر في رجب سنة
 ثمانين ومائتين وانحدر المعتضد من مدينة بلد والموصل بعد أن عمل ما وصفنا الى مدينة السلام
 في البحر * فلما اطمأن قلب أبي الجيوش بخارويه بمصاهرة الخليفة المعتضد عكف على اللهو
 والترف فبنى القصور العالية والميادين الفسيحة وأقبل على قصر أبيه فزاد فيه وجعل ميدانه
 بستانا وغرس فيه أنواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وأنواع الورد والزعفران والتخيل
 والأعشاب وكسا أجسام التخيل بالنحاس المذهب وجعل بين النحاس وأجسام التخيل حرايب
 الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه الربحان على نقوش وأشكال غريبة وكتابان
 مكتوبة يتعاهد بها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وبني في البستان برجا
 من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيه من أنواع القناري
 والدباسي والزينات وكل طائر مستحسن حسن الصوت وسرح في البستان من الطير العجيب
 مثل الطاوس ودجاج الحبش ونحوها وعمل في داره مجلسا سماه بيت الذهب قد طلى حيطانه
 كلها بالذهب المحلول باللازورد على أحسن نقش وجعل في حيطانه صورا بارزة من خشب
 مصنوع على صورته وصور خطايا والمغنيات اللاتي تغنيهن بما عليهن من الحلوى والزينة
 والثياب بألوانها ولم يعرف ملك قط تقدم بخارويه في عمل مثل هذا البستان * واشتكى يوما
 الى طبيبه مما يلاقيه من الارق فأشار عليه بالتميز فأنف من ذلك فأشار بعمل بركة من زئبق
 فعملها خمسين ذراعا في خمسين وملاؤها من الزئبق وجعل في أركان البركة سكا من الفضة
 الخالصة وجعل في السكك زناير من حرير في حلق من الفضة وعمل فراشا من آدم يحشى بالريح
 حتى ينتفخ فيحكّم حينئذ شدّه وبلقى على تلك البركة وتشدّ زناير الحرير التي في حلق الفضة
 بسكك الفضة وينام على هذا الفراش فلا يزال هذا الفراش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام
 عليه * ولم يمض على مصاهرة أبي الجيوش بخارويه بن أحمد بن طولون للمعتضد سوى نحو
 عامين حتى ذبح أبو الجيوش في دمشق في ذي القعدة سنة اثنيتين وثمانين وقد كان بنى في سفح
 الجبل أسفل من دير مروان قصرا وكان يشرب فيه في تلك الليلة وعندده طعج التركي وكان
 الذي تولى ذبحه غلاما من خدمه وجل أبو الجيوش في نابوت الى مصر فلما وصلها أخرج من
 التسابوت وجعل على السرير وذلك على باب مصر وخرج والده الأمير جيش وسائر الأمراء
 والأولياء وتقدم القاضي أبو عبيد الله محمد بن عبدة المعروف بالعبداني وصلى عليه وذلك
 في الليل * حكى أبو بشر الدولابي عن أبي عبيد الله التجارى وكان شيفا من أهل العراق
 وكان يقرأ في دور آل طولون ومقابرهم أنه بات في تلك الليلة مع من يقرأ عند القبر وقد

قدم أبو الجيـش ليدلى في القبر ويخـن نقرأ وجماعة من القراء سبعة سورة الاحـان فأحـدر من
السريـر ودلى في القبر وانتهينا من السورة في هذا الوقت الى قوله عز وجل * خذوه فاعتلوه الى
سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم ذق انك أنت العزيز الكريم * قال فخفضنا
أصواتنا وأذعنا حياءً عن حضره هـ

وكانت مدة ولاية خارويه اثنتي عشرة سنة وثمانية عشر يوماً فقام بالامر بعده ولده
جيش نولى الملك ثلثي يوم وفاة أبيه فلم تستقم له الامور وشاغب القواد عليه لخداثة سنه
واحتقره الجند وكادت تخرج عليه عمال البلاد السامية وغيرها من بقية العمالات التابعة
لمصر وعصاه ابن طغج بن جف والى الشام ولم يبايع له وكان سبب ذلك أنه لما ولى اجتمع اليه
الاحداث والسفل فأخذ الى استماع أقوالهم فأفسدوا بينه وبين قواده وأصحابه فجعل يذمهم
جهاراً ويظهر العزم على استبدالهم ثم قطع أعطية بعضهم وأخذ نهمهم فلما اشتد بهم الحال
انفقوا على قتله وأن يقيموا عمه بلده فبلغه خبر ذلك فلم يقدر على كتمانها وأطلق لسانه فيهم
ففارقهم بعضهم وساروا الى بغداد وتقدموا الى الخليفة المعتضد فخلع عليهم وأحسن اليهم
وبقي الجند على خلافهم لابن خارويه وأحاطوا بقصره يوماً يريدون خلعه وشدوا في الطلب
فسألهم كاتبه علي بن أحمد المرداني أن ينصرفوا يومهم ذلك فأنصرفوا فأرسل ابن خارويه
في الحال جماعة فقبضوا على اثنين من عمومته وقتلوهما وأصبح الجند وقد اجتمعوا حول
القصر يريدون خلعه فلما تكامل حضورهم رمى بالرأسين اليهم فهاجوا وماجوا وهجموا على
القصر ودخلوا على ابن خارويه فقتلوه ونهبوا داره وعاتوا في البلد فنهبوا ما قدروا على نهبه
ثم أحرقوها فكان المنظر مرعباً وانطرب شديد الغاية ثم أتوا بأخيـه هرون وولوه الامر
فكانت ولاية جيش تسعة أشهر لا غير * وجعل هرون يتصرف في الامور فغلب عليه هواه ولم
يضع على ولايته الا القليل حتى افتتن الناس وظهر بغضهم له فاختلف نظام الدولة وانعكست
الامور على هرون وطمع الولاة والعمال في الاستقلال وبلغ المعتضد خبر هذا كله فتأقت نفسه
الى استرداد سائر المدن والبلدان التي كان ابن طولون قد ضمها الى ديار مصر وسار في عسكر
عظيم أولاً الى أجيـدة فأطاعه صاحبها محمد بن أحمد بن عيسى بن شيخ وعاهده على الوفاء ثم سار
عنها الى قنـسرين فملكها ووردت الأخبار بذلك الى هرون فكد يسقط في يده وسير الى المعتضد
يستعطفه ويسترضيه بعد أمور وعهود وجعل يعمل على تسكين القلاقل والفتن جهـد الاستطاعة
فلم يتم له كل ما أراد وكان من أمره ما سيذكر في خلافة المكتفي بالله بن المعتضد

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين ومائتين أمر المعتضد بالكتابة الى جميع الأعمال والبلاد
كلها بسترل افتتاح الخراج في النيروز الفارسي وتأخير جمع الخراج الى الحادي عشر من
حزيران وسماه بالنيروز المعتضدي وأنشئت الكتب بذلك من الموصل والمعتضد يومئذ بها
قالوا وإنما أراد بذلك الترقيـه على الناس والرفق بهم وكتب أيضاً الى جميع البلدان برد
الفاضل من سهام المواريث الى ذوى الارحام وأبطل ديوان المواريث ففرح الناس بذلك

ومدحوه ثم نزل في سنة ثلاث وثمانين ومائتين الى تكريت وسار الحسن بن حمدان في
 الاولياء لحرب هرون الشاري فكانت بينهم حروب عظيمة كانت للحسن بن حمدان عليه فأتى
 به الى المعتضد أسيرا بغير أمان ومعه أخوه فدخل المعتضد بغداد وقد نصبت له القباب وزينت
 له الطرقات وعبي المعتضد جيوشه بباب الشماسية على أحسن ما يكون من التعبية وأكمل
 هيئته ثم خلع على الحسن بن حمدان خلعا شرفه بها وطوّقه بطوق من ذهب وخلع على
 جماعة من فرسانه ورؤساء أصحابه وأهله وشهرهم في الناس كرامة لما كان من فعلهم وحسن
 بلائهم ثم أمر بالشاري فأركب فيلًا وعليه دراعة ديباج وعلى رأسه برنس خبز طويل
 وخلقه أخوه على جبل وعليه دراعة ديباج وبرنس خبز وسيرهم في أثر الحسن بن حمدان
 وأصحابه ثم دخل المعتضد في أثره عليه قباء أسود وقلنسوة محدودة على فرس ضاف وعن
 يساره أخوه عبد الله الموفق وخلفه بدر غلامه وأبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب
 وزيره وابنه القاسم بن عبد الله فأكثر الناس من الدعاء له وتكاتف الناس في منصرفهم من
 الجانب الشرقي الى الجانب الغربي فالتخسف بهم كرسى الجسر الأعلى وسقط على زورق ملأه
 ناسا فغرق في هذا اليوم فحو من ألف نفس بمن عرف دون من لم يعرف واستخرج الناس
 من دجلة بالكلايب والغواصة وارتفع الضجيج وكثر الصراخ من الجانبين فيبينما الناس على
 هذا الحال من الصراخ والعيول اذ أخرج بعض الغواصة صيبا عليه حتى فاخته من ذهب
 وجواهر فبصر به شيخ من المنظارة طرار فجعل يلطم وجهه حتى دى أنفه ثم تمرغ على
 السراب وأظهر أنه ابنه وجعل يقول ياسيدي لم تمت اذ أخرجوك صحيحا سويا لم يأكل
 السمك ولم تمت حبيبي اذ كملت عيني بك مرة قبل الموت وأخذته فحمله على حمار ثم مضى به
 فما برح القوم الذين رأوا من الشيخ مارأوا حتى أقبل رجل معروف باليسار مشهور من
 التجار حين بلغه الخبر وهو لا يشك الا أن الصبي في أيديهم وليس بهم ما كان عليه من حلي
 وثياب وانما أراد أن يكفنه ويصلى عليه ويدفنه فأخبره الناس بالخبر فبقي هو ومن معه من
 التجار متعجبين مهوتين وسألوا عنه واستجشوا فاذا لاعين ولا أثر وعرف نوابوا هذا الجسر
 هذا الشيخ المحتمل فأياسوا أبا الغريق منه وذكروا أنه شيخ قد أعياهم أمره وحيرهم كيد
 وانه بلغ من حيله وخبثه ودهائه أنه أتى يوما من أول الصباح الى باب بعض العدول الكبار
 المشهورين بالرياسة واليسار ومعه جرة فارغة على عاتقه وفاس وزنبيل فقام في ثوب خلق
 ولم يتكلم حتى وضع الفاس في الدكاكين التي على باب ذلك العدل فهدهما وجعل يتنى
 الأجر ويعزله فسمع ذلك العدل بهدهما ووقع الفاس والهدم فخرج لينظر فاذا الشيخ دائب
 بهدم دكاينه التي على باب داره فقال يا عبد الله أي شيء تصنع ومن أمرك بهذا فجعل
 الشيخ يعمل عمله ولا يلتفت الى العدل ولا يكلمه فاجتمع الجيران وهما في المحاورة فأخذوا يند
 الشيخ فوكزه هذا ودفعه هذا فالتفت اليهم فقال ويلكم أي شيء تريدون مني أما تستمعون
 تعجبون بي وأنا شيخ كبير فقالوا مالنا والعبث بك ويحك من أمرك بهذا قال ويحكم أمرني

صاحب الدار فقالوا هذا صاحب الدار يكلمك قال لا والله ما هذا صاحب الدار فلما سمعوا كلامه وغفلته رجوه وقالوا هذا مجنون أو مخدوع خدعه بعض جيران هذا العدل عن قد حسده على ما أنتم الله تعالى به عليه وهم الذين جلاوا هذا الشيخ على هذا الفعل فلما منعوه من الهدم مضى الى الجرة التي جاء بها وقد كان وضعها الى جانب الباب فأدخل يده فيها كأنه قد خبأ ثيابه فيها فصرخ وبكى فلم يشك العدل أن محتملا خدعه وأخذ ثيابه فقال وأى شيء ذهب لك قال قميص جديد اشتريته أمس وملحفة لبيتي وسراويل فرقوا له جميعا ودعاه العدل فمكساه ووهب له دراهم كثيرة ووهب له الجيران دراهم كثيرة وانصرف غائما وهذا الشيخ كان يعرف بالعقاب ويكنى بأبي الباز وله أخبار عظيمة وحيل عجيبية * قال بعض الكتاب وهذا الشيخ هو الذي احتال للمتوكل حين بايعه بمختيشوع الطيب أنه ان سرق من داره شيء يعرفه في ثلاث ليال ذكرت من ذلك الشهر فعليه أن يحمل الى خزانه أمير المؤمنين عشرة آلاف دينار وان خرجت هذه الليالي ولم يتم عليه ما ذكره الضيعة المعين ذكرها في المبايعه فأتى بهذا الشيخ في عنفوان شبابه الى المتوكل فضمن للمتوكل أن يأخذ من دار بمختيشوع شيئا لا يسكره وقد كان بمختيشوع حرس داره وحصنها في هذه الليالي فاحتال العقاب المذكور بحيل لطيفة الى أن سرق بمختيشوع نفسه وجعله في صندوق وأتى به المتوكل في خبر ظريف وأنه رسول لعيسى بن مريم نزل الى بمختيشوع بشمع أسرجه وتخليط عمله وبنج في طعام اتخذها وأطعمه الحراس لداره في تلك الليلة الى آخر القصة مما لا حاجة ليرادها هنا

وكان المعتضد حازما كيسا كثيرا الحسب حتى عبد الله بن جدون وكان من ندماء المعتضد وخاصته ومن كان يأنس به في الخلوة انه أمر أن ينقص من مرتب حشمه ومن كان يجري عليه من الاتراك من كل رغيف أوقية وان يتبدأ بأمر خبزه لان للوصائف عددا من الرغفان فيها ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك قال ابن جدون فتعجبت من ذلك في أول أمره ثم تبينت القصة فاذا انه يتوفر من ذلك في كل شهر مال عظيم * وتقدم الى خازنه أن يختار له من الثياب التسترية والديبقية أحسنها لتقطيعها لنفسه وكان مع ذلك قليل الرحمة كثير الاقدام سفا كالدماء شديد الرغبة في أن يمثل بمن يقتله وكان اذا غضب على القائد النبيل والذي يختصه من علمائه أمر أن تحفر له حفرة ثم يدلى على رأسه فيها ويطرح التراب عليه ونصفه الاسفل ظاهر على التراب ويداس التراب فلا يزال كذلك حتى يخرج روجه من دبره وذكر من عذابه أنه كان يأخذ الرجل فيكتف ويقيده ويؤخذ القطن فيحشى في أذنه ويحشومه ووجه وتوضع المناقع في دبره حتى ينتفخ ويعظم جسمه ثم تسد دبره بشيء من القطن ثم يقصد وقد صار كالجمل العظيم من العرقين المعروفين فوق الحاجبين فتخرج النفس من ذلك الموضع وربما كان يوضع الرجل في أعلى السطح مجردا موقفا ويرى بالنشاب حتى يموت واتخذ المظالمير وجعل فيها أصناف العذاب وجعل عليها الحرى المتولى لعذاب الناس ولم يكن له رغبة الا في النساء والبناء فانه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربع مائة ألف دينار وكان طول قصره المعروف بالثريا ثلاثة فراسخ

ومما ذكر من حزمه في الأمور وحيله وصبره أنه أطلق يوماً من بيت المال لبعض الرسوم في
الجندي عشر بدر فحملت الى منزل صاحب عطاء الجيش ليصرفها فيهم فنقب منزله في ثلاث الليالي
وأخذت العشر بدر فلما أصبح الصباح نظر الى النقب ولم ير المال فأمر باحضار صاحب الحرس
وكان على الحرس يومئذ مؤنس العجلى فلما أتاه قال له ان هذا المال للسلطان والجندي ومتى لم
تأت به أو بالذي نقبه وأخذ المال ألزمتك أمير المؤمنين غرمة فخذ في طلبه وطلب اللص الذي
جسر على هذا الفعل فسار الى مجلسه وأحضر التوابين والشرط * والتوابون هم شيوخ من
أنواع اللصوص الذين كبروا ونابوا فإذا جرت حادثة علموا من فعلها فدلوا عليه وربما قاموا
باللصوص ما سرقوه * فتقدم اليهم في الطلب وتمدهم وأوعدهم وطلبهم فتمفرق القوم
في الدروب والأسواق والغرف والمواخير ودكاكين الرواسين ودور القمار فما لبثوا أن أحضروا
رجلاً ثخيناً ضعيف الجسم رث الملابس هين الحاملة فقالوا ياسيدي هذا صاحب الفعلة وهو
غريب من غير هذا البلد وأطبق القوم كلهم على أنه صاحب النقب ولص المال فأقبل عليه
مؤنس العجلى فقال وبلك من كان معك ومن أعانك وأين أصحابك ما أظنك تقدر على عشر بدر
وحدك في ليلة ما كنتم الا عشرة وأقل ذلك خمسة فأقر لي بالمال ان كان مجتمعا وعلى أصحابك
ان كان المال قد قسم فما زاده على الانكار شيئاً فأقبل يترقب به ويعده أن يئيبه ويرزقه ويعظم
جائزته ويعده بكل جميل على رده والاقرب به ويتوعد به بكل مكروه على سجوده وانكاره فلما غاظه
ذلك وأنكره ويئس من اقراره أخذ في عقوبته ومساءته فضربه بالسوط والقلاوس والمقارع
والدرة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجله وكعابه وعضله حتى لم يكن للضرب فيه
موضع وبلغ به ذلك الى حالة لا يعقل فيها ولا ينطق فلم يقر بشيء فبلغ ذلك الخليفة المعتضد
فأرسل فأحضر صاحب الجيش فقال له ما صنعت في المال فأخبره الخبر فقال له وبلك تأخذ
لصا قد سرق من بيت المال عشر بدر فتبلغ به الموت والتلف حتى يهلك الرجل ويضيع المال
فأين حيل الرجال فأتى به وقد جل في جل فوضع بين يديه وقد عقيل فسأله فأنكر فقال له
وبلك انهمت لم ينفعك وان برئت من هذا الضرب لم أدعك تصل اليه فلك الأمان والضمان
على ما تصلح به حالتك ويحمد به أمرك فأبى الا الانكار فقال على بأهل الطب فأحضروا
فقال خذوا هذا الرجل اليكم فعالجوه بأرفق العلاج وواظبوا عليه بالمراهم والغذاء والتعاهد
واجتهدوا أن تبرئوه في أسرع وقت فأخذوه اليهم وأخرج مالا مكان المال وأمر بتفريقه على
الجندي فيقال انه برئ وصلح في أيام يسيرة ثم واظبوا عليه بالطعام والشراب والوطاء والطيب
حتى صح وقوى جسمه وظهر لونه ورجعت اليه نفسه ثم ذكر به فأمر باحضاره فلما حضر
بين يديه سأله عن حاله فدعا وشكر وقال أنا بخير ما أتيت الله أمير المؤمنين ثم سأله عن المال
فعاد الى الانكار فقال له وبلك لست تخلو من أن تكون أخذته وحدك كله أو وصل اليك
بعضه فان كنت أخذته كله فأنك تنفقه في أكل وشرب ولهو ولا أظنك تفتيه قبل موتك
وان مت فعليك وزره وان كنت أخذت بعضه سمعنا لك به فأقر على أصحابك فأبى أقتلك ان

لم تقم ولا ينفعك بقاء المال بعدك ولا يبالي أصحابك بقتلك ومتى أقررت دفعت اليك عشرة آلاف درهم وأخذت لك من أصحاب الجسر مثل ذلك ورسمتك من التوابين وأجريت لك في كل شهر عشرة دنائير تكفيك لا كلك وشربك وكسوتك وطيبك وتكون عزيزا وتجو من القتل وتتخلص من الاثم فأبى الا الانكار فاستحلته بالله وأظهر له مصفا خلف عليه فقال اني سأظهر على المال فان أنا ظهرت عليه بعد هذه اليمين قتلتك ولم أستبقك فأبى الا الانكار فقال له فضع يدك على رأسي واحلف بحياتي فوضع يده على رأسه وحلف بحياته أنه ماأخذه وانه مظلوم منهم وان التوابين قد تبرؤا به فقال له المعتضد فان كنت قد كذبت قتلتك وأنا برىء من دمك قال نعم فأمر باحضار ثلاثين أسود بحيث يراهم وبرونه وأمرهم أن يتناوبوا في ملازمته فأنت عليه أيام وهو قاعد لا يتكئ ولا يستلقي ولا يضطجع وكلما خفق خفقة وجئ فكه ووقع رأسه حتى اذا ضعف وقارب التلف أمر باحضاره فأعاد عليه ما كان خاطبه به واستخلفه بالله وبغير ذلك من الايمان خلف على ذلك كله وبما لم يستخلفه به أنه ماأخذ المال ولايعرف من أخذه فقال المعتضد لمن حضر قلبي يشهد أنه برىء وأن مايقول حق وأن التوابين قد عرفوا صاحبه وقد أئمتنا في هذا الرجل وسأله أن يجعله في حل ففعل ثم أمر باحضار مائدة عليها طعام وأحضر بارد الشراب وأمره بالخلوس والأكل والشرب فأقبل بأكل ويشرب ويحث على الاكل ويلتزم ويعاد الشراب عليه ويكرر حتى لم يبق للأكل والشرب موقع ثم أمر بجور وطيب فبخر وطيب وأتى له بحشيشة ريش فوطئ له ومهد فلما استلقى واستراح وغفا أمر بازعاجه وسرعة ايقاظه فحمل من موضعه حتى أقعد بين يديه وفي عينيه الوسن فقال له حدثني كيف صنعت وكيف نقتبت ومن أين خرجت والى أين ذهبت بالمال ومن كان معك قال ماكنت الا وحدي وخرجت من النقب الذي دخلت منه وكان مقابل الدار حمام له كوم شوك يوقد به فأخذت المال ورفعت ذلك الشوك والقش والقصب فوضعتهم تحته وغطيته وهو هناك فأمر برده الى فراشه فردوه وأضجعوه عليه ثم أمر باحضار المال فأحضر عن آخره وأحضر مؤنس الجملي وأحضر الوزير والجلساء وقد غطى المال بالبساط ناحية من المجلس ثم أمر بايقاظ اللص وقد اكتفى من النوم وذهب عنه الوسن فقال له بحضرة الجميع مثل قوله الأول فجد وأتكر فأمر بكشف البساط وقال له وبلك أليس هذا المال ألسنت فعلت كذا وكذا وأخذ يصف له ما كان حدثه به ثم أمر فقبض على يديه ورجليه وأوثق ثم أمر بمنفاخ فنفخ في دبره وأتى بقطن خشبي في أذنيه وقه ونحشومه وأقبل ينفخ وخلي عن يديه ورجليه من الوثاق وأمسك بالأيدي وقد صار كأعظم ما يكون من الزقاق المنفوخة وقد ورم سائر أعضائه وعظم جسمه وعيناه قد امتلأتا وبرزنا فلما كاد أن ينشق أمر بعض الأطباء فضربه في عرقين فوق الحاجبين وهما في الجبين فأقبلت الرياح تخرج منهما مع الدم ولها صوت وصغير الى أن نجد وتلف وكان ذلك أعظم مارؤى في ذلك اليوم من العذاب

ولما كثرت مظالم المعتضد وكثر سفكه للدماء قيل انه ظهر له شخص في صور مختلفة في داره فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان وتارة يظهر شابا حسن الوجه ذا لحية سوداء بغير تلك البزة وتارة يظهر شيخا أبيض اللحية ببزة التجار وتارة يظهر بيده سيف مسلول وضرب بعض الخدم فقتله فكانت الابواب تؤخذ وتغلق فيظهر له أين كان في بيت أو صحن أو غيره وكان يظهر له في أعلى الدار التي بناها فأكثر الناس القول في ذلك واستفاض الأمر واشتهر في خواص الناس وعوامهم والقول في ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم فمن قائل ان شيطانا مريدا أصمده له يظهر فيؤذيه ومنهم من يقول ان بعض مؤمنى الجن رأى ماهو عليه من المنكر وسفك الدماء فظهر له رادعا وعن المنكر زاجرا ومنهم من رأى أن ذلك من بعض خدمه كان قد هوى بعض جواريه فاحتال بحيلة فلسفية من بعض العقاقير الخاصة يضعها في فمه فلا يدرك بحاسة البصر وكل ذلك ظن وحسبان فلما اشتد أمر ذلك على المعتضد أحضر المعزمين وقد كبر قلقه واستوحش ومار عليه أمره فقتل وغرق جماعة من خدمه وجواريه وضرب وجلس جماعة منهم وعمل أعمالا لا يسعنا ذكرها هنا لشناعتها

ومات المعتضد لاربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين في قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام وقيل ان وفاته كانت بسم دسه اليه اسماعيل بن بلبل قبل قتله اياه فكان يسرى في جسده ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته اياه يتمشف به وقيل غير ذلك مما لم نذكره هنا وقد كان أوصى أن يدفن في دار محمد بن عبد الله ابن طاهر في الجانب الغربي من الدار المعروفة بدار الرخام فلما اعتراه الغشى ووقع للموت شكوا في وفاته فتقدم الطيب الى بعض أعضائه فحسه فأحس به وهو على ما به من السكرات فأنتف من ذلك وركله برجله فقلبه أذرا فيقال ان الطيب مات منها ومات المعتضد من ساعته وسمع ضجعة وهو على ما به من الحال ففتح عينه وأشار بيديه كالمستفهم فقال له مؤنس الخادم ياسيدى الغلمان قد ضجوا عند القاسم بن عبيد الله فأطلقنا لهم العطاء فقطب وجهه وهمهم في سكرته فكادت أنفاس الجماعة أن تخرج من هيته وجعل الى دار محمد ابن عبد الله بن طاهر فدفن بها * قال صاحب مروج الذهب والمعتضد أخبار وسير وحروب وسير في الارض غير ما ذكر وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ويومين قيل ولما حضرته الوفاة أنشد

تمتع من الدنيا فانك لا تبقي * ونخذ صفوها ما ان صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر انى أمنتته * فلم يبق لى خلا ولم يرع لى حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع * عدوا ولم أمهل على طغيه خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع * فشردهم غربا ومنزقتهم شرقا

فلما بلغت النجم عزا ورفعة * وصارت رقاب الخلق أجمع لى رقا
 رماني الردى سهما فأخذ جرتى * فيها أنا ذا فى حفرتى عاجلا ألتى
 ولم يغن عنى ما جمعت ولم أجسد * لذى الملك والأحياء فى حسنهما رفقاً
 فبالت شعرى بعد موتى ما ألتى * الى نسيم الرحمن أم ناره ألتى
 وكان المعتضد أسمر نحيف الجسم معتدل الخلق قد وخطه الشيب وكان شهماً شجاعاً
 مقداماً ذا عزم وفيه شج مهيبة عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه
 وبعد موته ولى الخلافة بعده ولده أبو محمد على المكتنى بالله

(الفصل السابع عشر)

(فى خلافة أبى محمد على المكتنى بالله بن المعتضد)

ثم قام بالأمر بعد المعتضد ابنه أبو محمد على المكتنى بالله بن المعتضد بن الموفق بن
 المتوكل بن المعتصم ببيع له بالخلافة يوم مات أبوه وهو يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع
 الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين هجرية أى سنة احدى وتسعمائة لليلاد وأخذ له البيعة
 القاسم بن عبيد الله والمكتنى يومئذ بالرقعة وله من العريف وعشرون سنة فلما وصله
 الخبر أخذ البيعة على من عنده من الاجناد ووضع لهم العطاء وسار الى بغداد ووجه الى
 النواحي من ديار ربيعة ومضر ونواحي العرب من يحفظها وكان وصوله الى مدينة السلام
 يوم الاثنين لسبع ليال بقين من جمادى الاولى سنة تسع وثمانين ومائتين وكان دخوله اليها
 فى البحر ونزل قصر الحسينى على دجلة وخلع على القاسم بن عبيد الله ولم يخلع على أحد من
 القواد وفى اليوم الذى دخل فيه مدينة السلام قتل عمرو بن الليث الصفار قتله صبوا صافى
 الخرمى وكان أمر قتله من أغرب الامور وذلك أنه لما قبض على عمرو المذكور فى أيام المعتضد
 وأودع فى السجن مدة مرض المعتضد قد ذكره المعتضد عند امتناعه من الكلام واحتضاره
 فأشار بيديه يريد صافيا الخرمى فلما حضر اليه أمره بقتله عمرو المذكور بالاعياء والاشارة
 بان وضع يده على رقبته وعلى عينه يعنى بذلك أذيم الاعور فلم يفعل ذلك صافى لعلمه
 بقرب وفاة المعتضد وكره قتل عمرو المذكور فلما دخل المكتنى مدينة السلام سأل القاسم بن
 عبيد الله الوزير عنه فقال هو حتى يرزق فسر بذلك وأراد الاحسان اليه لانه كان يكتر من
 الهدية اليه لما كان بالرى ففكره الوزير ذلك فبعث اليه من قتله وعلم المقدر بما جرى فأكبر
 الامر وأعظمه جسداً وكان دائماً يذكر هذه الفعلة للقاسم ولا ينساها * ولم تستقر الخلافة
 بالمكتنى حتى أمر بهدم المطامير التى كان المعتضد اتخذها لعذاب الناس وأطلق من كان

محبوسا فيها وأمر برد المنازل التي كان المعتضد اتخذها لموضع المطامير الى أهلها وفرق فيهم أموالا فغلبت قلوب الرعية اليه وكثر الداعي له بهذا السبب وغلب عليه القاسم بن عبيد الله وفاتك مولاه فكان بعد ذلك لا يعمل الا بمشورتها * وجاءته الكتب تترى من أهل مصر والشام يشكون ما يلقون من القرمطي من القتل والسبي والتخريب وقد كان عاث هو وأصحابه في سائر البلاد وأخس في القتل وازاقة الدماء بلا رحمة ولا شفقة وحصر دمشق وضيق عليها فجاءت اليها النجدة من مصر وبغداد وسير المصريون لقتاله بيدرا القائد وغيره من كبار القواد فقاتلوا شيئا مقدما القرامطة وشددوا في قتاله وألحوا فقتل على باب دمشق وأحرق وقتل خلق كثير من القرامطة وتفرق من بقي منهم ثم عادوا فاجتمعوا على الحسين أخى شيخ المذكور فسمى نفسه أجمد وكنى بأبي العباس ودعا الناس فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم فاشتدت شوكته وجعل يحث على الناس وأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آية وسار بجيوشه الى دمشق فخافه أهلها وصالحوه على خراج دفعوه اليه وانصرف عنهم ثم سار الى أطراف حصص فأخذها وخطب له على منابرها وتسمى المهدي أمير المؤمنين وأتاه ابن عم له اسمه عيسى المهدي فلقبه المدثر وعهد اليه وزعم انه المدثر المذكور في القرآن ولقب غلاما من أهله المطوق وقلده قتل أسرى المسلمين ثم سار الى حماة ومعرة النعمان وغيرهما فقتل وسبي وأحرق ونحرب وقتل النساء والصبيان ثم سار الى بعلبك فقتل عامة أهلها فلم يبق منهم الا اليسير ثم سار الى السليمة فخنعه أهلها ثم صالحهم وأعطاهم الامان ففتحوا له بابها فبدأ يقتل من فيها من الهاشميين وكانوا جماعة ثم قتل البهائم والصبيان بالمكاتب ثم خرج منها وليس بها عين تطرف وسار فيما حوّلها من القرى يسبي ويقتل فضج الناس وبعجوا الى الله تعالى وخاف الخليفة المكتفي شر العاقبة فجهز في رمضان من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين جندا عظيما وخرج بهم من بغداد في الشهر بعينه وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الاغر في عشرة آلاف رجل فقتل قريبا من حلب فكبسهم القرمطي صاحب الشامة فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الاغر فدخل حلب في ألف رجل فسبقه القرمطي الى باب حلب فقاتله أبو الاغر بمن بقي معه وأهل البلد فرجع عنهم وما استهل شوال حتى وصل بدر مولى ابن طولون في عسكره وانقض على القرمطي وقاته قتالا شديدا فانهمز القرمطي وقتل من أصحابه خلق كثير ومضى من سلم منهم نحو البادية فوجه الخليفة المكتفي في أثرهم الحسين بن جندان وجماعة من القواد فلم يدركهم وما زال الحال هكذا الى مستهل سنة سبع وتسعين ثم شدد المكتفي في قتال القرمطي وولى محمد بن سليمان الكاتب أمر حربه ورسم له بمناهضة القرمطي فسار اليه محمد في عسكر الخليفة فلاقاه على مقربة من حماة فسار اليهم القرمطي جماعة من أصحابه وبقي هو في جماعة ومعه أمواله وسواد عسكره فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فانهمزت القرامطة وقتل منهم مقتلة عظيمة وغزق من بقي وفر الى البوادي فتبعهم أصحاب الخليفة فلما رأى القرمطي ما حصل بأصحابه

ركب هو وابن عمه المسمى بالمدثر والمطوق صاحبه وغلّام له رومي وسار يريد الكوفة عرضا في البرية فلما وصل الى الدالية من أعمال الفرات نفذ ما كان معهم من الزاد والعلف فوجه بعض أصحابه الى الدالية المعروفة بابن طوق ليشتري لهم ما يحتاجون اليه فلما صار في سوق البلد أنكروا حاله فسألوه عن أمره فكتمه فرفعوه الى متولى تلك الناحية فسأله عن خبره فأعلمه أن القرمطي صاحب الشامة خلف راية هناك مع ثلاثة نفر فسير اليهم الوالي من قبض عليهم ثم وجه بهم الى المكتفي بالرقفة ورجعت الجيوش بعد أن قتلوا وأسروا وفي يوم الاثنين لاربع بقين من المحرم أدخل صاحب الشامة الرقة على جبل ظاهر للناس وبين يديه المدثر والمطوق ثم سار من هناك مع الخليفة المكتفي الى بغداد فأدخل اليها على فيسل وأصحابه على الجبل فأودعهم السجن حتى قدم محمد بن سليمان الكاتب في عسكره ومعه جماعة من أعيان القرامطة ورؤسهم فأمر الخليفة بقطع أيديهم وأرجلهم وقطع أعناقهم وضرب صاحب الشامة ألتي سوط وقطعت يدها وكوى فغشى عليه وأخذوا حطبا ووضعوا فيه نارا ووضعوه على خواصره فجعل يفتح عينه ويغضها فلما خافوا موته ضربوا عنقه ورفعوا رأسه على خشبة فكبر الناس لذلك كثيرا وفرحوا بموته فرحا عظيما

وكان هرون بن خارويه لما عاهد الخليفة المعتضد وعاهده على الولاة والطاعة أيام خلافته خوفا من زحفه على أملاك مصر ونزعها منه جعل يراقب الفرص ليتخلص من ربة تلك العقود فلما ظهر القرمطي صاحب الشامة وكان من أمر خروج الخليفة المكتفي ومعه محمد بن سليمان الكاتب في مقدمة عسكره وظهر أمر ابن الكاتب واتسعت كلمته بعد ظفزه بالقرمطي عمده هرون بن خارويه الى استمالة ابن الكاتب سرا وأوعز الى بدر الجمالي غلام أحمد بن طولون وفائق أحد أصحابه وهما بدمشق أن يكاتبا ابن الكاتب في ذلك ويدعوانه الى قصد البلاد بالعساكر فكتابا اليه ووعدها بالمساعدة على أخذها فكتم ابن الكاتب أمر ذلك ولما عاد الى بغداد أتاه الى الخليفة المكتفي فكاد الخليفة بتسيير غيظا وأمر ابن الكاتب بالعود وسير معه الجنود والاموال ووجه دميانة غلام بازمار أيضا وأمره بركوب البحر الى مصر ودخول النيل وقطع الوارد عنها فسار دميانة ووصل اليها وشدد في حصار المدينة وضيق على أهلها وزحف اليهم محمد بن سليمان في عسكره في البر حتى صار على مقربة من مصر وكاتب من بها من القواد فكان أول من طلب الامان بدر الجمالي وهو مقدمهم فاتحلت عقدهم وانفسلوا جميعا وتتابع المستأمنة من القواد فلما رأى ذلك هرون بن خارويه خرج فيمن معه لقتال محمد بن سليمان فكانت بينهم وقائع كثيرة وانفق في هذه الاثناء أن وقع بين عسكر هرون وخلاف وعظم شر هذا الخلاف فاقتتلوا فخرج هرون يسكنهم فرماه بعض المغاربة بمزراق فقتله فلما قتل استقدموا عمه شيان وولوه مكان هرون فبذل المال للجند فأطاعوه واجتمعوا عند كلمته وحاربوا معه فأتتهم كتب بدر الجمالي يدعوهم الى الامان فأجابوه الى ذلك ووصل الخبر الى محمد بن سليمان بما جرى فسار الى

مصر فأرسل اليه شيبان يطلب الامان فأجابته فخرج اليه ليلا ولم يعلم به أحد من الجند فلما أصبحوا لم يجدوه في داره فقبيل ان محمد بن سليمان الكاتب قبض عليه وقتله وقيل بل هرب في أرض الله واسعة الفضاء ودخل ابن الكاتب مصر واستولى على دور آل طولون وأموالهم وقبض عليهم جميعا وهم بضعة عشر رجلا فقيدهم وسجنهم واستقصى أموالهم وكتب بالفتح الى الخليفة المتوكل فأمره بأشخاص آل طولون وأسبابهم وجميع متاعهم من مصر والشام الى بغداد وأن لا يترك منهم أحدا ففعل وقد عاث أصحابه وأفسدوا وأحرقوا وقتلوا من السودان سكان قطائع ابن طولون خلقا عظيما للغاية وولى معونة مصر عيسى النوشري فبدأت من ذلك اليوم دولة بني طولون وحلت منهم الديار وعفت الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم التنكيل والذل فرثاهم الشعراء وبكاهم الناس كثيرا فمن رثاهم من الشعراء المعاصرين أحمد بن اسحق الجفري واسماعيل بن أبي هاشم ومحمد بن طسويه وسعيد القاص وأحمد بن محمد الحيشي وأحمد بن يعقوب فمما قاله القاص من قصيدة طويلة هذه الابيات

جرى دمعه ما بين سحر الى سحر * ولم يجرحني أسلته يد الصبر
وهل يستطع الصبر من كان ذا أمي * بيت على جر ويضحي على جر
تتابع أحداث يضيعن صبره * وغدر من الايام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الانوف وجدعها * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وفقد بني طولون في كل موطن * أمر على الاسلام فقدا من القطر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا * جليل الحيا لا بيت على وتر
كأن ليالى الدهر كانت لحسنها * واشراقها في عصره ليلة القدر

الى أن قال

ترى أثر لم يبق من يستطيعه * من الناس في بدو البلاد ولا حضر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته * كما قام ليث الغاب في الاسل السم
أنته المنيا وهو في أمن داره * فأصبح مسلوبا من النهى والامر

الى أن قال

فمن بيك شيئا ضاع من بعد أهله * لفقدهم فليبسك حزنا على مصر
ليبك بني طولون اذ بان عصرهم * فبورك من دهر وبورك من عصر

ثم ظهر بعد ذلك بقليل رجل يعرف بالخلنجي وهو من قواد آل طولون وكان تخلف عن محمد بن سليمان فاستمال جماعة من المصريين وقاموا معه وخالفوا على السلطان وكثر جمعه وعلت كلمته وبجز النوشري عن رده فسار النوشري الى الاسكندرية ودخل الخلنجي مصر وجعل يتصرف في الامور فكتب النوشري الى الخليفة المكتفي بالخبر وطلب منه النجدة فسير اليه الجنود مع قاتك التركي مولى المعتضد وبدر الجمي فساروا في شوال ووصلوا الى فواحي مصر وتقدم أحمد بن كيخلف في جماعة من القواد فلقبهم الخلنجي بالقرب

من العرش في جيش عظيم فاقتلوا فانتصر عليهم الخليلي وهزمهم شريزة فطلبوا من الخليفة بعض القواد فسير اليهم جماعة منهم واتصلت الاخبار بقوة الخليلي فبرز المكتفي الى باب الشماسية ببغداد ليسير الى مصر واهتم لذلك جدا ونادى بالتأهب للسير فينما هو على هذا الحال اذ جاء كتاب من فاتك في شعبان يذكر أنه هو والقواد جدوا في قتال الخليلي فكانت بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلق كثير وان آخر حرب كانت بينهم قتل فيها معظم أصحاب ابراهيم الخليلي وانهزم الباقون وظفروا بهم وغنموا عسكرهم وهرب الخليلي فدخل نسطاط مصر فاستتر بها عند رحيل من أهل البلد فدخلوا المدينة فدلوا عليه فأخذوه ومن استتر عنده وألقوه في الحبس فكتب المكتفي الى فاتك في حمل الخليلي ومن معه الى بغداد وعاد المكتفي فدخل بغداد وأمر برد خزائنه وآلات حربه وكانت قد سارت فبلغت تكريت فوجه فاتك بالخليلى الى بغداد فدخلها هو ومن معه في شهر رمضان من السنة فأمر المكتفي بحبسهم ورجع النوشري الى مصر فأقام واليا عليها خمس سنين وشهرين وخمسة عشر يوما ومات سنة سبع وتسعين ومائتين أى في خلافة المقتدر بالله كما سيأتى بيانه في محله

ولما كانت سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية مرض المكتفي بالله وثقل به مرضه الى شهر ذى القعدة فتوفي في ثالث عشره وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وقيل اثنتان وثلاثون سنة فكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما وكان ربعة جيسلا رفيق البشارة حسن الشعر وكنيته أبو محمد ودفن بدار محمد بن طاهر وكان يحب على بن أبي طالب ويميل الى ذريته * يحكى أن يحيى بن على الشاعر أنشده بالرقعة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد على فقطع المكتفي عليه انشاده وقال يا يحيى كأنهم ليسوا بنى عم ما أحب أن يخاطب أهلنا بشئ من ذلك وان كانوا خلفاء ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها * قال بعض أصحاب التاريخ ولكنه لم يرض على خلافته قليل حتى تبدلت طباعه وتغيرت أحواله وركب متن هواه فسلك مسالك أبيه ومالت نفسه الى الايذاء والعبث بحقوق الرعية وأمر أن يتخذ له قصر بناحية الشماسية بازاء قطر بل فأخذ بهذا السبب ضياعا كثيرة ومزارع كانت في تلك النواحي بغير عمن من ملاكها فكثرت الداعي عليه فلم يستم ذلك البناء حتى توفي وكان هذا الفعل مشاكلا لفعل أبيه المعتضد في بناء المطامير وكان وزيره القاسم بن عبيد الله عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء وكان الكبير والصغير على رعب منه لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه وكانت وفاة القاسم المذكور عشية الاربعا لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة احدى وتسعين ومائتين وله نيف وثلاثون سنة وقيل وكان ممن قتله القاسم بن عبيد الله المذكور عبد الواحد بن الخليفة الموفق وكان معتقلا عند مؤنس فبعث اليه حتى أخذ برأسه في أيام المكتفي وقد كان المعتضد يعزه ويميل اليه ميلا شديدا اذ لم يكن لعبد الواحد المذكور همة في خلافة ولاطموح الى رئاسة بل كانت همته في اللعب مع الاحداث وقد كان المكتفي أخبر عنه انه أرسل عدة من غلمانه

الخاصة فوكل به من يراعى خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد
ظرب وهو ينشد شعر العتابي حيث يقول

نالوم على ترك الغناء بأهله * طوى الدهر عنها من طريف وتالد
رأت حولها النسوان عشرين حلقة * مقلدة أجيادها بالقـلائد
يسرك أنى نلت مانال جعفر * من الملك أو مانال يحيى بن خالد
وان أمير المؤمنين أغصنى * مغصهما بالمرهفات البوارد
ذريق تجئنى ميتى مطمئنة * ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان نفيسات الامور مشوبة * بمستودعات فى بطون الاسود
وان الذى يسمو الى درك العلاء * ملقى باسباب الردى والمكايد

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب ياسيدى أين أنت مما تمثّل به يزيد

ابن المهلب

تأخرت أستبق الحياة فلم أجد * حياة لنفسى مثل أن أتقدما

فقال له عبد الله مه لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قائل هذا البيت

وأصاب أبو فرعون التميمى حيث يقول قال النديم حيث يقول ماذا قال قال

وما بى شئ فى الوغى غير أنى * أخاف على فخارق أن تحطما

فلو كنت مبتاعا من السوق مثلها * لدى الروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتنى ضحك وقال قد قلت للقاسم ليس عمى عبد الواحد من

تسمو همته الى الخلافة هذا قول من ليس له همة غير فرجه وجوفه وأمره يعانقه وكلاب

بهارش بها وكباش يناطح بها وديولك يقانل بها أطلقوا لعمى كذا وكذا فلم يزل القاسم

المدكور بعبد الواحد حتى قتله كما تقدم وقد كان المكتنى لما أن مات القاسم وتبين قتله

لعبد الواحد أراد نبش القاسم من قبره وضربه بالسوط وحرقه بالنار وقيل غير ذلك

ومات فى أيامه أيضا خائيل بطرك الاسكندرية فكانت مدته نحو خمس وعشرين سنة

ووقع فيها من الحوادث والمحن شئ كثير جدا أضربنا عن ايراده هنا خلا الكرسى بعده أربع

عشرة سنة الى سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة هجرية أى نحو سنة خمس وسبعين وتسمائة

ميلادية اشتد فيها الخطب على المناصلين وعظمت نكباتهم ثم قدموا غريبال كما سيأتى بيان

ذلك فى خلافة المتى بالله ابراهيم بن المقتدر بن المعتض واحتقرت فى خلال هذه الفترة أيضا

كنيسة القيامة الكبرى بالاسكندرية فى يوم الاثنين لاسدس شوال سنة ثلاثمائة أى نحو سنة

أربع وأربعين وتسمائة ميلادية وهى التى كانت هيكل زحل قبل المسيحية وكانت من بناء

قلوبطره ملكة مصر وهى معظمة عند المسيحيين فلم يبق منها حجر على حجر

(الفصل الثامن عشر)

(في خلافة أبي الفضل جعفر المقتدر بالله)

ثم قام بالأمر بعد المكتفي بالله أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بن المعتضد ببيع له بالخلافة في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين هجرية أي نحو سنة سبع وتسعمائة ميلادية وكان له يوم ببيع ثلاث عشرة سنة * قال أصحاب التاريخ وكان السبب في ولاية أبي الفضل جعفر المقتدر المذكور أنه لما ثقل المرض بالمكتفي فكر العباس ابن الحسن وزير المكتفي يومئذ فمِن يصلح للخلافة بعد المكتفي وكان الذين يتولون الدواوين أربعة هم أبو عبد الله بن محمد وداود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبدان وأبو الحسن علي بن محمد بن الفرات فكان إذا ركب العباس بن الحسن الوزير المذكور سار في ركابه أحد الأربعة ليوصله إلى دار الخلافة فسأل الوزير يوما ابن الجراح فمِن يصلح للخلافة بعد المكتفي فقال عبد الله بن المعتز وأخذ يصفه بالعقل وأصالة الرأي مع الوفاة والحشمة ثم استشار أبا الحسن بن الفرات في ذلك أيضا فلم يبد رأيا فألح عليه فقال فليتنق الله الوزير ولا يولي الخلافة إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصب بخيلا يضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا يشره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين لا يخاف العقوبة والآثام ولا يرجو الثواب فيما يفعله ولا يولي من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضية هذا وفرس هذا ومن قد لقي الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم ويخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فمِن تشير قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد قال ويحك هو صبي قال ابن الفرات ولكنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا ثم استشار الوزير أيضا ابن عيسى فمِن يولي الخلافة فلم يذكر له أحدا فأعجب الوزير رأى ابن الفرات ومال إلى بولية أبي الفضل جعفر فلما مات المكتفي بايعوا أبا الفضل ولقبوه المقتدر بالله واستقرت به الخلافة فاستصغره الوزير وجعل يتصرف هو في الأمور ثم عزم على خلعه وتقليد الخلافة لابن عبد الله محمد بن المعتمد وكان حسن السيرة جميل الوجه والعمل فراسله في ذلك وبقي الأمر مستورا ليمتكن الوزير من التغلب على غلمان المعتضد ان هم يجتمع المقتدر * وانفق أن وقعت منازعة بين أبي عبد الله المذكور وبين ابن عمرويه صاحب الشرطة بسبب ضيعة مشتركة بينهما فأغلظ له ابن عمرويه فغضب ابن المعتمد غضبا شديدا وأغشى عليه وأفلج في المجلس فحمل إلى بيته في محفة فمات في اليوم الثاني فأراد الوزير البيعة لابن الحسين بن المتوكل فمات أيضا بعد خمسة أيام وأبى الله إلا أن يتم الأمر للمقتدر فلما كانت سنة ست وتسعين ومائتين استمال الوزير العباس بن

الحسن الى رأيه جميع القواد والقضاة والكتاب فتعاهدوا على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز
وأرسلوا الى ابن المعتز في ذلك فأجابهم على أن لا يحصل حرب ولا سفك دم فوافقوه على ذلك
وجعلوا يتأهبون وعاد المقتدر فتودد الى العباس الوزير ورأى العباس أمره صالحا مع المقتدر
فاجتمع عن خلفه وتزلف اليه فلما آانس منه ذلك جماعة القواد قاموا عليه وقتلوه وقتلوا معه
فانسا المقتدر وأصبحوا وقد خلعوا المقتدر وبايعوا ابن المعتز وساروا الى المقتدر ليقتلوه
فلم يتمكنوا من ذلك فاحضروا ابن المعتز ولقبوه المرتضى بالله وأجلسوه على كرسي الخلافة
فاستوزر محمد بن داود بن الجراح وقلد على بن عيسى الدواوين فكتب الكتاب الى الآفاق من
أمير المؤمنين المرتضى بالله أبي العباس عبد الله بن المعتز بالله * وسير الى المقتدر من يلزمه
بالانتقال الى دار ابن طاهر السني كان مقما فيها لينتقل هو الى دار الخلافة فطلب الامهال الى
الليل وعاد الحسين بن حمدان يطلب المقتدر ليقتله وأحاط بدار الخلافة فقاتله الخدم والعلمان
والزبالة من وراء الستور عامة النهار فانصرف عنهم ولما دخل الليل أخذ ماله وعياله وانصرف
عن بغداد الى الموصل ولم يبق مع المقتدر من القواد أحد سوى مؤنس الخادم ومؤنس الخازن
وغريب الخال وحاشية دار الخلافة وقد صمموا على قتل ابن المعتز قبل قتلهم فجهزهم
المقتدر بالاسلحة والدروع وركبوا في السمريات وأصعدوا في الماء يريدون مقترا ابن المعتز فلما
رأهم من عند ابن المعتز على هذا الحال هالهم أمرهم وكثرتهم وخافوا وهربوا على وجوههم
قبل أن يصلوا اليهم وعلم ابن المعتز بذلك فركب ومعه وزيره محمد بن داود وهربا وغلما
له ينادى بين يديه يامعشر العامة ادعوا خليفتكم السني البرهاري * قال بعض الكتاب وانما
نسب هذه النسبة لان الحسين بن القاسم بن عبيد الله البرهاري كان مقدم الخبابة والسنة
من العامة ولهم فيه اعتقاد عظيم فأراد استمالتهم بهذا القول * وسار ابن المعتز ومن معه
نحو الصحراء وكان يظن أن الجنيد الذين بايعوه يقومون لنصرته ويتبعونه حيث سار فلم
يلحقه منهم أحد فلما خذل ابن المعتز نزل عن دابته ومعه غلام وانحدر الى دار أبي عبد الله
الخصاص مستنجرا به واختفى محمد بن داود في داره واختفى كل من بايع ابن المعتز فبرز ابن
عمرويه وجع أصحابه ونادى بشعار المقتدر تدليسا فقام عليه العامة وقتلوه وسبوه فاخفى
وتفرق أصحابه

وتفوت عزيمة المقتدر بعد ذلك فقلد الشرطة مؤنسا الخازن فخرج مؤنس بالعسكر
وقبض على وصيف بن سوارتيكين وغيره من أصحاب الفسنة فقتلهم وقتل القاضي المثني
أحمد بن يعقوب وأرسل المقتدر الى ابن الفرات وكان محتفيا وقلده الوزارة وخلع عليه
وفنشوا على المعتز فدلهم غلام لابن الخصاص أنه عند مولاه ومعه جماعة فكبت دار ابن
الخصاص وأخذ ابن المعتز منها وجلس الى الليل وعصرت خصيته حتى مات ولف في زلي وسلم
لاهله ونهبت أموال ابن الخصاص وقتل محمد بن داود وزير ابن المعتز ونفي على بن عيسى الى
واسط وسيرت العساكر من بغداد في طلب الحسين بن حمدان فلم يظفروا به فعادوا فكتب الوزير

الى ابي الهيجاء اخي الحسين بن حمدان وهو الأمير على الموصل يومئذ يأمره بطلب الحسين والأتان به الى بغداد فسار خلفه وتبعه الى حيث سار فكانت بينهما وقائع وأمور يطول شرحها ثم تقدم أبو الهيجاء الى الوزير في طلب العفو عن الحسين بن حمدان فأجابه الوزير الى ذلك وعفا المقتدر عنه وعن آخرين ودخل الحسين بغداد وقام بها الى أن ولي قم فسار اليها

وجعل ابن الفرات الوزير يتصرف في الأمور فيسبب العدل والاحسان وأخرج الارزاق والاموال للعباسيين والطلبين وفرق الاموال في القواد وأرضاهم وصرف عنهم ما يكرهون فالوا اليه وأجبهه * ومما حكي عن مكارم أخلاق ابن الفرات المذكور أنه كان بينه وبين سليمان بن الحسن بن مخلد مودة وصحبة قديمة فلما دانت للخليفة المقتدر الأمور بعد قتل ابن المعتز واستوزر ابن الفرات عثر ابن الفرات على كتب البيعة لابن المعتز فتأملها فاذا هي بخط سليمان لقراءة كانت بينه وبين ابن الجراح فلم يظهر عليها المقتدر وكتب أمرها عنه وأحسن الى سليمان وقلده المناصب العالية فلما تمكن وظهرت كلمته سعى ابن الفرات الى المقتدر وكتب بخطه مطالعة تتضمن ذكر أملاك الوزير وضياعه ومستغلانه وما يتعلق بأسبابه وأخذ الرقعة ليوصلها الى الخليفة المقتدر فلم يتبأله ذلك وجاء دار الوزير والرقعة معه فسقطت من كفه نظف بها بعض الكتاب فأعطاها للوزير فلما قرأها تعجب جدا وقبض على سليمان وجعله في زورق وأحدره الى واسط ووكل به هناك وصادره في جميع أمواله ثم أراد العفو عنه فكتب اليه * نظرت أعزك الله في حقك على * وجرمك الى * فرأيت الحق موفى على الجرم وتذكرت من سالف خدمتك ما عطفني عليك وشاني اليك وأعادتني لك الى أفضل ما عهدت وأجل ما ألفت * ثم أطلق له عشرة آلاف درهم وعفا عنه وأكرمه واستعمله ولم تطل وزارة ابن الفرات هذا حتى وثى به الوشاة عند الخليفة المقتدر فقبض عليه واستصفي أمواله وهتك حرمة واعتمقه ووكل به ونهت دور أصحابه ومن يتعلق به ووقعت الفتنه ببغداد لقبضه ولقي الناس شدة عظيمة ثلاثة أيام ثم سكنوا وكانت مدة وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما وتولى الوزارة بعده أبو علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فرتب أصحاب الدواوين وتولى الأمور وجعل يتصرف فيها ولكنه لم يفلح لانه كان ضجورا ضيق الصدر مهمل لقراءة كتب العمال وجباية الاموال وكان يظهر التواضع ويتقرب من العامة والخاصة وكان اذا رأى جماعة من العامة أو غيرهم يصلون بجماعة نزل عن دابته وصلى معهم واذا سأله أحد حاجة دق صدره وقال نعم وكرامة فسماه الناس دق صدره وفصر في اطلاق الاموال للجنود والقواد فتفرقوا عنه وانحط قدر الوزارة واستصغرها الناس وكان اولاده كثيرو التحكم عليه فكانوا يأخذون الرشوى ويسألونه قضاء حاجات الراشدين لهم فقال فيه بعض الشعراء

وزير قد تكامل في الرفاعه * يولى ثم يعزل بعد ساعه
 اذا أهل الرشا اجتمعوا لديه * نفي القوم أو فرهم بضاعه
 وليس يسلم في هذا بحال * لان الشيخ أفلت من مجاعه

ثم زاد الامر به حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الاموال وينسدون الاحوال فالتفت
 عقدة الوزارة وضعف أمرها وخرجت الممالك وطمع العمال في الأطراف فلما زاد الحال
 أحضر الخليفة الوزير ابن الفرات من محبسه فجعله عنده في بعض الحجر مكرما فكان يعرض
 عليه مطالعات العمال وغير ذلك من الاعمال وأحسن اليه ثم عزل الخاقاني وسلم الوزارة لعلي
 ابن عيسى والى مكة فأحسن التصرف وأصلح الأمور ورتب الاشغال وأطلق الاموال وعرف
 المساجد وفرشها ورتب لها المرتبات وأبطل بعض المكوس والمغارم التي أحدثها الخاقاني ثم
 خلعه وأعاد ابن الفرات ثم خلعه

ولما كانت سنة ثلاثمائة هجرية جهز المهدي صاحب المغرب عسكريا عظيما من افريقية
 وسيرهم مع ولده أبي القاسم الى الديار المصرية يريد غزوها وسلبها عن أملاك الخليفة
 المقتدر فساروا الى برقة واستولوا عليها وانحدروا منها الى مصر فملكوا الاسكندرية ومدينة
 الفيوم وما بينهما وتصرف أبو القاسم فيما نزل عليه من البلاد وضيق على أهلها وجباها
 وزاد في المغارم والمكوس فسير اليه الخليفة المقتدر بالله مؤنسا الخادم في جيش عظيم فخارهم
 وطالت الحرب بينهم وما زالت سجالات حتى أجلاهم مؤنس عن مصر فعادوا الى المغرب
 مهزومين فلم تكن الا سنة سبع وثلاثمائة حتى أعاد المهدي ابنه أبا القاسم الى مصر في جيش
 ضخم للغاية فوصل الى الاسكندرية في ربيع الآخر فخرج عامل المقتدر عنها هاربا ودخلها
 القاسم وأقام بها المرابطين من أصحابه وانحدر الى مصر فدخل الجيزة وملك الاشمونية
 ومدنا كثيرة من الصعيد الأوسط وكتب الى أهل مكة يدعوهم الى الدخول في طاعته فلم
 يقبلوا منه ووردت بذلك الاخبار الى بغداد فسير المقتدر مؤنسا الخادم في جيش لقتال أبي
 القاسم فوقعت بينهما عدة وقائع وقدم من المغرب ثمانون مراكبا لتجدة أبي القاسم بن المهدي
 فأرست بالاسكندرية وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي وهما من أشجع قواد صاحب
 المغرب وأعرفهم بقنون الحرب فحشي الخليفة المقتدر العاقبة وأمر فسيروا الى الاسكندرية
 مراكب طرسوس وعدتها خمسة وعشرون مراكبا وفيها النفط والعدد ومقدمها أبو اليمن
 فالتقت بمراكب صاحب المغرب واقتتلوا على رشيد قتالا عنيفا فظفر أصحاب مراكب
 المقتدر وأحرقوا كثيرا من مراكب صاحب المغرب وهلك أكثر من فيها من الجنود وأسر
 منهم خلق وبيتهم سليمان الخادم ويعقوب ومات سليمان بالحبس بمصر وجمال يعقوب
 الى دار السلام ثم هرب منها وعاد الى افريقية وطالت أيام الحرب بين مؤنس الخادم وأبي
 القاسم بن المهدي ووقع الوباء في عسكر أبي القاسم فمات منهم كثير فعاد من سلم الى
 افريقية وتبعهم عسكر مصر حتى أبعدوهم وسكنت الفتنة واطمأنت القلوب

وكثر عزل الخليفة المقتدر للوزراء و كبار الدولة وقواد الجند فكان يعزل الواحد
 منهم ويولى غيره ثم لا يلبث أن يخلعه ويولى غيره وهكذا حتى ضجر أصحابه وكرهوه
 وقامت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم ونزلك صاحب الشرطة وبعض قواده فتآمروا
 على خلعه من الخلافة والبيعة لأخيه القاهر بالله محمد بن المعتض فخرج مؤنس في عسكره
 وخرج معه بقية المشاغبيين وأحاطوا بدار الخلافة فنفرق من كان بها مع المقتدر وهرب
 جميع الخدم والاتباع والوزير أبو علي بن مقله ودخل مؤنس الدار وأخرج المقتدر ووالده
 ونالته وخواصه من الجوارى وأولاده من دار الخلافة وجلاوا الى دار مؤنس فاعتقلوا بها
 وأحضروا محمد بن المعتض وبايعوه بالخلافة ولقبوه القاهر بالله وأحضروا القاضي أبا عمر
 عند المقتدر ليشهد عليه بالخلع فأشهد عليه القاضي بالخلع فقام ابن جردان وقال للمقتدر
 يا سيدي يعز علي أن أراك على هذه الحال وقد كنت أخافها عليك وأحذرها وأنصح لك
 وأحذرك عاقبة تقرب الخدم والنساء منك فتوثر أقوالهم على قولي وكأني كنت أرى هذا
 وبعد فحين عبيدك وخدمك ودمعت عيناه وعينا المقتدر بالله وشهد الجماعة على المقتدر
 بالخلع وأودعوا الكتاب بذلك عند القاضي أبي عمر فكتمه ولم يظهره لأحد وأخرج مؤنس
 الخادم علي بن عيسى من الحبس ورتب أبا علي بن مقله في الوزارة وأضاف الى نازوك مع
 الشرطة حجة الخليفة وكتب بذلك الى الأفاق ونهبت دار الخليفة وأخرجوا من قبر لوالده
 المقتدر قد بنته لنفسها ستمائة ألف دينار فحملت الى دار الخلافة وكان خلع المقتدر في
 النصف من المحرم ثم سكنت الحال وبطل النهب وقد كان عم بغداد كلها وتناولت أيدي
 العامة الى فعل مالا خيره فيه * ولما تم لنازوك أمر حجة الخليفة أمر الرجال المصافية بخلع
 خيامهم من دار الخلافة وأمر أصحابه أن يقيموا بمكانهم فعظم ذلك على المصافية وتقدم نازوك
 الى خلفاء الحجاب أن لا ييكنوا أحدا من الدخول الى دار الخليفة الا من له مرتبة
 فلما كان يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكر الناس الى دار الخلافة ليروا موكب الخليفة
 الحديد فامتلات المراحات والرحبات والطرق وشاطى دجلة بالناس وكثر الزحام واختلط
 الناس بعضهم ببعض وحضر الرجال المصافية شاكى السلاح يطالبون بحق البيعة وجوامك
 سنة وكان الحامل لهم على ذلك غيظهم مما فعله بهم نازوك صاحب الشرطة والحجابة من
 خلع خيامهم واخراجهم من دار الخلافة ثم صاحوا وارتفعت زعقاتهم فسمع بها نازوك
 فخاف أن يقع بينهم وبين أصحابه فتنة وقاتل فتقدم الى أصحابه وأمرهم أن لا يتعرضوا لهم
 ولا يقانلوهم فزاد شعبهم وهجموا يريدون صحن الدار فلم يمنعهم أصحاب نازوك فدخلوا جميعا
 وبأيديهم السلاح ووصلت أصواتهم الى مجلس القاهر بالله وعنده أبو علي بن مقله الوزير
 ونازوك وأبو الهيجاء بن جردان فقال الخليفة لنازوك اخرج الى أولئك القوم فسكنهم وطيب
 قلوبهم فخرج اليهم وهو مخمور قد شرب طول ليلته فتقدم اليه الرجال ليشكوا حالهم ويطلبوا
 مالهم من الجوامك فلما رأهم يقصدونه وبأيديهم السيوف خافهم على نفسه فهرب فطمعوا

فيه وتبعوه فأنتهى به الهرب الى باب مسدود فأدركوه عنده فقتلوه بالسيوف وقتلوا خادمه
وصاحوا يا مقتدر * يا منصور * فهرب كل من كان في الدار من الوزير والحجاب وسائر الطبقات
وبقيت الدار فارغة فخلعوا نازولك وصلبوه هو وخادمه أمام دجلة ثم ساروا الى دار مؤنس وهم
في ضجة شديدة وزعقات متتابعة وطالبوه بالمقتدر وعلمانه وأراد أبو الهيجاء بن حمدان أن
يخرج من الدار فتعلق به القاهر وقال أنا في ذمامك فأخذ بيده وهما بالخروج فوجدوا
الابواب مغلقة ورأى الظاهر كثرة الجمع فاشتد خوفه وحار في أمره واختفى في بستان الدار
ودخل بعض الخدم فقتلوا أبا الهيجاء واحتزوا رأسه وجلوها واشتدت زعقات الرجال المصافية
على مؤنس الخادم فقال وما ذا تريدون قالوا نريد المقتدر بالله الساعة فأمر بتسليمه اليهم
فلم يقبل المقتدر الخروج وخاف على نفسه وامتنع فدخلوا عليه وجلوه وأخرجوه
فخلعوا الرجل على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة فسأل عن أخيه القاهر وابن حمدان
فقيل له هما حيان فكتب لهم أمانا بخطه وأمر خادما بالسرعة بكتاب الامان لئلا يحدث
على أبي الهيجاء حادث فجيء له برأس أبي الهيجاء فأسف عليه كثيرا وأحضروا اليه القاهر
فأدناه منه وأجلسه بجانبه وقبل جبينه وقال له يا أخي قد علمت أن لا ذنب لك وأنت فهرت
ولو لقبولك بالمقهور لكان أولى من القاهر والقاهر يقول يا أمير المؤمنين نفسي نفسي اذكر
الرحم التي بيني وبينك فقال له المقتدر لا بأس عليك ولا تخف وأقسم له الايعان فسكن
خوفه واطمان قلبه وأخرجوا رأس نازولك ورأس أبي الهيجاء وشهرا ونودي عليهما هذا
جزاء من عصى مولاه وأحضر المقتدر أبا علي بن مقلة وأعادته الى وزارته وكتب الى الآفاق
بما تجدد له وسكنت الفتنة وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم وأتم أعطياتهم قالوا وأمن مؤنسا
الخادم ولم يفعل به شيئا لان ارجاع المقتدر الى منصب الخلافة بعد خلعه كان بارشاد
مؤنس وتديبه * وجعل الخليفة المقتدر يتصرف في الأمور ويعزل ويولي في الوزراء وأصحاب
الرتب العالية ولم يقلع عما كان فيه حتى وقعت الوحشة بينه وبين مؤنس الخادم بسبب ذلك
وحقد مؤنس على المقتدر وناواه الشر وجعل يراقب الفرص حتى فرغ بيت المال ولم يبق فيه
ما يستطبات الجند وأرزاقهم فأشار عليهم مؤنس بالخروج وطلب أرزاقهم فخرجوا جميعا
وشغبوا وطلبوا من الخليفة المال خفاف وأراد أن يتقدم الى واسط ويكتب العساكر من جهة
البصرة والاهواز وفارس وكرمان وغيرها ويترك بغداد لمؤنس وأصحابه الى أن يجتمع به العسكر
ويعود الى قتاله فردوه عن ذلك وزينوا له البقاء والخروج عن عنده من الجند لقتال مؤنس
وأصحابه فخرج كارها وبين يديه الفقهاء والقراء معهم والمصاحف مشهورة وعليه البردة
والناس حوله فوقف على تل عال بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه يسألونه التقدم
وأكثروا الرسل وهو واقف فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل أن يقترب
منهم ولقيه على بن بليق وهو من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الارض وقال له الى أين تمضي

ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر
 فتركه على معهم وسار عنه فشهروا عليه سيوفهم فقال ويحكم أنا الخليفة فقالوا قد عرفناك
 ياسفلة أنت خليفة ابليس تبذل في كل رأس خمسة دنانير وفي كل أسير عشرة دنانير وكان
 قبل هزيمة أصحابه نادى مناديه بذلك ثم ضربه أحد المغاربة بسيفه على عاتقه فسقط على
 الأرض وذبحه بعضهم قيل ان علي بن بليق هو الذي نجز عليه فقتلوه ورفعوا رأسه على
 خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوف العورة
 الى أن مرّ به رجل من الاكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وأخفى قبره وكان
 قتله وقت صلاة العصر يوم الاربعاء لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية
 أي نحو سنة أربع وستين وتسعمائة ميلادية وكان وزيره يومئذ أبا الفتح الفضل بن جعفر
 ذكر أن الفضل المذكور أخذ الطالع في وقت ركوب المقتدر بالله الى الواقعة التي قتل
 فيها فقال له المقتدر أي وقت هو قال وقت الزوال فقطب المقتدر وأراد أن لا يخرج فلم
 يقدر على ذلك فكان آخر العهد به من ذلك الوقت * قال بعض الكتاب وهذا دليل القائلين
 أن كل سادس من بني العباس مخلوع مقتول * قلت فكان السادس منهم محمد بن هارون
 مخلوع والسادس الآخر المستعين والسادس الآخر المقتدر بالله وهو ثامن عشرهم وكانت
 خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وسنة عشر يوماً وله من العمر ثمان
 وثلاثون سنة وخمسة عشر يوماً وقيل غير ذلك * وكان كثير الطاعة والانقياد الى
 النساء والخدم بأخذ بأقوالهم ويعمل بمشورتهم * قال صاحب النشوان وغيره ان صافيا مولى
 المقتدر قال مشيت يوماً بين يدي المعتضد يعني أبا المقتدر بالله وهو يريد دار الحرم فلما بلغ
 باب دار المقتدر وقف وتسمع وتطلع من خلال في السترفاذا هو بالمقتدر وله اذ ذلك خمس
 سنين أو نحوها وهو جالس وحوله قدر عشرة وصائف من أتراه في قدر سنه وبين يديه طبق
 فضة فيه عنقود عنب في وقت فيه العنب عزيز جدا والصبي يأكل عنبه واحدة ثم يطعم الجماعة
 عنبه عنبه على الدور حتى اذا بلغ الدور اليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فنى العنقود
 والمعتضد يميز غيظاً ثم رجع ولم يدخل الدار فرأيته مهموما فقلت يا مولاي ما سبب ما فعلت
 فقال يا صافي والله لولا العار والنار لقتلت هذا القلام اليوم يعني المقتدر فان في قتله صلاحا
 للامة فقلت يا مولاي ماشأته وأي شئ عمل أعيدك بالله يا مولاي من هذا فقال ويحك أنا
 أبصر بما أقول أنا رجل قد سست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولا بد من موتي
 وأنا أعلم بعدى لا يختارون أحدا على ولدي وأنهم سيجلسون ابني عليا يعني المكتفي وما أظن
 عمره بطول للعلة التي به يعني الخنازير التي كانت في حلقة فيتلف عن قريب ولا يرى الناس
 انزاجها عن ولدي ولا يجدون بعده أمثل من جعفر يعني المقتدر وهو صبي وله من الطبع
 والسجيا هذا الذي رأيت من أنه أطمع الوصائف مثل ما أكل وساوى بينه وبينهن في شئ
 عزيز في العالم والشع على مثله في طباع الصبيان غالب فتحسوى عليه النساء لقرب عهده

بهن فيقسم ما جمعه من الاموال كما قسم العنب وينذر ارتفاع الدنيا فتضيع الثغور وتعظم
 الأمور وتخرج الخواارج وتحدث الاسباب التي يكون منها زوال الملك عن بني العباس
 رأسا فقلت يا مولاي يبيحك الله حتى ينشأ في حياتك وبصير كهلا في أيامك ويتأدب بأدبك
 ويتخلق بأخلاقك ولا يكون هذا الذي ظننت فقال ويحك احفظ عني ما أقول لك فإنه كما
 قلت قال ومكث يومه مهموما مغموما وضرب الدهر ضربانه ومات المعتضد وولى المكتني ولم
 يطل عمره فمات وولى المقتدر فكانت الصورة كما قال مولاي المعتضد بعينها فكنت كلما ذكرت
 قوله أعجبت منه فوالله لقد وقفت على رأس المقتدر وهو في مجلس لهو فدعا بالأموال
 فأخرجت اليه ووضعت البدر بين يديه فجعل يفرقها على الجوارى والنساء ويلعب بها
 ويعققها ويهبها ففكرت قول مولاي المعتضد اه

واستعمل المقتدر على مصر في خلافته أبا منصور تكين الخاص ثم صرفه في سنة ثلاث
 وثلاثمائة وولى ذكاه أبا الحسن ثم صرف وأعيد تكين ثم صرف سنة تسع وولى هلال
 ابن بدر ثم صرف في سنة احدى عشرة وولى أحمد بن كيغغ ثم صرف من عامه وأعيد
 تكين الخاص فأقام الى أن مات سنة احدى وعشرين وثلاثمائة في خلافة القاهر بن أحمد
 المعتضد كما سيذكر في محله

(الفصل التاسع عشر)

(في خلافة التظاهر بالله محمد بن احمد المعتضد)

ثم قام بالامر بعد المقتدر أخوه أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بالله ببيع له بالخلافة
 ببغداد للبتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة هجرية أي نحو سنة اثنتين وثلاثين
 وتسماية ميلادية ولقب بالقاهر وكان الذي أشار بالبيعة له أبو يعقوب اسحق بن اسمعيل النوبختي
 وما زال مؤسس الخادم حتى استماله الى ذلك فأحضره وباعوه وكان مؤسس بخافه ويعرف شه
 فلما تمت له استخلفه مؤسس لنفسه ولخاجبه بليق ولعلي بن بليق وأخذوا خطه بذلك تحرزا
 من بطشه وأرسل القاهر الى فارس في طلب ابن مقله فحضر فاستوزره واستعجب على بن بليق
 وجعل يتصرف في الامور فأحضر والدة المقتدر وطالها بما عندها من الاموال فأعترفت له
 بما عندها من المصوغ والنياب ولم تعترف بشيء من المال والجواهر فضر بها أشد ما يكون من
 الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فخلقت أنها لم تملك غير ما أطلعت
 عليه وقالت لو كان عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل ثم صادر جميع حاشية المقتدر
 وأصحابه وحل جميع أوقاف والدة المقتدر وباعها وقصد كانت موقوفة على البر والخير وشهد

في البحث على أولاد المقتدر فكبس أعوانه الدور وفتشوها وأزبحوا الناس ومازالوا حتى عثروا على أبي العباس الراضي وهرون وعلى والعباس وابراهيم والفضل فملوهم الى دار الخلافة فصوروا على مال كثير ثم وكل بهم من يناظرهم واشتد القاهر بالله على أصحاب المراتب في دولته وأهل الوظائف في بابيه ولاسيما مؤنس الخادم وابن مقله وابن بليق فكبر عليهم الامر ونشوا العاقبة فأوعز مؤنس الى أصحابه أن يأتيه بأخبار القاهر ووكل ابن بليق على دار القاهر أحمد بن زيرك وأمره بالتصديق على القاهر وتفتيش كل من يدخل الى الدار ويخرج منها وأن يكشف وجوه النساء المتقبات وإن وجد مع أحد رقعة دفعها الى مؤنس الخادم ففعل ذلك وبالغ في التشديد وأخرجوا من كان محبوبا في دار الخلافة وبينهم والده الخليفة المقتدر فأخذها ابن بليق وتركها عند والدته وقد اشتدت بها علتها من ضرب القاهر فحانت في جادى الآخرة وكانت مكرمة مرفهة فدفت في تربتها بالرصافة فاضطرب القاهر من ذلك وعلم بأن ذلك إنما هو برأى مؤنس وابن مقله فأخذ في تدبير الحيلة وقد تمكن من الفاء الفتنة بين الاحزاب ومازال حتى افتتنوا وتفرق عن مؤنس أصحابه من طوائف الجند الذين كان معتمده عليهم ثم قبض على مؤنس وحبسه في دار الخلافة وأراد القبض على ابن مقله فأختفى فقلد الخليفة الوزارة أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيدالله وختم على دور مؤنس الخادم وابنه ودور ابن مقله وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون وجميع من كان له يد في المشاغبة ونقل دوابهم ووكل بنسائهم وأمر باحراق دار ابن مقله فأحرق ونهبت دور أتباعهم ونادى على المستترين منهم وإباحة مال من أخفاهم وهدم داره واجتهد في طلب أحمد بن المكتفي فظفر به فبنى عليه حائطاً وهو حي فمات وقد كانوا على عزم البيعة له وخلع المقتدر قبل ظهور أمرهم بأيام

ولما طال على مؤنس الحبس دس الى أصحابه من يحرضهم على الخروج على الخليفة والنداء بشعار مؤنس فثاروا وتبعهم سائر الجند وشغبوا وأحرقوا روشن دار الوزير أبي جعفر وقالوا لا نرضى الا باطلاق مؤنس فلما عظم شغبهم دخل القاهر على علي بن بليق فأمر به فذبح واحترأسه فوضعه في طشت ثم مضى القاهر والطشت يحمل بين يديه حتى دخل على بليق فوضع الطشت بين يديه وفيه رأس ابنه فلما رآه بكى وأخذ يقبله ويرتشفه فأمر به القاهر فذبح أيضا وجعل رأسه في طشت وجل بين يدي القاهر حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه فلما رأى الرأسين تشهد واسترجع ولعن فأتلهما فقال القاهر جروا برجل الكلب الملعون فجروه وذبحوه وجعلوا رأسه في طشت وأمر بالرؤس فطيف بها في جاني بغداد وودى عليها هذا جزاء من يخون الامام ويسعى في فساد دولته ثم أعيدت ونظفت وجعلت في خزانة الرؤس كما هي العادة في مثل هذه الاحوال عند الخلفاء * وكثر عسف القاهر بالله وسفكه للدماء ونكته للعهود والايمان التي حلقها الى كبار العسكر الساجية وغيرهم من الذين قاموا لنصرته فأبغضوه وعملوا على خلعه وزادت رغبتهم في ذلك فظهور على بن مقله بينهم

والاجتماع بهم ليلا تارة في زى أعمى وتارة في زى مكدي وتارة في زى امرأة ويغيرهم به
ويخونهم من شره ويذكر لهم غدره ونكته وشره وخبثه وبالغ في تحذير سيما كبير العسكر
الساجية وتخويفه حتى بادروا جميعا وهموا بخلعه فجمع سيما جميع العسكر الساجية
وأعطاهم العدة والسلاح وتحالفوا مع العسكر الجبرية أيضا على أن يكونوا جميعا على قلب
رجل واحد وقتل من خالف منهم فأنصل ذلك بالقاهر ووزيره الخصيبي فأعلا الحملة على
افساد أمرهم فلم يقلها فلما كان يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى اجتمع الساجية
والجبرية ومقدمهم سيما وزحفوا الى دار الخلافة ووكل سيما أبوابها من يحفظها وبقي هو على
باب العامة وهجموا على الدار من سائر الابواب وكان القاهر نائما مخمورا قد شرب أكثر ليلته
فلما علا الضجيج وتابعت زعقات الجند استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فقبل له ان
الابواب جميعها مشحونة بالرجال فهرب الى سطح حمام ودخل الجند فلم يجدوه فأخذوا الخدم
وسألوه عن فلولهم عليه فقصده فوجدوه ويده السيف فاجتهدوا به فلم ينزل لهم فتلاينوا
له فلم يقبل منهم وقال من صعد الى قتلته فأخذ أحدهم سهما وقال ان نزلت والا وضعته
في نحر ك فترز حينئذ اليهم فأخذوه وساروا به الى الحبس فخبسوه ثم سملوا عينيه وهرب
وزيره الخصيبي ولبث القاهر معتقلا الى أن تمت البيعة لابي العباس أحمد بن المقتدر بالله
ثم كان من أمره ما سيدكر في محله ان شاء الله

وكان القاهر كثير التقلب سريع الغضب شديد البطش سفاكا للدم يخافه الناس
وخشوا سطوته واتخذ حربة عظيمة يحملها في يده اذا سعى في الدار ويطرحها بين يديه في
حال جلوسه ويباشر الحرب بها لمن يريد قتله وكان قليل التثبت في أمره ﴿ قال محمد بن علي
العبيدي الخراساني الاخباري وكان القاهر به آتسا قال خلا بي يوما فقال أصدقني أو هذه
وأشار الى بالحربة فرأيت والله الموت عيانا بيني وبينه فقلت أصدقك يا أمير المؤمنين فقال لي
انظر بقولها ثلاثا فقلت نعم يا أمير المؤمنين قال عما أسألك عنه ولا تغيب عني شيئا ولا تحسن
القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيئا قلت نعم يا أمير المؤمنين قال أنت علامة بأخبار
بني العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس فمن دونه فقلت على أن لي الامان يا أمير
المؤمنين قال ذلك لك قال قلت أما أبو العباس السفاح فكان سريعا الى سفك الدماء واتبعه
عماله في المشرق والمغرب في فعله واستنوا بسيرته مثل محمد بن الاشعث بالغرب وصالح بن علي
بمصر وحازم بن جذيمة وحيد بن قطبة وكان مع ذلك بحرا سمحا وصولا جوادا بالمال وسلط
من ذكرنا ممن كان في عصره سبيله وذهبوا مذهبه مؤتمنين به * قال وأخبرني عن المنصور قلت
الصدق يا أمير المؤمنين قال الصدق قلت كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس
ابن عبد المطلب وبين آل أبي طالب وقد كان قبل ذلك أمرهم واحدا وكان أول خليفة قرب
النجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه وهو أبو هؤلاء
النوبختية وابراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علوم النجوم

وهيئة الفلك وعلى بن عيسى الاسطرلابي النجم وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات
الانجمية الى العربية منها كتاب كلياته ودمنة وكتاب السندهند وترجمت له كتب ارسطاطاليس
من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الارتماطيق وكتاب اقليدس
وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وخرجت الى
الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها * وفي أيامه وضع محمد بن اسحق كتاب المغازي والسير
وأخبار المبتدا ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة وكان أول خليفة استعمل
مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من
ولده فسقطت وبادت العرب وزال بأمرها وزهبت مراتبها وأفضت الخلافة اليه وقد نظر
في العلوم وقرأ المذاهب وارتاض في الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت في
أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم

قال القاهر قد قلت فأحسن وتعبرت فبينت فأخبرني عن المهدي كيف كانت خلافته
فلت كان سمعا سخيا كريما جوادا فسلك الناس في عصره سبيله وذهبوا في أمرهم مذهبه
وانسبعوا في مساعيمهم وكان من فعله في ركوبه أن يحمل معه بدر الذنابير والدراهم فلا يسأله
أحد الأعطاه وان سكت ابتداء المفرق بين يديه وقد تقدم بذلك اليه وأمن في قتل المهديين
والمداخين عن الدين لظهورهم في أيامه واعلانهم باعتقادهم في خلافته لما انتشر من كتب
ماني وابن دميان ومرفيون مما نقله عبدالله بن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية
الى العربية وما صنف في ذلك ابن أبي العرجاء وحجاج بن محمد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس
من تأييد المذاهب المنانية والانساقية والمرقونية فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في
الناس * وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب
على المهديين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم وأقاموا البراهين على المغارين وأزالوا شبه
المهديين فأوضحوا الحق للشاكين * وشرع في بناء المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه
وسلم على ما هما عليه الى هذه الغاية وبني بيت المقدس وقد كان هدمته الزلازل * قال فأخبرني
عن الهادي على قصر مدته كيف كانت أخلاقه وشيمه * قلت كان جبارا عظيما وأول من
مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسي الموترة فسلكت عماله
طريقه ويموا منهجه وكثر السلاح في عصره * قال لقد أحدثت في وصفك وبالغت فيما
ذكرت من قولك فأخبرني عن الرشيد كيف كانت طريقته * قلت كان مواظبا على الحج والغزو
والتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة وأظهر ذلك بها وبغنى وعرفات ومدينة
النبي صلى الله عليه وسلم فم الناس احسانه مع ما قرن به من عدله ثم بنى الثغور ومدن المدن
وحصن فيها الحصون مثل طرسوس وأذنة وعرا المصيصة ومرعش وأحكم بناء الحرب وغير ذلك
من دور السبيل والمواضع للرايطين واتبعه عماله وسلكوا طريقته وتبعته رعيته مقتدية بعمله
مستنة بامامته فمظ الباطل وأظهر الحق وأثار الاسلام وبرز على سائر الامم وكان أحسن الناس

في أيامه فعلا أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة
 واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف الى هذه الغاية وما أحدثته من الدور
 للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف وما ظهر في أيامه من فعل
 البرامكة وجودهم وفضالهم وما اشتهر عنهم من أفعالهم وكان الرشيد أول خليفة لعب
 بالصولجان في الميدان ورعى بالنشاب في البرياس ولعب بالكرة والطباط وقرب الخذاق في
 ذلك فعم الناس ذلك الفعل وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس والترد وقدم
 اللعب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصها أيام العروس
 وله كثير مما يتجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف * قال القاهر فأراك قد قصرت في تفصيل
 أم جعفر فلم ذلك قلت يا أمير المؤمنين ميسلا الى الاختصار وطلبنا للإيجاز قال فتناول الحربة
 وهزها فرأيت الموت الاحمر في طرفها شمرق عينه مع ذلك فاستسلمت وقلت هذا ملك الموت
 ولم أشك أنه يقبض روي فأهوى بها نحوى فرغت منه فاسترجع وقد أخطأتني فقال وبك
 أبغضت ما فيه عينك ومللت الحياة قلت ما هو يا أمير المؤمنين قال أخبار أم جعفر زدني منها
 قلت نعم يا أمير المؤمنين كان من فعلها وحسن سيرتها في الجدد والهزل ما برزت فيه عن غيرها
 فأما الجدد والآثار الجميلة التي لم يكن في الاسلام مثلها مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش
 بالحجاز فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى
 أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا الى مكة فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصى ألف
 ألف وسبعمائة ألف دينار وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالثغور والحجاز
 وانفاقها الألو في ذلك دون ما كان في وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف
 والخصب وأما الوجه الثاني مما تنباهي به الملوك في أعمالهم وينعمون به في أيامهم ويصونون
 به دولهم ويدون في أفعالهم وسيرهم فهو أنها أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكلاة
 بالجواهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى باع الثوب من الوشى الذي اتخذ لها خمسين ألف
 دينار وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يختلفون على الدواب في جهاتها
 وينهبون في حوائجها برسائلها وكتبها وأول من اتخذ القباب الفضة والآبنوس والصندل
 وكلاهما من الذهب والنضفة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير من الاحمر
 والاصفر والاحضر والازرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر وشمع العنبر وتشبه الناس في
 سائر أفعالهم بأم جعفر ولما أفضى الأمر الى ولدها يا أمير المؤمنين قدم الخدم وآثرهم ورفع
 منازلهم ككواثر وغيره من خدمه فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت
 الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعمت رؤسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقنعة
 وألبستن الاقيسة والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن اليه
 فاختلقن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه اليهن وأبرزهن للناس من الخالص العام واتخذ
 الناس من الخاصة والعامسة الجواري المطمومات وألبسوهن الاقيسة والمناطق وسموهن

الغلاميات * فلما سمع القاهر ذلك الوصف ذهب به الفرح والطرب والسرور ونادى بأعلى صوته يا غلام قدح على وصف الغلاميات فبادر اليه جوار كثيرة قدهن واحد توهمتن غلمانا بالقراطين والاقبية والطرر ومناطق الذهب والفضة فأخذ الكأس بيده فأقبلت أنأمل صفاء جوهر الكاس وفورية الشراب وشماعه وحسن أولئك الجوارى والحربة بين يديه وأسرع في شربه فقال هيه قلت نعم يا أمير المؤمنين ثم أفضى الأمر الى المأمون فكان في بدء أمره لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها وينقاد الى موجباتها ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كاردشير بن بابك واجتهد في قراءة الكتب القديمة وأمعن في دراستها وواظب على قراءتها فنفسن في فهمها وبلغ درابتها فلما كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد وجالس المتكلمين وقرب اليه كثيرا من الجدلين والنظارين كابي الهذيل وأبي اسحق وإبراهيم بن سيار النظام وغيرهم ممن وافقهم وخالفهم وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الادباء وأقدمهم من الامصار وأجرى عليهم الارزاق فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتابا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله وكان أكثر الناس عفوا وأشدهم احتمالا وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبدلهم للعطايا وأبعدهم عن التساقف واتبعه وزراؤه وأصحابه في فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه * ثم المعتصم فانه يا أمير المؤمنين سلك في التحلة رأى أخيه المأمون وغلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الاعاجم في الآلة ولبس القلائس والشاشيات فلبسها الناس اقتداء بفعله وإتباعا به فسميت المعتصمات وعم الناس افضاله وأمنت به السبل في أيامه وشمل احسانه * ثم هرون بن محمد الواثق فانه اتبع ديانته أبيه وعمه وعاقب المخالف وامتنع الناس وكثر معرفته وأمر القضاة في سائر الامصار أن لا يقبلوا شهادة من خالفه وكان كثير الأكل واسع العطاء سهل الانقياد متحيبا الى رعيته * ثم المتوكل يا أمير المؤمنين فانه خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه وأمر بالتقليد وأظهر الرواية للحديث فحسنت أيامه وانتظمت دولته ودام ملكه وغير ذلك يا أمير المؤمنين مما اشتهر من أخلاقه * فقال القاهر قد سمعت كلامك وكأني مشاهد لا تقوم على ما وصفت معاني لهم فيما ذكرت ولقد سرتني ما سمعت منك ولقد فتحت أبواب السياسة وأخبرت عن طرق الرياسة قال المحدث ثم أمر لي بجائزة جعل لي عطاها في وقتها ثم قال لي اذا شئت فقم فقتت وقام على أثرى بحربته فخيلى لي والله أنه يرميني بها من ورائي ثم عطفت نحو دار الخدم فما مضت الا أيام يسيرة حتى كان من أمره ما ظهر اه

قال ابن البطريق في تاريخه وكان القاهر قد ارتكب أمورا فبيحة لا يسمع بمثلها في الاسلام وذكر منها طرفا طويلا أضربنا عن ايراده هنا * وحكى أن رجلا قال صليت في جامع المنصور ببغداد فاذا أنا بانسان عليه جبة غابية وقد ذهب وجهها وبقي بعض

قطن بطانتها وهو يقول أيها الناس تصدقوا عليّ بالامس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين فسألت عنه فقيل لي انه القاهر بالله اه قلت وفي هذه الحكاية تذكرة وعبرة والله ليس بظلام للعبيد

واستعمل القاهر بالله علي ديار مصر في خلافته بعد موت تكيين الخصاص سنة احدى وعشرين وثلاثمائة محمدا ابنه وصير اليه بتنفيذ الولاية واستقرارها فخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقاتلهم محمد بن تكيين واشتدت الفتنة وكادت تم البلاد وكثر شعب الغوغاء وتطاوت أيديهم الى النهب والسلب وذهب الامن وكثر الخوف وانكس الناس بمصر بأباما حتى نظف محمد بالخوارج وأرجع الاحزاب الى الطاعة فلم تستقر به الولاية حتى صرف وولي أبو بكر محمد بن طعج الملقب بالاخشيد ثم صرف من عامه وأعيد أحمد بن كيغلع الى أن صرف سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة في خلافة الراضي بالله كما سيد كر في محله ان شاء الله

(الفصل العشرون)

(في خلافة أبي العباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد القاهر ابن أخيه أبو العباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر بن المعتضد ببيع له بالخلافة يوم خلع عنه القاهر سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة هجرية أي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ميلادية فاستوزر عليّ بن مقله وأطلق كل من كان في حبس القاهر وكان قبل توليته محبوسا هو ووالده في حبس القاهر فأخرجوه وأجلسوه على سرير الخلافة يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى ولقبوه بالراضي بالله وبايعه القواد والناس وجعل يتصرف في الامور واستقدم عليّ بن عيسى وأخاه عبد الرحمن وأذناهما منه وأخذ بمشورتها وهم باعطاء الوزارة الى عليّ فامتنع لشيخوخته وأشار بان مقله فاستحضر ووليا بعد أن أرسل يؤمنه فأحسن ابن مقله التدبير وأعاد الامن الى ربوع الخلافة وضم اليها المشايخين والخوارج وزاد في تمكين صلاتها مع الروم وغيرهم * ولم يمض الا القليل حتى ظهر ابن رائق وغلب على الراضي وتمكن من مسند الخلافة فصارت الكلمة له فلم يبق للوزير ابن مقله من الامر شيء فوقع الوحشة بينه وبين ابن رائق واستحكم الخلاف فجعل ابن مقله يدبر على هلاك ابن رائق وهم باجراء ذلك فمنعه منها ظهور فتنة الحنابلة ببغداد وذلك أن جماعة الحنابلة قويت شوكتهم وعظمت عضابتهم فجمعوا بين الغون في اظهار عقيدتهم وبسوقون الناس كرها الى احترام شيعتهم والعمل بقولهم فكانوا يكسبون دور العامة وقواد الجند فان وجدوا نبينا أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا

الناس في بيعهم وشراهم ومنعوا مشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا أحدا من الناس مع امرأة أو صبي سألوه عن الذي معه من هو فأخبرهم والا ضربوه وخرجوا يوما على صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة وكادوا يبطشون به جهارا فاضطربت بغداد من فعالهم وضح الناس فركب بدر الخرشتي وهو صاحب الشرطة المذكور ونادى في جانبي بغداد في أصحاب أبي محمد البرهاري بان لا يجتمع من الحنابلة اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلي منهم امام الا اذا جهر بيسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين فلم يقدر فيهم وزاد شرهم وكثر تعرضهم للناس وعظمت فتنتهم واستظهروا بالعيان الذين كانوا يأوون المساجد وكانوا اذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العيان فيقومون عليه ويضربونه حتى يكاد يموت تخاف الراضي شر العقاب و أخرج توقيعه بما يقرأ على الحنابلة وهو ينكر عليهم فعملهم ويقبح عليهم اعتقاد التشبيه وغيره فكان منه قوله * انكم معاشر الحنابلة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين المذهبين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ثم طعنكم على خيار الائمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم الى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين الى الدين بالبرع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الائمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وانتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بنبي شرف ولا نسب ولا سب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء فلعن الله شيطاننا زين لكم هذه المنكرات وما أغواها واعلموا أن أمير المؤمنين يقسم بالله فما جهدا اليه يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم ليوسعنكم ضربا ونشيدا وقتلا وتبيدا وليستعملن السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالككم اه خافوا عند ذلك وانكشوا ولم يحركوا يومئذ ساكنا فلما سكنت الحال عاد ابن مقلدة الى مشاغبة ابن رائق وكتب الخليفة الراضي في أمر هلاك ابن رائق وحبب له ذلك فوافقه أولا ثم خالفه وأظهر خطه الى ابن رائق ثم أمر به فقطعت يده ثم عولج فبرئ فعاد بكتاب الراضي وبطلب الوزارة ويقول ان قطع يده لم يمنع من عمله وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب واستوزر الراضي بعده عبد الرحمن بن عيسى وسلم اليه ابن مقلدة فصادره حتى استصفي ماله وخلع بعبد بدر الخرشتي من الشرطة فلم تطل أيام عبد الرحمن وظهر مجزه وعدم فلاحه فضاق عليه أمر الوزارة واستعفى فلما ظهر مجزه الى الخليفة الراضي ووقوف أمور الخلافة قبض عليه فصادره على مائة ألف دينار وصادر أنحاء عليا بسبعين ألف دينار وكان ابن مقلدة يدعو على من ظلمه وقطع يده فأوصلوا خبره الى الراضي والى ابن رائق فأمره بقطع لسانه ثم نقلوه الى محبس ضيق وألقوه فيه فأصابه ذرب في الحبس ولم يكن معه من يخدمه قال له الحال الى أن كان يستقي الماء من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بفيه وما

زال على هذا الحال من الشدة والضيق حتى مات ودفن بدار الخليفة ثم ان أهله نبشوه ودفنوه في داره ثم نبش ونقل الى دار أخرى * قال بعض الكتاب ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث دفعات ووزر لثلاث خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين منفيا الى شيراز وواحدة في وزارته الى الموصل ودفن بعد موته ثلاث ممرات وخص به من خدمه ثلاث وهو من عجيب الاتفاق

وكان القاهر قد عمد الى كثير من الأموال عند قتله لمؤنس الخادم وبلق وابنه على وغيرهم فغيبها كما تقدم القول فلما قبض عليه وسمت عيناه وأفضت الخلافة الى الرازي وطولب القاهر بالأموال أنكر أن يكون عنده شيء من ذلك فأوذى وعذب بأنواع من التعذيب وكل ذلك لا يزيد الا انكارا فأخذته الرازي وقتلته وأذناه وطالت مجالسته اياه واكرامه له وأعطاه حق العمومة والسن والتقدم في الخلافة ولاطفه وأحسن اليه غاية الاحسان وكان للقاهر في بعض الحصون بستان من ريحان وغرس من النارج قد جل اليه من البصرة وعمان مما حمل من أرض الهند قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من أحر وأصفر وبين ذلك أنواع الغروس والرياحين والزهر وقد جعل مع ذلك في الحين أنواع الاطيوار من القماری والديابي والشحارير والبيغا مما قد جلب اليه من الممالك والأمصار وكان القاهر كثير الشرب كما تقدم فكان يشرب في ذلك البستان ويجلس كثيرا في تلك المجالس فلما أفضت الخلافة الى الرازي اشتد شغفه بذلك الموضع فكان يداوم الجلوس والشرب فيه ثم ان الرازي رفق بالقاهر وأعلمه بما هو فيه من مطالبة الرجال بالأموال والحاجة اليها ولا شيء قبله منها وسأله أن يسعفه بما عنده منها اذ كانت الدولة له وأن يدبر تدبيره ويرجع في كل الأمور الى قوله وحلف له بالايان الاكيدة أن لا يسعى في قتله ولا الاضرار به ولا بأحد من ولده فأنعم له القاهر بذلك وقال ليس لي مال الا في بستان النارج فسار به الرازي الى البستان وسأله عن الموضع فقال له القاهر قد سجدت بصرى فلست أعرف موضعه ولكن مر بحفرة فانك تطهر على الموضع ولا يخفى عليك فكان ذلك حفرة البستان وقلع تلك الأشجار والغروس والازهار حتى لم يبق منه موضع الاحفره وبوانغ في حفرة فلم يجد شيئا فقال له القاهر وهل عندي من المال شيء وانما كانت حسرتي جلوسك في هذا الموضع وتمتعك به وكان لذني من الدنيا فتأسفت على أن يتمتع به غيري فتأسف الرازي على ما توجه عليه من الحيلة في أمر ذلك البستان وندم على قبوله منه وأبعد القاهر فلم يكن يدنو منه خوفا على نفسه أن يتناول بعض أطرافه

وضعت أمور الرازي واضطربت واحتل نظام الخلافة فاستدعى بالامير محمد بن رائق فجعله أمير الامراء وفوض اليه تدبير المملكة وخلع عليه وأعطاه اللواء فبطل من ذلك اليوم أمر الوزارة بيغداد ولم يبق الا اسمها فقط والحكم للامراء والملوك المتغلبين اذ كان ملك الخلافة جميعه في أيديهم وهم ملوك الارض فكان كل من حصل في يده بلد ملكه وما نفع عنه

فأصبحت البصرة وواسط والاهواز في يد عبد الله البريدي وأخويه وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر في يد بنى حمدان ومصر والشام في يد الاخشيدي بن طغج والمغرب وافريقية في يد المهدي والاندلس في يد بنى أمية وخراسان وما والاها في يد نصر بن أحمد الساماني واليمامة وهجر والبحرين في يد أبي طاهر القرمطي وطبرستان وجرجان في يد الديلم ولم يبق في يد الراضي وابن رائق الا بغداد وما والاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وضعف ملكها واختلت الأمور كافة وتفقر مسند الخلافة كما سيذكر في محله ان شاء الله

ومات الراضي ليلة السبت خامس عشر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية بعلة الاستسقاء وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وشهورا فكانت خلافته ست سنين وعشرة أشهر وكان أديبا شاعرا ظريفا وله أشعار حسان منها

يصفر وجهي اذا تأمله * طرفي ويحمر وجهه بخلا
حتى كان الذي بوجنته * من دم جسمي اليه قد نقل

ومنها أيضا

كل صفوا الى كدر * كل أمر الى حذر * ومصير الشباب للموت فيه أو الكبر
درد المشيب من * واعظ ينذر البشر * أيها الآمل الذي * تاه في لجة الغرر
أين من كان قبلنا * درس العين والائر * سير المعاد من * عمره كالمه خطر
رب اني ذخرت عنك * أرجوك مدخر * اتى مؤمن بما * بين الوحي في السور
واعتراني بترك نفسي * وايناري الضرر * رب فاغفر لي الخطيئة * باخير من غفر
وكان حاضر الذكرة حادّ الذهن لا يغيب عن معرفته شيء من أحوال المملكة يحب المناظرة والبحث في أخبار القدماء ومن ذلك ما ذكر الصولي قال * قال الراضي ما كان السبب في لبس المأمون الخضره ورفع السواد ثم لبسه السواد بعد ذلك قلت هو ما أخبرنا به محمد بن زكريا العلالي قال حدثنا يعقوب بن جعفر بن سليمان قال لما قدم المأمون بغداد اجتمع الهاشميون الى زينب بنت سليمان بن علي وكانت أقعد ولد العباس نسبا وأكرمهم بينا فسألوها أن تكلم أمير المؤمنين في تغمييره الخضره فضمنت لهم ذلك وجاءت الى المأمون فقالت يا أمير المؤمنين انك على بر أهلك من ولد علي بن أبي طالب أقدر منك على برهم لنا من غير أن تزيل سنة من مضى من آبائك فدع لباسك الخضره ولا تطمعن أحدا فيما كان منك فقال لها يا معني ما كلمني أحد في هذا المعنى بكلام أوقع من كلامك ولا أقصد لما أردت لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي فولى الأمر أبو بكر فقد عرفت ما كان من أمره فينا أهل البيت ثم وليها عمر فلم يتعد فيها فعل من تقدمه ثم وليها عثمان فأقبل علي بن أمية وأعرض عن غيرهم ثم آل الأمر الى علي بن أبي طالب من غير صفو كصفوها لغيره بل مشوبة بالأكدار فولى مع ذلك عبد الله بن العباس البصرة وولى عميد الله بن العباس اليمن

وولي قثم البحرين وما أحد منهم الا ولاء فكانت هذه في أعناقنا حتى كافأته في ولده بما فعلت
ولا يكون بعد هذا الا ما تحبون قال ثم رجع الى لبس السواد وللمأمون يا أمير المؤمنين شعر
بشاكل معنى ما ذكرت من هذا الخبر وهو قوله

الأم على شكر الوصي أبي الحسن * وذلك عندي من عجائب ذا الزمن
خليفة خير الناس والاول الذي * أعان رسول الله في السر والعلن
ولولاه ما عدت لهاشم إمرة * وكانت على الايام تقضى وتمتن
فولي بنى العباس ما اختص غيرهم * ومن فيه أولى بالتكريم والمنين
فأوضح عبدالله بالبصرة الهدى * وفاض عبيد الله جودا على اليمن
وقسم أعمال الخليفة بينهم * فلازلت مربوطا بهذا الشكر مرتين

وكان الراضى كثير الاستعمال للطيب حسن الهيئة سخيا جوادا فلم يكن ينصرف عنه
أحد من ندماؤه في كل يوم الا بصلية أو خلعة أو طيب وكلوا عدة ندماؤه منهم محمد بن يحيى
الصولى وابن جردون النديم وغيرهما فعوتب على كثرة افضاله على من يحضره من الجلساء
فقال أنا أستحسن فعل أمير المؤمنين أبي العباس لأنه كانت فيه فضائل لا تكاد تجتمع في
أحد لا يحضره نديم ولا مغن ولا قينة فينصرف الا بصلية أو كسوة قلت أو كثرت وكان لا يؤخر
احسان محسن لغد ويقول العجب من انسان يفرح انسانا فيتعجل السرور ويؤخر ثواب من
سره تسويها وعدة فكان أبو العباس في كل ليلة أو يوم يقعد لشغله ولا ينصرف أحد ممن
حضره الا مسرورا ونحن وان لم نتأت لنا الامور كتأتيا لمن سلف فانا نواسى جلساءنا واخواننا
يبعض ما حضرنا * وكان لا يستكثر على أحد من ندماؤه ما يصل اليه على طول الايام حتى
كان بعضهم ربما يتأخر عن الحضور لما يترادف عليه من فضله ونخم الخلفاء في عدة أمور
فمنها أنه آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة خطب كثيرا على المنبر وآخر خليفة جالس
الجلساء ووصل اليه الندماء وآخر خليفة كانت له نفقة وجوائز جمة وكانت عطاياه وجرابانه
وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحجابه على ترتيب الخلفاء المتقدمين

واستعمل على مصر في خلافته بعد أحمد بن كيغلاخ الذى صرفه في سنة ثلاث وعشرين
محمد بن طغج الاخشيدى وقد أصبحت ديار مصر في يد ابن طغج المذكور لتغلب جميع العمال
على ما بأيديهم من البلاد كما تقدم ذكر ذلك فأقام محمد بن طغج في مصر الى أن مات في ذى
الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في خلافة المستكنى بالله كما سيأتى ذكر ذلك في محله

(وصل)

(في مبدا الدولة الاخشيدية وفي كيفية ظهورها)

لما عظم حب الخليفة المعتصم بن هرون للاتراك وكثر اعتماده عليهم جعل يأتي بهم من البلاد البعيدة وييسل في ذلك الاموال الطائلة فيوليهن المناصب العالية والوظائف السامية ويجند منهم الجند ويولى القواد ويكثر من نعمته عليهم وعلى بنينهم وبناتهم ويفضلهم على سائر القبلان والاتباع وقد علم بأن في فرغانة جماعة من الترك موصوفين بالبأس والشجاعة والتدريب على الحرب والقتال وبينهم شاب اسمه جف من اولاد ملوكهم فسير في طلبهم فجاءوا وجاء جف المذكور معهم فلما رآه المعتصم مال اليه وأحبه وأدناه من بابه وأقطعاه اقطاعا بسرا من رأى وما زال في نعمة وافرة الى أن مات ببغداد سنة سبع وأربعين ومائتين هجرية فخرج اولاده في طلب العيش والاستزاق واتصل أحدهم وهو طغج بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون بمصر فقال اليه لؤلؤ واستخدمه على مصر وأقام على هذا الحال حينئذ انحاز الى أحمد بن كنداج فلم يزل معه الى أن مات أحمد بن طولون ووقع الصلح بين ابنه خجارويه وبين ابن كنداج ونظر خجارويه الى طغج فأعجبه فأخذ من ابن كنداج وقربه اليه وقدمه على سائر من معه ثم قلده دمشق وطبرية وما زال على نعمة من خجارويه حتى قتل خجارويه فلقح طغج بالخليفة المكتفي فأحبه وخلع عليه خلعة الرضا وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فطلب من طغج أن يجري معه مجرى التذلل كغيره من أرباب المناصب فأكبر طغج هذا الأمر وأعظمه فأغرى به الخليفة المكتفي فحبسه وحبس معه ابنه أبا بكر محمدا فما زال طغج معتقلا حتى مات بالسجن وبقي أبو بكر محمد مسجوناً أياماً ثم ذكره الخليفة المكتفي فأطلقه وخلع عليه فجعل هو وأخوه عبد الله يرصدان العباس بن الحسن الوزير ليأخذوا بثار أبيهما حتى تمكنا من قتله وخرجا الى الشام في سنة ست وتسعين ومائتين هجرية وقيل هرب طغج الى الشام وأخوه عبد الله الى ابن أبي الساج وأقام أبو بكر محمد متغرباً في البرية حولا كاملاً ثم اتصل بأبي منصور تكين الجزري فكان من أعظم المقربين اليه ومن كان عليهم معتمده وولاه عمل عمان وجبل الشراة فأحسن السيرة وأخلص لابي منصور السريرة فسيره سرية الى قوم قطعوا طريق الحاج فقاتلهم حتى ظفر بهم ومزق شملهم وأسر منهم جماعة وفتح الطريق للعباج وكان ممن سار مع الحج في تلك السنة امرأة من دار الخليفة المقتدر يقال لها العجوز فلما عادت حدثت المقتدر بما رأته من أبي القاسم محمد فأنفذ اليه خلعا وزاد في رزقه ولبث أبو بكر محمد في صحبة تكين الى ان كانت سنة ست عشرة وثلاثمائة هجرية فارقه لاسباب وسار الى الرملة

فجاءته كتب الخليفة المقتدر بالولاية عليها فتولاها وأقام يتصرف فيها الى سنة ثمان عشرة
 وثلاثمائة هجرية فكتب اليه المقتدر بولاية دمشق فسار اليها ولم يزل بها الى أن ولاه القاهر
 بالله ولاية مصر في رمضان سنة احدى وعشرين وثلاثمائة بعد موت تكين ولى على الصلات
 ولم يدخلها أميرا عليها الا في ولايته الثانية ودعى له فيها على المنابر وهو بدمشق اثنين وثلاثين
 يوما وقيل ثلاثين يوما ثم صرف عنها وولى مكانه ابن كيغلق من قبل الراضى بالله بن المقتدر
 وصرف عنها ثم ولها أبو بكر محمد فدخلها أميرا في رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة
 وقد ضم اليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين وغير ذلك وقيل كان على مصر فقط كل أيام
 الراضى والذي ضم اليه ما ذكر من البلاد المتقى أخو الراضى وزاد في نعمته وازاد الى ألقابه
 « الاخشيدي » والاشييد لقب ملوك فرغانة وهو من أولادهم كما تقدم ومعناه ملك الملوك
 وكان هذا اللقب عند ملوك فرغانة ككسرى عند فارس وقبصر عند الروم ودعى له بهذا
 اللقب على المنابر واشتهره حتى نسب اليه ورثته المعروفون بالدولة الاخشيديّة وتعرف
 أيضا بدولة بنى طغج وقد اكتسب شهرة واسعة وعم ذكره الأفاق وهابه الملوك وتقرّبوا منه
 وهادوه وتواددوا اليه وخرج من صلبه ملوك على ديار مصر عرفوا بالدولة الاخشيديّة فهو
 الامير أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين وقيل بلتكين بن نوران بن نوري بن
 خاقان الفرغانى الاصل صاحب سرير الذهب ويقال له في بعض التواريخ إخشيدي بالذال
 المعجمة ثم كان من أخباره وحوادث أيامه ما سيذكر في محله ان شاء الله

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى خلافة أبى اسحاق ابراهيم المتقى تدبىن المقتدر)

ثم قام بالامر بعد الراضى ابن أخيه أبو العباس ابراهيم المتقى لله بن المقتدر بن المعتض
 ببيع له بالخلافة فى العشرين من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة هجرية أى
 سنة أربعين وتسعمائة ميلادية وعرضت عليه ألقاب فاختر منها المتقى لله ويابعه الناس كافة
 فصلى بالناس وصعد على سرير الخلافة وسير الخلع واللواء الى بجكم بواسطة وكان بجكم هذا
 واسع الكلمة كبير الشهرة فلما ارتقى منصب الصدارة لم يبق للخليفة معه سوى الاسم فقط
 وغلب أبو الوفا تورون التركى على ما بقى من الامر للخليفة ونظ حال المتقى هكذا ما بين بجكم
 وأبى الوفا تورون حتى خرج بجكم يوما يتصيد فبلغ نهر جور فسمع أن هناك أكراد لهم مال
 وثروة فشهرت نفسه الى أخذ المال فقصدهم فى قلة من أصحابه فهرب الأكراد من بين يديه
 ورعى هو أحدهم فلم يصبه فرمى آخر فأخطأه أيضا وكان سهمه لا يخيب فأناه غلام من

الاكراد من خلفه وطعنه في خاصرته فقتله لاربع بقين من رجب فلما قتل بجمكم تفرقت
 جنوده وانحدر الديلم منهم الى ابي عبد الله البريدي وكان قد خرج عن طاعة الخليفة واكلوا
 منتخبين ليس فيهم حشو ولا دخيل فقوى بهم وعظمت شوكته فستر فعوا الى واسط وعلم
 الخليفة المتقي بجمالههم فأرسل اليهم يأمرهم بأن لا يصعدوا فقلوا نحن محتاجون الى
 مال فان أنفذ لنا منه شيء تربصنا فأنفذ اليهم مائة ألف وخمسين ألف دينار فلم يقنعوا
 فخافهم واستمال اليه جماعة الاترك وبعض أجناد بغداد القدماء وبذل فيهم مالا قدره
 أربعمائة ألف دينار وجعل عليهم سلامة الطولوني مقدما فاصلحوا حالهم ودبروا أمرهم
 وبرزوا مع المتقي الى نهر دبالى ووصل البريدي من واسط الى بغداد فاختلف عند وصوله
 جماعة الاترك واستأمن بعضهم اليه وسار بعضهم الى الموصل واختفى سلامة الطولوني
 وخاف أهل بغداد فهمم الكثير منهم الى الخروج خوفا من البريدي وعسفه وظلمه ودخل
 الى بغداد فلقبه الوزير أبو الحسن والقضاة والكتاب وأعيان الناس وكان معه عدة
 سفن كثيرة فانفذ اليه المتقي يهنئه بسلامته وأظهر له اللين والتلطف عليه لينكف وأنفذ
 اليه طعاما وغيره عدة ليال وجعل يخاطبه بالوزير ثم أنفذ البريدي الى المتقي يطلب
 خمسمائة ألف دينار ليفرقها في الجند فامتنع من ذلك فأرسل اليه يتهدده ويذكره
 ما جرى على المعتز والمستعين والمهتدي وترددت الرسل فانفذ اليه تمام خمسمائة ألف دينار
 ولم يلق البريدي الخليفة المتقي مدة مقامه ببغداد فلما صار اليه المال انصرفت أطماع
 الجند عن الخليفة الى البريدي وناووه الشر وعادت مكيدته عليه فشتغبوا وكان الديلم قد
 قدموا على أنفسهم كورتكين الديلي وقدم الاترك تكينك التركي غلام بجمكم فانفقوا معا
 على الايقاع بالبريدي ونهب ما عنده فساروا الى مقره وتبعتهم العامة فقطع البريدي الجسر
 ووقعت الحرب في الماء ووثب العامة بالجانب الغربي من بغداد على أصحاب البريدي
 فهرب هو وأخوه وابنه أبو القاسم وأصحابه وانحدروا الى واسط فنهبت داره ودور قواده
 فدخل كورتكين على الخليفة المتقي وأخبره بخبر البريدي وما جرى عليه ففرح بذلك وقلده
 اماره الامراء وخطع عليه فتاقت نفس كورتكين الى التفرد بالامر فقبض على تكينك
 التركي وغزقه وتفرد بالامر ففعلت كلمته وطغت جماعة الديلم وزاد شرهم فانخرجوا الناس
 من دورهم وسكنوا هم فيها فشكا الناس منهم الى كورتكين فلم يلتفت اليهم فنارت العامة
 ومنعت الخطيب من الصلاة وقاموا على جماعة الديلم فاقتتلوا قتالا عنيفا فقتل من
 الفريقين جماعة كثيرة ولما كثر شر الديلم واتسعت كلمة كورتكين ضاقت أمور المتقي لله
 وحار وكتب الى ابن رائق بدمشق يستقدمه الى بغداد ليوليه اماره الامراء مكان كورتكين
 فجمع اليه ابن رائق جماعة كثيرة من الاترك وكان فيهم من القواد توزون وفشتكين
 وغيرهما وسار بهم من دمشق بعد أن استخاف أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل فلما علم
 كورتكين بقدومه خرج من بغداد الى عكبرا ووصل اليه ابن رائق فوقع الحرب

بينهم واتصلت عدة أيام ثم سار ابن رائق من عكبرا ليللا مع عسكره فاصبح ببغداد
دخلها من الجانب الغربي وعبر من الغد الى الخليفة المتقي فلقبه وركب معه في دجلة ثم عاد
فلحقه في ثاني يوم كور تكين بجيوشه من الجانب الشرقي ثم دخل بغداد فأيس ابن رائق
من ولايتها وخاف شر العاقبة فامر بحمل أثقاله والعود الى الشام وترك الخليفة وكور تكين
وشأنهما فلما شاع هذا الخبر أخذ الناس أيضا في رفع أثقالهم يريدون الخروج عن بغداد
ثم ان ابن رائق عزم أن يناوش كور تكين وأصحابه شيئا من قتال قبل مسيره فرسم لطائفة
من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الأتراك من ورائهم وركب هو سميرية وركب معه
جماعة من أصحابه في عشرين سميرية ووقفوا يرمون الأتراك بالنشاب ووصل أصحابه
وصاحوا من خلفهم واجتمعت العامة مع أصحاب ابن رائق يضجون فظن كور تكين أن
العسكر كسب عليه من خلف ومن أمام فانهمز هو وأصحابه شر هزيمة واختفى كور تكين
ورجم العامة أصحابه بالأجر والأحجار فقوى أمر ابن رائق وأخذ من استأمن اليه
من الديلم فقتلهم عن آخرهم وكانوا زهاء أربعمائة فلم يسلم منهم غير رجل واحد اختفى
بين القتلى وحمل معهم وألقى في دجلة فنجوا وعاش طويلا وقتل جميع الأسرى من القواد
وكانوا بضعة وعشرين رجلا نخلع عند ذلك المتقي على ابن رائق وجعله أمير الأحرار وبث
ابن رائق العيون حول كور تكين حتى قبض عليه واعتقله في دار الخليفة وكان
البريدى في غضون هذه الحوادث بواسط فاستعظم أمر ابن رائق وحسده فأخر عنه حمل
المال فكانت به ابن رائق في ذلك فلم يرسل شيئا فالتحدر ابن رائق الى واسط فهرب بنو
البريدى الى البصرة ثم عادوا وضموا بقايا واسط وعاد ابن رائق الى بغداد فخرجت عليه
الجنود وفيهم بوزون وغيره من القواد فلم يقدر على ردهم فتركوه ورحلوا الى ابن البريدى
بواسط وتحزبوا اليه ففرح بقدمهم وقوى بهم وعزم على الشخصوس الى دار السلام
ثم لم يلبث أن سير الى بغداد جيشا عظيما من الأتراك والديلم ومقدمه أخوه أبو الحسين
البريدى فلما أحس ابن رائق بقدمهم تحصن بدار الخليفة ورم سورها ونصب عليه
المنجنيقات والعرادات وحصن دجلة وحرك العامة للقتال وجند منهم جماعة فثاروا في بغداد
وأحرقوا ونهبوا وأخذوا الناس ليللا ونهارا قبل أن تصل جيوش ابن البريدى وخرج
المتقي لله وابن رائق وتبعهما أصحابهما فاقتتلوا مع البريدى وأصحابه فانهمز أهل بغداد
واستولى أصحاب البريدى على دار الخليفة وهرب المتقي وابنه الأمير أبو منصور في نحو
عشرين فارسا ولحق بهما ابن رائق في جيشه فساروا جميعا نحو الموصل وقتل أصحاب
البريدى من وجدوه في دار الخليفة من الحاشية فنهبوا ونهبوا دور الحرم وكثر النهب وعم
بغداد ليللا ونهارا وأخذوا كور تكين من حبسه وأنفذه أبو الحسين بن البريدى الى أخيه
عبد الله البريدى بواسط فكان آخر العهد به * واشتد البلاء على أهل بغداد وعظم الأمر

ووقع الغلاء وعزت الاقوات وأخذ القوى بالضعيف ووقعت الفتن بين الناس فضجوا وعبوا
وابتهلوا الى الله

ولما عظم أمر البريدي وأراد الشخصوس من واسط الى دار السلام في جيوشه وعرف
الخليفة المتقي ما وراء ذلك أنفذ الى ناصر الدولة بن جردان يستمده على البريدي فأرسل
أخاه سيف الدولة على بن عبد الله بن جردان نجدة له في جيش عظيم فلقى المتقي وابن رائق
في تكريت منهزمين فسار معهما الى الموصل ففارقها صاحبها ناصر الدولة وعبر الى الجانب
الشرقي من دجلة وكان بينه وبين ابن رائق وحشة قديمة وكان كل منهما يضر للآخر السوء
فترددت الرسل بينهما على الصلح فاصطلحا وعبر الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رائق يسلمان
على ناصر الدولة فنثر الدراهم والدراهم على ولد المتقي فلبثنا عنده برهة فلما أراد الانصراف
ركب ابن المتقي وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة تقيم اليوم عندي لتتحدث فيما
تفعله فاعتذر ابن رائق بابن المتقي فألح عليه ابن جردان فاستراب ابن رائق من الحاحه وجرأ بكمه
من يده فقطعه وأراد الركوب فشب به الفرس فسقط فصاح ابن جردان بأصحابه اقتلوه وألقوه
في دجلة * وأرسل ابن جردان الى المتقي يقول انه علم بأن ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل
به ذلك فرد عليه المتقي ردا جميلا ورسم اليه بال حضور لدية فسار اليه فخلع عليه المتقي ولقبه
ناصر الدولة وجعله أمير الامراء وخلع على أخيه أبي الحسين على ولقبه سيف الدولة * وجاء
الخبير الى الاخشيدي صاحب مصر بعوت ابن رائق ففرح وسار من مصر الى دمشق في عسكر
كثيف يريد أخذها من خليفة ابن رائق فلما وصلها استأمن اليه خليفة ابن رائق وتسلمها
الاخشيدي فبسط يده على ما جاورها مضافا ذلك الى ديار مصر وطال مكث ابن البريدي ولمومه
بيغداد وزاد عسفه وظلمه وجوره فكرهته العامة وكانت لا تنكف عن مشاغبه ففارقه الجند
وافضموا الى الخليفة المتقي لله وابن جردان فكثرت جوعهما وقويت عزيمة الخليفة فزحفوا
جميعا الى بغداد فهرب ابن البريدي واضطرب العامة ببغداد ونهب الناس بعضهم بعضا
ودخل المتقي الى بغداد ومعه بنو جردان في جيوش عظيمة فأقام بها والكلمة لبني
جردان ثم لتورون وغيره من كبار الاتراك وعظماء الديلم والخليفة في أيديهم كالألة الصماء فلما
ضافت عليه المذاهب خرج من بغداد الى الموصل وأرسل الى الاخشيدي محمد بن طغج متولى
مصر يشكو حاله ويستقدمه فأتاه من مصر ووصل اليه وهو بالرقصة فأكرمه المتقي وأجله
ووقف الاخشيدي ووقوف الغلمان ومشي بين يدي المتقي وحمل اليه هدايا عظيمة وكذلك
لوزيره أبي الحسين بن مقلة وسائر الاصحاب وتقدم الى المتقي في أن يسير معه الى مصر والشام
ويكون بين يديه فلم يفعل فخوفه من الرجوع الى بغداد وحذره من توزون التركي وغدره
وقال له يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الاتراك وغدرهم فلا تأمن على
نفسك فلم يقبل فقال له فأقم هنا وأنا أمدك بالمال والرجال فلم يقبل المتقي وصمم على
الرجوع الى دار السلام وكان قد أنفذ رسلا الى توزون في الصلح فتم الصلح وحلف توزون

على الطاعة لأمر المؤمنين فالتحق بالمتقي من الرقة في الفرات الى دار السلام لاربع بقين
من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وعاد الاخشيد الى مصر فلما وصل المتقي الى هيت أقام بها
وأفخذ من يحدد اليمين على توزون فعاد وحلف وسارعن بغداد ليلتي مع المتقي فالتقى معه
بالسندي فزل توزون وقبل الارض وقال ها أنا قد وفيت بيمينتي والطاعة لك ثم وكل به
وبالوزير وبالجماعة وأرزلهم في مضربه مع نساء المتقي وأفخذ رسله الى دار ابن طاهر ليحضروا
المستكني فلما حصل في المضرب قبض على المتقي وعمل عينيه فصاح وصاح من عنده من
النساء والخدم فأمر توزون بضرب الدباب حول المضرب لئلا تظهر أصواتهم فخفضت
أصواتهم وعى المتقي لله والتحق توزون من الغد الى دار السلام ومعه المتقي ووزيره ابن مقلد
وقاضيه أحمد بن عبيد الله بن اسحق فكانت خلافة المتقي لله ثلاث سنين وخمسة أشهر
وثمانية عشر يوما وكان خلعه في يوم السبت لعشر بقين من صفر وبقي الى أن مات سنة
سبع وسبعين وثلاثمائة

ولما امتنع المتقي من المسير مع الاخشيد الى ديار مصر ومن البقاء في الرقة تحول
عنه الاخشيد الى دمشق فجري للخليفة ما جرى ووصل الاخشيد الى دمشق وولى عليها
الحسين بن لؤلؤ ثم صرفه من عامه الى نيابة حصص وولى على دمشق يانس المؤنسي وعاد الى
مصر فدخلها في جمادى الاولى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ثم ورد عليه الخبر بجمع المتقي
ومبايعة المستكني فأسف لذلك جدا وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر في خلافة المستكني
وفي سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة أى في خلافة المتقي المذكور قدم المتاصلون غبريال
بطركا لالاسكندرية بعد الفترة التي خلا فيها المنصب البطريكي وقدرها أربع عشرة سنة كما
تقدم الكلام على ذلك فكان غبريال هذا سابع خسيهم وأصله راهب من دير أبي مقار
وهو من أهل المنوفية وقد أخذت في أيامه الديرية على النساء والرجال فخلصا من طلبات
ابن طنجج الاخشيد وفرارا من الشدة التي نالهم جميعا بسبب ذلك فخلص منها شيء كثير جدا
وعم لذلك الضيق وكثرت الكوارث وبلغت الشدة الى حد لا يطاق

(الفصل الثاني والعشرون)

(في خلافة المستكني بالله بن المكتفي)

ثم قام بالامر بعد المتقي ابن عمه أبو العباس عبد الله المستكني بالله بن المكتفي بالله على
ابن المعتض بالله بويج له بالخلافة بالسندية يوم خلع المتقي لله سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة
هجرية أى سنة أربع وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم السبت لثلاث خلون من صفر
حكى أبو العباس التميمي الرازي وكان من خواص توزون قال كنت أنا السبب في البيعة

للمستكني وذلك أنه دعاني ابراهيم بن الزويندار الديلمي فخصيت اليه فذكر لي أنه تزوج الى قوم وأن امرأة منهم قالت له ان هذا المتقي قد عاداكم وعاديتوه وكشفكم ولا يصفو قلبه لكم وههنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتني وذكر عقله وأدبه ودينه تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسكم ويدلكم على أموال جليلة لا يعرفها غيره وتستريحون من الخوف والحراسة قال فعلت أن هذا الأمر لا يتم الا بك فدعوتك له فقلت أريد أن أسمع كلام المرأة فخافني بها فرأيت امرأة عاقلة جزلة فذكرت لي نحوها من ذلك فقلت لابد أن ألقى الرجل فقالت تعود غدا الى ههنا حتى أجمع بينكما فعدت اليها من الغد فوجدته قد أخرج من دار ابن طاهر في زى امرأة فعرفني نفسه وضمن اظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون وذكر وجوهها وخطبتي خطاب رجل فهم عاقل ورأيته يتشيع قال فأثبت توزون فأخبرته فوقع كلامي بقلبه وقال أريد أن أبصر الرجل فقلت لك ذلك ولكن اكرم أمرنا من ابن شيرزاد فقال أفعل وعدت اليهم وأخبرتهم بالذي ذكر ووعدتهم حضور توزون من الغد فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مستخفين فاجتمعنا به وخطبه توزون وبايعه تلك الليلة وكرم الأمر فلما وصل المتقي قلت لتوزون لما لقيه أنت على ذلك العزم قال نعم قلت فافعله الساعة فإنه ان دخل الدار بعد عليك مرامه فوكل به وسمله وجرى ماجرى وبويح المستكني بالخلافة يوم خلع المتقي وأحضر المتقي فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب وصارت تلك المرأة قهرمانة المستكني وسمت نفسها علم وغلبت على أمره كله واستوزر المستكني أبا الفرج محمد بن علي الشاري فلم يكن له من الوزارة الا الاسم فقط والكلمة لابن شيرزاد وجلس المتقي وخلع المستكني بالله على توزون خلعة وتاجا اه

فلما كان يوم الاثنين انحدر المستكني في الماء راكبا في الطراد المسمى الغزالة وعليه فلسوة طويلة محدودة يقال انها كانت لابييه المكتني بالله وعلى رأسه توزون التركي ومحمد بن محمد بن يحيى شيرزاد وجماعة من غلمانه وسلم اليه المتقي ضريرا وأجد بن يحيى القاضي مقبوضا عليه وحضر بعد ذلك جميع القضاة مع الهاشمين فبايعوا له وجلس للناس وسأل عن القضاة وكشف عن أمور شهود الحضرة فأمر باسقاط بعضهم وقبول بعضهم لاشياء كان قد علمها منهم قبل الخلافة واستتابه بعضهم من الكذب فامتثل القضاة ما أمر به من ذلك واستعضى على الجانب الشرقي محمد بن عيسى المعروف بابن أبي موسى الحنفي وعلى الجانب الغربي الحسن بن أبي الشوارب الأموي الحنفي فتنطيرت من ذلك العامسة وقالت يومئذ الى ههنا انتهى سلطانه وانتهى في الخلافة أمره ونهيه * وما دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حتى مرض توزون التركي وانقطع بداره في بغداد أياما ثم مات ففرح الخليفة المستكني بخبر موته وظن رجوع الامر والكلمة اليه فكانت مدة اماره توزون على ما قاله أصحاب التاريخ سنتين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما

ولما مات توزون كان ابن شيرزاد باحياً بهيت لتخليص أموالها فلما جاء الخبر عزم على عقد الامارة لناصر الدولة ابن جردان فاضطربت الاجناد لذلك وعقدوا الرياسة عليهم لابن شيرزاد فحضر الى بغداد ونزل خارجها فخرج اليه جميع الجند واجتمعوا عليه وحلقوا ووجهه الى الخليفة المستكني بالله ليحلف له فأجابته الى ذلك وحلف له بمحضرة القضاة والعدول ودخل اليه ابن شيرزاد فأكرمه وأجمله وخرج فزاد في مرتبات الجند زيادة عظيمة فضاقت الأموال عليه وعز نوالها فأرسل الى ناصر الدولة مع أبي عبد الله محمد بن أبي موسى الهاشمي وهو بالموصل يطالبه بالمال ويعدده برد الرياسة اليه فأنفذ له خمسمائة ألف درهم وشياً من الاقوات كثيراً ففرقها في العسكر فلم تكف فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم لا رزاق الجند وظلم الناس ببغداد وكثرت طلبانه فظهر اللصوص وارتفع الأمن وكثر العسف والعريضة فهرب التجار وأصحاب الاموال وجعل يعزل ويولي الولاة والعمال فاستعمل ينال كوشه على واسط والشكري على تكريت فاما ينال فانه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه الى بغداد وحلف له بالطاعة اليه ان هو قدم على بغداد وكان ابن بويه يوشذ بالاهاز فصار منها الى بغداد في جمع عظيم فلما شاع خبر قدومه اضطرب الناس في بغداد واختفى المستكني بالله وابن شيرزاد اياماً ثم تردت الرسل بين المستكني وبين ابن بويه فظهر وعاد الى دار الخلافة ببغداد ووصل عز الدولة في جوعه فدخل من باب الشماسية واجتمع بالخليفة المستكني وبايعه وحلف له المستكني وخلع عليه ولقبه في ذلك اليوم معز الدولة ولقب أخاه علياً عماد الدولة ولقب أخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكأسم على الدينار والدرهم وجعل يتصرف في الامور كما يشاء ورتب للمستكني بالله كل يوم خمسة آلاف درهم وأمن ابن شيرزاد فظهر وحضر الى بغداد ولقي معز الدولة فولاه الخراج وجباية الاموال

ولما سكنت الامور واطمأنت الخواطر أولت علم قهرمانه المستكني وليمة عظيمة دعت اليها جماعة من قواد الديلم والأتراك ولم تعلم معز الدولة بخبرها فاستعظم معز الدولة ذلك منها واتهمها بأنها اتما فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكني فيزيلون معز الدولة عن منصبه وجعل من ذلك اليوم يعمل على خلع المستكني ويدير الحيلة على الايقاع به فلما كان ثمانى عشرى جادى الآخرة حضر معز الدولة والناس عند الخليفة ثم حضر رجلان من نقيب الديلم يصيحان فتناولوا يد المستكني بالله فظن أنهما يريدان تقبيلها فهدا اليهما فخذياه عن سريره وجعل عمامته في حلقه فنهض عند ذلك معز الدولة وخرج من الدار وساق الرجلان المستكني بالله ماشياً الى دار معز الدولة فاعتقل بها واضطرب الناس ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وأخذت علم القهرمانه فقطع لسانها فكانت مدة خلافة المستكني بالله سنة واحدة وأربعة أشهر كان فيها مغلوباً على أمره مع توزون وابن شيرزاد حدث أبو اسحق ابراهيم بن اسحق المعروف بابن الوكيل وهو ممن كان في خدمة

المستكني قال كان المستكني في سائر أوقاته فازعا وجيلا من المطيع أن يلي الخلافة
ويسلم إليه فيحكم فيه بما يريد فكان صدره يضيق لذلك فيشكو الأمر في بعض الاوقات الى
من كان يأنفه من ندمائه فيشجعونه ويهتفون عليه أمر المطيع الى أن قال لهم في بعض
الايام قد اشتهيت أن نجتمع في مكان كذا وكذا فنتذاكر في أنواع الأطعمة وما قال الناس في
ذلك منظوما فاتفق معهم على ذلك فلما كان في اليوم الذي حضروا أقبل المستكني فقال
هانوا ما أعدته لكل واحد منكم فقال بعضهم أيبانا طويالا في وصف سلة سجادج
كوامج فأمر المستكني أن تحضر هذه الجونة بعينها على ما وصفها القائل ثم قال آخر وآخر
والمستكني يأمر باحضار كل ما يجري في وصفه ما يمكن احضاره قال أبو اسحق فلم أر
المستكني منذ ولي الخلافة أشد سرورا منه في ذلك اليوم وأجاز جميع من حضر من
الجلساء والندماء والمهين ثم أحضر ما حضره في وقته من عين وورق عند ضيق الأمر عليه
فولته مارأيت له بعد ذلك يوما مثله حتى قبض عليه أحمد بن بويه الديلي وسهل عينيه اه
وبقي المستكني معتلا في دار معز الدولة بن بويه الى أن مات في سنة ثلاث وأربعين
وثلاثمائة وهو ابن ست وأربعين سنة وكان أبيض حسن الوجه قد ونحطه الشيب * ولما
قبض عليه بويغ بعده للمطيع لله

وكان لما ولي المستكني الخلافة أرسل الى محمد بن طغج الاخشيد فأمره على ولاية
مصر والشام فلم يحفل بذلك لعله أن أركان دولته ثابتة لا تتزعزع فلما كانت سنة ثلاث
وثلاثين وثلاثمائة وقعت بينه وبين سيف الدولة منافرة واشتدت شدة بالغة ثم اصطلمها على
أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحصص وبقى بلاد الشام للاخشيد ولتوكيد الصلح
بينهما تزوج سيف الدولة بنت أخي الاخشيد ولكن لم يلبثا طويلا على هذا الحال حتى وقع
التفوق بينهما ثانية فجهز الاخشيد جيشا عظيما لقتال سيف الدولة وسيده مع خادمه كافور
وأبي شجاع فالتك المجنون ثم خرج الاخشيد خلفهم في شعبان من السنة واستخلف أخاه أبا
الظفر وسار حتى لقي سيف الدولة بقتسر بن خرابه وقهره وفرق جموعه وأخذ منه حلب
ثم بلغه خلع المستكني فعاد الى دمشق وكان من أمره بعيد ذلك ما سيدكر في خلافة
المطيع

(الفصل الثالث والعشرون)

(في خلافة ابن الفضل المطيع لله بن المقتدر)

ثم قام بالأمر بعد المستكني ابن عمه أبو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتض بويغ

له بالخلافة لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وتسعمائة ميلادية وهو يوم خلع ابن عمه المستكنى بالله وله من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة وأحضر المستكنى عنده فسلم عليه بالخلافة وأشهد على نفسه بالخلع وقد سمل معز الدولة عينيه وأعماه كما تقدم فلم يكن للطبيع من الخلافة الا الاسم فقط فقد ازداد أمر الخلافة إدارا وزالت حرمتها أو كادت على يدى معز الدولة بن بويه فلم يبق فى يد المطيع لا أمر ولا نهى ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر واختل النظام واستخف الديلم بمقام الخلافة فكانوا يقولون ان العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقها وكانوا يتشيعون ويغالون فى التشيع فلم يبق عندهم وازع دينى يحتمهم على الطاعة * قال صاحب الكامل حتى لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى اخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين فكلمهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فانه قال ليس برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك فأعرض عن ذلك قال فهذا كان من أعظم الاسباب فى زوال أمرهم ونهيمهم مع حب الدنيا وطلب التفردها اه

ونزع معز الدولة من الخليفة العراق بأسره وما والاها فلم يبق مع الخليفة منه شئ البتة الا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته الخلافة فاشتد الحال على المطيع وعظم الخطب ولبث على هذا الحال طويلا وكان معز الدولة اذا أراد غزو جهة جل معه الخليفة المطيع ليوهم الناس أنه انما يحارب للخليفة ومعه والامر على عكس ذلك واشتد فى التشيع للعلويين فأمر أصحابه ببغداد فكتبوا على المساجد ما هذه صورته * لعن الله معاوية بن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفي أباندر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى اه فأغضب ذلك الخليفة ولكنه كان محكوما عليه لا يقدر على المنع فلما كان الليل مما الكتابه بعض الناس فغضب معز الدولة وأراد إعادة ما محى فأشار عليه الوزير أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا فى اللعن الامعاوية ففعل ذلك * وسار معز الدولة فى سنة ست وخسين الى واسط فجهز فيها الجيوش لمحاربة عمران بن شاهين صاحب البطائح فلما هم بالمسير ابتداء به مرض الاسهال وقوى عليه فأججم عن الخروج الى ابن شاهين وسار الى بغداد وخلف أصحابه ووعدهم أن يعود اليهم فلما وصل الى بغداد اشتد به مرضه فلما أحس بالموت عهد الى ابنه عز الدولة بختيار وأظهر التوبة وتصدق بأكثر ماله وأعتق ممالিকে ورد شيا كثيرا على أصحابه مما كان قد اغتاله ثم مات ودفن بمقابر قريش فكانت امارته احدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين فجعل ابنه بختيار

يتصرف في الامور فأساء السيرة وجار وظلم وصرف عنه كبار الترك والديلم وأبغض صغارهم
وضيق على الخليفة المطيع وطالبه بمال كثير فاعتذر وقال من أين لي ذلك ولم يبق لي من
حكم البلاد سوى الاسم والخطبة فان شئت أن أعتزل فعلت فلم يقبل منه وتهدده فبذل له
المطيع أربعمائة ألف درهم واحتاج الى بيع ثيابه وأناقض داره وغير ذلك وبلغ فساد
الامور الى حد لا يطاق فكثرت ادلال الجند على بختيار واطراحهم بجانبه وشغبتهم عليه
ومطالبتهم له بالارزاق والجوامك المتأخرة وقد قلت عنده الاموال وتعذر عليه تسكين خواطر
الجند ولم يجد ديوانه ووزيره جهة يحتمل منها بشيء فسار الى الموصل بهذا السبب فلم يفتح
عليه فسار منها الى الاهواز ليعترض الى متوليها ويأخذ منه مالا ويختلف عنه سبكتكين
التركي أحد كبار الجند الاتراك ولم يسرمعه فلما وصل الى الاهواز لاقاه متوليها وخدمه وقدم
له الطاعة وحمل له أموالا جلية المقدار وبختيار يفكر في طريق يأخذه به فانفق أنه جرت
فتنة بين الاتراك والديلم سببها مضاربة بين غلام تركي وآخر ديلمى فاتصل خبر ذلك بأصحاب
كل واحد منهما فقام بعضهم على بعض واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير وخرجوا الى ظاهر
البلد فاجتهد بختيار في تسكين الفتنة فلم يفلح فاستشار جماعة الديلم في ذلك وفيما يفعله وكان
أذنا يتبع كل قائل فأشاروا عليه بالقبض على كبار الاتراك لتصفو له البلاد فقال الى ذلك
وقبض على جميع كبارهم وقيدهم وأطلق الديلم في الاتراك فقتلوا ونهبوا أموالهم وهرب
الاتراك ولحقوا بسبكتكين وكان بختيار قد دبر الحيلة للنقض على سبكتكين أيضا فلم يفلح
وظهرت حيلته فركب سبكتكين عند ذلك فيمن جاءه من الاتراك وحصروا دار بختيار يومين
ثم أحرقها ودخلها وأخذ ابني عز الدولة ووالدتهما ومن كان معهما وسيرهم الى واسط
فانحدر معهم الخليفة المطيع لله فاسترجعه سبكتكين ورده الى داره واستولى على ما كان
لبختيار جميعه ببغداد ونزل الاتراك في دور الديلم وتبعوا أموالهم وأخذوها وثارت العامة
من أهل السنة ينصرون سبكتكين لانه كان سنيا فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء والقواد
فتفوقوا وثاروا بالشيعة وحاربوهم فكانت كلها حرب دينية وسفكت بينهم الدماء وأحرقت
الدور وزال الامن وكثر السلب والنهب في الليل والنهار واشتد البلاء وعظمت الفتنة وما
زالت نارها تتأجج حتى تم الامر لسبكتكين فجعل يتصرف ثم لم يلبث أن آنس من الخليفة
المطيع الكره له وكان المطيع به مرض الفالج وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فدعاه
سبكتكين الى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها الى ابنه الطائع ففعل وأشهد على نفسه
بأنطلع ثالث عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلثمائة فكانت خلافته تسعا وعشرين سنة
وخسة أشهر الاياما وكان وطىء الجانب كثير الصدقات حسن الاخلاق

ولما سار الاخشيدي من حلب الى دمشق بعد انتصاره على سيف الدولة وورد الخبر
اليه بخلع المستكني وبيعة المطيع كما تقدم لبث بها أياما فمرض واشتدت علته ومات يوم
الجمعة ثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلثين وثلثمائة فحملوا تابوته الى بيت المقدس

فدفن هناك وكانت ولادته في سنة ثمان وستين ومائتين هجرية ببغداد بشارع باب الكوفة
وكان ملكا حازما متيقظا حسن التدبير عارفا بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوة
عظيمة لا يكاد أحد يجتر قوسه وله هيبه في قلوب الرعية وكان متجملا في مركبه وملبسه فكان
موكبها يضارع موكب الخليفة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف وعدد جيوشه أربعمائه ألف
وكان يكره سفك الدماء شديد الحرز على نفسه فكانت تحرسه مماليكه بالمناوبة واذا نام
حرسه ألف مملوك وعاش ستمين سنة وقيل ستا وستين وخلف عمده ذكور ولما مات تولى
الملك بعده ابنه أبو القاسم أنوجور الاخشيد في ثاني يوم وفاة أبيه ولاء الخليفة المطيع على
سائر ما كان لابيه مع حداثة سنه وجعل مدبر مملكته كافورا الخادم الاسود فكان أنوجور
مغلوبا على أمره ليس له من الملك سوى الاسم والكلمة لكافور فكان كافور يطلق لآنوجور
في كل سنة أربعمائه ألف دينار ويتصرف بما يبقى واتسعت كلمة كافور وهابه الناس فآس
من أبي بكر محمد بن علي بن مقاتل صاحب خراج مصر وحشة فقبض عليه في سنة خمس
وثلاثين وثلثمائة وخلعه وولى مكانه محمد بن علي المراداني * وسار أنوجور الى دمشق ولبت
بها ماشاء ثم رحل عنها الى مصر فلم يستقر به المقام حتى جاء الخبر باستيلاء سيف الدولة على
دمشق وضمها الى أملاكه فأكبر هذا الامر وأعظمه وكر راجعا الى دمشق في عسكر عظيم
ومعه عمه الحسن بن طغج وكافور الخادم وقصدهم سيف الدولة في عسكر وجوع كثيرة
فالتقوا بالرملة في يوم الجمعة ولم يهتم بنوحدان بقاء عسكر أنوجور وجعلوا يطغون في ذلك
اليوم في أرباض البلد فاستغنم كافور الخادم فرصة غيابهم وزحف على معسكرهم بجياله ورجله
وكبسهم من كل صوب وحذب وغنم مؤنتهم وذخيرتهم وسائر متاعهم ففتر سيف الدولة هاربا
الى الشام فتبعه كافور في عسكره فانهزم الى حلب ثم الى الرقة فلما تم النصر لعسكر أنوجور
عادوا الى ديار مصر وبينما هم عائدون جاءهم الخبر بخروج غلبون متولى الريف وزوله على ديار
مصر وتغلبه على الكثير من البلاد فأسرع أنوجور في السير ودخل مصر في قلة فهرب غلبون
وعادت الامور الى ما كانت عليه وسير كافور جيشا خلف أصحاب غلبون فأجلوهم عن سائر
بلاد مصر وعادوا ظافرين غانمين وما زال أنوجور على حاله حتى مات في ذى القعدة سنة تسع
وأربعين وثلثمائة فكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة وعشرة أيام ودفن ببيت المقدس عند
أبيه * فقام بالامر بعده أخوه علي الملقب بأبي الحسن فلم يكن له من حظ الملك في جانب
كافور الخادم غير ما كان لآخيه أنوجور وبقي مغلوبا على أمره * وفي أيامه قصر النيل في
زيادته سنتين متواليتين حصل بسبب ذلك غلاء شديد ثم حط تسع سنوات فاشتد الحال بالناس
شدة بالغة وكثر الخطف والنهب وعات الاصوص في مصر وبقيت البلاد وأفسدوا فارتفع الامن
وعم الخلل وكاد الناس يفتنون فتنة كبرى
ووقع بين أبي الحسن الاخشيد وكافور الخادم مناقرة وعظمت فتاغب بعضهما بعضا أياما
كانت أشد هولاء على الرعية من الغلاء والقحط وقطع الطرق ثم تصالحا وما زال كافور يتصرف

في الصغير والكبير من الامور ولا كلمة لابي الحسن عليّ حتى مات سنة خمس وخمسين وثلثمائة هجرية فاستقر الملك باسم كافور وصار يدعى له على المبار بالديار المصرية والشامية والحجاز فلم تطل أيامه ومات بمصر في جادى الاولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة فكانت مدة تصرفه منفردا سنتين وأربعة أشهر * وكان عاقلا ذا رأى وتدبير واسع المعرفة كبير السياسة كيسا حازما كثير التبصر في العواقب * قال الذهبي كان كافور هذا خصيا حبشيا اشتراه الاخشيدي من بعض أهل مصر بثمانية عشر ديناراً ثم تقدم عنده لعقله ورأيه الى أن صار من كبار القواد ثم لما مات استأذنه صار أتاك ولده أنوجور وكان صيبا فغلب كافور على كافة الامور وصار الامم للولد والدست لكافور ثم استقل بالامر ولم يبلغ أحد من الخصيان ما بلغ كافور ومدحه المتنبى بقوله

قوا صد كافور توارك غيره * ومن قصد الجراستقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه * وختل بيضا خلفها وما قيا

وهجاء بقوله

من علم الاسود الخصى مكرمة * أقومه البيض أم آباؤه الصيد
وذلك أن الفحول البيض عاجزة * عن الجميل فكيف الخصى السود

قال محمد بن عبد الملك الهمداني كان بمصر واعظ يقص على الناس فقال يوما في قصصه انظروا الى هوان الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين ابن بويه ببغداد وهو أشل وكافور عندنا بمصر وهو خصي فرفع اليه قوله ووطنوا أنه يعاقبه فتقدم اليه بخلعة ومائة دينار وقال لم يقل هذا الا لخصائي له فكان الواعظ يقول بعد ذلك في قصصه ما أنجب من ولد حام الا ثلاثة لقمان وبلال المؤذن وكافور * قال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوي كنت أسير كافورا يوما وهو في مركب خفيف فسقطت مقرعته من يده فبادرت بالتزول وأخذتها من الارض ودفعتها اليه فقال أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية ما ظننت أن الزمان يبلغني حتى يفعل بي هذا وكاذ بيكي فقلت أنا صنيعة الاستاذ ووليه فلما بلغ باب داره ودعته وسرت فاذا أنا بالبغال والجنائب يبرأ كرها وقال أصحابه أمر الاستاذ بحمل هذا اليك وكان منها يزيد عن خمسة عشر ألف دينار اه ولكافور أخبار أخرى كثيرة أضربنا عن ارادها هنا * ولما مات كافور ولي المصريون مكانه أبا الفوارس أحمد بن عليّ بن الاخشيدي وهو يومئذ ابن اثنى عشر سنة وكان بالشامات التابعة لمصر حسين بن الاخشيدي فلما وصل أهل الشام خبر موت كافور انخادم وولاية أبي الفوارس أحمد لم يرضهم ذلك وولوا عليهم حسينا المذكور ولكنه لم يلبث حتى قام عليه القرامطة وانتزعوا منه البلاذ فجاء هاربا الى مصر وفي نفسه زعها من يد أبي الفوارس فلم تساعده الايام على نوال ذلك وحناته الاقدار ولم يتم على ولاية أبي الفوارس حول

كامل حتى أتى جوهر القائد لجيوش المعز لدين الله المهدي المغربي صاحب افریقیة فانتزعها منه كما سيدكر تفصيل ذلك في محله.

ومات في خلافة المطيع أيضا غبريال بطرك المتأصلين فكانت مدته احدى عشرة سنة كابد فيها من البلايا والمحن ما لا يطاق فأقاموا بعده قسما أو هو قرمان ثامن خنسية فلبث اثنتي عشرة سنة ومات وفي أيامه أحرقت المسلمون كنيسة مريم بدمشق الشام ونهبوا ما فيها من الاواني وغيرها وكانت قيمتها كثيرة ونهبوا كذلك ديرا للنساء بجوارها وقتلوا وسبوا ونهبوا كنائس النسطورية والمتأصلين ولم يبقوا فيها شيئا فكانت أيامه كلها شدائد فلما مات أقيم بعده مكاربوس أو هو مقار تاسع خنسية وهو راهب من دير أبي مقار وأصله من شبري ووقع في أيامه من الحوادث ما سيدكر في محله.

(وصل)

(فما قاله أصحاب التاريخ في أصل الفاطميين وفي ظهور دولتهم بديار مصر)

وفي اقتبارنا لهم طوكا عليها لا خلفاء كما يدعون

قال أصحاب التاريخ قد كان مبدأ ظهور هذه العائلة ببلاد المغرب سنة ست وتسعين ومائتين هجرية وقد أجمعوا على هذا وعلى أن عدد من ملك منهم أربعة عشر نفرا منهم ثلاثة ظهوروا بالمغرب وماتوا أولهم أبو محمد عبيد الله فقيل هو محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب * قال بعضهم ومن ينسب هذا النسب يجعله عبد الله بن ميمون القداح الذي ينسب اليه القداحية وقال آخرون بل هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فيكون أبو محمد عبد الله هذا على مقتضى القول الاول أو عبيد الله على مقتضى القول الثاني رأس هذه العائلة ومؤسسها وقد اختلفوا في صحة نسبه فقال هو وأصحابه القائلون بامامته ان نسبه صحيح على ما ذكر هنا ولم يرتابوا فيه قال صاحب الكامل وذهب كثير من العلويين العالمين بالانساب الى موافقتهم أيضا وبشهادة بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضي

ما مقامى على الهوان وعندى * مقول صارم وأنف جى
ألبس الذل في بلاد الاعادى * وبصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا * ي اذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد الناس جميعا محمد وعلى

ان ذى بنك الجـدعـز * وأوامى بذلك الربيع رى

قال وانما لم يودعها في بعض ديوانه خوفا ولا حجة بما كتبه في المحضر المتضمن القدح في أنسابهم فان الخوف يحمل على أكثر من هذا قال وسألت جماعة من أعيان العلويين في نسبه يعنى في نسب محمد أبى عبيد الله هذا فلم يرتابوا في صحته اهـ وذهب آخرون الى غير هذا المذهب فقالوا بل ان نسبه مدخول ليس بصحيح وانه كان يهوديا وكذلك كتبوا في الايام القادرية محضرا يتضمن القدح في نسبه ونسب أولاده ووقع عليه جماعة من العلويين وغيرهم أن نسبه الى أمير المؤمنين علي بن أبى طالب غير صحيح وكان ممن كتب فيه من العلويين المرتضى وأخوه الرضى وابن الطحاوى وابن الأزرق العلويون ومن غيرهم ابن الاكفانى وابن الخرزى وأبو العباس الابيوردي وأبو حامد والكشفي والقديورى والصميرى وأبو الفضل النسوى وأبو جعفر النسفى وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة وزعم القائلون بصحة نسبه أن العلماء ممن كتب في ذلك المحضر انما كتبوا خوفا وتقية وأن نسبه الى علي صحيح لامراء فيه * وأما من رفع نسبه الى الحسين بن محمد القداح ثم تغالوا حتى قالوا انه لم يكن من ولد الحسين المذكور ولكنه ابن لامرأة يهودية كان قد أحبها الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح فقد اعتمدوا في ذلك على ما رواه أهل التاريخ ونقله الكتاب من أخبار أيام القداح جد هذه العائلة وكيفية ظهوره أنه لما ظهرت كلمة أبى عبد الله الشيعى يعنى ابن ميمون القداح وكثرت أحزابه وانتشرت حواشيه في بلاد أفريقيا جعل يغرى الناس بأبى مضر ويعيبه ويسفه أحلامه وما زال حتى فشت دعونه بين سائر وزراء زيادة الله صاحب افريقية فمالوا اليه وأحبوا نصرته فلما كاد يتم له ذلك مات عبد الله ميمون المذكور وظهر ولده فجعلوا يقولون انهم من ولد عقيل بن أبى طالب ولكنهم لم يجسروا على الظهور بين الناس فكافوا يخفون أمصاصهم ولبثوا على هذا الحال حينا وكان ولده أحمد هو المشار اليه منهم فتوفى وخلف ولده محمدا وكان محمد هذا هو الذى يكتبه الدعاة في البلاد فتوفى محمد وخلف أحمد والحسين فسار الحسين الى سلمية من أرض حمص اذ كان له بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح ووكلاء وعلمان وبقي ببغداد من أولاد القداح أبو الشلغلح وكان الحسين يدعى أنه الوصى وصاحب الامر والدعاة باليمن والمغرب بكتابونه وراسلونه في أمور الشيعة كلها * واتفق أنه جرى في مجلسه يوما حديث النساء بسلمية وجمال بعضهن فوصفوا له امرأة رجل يهودى حداد مات عنها زوجها وهى في غاية الحسن والجمال وأن لها ولدا من الحداد يماثلها في الجمال فمال الى زواجها فتزوج بها وأحبها وحسن موقعها معه وأحب ولدها وأتبه وأحسن تعليمه وكان اسمه عبيد الله فتعلم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة ثم مات الحسين فقال بعض علماء زمانه من أهل سلمية انه مات عن غير واد فعهد الى ابن اليهودى الحداد وهو عبيد الله هذا

وعرّفه أسرار الدعوة من قول وفعل ودله على مواضع الدعاة وأعطاه الاموال والعلامات
وتقدّم الى أصحابه بطاعته وخدمته وانه الامام والوصي وزوجه ابنة عمه أبي الشلفغ الذي
نزل ببغداد وهذه دعوة أبي القاسم الابيض العلوي وغيره قالوا وجعل لنفسه أي عبيد الله
المذكور نسبا وهو عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد
ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب * وبعض العلماء بالانساب يقولون بسل هو أي
عبيد الله المهدي من ولد القداح جاءه من زوجة اليهودي الحسداد وظهرت كلمة عبيد الله
المذكور وعرّفه الدعاة واجتمعوا حوله فبذل الاموال وأكثر من الاعطية وشاع خبره عند
الناس أيام المكنى العباسي فطلبه فهرب هو وولده أبو القاسم زار الذي ولي بعده وهو يومئذ
غلام وخرج معه خواصه ومواليه يريد المغرب وعليها زيادة الله فلما انتهى الى مصر لبث بها
مسترا بزى التجار وكان العامل على مصر يومئذ عيسى النوشري فأثته الكتب من الخليفة
بصفتة وحليته والامر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه وكان بعض المقرّبين من مجلس عيسى
النوشري متشيعا فأخبر عبيد الله بخبر القبض عليه وأشار عليه بالانصراف فرحل عن مصر
مع أصحابه ومعه من الاموال شيء كثير فأوسع النفقة على من صحبته وفرق عيسى النوشري
الرسول في طلب المهدي المذكور وعلم بخروجه فخرج خلفه في عسكر فلحقه وقد نزل ببستان
فلما رآه لم يشك فيه فقبض عليه ووكّل به فلما حضر الطعام دعا ليا كل فأعلمه أنه صائم
فرق له وقال له أعلمني بحقيقة حالك حتى أطلقك فخوفه بالله تعالى وأنكر حاله وما زال يعظ
النوشري ويخوفه الله ويتلطّفه حتى رقى له وأطلقه وخلّى سبيله وقيل انه أعطى النوشري
مالا جزيلا حتى أطلقه وعلم أصحاب النوشري بما جرى فرجعوا على النوشري باللوم وعنفوه
على اطلاقه فندم وسير خلفه سرية من العسكر وكان المهدي لما لحق بأصحابه رأى ابنة أبا
القاسم قد ضيع كلبا كان يصيد به وهو يبكي عليه فعرفه عبيده أنهم تركوه في البستان
الذي كانوا فيه فرجع المهدي في طلب الكلب حتى دخل البستان ومعه جماعة من علماء
فراهم النوشري فسأل عنهم فميسل فلان قد عاد بسبب كذا وكذا فقال النوشري لأصحابه
فحكّم الله أردتم أن تحمّلوني على قتل هذا الرجل حتى آخذوه فلو كان يطلب ما يقال أو كان
مرييا لكان يطوى المراحل ويخفي نفسه ولا كان رجوع في طلب كلب وتركه

واتسعت شهرة أبي عبيد الله بعد ذلك وكثرت جوعه فتقرّوت بهم عزيمته وكان في غضون
هذه الحوادث قد عاث أبو عبد الله الشيعي بالمغرب وأكبر الدعوة الى المهدي عبيد الله بن القداح
وقتل ونهب وفتح عدّة بلاد من افريقية مثل ميلا وسطيف وطينة ومدينة بلزمة ودار ملوك
ومدينة تيجس وبأغاية وأنكجان ومجانة وتيفاش ومسكينة وتبسة ومدبرة ومرججة والقصرين
وقسطيلة وغير ذلك من المدن والبلدان وأخرج أبو عبيد الله العمال الى تلك البلاد وطلب أهل
الشر والفساد فقتلهم وأمر أن يجمع ما كان لزيادة الله من الاموال والسلاح وغير ذلك
وكان زيادة الله قد هرب الى ديار مصر فاجتمع له شيء كثير وفيه كثير من الجوارى لهن مقدار

وحظ من الجمال فوكل بهن امرأة سالحة كانت لزيادة الله ولم ينظر الى واحدة منهن ولما
 استقر بالقيروان وحضرت الجمعة أمر الخطباء بأقامة الخطبة فيها وفي رقادة فخطبوا ولم يذكروا
 أحدا وأمر بضرب السكة ولم ينقش عليها اسم ولكنه جعل مكان الاسم من وجهه * بلغت
 حجة الله * ومن الوجه الآخر * تفرق أعداء الله * ونقش على السلاح * عتة في سبيل الله
 ورسم الخيل على أنفاها * الملك لله * وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن
 والقليل من الطعام الغليظ وبتغلب أبي عبد الله على هذه المدن والامصار زال ملك بني
 الاغلب وملك بني مدرار من أفريقية وكان قد مضى على ملكهم ثلاثون ومائة سنة وهم
 منفردون بملك سلجماسه وزال كذلك ملك بني رستم من تاهرت ولهم ستون ومائة سنة تفردوا
 بتاهرت * وجاء عبيد الله المهدي وولده أبو القاسم بدعوة من أبي عبد الله الشيعي فدخل
 القيروان بعد أمور أضربنا عن إيرادها هنا وأبو عبد الله الشيعي ورؤساء كلمة مشاة بين يديه
 وولده خلفه ونزل بقصر من قصور رقادة وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد
 ولقب بالمهدي أمير المؤمنين وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاء
 وأحضروا الناس بالعنف والشدة ودعوهم الى مذهبهم فمن أجاب أحسن اليه ومن أبي حبس
 فلم يدخل في مذهبهم الا القليل وقتل كثير ممن لم يوافقهم على قولهم وقسم على وجوه كلمة
 أعمال أفريقية ودون الدواوين وجبي الاموال واستقرت قدمه ودانت له أهل البلاد وقتل
 أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس لامور لاموضع لذكرها هنا * وتافت نفسه الى فتح الديار
 المصرية وضمها الى مملكته الواسعة فاستشار جماعة من قواده في ذلك فأشاروا عليه بالفتح
 وهزئوا عليه الامر وكشفوا له عما أصاب الخلافة العباسية من الوهن وما هي عليه من قرب
 الزوال * فلما كانت سنة احدى والثمانمائة هجرية جهز المهدي جيشا عظيما وسيره من أفريقية
 مع ولده أبي القاسم الى الديار المصرية فقصده برقة واستولى عليها في ذى الحجة وسار الى مصر
 فلما كونا الاسكندرية وساروا منها الى الفيوم فملكها وصار في يده أكثر ما جاورها من البلاد
 فضيق عليها وشدت على أهلها ووردت الاخبار بذلك الى الخليفة المقتدر بالله العباسي فأكبرها
 وأعظمها جدا وسير نخلاص البلاد مؤنسا الخادم في جيش عظيم فالتقى بأبي القاسم وجيوشه
 واقتتلوا قتالا عنيفا فظفر بهم مؤنس وهزمهم شرهزيمة فعادوا الى المغرب مهزومين وعلم
 المهدي بما جرى لهم فبجيش جيشا آخر وسيره مع قائد من قواده يقال له حباسة الى الاسكندرية
 في البحر فسنزل عليها وقتلتها وتغلب عليها ثم سار منها الى مصر ونزل بين مصر والاسكندرية
 وجاء الخبر بذلك الى المقتدر فأرسل مؤنسا الخادم في عسكر الى مصر لقتال حباسة وأمدته بالسلاح
 والمال فسار اليها فالتقى العسكران في جمادى الاولى فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين
 خلق كثير وجرح خلق واشتد القتال وتعددت الوقائع وجمدت أصحاب مؤنس في قتال المغاربة
 حتى هزمهم شرهزيمة وتبعوهم بالقتل والاسر فكان مبلغ القتلى على ما قاله صاحب الكامل
 سبعة آلاف مع الاسرى وهرب الباقيون وكانت هذه الواقعة في سلج جمادى الآخرة من

السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة وعادوا الى المغرب فلما وصلوا الى المغرب قتل المهدي حياسة أمير تلك الجيوش ومع ذلك لم تفتر للمهدي عزيمة ولم يتحول عن عزمه من أخذ مصر عنوة واشتد عليه هذا الامر وأقلقه جدا فلما كانت سنة سبع وثلثمائة جهز المهدي جيشا عظيما تحت رئاسة ابنه أبي القاسم وسيّره الى مصر فوصل الى الاسكندرية في ربيع الآخر من السنة فرحل عامل المقتدر عنها لعدم قدرته على القتال فدخلها أبو القاسم وسار الى مصر فدخل البحيرة وملك الأشمونين وكثيرا من الصعيد ووردت الاخبار بذلك الى الخليفة المقتدر فبعث مؤنسا الخادم في شعبان لردّ أبي القاسم وجنوده عن البلاد فحصل بينه وبين أبي القاسم عدة وقعات ووصل من أفريقيا ثمانون مركا بنجدة لابن القاسم وعليها سليمان الخادم ويعقوب الكتاني وهما أشجع قواد المهدي وجاء الخبر بذلك الى الخليفة المقتدر بالله فأمر بأن تسير مراكب طرسوس اليهم فسارت خمسة وعشرون مركا وفيها النفط والعدد ومقدمها أبو اليمين فالتقت السفن بالسفن واقتتلوا على رشيد فظفر أصحاب مراكب المقتدر وأحرقوا كثيرا من مراكب أفريقيا وهلك أكثر أهلها وأسروا منهم كثير وفي الأسرى سليمان الخادم ويعقوب فقتل من الأسرى كثير وأطلق كثير ومات سليمان في الحبس بمصر وحمل يعقوب الى بغداد ثم هرب منها وعاد الى أفريقيا واشتد مؤنس الخادم قائد جيوش المقتدر بالله وألح في قتال أبي القاسم ومن معه حتى ظفربه وقهره فجاءه مرسوم الخليفة بالتشريف ولقب المظفر ووقع الوفاء أيضا في عسكر أفريقيا وكذلك الغلاء فلت منهم كثير من الخلق والخليل فعاد من سلم الى أفريقيا وسار عسكر مصر في أثرهم حتى أجلوهم عن البلاد

فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة هجرية مات أبو محمد عبيد الله المهدي في ربيع الاول فأخني ولده أبو القاسم خبر موته سنة لتدبير كان له وكان يخاف أن يختلف الناس عليه اذا علموا بموته وكان عمر المهدي لما توفى ثلاثا وستين سنة وكانت خلافته منذ دخل رقادة ودعى له بالامامة الى أن مات أربعين سنة وشهرا وعشرين يوما * فقام بالامر بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان أبوه قد عهد اليه ولقب بالقائم بأمر الله فلما استتب له الامر ودانت له المملكة هم بفتح ديار مصر فحشد جيشا عظيما وسيّره اليها مع خادمه زيدان وبالغ في النفقة عليه فدخلوا الاسكندرية وكان المتولى على ديار مصر في هذا الحين محمد الاخشيدي فأخرج لقتالهم جنودا فقاتلهم وهزموا المغاربة وقتلوا فيهم وأسروا خلقا وعاد المغاربة مغلوبين وبقي الحال في سكون والقائم لا يبدي حراكا الى أن كانت سنة أربع وثلاثين وثلثمائة مات القائم بأمر الله ثلاث عشرة مضت من شوال * فقام بالامر بعده ابنه اسمعيل ولقب بالمنصور بالله وكنم خبر موت أبيه لسبب الفتنة القائمة وخروج المدعو أبا يزيد وكان المنصور شهما شجاعا حسن التدبير فضبط أركان الملك وأحسن تدبير البلاد فبلغت شهرته مبلغا عظيما وما زال يتصرف حتى مات سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة للهجرة بالمهدية فكان ثالث من ظهر ومان من هذه العائلة بالمغرب * فقام بالامر بعده ولده المعز لدين الله أبو تميم معد وهو أول ملوكهم

الاحد عشر بديار مصر فلما تمت له البيعة وصفت له الامور تاقت نفسه الى فتح ديار مصر
والنغلب عليها وقد طمع فيها * وكان لما مات كافور الاخشيدي لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه
فاختلفت عند ذلك كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وافتتنوا أو كادوا وأصابهم في ذلك الحين
غلاء شديد ثم حط ثم وباء أفنى من الخلق ما لا يكاد يدخل تحت الحصر فلما بلغ ذلك المعز أبا
نعم طمع في فتحها وكثرت رغبته في ذلك فجهز القائد أبا الحسن جوهر غلام والده المنصور وهو
رومي في مائة ألف مقاتل فبرز جوهر الى رمادة وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال
وصار المعز يخرج اليه في كل يوم وأطلق يده في بيت ماله يحكي أن المعز خرج يوما الى
معسكر جوهر فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع القواد وكبار القوم الذين خرجوا مع الجيش
فنظر المعز اليهم وقال والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ووالله لتدخلن ديار مصر
بالوردية من غير حرب ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا
وأمر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وجعلها مع جوهر على الجمال ظاهرة وأمر أولاده
واخوته وولى عهده أن يسيروا في ركاب جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم
اذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة في خدمته فالتحدر جوهر بجيوشه ونزل برقة فتقدم
اليه صاحبها بمخمسين ألف دينار ذهباً فداء من ترحله ومشيه في ركابه فرده جوهر عليه
وقال لا بد من العمل بما أمر به أمير المؤمنين فشى صاغرا وكان خروج جوهر من القيروان
في رابع عشر ربيع الاول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فهناك الشعراء يوم خروجه وودعه
بكار الدولة وبالغوا في تعظيمه * ومدحه محمد بن هاني الشاعر بقصيدة منها هذه الايات

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع * وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كان الافق سـدـةً بمثله * فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر اذ ودعت كيف أودع * ولم أدر اذ شيعت كيف أشيع

الى أن قال

اذا حل في أرض بناها مسدائنا * وان سارعن أرض غدت وهي بلقع
تحل بيوت العز حيث محله * وجم العطايا والرواق المرفوع
رحلت الى الفسطاط أول رحلته * بأيمن قال بالذي أنت تجمع
فان يك في مصر ظمأ لسورد * فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ووصل جوهر عن معه من الجيوش الى مصر فلما اتصل خبر وصوله هربت العساكر
الاخشيديية على وجوههم فقتل بالجيزة في سابع عشر شعبان من السنة فخرج الناس للقائه
واجتمع سائر الامراء وبينهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان وعبروا النيل الى الجيزة
والتقوا بالقائد ونادى مناديه فقتل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وسلموا عليه
واحدا واحدا والوزير عن شماله والشريف عن يمينه ثم دخل بجيوشه البلد من وقت
الزوال بسلاحهم وعددهم وكراعهم وطبولهم وبنودهم ونزلوا فيما هو موضع القاهرة اليوم

ثم سار الى القسطنطينية ونزل فيه بعسكره وخطب للعزيز يوم الجمعة على منابر مصر وسائر أعمالها وأمر أن يزداد عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا اللهم صل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين » وأمر المؤذنين بجماع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحمى على خبير العمل فشق ذلك على الناس ولكنهم ما استطاعوا له ردا وشرع في بناء القاهرة للجند والقصرين والجامع الأزهر وأرسل بشيرا الى المعز يبشره بفتح مصر واقامة الدعوة له بها ويطلبه اليها وقد بدأ ببناء القاهرة في سنة تسع وخسين وثلاثمائة للهجرة فلم تأت سنة احدى وستين حتى تم بناؤها * قال بعض الكتاب وقد كانت البقعة التي ابنتى فيها القاهرة والقصرين والجامع بقعة رملية فيما بين القسطنطينية وعين شمس لا ثرى فيها الا بعض البساتين منها بستان الاخشيدي شرقى الخليلج وميسان الاخشيدي ودير للنصارى من أهل البلاد كان يسمى دير العظام فيه بئر لا يزال باقيا يعرف بئر الجامع الاقر وتسميه العامة بئر العظمة وكان في تلك البقعة أيضا موضع يعرف بقصر الشولك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشولك

ولما استقر بجوهر المقام بمصر وثبتت قدمه سير جعفر بن فلاح الكتانى الى الشام في عسكر عظيم فبلغ الرملة وبها أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج فقاتله في ذى الحجة من السنة اى سنة ثمان وخسين وثلاثمائة واشتد ابن فلاح في قتاله وألح فكانت بين الفريقين حروب كان الظفر فيها لابن فلاح وأسر ابن طغج وغيره من كبار القواد وسيرهم الى جوهر القائد بمصر فبعث بهم جوهر الى المعز بافريقية ودخل ابن فلاح الرملة عنوة فقتل ونهب وسبي ثم آمن من بقى من أهلها وجبى منهم الخراج وسار الى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام الدعوة للمعز لدين الله فسار عنها الى دمشق فامتنع عليه أهلها وقائلوه فقاتلهم وألح في قتالهم حتى ظفر بهم وملك البلد ونهب بعضه وأقام الخطبة للعزيز يوم الجمعة لايام خلت من المحرم سنة تسع وخسين وقطعت الخطبة العباسية * قال صاحب الكامل * وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمى وكان جليل القدر نافذ الحكم فى أهلها فجمع أجدانها ومن يريد الفتنة وثار بهم فى الجمعة الثانية وأبطل الخطبة للمعز لدين الله وأعاد خطبة المطيع لله ولبس السواد وعاد الى داره فقاتله جعفر بن فلاح ومن معه قتالا شديدا وصبر أهل دمشق ثم افترقوا آخر النهار فلما كان الغد تراحم الفريقان واقتتلوا ونشبت الحرب بينهما وكثرت القتلى من الجانبين ودام القتال فعاد عسكر دمشق منهزمين والشريف ابن أبي يعلى مقيم على باب البلد بخرص الناس على القتال وبأمرهم بالصبر وواصل المغاربة الحملات على الدماشق حتى ألجؤهم الى باب البلد ووصل المغاربة الى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا فلما رأى ابن أبي يعلى الهاشمى والاحداث ما لقي الناس من المغاربة خرجوا من البلد ليلا فأصبح الناس حيارى فدخل الشريف الجعفرى وكان قد خرج من البلد الى جعفر

ابن فلاح في الصلح فاعاده وأمره بتسكين الناس وتطبيب قلوبهم ووعدهم الجليل ففعل ما أمره
 وتقدم الى الجند والعامه بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها الى أن يدخل جعفر بن فلاح
 البلد ويطوف فيه ويعود الى عسكره ففعلوا ذلك قال فلما دخلت المغاربة البلد عاثوا فيه
 ونهبوا قطرا منه فثار الناس وجاؤا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتلوا منهم جماعة وشرعوا
 في تحصين البلد وحفر الخنادق وعزموا على اصطلاء الحرب وبذل النفوس في الحفظ وأجمت
 المغاربة عنهم ومشى الناس الى الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى فطلبوا منه أن يسعي فيما
 يعود بصلاح الحال ففعل ودرّ الحال الى أن تقرر الصلح يوم الخميس لست عشرة خلت من
 ذى الحجة سنة تسع وخسين وثلثمائة وكان الحريق قد أتى على عدة كثيرة من الدور وقت
 الحرب * وأدخل صاحب الشرطة جعفر بن فلاح البلد يوم الجمعة فصلى مع الناس وسكنهم
 وطيب قلوبهم وقبض على جماعة من الاحداث في المحرم سنة ستين وثلثمائة وقبض على
 الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى الهاشمي المذكور وسيره الى مصر واستقر أمر دمشق للعز
 لدين الله اه * وجاء الخبر بما وقع بدمشق من القتل والنهب الى الحسين بن أحمد بن بهرام
 القرمطي صاحب القرامطة وأن ابن فلاح ملك البلد وقتل ابن طغج فاهمه هذا الخبر وأقلقه
 هو وأصحابه وأزعجهم جدا وذلك لانه كان قد تقرر بينهم وبين ابن طغج أن يحمل اليهم ابن
 طغج المذكور ثلثمائة ألف دينار نقرة في كل سنة فلما ملك ابن فلاح الشام علموا أن المال
 يفتتهم فزعموا على قصد الشام وأرسل صاحبهم الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطي الى عز
 الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابته الى ذلك فساروا الى دمشق في ذى
 القعدة من السنة في عدة عظيمة وبلغ خبرهم الى جعفر بن فلاح فاستهان بهم ولم يحترز منهم
 فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه ونهبوا أمواله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق
 وأمنوا أهلها وساروا الى الرملة فاستولوا على جميع ما بينها وبين دمشق فلما سمع من بها من
 المغاربة خبرهم ساروا عنها الى يافا فحصنوا بها وملك القرامطة الرملة وساروا الى مصر وتركوا
 على يافا من يحصرها فلما وصلوا الى مصر اجتمع معهم خلق كثير من العرب والجنس
 والاخشيدية والكافورية فاجتمعوا بعين شمس واجتمع عسكر جوهر القائد وخرجوا اليهم
 فانتلوا غير مرة كان الظفر في كل وقعة للقرامطة وحصروا المغاربة حصرا شديدا وخرج
 المغاربة يوما من مصر وجاؤا على ميمنة القرامطة فانهمز من بها من العرب وتلك اليوم
 وفسدوا سواد القرامطة فنهبوه فأضطروا الى الرحيل وعادوا الى الشام فنزلوا الى الرملة
 وحاصروا يافا وضيقوا على من بها فسير جوهر من مصر نجدة الى أصحابه بيافا ومعهم ميرة
 في خمسة عشر مركبا فخرجت مركبا القرامطة عليها فأسروا مركبا جوهر كلها ولم
 ينج منها غير مركبين فغنمهما الروم ثم كان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر في محله
 ولما وصل البشير الى المعز لدين الله وبشره بفتح الديار المصرية واقامة الدعوة لها وطلبه
 اليها فرح لا يوصف وسار من افر بيقية يريد الديار المصرية فكان أول مسيره أو اخرشوال

من السنة أى سنة احدى وستين وكان أول رحيله من المنصورية فأقام بسردانية وهي قرية قريبة من القيروان ولحقه بها رجاله وعماله وأهل بيته وجميع ما كان له في قصره من أموال وأمتعة وغير ذلك حتى ان الدنانير سبكت وجعلت كهيئة الطواحين وجعل كل طاحونتين على جبل وسار عن سردانية بعد مقام أربعة أشهر الى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه ثم رحل عنها الى مصر ونزل على بركة ومعه محمد بن هاني الشاعر الاندلسي وكان عند ما خرج المعز من القيروان يريد مصر مدحه ابن هاني المذكور بقصيدة طويلة مطلعها

تقول بنو العباس هل فتحت مصر * فقل لبي العباس قد قضى الامر

فأصبحوا وقد رأوا ابن هاني المذكور ملقى على جانب البحر قتيلا ولم يدروا من قتله وكان قتله أواخر رجب من سنة ائتين وستين وثلثمائة وكان من الشعراء المجيدين قال أهل الانتقاد ولكنه غالى في مدح المعز حتى كفره العلماء فن ذلك قوله

ما شئت لاما شاعت الاقدار * فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله * ولطالما زاجت تحت ركابه جبريلا * قال صاحب الكامل ومن ذلك ما ينسب اليه ولم أجد لها في ديوانه قوله

حصل برفادة المسيح * حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالي * فكل شئ سواء ريح

ورفادة اسم مدينة بالقرب من القيروان الى غير ذلك قال وقد تأول ذلك من يتعصب له والله أعلم اه ووصل المعز لدين الله الى الاسكندرية أواخر شعبان من السنة وأناه أهل مصر وأعياها فلقبهم وأكرمهم وأحسن اليهم وخطب بالاسكندرية خطبة بليغة وكان عن سار للقائه قاضى مصر أبو طاهر الذهلي فجلس الى جنبه فسأله المعز هل رأيت خليفة أفضل منى فقال لم أر أحدا من الخلائق سوى أمير المؤمنين فقال له أجبجت قال نعم قال وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وقبر أبي بكر وعمر قال القاضى فتصيرت ماذا أقول ثم نظرت فاذا ابنه قائم مع كبار الامراء فقلت شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولّى العهد ونهضت اليه وسلمت عليه فأفصح المجلس الى غيرى * وسار من الاسكندرية الى مصر فدخلها خامس رمضان سنة ائتين وستين وثلثمائة وأنزل عساكره مصر والقاهرة فى الديار وبقي كثير منهم فى الخيام ونزل هو بالقصرين فكانت أول حكومة انتهت اليه أن امرأة لكافور الاخشيدي تقدمت اليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلا من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوجا بالذهب وأنه سجد ذلك فاستحضره وفرره فأنكر اليهودى فأمر أن يفتش فوجدوا القباء قد جعله فى حرة ودفنها فى الارض فدفعه المعز اليها فتقدمت اليه وعرضته عليه فابى أن يقبله منها وردده عليها فاستحسن منه الحاضرون ذلك وامتدت مملكة المعز لدين الله من حلب الى بلاد المغرب الى مكة كما كانت دولة الخلفاء العباسيين فى أيامه ممتدة أيضا من بغداد وسائر الممالك الشرقية الى العراق وأعمالها

ولما كان أصحاب التاريخ على اختلاف في أصل نسب هذه العائلة أعنى بها الفاطمية وقد
أكثروا القول في ذلك وأطالوا الكلام واحتج كل فريق بحجة واستمسك بشئ من الأدلة على صحة
دعواه ولم تكن لتنتفع أيضا الى هذا الحين الخلافة من العباسيين وكان القائم بأمرها أمير
المؤمنين الخليفة العباسي المطيع لله أبو الفضل ابن الخليفة المقتدر يدعونه على المنابر في بغداد
وسائر الممالك الشرقية والعراقين وأعمالها وقد ورد في حديث صاحب الشريعة الاسلامية
النهي عن التعدد في الأئمة قوله ﷺ إذا بويع خليفتين فاقتلوا أحدهما ﷺ وكانت خلافة
الفاطميين لم تظهر لانقراض الخلفاء العباسيين والافتقار صلاحيتهم لحماية البيضة الاسلامية
ولا تعطيل وقع في الاحكام الشرعية المتعلقة بالامامة بل كان ظهورها بظهور جوهر الرومي
قائد العز المغربي المذكور وتغلبه على ديار مصر بعد موت كافور الاخشيدي واختلاف كلمة
أهل البلاد يومئذ فضلا عما قد كان أصابهم من الغلاء والقحط والوباء الشديد الذي لم يبق ولم يذر
فلذلك رأيت أن لا أتحوّل عن تتبع سني الخلافة العباسية بذكر مدة كل خليفة وما وقع فيها
من الحوادث وجعلها مبدأ كل مدة حتى تنقطع تماما اما بقيام من هو أحق بالخلافة وأولى
بالامامة وهذا بعيد لاسبيل اليه بعد انقراض العباسيين كما قاله المحققون من أهل السنة واما
بتغلب من هو أصح لحماية البيضة الاسلامية وأقدر على تنفيذ الاحكام الشرعية المتعلقة
بالامامة وهذا ليس ببعيد اذا كان المراد من الامامة في عرف المتأخرين اختيار الاصح للامامة
كما فعل جمهور المهاجرين السابقين من العقبات الثلاث وأصحاب المهجرتين والقبليتين وأهل بدر
وبينهم عربن الخطاب من اختيارهم لابي بكر الصديق ومبايعته بالخلافة دون سعد بن عباد
سيد قبيلة الاوس الذي اختاره الانصار والخزرجيون من الانصار ودون علي بن أبي طالب
ابن عم صاحب الشريعة وزوج ابنته فاطمة الزهراء وحينئذ ترجع في التاريخ اليه وتتبع
في ذكر الحوادث سني خلافته وهكذا من يأتي بعده من الخلفاء الى ماشاء الله * وأما المعز
لدين الله بن المهدي عبيد الله المغربي رأس هؤلاء الفاطميين بديار مصر فقد حسبناه في
عداد من ملأ قبله من الملوك لفتحها على يد جوهر قائد جيوشه وكذلك من يقوم بعده
من ولده الى أن يورثها الله من يشاء من عباده ولذلك فاني ذاكر هنا حوادث أيامهم واحدا
فواحدا في قلب مدة كل خليفة من الخلفاء العباسيين كمن سبقهم من النواب والملوك الى أيام
كافور الاخشيدي حتى لا يلبس الامر على القارئ بتعدد الخلفاء فيقوته الغرض والله الهادي
الى الصواب

(الفصل الرابع والعشرون)

(في خلافة أبي بكر بن عبد الكريم الطائع لله)

ثم قام بالامر بعد المطيع ولده عبد الكريم أبو بكر الطائع لله ببيع له بالخلافة يوم خلع أبوه نفسه من الخلافة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة هجرية أي سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ سبع وأربعون سنة فلم يل الخلافة من بني العباس من هو أكبر منه سنا * قال صاحب رأس مال النديم * ولم يتقلد الخلافة من أبوه حتى سوى الطائع لله والصديق رضی الله عنه وكلاهما اسمه أبو بكر اه تولى الخلافة وليس له منها سوى الاسم فقط لكن تقدم من العباسيين والامر يومئذ لابن بويه وغيره من الأتراك وكان ابن بويه هذا واسع الهيبة على الكلمة لم يبق للخليفة الطائع من مراسم الخلافة وأبهرها شيئا الا وحازه لنفسه فكان الخليفة يخافه جدا ويتحز من قربه الى بغداد ويعمل في السر على اعلاء كلمة بختيار وتجبب الخندق اليه وتزوج ابنة بختيار لتعظم بذلك شوكته وتكبر هيئته فاحس عضد الدولة بن بويه بما وراه ذلك وكتب الى عز الدولة بختيار المسد كور يدعوه الى طاعته وأن يسير عن العراق الى أي جهة أرادها وكان بختيار يومئذ على العراق فاستشار بختيار أصحابه في ذلك فاختلفوا عليه فكتب الى عضد الدولة بالاجابة الى ما يطلب وانما يريد المساعدة بما يحتاج اليه من مال وسلاح فاجابه عضد الدولة الى ذلك وأنفذ اليه خلعته وتجهز بختيار بما أنفذه اليه عضد الدولة وخرج من بغداد عازما على قصد الشام وسار عضد الدولة فدخل بغداد وخطب له بها * قال أصحاب التاريخ ولم يكن قبل ذلك يحط لاحد بها وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر أن يلقي الوزير أبو طاهر بن بقمية وزير عز الدولة بختيار بين قوائم الفيلة لتقتله وكان قد طلبه من عز الدولة قبل جلائه عن بغداد فسله اليه بعد أن قلع عينيه فداسته الفيلة حتى قتله ثم صلب على رأس الجسر فرأه أبو الحسين بن الانباري بمرثية لم يسمع في مصلوب مثلها وهي

علو في الحياة وفي الممات * لحق أنت احدى المعجزات
كان الناس حولك حين قاموا * وفود نذاك أيام الصلوات
كانت قائم فيهم خطيبا * وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم اقتفاء * كدهما اليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الارض عن أن * يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجوف قبلك واستعاضوا * عن الاكفان نوب الساقيات

لعظمتك في النفوس تبيت ترى * بحزاس وحفاظ ثقات
 ويوقد حولك النيران قوم * كذلك كنت أيام الحياة
 ركبت مطية من قبل زيد * علاها في السنين الماضيات
 وتلك قضية فيها تأس * تباعد عنك تعبير العداة
 ولم أر قبيل جذعك قط جذعا * تمكن من عناق المسكرات
 أسأت الى التوائب فاستثارت * فأنت قبيل نأر النائبات
 وكنت تبحرنا من صرف دهر * فعاد مطالبك بالثرات
 وصير دهرك الاحسان فيه * الينا من عظيم السيآت
 وكنت لعشر سعدة فلما * مضيت نفرقوا بالمنحسات
 غليل باطنك في فؤادي * حقيق بالدموع الجاريات
 ولو أني قدرت على قيام * بفرضك والحقوق الواجبات
 ملائت الارض من نظم القوافي * ونحت بها خلاف النائمات
 ولكنني أصبر عنك نفسي * مخافة أن أعدت من الجناة
 ومالك تربة فأقول تسقي * لانك نصب هطل الهاطلات
 عليك تحية الرحمن ترى * برجات غواد دائمات

قوله زيد علاها في البيت التاسع يعني زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
 لما قتل وصلب بأمر هشام بن عبد الملك بن مروان * وبقى ابن ببيعة المذكور مصلوبا
 الى أيام صمصام الدولة فأنزل ودفن وسار بختيار يريد الشام ليتخذها مقرا له وسار معه ابن
 ناصر الدولة بن حمدان أخو أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل فلما صار بن معهما
 بعكبرا حسن ابن حمدان الى بختيار المسير الى الموصل لكثرة أموالها وأطمعه فيها وقال انها
 خير من الشام وأسهل مأخذا فقال بختيار الى ذلك وسار نحوها فلما وصل الى تكريت
 أنه رسل أبي تغلب تسأله المصالحة وأن يقبض على أخيه حمدان ويسلمه اليه واذا فعل
 سار بنفسه مع عساكره اليه وقابل معه عضد الدولة وأعاد بغداد الى ملكه فأجابهم بختيار
 الى ذلك وقبض على ابن حمدان وسلمه الى رسل أبي تغلب فحبسه في قلعة وسار بختيار الى
 الموصل والتقى بأبي تغلب وساروا جميعا نحو العراق وكانت جند أبي تغلب زهاء العشرين
 ألفا فلما جاء الخبر بذلك الى عضد الدولة قام من بغداد في جيش عظيم وسار نحوهما فالتقوا
 بفصر الحصن على مقربة من تكريت واقتتلوا قتالا عنيفا فهزمهما شرهزيمة وأسر بختيار
 وأحضر عنده وقتل من أصحابه خلق كثير واستقر ملك عضد الدولة بعد ذلك ببغداد ثم سار
 الى الموصل فملكها وملك ما يليها فهرب أبو تغلب ومعه نساؤه وأولاد بختيار فسير عضد
 الدولة الجند في طلبه فلم يدر كوه وصار ينتقل من بلد الى بلد والجند في أثره حتى أعياهم
 القبض عليه ثم سار الى دمشق ومعه نساؤه يريد النزول عند العزيز صاحب مصر فلم يمكنه

عامل دمشق من الدخول فوَقعت بينه وبين أصحاب العزيز وقائع كثيرة انكشفت عن هزيمته وأسروه فقطعوا رأسه وبعثوا به إلى العزيز بمصر فشهروه

وصفت الأمور لعضد الدولة فعمد إلى عمارة بغداد وكانت قد تخربت بتوالي الفتن فرم مساجدها وأسواقها وأدّر الاموال على الأئمة والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد وألزم أصحاب الدور الخراب بعمارته وجدد ما دثر من الأنهار وأعاد حفرها وأطلق مكوس الخجاج وأصلح الطريق من العراق إلى مكة وأطلق الصلوات لاهل البيوتات والشرف والضعفاء والمجاورين بمكة والمدينية واطمأنت قلوب الناس بعد تراكم الفتن وتوالي المحن وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسائين والاطباء والحساب والمهندسين وأذن لوزيره نصر بن هارون وكان نصرانياً ببناء الديارات وعمارة البيع واطلاق الاموال للفقراء من النصارى فأحبه الناس ومالوا إليه كثيراً واتسعت شهرته وعظم ملكه فكان له العراق وكرمان وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحوارن وصبيح وهو أول من سمى ملكاً في الاسلام ومال إليه الخليفة الطائع كرها وتزوج ابنته وكان غرض عضد الدولة من تزويج ابنته للطائع أن تلد له ذكراً فيجعله ولي عهده فنكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب وكان الصداق مائة ألف دينار فزفت إليه ومعها من الجواهر والحلي شئ لا يحصى وما زال عضد الدولة يتصرف في الأمور ويفتح الفتوحات العظيمة ويغزو ويقاتل كل من خالفه حتى وافته منيته في شوال سنة اثنين وسبعين وثلثمائة وكان به الصرع مات ببغداد وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فدفن به وكانت ولادته ببغداد خمس سنين ونصفاً قبل ولما احتضر جعل يقول ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ولم ينطق لسانه بغير هذه الآيات * ومما يحكى عنه أنه خرج يوماً إلى بستان له متنزها فقال ما أطيب يومنا هذا لو ساعدنا فيه الغيث فجاء المطر في الوقت فأئسد يقول

ليس شرب الراح الا في المطر * وغناء من جوار في السحر
ناعمات سـالبات للهنى * فاعتمات في تضاعيف الوتر
بارزات الكاس من مطلعها * ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها * ملك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بغيتـه * في ملوك الأرض ما دار القدر
وأراه الخـير في أولاده * لباس الملك منهم بالغرر

قبل فلم يفلح بعد هذه الآيات وعوجل بقوله غلاب القدر * فلما مات قام بالامر بعده واده الامير صمصام الدولة نخلع عليه الخليفة الطائع لله وقلده ما كان بيد أبيه ولم تستقر به الولاية حتى قام عليه أخوه شرف الدولة وقبض عليه واعتقله وأحاط بدوره وأمواله ببغداد وجعل هو يتصرف في الامور حتى اعتل وانقطع عن الناس فأشار عليه بخير الخادم بقنبل

أخيه صمصام الدولة فكان يعرض عن كلامه فلما اشتدت علته ألح عليه فخرير وقال له ان الدولة معه على خطر فان لم تقتله فاسمه فأرسل في ذلك محمدا الشيرازي الفراش فمات شرف الدولة قبل أن يصل الفراش الى حيث صمصام الدولة فتأخر الفراش عن سمله واستشار أبا القاسم العلاء بن الحسن السانظر في ذلك فأشار عليه بسمله فسمه فكان صمصام الدولة يقول ما أعماني الا العلاء لانه أمضى في حكم سلطان قد مات

ويوفي شرف الدولة مستهل جمادى الآخرة وحمل الى مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فدفن به فكانت امارته سنتين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانيا وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان قد سير ولده أبا علي الى بلاد فارس وأصحبه بالخزائن والعدد والعسكر الكثير من الأتراك فلما اشتدت علته وأيس أصحابه منه دخل عليه كبارهم يسألونه أن يوفى أحدا فقال أنا في شغل عما تدعونني اليه فقالوا له مر أهلك بهاء الدولة أبا نصر أن ينوب عنك الى أن تعافى لثلاث ثمور فتنسه فقال لكم ذلك فاستدعى أخاه وكله في ذلك فتوقف بهاء الدولة وامتنع عن قبول الوكالة ثم أجاب فلما مات شرف الدولة جلس بهاء الدولة في المملكة وقعد للجزاء وركب الطائع لله الخليفة الى العزاء فلتقاء بهاء الدولة وقبل الارض بين يديه فخلع عليه الطائع خلع السلطنة وجعل يتصرف في الامور فكان قليل الخبز سي الطالع كثير شغب الجند عليه وقتال بعضهم لبعض وطلبهم للجماكي والمرتبات وما زالت الاحوال في اختلال والجند في تمرد وخروج حتى كانت سنة احدى وثمانين وثلثمائة هجرية فعظم شغب الجند عليه وظهرت الفتنة وطالبوه بالجماكي وقد قلت عنده الأموال فقبض على وزيره سابور واستصنى ماله فلم يغن عنه ذلك شيئا وكان أبو الحسين المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم في مملكته فحسن له القبض على الخليفة الطائع لله وأطمعه في ماله وهون عليه ذلك فمال بهاء الدولة الى ذلك وأرسل الى الطائع وسأله الاذن في الحضور في خدمته ليحدد العهد به فأذن له بذلك وجلس له على عادة الخلفاء فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما دخل قبل الأرض وجلس على كرسي فدخل بعض الديلم كأنه يريد يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا اليه راجعون وهو يستغيث ولا يلتفت اليه وأخذوه وأخذوا ما في داره من الذخائر وشاع خبر القبض عليه فافتن الناس ونهب بعضهم بعضا وكان من جلتهم الشريف الرضي فبادر بالخروج فسلم وقال أبياتا من جملتها

من بعد ما كان رب الملك مبسما * الى أدنوه في التجسوى ويديني
أمسيت أرحم من قد كنت أعبطه * لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء بضحكني * يا قرب ما عاد بالضراء بيكييني
هيئات أعتر بالسلطان ثمانية * قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما وصلوا بالطائع الى دار بهاء الدولة عقد لحضوره مجلسا وأشهد عليه بالخلع فخلع

كارها فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام وكان أبيض مربوعا حسن
 الجسم وكان أنفه كبيرا جدا وكان شديد القوة كثير الأقدام
 وامتدت أيام المعز لدين الله العلوي الى خلافة الطائع لله فلما دانت له الامور وقت
 عليه نعمة الله تحرك القرامطة وناقت نفس مقدمهم حسن بن أحمد الى غزو ديار مصر
 واستخلاصها من المعز لدين الله فسار في سنة ثلاث وستين وثلثمائة هجرية من الاحساء في
 جوع كثيرة الى ديار مصر فخصرها ووردت الاخبار بذلك الى المعز فأكب هذا الامر وأعظمه
 جدا وكتب الى حسن بن أحمد القرمطي كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة
 واحدة وأن القرامطة انما كانت دعوتهم اليه والى آباءه من قبله ووعظه وبالغ في تهديده
 فلما وصل كتاب المعز الى حسن بن أحمد كتب جوابه * وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر
 تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام * وسار حتى نزل على عين شمس بعسكره
 وأتت القتال وبث سرايا في البلاد ينهبونها فكثرت لذلك جوعه وجاهه من طوائف
 العربان خلق كثير * قال صاحب الكامل وكان ممن أتاه حسن بن الجراح الطائي أمير العرب
 بالشام ومعه جمع عظيم فلما رأى المعز كيرة جوعه استعظم ذلك وأهمه وتحسير في أمره ولم
 يقدم على اخراج عسكره لقتاله فاستشار أهل الرأي من نصحاءه فقالوا ليس حيلة غير السبي
 في تفريق كلمتهم والقاء الخلف بينهم ولا يتم ذلك الا ببن الجراح فراسله المعز واستماله وبذل
 له مائة ألف دينار ان هو خالف على القرمطي فأجاب ابن الجراح الى ما طلب منه فاستخلفوه
 خلف انه اذا وصل اليه المال المقرر انهزم بالناس فاحضروا المال قال فلما رأوه استكثروه
 فضربوا أكثرها دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها في أسافل الاكياس وجعلوا الذهب
 الخالص على رؤسها وحمل اليه فأرسل الى المعز أن يخرج في عسكره يوم كذا ويقا تلونه وهو
 في الجهة الفلانية فانه ينهزم ففعل المعز ذلك فانهزم وتبعه العرب كافة فلما رأى الحسن
 القرمطي منهزما تحير في أمره وثبت وقابل بعسكره الا أن عسكر المعز طمعوا فيه واتبعوه
 بالجملات عليه من كل جانب فارهقوه فولى منهزما واتبعوا أثره وظفروا بعسكره فأخذوا من
 فيه أسرى وكانوا نحو ألف وخمسمائة أسير فضربت أعناقهم ونهب ما في المعسكر وبرد
 المعز القائد أبا محمد ابراهيم بن جعفر في عشرة آلاف رجل وأمره باتباع القرامطة والابقاع
 بهم فاتبعهم وتناقل في سيره خوفا أن ترجع القرامطة اليه قال وأما هم فانهم ساروا حتى نزلوا
 أذرعات وساروا منها الى بلدهم الاحساء ويظهرون أنهم يعودون اه وما زال القائد أبو محمد
 ابراهيم بن جعفر سائرا بن معه من العسكر حتى دخل دمشق وكان المعز ولى القائد ظالم
 ابن موهوب العقيلي عليها قبل وصول أبي محمد اليها بقليل فخرج ظالم للقاء أبي محمد مسرورا
 بقدمه لانه كان مستعرا من عود القرامطة اليه وطلب منه أن ينزل بعسكره بظاهر
 دمشق فنزل ولم يستقر به المقام حتى تناولت أيدي أصحابه بالعبث والفساد وقطع الطريق
 فاضطرب الناس وكادوا يقتلون وانفق أن صاحب الشرطة أخذ انسانا من أهل البلد

فقتله فثار به الغوغاء والاحداث وخرجوا عليه وقتلوا أصحابه وكادت الفتنة تم البلاد فجعل
ظالم يدارى الناس ويهون عليهم واتصل عبث أصحاب أبي محمد بالقرى فتزح أهلها وفارقوها
ودخلوا البلد وهم يضجون من جور المغاربة فلما كان منتصف شوال من السنة قامت
الفتنة بين أهل دمشق والمغاربة عسكر المعز وعظمت وجرى بين القريقين قتال شديد ودام
الحال على ذلك من القتل والنهب وحرق الدور وتخريب القرى الى ربيع الآخر سنة أربع
وستين وثلثمائة الى أن جاء مرسوم المعز لدين الله الى أبي محمد بالعزل والتخلي عن قيادة من
كان معه من الجنود فاعتزل المنصب وورد مرسوم المعز الى القائد ريان الخادم والى طرابلس
بأمره بالمسير الى دمشق لمشاهدة حالها وكشف أمور أهلها بعد الذي ذاقوه من هذه
الحروب والمحن وأن يصرف القائد أبا محمود عنها فسار ريان الى دمشق وكشف الامر فيها
وكتب به الى المعز وتقدم الى القائد أبي محمود بالانصراف فسار في جماعة قليلة من العسكر
الى الرملة وبقي الامر كذلك الى أن ظهر الفتكين أبو منصور التركي بظاهر دمشق يريد
غزوها وأخذها من المعز لدين الله والفتكين هذا من موالى معز الدولة بن بويه قد كان
خرج على مولاة بختيار بن معز الدولة وعصاه وقاتل مولاة بختيار فهزمه بختيار ومزق
جوعه فهرب في جماعة قليلة من أصحابه وكلهم أهل نجدة وقوة ودوخ بعض مدن
الشام وما زال وقد هابه العرب وتخوفوا منه حتى نزل على دمشق يريد غزوها وكان نزوله
عليها في إبان ظهور الفتنة وتغلب الاحداث عليها حتى لم يسبق للاعيان معهم حكم ولا
للسلطان عليهم طاعة فلما واقاها خرج اليه أشرافها وشيوخها وأظهروا له الفرح بقدمه
وسألوه أن يتزل عندهم ويملك بلدهم ويزيل عنهم سمة المصريين فأجابهم الى ذلك واستخلفهم
على الطاعة والمساعدة وحلف لهم على الحماية وكف الاذى عنهم ومن غيره ثم دخل
البلد بمن معه من الجنود وأزال عنه ريان عامل المعز لدين الله وقطع خطبة المعز وخطب
للخليفة الطائع لله وقع أهل العسف والفساد فهابه الناس وخافوه جدا وكانت العرب قد
استولت على سواد البلد وما يتصل به فأوقع بهم وقتل كثيرا منهم فأذعنوا له وقد ظهرت
لهم شجاعته وعزة نفسه وكتب الى المعز لدين الله يداريه ويظهر له الطاعة فمدحه المعز
وأرسل يستقدمه عنده ليخضع عليه ويوليه من جانبه فتخوف الفتكين من ذلك وامتنع
من السير فتجهز المعز وجمع العساكر لقصدته فلم يتم له ذلك حيث وافته منيته وهو على قدم
السيرفات في سابع عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة وله من العمر خمس
وأربعون سنة وستة أشهر تقريبا * قال صاحب الكامل وكان سبب موته أن ملك الروم
بالقسطنطينية أرسل اليه رسولا كان يتردد اليه بأفريقية فخلا به بعض الايام فقال له المعز
أذكر اذ أتيتني رسولا وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن علي وأنا بمصر مالكا لها قال نعم
قال وأنا أقول لك لتدخلن علي ببلاد وأنا خليفة فقال له الرسول ان أمتني على نفسي
ولم تغضب قلت لك ما عندي فقال له المعز قل وأنت آمن قال بعثني اليك الملك ذلك العام

فرأيت من عظمتك في عيني وكثرة أصحابك ما كدت أموت منه ووصلت الى قصرك فرأيت
 عليه نورا عظيما غطى بصري ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقا فلو قلت
 لي انك تعرج الى السماء لتحقق ذلك ثم جئت اليك الآن فما رأيت من ذلك شيئا أشرفت
 على مدينتك فكانت في عيني سوداء مظلمة ثم دخلت عليك فما وجدت من المهابة ما وجدته
 ذلك العام فقلت ان ذلك كان أمرا مقبلا وانه الآن بضد ما كان عليه قال فأطرق المعز
 وخرج الرسول من عنده وأخذت المعز الحمي لشدة ما وجد واتصل مرضه حتى مات فكانت
 ولايته ثلاثا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام منها مقامه بمصر سنتان وتسعة أشهر
 والباقي بأفريقية وهو رأس العائلة الفاطمية بديار مصر وكان شهما حازما مغريا بالنجوم لا
 يعمل الا بأقوال المنجمين قال له منجمه ان عليه قطعا في وقت كذا وأشار عليه بعمل سرداب
 يخفى فيه الى أن يجوز ذلك الوقت ففعل ما أمره وأحضر قواده وبنو دولته فقال لهم ان
 بيني وبين الله عهدا أنا ماض اليه وقد استخلفت عليكم ولدي تزارا يعني العزيز فاسمعوا له
 وأطيعوا ثم نزل السرداب فكان أحد المغاربة اذا رأى صحابا نزل عن دابته وأومأ بالسلام
 اليه نظنا منه أن المعز فيه فغاب سنة ثم ظهر وبقي مدة ثم مرض وتوفي فستر ابنه العزيز
 خبر موته الى عيد النحر من السنة فصلى بالناس وخطبهم ودعا لنفسه وعزى يابيه
 وكان المعز عالما فاضلا جوادا شجاعا حسن التدبير عهد في أيامه الى يعقوب بن
 يوسف بن كاس خراج مصر وجميع وجوه الاموال والحسبة والاعشار وجميع ما يضاف الى
 ذلك من سائر الاعمال وقد كان يعقوب هذا يهوديا من بغداد جاء الى مصر في أيام كافور
 الاخشيدي وأسلم بها فعرفه كافور وقربه من مجلسه وولاه بعض المناصب العالية فظهرت
 كلمته واتسعت شهرته وما زال الى أن دخل جوهر مصر فعرف يعقوب المذكور وأقره على ما
 بيده من الاعمال حتى قلده المعز الخراج وضم اليه عسلاج بن الحسن وكتب لهما المعز سجلا
 بذلك فجلسا في جامع ابن طولون واتخذاه دارا للامارة والنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال
 فحضر الناس للقبالات وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين أي الملتزمين والمالكين والعمال
 واستقصيا الطلب ونظرا في المظالم فكثرت موارد الاموال وزيد في الضياع وكثر الناس
 وتكاثفوا وحسنت أحوال البلاد ودرت الارزاق وعم الاخذ والعطاء سائر البلاد وبني
 يعقوب على هذا الحال من النقض والابرام في أمور السلطنة حتى مات المعز * يحكى عن
 المعز أنه لما كان قادما الى ديار مصر وخرج الناس للاقائه اجتمع به أناس من الاشراف وفهم
 عبدالله بن طباطبا فتقدم اليه وقال الى من يتسب مولانا فقال سنعقد مجلسا نجتمع فيه
 ونسرد عليكم نسبنا ان شاء الله فلما استقر بالمعز المقام في قصره بالقاهرة جمع الناس في مجلس
 عام وجلس بهم وقال هل بقي من رؤسائكم أحد قالوا لم يبق معتبر فسل نصف سيفه وقال
 هذا نسبي * وبدر عليهم شيئا كثيرا من الذهب وقال وهذا حسبي * فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا
 ويقال انه كان شاعرا ومن شعره هذه الابيات

لله ما صنعت بنا * تلك المهاجر بالمعاجر
 أمضى وأقصى في النفوس * س من الخناجر في الخناجر
 ولقد تعبت بينكم * تعب المهاجر في الهواجر

ولما استقر بالعزيز الملك بعد أبيه المعز أطاعه العسكر واجتمعوا عند كلمته وكان هو يدبر
 الامور منذ مات أبوه الى أن أظهر خبر موته وأقر ابن كاس على ما بيده وفوض اليه النظر في
 سائر الامور وبالغ في اطلاق يده فعلت كلمة ابن كاس فأحكم نظام المملكة ورتب الدواوين
 وجعل منها ماهو للاموال والخراج والمستغلات ومنها ماهو للجيش والانشاء والسجلات وجعل
 فيها الكتاب ورؤساء الكتاب والامناء وكان يجلس للنظر بنفسه في التظامات ويخاطب الخصوم
 ويوقع على الرقاع وما زال على هذا الحال من بسط الكلمة والتصرف في سائر الامور حتى
 مات في سنة ثمانين وثلثمائة هجرية * وعاد الفتكين الى الظهور في أيام العزيز ووالى الهجمات
 على سائر الشامات التابعة لدار مصر فاهتم العزيز لذلك وسير جوهر القائد في جيش عظيم
 لقتال الفتكين ووردت الاخبار بذلك الى الفتكين فتخصن في دمشق وملاها بالمؤمن والذخيرة
 فزحف عليه جوهر بعسكره ونزل بظاهر دمشق وبنى على معسكره سورا وحفر خندقا عظيما
 فقاتله الفتكين بن معه من الرجال وألح في قتاله فكانت بينهم سجالات وما زال جوهر يوالى
 الهجمات على حصون البلد حتى قُلت الاقوات في البلد واحتل أمر الفتكين وكاد يسقط في
 يده ثم عاد فتقوى وجاء الخبير الى جوهر القائد بخروج القرمطي أجد وزحفه الى دمشق
 تخاف جوهر وقد كانت أمواله قُلت وهلك أكثر جنوده ودوابه فراسل الفتكين في طلب الصلح
 على شروط معلومة فأجابته الفتكين اليها فرحل جوهر عن دمشق يريد القاهرة فلحقه القرمطي
 بن معه وجعل يتخطف مؤثرة عسكر جوهر حتى دخل جوهر الرملة فأرسل القرمطي بسرية
 فاقتلت مع جوهر في واقعة كبيرة قتل فيها جماعة من الفريقين وفرّ جوهر الى عسقلان
 فلحقه الفتكين أيضا في عسكر وحاصر عسقلان فسير جوهر الى العزيز في طلب النجدة وأرسل
 الى الفتكين في طلب الصلح وأن تقرر قاعدته على مال يحمله اليه وأن يخرج من تحت سيفه
 فأجابته الفتكين الى ذلك وعلق سيفه على باب عسقلان فخرج جوهر ومن معه من تحته وساروا
 الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز في عسكر عظيم يريد المسير لقتال الفتكين فساروا معه
 حتى التقى الجمعان واشتبك القتال فلم تكن غير ساعة حتى انهزم جيش الفتكين وانتصر
 العزيز نصرة عظيمة فطلب الفتكين فاذا هو قد فر على فرس فقبض عليه أحد العرب وجاء
 به الى العزيز وعصامته في عنقه فأمر به فطيف به على العساكر على جعل العسكر
 بلطمونه وبهزون لحيتته * وسار بالفتكين وجميع الاسرى يريد القاهرة فدخلها في أهنة
 ونجمل زائد والغنائم أمامه والاسرى خلفه ثم رق الى الفتكين فاستخدمه ومن معه وأحسن
 اليه غاية الاحسان وأنزله في دار وواصله بالعتاء وانلح حتى قال الفتكين يوما لقد احتشمت
 من ركوبى مع مولانا العزيز بالله وتطرفى اليه بما غمرنى من فضله واحسانه فلما بلغ ذلك العزيز

قال لعمه حيدر باعم والله اني أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندي وما زال الفتكين يتقلب في نعم العزيز حتى مات في سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة هجرية وعظمت دولة العزيز بالله وكبر سلطانه فقلت الفتن في أيامه الا ما كان منها ضد النصارى ودرت الارزاق وهبطت الاسعار وعم الاخذ والعطاء سائر البلاد وما زال يتصرف مع هيبة ووقار حتى وافته منيته في خلافة القادر بالله أبي العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر كما سيذكر في محله

ومات في أيام الخليفة الطائع لله مكاربوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام عشرين سنة قام في خلالها المسلمون في بيت المقدس على كنيسة القيامة فأحرقوها ونهبوا ما فيها وأخذوا منها ما قدروا عليه حتى لم يبق فيها شيء يذكر ثم اشتد مسلمو مصر على من بها من القبط أهل البلاد شدة بالغة فنهبوا أكثر دورهم وخرّبوا عدّة كثيرة من منازلهم وضيقوا عليهم وطالت أيام هذه الشدة حتى كادت تعم سائر البلاد ثم زالت فأقام المناصلون بعد موت مكاربوس المذكور تاوفانيوس وهو ستوهم وأصله من مدينة الاسكندرية وكان عالما تقيا محبا للخير ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الخامس والعشرون)

(في خلافة أبي العباس أحمد القادر بالله بن اسحق)

ثم قام بالأمر بعد الطائع لله أبو العباس أحمد القادر بالله بن اسحق بن المعتضد بويح له بالخلافة ليلة خلع الطائع لله سنة احدى وثمانين وثلثمائة هجرية أي سنة احدى وتسعين وتسعمائة ميلادية وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة * قال أصحاب التاريخ * لما قبض على الطائع لله واعتقل في دار بهاء الدولة ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة وتكلم مع أصحابه في ذلك فاتفقوا على القادر بالله وهو أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بن المعتضد هذا وكان بعيدا عن دار السلام خوفا من الطائع فأرسل بهاء الدولة في طلبه فشغب جماعة الديلم ببغداد ومنعوه من الخطبة فقبل على المنبر * اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله ولم يذكروا اسمه تسكينا للفتنة فلما وصل الرسل الى حيث القادر بالله دخلوا عليه وهو يحكي مناما رآه تلك الليلة وهو ما حكاها هبة الله بن عيسى كاتب مذهب الدولة * قال كنت أحضر عند القادر بالله كل أسبوع مرتين فكان يكرمني فدخلت عليه يوما فوجدته قد تأهب تأهبا لم تجرب به عادته ولم أر منه ما ألفتة من اكرامه واختلفت بي الظنون فسألته عن

سبب ذلك فان كان لثلة منى اعتذرت عن نفسى فقال بل رأيت البارحة فى منامى كأن
 نهركم هذا الصليق قد اتسع فصار مثل دجلة أضعافا فسرت على حافته متمججا منه
 ورأيت قنطرة عظيمة فقلت من حدث نفسه يجعل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم
 ثم صعدها وهى محكمة فينا أنا عليها أتجيب منها اذ رأيت شخصا قد تأملنى من ذلك الجانب
 فقال أترى أن تعبر فقلت نعم قد يده حتى وصلت الى فأخذنى وأعبرنى فهالنى فعله قلت من
 أنت قال على بن أبى طالب وهذا الامر صائر اليك ويطول عمرك فيه فأحسن الى ولدى
 وشيعتى قال المحدث فما انتهى القادر الى هذا القول حتى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم
 وسألنا عن ذلك واذا هم الواردون اليه لاصعاده ليتولى الخلافة فخاطبته بامرة المؤمنين
 وبياعته وقام مهذب الدولة بخدمته أحسن قيام وجل اليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك
 للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله الى بغداد فلما وصل الى جبل اشهد بهاء الدولة وأعيان
 الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان وبياعه بهاء الدولة
 والناس وخطب له ثالث عشر رمضان فلم تستقر به الخلافة حتى أعاد لها بهجتها وجمدت
 ناموسها وعظم حرمتها وألقى الله هيئته فى قلوب الخلق فأطاعوه أحسن طاعة وأتمها

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين فى رجب سلم بهاء الدولة الطائع لله الى القادر بالله فأجله
 وأكرمه وأنزله حجرة من خاص حجره ووكل به من ثقات خدمه من يقوم بخدمته وأحسن
 ضيافته فكان الطائع يطلب الزيادة فى الخدمة كما كان أيام الخلافة فكان القادر بالله يأمره
 بذلك ويلاطفه * حكى عنه أن القادر بالله أرسل اليه يوما طيبا فقال الطائع من هذا يتطيب
 أبو العباس يعنى القادر فقالوا نعم فقال قولوا له عنى فى الموضع القلانى كندوج فيه مما كنت
 أستعمله فإرسل الى بعضه وأخذ الباقي لنفسه ففعل ذلك وأرسل اليه يوما القادر بالله عدسية
 فقال ما هذا فقالوا عدس وسلق فقال أوقد أكل أبو العباس من هذا قالوا نعم قال قولوا له
 عنى لما أردت أن تأكل عدسية لم اخفضت فما كانت العدسية تعوزك ولم تقلدت هذا الامر
 فأمر حينئذ القادر أن تفرد له جارية من طبائخه تطبخ له ما يلبسه كل يوم فأقام على هذا
 الى أن توفى * وكتب القادر بالله الملوك فى ارجاع الخطبة لبني العباس ففعلوا الا القليل جدا
 وبياع لولده أبى الفضل بولاية العهد وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم بذلك ولقبه الغالب بالله
 قال أصحاب التاريخ وكان سبب البيعة لولده المذكور أنه كان بنصيبين رجل من ولد الوائى
 بالله أمير المؤمنين اسمه أبو عبد الله بن عثمان الوائى فجاء أبو عبد الله هذا الى بغداد وأقام بها
 أياما ثم سار عنها الى خراسان وعبر النهر الى هرون بن أيلك بقرا خاقان ومعه الفقيه أبو الفضل
 التميمى فأكرم هرون وفادتهما فأخبره أبو الفضل أنه رسول من عند الخليفة القادر بالله الى
 هرون يأمره بالبيعة الى أبى عبد الله بن عثمان المذكور فانه ولى عهده فأجاب خاقان الى ذلك
 وبياعه وخطب له فى بلاده وأنزله منزلا راجيا وجعل ينفق عليه فلما بلغ ذلك القادر بالله
 عظم عليه جدا وراسل خاقان فى الامر فلم يلتفت خاقان لقوله ولا صغى لرسالته فلبث القادر

يعلل النفس حتى مات هرون خاقان وولى بعده أحمد قراخاقان فكتب أحمد المذكور في
أمر أبي عبد الله بن عثمان وبالغ في الطلب فأجاب أحمد الى ما طلب وأمر بإبعاد ابن عثمان
فبادر القادر بالبيعة لولده أبي الفضل بولاية العهد وجاء ابن عثمان الى بغداد متنكرا فعرف
بها وطلبه القادر فهرب الى البصرة ثم الى فارس وكرمان ثم الى بلاد الترك مستنجدا فلم يتم
له ما أراد وراسل الخليفة الملوك بطلبه فضاقت عليه الارض وسار الى خوارزم وأقام بها ثم
فارقها فأخذه بين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه في قلعة الى أن مات بها

ومرض القادر بالله وانقطع فأرجف الناس بموته فبلغه ما يتحدث به الناس فجلس لهم
جلوسا عاما وأذن للخاصة والعامة فوصلوا اليه فلما اجتمعوا قام صاحب أبو القاسم وقال
ان خدم مولانا أمير المؤمنين داعون له باطالة البقاء وشاكرون لما شملهم من نظره لهم
والمسلمين باختيار الامير ولده بولاية العهد فقال الخليفة للناس قد أذننا بالعهد له فلما عهد اليه
ألقيت الستارة وقعد أبو الفضل على السرير الذي أقاموه له وخدمه الحاضرون وهنؤه
ودعى له على المنابر يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الاولى سنة احدى وعشرين
وأربعمائة فلما كان شهر ذى الحجة من السنة المذكورة مات أمير المؤمنين القادر بالله وعمره
ست وعشرون سنة وعشرة أشهر فكانت خلافته احدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين
يوما وكان حليما كريما خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله
وكان حسن الاعتقاد صنف فيه كتابا على مذهب السنة وكان يخرج من داره في زى العامة
ويزور قبور الصالحين واذا وصل اليه حال أمر فيه بالحق * قال القاضي حسين بن هرون كان
بالكرخ ملك أى عقار لينيم وكان له قيمة جيدة فأرسل الى ابن حاجب النعمان وهو حاجب
القادر بأمرنى أن أفك عنه الحجر ليشتري بعض أصحابه ذلك الملك فلم أفعل فأرسل يستدعيني
فقلت لعلامي تقدمنى حتى ألقه وخفته فقصدت قبرا معروفا ودعوت الله أن يكفينى
شره وهناك شيخ فقال لى على من تدعو فذكرت له ذلك ووصلت الى ابن حاجب النعمان
فأغلظ لى فى القول ولم يقبل عذرى فاتاه خادم برقعة ففحصها وقرأها فتغير لونه ونزل من
الشدة فاعتذر لى ثم قال كتبت الى الخليفة قصتى فقلت لا وعلمت أن ذلك الشيخ كان
الخليفة * قيل وكان يقسم طعامه فى كل ليلة لثلاثة أقسام فقسم كان يتركه بين يديه وقسم
يرسله الى جامع الرصافة وقسم يرسله الى جامع المدينة يفرق على المقيمين فيهما فاتفق أن
الفراش حمل ليلة الطعام الى جامع المدينة ففرقه على الجماعة فأخذوا الاشباها فانه رده
فلما صلاوا المغرب خرج الشاب وتبعه الفراش فوقف على باب فاستطمع فاطعموه كسرات
فأخذها وعاد الى الجامع فقال له الفراش ويحك ألا تستحى ينفذ اليك خليفة الله الطعام
حلالا فترده وتخرج وتأخذ من الابواب فقال والله ما رددته الا لانك عرضته على قبل المغرب
وكنت غير محتاج اليه فلما احتجت طلبت فعاد الفراش فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال له
راع مثل هذا واغتنم أخذه وأقم الى وقت الافطار * وقال أبو الحسن الاهرى أرسلنى بهاء

الدولة الى القادر بالله في رسالة فسمعتة يتشد

سبق القضاء بكل ما هو كائن * والله يا هذا لرزقك ضامن
تعنى بما يفنى وتترك ما به * تعنى كائنك للحوادث آمن
أوما ترى الدنيا ومصرع أهلها * فاعمل ليوم فراقها يا خائن
واعلم بأنك لأبالك في الذي * أصبحت تجتمعه لغيرك خازن
يا عامر الدنيا أنعم منزلا * لم يبق فيه مع المنية ساكن
الموت شئ أنت تعلم أنه * حق وأنت بذكره تتهاون
ان المنية لا تؤامر من أنت * في نفسه يوما ولا تستأذن

قال فقلت الحمد لله الذي وفق أمير المؤمنين لانشاء مثل هذه الابيات فقال بل لله المنية
اذ أزمنا بذكره ووقفنا لشكره ألم تسمع قول الحسن البصرى في أهل المعاصى هانوا عليه
فصوه ولو عزوا عليه لعصمهم اه وكان القادر أبيض طويل اللحية كبيرها يخضبها لثيبه
وكان دائم التهجيد كثير الصدقات

ومات في خلافته أى سنة ست وثمانين وثلثمائة هجرية العزيز أبو منصور زار صاحب
مصر مات في بلييس بعد مرض طويل بالقولنج والحصاة وله من العمر اثنتان وأربعون سنة
وبضعة أشهر وكانت خلافته احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوما فحمل
الى القاهرة ودفن في تربة القصر وكان العزيز جيلا كثير العفو محبا للخير أسمر طويلا أصهب
الشعر عريض المنكبين واستوزر عيسى بن نسطور القبطى فكان عيسى هذا حسن التدبير
والسياسة على الهمة عاقلا رزيناً مهيباً واسع الكلمة فن حلم العزيز وحبه للعفو أنه كان
بمصر شاعرا اسمه الحسن بن بشر الدمشقى وكان كثير الهجاء فهجا يعقوب بن كاس وزير
العزيز وكان الانشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى فقال

قل لابي نصر صاحب القصر * والمتأني لنقض ذا الامر
انقض عرا الملك للوزير تفز * منه بحسن الثناء والذكر
وأعط وامنع ولا تخف أحدا * فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدري ما ذا يراد به * وهو اذا ما درى فما يدري

فشكاه ابن كاس الى العزيز وأنشده الشعر فقال له هذا شئ اشتركا فيه في الهجاء
فشاركني في العفو عنه ثم ان الدمشقى المذكور قال وعرض بالفضل القائد بهذه الابيات

تنصرفالتصردين حق * عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا * وعطل ماسواهم فهو عطل
في يعقوب الوزير أب وهذا * العزيز ابن وروح القدس فضل

فشكاه أيضا الفضل الى العزيز فامتعض منه الا أنه قال اعف عنه ففعا عنه ثم دخل

الوزير على العزيز فقال لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض من السياسة ونقض لهيبة الملك
فانه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج نديك وسبك بقوله

زبارجى نديم * وكاسى وزير * نم على قدر الكلاب يصلح الساجور

فغضب العزيز وأمر بالقبض عليه فقبض عليه لوقته ثم بدا للعزيز اطلاقه فأرسل
اليه يستدعيه وكان للوزير عين في القصر يتقل له الاخبار فأخبره بذلك فأمر بقتله فقتل فلما
وصل رسول العزيز في طلبه أراه رأسه مقطوعا فعاد اليه فأخبره فاغتم له * وكان للعزيز
محاسن أخرى وهو أول من اتخذ وزيرا أثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه وأول من
رى من العلويين بالنشاب وأول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد وأول
من ركب من العلويين بالذؤابة الطويلة وضرب بالصولجان ولعب بالرخ وأول من اتخذ
الجير لكوبه اياها وأول من أقام الطعام في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان
ورمضان

ولما مات ولى بعده ابنه أبو علي منصور الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه ولى وعمره
احدى عشرة سنة وستة أشهر وأوصى العزيز أرجوان الخادم به فكان يتولى أمر داره ويدير
أمر مملكته وهو الذى أخذ له البيعة على الناس ولم يمض على ولايته الا القليل حتى ظهر
بمصر ابن عمار شيخ كرامة وسيدها وعلت كلمته وتمكن من أمور السلطنة وأمر ونهى وحكم
البلاد ولقب بأمر الدولة قال أصحاب التاريخ وهو أول من لقب في دولة العلويين المصريين
بهذا اللقب ولما بسط يده على جميع الامور أشار عليه أصحابه بقتل الحاكم بأمر الله
واستخلاص البلاد لنفسه والاستقلال بملكها فلم يقبل ذلك احتقارا للحاكم واستصغارا لسنة
وطغت كرامة وتجبرت وتناولت أيديهم الى أموال الناس والعبث في البلاد وأخذ النساء وأرجوان
الخادم لا يقدر على منعهم وهو مقيم مع الحاكم في قصره يحرسه فلما ضاقت على أرجوان المذاهب
كتب الى منجوتكين وهو يومئذ بدمشق يشكو اليه من فعال ابن عمار وأصحابه ويستنهضه
الى نجدة الحاكم بأمر الله فجهز منجوتكين جيشا وسار به من دمشق الى مصر فعلم ابن عمار
بخبئه وخشى العاقبة فأظهر أن منجوتكين قد عصى على الحاكم وحضر الى مصر ليخلعه من
السلطنة ونادى في جنده بالخروج لقتال منجوتكين فخرجوا وتقدمهم أبو تميم سليمان بن
جعفر بن فلاح الكتامى والتقوا بعسقلان واقتتلوا قتالا شديدا فانهمزم منجوتكين وأصحابه
وقتل منهم خلق كثير وأسرى منجوتكين وحمل الى مصر فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه وولى
على الشام أبا تميم الكتامى بدل منجوتكين المذكور فسار الى طبرية واستعمل على دمشق
أخاه عليا فامتنع الناس عليه فأرسل اليهم أبو تميم يتهدهم ان هم أصروا على عدم الطاعة
فخافوا وأذعنوا فدخل البلد فأحرق وقتل وعاد الى معسكره وقدم عليهم أبا تميم فأحسن
اليهم وأطلق المسجونين واستعمل أخوه على طرابلس بدل دمشق وخلع عنها حبش بن
الصمصامة الكتامى فساه ذلك ومضى الى مصر واجتمع بارجوان وحبيب اليه العمل على خلع

الحسن بن عماره فمال الى ذلك وانتهر فرصة غياب كرامة عن مصر مع أبي تميم الا القليل منهم فهدس أرجوان الى المشاركة أن يفتكوا بن بقي من كرامة بمصر ويأين عمار معهم فبلغ ذلك ابن عمار فعمل على الايقاع بأرجوان وشكر العضدي فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار بذلك فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكيين واستدعوا كبار المشاركة وفرقوا فيهم الأموال فثاروا على ابن عمار ومن معه من كرامة وشدوا في قتالهم فانهزم ابن عمار وأصحابه واختفى فتفوت عزيمة أرجوان وفرح بهذا الظفر وأخرج الحاكم بأمر الله وأجلسه وجدده له البيعة وكتب الى وجوه القواد والناس بدمشق بالايقاع بأبي تميم فلم يشعر الا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه فخرج هاربا وقتلوا من كان معه من كرامة فعدت الفتنة بدمشق واضطربت الأمور وعصى أهل صور والرملة وغيرهما فسير أرجوان لقتالهم جيشا عظيما وظفر بهم وأرجعهم الى الطاعة وظفر بأبي تميم فكان ذلك أول فتح حصل على يد أرجوان وما زال أرجوان يدبر الأمور ويعهد العقبات ويثبت سلطنة الحاكم بأمر الله ويفتح الفتوحات الكبار مثل برقة وطرابلس الغرب وغيرهما ويبالغ في خدمة الحاكم حتى كانت سنة تسع وثمانين فنقل مكانه على الحاكم وأبغضه وأراد التخلص منه فقتله وكان أرجوان هذا خصيا أبيض حسن التدبير صائب الرأي وكان له وزير قبطي اسمه فهد بن ابراهيم وكان فهد هذا عاقلا حسن السياسة فاستوزره الحاكم ومال اليه وأحبه كثيرا وعلت كلمة الحاكم بأمر الله فسير الجيوش للغزو واشتد على القواد وكبار القبائل بمصر وأكثر فيهم القتل فخرج عليه الوليد المعروف بأبي ركوة وخرج معه كبار القبائل وأكثر النواد قال بعض أصحاب التاريخ في سبب خروجه على الحاكم مانصه * كان أبو ركوة اسمه الوليد وانما كنى بأبركوة لركوة كان يحملها في أسفاره سنة الصوفية وهو من ولدهشام بن عبد الملك بن مروان ويقرب في النسب من المؤيد هشام بن الحكم الاموي صاحب الاندلس ولما استولى المنصور بن أبي عامر على المؤيد وأخفاه عن الناس تتبع أهله ومن يصلح منهم لئلا يفتل البعض وهرب البعض وكان أبو ركوة ممن هرب وعمره يومئذ يناهز العشرين سنة وقصد مصر وأقام بها وكتب الحديث ثم رحل الى مكة واليمن وعاد الى مصر ودعا بها الى القائم فأجابه بنو قرة وغيرهم قالوا وسبب استجابتهم له أن الحاكم بأمر الله كان قد أسرف في مصر في قتل القواد وجنسهم وأخذ أموالهم وصارت القبائل معه في ضنك وضيق ويودون خروج الملك من يده وكان الحاكم في الوقت الذي دعا فيه أبو ركوة بنو قرة قد آذاهم وجنس منهم جماعة من أعيانهم وقتل بعضهم فلما دعاهم أبو ركوة انقادوا له وكان بين بنو قرة وبين زناتة حروب ودماء فاتفقوا على الصلح ومنع أنفسهم من الحاكم فقصد بنو قرة وفتح مكتبا يعلم الصبيان الخط وتظاهر بالدين والتسك وأتهم في صلواتهم وشرع في دعوتهم الى ما يريد فأجابوه وبابغواء واففقوا عليه وعرفهم حينئذ نفسه وذكر لهم أن عندهم في الكتب أن يملك مصر وغيرها ووعدهم ومناهم وما يعددهم الشيطان الا غرورا فاجتمع بنو قرة وزناتة

على بيعته وخطبوه بالامامة وكانوا بنواحي برقة فلما سمع الواكي ببرقة خشيته كتب الى
 الحاكم ينهيه اليه ويستأذنه في قصدهم واصلاحهم فأمره بالكف عنهم واطراحهم ثم ان
 ابا ركوته جمعهم وسار الى برقة واستقر بينهم أن يكون الثلث من الغنائم له والثلاثان لبني قرة
 وزناته فلما قاربها خرج اليه واليها فالتقوا فانهمزم عسكر الحاكم ومالك أبو ركوته برقة
 وقوى هو ومن معه بما أخذوا من الاموال والسلاح وغيرهما ونادى بالكف عن الرعية
 والنهب وأظهر العدل وأمر بالمعروف فلما وصل المنهزمون الى الحاكم عظم عليه الامر
 وأهمته نفسه ومملكه وعاود الاحسان الى الناس والكف عن أذاهم ونذب عسكرا نحو خمسة
 آلاف فارس وسيرهم وقدم عليهم قائدا يعرف بإينال الطويل فبلغ ذات الحمام وبينها
 وبين برقة مفازة فيها منزلان لا يلقى السالك الماء الا في آبار عميقة بصعوبة وشدة فسير أبو ركوته
 قائدا في ألف فارس وأمرهم بالمسير الى إينال ومن معه ومطاردتهم قبل الوصول الى المنزلين
 المذكورين وأمرهم اذا عادوا أن يغوروا الآبار ففعلوا ذلك وعادوا وحينئذ سار أبو ركوته
 في عساكره ولقيهم وقد خرجوا من المفازة على ضعف وعطش فقالتهم واشتد القتال فحمل
 إينال على عسكر أبي ركوته فقتل منهم خلقا كثيرا وأبو ركوته واقف لا يحمل هو ولا عسكره
 فاستأمن اليه جماعة كثيرة من كرامة لما نالهم من الأذى والقتل من الحاكم وأخذوا الامان
 لمن بقي من أصحابهم ولحقهم الباقون فحمل حينئذ بهم على عساكر الحاكم فانهمزمت وأسر
 إينال وقتل وأسر أكثر عسكره وقتل منهم خلق كثير وعاد الى برقة وقد امتلأت أيديهم من
 الغنائم وانتشر ذكره وعظمت هيئته وأقام ببرقة وترددت سراياه الى الصعيد وأرض مصر وقام
 الحاكم من ذلك وقعد وسقط في يده وندم على ما فرط وفرح جند مصر وأعيانها وعلم الحاكم
 ذلك فاشتد قلقه وأظهر الاعتذار عن الذي فعله وكتب الناس الى أبي ركوته يستدعونه ومن
 كتب اليه الحسين بن جوهر المعروف بقائد القواد فسار حينئذ من برقة الى الصعيد وعلم
 الحاكم فاشتد خوفه وبلغ الأمر به كل مبلغ وجمع عساكره واستشارهم وكتب الى الشام
 يستدعي العساكر فجاءته ففرق الاموال والدواب والسلاح وسيرهم وهم اثنا عشر ألف رجل
 بين فارس وراجل سوى العرب واستعمل عليهم الفضل بن عبد الله فلما قاربوا أبا ركوته لقيهم
 في عساكره ورام المناجزة المصريين والنضل يناجز ويدافع ويراسل أصحاب أبي ركوته يستميلهم
 ويبدل لهم الرغائب فأجابته قائدا كبيرا من بني قرة يعرف بالماضي وكان يطالعه بأخبار القوم
 وما هم عازمون فيدبر الفضل أمره على حسب ما يعمله منه وضائق الميرة على العساكر فاضطر
 الفضل الى اللقاء فالتقوا واقتتلوا بكموم شريك فقتل بين الفريقين قتلى كثيرة ورأى الفضل من
 جمع أبي ركوته ما هاله وخاف المناجزة فعاد الى عسكره وراسل بنو قرة العرب الذين في عسكر
 الحاكم يستدعونهم اليهم ويذكرونهم أعمال الحاكم بهم فأجابوهم واستقر الامر على أن
 يكون الشام للعرب ومصر لأبي ركوته ومن معه وبواعدوا ليلته يسير فيها أبو ركوته
 الى الفضل فاذا وصل اليه انهزمت العرب ولا يبقى دون مصر مانع فكتب الماضي الى الفضل

بذلك فلما كانت ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده وأظهر أنه صائم وطاولهم
 الحديث وتركهم في خيمة واعتزلهم ووصى أصحابه بالخذر ورام العرب العود الى خيامهم فعلهم
 وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم فأكلوا وتحسدوا وسير الفضل سرية الى طريق أبي
 ركة فلقوا العسكر الوارد من عنده فاقتتلوا ووصل الخبر الى العسكر فارتج وأراد العرب
 الركوب فتنعهم وأرسل الى أصحابهم من العرب فأمرهم بالركوب والقتال ولم يكن عندهم علم
 بما فعل رؤسائهم فركبوا واشتد القتال ورأى بنو قرة الأمر على خلاف ما قرروه ثم ركب
 الفضل ومعه رؤساء العرب وقد فاتهم ما عزموا عليه فباشروا الحرب وغاصوا فيها وورد لابي
 ركة مدد من أصحابه فلما رآه الفضل رد أصحابه وعاد الى المدافعة وجهاز الحاكم عسكرا
 آخر نحو أربعة آلاف فارس وعبروا الى الجيزة فسمع أبو ركة بهم فسار مجتدا في عسكره
 ليواقعهم عند مصر وضبط الطرق لئلا يسمع الفضل ولم يمكن الماضي أن يكتبه بذلك فساروا
 وأرسل اليه من الطريق يعرفه الخبر وقطع أبو ركة مسير خمس ليال في ليلتين وكبسوا عسكر
 الحاكم بالجيزة وقتلوا نحو ألف فارس وخاف أهل مصر ولم يبرز الحاكم من قصره وأمر
 الحاكم من عنده من العساكر بالعبور الى الجيزة ورجع أبو ركة فنزل عند الهرمين ثم
 انصرف من يومه وكتب الحاكم الى الفضل كتابا ظاهرا يقول فيه ان أبا ركة انهزم من
 عساكرنا ليقرأ على القواد وكتب اليه سرا يعلمه بالحال فأظهر الفضل البشارة بانضمام أبي
 ركة تسكيننا للناس ثم سار أبو ركة الى موضع يعرف بالسبخة كثير الاشجار وتبعه الفضل
 وكان أبو ركة بين الاشجار وطارد عسكر الفضل ورجع عسكره القهقري ليطمعوا عسكر
 الفضل ويخرج الكمين اليهم فلما رأى الكمين رجوع أبي ركة ظنوها الهزيمة لاشك فيها فولوا
 يتبعونهم فركبهم أصحاب الفضل وعلوهم بالسيوف فقتل منهم ألوف كثيرة وانهمز أبو ركة
 ومعه بنو قرة وساروا الى حلهم فلما بلغوها تبطهم الماضي عن المقام معه فقالوا له قد قاتلنا
 معك ولم يبق فينا قتال نخذ لنفسك وانج فسار الى النوبة فلما بلغ الى حصن يعرف بحصن
 الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من الحاكم الى ملكهم فقال له صاحب الحصن الملك عليل
 ولا بد من استخراج أمره في مسيرك اليه وبلغ الفضل الخبر فأرسل الى صاحب القلعة بالخبر
 على حقيقته فوكل به من يحفظه وأرسل الى الملك بالحال وكان ملك النوبة قد توفي وملك
 بعده ولده فأمر بأن يسلم الى نائب الحاكم فتسله رسول الفضل وسار به فلقبه الفضل
 وأكرمه وأنزله في مضاربه وحمله الى مصر فأنهريها وطيف به وكتب أبو ركة الى الحاكم
 رقعة يقول فيها يا مولانا الذنوب عظيمة وأعظم منها عفوك والدعاء حرام ما لم يحلله سخطك وقد
 أحسنت وأسات وما ظلمت الانفسى وسوء على أوبقنى وأقول

فررت فلم يغن الفرار ومن يكس * مع الله لم يججزه في الأرض هارب

ووالله ما كان الفرار الحاجة * سوى فزع الموت الذي أنا شارب

وقد قادن جري اليك برمتي * كما خرميتا في رحا الموت سارب
 وأجمع كل الناس أنك قاتلي * فيارب ظن ربه فيك كاذب
 وما هو الا الانتقام وينتهي * وأخذك منه واجب لك واجب
 ولما طيف به ألبس طرطورا وجعل خلفه فرد يصفعه وكان معلما بذلك ثم حل الى ظاهر
 القاهرة ليقتل ويصلب فتوفى قبل وصوله فقطع رأسه وصلب وبالغ الحاكم في اكرام الفضل
 الى حد أنه عاده في مرضه مرضها دفعتين فاستعظم الناس ذلك ثم انه عمل على قتل الفضل
 لما عوفي فقتله

وصفت الأمور للحاكم فكثير شره وكبر ظلمه وعظم افساده وطغيانه فكان لا يستقر
 على أمر من الأمور وكان له في كل ساعة شأن قيل انه ابني المدارس وجعل فيها الفقهاء
 والمشايخ وبالغ في اتقانها وتعزيرها ثم عاد فقتلهم جميعا وخربها وألزم الناس باغلاق
 الاسواق نهارا وفتحها ليلا فامتثلوا ذلك دهرا طويلا حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل التجارة في
 أثناء النهار فوقف عليه وقال ألم نهكم عن هذا فقال ياسيدي أما كان الناس يسهرون لما
 كانوا يتعشون بالنهار فهذا من جملة السهر فتبسم وتركه وأعاد الناس الى أمرهم الأول وكان
 يعمل الحسبة بنفسه فيدور في الاسواق على حماره وكان لا يركب الا حمارا ثخن وجده
 قد غش في معيشته أمر عبدا أسود معه اسمه مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى وكان
 قد منع النساء من الخروج من بيوتهن وأن لا يطلعن من الطاقات أو الاسطحة ومنع
 الخفافين من عمل الأخفاف ومنعهن من دخول الحمامات وقتل خلقا من النساء على مخالفة
 ذلك وهدم بعض الحمامات عليهن ومنع من طبخ الملوخية والقرع وله رعونات كثيرة للعبادة
 لا تدخل تحت الحصر فابغضه الناس وكتبوا له الاوراق بالشم له ولاسلافه في صور قصص
 حتى عملوا صورة امرأة من ورق بخفها وازارها وفي يدها قصة فيها من الشتم شيء كثير فلما
 رآها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فلما رأى ما فيها غضب وأمر
 بقتلها فلما تحققها من ورق ازداد غضبا الى غضبه وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر
 وينهبوا ما فيها من الاموال ويسبوا النساء ففعلوا وقاتلهم أهل مصر قتالا عنيفا ثلاثة أيام
 والنار تجل في الدور والسبي في النساء واجتمع الناس في الجامع ورفعوا المصاحف وبلحوا الى
 الله تعالى واستغاثوا به وما انجلي الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها ونهب نحو نصفها
 وسبيت نساء كثيرة وفعل بهن الفاحشة العظمى واشترى الرجال من سبي لهم من النساء
 والحريم من أيدي العبيد قال ابن الجوزي وزاد ظلم الحاكم وعن له أن يدعى الربوية فصار
 الناس اذا رأوه يقولون يا واحد بأحد يا محبي يا محبت اه

وأنزله بالنصاري شدائد لم يعهدوا مثلها من قبل وذلك أنه لما تمكن الكثير منهم من أعمال
 الدولة وصاروا الوزراء حسدهم المسلمون واتهموهم بالمكايده وشؤوا بهم عند الحاكم بأمر
 الله فغضب جدا وكان لا يملك نفسه اذا غضب فقبض على عيسى بن نسطور القبطي وهو

اذ ذلك في رتبة الوزارة فضرب عنقه جهارا وقبض على فهد بن ابراهيم كاتب الاستاذ برجوان
 وضرب عنقه وشد على النصارى وألزمهم بلبس ثياب الغيار وشد الزناير على أوساطهم
 ومنعهم من عمل السمانين وعمد الصليب والتظاهر بما كانت عليه عاداتهم في
 الاعياد والمواسم من الاجتماع وقبض على جميع ما هو محبس للكنايس والديارات وأدخله
 في الديوان وكتب الى عماله كلهم بذلك وأحرق خلقا كثيرا ومنعهم من شراء العبيد والاماء
 وهدم الكنائس التي بخط راشدة ظاهر مدينة مصر وأخرّب كنائس المقس خارج القاهرة وأباح
 ما فيها للناس فأنتهبوا منها ما يجمل عن الوصف وهدم دير القصر وأنهب العابة ما فيه ومنعهم من
 عمل الغطاس على شاطئ النيل بمصر المحروسة وأبطل ما يعمل فيه من الاجتماع وألزم الرجال
 منهم بتعليق الصليبان من الخشب التي زنة كل صليب منها خمسة أرتال في أعناقهم ومنعهم
 من ركوب الخيل ورسم لهم أن يركبوا البغال والحير بسروج ولبم غير محلاة بل من جلود
 سود ومنع من ضرب الجرس في القاهرة ونبهه أن لا يركب أحد من المكارية ذميا ولا
 يحمل فوق مسلم أحدا من أهل الذمة وأن تكون ثيابهم وعمائمهم شديدة السواد وركب
 سروجهم من خشب الجيز وأن يعلق اليهود كذلك في أعناقهم خشبا مدورا زنة الخشبة منها
 نحو الخمسة أرتال وهي ظاهرة فوق ثيابهم وزاد في الجور والعسف فهدم ما بقى من الكنائس
 وأباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس تمها واقطعا فهدمت بأسرها ونهب جميع أمتعتها
 وأقطع أحباسها وبني في مواضعها المساجد وأذن بالصلاة في كنيسة ماري سنوده بمصر وأحيط
 بكنيسة المعلقة في قصر الشمع وأكثر العامة من رفع القصص يطلبون بها هدم كنائس أعمال
 مصر ودياراتها فلم يرد قصة منها الا وقد وقع عليها باجابة رافعها الى ما سأل فأخذوا أمتعة
 الكنائس والديارات وباعوها بأسواق مصر من أواني الذهب والنضة وغير ذلك ونصرفوا في
 أحباسها ووجدوا بكنيسة ماري سنوده مالا جليلا وكذلك في كنيسة المعلقة من المصاغ وثياب
 الديباج شيئا كثيرا جدا ثم كتب الى ولاة الاعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس
 والديارات فعم الهدم والتخريب فيها من سنة ثلاث وأربعمائة هجرية حتى ذكر بعض أصحاب
 التاريخ أن الذي هدم لغاية أخريات سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام وأعمالهما من
 الهياكل التي بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة
 وقبض على أوقافها

وألزم النصارى أن تكون الصليبان في أعناقهم اذا دخلوا الحمام وألزم اليهود أن تكون
 في أعناقهم الاجراس اذا دخلوا الحمام ثم ألزم الاثنين معا بخروجهم كلهم من أرض مصر الى
 بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا وصاحوا بطلب العفو حتى
 أعفوا من النبي وفي خلال هذه الاحن أسلم كثير من النصارى وضربتهم يد الشتات فتمزقوا
 أوكدوا وأسكن اليهود في حارة زويلة وتهتدهم بالقتل ان لم يسلموا فخافوا وأسلم منهم عدد غفير
 ثم أمرهم بالرجوع الى دينهم فارتد منهم في يوم واحد سبعة آلاف ثم عاد فأمر بهدم معابدهم

فهدمت ثم أمر باعادتها لهم فأعيدت وادعى الالوهية فسكان يكتب له * بسم الحاكم الرحمن
 الرحيم * ثم انه ادعى علم الغيب فكان يقول ان فلانا قال في بيته كذا وكذا ودخل له كذا وكذا
 وكان ذلك بانفاق اعتمده مع التجار اللواتي كن يدخلن بيوت الامراء وغيرهم ويخبرنه بما
 جرى ثم كان من امره أن تعدى شره الى أخته الاميرة سيدة الملك فاتهمها بالناحشة وتهديها
 بالقتل وقد كانت من أفضل وأزكى نساء عصرها فأخذت في تدبير الحيلة على قتله فأرسلت
 الى أحد كبار قواد الحاكم وهو الامير سيف الدين بن الدواس تقول اني أريد أن ألقاك
 وسارت اليه ليلا وقالت له قد جئت اليك في أمر تحفظ فيه نفسك ونفسي وأنت تعلم
 مايجري من أخى من سفك الدماء وخراب البلاد وقد صمم على قتلك وقتلى وأخاف أن الناس
 يشورون به فيهلك هو ونحن وتنقلع هذه الدولة فقال وما الحيلة في أمره قالت الرأى عندي
 أن ترسل اليه غلمانا يقتلونه عند خروجه الى جبل المقطم في غد وليس معه غلام الا الزكبي
 وصبي وينفرد بنفسه فاذا قتل نقيم ولده وتكون أنت وزيره ومدبر دولته وأزيد في اقطاعك
 مائة ألف دينار * ومضت سيدة الملك الى قصرها فلما كان الغد خرج الحاكم على عادته وانفرد
 بنفسه بالجبل المذكور فهدى ابن الدواس الى عشرة من العبيد السود وأعطى كل واحد منهم
 خمسمائة دينار ومضوا الى الجبل وقتلوه وأتوا به الى أخته ليلا فدققت في دارها وكان عمره
 ستا وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمس وعشرين سنة وعشرين يوما وكان قتله ليلة الاثنين
 ثلاث بقين من شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة هجرية وبقى الناس على رسمهم يخرجون
 كل يوم يلبسون رجوعه الى سلع شوال * فلما كان ثالث ذى القعدة خرج مظفر الصقلي صاحب
 المظلة وغيره من خواص الحاكم ومعهم القاضى فبلغوا حلوان ودخلوا في الجبل فبصروا
 بالحمار الذى كان عليه راكبا وقد ضربت يدها بسيف فأثر فيهما وعليه سرجه ولبامه فاتبعوا
 أثره فانتهوا به الى البركة الى شرقى حلوان فرأوا ثيابه وهى سبعة قطع صوف مزرزة
 بجالها لم تحمل وفيها أثر السكاكين فعادوا ولم يشكوا في قتله واجتمع الجند على سيدة الملك
 أخت الحاكم يسألون عن سبب عدم رجوع الحاكم ففرقت في قوادهم الاموال وأصبحت
 وقد ألبست أبا الحسن عليا بن أخيها الحاكم أفخر الملابس وكان الجند قد اجتمعوا حول
 القصر ليعلموا ما جرى على الحاكم فلم يلبثوا أن خرج أبو الحسن وهو صبي والوزير بين
 يديه فصاح يا عبيد الدولة مولانا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه ثم قبل
 ابن الدواس الارض بين يديه وكذلك القواد الذين أرسلت اليهم الاموال ودعوا له فتبعهم
 الباقون ومشوا معه ولم يزل راكبا فنزل ودعا الناس من الغد فباعوه ولقب الظاهر لا عزاز
 دين الله وسير الكتب الى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة وجعت سيدة الملك الناس
 ووعدهم وأحسنن اليهم ورتبت الامر ترتيبا حسنا وجعلت الامر بيد ابن الدواس وبالقتل
 في تعظيمه ثم انها قالت له اننا نريد أن ترد جميع أحوال المملكة اليك ونزيد في اقطاعك
 ونشرفك بالخلع السنية فاختر يوما يفعل فيه ذلك وشاع هذا الخبر بين الناس وتحدثوا به كثيرا

ثم أحضرته وأحضرت جميع القواد الى قصرها فلما انتظم بهم المقام أمرت الغلمان فأغلقوا الابواب وأرسلت الى ابن الدواس غلاما ومعه السيف وقالت له اذا وقفت على رأس ابن الدواس فقل للقواد ان هذا قاتل مولاكم الحاكم ثم اضربه بالسيف ففعل ذلك وقتله فلم يختلف رجلان وجعلت تتصرف في الامور بنفسها فأحسن التدبير واتسعت كلمتها وقامت هيبتها عند الناس واستقامت الامور على يديها وعاشت بعد الحاكم أربع سنين لاراداً لكلمتها وكان للحاكم بأمر الله المذكور وزير اسمه حمزة كان عظيم الدهاء واسع العلم غزير المادة قد وضع للحاكم مذهبا مخصوصا هو من مذاهب الباطنيين وقيل بل من اعتقادات القرامطة وقيل هو دين مستقل لاعلاقة له بشئ من الاديان الأخرى فظهر الدين المذكور واشتهر أوائل القرن الخامس للهجرة الحمذية فتبعه خلق كثير جدا وبالغ أصحابه في اخفاء أمره وكنهان سره وغلغ على جميع أبواب الوصول اليه ومع ذلك فقد اجتهد أهل التاريخ وكتاب الاخبار من السلف في الحصول على معرفة ما يمكن معرفته من تلك الاسرار وفاز بعضهم بالاطلاع على بعض المؤلفات والرسائل في ذلك الحين وبمحتوا وفتشوا فوجدوا من الكتب والرسائل الخاصة بهذا الدين عدّة منها كتاب المشاهد والاسرار التوحيدية وكتاب الرد على النصرانية وهو يتضمن ستا وعشرين رسالة والرسالة المعروفة بالشافعية لنفوس الموحدين المرثضة لقلوب المقصرين الجاحدين والرسالة المعروفة بالرسالة الموسومة بالاسرار ومجالس الرحمة للاولياء الابرار وأخرى اسمها الرسالة الموسومة بمجالس الرحمة * قال بعض الكتاب وبظن أن الكتب عندهم سبعة لان عدد سبعة هو من الاعداد المقدسة عندهم قالوا لان السموات سبع وكذلك الارضون والسيارات وأيام الاسبوع والعناصر والأئمة عندهم والناطقون وغير ذلك فقد وجد في أحد كتبهم المارذ كرها هذه العبارة * الجزء الاول من السبعة الاجزاء * وفي كتاب آخر ما نصه فوضعت هذا الكتاب وهو الجزء الاول من السبعة الاجزاء يشتمل على فرائض فرضها مولانا ذوالمنة والاحسان وأنطق بها عبده قائم الزمان يسأل بعضها بعضا ويوضح في العقل أنها فرض وفي كل كتاب ذكر فرض ما يجب أن يفرض واسقاط ما يجب أن يسقط وينقض * قال العلامة البستاني في كتابه دائرة المعارف ولهم عدّة كتب أخرى محفوظة بدار الكتب في بلاد الفرنسيس والانجليز والمكتبة الباباوية وغيرها وتشتمل هذه الكتب على عدّة رسائل أو فصول لكل رسالة أو فصل منها عنوان مخصوص وكلها تعاليم وردود على بعض المارقين من دينهم أو المخالفين لتعاليمهم وجلها بل كلها تنسب الى حمزة المذكور الملقب عندهم بالعقل

فن قواعد دينهم هذا ما جاء في كتبهم ان الله واحد وهو الكائن الوحيد الذي يجب عبادته والوهيته لا تدركها العقول فهي غير قابلة للتحديد والتعريف وقد ظهر للبشر عدّة مرار في ناسوته ثم ظهر لهم أخيرا باسم الحاكم فعمل من الاعمال ما لا يدرك العقل البشري وأعماله كلها حكمة وأسرار غريبة للغاية ثم اختفى فلا يظهر الا بعد مجيئه الأخير لتأييد دين التوحيد

ومعاقبة الجاحدين ويقول حجة أيضا ان الله هو الابدى السرمدى القديم المولى المملوه
كرامة والسيد الرحيم وهو واحد لا يشابه الكائنات في شئ وهو يفوق جدا التعيين بالاعداد
والمشابهات عظيم فلا زوجة له ولا ولد تهجز الناس طرًا عن استيفاء وصفه فالاعين التي تراه
لا تدركه وجوهه لا يدرك بالنامل فالالوهية له وحده دون غيره ولا سبيل الى وصفه بالاوصاف
الموافقة للكائنات المخالفة فيمتجانس مع المتجانسين فالعقول والتصورات تهجز عن ادراكه
تعالى عن الكيف والابن فلا تدركه الاعين ولا تنسب اليه الحركة والراحة فهو واحد ولكن
وحدته ليست كالتى يدركها البشر فهو البداية والنهاية وتنزه عما اعتقده به الناس خطأ
وعما نسب اليه مما لا يليق الا بمخلوقاته والادراك البشرى يقصر عن فهم أعماله ففخرس
الالسن اذ لم نجد لمستخدمها سبيلا الى توحيد بارئها * وعندهم ان الله الرحمن الرحيم اسم
يدل على بعض وزراء دين التوحيد قال حجة المذكور كيف توصف وحده من لاحدوده
ولا بداية ولا أصل ولا نهاية فان أقدم الاشياء أى وزراء الدين والانفس تقر أنه خالفها
والكائنات الاخيرة كالاجساد تقر أن وجودها جديدهم فهو ملك الملوك الذى لا يعرف ولا يتحد
بلسان قلم فالحمد لك يا من امتزت بالعظمة والقدرة المتعالى عن جميع البشر بالوجود والملكون
الذى كنت موجودا فى كل دهر وزمان ومكان فلا تشبه البشر ولا يقدر مخلوقك أن يحددك
أنت المستزهد عن كل تشبيهه ووصف مع الايمان والاعتقاد الثابت الذى لا يتزحزح فى بداية
وجودى ونهايته من صميم القلب وعلى رؤس الاشهاد أنك الاله الخالق القادر الفريد الوحيد
الغير القابل الزيادة بالاعداد ولا بالكميات ولا الاسباب والاحساب فأنت الخالق الفريد موجد
الكائنات المنزه عن النظر القادر الذى لا كائن له قدرة عليك الغالب ولا ملجأ ولا مجبر منك
الا بنفسك الحاكم المولى الذى لا يخضع لحكم أحد تفعل ما تشاء وتأمر بما تشاء بأمرك
العالى الممجد عن مقارنة الاصوات واللغات * قال العلامة المشار اليه فهذا هو توحيد
الموحدين مترجما عن اللغات الاجنبية لتعذر الحصول على كتبهم الاصلية ويقولون ان للحاكم
لاهورتا وناسوتا فلاهوته ثابت عندهم بأعماله التى تفوق ادراك جميع البشر وبحكيمته العظيمة
جدا وقد دونوا فيها سؤالات وجوابات ومنها ما يتعلق بظهور الحاكم وهى
سؤال ماهى كيفية ظهور مولانا الحاكم وفى أى زمان ظهر
جواب فى سنة أربعمائة للهجرة

س كيف ظهر

ج بالنظائر بانه من الفاطميين بستر الوهيمته

س لما ذا ستر لاهوته

ج لنقصان الاعتبار وقلة الاصحاب

س فى أى سنة ظهر لاهوته

ج فى السنة الثامنة بعد أربعمائة للهجرة

- س كم سنة أظهر لاهوته
- ج ثمان سنوات وأخفاه في السنة التاسعة لأنها كانت زمان تجارب وأسرار وأظهره ثانية في بداية السنة العاشرة وأثناء السنة الحادية عشرة ثم أخفاه في بداية السنة الثانية عشرة فلا يظهر بعد ذلك الا يوم الدين
- س كيف كان الوزراء يحيمون الحاكم عند منولهم لديه
- ج كانوا يقولون بصوت منخفض السلام عليك يا مولانا ومرجعته اليك لان السلام لك ودينك مقر السلام فالبركات والعظمت لك يا مولانا العالى صاحب المجد والشرف
- س ماذا ينبغي أن تفهم مما جاء في رسالة خنجر بن جيش السليمانى العكاوى الذى هو أخو مولانا المعظم
- ج ان مولانا أظهر نفسه بحيث أوهم الناس أنه ابن أبيه فعلا فظن خنجر أن مولانا أخوه مع أنه لم يكن كذلك الا بحسب الظاهر فأزداد ضلال خنجر وكان ضلاله موجبا للصدور أمر مولانا بقتله
- س ماهو معنى ركوب مولانا الحيردون سروج
- ج الحمار رمز الى الناطق فركبه مولانا دلالة على ابطال الناموس وغيره . . . وهنا وضع المترجم أسفارا استقباحا لترجمة ماجاء بعد كلمة وغيره عملا بادب التحرير
- س الى ماذا يرمز النوب الصوف الاسود الذى كان مولانا يلبسه
- ج انه نوب حداد يرمز الى التجارب التى يتجرب بها عباده بعده
- ولهم غير ذلك من الاسئلة والاجوبة التى لاعلاقة لها بمعتقدهم ويقولون فى الوهية الحاكم انها ثابتة باعماله وقد ذكر حجة وزيره المذكور تلك الاعمال فى الرسالة المسماة السيرة المستقيمة وقال فيها ما محصله * لو كانت أشجار الارض كلها أقلاما والبحر حبرا وأضيف اليه سبعة بحور لما كانت كافية لتدوين جميع كلمات الله ﷻ والله هنا اسم انسانية الحاكم ﷻ قال فأقتصر على ذكر أمور قليلة العدد غزيرة النفع للتأمل المعتبر بوحدة مولانا المستحق التعظيم الذى تفوق قدرته ادراك البشر فأول عمل قام به قتله لبرجوان وابن عمار مع أن برجوان كان متسلطا على الشرقية كلها وابن عمار على الغربية فقتلا كأنهما كلبان بلا تحاش ولا خوف من قيام الفتنة بين الجند والعسكر وهذا أمر لا يأتبه أكبر ملوك العالم بأسره وكذلك قتله لرؤساء فطاعته ولم يبال قط بأولادهم وأصحابهم وكان يسرى ليلا بين أولادهم وعيالهم ولا سيف معه ولا خنجر ولما أثار أبو ركوة الوليد بن هشام الفتنة خرج مولانا المعظم فلاقى حسن بن علوان ليلا فى خمسمائة فارس فوقف بينهم بغير سلاح وسأل كلا منهم عن مراده ثم دخل البستان وليس معه أحد غير غلام والمؤذنين قال ولما ظهرت فتنة المفرج كان الناس ينتظرون دخوله مصر هو وأصحابه وتسلمه عرش السلطنة فكان مولانا يخرج على عادته ويسير نحو الطريق

التي كان يؤمل دخول المفترج منها حتى وقع الخلاف بين زعماء الفتنة وعاد حسين بن جعفر الحسيني الى مكة خوفا من أن المفترج يوقع به وهذا أيضا مما لا يقدر على فعله أى ملك من ملوك الارض وكان مولانا يخرج في حيازة الحر في الغبار دون مبالاة وأصحابه يكادون يهلكون مما يعانونه وهو لا يظهر العرق على وجهه مع أنه كان يبيل أبواب أصحابه حتى ظهرها وهذه من الأدلة المنبئة لاهوية الحاكم عندهم * وذكر حجة في هذه الرسالة أيضا أمورا أخرى يضيئ المقام دون إرادها كلها ويقولون ان لاهوته لا يفارق ناسوته أبدا بل هما متلازمان أماما يتعلق بناسوت الحاكم وما جاء فيه من قولهم فيعرف من الأسئلة والأجوبة الآتية وهي

سؤال كم مرة ظهر مولانا الحاكم بالناسوت

جواب ظهر عشر مرات باسماء بشرية وهي عليّ والبارى والموئل والقائم والمعز والعزير وأبوزكريا والمنصور والحاكم

س أين وقع الظهور أو الكشف الاول

ج في الهند في مدينة اسمها شمشاتش

س أين ظهر البار أو البارى

ج في فارس في مدينة اسمها أصهان ؑ واسم الله عند الفرس بار خدای ؑ وعلى ظهر في اليمن والموئل في المغرب وكان ظهوره كانه رجل صاحب ألف جبل والقائم ظهر في مدينة المهديّة بالمغرب أيضا ثم جاء مصر وبني بابا اسمه رشيدية وأبوزكريا والمنصور ظهرا في المنصورية

ومما كتبه حجة بشأن ناسوت الحاكم وظهوره أن الظهور تم عدة مرات في القدم ولكنه لم يكن الدور الناسوتي وورد في كتاب الحجة أيضا ما محصله * اننا نظهر لكم في كتاب آخر أسماء مولانا الناسوتية التي اتخذها لنفسه عند ظهوره في الارض منذ خلق العقل الى زمن ظهور آدم الصفاء وعبادة الملائكة له وهي مدة سبعين دورا وبين كل دور سبعون أسبوعا وكل أسبوع سنة وكل سنة ألف سنة من سنى هذا الزمان وأبين لكم الاسماء أيضا التي اتخذها العقل وجنوده في تلك الادوار واسم كائناته كما أن اسم هذا الجيل هو الانساني أو البشرى وقال في كتابة أخرى اني أبين لكم الاسم الذي اتخذته في كل من تلك الادوار والاسم الذي كان للروح المضاد المدعو ابليس

وحجة عندهم هو ظهور العقل وعند ظهوره بين البشر سمي آدم الصفاء وكان له وزيران فعصيا فسمى أحدهما آدم العاصي والثاني آدم الناسي وأنه عند ما ظهر العقل المرة الاولى ظهر أيضا ناسوت الله باسم البار أو البارى * وكتب أيضا في بعض كتاباته يقول ؑ وقالوا الحاكم جل ذكره بار خدای يعنون بذلك ؑ الله ؑ عبد مولانا جل ذكره قال بعض الكتاب ومراد

جزء من هذه العبارة هو أن أسماء الخالق سبحانه وتعالى الواردة في الكتب الدينية هي كلها عندهم أسماء وزراء الحاكم فاسم الله تعالى اسم لاحد وزراء الحاكم وقال أيضا ﴿ قد كان مولانا في زمن شنغيل في ظاهر الامر يسمى ناسوته من حيث العالم البشرى بالبار أو البارئ فيقول الناس عند ذكرهم الحاكم «الحاكم بارخدای» والعرب تقول «الحاكم الله» قال وهذا لا يوافق فان «الله» اسم الوزير الاول يعنى للحاكم ولكن «بارخدای» معناه الاله الاعلى أو الالهة فهذا الاسم يوافق لمولانا أكثر من الاسم الاول قال وأما محمد بن اسمعيل فاسمه في تلك الكتب الناطق السابع وهو الثاني من الأئمة الذين هم سلف الخلفاء الفاطميين وفي أيام الثالث منهم ظهر الناسوت يعنى الحاكم باسم أبى زكريا وظهر في أيام الامام الرابع باسم على الاعلى فابو زكريا لم يكن ملكا في هذا العالم ثم ظهر العقل معه باسم فارون وفي آخر أيامه عند ما كبر وشاخ سمي بديار اليمن بالمهدى ثم ظهر أيضا النفس باسم أبى سعيد المظنى فلما كان الظهور الثالث يعنى للحاكم باسم الموثل كان في بلاد تدمر وفي الايالات المشرقية وكان ظهوره في شخص تاجر * وجاء في كتاب حجة المسمى بالنقض الخفى أن الناطقين سبعة وهم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى المسيح ومحمد وسعيد وهو عبد الله الخليفة الاول الفاطمى الملقب بالمهدى وهو أبو القائم أعظم الوزراء * أما ما جاء عن وزراء الحاكم في كتبهم وهم الذين لقبوهم بألقاب مختلفة كالسابق والناطق وغير ذلك قولهم ﴿ وقد نظرنا الى السابق والتالى والناطق والاساس والامام والحجة والقائم فرأيناهم كلهم عبيدا مزدوجين فعرفنا بان المعبود سواهم وعرفنا بتوفيق مولانا عز ذكره أن الهاء المشار اليها هي الخاتمة أى خاتمة الله وتعامه واللامين والالف خلف تالية وهو آخرهم ورابعهم وتعام القدرة به لانه لا يقال لاحد من الحدود يعنى الوزراء ما قيل له وهو المهدى الذى وقع عليه هذا الاسم الاعظم بقوله أبو القاسم ولا يجوز أن يقع هذا الاسم الاعلى أعظم الحدود ونهايتهم كما أن الهاء نهاية لاله الاله

وقد عمل حجة للدخول على الحاكم دستورا بعث به الى أبى عبد الله محمد بن وهاب قال فيه ما معصده ﴿ لا تحضر ليدى مالم تدع اليه ولا تكلمه الا مجيبا وتقول بصوت منخفض جدا السلام فليات السلام منك يا مولانا ويرجع اليك فانه لك ودينك مقام السلام أنت الميجل المجد باسيدنا المتعالى لك المجد والكرامة * وابل ان ترفع صوتك ولا تحرك يديك ولا تؤمن بعينيك ولا ترفع رأسك * وكان الناس يسجدون بين يديه ويقبلون الارض فاذا قابله أحد وهو راكب نزل عن مراكبه فاذا تقدم للسلام عليه سلم عليه من الجهة اليمنى واذا رفعوا له قصة كانت أسطرها فردية أى لا تكون زوجية وأن يكون كلام الناس معه بالفرد وعندهم أن هذه الامور كلها رموز في الدين التوحيدى لا بد من العمل بموجها وعندهم أن الحاكم لم يميت بل غاب عن الناس الى ساعة معلومة وهي القيامة التى

يعتبرون عنها بفوز الدين التوحيدى ومن الاسئلة والاجوبة الآتية يعلم بعض الشيء من معتقدتهم في ذلك

- سؤال ماذا نفهم يوم الدينونة
 جواب هو اليوم الذى يلبس فيه مولانا ناسوته ويدين الناس بالسيف الدينونة القوية
 س كيف يتم ذلك ومتى
 ج لا يعلم أى متى يكون ذلك غير انه لا بد من ظهور علامات أولية تعرف بها الساعة
 س ما هي هذه العلامات الاولية
 ج هي تصرف ملوك الوقت في الرعية على هوى أنفسهم وتسلط المسيحية
 س في أى شهر يتم ذلك
 ج في شهر جمادى أو رجب حسابا هجريا
 س ماذا ترك مولانا عند غيبته
 ج ترك سجلا معلقا في باب الجامع سماه بالسجل المعلق

وكان ملخص ما في السجل المذكور هذه العبارة الآتية ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * ان الاحسان في الاستقبال هو للذين حادوا عن السبيل المعوجة وابتعدوا عن حماقة الجهال وكان ايمانهم حقيقا الذين يؤمنون بالله تعالى وولاته وشهادته عند الناس ونوابه في الارض الذين سلم اليهم أمير المؤمنين أمور مخلوقاته وكذلك الاحسان للذين لا يخالطون الا الابرار الذين يخافون الله والذين يؤمنون باليوم الآخر ايمانا صحيحا قلبيا خاليا من الشك والريب والله سبحانه لا يحرم أهل الخير وفاء على البر جزء ما يستحقون وما العداوة والبغضاء الا للاشرار والعصاة والابالسة والخذاعين والكذابين الذين يقاومون الحق والمرائين الذين ينكرون اليوم الآخر وقد حى غضب الله عليهم وعلى الذين يسلكون السبيل المعوجة ﴿ ثم بلى هذا تعظيم الله سبحانه وتعالى والصلاة والسلام على النبي محمد وعلى آله وصحبه * ثم يأخذ كاتب ذلك السجل في تعنيف الموحدين وتوبيخهم على الالهام والتغافل والجهل الذى وقعوا فيه ويحذرهم من سوء العاقبة ويذكرهم بما حصلوا عليه من المنافع الزمنية والروحية من لدن الحاكم رحمة منه ومنه حيث أنعم عليهم بجميع الحقوق الشرعية التى تؤهلهم للتصرف فى أنفسهم وفى مقتنياتهم على أنهم لا يستحقون شيئا من ذلك ويستأنفهم الى ما نالوه من الهبات الوافرة والعطايا الجزيلة من الذهب والفضة وبياد الخيل والمشاة والانطاعات وغير ذلك وكيف ان الحاكم رفع أمرهم وأعلى مقامهم الى درجات العز والرفاهية ووسع سلطانهم شرقا وغربا فى السهول والجبال وفى البحر والبر حتى صاروا ملوكا وسلاطين تحمل اليهم الجزية من كل صوب ودرج ويقول ان ما منحهم

اياه من المنع الروحية انما هو تعزيز لشريعة الاسلام وتوحيد دعائم بنيانها واقامة شعائرها
 بتزيين المساجد وتوسيع المعابد وضرب صنوف الرق والمذلة على جميع اليهود والنصارى
 لاكرههم على اعتناق الاسلام دينا وانشاء مدرسة للفقه والتوحيد * الى أن قال في السجل
 المذكور * واعلموا معشر الموحدين أن ما نلتوه من الهبات الروحية وفزتم بالحصول عليه فهو
 نتيجة ولاءه وصداقته مع الامم الخارجية وهما علة مجدكم وشرفكم في هذا الحين مع
 أعلى السعادة والسلامة الابدية وهذه النعم انما هي لازدياد كنود الانسان وازدياد ذنوبه
 فوان كان أعداء الله وأمير المؤمنين لم يحاربوا الله وأمير المؤمنين خوفا منه ورهبة الا أن
 بعضهم حارب البعض الآخر واقتتلوا عاصين على الله عابثين بحرمة الدين مستخفين بمقام
 الامير مستصغرين الايمان فأراقوا الدماء وتعدوا على أعراض الناس فتضاربوا وضرب دينهم
 وضرب بهم نائب الله أمير المؤمنين فغضب الله سبحانه لذلك وغضب أمير المؤمنين من صنعهم
 وخروجه عن الطاعة فخرج لذلك أمير المؤمنين من بينكم لان الله سبحانه وتعالى قال
 لست بمعاقبهم حتى تخرج من بينهم فغضب نائب الله يدل على غضب الله سبحانه وقد
 ظهرت لكل ذى عينين علامات غضب الامام حيث أغلق أبواب أمته وأبطل مجالس
 الحكمة وأخرج من قصره مكاتب القواد والعبيد ومنع جميع الناس من التسليم عليه ومنع
 الجلوس على المقاعد حول قصره المقدس وامتنع عن إقامة الصلاة مع الجماعة في الاعياد
 والمواضع وشهر رمضان ومنع المؤذنين من الاذان ومنع أن يقال له مولانا وأن لا تقبل الارض
 بين يديه وأن لا ينزل الناس عن حميرهم وخبولهم اذا مروا به ولبس الصوف من ألوان
 مختلفة ومنع حاشيته وعبيده من السير في ركابه وامتنع من إقامة الحدود وغير ذلك والناس
 عن كل هذه العلامات غافلون فلذلك خرج أمير المؤمنين الذي هو نائب الله من بينهم وترك
 جميع المخالقات وشأنها جزاء ما فعلوه * فهلموا أيها الناس هلموا قائمين في بداية السبيل الذي
 سلكه أمير المؤمنين عند غيبته وشبهوا به أنتم وبنوكم مطهرين قلوبكم من الاعواء
 وأحسنوا النية أمام صاحب الكائنات وارجعوا اليه بقلوبكم واستغفروا ليقبلكم بارجاع
 نائبه ولا يخرج أحدكم مقتضا عن أمير المؤمنين ولا سائلا عما جرى ولا تنقطعوا عن
 الصلاة في مدخل تلك الطريق فائلم هنا نسكن وهنا نقيم فاذا حلت ساعة الرحمة ظهر
 نائب الله بينكم باختياره وادارته فقوموا بذلك في الليل والنهار قبل حلول اليوم الآخر
 وساعة الدينونة وقفل أبواب الرحمة والانتقام من العصاة اه وجاء في آخر السجل المذكور
 ما معناه قد كتبه عبد أمير المؤمنين في ذى القعدة سنة احدى عشرة وأربعمئة مع الامر
 بأن لا يمنع أحد من قراءته ولا استنساخه وحرم كل من يقدر على نسخه ولم يفعل
 قلت ولا غرابية من تسمية صاحب هذا السجل للحاكم في هذه المرة باسم أمير المؤمنين
 ونائب الله تعالى لان سجده هذا كان مكتوبا للعلم بأسره فالتمز في تحريره جانب التستر
 والمواربة ومع ذلك فإنه لا يبعد تفسير كل كلمة منه بحسب تعاليم دين الموحدين فاسم الله

سبحانه وتعالى عندهم ليس هو الا اسم لا هوت الحاكم ونائب الله وأمير المؤمنين هو اسم ناسوته * ولما غاب الحاكم وانقطع خبره عن أصحابه خاف زعماء دينه من الفتنة وردة أصحابهم فكتبوا لهم رسالة في بداية السنة الثانية عشرة والاربعمئة للهجرة يطمنونهم وعينونهم بالاماني البعيدة ولكي يباعدوا بينهم وبين السقوط في الخطا من جرى توهم ظهور اللاهوت بعد الغيبة في جسم آخر وفي تلك الرسالة ما محصله الى الموحدين المؤمنين بوحدة مولانا سعيد يوم الدين خضعوا وسلموا لكل ما يأمر به مولانا من تحوكم وأيقنوا أنه سعيد أنفسكم وأنفس جميع البشر وقد اعترفتم بوحده وتعهدهم بأن لا تكفونوا عبيدا لسواه فاحذروا الشكوك واخشوا الله ولا تخشوا الناس واتكلوا على حماية العالی ولا تخافوا الا من لا قدرة لاحد خلافه فاذا جاءت السنة وظهر الاضطهاد ظهر ثابت الايمان منكم اخواني انكم على يقين أن مولانا لم يخلو منسه الديار فان لم تبصره أعينكم فما ذلك الا لتفانم خطوبكم وكثرة ذنوبكم فافقهوا * قال بعض الكتاب والمراد من كلمة الدار هنا تجرد الحاكم في ثلاث من السنين وهي سنة ثمان وأربعمئة وعشر وأربعمئة واحدى عشرة وأربعمئة للهجرة * وعندهم أن ظهور الحاكم بعد تلك الغيبة تسبقه علامات مختلفة منها كشف ستر معلم الاديان الكاذبة منذ الدهور القديمة ومنها تهافت الناس قاطبة على الآثام والفجور والفساد والآراء الكاذبة ومنها ظهور الخداع الذى هو المسيح الدجال وله مخادع اسمه الحد غشاش فيحارب زمان القيامة بيت الامامة ويقاقل حتى ينكسر وينهزم ويكون خبر انهزامه خجسة في أرض الاقباط ويعقبها زلزلة تهدم بيسان الفسطاط وظهور مخادع آخر في مدينة الفسطاط ومن علامات اليوم الاخير عندهم خراب مدينة حلب بجيوش المسيح الدجال الذى يخرج منها ويقال يومئذ ان خداع زمان القيامة الحد غشاش قد خرج من حلب في يوم نحس وقد اجتمع الروم حول رايته فلا بد وأن يلتقى تلك المدينة في ويل وحرب ومن العلامات أيضا خراب جميع مساجد الشام بالزوال وضعف الايمان ووقوع الموحدین في شدة عظيمة للغاية وبلوغ النصرانية أوج الاعالی وغير ذلك مما لا يسعنا ابراده هنا

ومن الامور الاساسية في الدين التوحيدي عندهم معرفة وزراء الحاكم واحدا فواحدا الى قسمين ويجعلون لهم خمس رتب فالوزراء الاولون خمسة الوزير الاول حمزة ويقال له العقل والثاني اسمعيل بن محمد التيمى ويقال له النفس والثالث أبو عبد الله محمد بن الوهاب القریشى ويقال له الكلمة والرابع أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السمورى ويقال له السابق والخامس أبو الحسن على بن أحمد الملقب بهاء الدين ويقال له التابع وأما الوزراء الثانويون فهم أيوب بن على ويقال له المجد ورفاع بن عبد الوارث ويقال له الفخ ومحسن بن على ويقال له الخيال وأما غير هؤلاء فدعاة ونباء وغير ذلك ﴿ وورد في كتبهم عن الوزراء الخمسة الموحدین العظام ما نصه فريدان خمسة أحرف دليل على خمسة حدود النفسانيين والنورانيين والروحانيين والجرمانيين والجسمانيين وهو ذومعسة العقل الكلى

النفساتي وذو معية النفس الروحاني والجناح الرباني والايين الباب الاعظم وهو السابق
 والتالي معدن العلوم ومنه ابتناؤها اه وكتب حجة الى ابي الحسن علي بن احمد الملقب
 بالمقتنى وبهاء الدين ما صورته الى رابع الحدود النفسانيين وتالي الروحانيين تالي
 السابق الفضل الشيخ المقتنى بهاء الدين اه

أما أصل هؤلاء الوزراء فهم كما ذكره حجة في رسالته المسماة كشف الحقائق حيث
 قال ما معناه **﴿﴾** واعلم أن البارئ خلق من نوره الشعشائي شخصاً كاملاً وهو الإرادة التي هي
 سيد جميع الأشياء وسماه العقل فكان ككامل النور والقوة جمعت فيه الصفات الخمس
 الأصلية وضمن فيه كامل ما هو كائن وجعله امام الأئمة في جميع الأزمنة والأجيال وهو
 السابق الحقيقي لأنه سبق الجميع بالاعتراف بوحدة الخالق والعقل كائن يدرك ويقع تحت
 الحواس فياً كل ويشرب وليس كما قال عنه السابقون لا يدرك وهو أول الكائنات التي
 خلفها تعالى وسماه أيضاً علة العلل وهذا العقل تام العمل حكيم في السكون قادر في الحركة
 وهو نقطة البيكار يحكم على الأرضيات والسمويات وبه شرف الانسان ومجده في الزمانيات
 والروحيات وأول ما خلق الله العقل وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال وعزني
 وجلالي ما خلقت أجل منك شيئاً بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب فلما
 سمع العقل كلام البارئ نظر الى نفسه فرأى أن ليس له مثيل ولا نظير فظن أنه لا يكون له
 منازع ولكن مولانا جل ذكره أخرج من طاعته العصيان ومن نوره الظلام ومن دعته
 الكبرياء ومن حكمته الجهل وهي صفات أربع رديئة مضادة للصفات الأربع الحسنة وهي
 العقل وصفاته وهي نوقد العقل وقوة النور وراحة التواضع وبرودة الحكمة ورطوبة
 المادة فكل آلة روحية آلة مضادة تقاوم العقل وتعصيه فأدرك العقل أن ذلك إنما هو
 تجربة من الخالق له تأديباً على ظننه في نفسه الكمال فاعترف بضعفه واستغفره وسأله بأن
 يجعل له معيناً على الضد المخالف وخليفة ينوب عنه عند المؤلف ليستغنى به عن مخاطبة
 الضد ومشكلة الند فأجاب وخلق نفس الوزير ذي مصة من العقل وهو التابع الخاضع له
 وجعل له نصف ما للعقل فكان كالاتي والعقل كالذكر ولذلك يكون للذكر حظ الاتيين
 وجميع الوزراء أولاد هذين الكائنين فالذكر هو العقل والاتني النفس والوزير المسمى
 الكلمة هو تحت السابق والنفس تحت الكلمة والعقل فوق الجميع وهو روح الوزراء
 وسابق جميع القدماء ونور في الظلام يعني بذلك **(حجة)** الذي هو العقل قالوا وأما الارواح
 الضدية التي خرجت من نور العقل وجاءت النفس متوسطة بين نور العقل وكلام الضد لان
 النفس حاصلة على نور العقل فتسمع كلامه وتتفجع بأوامره ولكنها تشترك في ظلام الضد
 الحادث فتعرف حيله ومكره وخداعه وهو ذولين لانه في الاصل من نور العقل وما هو الا
 ظلام وظلم بالنسبة اليه ولكنه لين بالنسبة الى خشونة العالم والكلمة أخرجت من العقل
 لمعاونته ومعاونة النفس على الضد وصدر السابق من النفس وقامت الكلمة عن اليمين

والسابق عن اليسار فأسمى الضد مخاطبا بالعقل والنفس والكلمة والسابق فحاول أن
يفلت من تحتهم فسمى بالحائر حيث حار في نفسه ثم سمي بابليس لانه خرج من العقل
دون ارادته كمن ليس له أب لانه جاء على غير ارادة أبيه فهو ضد الاولاد الناموسيين أي
الموحدين الذين هم أولاد العقل وهو النور وأمهم الرجة وهي النفس اه

ولجزء أسماء كثيرة في كتبهم وهي لحالته الروحية المجردة عن الشخص الذي ظهر به
للتناس ومنها * السابق الحقيقي * وذومصة * والارادة * والعقل الكلي * والعقل *
وقائم الزمان * والباب * والامام * والآمر * وعلة العلل * والوزير الثاني يسمى
روحيا أيضا بالنفس * والنفس الكلي * والمشيتة * وذومصة * والتالي * وحنة
الامام * وداعي الامام * والوزير الثالث يسمى كذلك الكلمة * والجنح * والجنح
الرباني * وداعي القائم * وسفير القدرة * وصاحب السعادة * والكلام * والوزير
الرابع يسمى السابق * والصغير * والباب السابق * وباب حجة القائم * والباب الاعظم *
والجنح الايمن * ويسمى الوزير الخامس أيضا بالتابع * والتالي * والجنح الايسر *
ورابع الحدود * وآخر الحدود * ولهم أسماء غير ما ذكر أيضا وينسبون التعاليم الالهية
الى حجة للدلالة على نفسه وهي

سؤال كم مرة ظهر حجة وماذا كانت أسماءه
جواب قد ظهر في جميع الادوار من آدم الى النبي حمد أي سبع مرات (كذا في
الاصل الذي أخذنا عنه)

س ما هي الاسماء التي كانت له

ج كان اسمه في زمان آدم شطنيل وفي زمان نوح فيثوغوروس وفي أيام ابراهيم
داود وفي أيام موسى شعيا وكان المسيح الحقيقي في أيام يسوع وكان اسمه العازر
أيضا وفي أيام الهجرة كان اسمه سلمان الفارسي وفي أيام سعيد كان اسمه صالحا
من أين عرفنا شرف قائم الحق حجة بن علي علينا سلامه

س من شهادته بنفسه لنفسه حيث قال في رسالة التحذير والتنبيه * انا أصل مبدعان
ج المولى وأنا صراطه والعارف بأمره وانا الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور
وانا صاحب البعث والنشور النافع في الصور وانا امام المتقين وأنا صاحب النعم
وانا الناسخ للشرائع ومبطلها وأنا مهلك العالمين وأنا النار الموقدة التي تطلع على
الافئدة

س من هو نقطة البيكار

ج حجة بن علي

س ماذا نفهم بالطريق المستقيم

- ج حزة بن عليّ الذي يسمي أيضا قائم الحق وامام الزمان والعقل والسابق والنبي
الكريم وعلة العلل
- س من هو قائم الزمان
- ج هو حزة بن عليّ
- س ما ذا نقول عن الانجيل الذي هو في أيدي النصارى
- ج هو حقيقي وفيه كلام المسيح الحقيقي الذي كان يسمي في أيام صاحب الهجرة
سلطان الفارسي وهو حزة بن عليّ
- س من هو الذي قام من القبر ودخل والابواب مقفلة حيث كان التلاميذ مجتمعين
- ج هو المسيح الحى الابدى وهو حزة عبد مولانا الحاكم
- وقد اختلفت حزة هذا بعد اختفاء الحاكم وغيبته عن الناس فلم يعلم له خبر صحيح فقال
بهاء الدين الذي هو المقتنى في غيبة حزة المذكور ما معناه عند ما غاب المعبود * يعنى
الحاكم * امتنع قائم الزمان عن الوجود اه
- وكان بعد وظائف الوزراء الخمسة عندهم على أيام الحاكم ثلاث رتب أخرى للذين
تعلقوا بخدمة دين التوحيد عندهم ويعرفون بالدعاة والمأذونين والمكاسرين الذين يسمون
عندهم أيضا النقباء * قال حزة ما معناه * يصح للداعي أن يسير الدعوة مأذونا ومكاسرا
وقال عن الدعاة * اتمهم دعاة الاجلال البانينون بالكشف لدعاة الاعور الدجال المتفاضلون
بتصوير الحقائق وهم من أذن لهم بالكسر والجبر وبعدهم النقباء المنزهون عن الكذب
الذين يعرفون حقوق وزراء الحق * قالوا ومن أعمال الدعاة أنهم يدعون الناس الى
الاعتراف بالوحدانية والمأذونون يخضعون للدعاة وعليهم القيام بتنفيذ أوامره ولا يعلم من
كتبهم شيئا عن المكسرين ورجعا كان المقصود من اسمهم أنهم يكسرون الاعتقادات القديمة
الراسخة في عقول الناس ويهدونهم الى التمسك بالدين التوحيدى * ومن اعتقاداتهم ان
الله قال للدينا كوني فكانت على الحالة التي عليها الآن ذكورا واناثا وشيوخا وشبابا كهولا
وأطفالا آلاف الآلاف وجعلهم يتوهمون أن لهم آباء وأجدادا وأمهات وجمادات فكان كل
منهم يتوهم أن آباء فلان بن فلان وزاروا القبور فرأوا العظام وكان يقول هذا هو ذا قبر
والدى وذلك هذا قبر أمي وهلم جرا وكان كل انسان عارفا بعمله وصنعتة وحرفته فتوهموا
أنه منقول عن زيد وعمرو على أن ذلك لم يكن غيرهم وتخيل لجهل قوة البارى * قالوا ثم
أخذت الانفس تنقل من جسد الى جسد بموت الجسد الاول ويبقى هذا مدى الدوران *
وفيها ان الله سبحانه وتعالى معلم كل حرفة وعمل وعندهم أن أهل التنزيل هم المسلمون
وأهل التأويل هم النصارى وقد وضعوا في سؤالات وجوابات وهي
- سؤال ما هو اسم المسلمين
- جواب اسمهم التنزيل

- س ما هو اسم المسيحيين
 ج اسمهم التأويل الذين أولوا كلام الانجيل والمسلمون سموا بالتنزيل لانهم يعتقدون
 أن القرآن أنزل من السماء
- س كيف يدن الحاكم أصحاب الاديان الاجنبية عن التوحيد
 ج ينقسمون الى أربعة أقسام وهم المسيحيون واليهود والكفرة والموحدون
 س كيف تنقسم هذه الاقسام
 ج أما النصرى فهم النصيرية والتأولة وأما اليهود والمسلمون والكفرة فهم الذين
 تركوا دين مولانا الحاكم
- س ما هو قصدنا من مدح الانجيل
 ج ان قصدنا انما هو تمجيد اسم الحاكم بأمر الله وهو حجة نفسه لانه هو الذى علم
 الانجيل والانجيل مبنى على حكمة الهيئة ومعناه الرمزى يدل على الدين التوحيدي
 س ماذا تقول عن الشهداء الذين يعظم المسيحيون بسالتهم ويكثر عن عددهم
 ج نقول ان حجة لم ير من الموافق الاعتراف بهم ولذلك رفضهم ولو شهد بهم جميع
 المؤرخين
- س اذا قالوا لنا ان حقيقة دينهم مؤسسة على أدلة وبراهين أقوى من كلام حجة
 وأثبت منه فماذا يكون جوابنا وبأى شئ عرفنا جودة حجة بن على
 ج بشهادته لنفسه عند ما قال أنا أول خلق المولى
 س ما ذا تقول عن الانجيل الذى فى أيدى النصرى
 ج هو حقيقى لانه يتضمن كلام المسيح الحقيقى الذى كان اسمه فى أيام محمد سلمان
 الفارسى وهو حجة بن على والمسيح غير الحقيقى هو المولود من مريم فانه ابن يوسف
 س أين كان المسيح الحقيقى عند ما كان المسيح غير الحقيقى مع التلاميذ
 ج كان معهم وكان من تلاميذه وفاه بكلام الانجيل وعلم المسيح بن يوسف وأراه ماذا
 ينبغي أن يفعل ليكون عمله منطبقا على ناموس الدين المسيحى فكان يصغى اليه
 ويلتفت ثم انه خالف بعد ذلك المسيح الحقيقى فألقى بفضه فى قلوب اليهود فقاموا
 عليه حينئذ وصلبوه
- س ماذا جرى بعد الصلب
 ج دفن فألقى المسيح الحقيقى وأخذ من القبر وخبأه فى البستان ثم أذاع بين الناس
 أن المسيح قام من بين الاموات
 س لماذا فعل ذلك
 ج لانشاء الدين المسيحى ولحفاظ الناس على التعاليم التى علمهم اياها
 س لماذا فعل هذا كله وخدع الغير المؤمنين

ج فعل ذلك ليتمكن الموحدون من الاستئثار بالدين المسيحي بحيث لا يعلم أحد بهم
 س من هو الذي نهض من القبر ودخل المكان الذي كان التلاميذ فيه والابواب مغلقة
 ج هو المسيح الحى الذى لا يموت وهو حجة عبد مولانا الحاكم
 س من الذى أذاع الانجيل
 ج متى وهرقس ولوقا ويحنا وهم النساء الاربع
 س كيف لم يعرف النصرارى الدين التوحيدى
 ج لم يشأ الله ذلك وهو الحاكم بأمر الله * والله هنا اسم لحجة
 س كيف يمكن ان الله يستحسن الضرر ويرضى عن عدم الايمان
 ج قد جرت عادة مولانا أن يعرف البعض ويعرض عن البعض
 س اذا كان الوقوع فى عدم الايمان هو منه فلماذا يجازون عليه
 ج يجازون لاطهاره نفسه لهم وهم لا يطيعونه
 س كيف يطيعون رجلا قد خدع حيث كانت الاشياء مجهولة عنده كما ورد بسنا عليهم
 ومكرنا بهم
 ج لا يجب أن يحاسبوا على ذلك ولا يصح أن يطلب الى الحاكم تبيين أسباب
 تصرفه بعينه

وكانوا يعتبرون الديانة النصرانية ويجادلونها فقد عنونوا احدى رسائلهم الموسومة
 بالمسيحية للفتنى بهذه العبارة ❦ الى جميع من تقرب الى اللاهوت بحقيقة القربان وتمسك
 به من كل أهل الحق من قديس وبطرك ومطران ❦ ومن مذهبهم أيضا الاشتراكية أى
 انهم جميعا اخوة بعضهم لبعض ومن المقرّر عندهم ذب القوى منهم عن الضعيف والذود
 عنه جهد استطاعة وحمل كل فرد منهم لسلحه ليلا ونهارا للدفاع عند الحاجة فقد قال
 حجة ما معناه أطلب اليكم أن يذب بعضكم عن بعض فأنكم جميعا اخوة فاذا فعلتم ذلك
 كل ايمانكم واقضوا حاجات بعضكم الدينية والعالمية واقبلوا عذر بعضكم بعضا وكونوا
 أعداء من يخذعونكم وزوروا المرضى منكم وأحسنوا الى المساكين * وقال بهاء الدين
 اباكم وأن يحاكم بعضكم بعضا فان ذلك مجلبة للبوار * ولهم مباد وأصول وشرايط كثيرة
 لا يسعنا ايرادها هنا اكتفاء بهذا القدر نقلا عن أصدق الكتاب وأدقهم تميما للفائدة *
 وأقام الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله يتصرف فى الملك ويدير أموره على ما يشاء
 حتى كان من أمره ما سيذكر فى خلافة القائم بأمر الله

ومات فى خلافة القادر بالله نوقانيوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربع سنين وفى
 رواية أربع سنين وستة أشهر فقدّم المتأصلون بعده مينا وهو حادى ستهم وأصله من مدينة
 جولاً وكان راهبا بدير أبو مقار فأقام احدى عشرة سنة ومات نغلا الكرسى بعده سنة وقيل
 أقام سبع عشرة سنة فأقيم بعده أفرام أو هو ابراهيم السريانى ابن زرعى وهو ثانى ستهم

فأقام ثلاث سنين وقيل ثلاث سنين وستة أشهر ومات مسجوما من بعض كبار كتاب القبط على ما شاع يومئذ وسببه منعه من التسرى فخلا الكرسي بعده ستة أشهر وكان ورعا تقيا كثير البرحبا للفقراء غيورا على الدين جاهدا جهادا عظيما في ابطال التسرى وقد كان شائعا قبله قيل وظهرت على يديه عجائب كثيرة وآيات عديدة والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقائق وفي أيام ابراهام هذا بنيت عدة كنائس مما هدم بسبب الفتن المتتابعة والاحن المترددة وكانت أيامه كلها هدوا وطمانينة فلما مات أقيم بعده فيلوثاوس وهو ثالث سنين وكان راهبا بدير أبو مقار ووقع في أيامه من الحوادث ما سيدكر في محله

(الفصل السادس والعشرون)

(في خلافة أبي جعفر عبدالله القائم بامر الله بن القاسم بالله)

ثم قام بالامر بعد القادر بالله ولده أبو جعفر عبد الله القائم بامر الله جلست له البيعة وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة احدى وعشرين كما تقدم القول واستقرت الخلافة له وذلك سنة اثنين وعشرين وأربعمائة هجرية أي سنة ثلاثين وألف ميلادية قال أصحاب التاريخ وأول من بايع له الشريف أبو القاسم المرتضى وأنشده

فاما مضى جبل وانقضى * فمك لنا جبل قد رسا
واما فجنا يسدر التمام * فقد بقيت منه شمس الضحى
لتأخرن في محل السرور * وكم ضحك في خلال البكا
فيا صار ما أغمدته يد * لنا بعدك الصارم المنتضى

وهي طويلة للغاية وأرسل القائم بامر الله قاضى القضاة أبا الحسن الماوردى الى الملك أبي كالجار ليأخذ له البيعة ويخطب له في بلاده فاجاب الى ذلك وخطب له في بلاده وأرسل اليه هدايا جليظة وأموالا كثيرة فلم تستقر بالقائم الخلافة حتى قامت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعه قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك ان الملقب بالذكور عليه السلام أظهر العزم على الغزاة واستأذن الخليفة في ذلك فأذنه وكتب له دستوراً من دار الخلافة وأعطى علما فاجتمع له لقيف من الناس فسار واجتاز بباب الشعير وطاف الحرافى وبين يديه الرجال بالسلاح فيبيناهم على هذا الحال من التطواف اذ تحرك جماعة منهم وصاحوا بذكر أبي بكر وعمر وقالوا هذا يوم معاوى فتبعهم الجميع وصاحوا كذلك فنافرهم أهل الكرخ ورموهم وبارت الفتنة ونهبت دور اليهود لانهم قبل عنهم انهم أعانوا أهل الكرخ فلما كان الغد اجتمع السنة من الجانبين ومعهم جمع من الترك وقصدوا الكرخ فأحرقوا وهدموا الاسواق وأشرف

أهل الكرخ على خطر عظيم للغاية وسئل الخليفة في ذلك فأنكره إنكارا شديدا ونسب اليهم تخزيق علامته التي مع الغزاة فركب الوزير عند ذلك يريد تلافى الامر قبل استفعاله فووقت في صدره آجرة فسقطت عماتمه واشتد الحال واتسع الخرق وقتل من أهل الكرخ جماعة وأحرق وخرب في تلك الفتنة عدة أسواق كبيرة وعمائر واسعة وقتل العامة الكلالكي وهو صاحب العونة وأحرقوه ووقع القتال في أصقاع البلد من الجانبين واقتتل أهل الكرخ ونهبوا الاسواق وقطع الجسر ليفرق بين الناس وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة وأرادوا قطع خطبته ففرق فيهم المال وحلف لهم الايمان الغسلاظ فسكنوا ثم أعادوا الشكوى الى الخليفة منه وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته فلم يجبههم الى ذلك فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس للناس وضرب النوبة أوقات الصلوات وانصرف الطبائون لانقطاع الجارى لهم ودامت هذه الحال الى عيد الفطر فلم يضرب بوق ولا طبل ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط وما دخلت سنة ست وعشرين وأربعمائة حتى انفحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وزالت هيبتها أو كادت وعم الخلل وارتفع الامن حتى ان بعض الجند خرجوا الى قرية على مقربة من بغداد فلقبهم جماعة من الاكراد فأخذوا منهم دوابهم فذهبوا الى مراح الخليفة فنهبوا أشياء من ثمرته وقالوا للعاملين فيه أنتم عرفتم حال الاكراد ولم تعلمونا فبلغ الخليفة الحال فعظم عليه جدا ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الا كراد لهجزه وشدة وهنه واجتهد في تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والى الشهود بترك الشهادة والى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الاجناد ليعيبوه الى أن يحملهم الى ديوان الخليفة ففعلوا فلما وصلوا الى دار الخلافة أطلقوا وعظم أمر طائفة العيارين من الجند فصاروا يأخذون أموال الناس ليلا ونهارا ولا مانع يمنعهم لان الجند لا يحمون الا عن السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر كذلك العرب في البلاد فعانوا ونهبوا وفتحوا الطرق وبلغ النهب الى أطراف بغداد وأخذوا ثياب النساء فكانت فتنة شديدة ومحنة كبرى

وكان في أيام القائم بأمر الله أى سنة ثلاثين وأربعمائة قيام دولة السلاطين السلجوقية وانقراض دولة بنى بويه فكانت مدة ملكهم مائة سنة وسبعا وعشرين سنة ذكر ذلك ابن البطريق في تاريخه في حوادث سنة ست وأربعين وفي أيامه أيضا أى في سنة ست وستين وأربعمائة غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي من بغداد * قال أصحاب التاريخ وسببه أن دجلة طغى ماؤه وارتفع كثيرا وانفتح القورج عند المسناة المعزية وجاء في الليل سيل عظيم وطفح الماء من البرية وهبت ريح شديدة جدا وجاء الماء الى البيوت من فوق وفاض من البلايع والآبار بالجانب الشرقي فهدم البيوت وسقطت على ما بها من الخلق فمات خلق كثير فكثير السباح من كل صوب وحذب وترك الناس بيوتهم وهم يضحون ويضحون الى الله وقام الخليفة يتضرع ويدعو الله وعليسه البردة ويبيده القضيب واشتد الكرب بالناس وكبر

خوفهم وتهدم أكثر المقابر بالجانب الشرقي ومعظم الاسوار ودخل الماء من شبابيك
 البيمارستان العضدى وكانت شدة بالها من شدة * قال بعض الكتاب ومن عجيب ما يحكى
 في هذا الغرق أن الناس كانوا قد أنكروا كثرة المغنيات والجنود فقطع بعضهم أوتار عود
 مغنية كانت عند أحد العسكر فناربه ذلك الجندى فضر به فأجعت عند ذلك العامة وعلت
 الضوضاء وكان ممن اجتمع مع العامة كثير من الأئمة منهم أبو اسحق الشيرازى واستغلوا
 الى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وألحوا في ذلك فوعدهم الخليفة بأنه سيكتب
 السلطان في ذلك فسكتوا وتفرقوا وقد لازم الكثير من الصالحين الدعاء بكشفه فانفق أن
 غرقت بغداد ونال الخليفة والجنود من ذلك أمر عظيم وعمت مصيبته كافة الناس فرأى
 الشريف أبو جعفر بن موسى بعض الحجاب الذين كانوا يقولون للناس نحن نكتب السلطان
 في أمر الحانات والمغنيات ونسعى في تفريق الخلق وينتهرهم ويقول لهم اسكتوا الى أن
 يرد الجواب فقال له أبو جعفر قد كتبنا يا رجل وكتبتم جفاء جوابنا قبل جوابكم يعنى
 أنهم شكوا ما حل بهم الى الله تعالى فأجابهم بالغرق قبل ورود جواب السلطان اه
 ومع ما كان عليه الخليفة القائم من رقة الجانب وحسن السيرة وطيب الاخلاق والميل
 الى قضاء حوائج الخلق فإنه كان مغلوبا على أمره لا كلمة له البتة ولا رأى ولا صوت مع
 السطوقيين بعد بن بويه فكانوا اذا رأوا منه المحرافا عنفوه وهددوه وشددوا في المرافة
 عليه فكانت دار الخلافة كلها عيونا وأرصادا للسلطان وما زال الخلال هكذا حتى مات
 الخليفة سنة سبع وستين وأربعمائة لعشر ايام مضت من شعبان فكانت خلافته
 أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وقيل خمساً وأربعين سنة وفي رواية أنه خلع ثم أعيد
 الى الخلافة ثانية ولكن أصحاب التاريخ لم تذكر شيئاً من ذلك * قال صاحب الكامل
 وسبب موته أنه كان قد أصابه ما شرا فافتصد ونام منفرداً فأنفجر فصاده وخرج منه دم كثير
 ولم يشعر واستيقظ وقد ضعف وسقطت قوته فأيقن بالموت فأحضر ولى العهد ووصاه بوصايا
 وأحضر المنقيين وقاضى القضاة وغيرهم مع الوزير أبى جهمر وأشهدهم على نفسه أنه جعل
 ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله ولى عهده فلما مات غسله الشريف
 أبو جعفر بن أبى موسى الهاشمى وصلى عليه المقتدى بأمر الله وكان عمره ستاً وسبعين سنة
 وثلاثة أشهر وخمسة أيام * وكان القائم مليح الوجه أبيض مشرباً حمره حسن الجسم ورعا
 ديناً زاهداً عالماً قوى اليقين كثير الصبر ميلاً للعسئل قال محمد بن على بن عامر الوكيل
 دخلت يوماً الى المخزن فلم يبق أحد الا أعطاني قصة فامتلات أ كجى منها نقلت في نفسى
 لو كان الخليفة أخى لأعرض عن هذه كلها فألقيتها في بركة والقائم ينظر ولا أشعر فلما
 دخلت اليه أمر الخدم باخراج الرقاع من البركة فأخرجت ووقف عليها ووقع فيها بأغراض

أصحابها ثم قال لي يا غامى ماجلاً على هذا فقلت خوف الضجر منها فقال لانعد الى مثلها فانا ما أعطيناهم من أموالنا شيئاً انما نحن وكلاء

ومات في خلافته أبو الحسن علي الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله وكان موته في سنة سبع وعشرين وأربعمائة وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية الا أنه كان مشغولاً بلذاته محباً للدعة والراحة فقوض الأمور الى وزيره أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني لعرفته باخلاصه وكفايته ولما مات ولي ابنه أبو عييم معتمد ولقب المستنصر بالله ومولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة فكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في خلافة المقتدى بأمر الله * ومات في خلافة القائم أيضاً فيلوثاوس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربعاً وعشرين سنة وقامت في أيام فيلوثاوس طائفة الملكية على المتأصلين أهل البلاد الذين هم قبض مصر فأخذوا منهم كنيسة السيدة المعروفة بكنيسة البطرركرها وتسلمها ارسانوس بطرك الملكية فهرا فقامت لذلك الفتنة بين الفريقين واشتمت الخلاف وكثر الاخذ والرد وطال الحال على ذلك أياماً وكادت الفتنة تبلغ مبلغاً عظيماً لولا انخطوب المتابعة والكروب التراكمة فترك المتأصلون الامر الى حين آخر * ولما مات فيلوثاوس المسذكور أقيم بعده زخريس أو هو زخرياس رابع ستمهم وكان قيسياً بمدينة الاسكندرية فوقع له من البلايا والمحن ما سيذكر في محله

(الفصل السابع والعشرون)

(في خلافة أبي القاسم المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم بأمر الله)

ثم قام بالامر بعد القائم بأمر الله ولد له أبو القاسم عبد الله المقتدى بأمر الله بوبيع له بالخلافة يوم موت جده القائم بأمر الله سنة سبع وستين وأربعمائة هجرية أي سنة أربع وسبعين وألف ميلادية وحضر مؤيد الدولة بن نظام الملك والوزير نجر الدولة بن جهير وابن عميد الدولة والشيخ أبو اسحق وأبو نصر بن الصباغ وبقية النقباء وغيرهم من رجال الدولة والامائل فبايعوه * قال بعض الكتاب وكان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي وذلك أنه كان قد تولى غسل القائم فلما فرغ منه قام وبايع المقتدى وأنشده * اذا سيد منا خلا قام سيد * ثم ارتج عليه فقال المقتدى * قول بما قال الكرام فعول * ولم يكن للقائم من أعقبه ذكر سوى المقتدى فان الذخيرة أبا العباس محمد بن القائم توفي

أيام أبيه ولم يكن له غيره فتحقق الناس انقراض نسله وانتقال الخلافة من البيت القادري الى غيره وتوقعوا اختلال الاحوال بعد القائم لان من عدا البيت القادري من العباسيين كانوا يخاطون العامة في البلد ويجرون مجرى السوقه فاذا ولي أحدهم بحكم الضرورة لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة التي هي لآل البيت القادري وكان للذخيرة أبي العباس ولد القائم جارية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما مات ورأت ما نال القائم من المصيبة بانقراض عقبه ذكرت أنها حامل فتعلقت النفوس بذلك فولدت بعد موت سيدها أبي العباس لسنة أشهر ذكرا فسموه المقتدى واشتد فرح القائم وعظم به سروره وبالغ في الاشفاق عليه والمحبة له * قال بعض الكتاب فلما كانت حادثة الباسري (وهي طويلة) أضربنا عن ايرادها هنا) كان للمقتدى المذكور أربع سنين تقريرا فأخفاه أهله وحمله أبو الغنائم بن المطلبان الى حران فلما عاد القائم الى بغداد بعد قيام الفتنة واختلاف أمورهما بسبب الباسري المذكور أعيد المقتدى اليه فلما بلغ الحلم جعله ولي عهده واستقرت بالمقتدى الخلافة فأقر نحر الدولة بن جهير على الوزارة بوصية من جده القائم وسير جيد الدولة بن نحر الدولة بن جهير الى السلطان ملكشاه ليأخذ له البيعة وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجمل عن الوصف

ووردت الاخبار الى المستنصر بالله العلوي صاحب مصر بموت القائم وولاية المقتدى ففرح بذلك وظن بلوغ ماني نفسه وكتب الى صاحب مكة ابن أبي هاشم يسأله أن يعيد له الخطبة بمكة وكانت قد انقطعت وعادت الى العباسيين وأرسل له هدية سنوية للغاية ورسالته يقول فيها ان أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان وقد ماتا فأخطب لي نخطب له بمكة وقطع خطبة المقتدى فكانت مدة الخطبة العباسية بمكة أخيرا أربع سنين وخمسة أشهر ثم أعيدت في ذي الحجة سنة ثمان وستين فلم يتم للمستنصر هذا الامر حتى سار الاقيس من دمشق الى ديار مصر مع جيش عظيم يريد أخذها من المستنصر وكان قد أخذ دمشق بعد حروب أضربنا عن ايرادها هنا فحاصر مصر بعد وصوله اليها وأطال الحصار وشدد وضيق ولم يبق الا أن يملكها فاجتمع أهلها مع ابن الجوهري الواعظ في الجامع وبكوا وتضرعوا وابتلوا الى الله تعالى فاستجاب الله لهم لما خرجوا لقتال الاقيس المذكور انهزم من غير قتال وعاد على أقبج صورة بغير سبب فوصل الى دمشق وقد تفرق أصحابه فرأى أهلها قد صانوا مخلقيه وأمواله فشكرهم ورفع عنهم الطراج تلك السنة وأتى بيت المقدس فرأى أهله قد فجعوا على أصحابه ومخلقيه وحصر وهم في محراب داود عليه السلام فلما قارب البلد تحصن أهله منه وسبوه فقاتلهم حتى فتح البلد عنوة ونهب وقتل من خلقها كثيرا جدا حتى أعمال السيف فبين التجأ الى المسجد الأقصى وكف عن كان عند الصخرة وحدها قال صاحب الكامل هكذا يقول الشاميون هذا الاسم اقيس والصحيح أن اسمه أنسر وهو اسم تركي قال وقد ذكر بعض مؤرخي الشام ان أنسر هذا لما وصل الى ديار

مصر جعل أمير الجيوش يدرب العسكر واستمدت العرب وغيرهم من أهل البلاد فاجتمع معه خلق كثير واقتتلوا فانهزم أتسز وقتل أخ له وقطعت يد أخ آخر وعاد منهزما الى الشام في نفر قليل من عسكره فوصل الرملة ثم سار منها الى دمشق * وقال آخرون ولما وصل أتسز الى بلاد مصر ونزل بظاهر القاهرة أساء أصحابه السيرة في الناس وظلموا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا الافاعيل القبيحة فأرسل عظماء القرى جماعة فتقدموا الى المستنصر بالله العلوي يشكون اليه ما نزل بهم فأعاد الجواب بأنه عاجز عن دفع هذا العدو فقالوا نحن نرسل اليك من عندنا الرجال المقاتلة يكونون معك ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحا وعسكر هذا العدو قد أمنوا وتفرقوا في البلاد فنشور بهم في ليلة واحدة ونقتلهم وتخرج أنت اليه فيمن اجتمع عندك من الرجال فلا يكون له بك قوة فأجابهم الى ذلك وأرسلوا اليه الرجال وناروا كلهم في ليلة واحدة بن عندهم فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم ولم يسلم منهم الامن كان عنده في عسكره وخرج اليه العسكر الذي كان عند المستنصر العلوي بالقاهرة فلم يقدر على الثبات قبلهم فولى منهزما وعاد الى الشام مذعورا فتبعه العساكر المصرية وتقدمهم نصر الدولة وما زالوا خلفه وهو يحمي في السير حتى دخل دمشق فلقوه وحصروا دمشق وضيقوا عليها فأرسل اقيس الى تاج الدولة تنس يستنصر به فسار الى نصرته فلما سمع المصريون بقربه أجفلوا من بين يديه شبه المنهزمين وخرج صاحب دمشق يلتقيه عند سور البلد وكأنه ندم على الاستنجاد به فاغتناظ تاج الدولة من ذلك حيث لم يبعد في تلقيه وعاتبه فاعتذر الاقيس بأمر لم يقبلها تاج الدولة وقبض عليه في الحال وقتله ودخل دمشق بمن معه من الجنود وملكها وأخذ يتصرف في أمورها فأحسن السيرة في أهلها وعدل فيهم وذلك سنة احدى وسبعين وأربعمائة كما رواه ابن الهمذاني وغيره من العراقيين * وأما الخافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي صاحب تاريخ دمشق فقد قال ان تاج الدولة تنس المذكور كان ملكه لدمشق في سنة اثنتين وسبعين ولما كان شهر ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وصل أمير الجيوش في عساكر مصر الى الشام فحصر دمشق وضيق عليها وبها صاحبها تاج الدولة تنس وما زال يقاتلها ليلا ونهارا حتى أعياها أمرها ولم يظفر منها بشئ فرحل عنها عائدا الى مصر واتسعت كلمة تنس فلك حصا وغيرها من سواحل الشام وأخذ منها ما كان بيد صاحب مصر فسير أمير الجيوش بدرا وزير المستنصر عسكرا عظيما الى تلك الاطراف فقاتلها قتالا عنيفا حتى رجعت الى الطاعة وقرر أمير الجيوش أمورها وجعل فيها الامراء وولى مدينة صور أميرا اسمه منير الدولة الجوشي فلم تستقر به الولاية حتى عصى وخرج عن طاعة المستنصر فركب عليه أمير الجيوش في عسكره وكان أهل صور قد أنكروا على منير الدولة عصيانه على سلطانه فلما وصل أمير الجيوش بالعسكر المصري الى صور وأحاطوا بالبلد وقاتلها نار أهلها ونادوا بشعار المستنصر وأمير الجيوش وسلوا البلد فهجم العسكر المصري بغير مانع ولا مدافع ونهبوا ما في البلد من مال ومتاع وأسروا منير الدولة ومن معه

من أصحابه وجعلوا الى مصر فقتلوا عن آخرهم

وكانت أمور البلاد في قلق واضطراب بسبب المجاعة للعظيمة التي لم يسمع بمثلها من قديم الزمان * قال أصحاب التاريخ اشتدت المجاعة بمصر في هذه الايام أعنى في أيام المستنصر بالله العلوي حتى أكل الناس بعضهم بعضا وكان الكلب يباع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير واشتد الغلاء وعظم البلاء على الناس حتى شوهد في كثير من الاحيان أن مابقي من الكلاب كانت تدخل الدور وتأكل الاطفال وهم في المهود وآبؤهم وأمهاتهم ينظرون اليهم ولا يقدرون على النهوض لخلاصهم من شدة الجوع وكان الرجل يسرق ابن جاره وبذبحه ويأكله ولا ينكر عليه ذلك قالوا وكان في مصر حادة بها عشرون دارا كل دار يساوي ثمنها نحو ألف دينار يقال انها بيعت كلها بطبق خبز فسميت من ذلك الوقت بحارة الطباق وخرجت امرأة يوما الى السوق وبيدها عقد من الجوهر فقالت من يأخذ مني هذا العقد ويعطيني عوضه فبعتها فلم يجد من يأخذ منها فالتفت الى العقد وقالت اذا كنت لا تنفعني وقت الحاجة فلا حاجة لي بك وألقته على الارض وسارت مضطربة * ويقال ان وزير المستنصر ركب بغلة يوما الى دار المستنصر فلما نزل عنها أخذها غلمانها وأكلوها ولم يتركوا منها الا المشامش والجلد وكان الرجل يمشي من جامع ابن طولون الى باب زويلة ولا يرى في وجهه انسانا الا نادرا ولبت الحال على هذا الوصف أياما كثيرة مات فيها من الناس والبهائم وبقية الحيوانات ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وارتفع النيل على عادته وعم الاراضي وهبط ولم يوجد من يزرع الارض سنة * وكثرت الفتن في البلاد وعظمت نارها ما بين الاتراك وجمند السلطنة والسودان أتباع المستنصر وغلمانته الذين عليهم معتمده وقد كلفوا كثيرى العدد والعدد ولهم الكلمة النافذة والقول المطاع وكانت والددة المستنصر تهجج اليهم لانها كانت سوداء مثلهم وتحب ظهورهم على جماعة الاتراك وانفق أن المستنصر خرج يوما الى بركة عميرة التي هي بركة الحج على عادته ومعه جماعة من أصحابه وطائفة من السود وأخرى من الاتراك فتلوا هناك يتعاطون الحجر فأرط أحد الاتراك في شربها حتى سكر وقام ويده سيفه فأهوى به على أحد السود من أولئك الغلمان فصاح الاسود في وجه التركي وقام ببقية الغلمان عليه فقتلوه بسيفوفهم وانقضى ذلك اليوم وعاد المستنصر الى القاهرة فدخل عليه جماعة من كبار الاتراك وقالوا ان كان قتل صاحبنا باغراؤك فالسمع والطاعة والا فالسيف يحكم بيننا وبين السود فأنكر المستنصر ذلك وحلف انه لم يأمر بقتل صاحبهم فخرجوا من فورهم لقتال السود فاجتمع الفريقان واقتتلوا في الازقة والحارات في القاهرة ومصر قتالا عنيفا حتى جرى الدم فيها ثم افتروا على أن القاتل يسلم الى جماعة الاتراك وبقية الاحقاد كاملة في قلوب الفريقين حتى قدم الاتراك عليهم ناصر الدولة أحد كبار القواد المخلوعين فجمع كلمتهم وأحسن تدبير شؤونهم وجعل يتأهب لقتال السود فرأى جماعة السود أن لا قبل لهم على قتال الاتراك فتلوا الى الصعيد الاعلى فأنضم اليهم كثير من العربان والمصريين فقويت

فلزهم وكثرت جوعهم وانحدروا الى القاهرة والامكندرية وقالوا الاتراك واقوعوا بهم في كوم شريك فكانت الدائرة على السود وقد مات منهم خلق كثير وغرق منهم جماعة في النيل قال بعض الكتاب فكان من قتل وغرق منهم زهاء ثلاثين ألفا ومات مقدمهم المدعو أبا سعيد وكان من المقرئين عند والدة المستنصر فكبر عليها هذا الامر جدا وأحزنها وكثر عبث السود في القاهرة ومصر وسائر القرى والبلاد وعمم الخطب واستفعل أمر الفتنة وطالب الاتراك المستنصر بما لهم من الجوامك والمرتبات وألحوا في الطلب وركبوا على المستنصر وهددوه فاعتذر لنقاد ما في يده وطاولهم فلم يقنعوا وكانوا لا يتكفون عن مطالبته كل قليل من الزمان فسقط في يده وخرج يوما هائما على وجهه حتى دخل جامع عمرو بن العاص بفسطاط مصر وأقام به يريد خلع نفسه وترك أشغال الملك لمن يتولاه فلم يفلح وأعاد رجال دولته وألحوا عليه بالبقاء وعاد الاتراك والسود الى الفتنة وخرج بعضهم على بعض فاقتلوا ثانية عند الخيرة أياما كثيرة كانت الحرب بينهم سجلا ثم دارت الدائرة على السود فأوقع بهم الاتراك ومزقوا شملهم كل ممزق فترفعوا الى الصعيد الاعلى وعاد الاتراك الى القاهرة ومعهم مقدمهم ناصر الدولة وقد صغرت مهابة المستنصر في أعينهم فطالبوه بالزيادة في رواتبهم وما زالوا به حتى بلغت أربع مائة ألف دينار نقرة في كل شهر بعد أن كانت ثمانيا وعشرين ألفا فاشتد خوف المستنصر من ناصر الدولة وأصحابه وكبرت طيرته فكان لا يرتاح في أكله ولا شربه ولا فومه حتى في صلواته وكذلك كان وزراؤه فخلعوا أنفسهم من منصب الوزارة ومع ذلك كان الاتراك لا يتكفون عن مطالبته بالمال فأخرج كل ما كان في قصره من الذخائر الثينة والتحف الغالية التي كانت لأجداده وباعها لهم بأبخس الأثمان وقد كانت شيئا كثيرا جدا من الحلى والاحجار الكريمة والاوراق من الذهب والفضة والتماش والرياش والسروج المحلاة بالساقوت والزمرد والمرجان والسيوف الهندية مما لا يكاد يدخل تحت الحصر فلما استصفوا ما في قصره أخذوا أيضا ما كان في قبر أجداده من التحف والتفائس ونهبوا ما كان في خزانة الكتب من الكتب النفيسة * قال بعض أصحاب التاريخ وعددها عشرون ألف مجلد فاقتسموها بينهم وسيروا الى ابن المحترق حاكم الاسكندرية بشي كثير منها وكان يزعم أنه يخصه فلما بلغوا بالكتب بلدة أبيار خرج عليهم جماعة من عربان قبيلة لوانة فنهبوا واتخذوا لهم من جلود بعضها أحذية وأحرقوا بعضها وتركوا بعضها ملقى في بعض الدروب فلنمالت عليه الرمال حتى صار تلالا عظيما فكان يعرف بتل الكتب وكثر عبث جماعة الاتراك وازداد طغيان ناصر الدولة وعمقه فكاتب اليه المستنصر يوما يقول لما تقربت منا وتطلبت حمايتنا جمانك وأوسعناك هبات وخيرات فكافأتنا بالعقوق وماذا لك حملنا الا حقة فأقيمت عصا الشقاق في جيوشنا وبواطت مع ذوبك على دمارنا فالآن اخرج من عاصمتنا ونحن نضمن لك الامان ونأذن لك بأن تحمل معك من ثروتك ماشئت الى حيث شئت وان لم تدعن الى ذلك فالعقاب ان شاء الله شديد فلم يلتفت اليه ناصر الدولة فكبر الامر

على المستنصر وجع اليه قواد المغاربة وأمراء كنانة ومن استمالهم من قواد الاتراك وبينهم الامير دكوز صهر ناصر الدولة وكان نافذ الكلمة واسع الهيبة وكلهم في أمر ناصر الدولة وما يأتيه جماعة الاتراك في كل يوم من الجور والعسف وهدم أركان السلطنة وجدد عليهم بيعته فبايعوه وحلقوا الاعيان فتسلسل عند ذلك أصحاب ناصر الدولة وتفرقوا عنه الا القليل فخرج الى الجيزة ليدبر الحيلة في ذلك فنار أصحاب المستنصر وانتهبوا بيت ناصر الدولة وسائر بيوت أصحابه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وعم القتل والنهب وخرج المستنصر بالله راكبا على فرس في درعه وآلة حربيه وأمامه الطبول الحربيه وحوله القواد وبكار العسكر والاعلام تخفق على رأسه ونادى مناديه بالامان والطاعة الى السلطان فتوافد الاتراك زمرا ومزوا من تحت العلم الكبير وصاحوا بطلب الامان وجاء جماعة من كبار قواد ناصر الدولة ونعلوا كذلك وكثرت الغوغاء وارتفعت أصواتهم بالدعاء للسلطان فلما رأى ناصر الدولة ما حل بأصحابه وأيقن أنه مأخوذ لا محالة فتر هاربا في نفر من خواصه الى الاسكندرية وتحصن بها وجعل يدس الدسائس ويبعث البعث الى ما جاورها من المدن والبلدان لجل أهلها على الخروج عن طاعة المستنصر وخاع بيعته والمبايعة الى الخليفة القائم بأمر الله العباسي واستمال اليه جماعة من عربان أولاد علي وأمتهم بالمال فطافوا يحرضون الناس على الخروج فأفلحوا قليلا فالتحق عند ذلك ناصر الدولة الى القاهرة مع من وافقه يريد حصارها وأخذها من المستنصر وأحرق كل ما حربه من المدن والقرى والمزارع وعاث وأفسد حتى أحاط بسور القاهرة ونصب عليه المنجنيقات وجعل يقاتل من بها أياما ثم تقررت قاعدة الصلح بينه وبين المستنصر بالله على أن يكون بيد ناصر الدولة ما كان له من قبل بشرط الطاعة وحسن الولاء للمستنصر فأقام ناصر الدولة حينئذ لا يحرك ساكنا وقد علم بما آلت اليه حالة المستنصر بالله من الضنك والفاقة وذهاب نعمته حتى لم يبق عنده من حطام الدنيا غير سعادة قديمة وبعض أتواب بالية لا تستر عورته وثلاثة عبيد فأعظم ناصر الدولة هذا الحال جدا ورتب الى المستنصر في كل يوم مائة دينار ينفقها في حاجات بيته وكف عن مشاغبه وما زال ناصر الدولة على حاله من بسطة اليد والتصرف في سائر الامور حتى دخل عليه يوما دكوز صهره وهو جالس في ايوانه مع أخيه نخر العرب فقتلها واحتز رأسها وحملها الى المستنصر بالله فقويت عند ذلك عزيمة المستنصر بالله وتجددت آماله ونشط الى ارجاع سلطانه واعلاء كلمته فسير الى بدر الجمالى صاحب الشام يستقدمه الى مصر ليوليها سائر ما وراء بابه وألح عليه في ذلك فأجاب طلبه وسار بدر في جماعة كثيرة من أصحابه ذوى البأس والتجدة حتى جاؤا عكا وركبوا السفين فلم تكن الا أيام حتى بلغوا مصر ونزلوا ما بين تنيس ودمياط وسير بدر الى الشيخ سلمان عظيم البحيرة يعلمه بحضورهم فخرج اليه في جمع عظيم وساروا جميعا نحو القاهرة فلما وصلوا الى قلوب سير بدر الى المستنصر بالله يلزمه بالقبض على دكوز قبل دخولهم القاهرة فقبض عليه في الحال وسجنه في خزنة البنود فدخل بدر القاهرة

يوم الاربعاء سادس عشرى جمدى الاولى سنة سبع وستين وأربعمائة ولم يكن عند مقدم
الترك علم بمقدمه فجا منهم الامن أضافه فلما انقضت ضيافتهم أعد لهم وليمة فى داره وبيت
مع أصحابه ان القوم اذا جنهم الليل فلا بد أن يحتاجوا الى الخلاء فن قام منهم الى الخلاء
فاقتلوا ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه وأقطعهم جميع ما تركه المقتول من دار ومتاع
واقطاع فعاد القوم اليه وظلوا نهارهم عنده وباروا ليلتهم تلك فما طلع النهار حتى استولى
أصحابه على جميع دور من قتلوا وشاع الخبر بذلك ففرح المستنصر بالله وخلع على بدر
بالطلسان المقور وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر أرباب الدولة
رهن أمره وزيد فى ألقابه لقب أمير الجيوش كإقل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين
وارتفعت كلمة بدر الجمالى واتسعت شهرته فتبعض المفسدين بالقتل والتشريد فلم يبق منهم
أحدا وقتل من أمائل البلاد وقضاةهم ووزرائهم جماعة وسار الى الوجه البحرى فى
جند وخدم وأتباع فأسرف فى قتل أصحاب الفتنة والخوارج من لواته على عهد ناصر
الدولة واستصنى أموالهم وأخرّب دورهم ثم سار الى مدينة الاسكندرية فقتل بها من قتل
شرد من شرد حتى دامت الامور الى المستنصر بالله وعاد الى مصر ظافرا غانما ثم سار الى
الصعيد لقتال جهينة والثعالبة وكانوا قد أفسدوا فقتل منهم سبى وغنم من
الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر فصلى بما غنمه حال ذلك الصعيد بعد فساد * فلما
دانت للمستنصر الامور وبعث كلمته قدم عليه الحسن بن صباح رئيس الطائفة الاسماعيلية
فى زى ناجر واجتمع به وخطبته فى اقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها فأجابه الى ذلك فعاد
الحسن ودعا الناس اليه سرا ثم أظهر الدعوة فتبعه خلق عظيم وكثرت لمومه فقتل بهم
وملك القلاع والحصون وقال للمستنصر من امامى بعدك فقال له ابى نزار وكان نزار أكبر
أولاد المستنصر والاسماعيلية يقولون بامامة نزار الى هذا الحسين ثم كان من أمر
الاسماعيلية وظهورهم وقتالهم ما سبى عليك فى محله * وتزايدت محبة بدر للرعية ورفقه
بجالهم بعد الذى ذاقوه على عهد ناصر الدولة فأباح الارض لمن يزرع بغير مال ثلاث
سنوات فترففت حال الفلاحين واتسعت المزارع وأخصبت الارض وكثرت غلاتها فسدردت
الارزاق وهبطت الاسعار وشبع الجائع وأكل الفقير وامتلات مخازن الاغنياء وراجت
التجارة فهرع التجار الى مصر والقاهرة وجاءوا من كل صوب وحذب وعم الامن سائر الانحاء
وبلغ خراج مصر على يديه ثلاثة آلاف ومائة ألف دينار عينا وأقام البنائات العظيمة
وبنى دار الوزارة الكبرى وسماها الدار الافضلية فكانت مقره ومقر كل من يلى امره الجيوش
وبقيت كذلك الى أن انتقل الامر للايوبيين وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مع حشمة ووقار
قال علقمة بن عبد الرزاق العليمى قصدت بدرا الجمالى بمصر فرأيت أشرف الناس وكبراءهم
وشعراءهم على بابهم قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه فبينما أنا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد
فخرجت فى أثره ثم أقمت الى أن رجعت من صيده فلما قاربته وقفت على نشر من الارض

وأومات برقة في يدى وأنشأت أقول

نحن التجار وهذه أعلاقنا * ذر وجود عيـنك المبتاع
 قلب وقتشها بسمعك انما * هي جوهـر تختاره الاسماع
 كسدت علينا بالشأم وكلما * قل النفاق تعطل الصناع
 فأناك يحملها اليك تجارها * ومطها الآمال والاطماع
 حتى أناخوها يبابك والرجا * من دونك السمسار والبياع
 فوهبت مالم يعطه في دهره * هـرم ولا كعب ولا القعقاع
 وسبقت هذا الناس في طلب العلا * فالناس بعدك كلهم أتباع
 يا بدر أقسم لو بك اعتصم الورى * ولجوا اليك جميعهم ما ضاعوا

وكان على يد بدر بازي فآلقاه وانفرد عن الجيش وجعل يستعيد الابيات وهو يشدها
 الى أن استقر في مجلسه ثم قال لجماعة علمائه وخاصته من أجبني فليخضع على هذا الشاعر
 فخرجت من عنده ومعى سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وأمر لى بعشرة آلاف درهم
 فخرجت من عنده وفرقت كثيرا من ذلك على الشعراء اه

وطالت أيام بدر وعظمت نعمته وما زال يتصرف فى الامور ولا كلمة فوق كلمته
 حتى وافته منيته فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر ثمانون سنة فكانت
 أيام حكمه زهاء عشرين سنة يقال انه قتل فى خلالها من الخلائق ما لا يكاد يدخل تحت
 الحصر ومع ذلك فقد كان محبوبا مطاع الكلمة وافر الحرمة حزن عليه المستنصر حزنا
 عظيما وحزن عليه أهل مصر والقاهرة كافة وأقام المستنصر مكانه ابنه الافضل وولاه
 سائر ما وراء بابه فانطلقت كلمته واتسعت هيئته وظل يتصرف فى الامور حتى مات المستنصر
 بالله فى ثامن عشر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية وله من العمر سبع وستون
 سنة وخسة أشهر * ولما مات المستنصر ولى بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلى بالله وكان
 المستنصر قد عهد بالخلافة من بعده الى أكبر اولاده نزار فخلعه الافضل بن بدر الجمالى من
 ولاية العهد وبابح المستعلى بالله المذكور * قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أن
 الافضل ركب مرة أيام المستنصر ودخل دهليز القصر من باب الذهب را بكا ونزار خارج
 والمجاز مظلم فلم يره الافضل فصاح به نزار انزل بأرمى كلب عن الفرس ما أقل أدبك فخذها
 عليه فلما مات المستنصر خلعه خوفا منه على نفسه وبابح المستعلى فهرب نزار الى
 الاسكندرية وبها ناصر الدولة افسكين فبايعه أهل الاسكندرية وسموه المصطفى لدين الله
 فخطب الناس ولعن الافضل بن الامير بدر الجمالى وأعاناه أيضا القاضى جلال الدولة بن عمار
 قاضى الاسكندرية فسار اليه الافضل فى جيش عظيم وحصره بالاسكندرية فعاد عنه
 مقهورا ثم زاد فى عسكره وسار اليه فحصره وأخذه وأخذ أفسكين فقتله وتسلم المستعلى أخاه
 نزارا فبنى عليه حائطان وقاتل القاضى جلال الدولة بن عمار ومن أعاناه على الخروج

ولما كان الخامس عشر من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات الخليفة الأمام
المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة بن القائم بأمر الله أمير المؤمنين جَاءَ وكان
قد رفع اليه تقليد السلطان بريكارق ليعلم ما فيه وكان السلطان بريكارق المذكور قد جاء الى
بغداد وأرسل الى الخليفة يطلب الخطبة لنفسه فأجيب الى ذلك وخطب له ولقب ركن
الدين وجل الوزير عميد الدولة الخلع الى بريكارق فلبسها وعرض التقليد على الخليفة ليعلم
عليه فقراءه وتدبره وعلم ما فيه ثم قدم اليه طعام فأكل وغسل يديه وهو على أكل حال
وأحسن هيئة في نفسه وجسمه وبين يديه قهرمانته شمس النهار فقال لها ماهؤلاء الأشخاص
الذين دخلوا بغير إذن فالتفت فلم تر أحدا ثم نظرت اليه فرأته قد تغير وجهه واسترخت
يداه وانحلت قواه وسقط الى الارض قظنت أنه قد غشي عليه فاذا هو قد مات فأمسكت
عن البكاء واستدعت الوزير أبا منصور فبكيا ثم أحضرا أبا العباس أحمد المستظهر بن
المقتدى وكان قد عهد اليه أبوه فعزياه وهنأه بالخلافة ثم جهز مقتدى وصلى عليه ابنه
المستظهر بالله ودفن وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام وكانت خلافته
نسع عشرة سنة وثمانية أشهر غير يومين وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت
الخلافة على يديه وكان السلطان بريكارق مصمما على اخراجه قبل موته من بغداد الى
البصرة تخلصا منه إذ كانت حرمة وافرة وهيئته عظيمة جدا والقلوب مجمعة على طاعته وكان
قوى النفس عظيم الهمة من رجال بني العباس

(الفصل الثامن والعشرون)

(في خلافة المستظهر بالله أبي العباس أحمد)

ثم قام بالأمر بعد مقتدى بأمر الله وولد المستظهر بالله أبو العباس أحمد بويح له
بالخلافة يوم موت أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمائة هجرية أي سنة أربع وتسعين وألف
ميلادية بايعه الوزير ثم ركب الى السلطان بريكارق وأعلمه الحال وأخذ بيعته للمستظهر بالله
فلما كان اليوم الثالث من موت مقتدى جلس المستظهر للعزاء فحضر عز الملك بن نظام
الملك وزير بريكارق وأمراء السلطان وجميع أرباب المناصب العالية والقضاة والعلماء
فجلسوا في العزاء وبايعوا وكان للمستظهر بالله لما بويح ست عشرة سنة وشهران ليس الا
ولما استقرت به الخلافة جعل يتصرف في الامور فلم يكن له من حظها ما كان لأبيه
المقتدى بأمر الله لشدة السلطان بريكارق وبسطة يده على جميع الامور وكرهته لانتساع
نفوذ الخلافة وكانت أحوال سلطنة بريكارق مع ذلك في غاية الضعف والافلال لتغلب

الفرنجة على الكثير من بلاده وفتحها عنوة اذ كانوا الى سنة أربع وثمانين وأربعمائة قد
 ملكوا من بلاد الاسلام عدة مدن وتطرفوا الى أطراف افرقية فلكوا منها جزيرة سيسيليا
 التي كانت في يد الفاطميين بعد نزعها من أيدي الغاليين الذين هم قدماء الفرنسيين
 وذلك أنه لما كثر شغب أهل هاته الجزيرة وانقسم بعضهم على بعض واستعصى
 على المعز لدين الله العلوي اصلاح ما أفسده عماله أكثر من العزل والتولية في عمالها
 وشدد في مراقبتهم وتبعه في ذلك من أتى بعده من ذريته فلم يفلحوا أيضا وتفاقم
 الخطب وتطاولت أيدي الفرنجة الى دس الدسائس واغراء من بالجزيرة من المسيحيين
 الى الخروج وشق عصا الطاعة وكان المسلمون من أهل الجزيرة أيضا قد انقسموا الى
 حزبين مختلفين وشطرين متخاصمين وكان مقدم أحد الحزبين رجلا يقال له ابن تمامة
 وهو من عظماء القوم وبارهم فخرج في أصحابه لقتال الفريق الثاني فانتشبت الحرب بينهما
 ثم انجلت عن هزيمة ابن تمامة ومن معه ففر هاربا الى كاتان وكانت الى هذا الحين في يد
 الفرنجة فأكرم صاحبها وقادته وأمدته بالعدة والرجال وعلم الفريق الثاني بما آلت اليه حال
 ابن تمامة فطلبوا المدد من صاحب افرقية فأمدهم فكانت بين الفريقين حرب هائلة وكان
 ممن خرج مع ابن تمامة للقتال القمص دوجر في طائفة عظيمة من الفرنسيين فأبلى هذا القمص
 في عسكر افرقية بلاء حسنا وانتصر ابن تمامة وانهمزم من كان في تلك الجزيرة من المسلمين
 فدخلها دوجر وجعل يتصرف بدهاء وحكمة وما زال بأهلها حتى بايعوه سنة ثلاث وخمسين
 وأربعمائة هجرية وخرجت من يد العلويين كخروج غيرها من بقية المدن والبلدان
 وما زال دوجر يدير أمرها ويتصرف في ملكها حتى مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة
 هجرية فقام بالأمر بعده ابنه ولقب دوجر الثاني فزاد في عمارتها وبالغ في تحسين أحوالها
 حتى زهت وغنيت وكثرت خيراتها وتنعم أهلها براحة العيش بعد العناء والشدة وفي سنة
 تسعين وأربعمائة خرج الفرنجة أيضا الى بلاد الشام وساروا في جيش عظيم للغاية وقصدوا
 انطاكية وصاحبها يومئذ آباغسيان وكان أهل انطاكية من المسلمين والنصارى يخاف
 آباغسيان أن تغدر به النصارى وتخذله فلما علم بقرب الفرنجة أخرج المسلمين من أهلها
 ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر خندق حول البلد ثم أخرج من الغد النصارى لعل الخندق
 أيضا ليس فيهم أحد من المسلمين فعملوا فيه الى العصر فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال
 لهم انطاكية لكم فلا بد وأن تهووا لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنجة فقالوا ومن
 يحفظ أبناءنا ونساءنا قال أنا أخلفكم فيهم فساروا الى عسكر الفرنجة فقبلهم ريشارد ملك
 الفرنجة وأزلهم منزلا رحبا وحاصر ريشارد بعسكره البلد تسعة أشهر وظهر من شجاعة
 آباغسيان وجودة رأيه وحزمه ما لم يشاهد من غيره فلما طال مقام ريشارد على انطاكية
 راسل الذي كان على برج الوادي من أبراج البلد واسمه بروزبه وبذل له أموالا واقطاعا
 فلما تقرر الأمر بينهما أفرج لعساكر ريشارد عن البرج فتقدموا من ناحيته وتسلق جماعة

كثيرة منهم بالجهال وما زالوا يتسلقون حتى زادت عدتهم عن الخمسمائة ثم ضربوا البوق وكان
 ذلك عند السحر والجند والحراس نيام فاستيقظ آباغسيان وسأل عن الحال فقبل ان هذا
 البوق من القلعة ولاشك أنها قد ملكت فدخله الرعب وأمر بيباب البلد ففتح وخرج هاربا
 في ثلاثين غلاما على وجهه وخرج نائبه أيضا من باب آخر ودخل عسكري ريشارد البلد فنهبوا
 وقتلوا من فيه من المسلمين وملكوه فلما سمع ملوك الاسلام بما جرى على انطاكية اجتمع
 منهم قوام الدولة كروبوقا ودقاق بن تنش وطغتكين أتائبك وجناح الدولة صاحب حص
 وأرسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن ارتق وغيرهم من الأمراء وتحالفوا على استخلاص
 انطاكية من يد ريشارد وساروا في جوع كثيرة نحو انطاكية فما اقتربوا منها حتى وقع
 الخلاف بينهم وأساء كروبوقا السيرة مع من معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم
 وانفرد بالكلمة ظنا منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال فأضمرؤا له سوء وعقدوا
 النية على خذلانه اذا التقوا بجيوش الفرنجة فلما أحاطوا بانطاكية خرجت جيوش الفرنجة
 لقتالهم وضربوا مصفا عظيما فوق الخوف في قلوب المسلمين وانهمزوا شرهزيمة ولم يضرب
 أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وانهمز كروبوقا وتبعهم الفرنجة فقتلوا منهم
 خلقا كثيرا وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فكان
 شيا لا يكاد يدخل تحت الحصر * ولما وردت الأخبار الى مصر بهزيمة الترك عن انطاكية
 وضعفهم وتفريق كلمتهم طمع أبو القاسم المستعلي بالله صاحب مصر في استخلاص بيت
 المقدس من تاج الدولة تنش وكان قد أقطعه للأمر ستمان بن ارتق فسير اليه عسكرا
 ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش فحصره وبه الأمير ستمان وابيلغازي ابنا ارتق
 وابن عمهما سويج وابن أخيهما ياقوق ونصب عليه الأفضل نيفا وأربعين منجنيقا فهدم
 مواضع من سورهم وقاتلهم أهل البلد فدام القتال والحصار نيفا وأربعين يوما ومذكوره
 بالامان وأحسن الأفضل أمير الجيوش المصرية الى ستمان وابيلغازي ومن معهما وأجرل لهم
 العطاء وسيرهم فساروا الى دمشق ثم عبروا الفرات فأقام ستمان ببلد الرها وسار ابيلغازي الى
 العراق واستناب الأفضل في بيت المقدس رجلا يعرف بافتخار الدولة فبقي فيه **❦** ولما فرغ
 ريشارد من قتال المسلمين على انطاكية وأخذها سار بعسكره ومن معه من أمراء الفرنجة
 الى عكا وحاصروها أياما كثيرة فلم يقدرؤا عليها فساروا عنها الى بيت المقدس وحصلوه نيفا
 وأربعين يوما ونصبوا عليه برجين أحدهما من ناحية صهيون فقوى عليه المسلمون وأحرقوه
 وقتلوا كل من به فلم يفرغوا من احراقه حتى أتاهم المستغيث بان المدينة قد ملكت من
 الجانب الآخر ودخل الفرنجة البلد وركب الناس السيف ولبث الفرنجة أسبوعا يقتلون
 فيه المسلمين واحتى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقتلوا فيه ثلاثة أيام
 فبذل لهم الفرنجة الأمان فسلموا اليهم ووفى لهم الفرنجة وخرجوا ليلا وقتل الفرنجة بالمسجد
 الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم

وزهادهم وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشاحي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقرة ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء رواء صاحب الكامل وكانت شدة عظيمة للغاية على المسلمين وتمكن الفرنجة من البلاد واستتبت أقدامهم ولم يقدر المسلمون على ردهم لتفرق كلمة سلاطينهم واختلاف أهواء أمراءهم فقال أبوالمظفر الأبيوردى في هذا المعنى أيامنا

مزجنا دماء بالدموع السواجم * فلم يبق مناعضة للمراحم
 وشر سلاح المرء دمع بفيضه * إذا الحرب شبت نارها بالصوامر
 فهيا بني الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحقن الذرى بالنامم
 أتهوية في ظل أمن وغبطة * وعيش كتوار الخيلة ناعم
 وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم
 واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكي وأبوطون القشاعم
 تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجزون ذيل الخفض فعل المسالم
 وكم من دماء قدأ بيحت ومن دعى * لوأرى حياه حسنها بالمعاصم
 بحيث السيوف البيض محمزة الطبا * وسمر العوالى داميات الالهائم
 وبين اختلاس الطعن والضرب وفقة * تطل لها الولدان شيب القوادم
 وتلك حروب من يغب عن غمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم
 سلن بأيدى المشركين قواضبا * ستخدمهم في الطلى والجماجم
 يكاد لهن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت بأآل هاشم
 أرى أمتى لا يشرعون الى العدا * رماحهم والدين واهى الدعائم
 ويجتنبون النار خوفا من الردى * ولا يحسبون العارضبة لازم
 أترضى صنائدا الاعارب بالاذى * ويغضى على ذل كآة الاعاجم

ومنها

فليتهم اذ لم يذودوا حمية * عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
 وان زهدوا في الاجراذ جس الوفا * فهسلا أتوه رغبة في الغنائم
 لتن أذعنت تلك الخياشيم للبرى * فلا عطسوا الا باجدع راغم
 دعوناكم والحرب ترنو ملحمة * الينا بالحفاظ النصور القشاعم
 ترافب فينا غارة عربية * تطيل عليها الروم عض الابهام
 فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا الى أعدائنا بالجرائم

فاستعظم المستعلى صاحب مصر ماتم على أهل القدس واغتم له ورسم الى الافضل أمير الجيوش بقتال الفرنجة واستخلاص بيت المقدس منهم فحشد الافضل جيشا عظيما وسار الى

عسقلان وأرسل الى الفرنجة ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم بالقتال فأعادوا الرسول بالجواب
 ورحلوا على أثره بخيلهم ورجلهم وطلعوا على المصريين عقب وصول الرسول ولم يكن عند
 المصريين خبر بوصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال فلما أحسوا بهم نادوا
 في الجند بالخراب ووج وكثر النداء بركوب الخيل فأجملهم الفرنجة فهزموهم وقتلوا منهم خلقا
 وغنموا ما في المعسكر من مال وسلاح وغير ذلك وانهمز الافضل ودخل عسقلان وهرب الكثير
 من جنده فأختفوا في شجر جيز كان هناك كثيرا فأحرق الفرنجة بعض الشجر فمات من كآفوا
 فيه وأعملوا السيف فممن خرج منهم ثم عاد الافضل في نفر قليل من خواصه وأتباعه الى مصر
 ونزل الفرنجة عسقلان وضيقوها فبذل لهم أهلها قطعة اثني عشر ألف دينار وقيل
 عشرين ألف دينار فعادوا الى بيت المقدس ظافرين غائبين وعظم أمرهم فلكوا أكثر
 سواحل الشام وغيرها مما لاعلاقة له بنا هنا * وانكف المستعلي عن قتالهم بعد هزيمة الافضل
 أمير جيوشه عند عسقلان واهلاكهم لعسكره وكذلك تشاغل عنهم السلطان بريكارق بقتال
 أخيه السلطان محمد وغيره من الامراء الذين خرجوا عن طاعته ومزقوا سلطنته لاسيما طائفة
 الباطنية الذين هم الاسماعيلية أصحاب الحسن بن الصباح الذي تقدم ذكر خبر حضوره الى
 المستنصر صاحب مصر ومخاطبته اياه في اقامة الدعوة له بأرض العجم بأسرها وجعلهم نزار ولده
 امامهم بعد المستنصر المذكور فقد كان عظم شرهم وكبر أمرهم وخافهم الامراء والعظماء
 والقواد والخنود وتبعوا طريقهم صاغرين وانبتت تعاليمهم في أكثر المدن فظفروا بها وأقاموا
 القلاع والحصون وجندوا الاجناد وكادت تم دعوتهم المشرق بأسره * وحيث قد وعدنا بأن
 نأتي على ذكر حال هذه الشيعة مفصلا في محله * وهذا محله الآن * فها نحن نتلو عليك ما قاله
 أصحاب التاريخ وأجمعوا عليه من أحوال هؤلاء الشيعة التي كانت تسمى قبلا بالقرامطة قالوا
 كان ابتداء ظهور دعوتهم الاخيرة التي اشتهرت بالباطنية والاسماعيلية في أيام السلطان ملك
 شاه وكان أول ما انكشف من أمرهم أنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلا فصلوا صلاة العيد
 في ساوة على طريقهم الشيعية فظن بهم أصحاب الشحنة وانكشف لهم بعض ما تخفي من
 أمرهم فقبض عليهم واعتقلوا اياما ثم أفرج عنهم بشفاعه بعض الوجوه والاعيان فكان ذلك
 أول اجتماع لهم ظاهر للناس ولما أطلقوا من الحبس أقاموا بساوة يدعون الناس ويكاشفون
 بعضهم ثم ساروا الى أصبهان يدعون أيضا فكان ممن دعواهم مؤذن من أهل ساوة كان مقيما
 بأصبهان فلم يجبههم الى دعوتهم فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه فكان أول قبيل لهم وأول دم أراقوه
 فبلغ خبر قتله نظام الملك فأمر بأخذ من ينم بقتله فوقع التهمة على نجار اسمه طاهر
 فقتل ومثل به وجروا برجله في الاسواق فكان أول قبيل منهم وكان والد طاهر هذا
 واعظا أتى بغداد مع السلطان بريكارق سنة ست وثمانين وأربعمائة هجرية فخطب منه ثم
 قصد البصرة فولى القضاء بها ثم توجه في رسالة الى كرمان فقتله العامة في الفتنة التي جرت
 وقالوا انه باطني وتقوى الباطنية واشتد أمرهم بمن انضم الى شيعتهم من العظماء والقواد

وظهور دعوتهم فتمكنوا من قتل نظام الملك فكان لفعالهم هذا أثر مهم للغاية وكان أول فتكة مشهورة لهم ولذلك كانوا يقولون قتل نظام الملك منا نجارا فقتلناه به ثم نزلوا ببلد عند قاین وبها مقدمهم فاجتمعوا عنده فتقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من کرمان الى قاین فخرج عليهم المقدم المذكور ومعه أصحابه ومن اجتمع اليه من الباطنية فقتل أهل القفل جميعهم ولم ينج منهم الا رجل تركاني فوصل الى قاین فاجبر بالقصة ففسارح أهلها مع القاضي الكرمانی يريدون قتالهم فلم يفلحوا ورجعوا عنهم وفشا مذهبهم بين جنود السلطان بركيارق وتقوى به كثير منهم وزاد أمرهم فصاروا يهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى انه لم يتجاسر أحد لا أمير ولا مقدم على الخروج من منزله الا حاسرا فيلبس تحت ثيابه درعا حتى ان الوزير الاغر أبا المحاسن كان يلبس زردية تحت ثيابه واستأذن السلطان بركيارق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم بمن يقاتلهم فأذن لهم في ذلك وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم

ولما مات السلطان ملكشاه وقد تمكنوا من قتل نظام الملك عظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم واجتمعوا في أصهبان بعد أن كانوا متفرقين واتخذوا أصهبان مقرا وعظم شرهم فصاروا يسرفون من قدروا عليه من مخالفهم ويقتلونهم وقد فعلوا ذلك بمخلق كثير وزاد الامر وكثر خوف الناس فكان الرجل اذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد يتقن أهله قتله ووعدهوا للعزاء فتحذر الناس وصار لا يتقرد أحد خوفا من فتك الباطنية ودعا أحدهم جارا له الى مذهبهم فلم يقبل فأخذوه وأخفاه فقام أهله للنياحه عليه فأصعده جماعة من الباطنية الى سطح داره من غير أن يشعر به أحد وأروه أهله كيف يلطمون ويبيكون عليه فنظر اليهم وهو لا يقدر أن يتكلم خوفا منهم واشتد الحال بالناس في أصهبان وهاجر الكثير من أهلها فرارا من فعال هؤلاء الطغاة واتفق أن رجلا بأصهبان دخل في دار صديق له فرأى فيها ثيابا ومداسات وملابس لم يعهدها فدخلته الظنون وخرج من عنده وأخبر الناس بما رآه فكشف الناس عنها فعلوا أن صاحب الدار من الباطنية وأن الملابس هي من ملابس الناس الذين قتلهم الباطنية فثاروا جميعا يبحثون عن قتل ويستكشفون فظهروا على الدروب التي تسكن فيها تلك الطائفة وعلما أنهم كانوا اذا اجتاز بهم انسان أخذوه الى دار منها وقتلوه وألقوه في بئر في الدار قد صنعت لذلك وكان على باب درب من دروبهم رجل أعمى فاذا اجتاز به انسان يسأله أن يقوده خطوات الى باب الدرب فيفعل ذلك فاذا دخل الدرب قبض عليه وسله الى جماعة منهم فيقتلونه فلما انكشف أمرهم وعلم الناس بما هم عليه قاموا فومة رجل واحد وتجرد للانتقام منهم أبو القاسم مسعود بن محمد البخندي الفقيه الشافعي وانضم اليه لقيف الالهالي بالاسلحة وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران وجعل العامة يقبضون على الباطنية جماعات وفرادى فيلقونهم

في النار وأوقفوا جماعة يشعلون النيران وسبوا أحدهم مالكا فقتلوا منهم خلقا كثيرا وتفرق
من بقي واختنى وكذلك نار بهم جاولى سقاو وصاحب البلاد التي بين رامهرمز وأرجان
وذلك لانهم لما ملكوا القلاع والحصون بخوزستان وفارس وغيرها وكثر شرهم وقطعوا
الطريق بتلك البلاد وقتلوا وسبوا وفعلا ما لاخير فيه انفق جاولى المذكور مع جماعة من
صناديد أصحابه على أن يظهروا الشغب عليه ويخرجوا عن طاعته ويفارقوه ويقصدوا
الباطنية ففعلوا وأظهروا أنهم معهم وعلى مذهبهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم ثم أظهر
جاولى أن الامراء من بني برسق يريدون قصده وأخذ بلاده وأنه عازم على مفارقتها للجزء
ردهم وأنه يريد همدان فلما شاع هذا الخبر وسار قال من عند الباطنية من أصحابه لهم
الزأى اننا نخرج الى طريقه ونأخذه وما معه من الاموال فساروا اليه في ثلثمائة من
أعيانهم وصناديدهم فلما التقوا نار من معهم من أصحاب جاولى عليهم ووضعوا السيف
فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر سعدوا الى الجبل وهربوا وغنم جاولى مامعهم من دواب
وسلاح وغير ذلك وركب عليهم أيضا السلطان بريكارق وقتل منهم خلقا كثيرا للغاية فكادت
تضعف شوكتهم وتزول هيبتهم وانكفوا عن أفاعيلهم فقل أذاهم واطمأنت قلوب الناس
واستراحت واختنى بكاهم وتبعهم بريكارق فكان لاينظر بأحد منهم الا قتله وشهره

وأقام المستعلي يدبر الامور بصر الى أن مات سنة خمس وتسعين وأربعمائة لسبع عشرة
خلت من شهر صفر فكانت سلطنته سبع سنين وقريبا من شهرين فولى بعده ابنه أبو علي
المنصور بويج له في اليوم الذي مات فيه أبوه وله خمس سنين وشهر وأربعة أيام ولقب الأمر
بأحكام الله ولم يكن ممن تولى قط أصغر منه ومن المستنصر فقام بتدبير دولته الافضل بن
أمير الجيوش أحسن قيام وأخلص في خدمته غاية الاخلاص ﴿ قال ابن يسر في تاريخه
لما تولى المستعلي أحضر الافضل أباعلى وباعه بالخلافة ونصبه مكان أبيه ولقبه بالأمر
بأحكام الله وكان له من العمر خمس سنين وشهر وأيام فكتب ابن الصيرفي الكاتب السجل
بانتقال المستعلي وولاية الأمر وقرئ على رؤس كافة الاجناد والامراء وأوله من عبد الله
ووليه أبي علي الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين بن الامام المستعلي بالله الى كافة أولياء الدولة
وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاها شريفهم ومشر وفهم وأميرهم ومأمورهم مغربهم
ومشرقهم أجزهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم بارك الله فيهم * سلام عليكم فان أمير المؤمنين
بمحمد اليك الله الذي لا اله الا هو ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه
وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما ﴿ أما بعد ﴿ فالجد لله المنفرد
بالنبات والدوام الباقى على تصرف الليالى والايام القاضى على أعمار خلقه بالتمضى
والانصرام الجاعل نقض الامور معقودا بكال الاتمام جاعل الموت حكا يستوى فيه جميع
الانام ومنه لا يعصم من ورده كرامة نبي ولا امام والقائل معزيا لنيبه ولكافة أمته كل
من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام الذى استدعى الأئمة لهذه الامة ولم

تخل الارض من أنوارهم لطفا بعباده ونعمه وجعلهم مصابيح الشبه اذا غدت داخية مدلهمة
لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ولا يكون أمرهم عليهم نعمه بحمده أمير المؤمنين حمد شاكرا
على ما نقله فيسه من درج الامامة ونقله اليه من ميراث الخلفه صابرا على الرزية التي
أطار هجوعها الالباب والفيجعة التي أطال طروقها الاسف والاكآب ويسأله أن يصلى
على جدته محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ومجلى غياهب الكفر ومكشفا عمائه الذي
قام بما استودعه الله من أمانته وحمله على أعباء رسالته ولم يزل هاديا الى الايمان داعيا
الى الرحمن حتى أذعن المعاندون وأقر الجاحدون وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون
حينئذ أنزل الله عليه اتماما لحكمته التي لا يعترضها المعترضون ثم انكم بعد ذلك لميتون
ثم انكم يوم القيامة تبعثون صلى الله عليه وعلى آخيه وابن عمه وأبناء أمير المؤمنين على بن
أبي طالب الذي أكرمه الله بالمرتلة العلية وانتخبه للامامة رافة بالبرية وخصه بغوامض
علم التنزيل وجعل له مبرة التعظيم مزية وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل عن
سواء السبيل وعلى الأئمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهم آباؤنا الابرار المصطفين
الاختيار ما تصرفت الاقدار وتوالى الليل والنهار وأن الامام المستعلى بالله أمير المؤمنين
قدس الله روحه كان ممن أكرمه الله بالاصطفاء وخصه بشرف الاجتباء وممكن له في بلاده
قامتدت أفياء عدله واستخلفه في أرضه كما استخلف أباه من قبله وأيده بما استرعاه أباه
بهديته وارشاده وأمدته بما استحفظه عليه من مواد توفيقه واسعاده ذلك هدى الله يهدى
به من يشاء من عباده فلم يزل لاعلام الدين رافعا ولشبه المضامين دافعا ولراية العدل
ناشرا وللدن عامرا وللعقد قاهرا الى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية الموهوبة
فلو كانت الفضائل تزيد في الاعمار أو تحمي من ضرور الاقدار أو تؤخر ما سبق تقدمه
في علم الواحد القهار لمحي نفسه النقيسة كريم مجدها وتعرف محبتها وكفاتها خبير
منصبا وعظيم هيبتها ووقتها أفعالها التي تستقى من منبع الرسالة وصانها خلالها التي
ترتقى الى مطلع الجلاله لكن الاعمار محررة مقسومه والآجال مقدره معلومه والله تعالى
يقول وبقوله يهتدى المهتدون ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون فأمر المؤمنين يحاسب عند الله هذه الرزية التي عظم أمرها وفدح وجرح
خطبها وقرح وغدت له القلوب واجفسه والآمال كاسفه ومضاجع السكون منفضه
ومدامع العيون مرفضه فأنا لله وإنا اليه راجعون صبيرا على بلائه وتسليما لامره وقضائه
واقتهاء بن أئني عليه في الكتاب انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وقد كان الامام
المستعلى بالله قدس الله روحه عند ثقلمته جعل لى عهد الخلفه من بعده وأودعنى محازة
من أبيه عن جده وعهد الى أن أخلفه في العالم وأجرى الكافة في العدل والاحسان
على منهجه القائم وأطلعنى من العلوم على السر المكنون وأفضى الى من الحكمة بالغامض
المصون وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرة المرضية على على بما جبلنى الله

عليه من الفضل وخصني به من آثار العدل وانني فيما استرعيتك سالك على مناجحه
عامل بموجب الشرف الذي عصب الله في تاجه وكان مما ألقاه اليّ وأوجه عليّ أن أعلى
محل السيد الاجل الافضل من قلبه الكريم وما يجب اليه من التجميل والتكريم وان
الامام المستنصر بالله كان عندما عهد اليه ونص بالخلافة عليه أوصاه أن يتخذ هذا
السيد الاجل خايمة وخليلا ويجعله للامامة زعيما وكفيلا ويحفظ به أمر النظر والتقرير
ويفوض اليه تدبير ما وراء السرير وانه عمل بهذه الوصية حدوا على تلك الامانة النبوية
وأسند اليه أحوال العساكر والرعيّة وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمة العلية
فكان قلبه بالسداد يرحف ولا يحف وسيفه من دماء ذوى العناد يكف ولا يكف ورأيه
في حسم مواد الفساد يرمخ ولا يخف فأوصاني أن أجعله لي كما كان له صفيا وظهيرا وأن
لا أسترعه في الامور لاصغيرا ولا كبيرا وأن أقتدى به في رد الاحوال الى تكليفه واسناد
الاسباب الى تدبيره والينا حوط نازل الخطب ومنتقله الى غير ذلك مما استودعني اياه
وألقاه اليّ من النص الذي يتضوع نشره ورياه نعمة من الله قضت لي بالسعد العميم
ومنذ شهرت بالفضل المتين والخط الجسيم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم فتعزوا
معانسر الاولياء والامراء والقواد والاجناد والرعايا والخدام حاضركم وغائبكم ودانيكم
وفاصيكم عن الامام المنقول الى جنات الخلود واستبشروا بامامكم هذا الامام الحاضر
وابتهجوا بكريم نظره المطلع لكم كواكب السعود ولكم من أمير المؤمنين أن لا يفض
جفنا عن مصابكم وأن يتوخي ما عاد بيمانكم ومناجحكم وأن يحسن السيرة فيكم ويدفع
أذى من يعاديكم ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ولاسير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا
مولاته بمخالص الطوية وتجمعهوا له في الطاعة بين العمل والنيه وتدخّلوا في البيعة بصور
منشرحه وآمال منفسحه وضمائر نقيه وبصائر في الؤلاء قوية وأن تتقدموا بشروط
بيعته وتنهوا بفروض نعمته وتبذلوا الطارف والتالذ في حقوق خدمته وتفتقروا الى
الله سبحانه وتعالى بالمناسحة لدولته وأمير المؤمنين يسأل أن تكون خلافته كاذلة بالاقبال
ضامنة بلوغ الآمال وأن يجعل ديمتها دائمة بالخيرات وقسمتها نامية على الاوقات ان شاء
الله تعالى اه

ولم تكند تستقر الولاية بالآمر بأحكام الله حتى كثر عبث الفرنجة بالاملاك المصرية
ونظاوت أيديهم الى ايداء المسلمين فأنفذ الافضل أمير الجيوش بمصر سعد الدولة الطواشي
مملوك أبيه الى الشام في جيش عظيم لحرب الفرنجة وردعهم فلقبهم بين الرملة ويافا فنصافوا
واقتلوا قتالا عنيفا وطال القتال ثم حمل الفرنجة حملة صادقة على المسلمين فانهزموا شر
هزيمة ومات سعد الدولة تحت سنابك الخيل قال بعض الكتاب وكان المنجمون يقولون
لسعد الدولة انك تموت تحت سنابك الخيل فكان يتحرز من ركوب الخيل حتى ولى
بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط فقلعه خوفا أن تزلق فرسه فيسقط فلم ينقعه الخدر عند

نزول القدر وملك الفرنجة خيمه وجميع المسلمين وشردوا من بقي منهم فلما رجع
 المستنقرون الى مصر غضب الافضل وسير ابنه شرف المعالي في جمع كثير فالتقوا هم
 والفرنجة بيازور بقرب الرملة فانهمز الفرنجة وتفترقوا وسار شرف المعالي بن الافضل من
 المعركة ونزل على قصر بالرملة وبه جماعة من كبار الفرنجة فقاتلهم خمسة عشر يوما حتى
 أخذهم أسرى وجل منهم جماعة الى مصر ثم اختلف أصحاب شرف المعالي وتفترقت أهواؤهم
 فبعضهم من أراد المسير الى بيت المقدس لاستقلاله من الفرنجة ومنهم من أراد المسير الى يافا
 وأخذها وبقوا على هذا الخلاف أياما فبينما هم كذلك اذ وصل الى الفرنجة المدد فاجتمعوا
 وساروا الى عسقلان وبها شرف المعالي فقاتلوه ومن معه فلم يصبر على قتالهم ففقل منها
 راجعا الى مصر عن بقي من أصحابه فأحزن ذلك ابن الافضل وسير رجلا يقال له تاج العجم
 في السير وهو من كبار مماليك أبيه وجهاز معه أربعة آلاف فارس وسير في البحر رجلا
 يقال له القاضي ابن قادوس في عمارة حربية الى يافا ونزل تاج العجم على عسقلان فاستدعاه
 ابن قادوس اليه ليتفقا على كيفية القتال فلم يجبه الى ذلك ولا أرسل اليه أحدا فراجعه
 فلم يقبل فأشهد عليه ابن قادوس قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها وسير الخبر بما وقع الى
 ابن الافضل أمير الجيوش فأرسل ابن الافضل من قبض على تاج العجم وأرسل رجلا يلقب
 بجمال الملك وأسكنه عسقلان وجعله مقدم العسكر فلم يقدر على استخلاص ما بأيدي
 الفرنجة من السواحل والمدن الشامية فقد كانوا استولوا الى هذا الحين على فلسطين وباقا
 وارسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية وانطاكية ما عدا بيت المقدس ولهم بالجزيرة الرها
 وسروج والرفة وقلعة جعير وجبيل وعسفان من الشام وبيروت وطرابلس وبيانياس وصيدا
 وكان السلطان بركيارق كلما سمع بفوز الفرنجة وأخذهم لبلاد المسلمين زادت همومه وعظم
 حزنه وجد في حشد الجنود والاكتار من معدات القتال فاذا هم بالخروج لخرابهم عاقته
 العوائق وحالت دون عزمه الموانع وما زال حتى مرض وهو بأصهان وثقل به مرضه فسار
 منها في محفة طالبا بغداد فلما وصل الى بروجرود ضعف عن الحركة فأقام بها أربعين يوما
 فاشتد مرضه وأيس من نفسه فخلع الأمر على ولده ملكشاه وعمره بثمانين سنة
 وثمانية أشهر وأحضر جماعة الامراء وكبار قواده وأعلمهم بما فعله وأخذ عليهم العهد
 بالطاعة لولده ومساعدته على حفظ السلطنة خلفوا وتعهدوا فأمرهم بالمسير الى بغداد
 فساروا فلما كانوا على اثني عشر فرسخا من بروجرود وصلهم خبر موته وكان بركيارق قد
 تخلف على عزم العود الى أصهبان فعاجلته منيته فرجع جماعة منهم وجملاوا تابوته الى
 أصهبان ودفن بها * ووصل السلطان ملكشاه بن بركيارق الى بغداد فخرج وزير الخليفة
 وأصحاب الوظائف للقائه وكان وصوله في خمسة آلاف فارس فخطبوا له ولقبوه بالقاب جده
 ملكشاه ولم تستقر به السلطنة حتى علم السلطان محمد أخو بركيارق بخبر موت بركيارق فسار
 في جيش عظيم يريد بغداد وجل الناس بها على البيعة له فلما وردت الاخبار بذلك الى الامير

ايا وزير ملكشاه الوصى عليه من قبل ابيه بركارق خاف كثيرا وجمع اليه بكار الجند وقواد
بركارق وأعلمهم بخبر محيي السلطان محمد ورغبته في أخذ الملك من ابن أخيه ملكشاه
واستخلفهم على الطاعة للملكشاه فخانوا فلما وصل السلطان محمد في عسكره ونزل بالجانب
الغربي من بغداد نقض بعض القواد العهد وأظهروا الميل الى السلطان محمد فخاف الوزير
اياز وأسرع الى تقرير الصلح مع السلطان محمد وتسليم السلطنة اليه وترك منازعته فيها
فعبه الى عسكر السلطان محمد واجتمع به وسلم اليه مقاليد السلطنة فأمنه هو وجميع الامراء
والقواد وضم اليه ولد أخيه ملكشاه ودخل السلطان محمد الى بغداد في موكب حافل ولبث
بها أياما حتى رتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها الى أصهان وجعل يتصرف في الامور
وبقائل الفرنجية على ما أخذوه من بلاد المسلمين حتى وافقه منيته في الرابع والعشرين من
ذي الحجة سنة احدى عشرة وخمسمائة * وكان لما اشتد به مرضه أحضر ولده محمودا
وقبله وبكى كل واحد منهما وأمره بالخروج والجلوس على تخت السلطنة وأن يتظر في أمور
الناس وعمره اذ ذلك قد زاد على أربع عشرة سنة فقال يابأت انه يوم غير مبارك يعني من
طريق النجوم فقال له صدقت يابني ولكن على أبيك وأما عليك فبارك بالسلطنة فخرج
وجلس على التخت بالتاج والسوارين فلم يمض على السلطان محمد اليوم الثاني من جلوس
ابنه حتى مات فجمعوا الامراء وقدرت عليهم وصيته الى ولده محمود يأمره فيها بالعدل
والاحسان وكان السلطان محمد عادلا حسن السيرة شجاعا أطلق المكوس والضرائب في
جميع البلاد فأحبه الناس كثيرا واجتمعوا على طاعته اثنتي عشرة سنة

ولما تمت البيعة للسلطان محمود ودبر دولته الوزير الرئيس أبو منصور أرسل الى الخليفة
المستظهر بالله يطلب أن يخاطب له ببغداد فخطب له في يوم الجمعة ثالث عشر المحرم سنة اثنتي
عشرة وخمسمائة فلم يتم على الخليفة المستظهر بالله بعد الخطبة للسلطان محمود ببغداد
الا ثلاثة أشهر وبضع أيام حتى مات بعلة التراقي وكان عمره احدى وأربعين سنة وستة
أشهر وستة أيام وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ومضى في
خلافته ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان والسلطان
بركارق ومحمد ابنا ملكشاه * قال بعض الكتاب ومن غريب الاتفاق أنه لما توفى السلطان
الب ارسلان توفى بعده القائم بأمر الله ولما توفى السلطان ملكشاه توفى بعده المقتدى بأمر
الله ولما توفى السلطان محمد توفى بعده المستظهر بالله وكان الخليفة المستظهر بالله لين الجانب
كريم الاخلاق محبا للخير وأهله كثير البر والاحسان لا يرد مكرمة تطلب منه وكانت أيامه أيام
سرور للرعية فكاتبها من حسناتها أعياد وكان حسن الخط جيد التوقيعات جيد الشعر
فمن شعره

أذاب حر الهوى في القلب ما جردا * لما مسدت الى رسم الوداع يدا
وكيف أسلك نهج الاضطراب وقد * أرى طرائق في مهوى الهوى قددا

قد أخلف الوعد لما أن شغقت به * من بعد ما قد وفي دهري بما وعدا
ان كنت أنقض عهد الحب في خلدي * من بعد هذا فلا عاينته أبدا
وكانت أيامه عند الرعية كأنها أعياد فكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره واذا تعرض
سلطان أو نائب الى أذى أحد بالغ في الانكار والزجر عنه فلما مات تولى الخلافة بعده ولده
أبو منصور الفضل ولقب المسترشد بالله

ومات في خلافة المستظهر بالله أيضا زحزحاس بطرك الاسكندرية بعد أن أقام ثمانيا
وعشرين سنة صرفها في الشدائد العظيمة والبلايا الكثيرة واعتقل ثلاثة أشهر وضربت
عليه المغارم الفادحة وأخذت منه الاموال الكثيرة وأمر به يوما فألقى الى السباع هو
وسوسنه التوبى فلم تضرهما باذن الله تعالى فأخذت السلطان يومئذ اخاذة من الخوف
فصرفهما وانكف عنهما ورسم بالكف عن إيذاء النصارى فانكفوا عنهم حينما ولما مات
خلا الكرسی بعده أربعة وسبعين يوما ثم أقيم بعده سافونيو أو هو شنوده خامس ستمهم من
بلدة تلبانة وكان راهبا بدير أبو مقار وكان عالما كبيرا واماما خطيرا وله مناقب كثيرة ومكارم
لاتعد ووقع من الحوادث في أيامه ما سيدكر في محله

(الفصل التاسع والعشرون)

(في خلافة ابي منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله)

ثم قام بالامر بعد المستظهر بالله ولده المسترشد بالله أبو الفضل بن أبي العباس أحمد بن
المستظهر بالله ببيع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهد منه سنة احدى عشرة وخمسةائة هجرية
أى سنة سبع عشرة ومائة وألف ميلادية وكان سن المسترشد يومئذ سبعا وعشرين سنة
وبايعه أخواه ابنا المستظهر وهما أبو عبد الله محمد وأبو طالب العباس وعمومه بنو المقتدى
بأمر الله وغيرهم من القضاة والامراء والائمة والاعيان وكان المتولى لاخذ البيعة القاضي
أبو الحسن الدامغانى وكان نائبا عن الوزارة فأقره المسترشد بالله عليها * قال أصحاب التاريخ
ولم يأخذ البيعة قاض غير هذا وأحمد بن أبي دواد فانه أخذها للواتق بالله والقاضى أبو
علي اسمعيل بن اسحق أخذها للعتضد بالله ثم ان المسترشد عزل قاضى القضاة عن نيابة
الوزارة واستوزر أبا شجاع محمد بن الريب أبا منصور وزير السلطان محمود ولما اشتغل
الناس بالبيعة للمسترشد بالله ركب أخوه الامير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينة ومعه
ثلاثة نفر وانحدر الى المدائن وسار منها الى ديبس بن صدقة بالحلبة فأكرمه ديبس وأخبره
بموت المستظهر بالله وأقام له الاقامات الكثيرة فلما علم المسترشد بالله خبره أهمله ذلك وأقلق

وخشى عاقبته فأرسل الى ديبس يطلب منه إعادة أبي الحسن ويشدد في ذلك فأجابه بأني
 عبد الخليفة وواقف عند أمره ومع هذا فان أبا الحسن استنم بي ودخل منزلي فكيف
 أكرهه على الرجوع وكان رسول المسترشد في ذلك الى ديبس نقيب النقباء شرف الدين علي
 ابن طرار الزيني فقصد الامير أبا الحسن وكلمه في عوده وضمن له عن الخليفة كل ما يريد فأجاب
 الى العود وقال انني لم أفارق أخي لشر أراده وانما الخوف منه جلني على مفارقتة فاذا أمنتني
 فصدنه وتكفل ديبس باصلاح الحال بنفسه والمسير معه الى بغداد فعاد النقيب وأعلم الخليفة
 بالحال فأجاب الى ماطلب منه ثم حدث من الاسباب والرواجف ماأخر الحال وأقام الامير
 أبو الحسن عند ديبس الى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ثم سار عن الحلة الى واسط فانضم
 اليه كثير من الناس وكبر جمعه وأنت الاخبار الى الخليفة بذلك فتكدر جداً وركب الامير
 أبو الحسن على مدينة واسط فلما كان في طريقه فخطب له بيغداد وكتب الى
 لولي عهده ولده أبي جعفر المنصور وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة فخطب له بيغداد وكتب الى
 الآفاق بالخطبة له وأرسل الى ديبس بن مزيد في معنى الامير أبي الحسن وانه الآن قد
 فارق حواره ومديده الى بلاد الخليفة وزاجه على سلطانه وما يتعلق به ورسم اليه بقصده
 ومعالجته قبل قوته فأرسل ديبس العساكر اليه ففارق واسط وقد تحير هو وأصحابه فضلوا
 عن الطريق ووصلت عساكر ديبس فصادفوهم عند الصلح فنهبوا أنقاله وهرب الاكراد من
 أصحابه والأتراك وعاد الباقون الى ديبس وبقى الامير أبو الحسن في عشرة من أصحابه وهو
 عطشان وبينه وبين الماء خمسة فراسخ وكان الوقت قيبظاً فأيقن بالتلف وتبعه بدويان
 فأراد الهرب منهما فلم يقدر فأخذاه وقد اشتد به العطش فسقيه وجلاه الى ديبس فسيره
 الى بغداد وجعله الى الخليفة بعد أن بذل له عشرين ألف دينار فحمل الى دار العزيزة وكان
 بين خروجه عنها وعوده اليها أحد عشر شهرا

ولما أدخلوه على المسترشد بالله انكب على قدميه فقبلهما فقام المسترشد وقبله وبكى
 وأنزله دارا حسنة كان يسكنها قبل أن يلي الخلافة وجعل اليه الخلع والتحف العظيمة وطيب
 نفسه فاطمان وزالت عنه الوسواس وأخلص لآخيه المحبة وجعل المسترشد يتصرف في الامور
 فلم تكده تستقر به الخلافة حتى خرج عليه ديبس وخلع طاعته فكانت بينهما حروب كثيرة
 خرج في احداها الخليفة بنفسه ومعه العلماء والقضاة والمشايخ وهو متجمل بعمامة سوداء
 وجبة سوداء وشاش وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وكان ينادى يا آل هاشم الغزاة الغزاة
 والعمامة والعسكر ينادون يامنصور يامنصور فانكشفت الحروب المذكورة عن هزيمة ديبس
 وموت أصحابه وعظم أمر الخليفة وظهرت كلمته وهابه الامراء وحسدوه وعظمت شوكة نوابه
 فانفق أن وقعت بين نوابه وبين برتقش الزكوي نفرة وطالت أيامها فأرسل اليه الخليفة
 يتهدده ان هو أظالم العناد معهم تخاف برتقش على نفسه وسار عن بغداد الى السلطان
 محمود بهمدان وشكا اليه مما يفعله نواب الخليفة وحذرته جانب الخليفة وأعلمه أنه قد قاد

العسكر ولقي الحروب وقويت نفسه فان لم تعاجله قصد العراق ودخلها فيزداد قوة وجعها
ويتعك عن نفسه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده بحال السلطان الى مقاتله وسار
نحو العراق وأشاع الخبر بذلك فأرسل الخليفة يعاه بعالمه البلاد من الضعف والوهن بسبب
غارات ديبس وافساد عسكره فيها وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات لهرب
الكرة عن بلادهم ويطلب منه أن يتأخر هذه الدفعة الى أن ينصلح حال البلاد ثم يعود اليها
فلا مانع له عنها وبذل له على ذلك ما لا كثيرا فلما سمع السلطان محمود هذه الرسالة قوى عنده
ما قرره الزكوى برتقش وأبى أن يجيب الى التأخير وضم العزم وسار اليها مجددا فلما بلغ الخليفة
الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء الى الجانب الغربي مظهرا للغضب
والانتزاع عن بغداد ان قصدها السلطان محمود فلما نخرج من داره بكاه الناس بكاه عظيما
فلما علم السلطان بذلك اشتد عليه وبلغ منه كل مبلغ فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله
العود الى داره فأعاد الجواب أنه لا بد من عودك هذه الدفعة فان الناس هلكوا بشدة الغلاء
ونراب البلاد وأنه لا يرى في دينه أنه يزداد ما بهم وهو يشاهدهم فان عاد السلطان والارحل
هو الى العراق كيلا يشاهد ما يلقي الناس بعبيء العسكر فغضب السلطان لقوله ورحل نحو
بغداد وأقام الخليفة بالجانب الغربي فلما حضر عيد الاضحى خطب في الناس وصلى بهم فبكي
الناس نخطبته وأرسل عفيفا الخادم وهو من خواصه في عسكر الى واسط ليمنع عنها نواب
السلطان فأرسل السلطان اليه عماد الدين زينكي بن آقسنقر وكان له حينئذ البصرة فلما وصل
عفيف الى واسط سار اليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالانتزاع عنها فأبى ولم يفعل فغير
اليه عماد الدين واقتتلوا فانهمز عسكر عفيف وقتل وأسر منهم خلق كثير وتغافل عن عفيف
حتى نجا لمودة كانت بينهما * وجاء الخبر الى الخليفة بما جرى فجمع السفن جميعها اليه وسد
أبواب دار الخلافة سوى الباب الغربي وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالقيام عليه لحفظ
الدار ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه ووصل السلطان في عسكره الى
بغداد ونزل بياب الشماسية ودخل بعض عسكره الى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس
ذلك الى السلطان فرسم بأخراجهم وبقى فيها من له دار وبقى السلطان يرسل الخليفة بالعود
ويطلب الصلح وهو يمنع فكان يجري بين العسكرين مناوشة والعامسة من الجانب الغربي
يسبون السلطان أخش سب ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا
التاج وحجر الخليفة فضج أهل بغداد من ذلك واجتمعوا ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحية
فلما رأهم الخليفة خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب
الكؤسات والبوقات ونادى بأعلى صوته يال هاشم وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس
دفعة واحدة وكان له في الدار ألف رجس مختفون في السرادق قطهروا وعسكر السلطان
مشتغلون بالنهب فأسر منهم جماعة من الامراء ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة
من الامراء ودار عزيز الدين المستوفي ودار الحكيم أوحد الزمان الطيب وقتل منهم خلق

كثير في الدروب وعبر الخليفة الى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد وأمر بحفر الخنادق فحفرت بالليل وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ووقع الغلاء عند العسكر واشتد الامر فكان القتال عليهم كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فلم يتم لهم ذلك إذ غدر بهم أبو الهيثم الكردى صاحب اربل وخرج كأنه يريد القتال فانضم الى عسكر السلطان وترك الخليفة وكان السلطان قد أرسل الى عماد الدين بواسط بأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب في البر جمع كل سفينة بالبصرة ليشتحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح وأصعد فلما قارب بغداد أمر كل من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح واطهار ما عندهم من الجلد والنهضة فسارت السفن في الماء والعساكر في البر على شاطئ دجلة وقد انتشروا وملؤا الارض برا وبحرا فرأى الناس منظرا عجيبا كبر في أنفسهم وملأ صدورهم فركب السلطان والعسكر الى لقائهم فنظروا ما لم يتظروا مثله وعظم عماد الدين في أعينهم وعزم السلطان على قتال بغداد حينئذ والجد في ذلك برا وبحرا فلما رأى الخليفة المسترشد بأنه الامر على هذه الصورة وقد خرج الامير أبو الهيثم من عنده بمن معه من العسكر خاف شر العاقبة وأجاب الى الصلح وترددت الرسل بينه وبين السلطان محمود فاصطلحا واعتذر السلطان مما جرى وكان السلطان حلما جدا يسمع سبه بأذنه فلا يعاقب عليه فعفا عن أهل بغداد جميعهم * وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال والله لا تساوى الدنيا مثل هذا الفعل وأقام ببغداد الى رابع شهر ربيع سنة احدى وعشرين وحمل الخليفة من المال كل ما استقرت القاعدة عليه وأهدى للسلطان سلاحا وخيلا وغير ذلك واستمرت الأمور بين صفاء وكدر وخروج وعصيان لا تستقر على حال من الاحوال والخليفة المسترشد يعالجها بالصبر والكياسة ويلبس لكل أمر منها لبوسه لعل الله يأتيه بالفرج القريب

وكما كانت الحال على ذلك بين الخليفة والسلطان محمود كانت بين الاصح بأحكام الله صاحب مضر وبين أمرائه وقواده وجنوده وأهل البلاد إذ قد ساءت سيرته وقيح تصرفه وكثر أخذه للناس بالشبهات بخار وظلم وأراق الدماء بغير موجب ولا سبب فأختل نظام البلاد وعانت فيها المفسدون في البر والبحر وسلبوا وقتلوا وأحرقوا وارتفع الامن وتعطلت الزراعات وكادت تقل الاقوات فاتفق جماعة على قتله وجعلوا يراقبون الفرص فلما كان اليوم الثاني من شهر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة علموا بعزمه على الخروج الى منزله بالروضة فكنوا له في الطريق نخرج في ثلاثة من قومه فوثبوا عليه بالسيوف فأخنوه وقبل ان الذين قتلوه هم الباطنية باغراء بعض قواده فكانت ولايته تسعا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعمره أربع وثلاثون سنة وهو العاشر من ولد المهدي عبيد الله * قال بعض الكتاب وكبر حبه في آخر أيامه للنساء واشتد شغفه بهن فكان له معهن كل يوم شأن

وحكى له يوما عن جارية من عرب البادية وأنها من الجمال والكمال والرقّة ومعرفّة ضروب الشعر والأدب على جانب عظيم فشغف بحبها وجاهه عشقه الى التزني بزى العرب وخرج يتنسم أخبار أهلها حتى نزل على حيسم وما زال يتحيل حتى رآها فأخذت بمجامع قلبه ووقعت منه موقعا عظيما فطلبها من أهلها فأجابوه الى زواجها فلما صارت في قصره استوحشت فقالت له يوما مالي ولهذه القصور العالية فهلا أرجعتني الى مضربي فتزيل عني وحشتي قبل فبني لها الهودج بالجزيرة على النيل وهو من غرائب البناء وكانت تحب ابن عم لها يعرف بابن مياح فكنبت له يوما هذه الأبيات

يا ابن مياح اليك المشتكى * مالكم من بعد كم قدملكا
كنت في حي سرا مطلقا * نائلا ماشئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مؤصد * لأرى الاحيسا مكا
كم تنيننا بأغصان اللوا * حيث لا نخشى علينا ذركا
وتلاعنا برملات الحمى * حيثما شاء طليبق سلكا

فلما وصلت اليه هذه الابيات كتب يقول

بنت عمي والتي غديتها * بالجوى حتى علا واحتسكا
بجت بالشكوى وعندى ضعفها * لو غدا ينفع منها المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى * هالك وهو الذي قد أهلكا
شان داود غدا في عصرنا * مبيديا بالتيسه ماقد ملكا

فبلغت هذه الابيات الامر فقال والله لولا انه أساء الادب في البيت الرابع لرددتها الى حبه وزوجته بها

ولما قتل الامر لم يكن له ولد بعده فظهر غلام أرمي من علمانه وتغلب على البلاد لاختلال الحال واستحوذ على الامور ثلاثة أيام ورام أن يتأمر فحضر الوزير أبو علي أحمد ابن الافضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش وأقام الحافظ لدين الله أبا الميمون عبيد المجيد بن الامير أبي القاسم بن المستنصر بالله وبابعهو لينظر في الامر نسيابة حتى يكشف عن حبل كان للامر فتكون الولاية فيه ويكون هو نائبا عنه فلما تم له الامر استحوذ الوزير أبو علي على جميع الامور دونه وحصره في مجلس لا يدخل اليه أحد الا من يريد الوزير وخطب لنفسه على المنابر ونقل جميع الاموال من قصر الامارة الى داره وأسقط من الدعاء ذكر اسمعيل الذي هو جدتهم واليه تنسب الاسماعيلية وهو ابن جعفر بن محمد الصادق وأسقط من الأذان حي على خير العمل وأمر انخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم وهي ﴿ السيد الافضل الاجل سيد ممالك أرباب الدول والمحامى عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الاقربين والابعدين ناصر امام الحق في حالتي غيبته وحضوره والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتديره أمين الله على عباده وهادى القضاة الى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاة

المؤمنين بواضح بيانه وارشاده مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف
 والقلم أبو علي أحمد بن السيد الاجل الافضل شاهنشاه أمير الجيوش * قال أصحاب التاريخ
 وكان الافضل امامى المذهب يكثر ذم الامر والتناقض به فنفر منه شيعة العلويين ومماليكهم
 وكرهوه وعزموا على قتله فخرج في العشرين من المحرم سنة ست وعشرين يريد خزانة السلاح
 ليفترق على الاجناد على جارى العادة فى الاعياد فسار معه ريجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة
 فتأذى من الغبار فأمر بالبعد عنه وسار منفردا معه ريجلان فصادف رجلين بسوق الصياقلة
 فضرباه بالسكاكين وجاء ثالث فضربه بسكين فى خاصرته فسقط عن دابته ورجع أصحابه
 فقتلوا الثلاثة وجالوه الى داره فدخل عليه الحافظ وتوجه له وسأله عن الأموال فقال أما
 الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة يعرفه وكان من أهل حلب وتولى أبوه قضاء القاهرة وأما
 الباطن فابن البطائحي يعرفه فقالا صدق فلما مات نقل من أمواله مالا يحصى عددا وبقي
 السلطان فى داره أربعين يوما والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلا ونهارا ووجد له
 من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة القليلة الوجود مالا يوجد مثله لغيره واعتقل أولاده
 وكان عمره سبعا وخمسين سنة وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيا وعشرين سنة منها أيام المستنصر
 وجميع أيام المستعلي وأيام الامر الى هذه السنة من أيام الحافظ * وكان الافضل المذكور
 حسن السيرة محبا للناس ميالا للخير عاملا على اعلاء شأن البلاد مجتادا فى عمارها وغناء
 ثروتها فبنى فيها المباني العظيمة والعمائر المفيدة ووسع خيلانها وأكبر مساقى أرضها وهو
 الذى حفر البحر المعروف ببحر أبي المنجا فى سنة ست وخمسمائة هجرية وسماه باسم مهندس
 أبو المنجا أبو شعيبا اليهودى وأنشأ أيضا المرصد الكبير على مقربة من المقطم فى المكان الذى
 كان يعرف قبل ذلك بالجرف وله غير ذلك من الاعمال النافعة * حكى انه لما قتل وظهر الظلم
 بعده اجتمع جماعة من الناس واستغاوثوا بالسلطان وكان من جملة قولهم أنهم لعنوا
 الافضل بحضرة السلطان فسألهم عن سبب لعنهم اياه فقالوا عدل وأحسن السيرة ففارقنا
 بلادنا وأوطاننا وقصدنا بلادك لعدله فقد أصابنا بعده هذا الظلم فهو كان سبب ظلمنا قيل
 فأحسن السلطان اليهم وأمر بالاحسان الى الناس وكثرت الاقوال فى سبب قتل الافضل
 وفاتلبيه فقال قوم ان صاحبه الامر بأحكام الله وضع عليه فقتله * قلت * وصوابه الحافظ لدين
 الله قالوا ولقد كان فى قصد الامر أن يضع عليه من يقتله اذا دخل عليه قصره للسلام أو فى أيام
 الاعياد فمنعه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد وقال له ان فى هذا الفعل شناعة وسوء
 سمعة لانه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنة وليس منهم الا النصح لنا والمحبة لدولتنا وقد
 سار ذلك فى أقطار البلاد فلا يجوز أن تظهر منا هذه المكافأة الشنيعة ومع هذا فلا بد وأن
 نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه فى منصبه فيتمكن مثله أو يقاربه فيضاف أن نفعل به مثل
 ما فعلناه بهذا فيحذر من الدخول بنا خوفا على نفسه وان دخل علينا كان خائفا مستعدا
 للامتناع وفى هذا الفعل ما يسقط المنزلة قال والرأى عندى أن ترسل أبا عبد الله البطائحي

فانه الغالب على أمر الافضل والمطلع على سره وقصده أن يوليه منصبه ونطلب منه أن يدبر الامر في قتله اذا ركب فاذا ظفرنا بمن قتله قتلناه وأظهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنا قبح الاحدوثه ففعلوا ذلك وقتلوه وقال آخرون غير ذلك ﴿ قلت ونسبة قتله الى الامر بأحكام الله خطأ فان الامر مات في ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة والافضل قتل في المحرم افتتاح سنة ست وعشرين وخمسمائة فيكون بين موت الاثنين سنة وشهران فيكون القاتل له اذا الحافظ لدين الله بن محمد ﴿ ولما قتل ولي بعده أبو عبد الله بن البطائحي ولقب المأمون وتحكم في الدولة وتصرف واتسعت كلمته وبقى على ذلك الى سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض عليه وصلب هو واخوته واتسعت كلمة الحافظ بعد موت الافضل وتصرف في الامور واستبدت بالملك فكثرت ظلمه وكبر عسفه واشتد على الامراء والقواد شدة عظيمة وأخذ الكثير منهم بالشبهات واشتمت على النصارى وبالغ في التصيق عليهم لأنهم كانوا يحبون الافضل بن بدر الجمالي وكان يثق بهم ويعمل بمشورة كبارهم لاختلافهم في خدمة الدولة وخالودهم الى السكون والطاعة وما زال على هذا الحال الى أن كان من أمره ماسيد كز في محله

ولما كانت سنة تسع وعشرين وخمسمائة في سابع عشر ذى القعدة مات الخليفة المسترشد بالله فكانت خلافته كلها خروج وعصيان وتمرد وطغيان ولكنه كان شهما مقداما على الهمة واسع الدراية كبير الدربة قيل لم يبل الخلافة بعد المعتضد بالله أعظم شهامة منه إذ كان شديد الهيبة وقد ضبط الامور وأحيا مجد بني العباس وجاهد وغزا مرارا فكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وقيل سبعة أو ستة أشهر ﴿ روى أنه ورد اليه رسل يجلس لهم في جماعة من أهل بيته فلما أحضروهم بين يديه هجم عليه الفداوية منهم بالسكاكين فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه يقال ان مسعودا أبا السلطان محمود جهز عليه الفداوية المذكورين ففعلوا به ذلك وعمره يومئذ أربع وأربعون سنة وقيل خمس وأربعون فبايعوا بالخلافة بعده ولده أبا منصور جعفر الراشد بالله

ومات في أيامه سانوتيو بطرك الاسكندرية بعد أن أقام أربع عشرة سنة فاسى فيها من الشدائد أعظمها وفعل العمال بالنصارى من الجور والظلم مالا يكاد يدخل تحت حصر فأقام المتأصلون بعده خرستودولو ومعناه عبد المسيح وكان راهبا بصومعة سنجار وهو سادس ستيهم وأصله من بلدة بورا فلما استقر به المنصب قام من مديسة الاسكندرية الى مصر واتخذ كنيسة المعلقة بظاهر القسطنطين مقرا له وكان من الحوادث في أيامه ماسيد كز في محله

(الفصـ لـ الثلاثون)

(في خلافة أبي منصور جعفر الراشد بالله)

ثم قام بالامر بعد المسترشد بالله ابنه أبو منصور جعفر الراشد بالله بن المسترشد
 ابن المستظهر ببيع له بالخلافة ثاني يوم موت أبيه في ثامن عشر ذي القعدة سنة
 تسع وعشرين وخمسمائة هجرية أي سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ميلادية بعهد
 من أبيه فجعل يتصرف في الامور سنة فلما كانت سنة ثلاثين حضر برتقش الزكوى
 من عند السلطان مسعود الى بغداد يطالبه بما كان استقر عليه الخليفة المسترشد من المال
 الى السلطان وهو أربعمائة ألف دينار كما تقدم بيان ذلك فذكر الخليفة الراشد بالله أنه
 لا شيء عنده وأن المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب أيام الفتنة فلم يقتنع برتقش
 بذلك وأعاد القول فراجعه الخليفة وترددت الرسل بينهما أياما ثم علم الراشد أن برتقش يريد
 الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها وأخذ ما فيها من الأموال فجمع الخليفة العساكر لمنعها
 وأمر عليهم كيح آبه وأعاد عمارة السور الذي تهدم من الحوادث المترادفة فلما علم برتقش
 بذلك اتفق هو وبك آبه صاحب الشحنة ببغداد وأعلمه أن السلطان انما يريد أن يهجم
 على دار الخلافة فأحس الراشد بذلك واستعد لمنعهم وركب برتقش ومعه العساكر
 والامراء الكبيجة ومحمد بن عسكر في نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاقتلوا
 قتالا شديدا فأخرجوا عسكر السلطان الى دار السلطان فساروا الى طريق خراسان ثم انحدر
 بك آبه الى واسط وسار برتقش الى البندنجيين فنهب العامة دار السلطان ولم يبقوا فيها شيا
 فاشتدت العداوة بين الخليفة وبين السلطان وعظمت الفتنة وكبر الامر على السلطان
 واستخدم الخليفة الراشد جندا كثيرا وأكثر من جمع السلاح ومعدات الحرب وتهيأ للقاء
 السلطان مسعود فلما جاء الخبر الى السلطان باستعداد الراشد كاتب أتاك زندي واستماله
 وكذلك فعل ببرتقش فأشار أصحاب الراشد عليه بالتوقف فأقبل السلطان مسعود بجيوشه
 ودخل بغداد في ذي القعدة وقيل في ذي الحجة سنة ثلاثين فنهب دور الجند ومنع من نهب
 البلد واستمال الرعية اليه وأحضر القضاة والشهود فقدموا في الخليفة الراشد بأنه صدرت
 عنه سيرة قبيحة من سفك الدماء المحرمة وارتكاب المنكرات وفعل مالا يجوز فعله وشهدوا
 عليه بذلك حككم قاضي القضاة وهو يومئذ ابن الكسرخي بخلعه نخلعه لاربع عشرة
 من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة وكان الراشد لما دخل السلطان الى بغداد ونهب عسكره
 الدور هرب في قليل من خواصه ومعه أتاك زندي الى الموصل فطلبه السلطان مسعود فهرب
 الى فارس ثم دخل الى اصفهان محاصرها وعرض هناك فدخل عليه جماعة من الفداوية

فقتلوه وله احدى وعشرون سنة وقيل ثلاثون سنة ووردت الأخبار بموته الى بغداد فجلسوا للعزاء به في دار النوبة يوما واحدا فكانت خلافته أحد عشر شهرا وأحد عشر يوما ولما خلع الخليفة الراشد على هذه الصورة وانقطعت خطبته في بغداد وجميع أعمالها استشار السلطان مسعود جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير علي بن طراد وصاحب الخزن وغيرهما فبين بصلح أن يلي الخلافة فقال الوزير أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل ثم ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد ابن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الزينبي وصاحب الخزن ابن القشلاقي وغيرهما وأمر باحضار الأمير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي كان يسكنه فأحضر وأجلس في الميمنة ودخل السلطان اليه والوزير ومحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوه ثامن عشر ذى الحجة سنة ثلاثين وخمسائة ولقب المقتني لامر الله كما سيذكر في محله

(الفصل الحادى والثلاثون)

(في خلافة أبي عبد الله محمد المقتني لأمر الله)

ثم قام بالامر بعد الراشد عمه أبو عبد الله بن محمد ولقب المقتني لامر الله بن محمد المستظهر ابن المقتدى بويج له يوم خلع ابن عمه وهو الرابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسائة هجرية أى سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة أرسل اليه ابن عمه الراشد رسولا من الموصل مع رسول أتاك زنكى وهو كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى فأحضره في الديوان وسمعت رسالته عن الراشد بالله في أمر خلع بيعته وقرروا ذلك بحضور القضاة والشهود ثم سرت الكتب بخلافته الى الآفاق واستوزر شرف الدين علي بن طراد البرنشى ابن عم الوزير وأعادته الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب الخزن * قال بعض الكتاب جرت الامور على أحسن نظام وأرسل السلطان مسعود بعد قليل الى الخليفة المقتني لأمر الله في تقرير اقطاع ليكون نخاصته فكان جوابه ان في الدار يعنى دار الخلافة ثمانين بغلة تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج اليه عن يشرب هذا الماء ويقوم به فترددت الرسل في ذلك بينهما وطال الكلام أياما كثيرة كادت تسكدر الخواطر في خلالها وما زالوا حتى تقرر القاعدة بينهما على أن يجعل له ما كان للمستظهر بالله من الاقطاع فأجاب الخليفة الى ذلك وقال السلطان لما

بلغه قوله لقد جعلنا في الخلافة رجلا عظيما * قلت * وهو قول يدل على زوال ما كان باقيا
 الى هذا الحين من بأس الخلافة وأنها صارت تحت كلمة السلطنة خاضعة لامرها
 وجاءت الاخبار الى الحافظ العلوي بمصر بخلافة المقتنى بالله فلم تهمة لاستغاله بالفننة
 القائمة بالقاهرة بسبب خروج وزيره تاج الدولة بهرام النصراني الارمني وذلك أنه لما
 استوزره في سنة تسع وعشرين وخمسمائة تمكن في البلاد واتسعت كلمته وغلب على الحافظ
 واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين ولاهم وطمعوا
 فيهم ولم يكن من أهل مصر من تحرر منه الغيرة ولا تأخذ الخوة سوى الأمير رضوان بن
 الرعييني فإنه لما ساءه فعل الوزير وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام
 الوزير يخاف وهرب الى الصعيد بغير قتال ولا حرب وقصد مدينة اسوان فثغره واليها من
 الدخول اليها وقاتله وقتل السودان من الارمن أصحابه كثيرا فلما لم يقدر على الدخول الى
 اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فأمنه فعاد الى القاهرة فسجن بالقصر فبقي مدة ثم
 لبس زي الرهبنة وترهب ولحق بأحد الديارات واستوزر الحافظ الامير رضوان المذكور ولقبه
 بالملك الافضل فكان أول وزير للمصريين لقب بالملك فجعل يتصرف في الامور واتسعت كلمته
 وكاد يتغلب على الحافظ ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ على اخراجه فثار الناس عليه
 منتصف شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة فهرب من داره وتركها بما فيها فذهب الناس
 منها ما لا يعد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس واختموا التهايون ونقل ما بقي في دار
 رضوان الى قصره وسار رضوان الى الشام يستنجد بالأتراك ويستنصرهم فأرسل اليه الحافظ
 الامير ابن مصال ليرده بالامان والعهد أن لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده في
 القصر * وفي رواية أنه سار الى الشام وقصد صرخد فوصل اليها في ذي القعدة ونزل على
 صاحبها أمين الدولة كشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة أربع وثلاثين
 وخمسمائة ومعه جيش عظيم فقاتل المصريين عند باب النصر فهزمهم وقتل منهم جماعة
 كثيرة وأقام على الباب المذكور ثلاثة أيام فتفرق منه كثير ممن كان معه فخشى العاقبة وعزم
 على العود الى الشام فأرسل اليه الحافظ الامير بن مصال فرده وحبسه في القصر وجمع بينه
 وبين عياله وأهله فأقام في القصر الى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد
 أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فاجتمع عليه كثير من المغاربة وغيرهم فحشد
 منهم جمعا كبيرا وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل
 القاهرة فنزل عند جامع الانقر وأرسل الى الحافظ يطلب منه مالا ليفترقه على عادتهم فانهم
 كانوا اذا وزروا وزيرا أرسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فأرسل الحافظ اليه عشرين
 ألف دينار فقسّمها وكثر عليه الناس فطلب زيادة فأرسل اليه الحافظ عشرين ألف دينار
 ففرقها فتفرق الناس وخفوا عنه وبقي هو في قلعة من أصحابه وإذا الصوت قد وقع وعلت
 الصوضاء وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على علمانه فقتلواهم

وأعلموا السيف فيمن معه من المغاربة فقدم اليه بعض أصحابه الفرس ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه الى الحافظ فأرسله الى زوجته فوضع في حجرها فألقت به وقالت هكذا يكون الرجال * ولم يستوزر الحافظ أحدا بعد موت رضوان وباشر الامور بنفسه وما زال يتصرف والامور طوع يده تارة وخارجة عنه أخرى حتى وافته منيته في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة الا خمسة أشهر وعمره نحو من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جميعها محكوما عليه مغلوبا على أمره لا كلمة له وانما الكلمة لوزرائه حتى انه جعل ابنه حسنا وزيره وولى عهده ليقتل بذلك من أسر الوزراء وتعلمهم عليه فلم يفلح اذ حكم عليه ابنه المذكور واستبد بالامر دونه وتجب وظم وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر الكثير منهم فكبر ذلك على الحافظ واستعظمه جدا فسقاه سمات * قال أصحاب التاريخ ولم يل الامر من العلويين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاقد * ولما مات الحافظ ولى الامر بعده ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور اسمعيل بن عبيد الحميد الحافظ فاستوزر ابن مصال فلبث أربعين يوما يدبر الامر واتفق بعد ذلك أن خرج جماعة من السودان عن الطاعة فعاتوا وأفسدوا وعظم شرهم فخرج ابن مصال لقتالهم وردعهم فلما علم العادل بن السلاور وهو بالاسكندرية بخروج ابن مصال سار الى القاهرة ونازعه في الوزارة حتى نولها وتمكن منها ثم سير ريبه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي في عسكر لقتال ابن مصال فظفريه وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن وعلت كلمته فلم يبق للسلطان معه حكم واشتد على الامراء وأخذ بأسباب الحزم وبالغ في التجلد فلم يغن هذا كله شيئا اذ كثر الاختلال واشتد وهن الدولة وتطاولت أيدي الطامعين الى أملاكها فأخذ الفرنجة في أيامه عسقلان وجاءت مرأ كبههم الى دمياط فقاتلوا تئيس وحاصروها وضيقوا عليها أياما كثيرة ثم انصرفوا عنها وأخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وما زال ابن العادل يتصرف الى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقام عليه عباس بن أبي الفتوح بن يحيى الصنهاجي فقتله باغراء الأمير أسامة بن منقذ ووافقه على ذلك الظافر بالله وولى الوزارة بعده فكانت الوزارة في مصر لمن غلب والعلويون وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين لا كلمة فوق كلمتهم * قال أصحاب التاريخ وقل أن ولى الوزارة أحد بعد الأفضل أمير الجيوش الابحرب وقتل وما شابه ذلك

وتمكن عباس من الدولة وبسط يده على الأمور وعزل وولى وجع الأموال وهادنه الامراء وخضعت اليه العمال في جميع الجهات وكان الامراء والاجناد يعلمون أنه انما ارتقى منصب الوزارة بفعل الامير أسامة بن منقذ حيث أغراه على قتل العادل كما تقدم فعزموه على قتل ابن منقذ وصاروا يراقبون الفرض فلما أحس ابن منقذ بما عزموه عليه خاف على نفسه وأخذ يدبر الحيلة في فساد أمرهم فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على

ما أسمع من قبيح القول قال وما ذلك قال الناس يزعمون ان الظافر يواصل ابنك نصرا وكان
 نصر خصيصا للظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر
 يتم به فانزعج لذلك عباس وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر
 الحال لولده نصر فاتفقا على قتله * وفي رواية أخرى أن الظافر أقطع نصر بن عباس المذكور
 قرية قليوب وهي من أعظم قرى مصر يومئذ فدخل عليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه
 عباس فقال له نصر قد أقطعني مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هي في مهرلك
 بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذا الحال وشرع أبوه عباس في قتل الظافر وأمر ابنه
 بذلك فحضر نصر عند الظافر يوما وقال أشتهي أن تجيء الى دارى لدعوة صنعتهما ولا تمكث
 من الجمع فثنى معه في نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خوادم
 صغير اختباء فلم يره ودفن القتلى في داره وأخبر أباه عباسا بالخبر فبكر الى القصر وطلب
 من الخدم الخصبين بمخدمة الظافر أن يطلبوا له أذنا في الدخول عليه لامر يريد أن يأخذ
 رأيه فيه فقالوا انه ليس في القصر فقال لابد منه وكان غرضه أن يبنى التهمة عنه بقتله وان
 يقتل كل من بالقصر من يخاف أن ينازعه فيمن يقيم في السلطنة فلما ألح عليهم عجزوا عن
 احضاره فبينما هم يطلبونه حازرين دهشين لا يدرون ما الخبر اذ دخل عليهم الخوادم الصغير
 الذى شاهد قتله وقد هرب من دار العباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا الى
 عباس وقالوا له سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لانهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال
 أريد أن أستعرض القصر لثلاثا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين
 للظافر وهما يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله
 اسمعيل ثاني يوم قتل أبيه وله من العمر خمس سنين فخمله عباس على كتفه وأجلسه
 على سرير الملك وبابيع له الناس وأخذ عباس يومئذ من القصر من الاموال والجواهر
 والاعلاق النفيسة ما أراد ولم يترك فيه الا مالا خيرا فيه * وظن عباس بعد قتله للظافر واقامة
 ابنه الفائز أن الامر يتم له على ما يريد فكان الحال خلاف ما اعتقده فان الكلمة اختلفت
 عليه وناربه طوائف الجند من الأتراك والسودان فكان اذا أمر أمرا لا يلتفت اليه ولا يسمع
 له قول فزالت هيئته وانحطت مرتبته في أعين الرعية فأرسل من بالقصر من النساء والخدم
 الى الصالح طلائع بن رزيق وهو يومئذ في منية ابن خصيب بالصعيد واليا عليها وعلى أعمالها
 ولم تكن يومئذ من الاعمال الجليله ولكنها كانت أقرب الاعمال اليهم يشكون ما حل بهم من
 عباس وكان في ابن رزيق شهامة بجمع جيشا عظيما وانحدر يريد قتال عباس فلما سمع عباس
 ذلك خرج من مصر الى الشام بمآعه من الاموال التى لانحصى كثرة ومن الخف والاشياء التى
 لا توجد الا هنالك مما كان قد أخذ من القصر فلما سار وقعه عسكر الفرنجة في الطريق فقتلوه
 وأخذوا جميع ما كان معه وسار الصالح صاحب منية ابن خصيب فدخل القاهرة باعلام سود
 وثياب سود حزننا على الظافر والشعور التى أرسلت اليه من نساء القصر على رؤس الرماح فطلع

عليه خلع الوزارة واستقر له منصبها وأحضر الخویدم الذي شاهد قتل الظافر فأراه موضع
دفنه فأخرجته ونقله الى مقبرتهم بالقصر ولما قتل الفرنجة عباسا وأخذوا ما معه من
الاموال وغيرها أسروا ابنه فأرسل الصالح الى الفرنجة وبذل لهم مالا وأخذ منهم فسار من
الشام مع أصحاب الصالح ولم يكلم أحدا منهم كلمة واحدة الى أن رأى القاهرة فأنشد
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

فأدخلوه القصر ثم أخرج بعد أيام مينا وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح بيوت
الكبار والاعيان بالديار المصرية فقبض على أهلها وأخذ أموالهم وأبعدهم عن ديارهم فبعضهم من
هلك ومنهم من تفرق في البلاد ومنهم من نزع الى الحجاز واليمن وغيرهما * قال بعض الكتاب
وكان دخول الملك الصالح الى القاهرة بالاعلام السود والسياب السود من القال العجيب فإنه
لم يمض سوى خمسة عشر عاما حتى دخلت القاهرة الاعلام السود العباسية وأزالت الاعلام
العلوية ولم يزل الفائر بنصر الله لا كلمة له والحكم للصالح بن رزيك الوزير حتى مات الفائر في
صفر سنة خمس وخمسين وخسمائة وعمره احدى عشرة سنة فسكات سلطنته ست سنين ونحو
شهرين فلما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح
للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم انسانا كبير السن فأمر باحضاره
فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس الوزير أخزم منك حيث اختار الصغير للخلافة وترك
الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله
أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد يومئذ مرافقا
قارب البلوغ فبايع له وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله

وكما كانت أمور السلطنة في مصر في اختلال وأحوالها في اعتلال بسبب الفتن
والخطوب المستراكة المترتبة على فعال الطامعين في منصب الوزارة فكذلك كانت أحوال
الخلافة يبعث الى هذا الحين اذ ظهرت الفتن وعمت الاحن وقامت الحروب في كل الجهات
على ساقها واشتدت وطالت أيامها فأختل نظام الامور وتعذر تدبير الجمهور وعات أصحاب
الفساد فقتلوا ونهبوا وفعالوا مالا خيرا فيه وكان من الحوادث أيضا في تلك الايام أن زاد دجلة
الى حد لم يسبق له مثال فخرق الفوارج فوق بغداد وأقبل المد الى البلد فامتلات الصخارى
ونخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء
فتحة أخرى وأهلوها ظنا أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق
كثير من الدروب والحارات ودب الماء تحت الارض الى الكثير من الاماكن فوقع وأخذ
الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت أجرة المعبرة عدة دنائير ولم يكن يقدر عليها لما
أصاب الناس ثم نقص الماء وتهدم السور وبقي الماء الذي بداخل السور يدب حتى كثر الخراب
وبقيت المحال لا تعرف وانما هي تلؤل وقد غرق أيضا بالجانب الغربي من دجلة جميع المقابر
وانخفضت وخرج الموق على سطح الماء فكان أمرا عظيما جدا لم يسبق له مثيل فيما غير

ولما كانت سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض الخليفة المقتدى لأمير الله واشتد مرضه وخاف الناس عليه ثم عوفي فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلقت الحصون أسبوعاً وعم الفرح جميع الأهالي ثم لم يلبث أن عاوده المرض في سنة خمس وخمسين فمات في ثاني ربيع الأول بعلية التراقي وهو ابن ست وستين سنة فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وقيل أربعاً وعشرين وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً وقيل خمساً وعشرين سنة وكان شهماً كريماً حليماً حسن السيرة ذا رأي وتدبير وهو أول من استبد بالحكم منفرداً عن السلطان بالعراق من أول يوم الديلم إلى موته وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكّم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن الا الخليفة المعتضد وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال الجليلية لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتى كان لا يقوته منها شيء وقد عمل لنفسه من العقيق تابوتاً دفن فيه ۞ ولما مات ولي الخلافة بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله

(الفصل الثاني والثلاثون)

(في خلافة أبي المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتدى لأمير الله)

ثم قام بالامر بعد المقتدى لأمير الله ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتدى لأمير الله وقد كان أبوه ولاء العهد في سنة سبع وأربعين وخمسمائة فبويع له بالخلافة بعد موت أبيه بيوم وقيل بل يوم موت أبيه سنة خمس وخمسين وخمسمائة هجرية أي سنة ستين ومائة وألف ميلادية وكان للمقتدى حظية هي أم ولده أبي علي وكانت تكره أبا المظفر وتبغى تسليم الامر لولدها أبي علي فلما اشتد مرض المقتدى وأيست منه أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها خليفة فقالوا وكيف الخيلة مع ولي العهد فقالت اذا دخل على أبيه قبضت عليه وكان يدخل إلى أبيه كل يوم فقالوا لا بد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبي المعالي ابن الكبا الهراسي فدعوه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيراً فقبلوا ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبي علي أحضرت عدة من الجوارى وأعطتهن السكاكين وأمرهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله وكان للمستنجد خصي صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار أبيه فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبي علي وأمه سيفين فعاد إلى المستنجد فأخبره وأرسلت هي إلى المستنجد تقول ان والدك حضر الموت فأحضر لنشأه فاستدعى

استاذ دار عضد الدولة وأخذته معه هو وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدروع
وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن جرحها وكذلك أخرى
وصاح فدخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى فأخذ أخاه أبا علي وأمه فحبسهما
وأخذ الجوارى فقتل منهن وأغرق

وجلس المستنجد للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن
المقتدي وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضي القضاة وأرباب الدولة
والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدرهم ولما استقرت به الخلافة أقر ابن هبيرة
على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضي
ابن مزاحم وبس الحاكم هو وأخذ منه مالا كثيرا وأخذ كتبه فأحرق منها في الرحبة
ما كان من علوم الفلسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما
يشا كلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء فكان أستاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير
أن يقوم له تعظيما وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن أحمد الدامغانى وأقام مكانه أبا
جعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه وأدناه منه ❦ ووردت الاخبار الى مصر بخلافة
المستنجد وموت المقتدى فلم يلتفت اليها الملك الصالح بن رزيق وزير العاضد لدين الله
وأهملها كلها لغيرها من بقية الامور واشتغاله بالتحكم في دولة العاضد واستبداده بالامر
والنهي وجباية الاموال وعزله الولاة والعمال وتبعيده كل من كان يخشى من وثوبه حتى
أبغضه الامراء والعامة وحرم القصر وتمنوا موته والخلاص من شره فأرسلت عمه العاضد
لدين الله الاموال الى بعض الامراء ودعمته الى قتله وكان أشدهم عليه في ذلك انسان يقال
له ابن الداعي فاتفقوا على قتله ووقفوا له يوما في دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين
على دهش منه فجرحوه بجراحات مهلكة وحمل الى داره وفيه رمق فأرسل الى العاضد لدين
الله يعاتبه على الرضا بقتله فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت لم
ترض به وبريئا منه فسلم عمك الى حتى أنتقم منها فرسم بتسليمها اليه فأخذها قهرا وقتلها
ووصى بالوزارة من بعده لولده رزيق ولقب العادل فانتقل الامر اليه بعد أبيه ❦ قال
أصحاب التاريخ وكان الصالح المذكور كرميا فيه أدب وله أشعار حسنة بليغة تدل على فضل
غزير فتها في الافتخار

أبي الله الآن يدوم لنا الدهر ❦ ويخدمنا في ملكنا العز والنصر

علمنا بأن المال تفنى أوفسه ❦ ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر

خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا ❦ صحاب اديه البرق والرعد والقطر

قرانا اذا رحنا الى الحرب مرة ❦ قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر

كما أننا في السلم نبتل جودنا ❦ ويرتع في انعامنا العبد والحمر

وكان لاهل العلم عنده منزلة ويرسل اليهم العطايا الكثيرة وكان اماميا لم يكن على مذهب

العلويين المصريين * وكان شديد المغالاة في التشيع صنف كتابا فيه الرد على أهل الفساد جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن أبي طالب والبحث في الاحاديث الواردة في ذلك ومن شعره في التدين هذه الابيات

ياأمة سلكت ضلالينا * حتى استوى اقرارها وبجودها
ملتم الى أن المعاصي لم تكن * الابتقـدير الاله وجودها
لوضح ذا كان الاله بزعمكم * منع الشر بعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون الهنا * ينهى عن الفحشاء ثم يريدنا

قالوا ولما ولي العاضد الخليفة وركب مع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل اتهم يفرحون بالخليفة فقال كافي بهؤلاء الجهلاء وهم يقولون ما مات الاول حتى استخلف هذا وما علموا أنني كنت في ساعة استعرضهم استعراض الغنم وقال عمارة دخلت الى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولني قرطاسا فيه بيتان من شعر وهما

نحس في غفلة ونوم وللمو * ت عيمون يقظانة لاتمام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعري متى يكون الحمام

قال فكان آخر عهدي به * وقال عمارة أيضا ومن عجيب الاتفاق أنني أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها

أبولك الذي تسطو اليالي بجده * وأنت يمين ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره * اليسك مصير واجب ومنال
تخالصك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وحجال

قال فانتقل الأمر اليه بعد ثلاثة أيام * وكان من جملة وصية الصالح لولده العادل عند ما أشرف على التلف أن لا يغير على شاور والى الصعيد قال فإني أنا أقوى منك وقد نذمت على استعماله ولم يكن خلعه فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون * وشاور هذا تركي الاصل جاء الى مصر ودخل في خدمة الصالح بن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال يومئذ بعد الوزارة * فلما استقر به المنصب ظهرت منه كفاءة عظيمة وتقدم زائد واستمال لنفسه الرعية والمقدمين من العربان وغيرهم فحسر أمره على الصالح ولم يمكنه بعد ذلك خلعه فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما ولي العادل الوزارة مكان أبيه الصالح حسن له أهله عزل شاور المذكور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فأرسل اليه بالعزل وخالف وصية الصالح فجمع شاور عند ذلك جموعا كثيرة وانحدروا بهم الى القاهرة فهرب العادل بن الصالح بن رزيك فلحقه شاور وأخذه وقتله فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله سبع سنين وشهرا وأياما وولي شاور منصب الوزارة ولقب بامير الجيوش واستولى على جميع أموال بني رزيك وودائعهم وخرائثهم وأخذ منها أيضا طبا والكامل ابنا شاور شيئا كثيرا وأنكر ما أخذناه * قال

بعض الكتاب ثم ظهر عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ولم يلبث
 شاور في منصب الوزارة طويلا حتى ظهر الضرغام في جوع كثيرة للغاية وأخذ ينازع
 شاور في الوزارة وظهر أمره وعلت كلمته وطال نزاعه فانهمزم شاور منه الى الشام فتولى
 ضرغام منصب الوزارة وأمر ونهى فكان في هذه الدولة ثلاثة وزراء العادل بن شريك
 وشاور صاحب الصعيد وضرغام هذا كان أحد كبار الامراء البرقية الذين أقامهم الملك الصالح
 ابن رزيق على عهد وزارته ويقال له ضرغام أبي الاشبال وهو يومئذ حاجب الباب فلما
 تمكن ضرغام هذا من الوزارة قتل الكثير من الامراء المصريين لتخلوله البلاد من المنازعين
 وأكثر من الأخذ بالشبهات فضعفت لذلك الدولة وانحطت شهرتها وزالت هيبتها وطعم في
 أخذها الظالمون فخرجت بعد ذلك من أيديهم كما سيقى عليك في محله ❀ أما شاور فانه لما
 وصل الى الشام التجأ الى صاحبها نور الدين محمد بن زنكي واستجار به وشكا ما حل به من
 ضرغام فأكرم نور الدين مثواه وأحسن اليه وأتم عليه وكان وصوله في ربيع الاول من
 السنة أى سنة تسع وخسين وخمسة وطلب من نور الدين أن يرسل معه عسكريا الى مصر
 ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العسكر ويكون شريكه
 ابن شادي مقدم العسكر التي تعجبه مقيما بعسكره في مصر ويتصرف له بأمر نور الدين
 واختياره فبقي نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة تحمله رغبات قصد
 شاور وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنجة وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنجة
 فيه وكذلك تخوف من ابن شاور ان استقرت قاعدته ربما لا يفي له ثم قوى عزمه على
 ارسال الجيوش فتقدم بجهيزتها وازاحة عللها وكان هوى أسد الدين في ذلك وميله شديدا الى
 المسير الى مصر وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يسالى معه بخافة جهز جيشا جارا
 وجعل عليه الامير أسد الدين شيركوه المذكور وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته
 وأتبعهم وساروا وشاور في صحبتهم وذلك في جمادى الاولى سنة تسع وخسين وتقدم نور
 الدين الى شيركوه بن شادي بان يعيد شاور الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين
 الى طرف بلاد الفرنجة مما يلي دمشق بعسكره لينزع الفرنجة من التعرض لاسد الدين
 شيركوه ومن معه فوصل أسد الدين والعساكر الذين معه الى مدينة بليس فخرج ناصر
 الدين أخو ضرغام بعسكر من مصر ولقيهم فاقتتلوا فانهمزم ناصر الدين وعاد الى القاهرة
 خاسرا ووصل أسد الدين فزل على القاهرة أو اخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة
 سلب الشهر لقتال أسد الدين فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين ثم حمل ودفن
 بالقرافة وقتل أخوه فارس المسلمين فلما تم الظفر لآسد الدين نخلع على شاور مستهل رجب
 وأعادته الى الوزارة وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ينتظر وفاء ما قرره شاور فغدر به شاور وعاد
 عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا وأرسل الى أسد الدين بأمره
 بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه

فأرسل في الحال أسد الدين الى توابه قتلوا مدينة بليس وحكم على اقليم الشرقية فأرسل شاور الى الفرنجة يستمدهم ويخوفهم من نور الدين اذا ملك مصر فسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في ديار مصر وكان شاور قد بذل لهم مالا على المسير اليه فجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين خبر ذلك سار بعساكره الى أطراف بلادهم ليمنعهم عن المسير فلم يتمكن من ذلك اذ سار ملك القدس في عسكره على عجل وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنجة يريدون زيارة بيت المقدس فسار جماعة منهم مع صاحب القدس فلما قاربوا مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بليس فأقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن بها فاجتمعت العساكر المصرية وجوع الفرنجة ونازلوا أسد الدين بمدينة بليس وحصره بها ثلاثة أشهر وهو يغادهم القتال ويروحهم فلم يبلغوا منه غرضا فبينما هم على هذا الحال اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنجة على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس فأردوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فأجابهم الى ذلك لان الأقوات والذخائر نلت عليه وخرج من بليس في ذي الحجة وسار الى الشام وأقام على حاله في خدمة نور الدين ولكنه كان دائما يتحدث بمصر مولعا بها ويجب أن يقصدها وكان عنده من الحصر على ذلك كثير

فلما كانت سنة اثنتين وستين وخمسة تجهز للسير الى مصر وسار في ربيع الاول في جيش ضخيم للغاية فسير معه نور الدين جماعة من الامراء فكانت عدتهم يومئذ اثني فارس وكان نور الدين كارها لذلك ولكن لما رأى من جد أسد الدين ورغبته في المسير لم يمكنه الا أن يسير معه هذا الجمع خوفا من الهزيمة أو حادث يجدد عليهم وسار أسد الدين بعسكره برا وترك بلاد الفرنجة على يمينه فوصل مصر وقصد اطفح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل مصر ومدينة القسطنطين وأخذ يتصرف في البلاد الغربية وأنفذ حكمه فيها وأقام على ذلك نيفا وخسين يوما وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين أرسل الى الفرنجة يستجيبهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها فترفع أسد الدين بن معه الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين فتبعتهم العساكر المصرية وعسكر الفرنجة فأدركوهم بها في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أسد الدين قد أرسل الى المصريين والفرنجة جواسيس فعادوا اليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجددهم في طلبه فعزم على قتالهم الا أنه خاف من أصحابه أن تضعف قلوبهم عن القتال في هذا المقام الخطير الذي عظمهم فيه أقرب من سلامتهم لقله عددهم فاستشارهم فأشاروا بعبور النيل الى الجانب الشرقي والرجوع الى الشام وقالوا ان نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فالى أين نلتجئ وبمن نلتجئ وكل من في هذه الديار من بحدى وعامى وفلاح عدونا فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين بن برغش صاحب شفيق وكان شجاعا وقال

من يخاف القتل والاسر لا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاه نعدر فيه لياخذن مالنا من الاقطاع والحاكمية ولا يعود علينا جميع ما أخذناه منذ خدمنا الى يومنا هذا ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال أسد الدين هذا الرأي وبه أعمل فقال ابن أخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فأقام أسد الدين بكانه حتى أدركهم المصريون والفرنجية وهو على أهبة وجعل الانتقال في القلب يستكثر بها وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولئن معه ان المصريين والفرنجية يجعلون حلتهم على القلب ظنا منهم أني فيه فاذا جعلوا عليكم فلا تصدوهم بالقتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فأرجعوا في أعقابهم واختار هو من شجعان عسكره جعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحروب ووقف بهم في الميمنة فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنجية ما ذكره وجلوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهمزوا بين أيديهم غير متفرقين وتبعهم الفرنجية فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين جعلوا من المسلمين والفرنجية الفارس والراجل فهزموهم ووضع السيف فيهم فأئذن وأكثر القتل فلما عاد الفرنجية من أثر المسلمين رأوا عسكرهم منهزماً فانهمزوا أيضاً ولما تمت هزيمة المصريين والفرنجية سار أسد الدين بمن معه الى نجر الاسكندرية وبقى باقي القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فسلمها بمساعدة من أهلها سلوها اليه فاستتاب بها صلاح الدين بن أخيه وعاد الى الصعيد فلما وصلها وبقى أموالها وأقام بها حتى صام رمضان فكبر ذلك على المصريين والفرنجية واجتمعوا بالقاهرة وأصلحوا حال عسكرهم وجعوههم وساروا الى الاسكندرية فحصرها صلاح الدين بها واشتد عليه الحصار وقتل الطعام على من بالاسكندرية فصبروا على ذلك واتخذ أسد الدين من الصعيد الى الاسكندرية وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركان فوصل رسل الفرنجية والمصريين يطلبون الصلح * قال بعض الكتاب وبنوا الى أسد الدين خمسين ألف دينار سوى ما أخذته من البلاد فأجاب الى ذلك واشترط على الفرنجية أن يقيموا بالبلاد ولا يملكوا منها قرية واحدة فأجابوه الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية من نصف شوال من السنة ووصل أسد الدين شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة * أما الفرنجية فانهم اتفقوا مع المصريين بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد طائفة من فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر في كل سنة مائة ألف دينار وهذا كله استقر مع شاور اذ لم يكن للعاقد حكم ولا كلمة وقد حجب عن الأمور كلها وعاد جماعة الفرنجية بعيد ذلك الى الساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور أرسل الى نور الدين سرا مع بعض الامراء ينهى محبته وولاهه وبسأله الدخول في طاعته وتعاهدوا أن يفعل

هذا وبذل مالا يحمله في كل سنة فأجابه نور الدين الى ذلك فحمل اليه ابن شاور مالا جزيلًا
وبقي الأمر على هذا الحال وشاور لا يعلم بالخبر * فلما كانت سنة أربع وستين وخمسائة
فصد أسد الدين ديار مصر ثلثة ومعه العسكر النورى فملكها وجعل يتصرف فيها * وتحرير
الخبر أنه لما تمكن الفرنجة من البلاد المصرية وجعلوا لهم ثحنة في القاهرة حكوا وتصرفوا
في الأمور وشددوا على الرعية فضج المسلمون واستغاثوا فأرسل الفرنجة الى ملكهم
بالشام المسمى مرى وكان أشجع ملوكهم بالشام يستدعونه ليملكها وأعلموه
خلوها من ممانع وهتفوا عليه أمرها فلم يجيبهم الى ذلك * قال أصحاب التاريخ فاجتمع اليه
فرسان الفرنجة وذو الرأى منهم فأشاروا عليه بملكها فقال لهم الرأى عندي أننا
لأنقصدها ولا بغيه لنا فيها وأموالها تساق الينا فنقوى بها على نور الدين وان نحن
فصدناها لتملكها فان صاحبها وعسكره وجميع بلاده وفلاحها لا يسلمونها الينا ويقا تلوننا
دونها ويحملهم الخوف على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين كانت
العاقبة شرا علينا وأجلانا ولا محالة عن الشام فلم يقبلوا قوله وألحوا عليه في قصدتها فقبل
منهم على كره وشرعوا يجهزون ويشمعون أنهم انما يريدون مدينة حصص فلما سمع نور الدين
بالخبر شرع أيضا في جمع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنجة في السير الى مصر
فقدموها ونزلوا مدينة بليس وملكوها قهرا مستهل صفر وتهبوا مافيها وقتلوا وأسروا وكان
جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنجة ووعدهم أن يأخذوا بناصرهم نكاية في شاور
وتخلصا من جورده منهم ابن الخياط وابن فرجلة فاشتد عضد الفرنجة وساروا من بليس
الى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها تخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم ما فعلوه
بأهل بليس فحملهم الخوف على الامتناع فحفظوا البلد وقاوموا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه
وأمر شاور باحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالهلاء عنها الى القاهرة وأن ينهب
البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق في حالة تباكي الناظر ونهبت المدينة وأصبح أهلها
لا يملكون شيئا وذهبت أموالهم ونهبتهم قبل نزول الفرنجة عليهم بيوم فبقيت النار تضطرم
فيها وتحرقها أربعة وخسين يوما فكانت شدة لم يسبق لها مثال ومنظر تنفطر منه الالكباد
واشتد الفرنجة في الحصار فعم البلاء وكبر خوف الناس فأرسل العاضد العبيدى الى نور
الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنجة وأرسل في الكتب شعور نسائه
وقال هذه شعور نسائي من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنجة فلما وصلت كتب
العاضد الى نور الدين كبر عليه الامر وشرع في تسيير الجيوش أما الفرنجة فانهم لما علموا
بعزم نور الدين اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو ولى أمر العساكر
فضاق به الخناق وضعف عن ردهم فأخذ الى اعمال الحيلة وأرسل الى ملك الفرنجة
يذكر له مودته وصداقته له قديما وأن هواه معه نظوفه من نور الدين والعاضد صاحب البلاد
وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال اثلا يتسلم البلاد نور الدين

فأجابته هري الى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجل بالبعض ويعهل بالبعض
فاستقرت القاعدة على ذلك فجعل لهم شاور بمائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنها ليجمع لهم
المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من أهالي القاهرة ومصر فلم يتصل
الامقدار خمسة آلاف دينار وذلك لان أهل مصر كانت قد احترقت بيوتهم وما فيها
وما سلم من الخريق نهب وهم لا يقدررون على الاقوات فضلا عن الاقساط وأما أهل القاهرة
فلان أغلب أهلها الجنند وغلماهم تعذر عليهم المال وهم في خلال ذلك يرسلون نور
الدين بما أصبح الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسد الدين مقبلا عندهم في
عسكره واقطاعهم من البلاد المصرية أيضا خارج عن الثلث الذي لهم وكان نور الدين لما
وصلت كتب العاضد اليه يجلب أرسل الى أسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد في
طلبه فلقبه على باب حلب وقد قدمها من حصص وكانت اقطاعا له وسبب وصوله أن كتب
المصريين وصلت اليه أيضا في هذا المعنى فسار الى نور الدين واجتمع به فحجب نور الدين من حضوره
في الحال وسر بذلك وتفاهل به وأمر بالتجهز الى مصر وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب
والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه في العسكر والخزائن فاختر من العسكر أثنى فارس وأخذ
المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سبخ صفر ورحل
الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من كان مع أسد الدين عشرين دينارا معونة غير
محسوبة من جامكيتته وأضاف الى أسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم مملوكه عز الدين
جودبك وغرس الدين قليج وشرف الدين برغش وعين الدولة الباروقى وقطب الدين ينال بن
حسان المنيجي وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه وسار أسد الدين
شيركوه من رأس الماء مجتدا منتصفا ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الفرنجة الى بلادهم
وسمع نور الدين بعودهم فسر ذلك جدا وأمر بضرب البشار في البلاد وبعث رساله الى الآفاق
بمشرين بذلك فلما وصل القاهرة ودخل اليها اجتمع بالعاضد لدين الله نخلع عليه العاضد
وعاد الى خيامه بانخلعة وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة
والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك لانه رأى أن العساكر كثيرة مع أسد الدين
وهوى العاضد العلوي معه فلم يقاسر على اظهار ما في نفسه وقد كان يكره بقاء أسد الدين
في مصر ويخشى منه على نفسه وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذله لنور
الدين من المال والاقطاع للجنند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد

الدين ويسير معه ويعده ويمنيه

وعزم شاور يوما على أن يعمل دعوة يدعو اليها أسد الدين والامراء الذين معه ويقبض
عليهم ويستخدم من معهم من الجنند فيمنع بهم البلاد من الفرنجة وكلم ابنه الكامل في ذلك
فتهاه وقال له وانه لئن عزمتم على هذا الامر لأعلمن به شيركوه فقال له أبوه لئن لم تفعل هذا
لنقتلن جميعا فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد

ملكها الفرنجية فترك شاور ما كان قد عزم عليه ورأى العسكر النورى الذين مع أسد الدين
مطل شاور يخافوا شره وتكلموا في أمره كثيرا ثم اتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز
الدين جردبك وغيرهم على قتل شاور فنهزم أسد الدين على عادته فسكتوا وهم على هذا
العزم من قتله فانفق أن قصد شاور عسكر أسد الدين كما كان يفعل كل يوم فلم يجده في الخيام
وكان قد توجه لزيارة قبر الامام الشافعي فلقبه صلاح الدين يوسف وجردبك في جمع من العسكر
فخدموه وأعلموه بان شيركوه قد انصرف لزيارة قبر الامام الشافعي فقال غضى اليه فساروا جميعا
فسار صلاح الدين وجردبك ومازالا حتى تمكنا منه وألقياه الى الارض عن فرسه فهرب أصحابه
عنه فأخذ أسيرا ولم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلنا بحفظه وأعلمنا أسد الدين
فغضب ولم يمكنه الا انعام ما علاه فقتل شاور ووصل الخبر بما جرى الى العاضد لدين الله
العلوى فأرسل الى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فأرسلوا رأسه الى
العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع
الخلق ما أخافه على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق
الناس الى الدار فتهبونها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور
أمير الجيوش فسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان بها شاور فلم ير فيها ما يتعد عليه
واستقل بالامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق به
من أصحابه وأقطع البلاد لعسكره وأما الكامل بن شاور فانه لما قتل أبوه دخل القصر هو
واخوته معتصمين فكان آخر العهد بهم * ذكر أن أسد الدين شيركوه حزن على شاور لانه
بلغه ما كان منه مع أبيه من منعه من قتل شيركوه وما استتب الامر لشيركوه وتبنت
قدماء في منصب الوزارة حتى أتاه أجله على عجل فمات في يوم السبت الثاني والعشرين من
جادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسائة فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام فلما مات
قام جماعة من الامراء النورية الذين كانوا معه وطلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة
العاضدية بعده منهم عين الدولة الباروقى وقطب الدين اينال وسيف الدين المشطوب الهكارى
وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين يوسف وكان كل واحد من هؤلاء يخطبها
وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد الى صلاح الدين وأحضره عنده وخلع عليه وولاه
الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر
سنا من يوسف والرأى أن يولى الوزارة فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من
يستطيعها لينا فيصير عندنا من الجند ما يمنع بهم عن البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجهم فوافقهم
العاضد على ذلك وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم يطعه أحد من أولئك الامراء الذين
يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان معه الفقيه عيسى الهكارى فسمي مع المشطوب حتى
أماله الى صلاح الدين وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما
ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر

فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك خال اليه أيضا ثم فعل هكذا بالباقيين فأطاعه كلهم غير عين الدولة الباروقى فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام فلما استقرت بصلاح الدين الوزارة استمال اليه قلوب الناس وبذل الاموال فأجبه وضعف أمر العاضد صاحب البلاد ولم يبق له الا الاسم ثم أرسل يوسف الى نور الدين يطلب أن يرسل اليه اخوته وأهله فأرسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ اقطاعات الامراء المصريين فأعطاهم أهله والامراء الذين معهم وزادهم فازدادوا حباله وطاعة لامره وكان يوم ولاية صلاح الدين يوما مشهودا جدا * قال أبو شامة كانت الخلعة التي لبسها صلاح الدين يوم ولايته عمامة بيضاء وثوبا دميقيما بطراز ذهب وجبنة بطراز ذهب وطيلسانا مطرزا بذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيفا محلى بخمسة آلاف دينار وجمرا بثمانية آلاف دينار وعليه سرج ذهب وسرصار ذهب مجوهر وفي رأسه مائتا حبة جوهر وفي قوائمه أربعة عقود جوهر وفي رأسه قبعة بذهب شديدة البياض بأعلام بيض ومع الخلعة عدة بقق وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكنوب في ثوب أطلس أبيض وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين قال وكان يوما مشهودا وارتفع قدر صلاح الدين بالديار المصرية واستلفت اليه القلوب وخضعت له النفوس واضطهد العاضد في أيامه غاية الاضطهاد اه

فلما كانت سنة خمس وستين حاصر الفرنج مدينة دمياط خمسين يوما فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم وجعل صلاح الدين يأمر وينهى ويتصرف في الامور لا راد لكلمته ولا أمر فوق أمره والعاضد في قصره محجور عليه لا يعرف من أحوال البلاد شيئا ولا يدري ماهي عليه فكان نور الدين صاحب دمشق اذا خاطب صلاح الدين يوسف لا يخاطبه مع ذلك الا بالامير الاسفهلار ويكتب علامته على رأس الجواب تعظيما عن أن يكتب اسمه وكان لا يفرد به بكتاب بل يكتب الامير الاسفهلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا وأرسل نور الدين الى صلاح الدين بعد أن ضعف أمر العاضد وانحطت كلمته بأمره أن يخطب للخليفة المستجد العباسي بمصر لان الخليفة بعث يعاتبه في ذلك ويطلب اعادة الخطبة اليه كما كانت قبل العلويين فأخذ صلاح الدين من هذا الحين في تذليل العاضد والتضييق عليه في جميع أموره واشتد عليه شدة بالغة فشكى العاضد من ذلك وراسل صلاح الدين وعاتبه فلم يلتفت اليه فكبر الامر على من بالقصر وانفق مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد اليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه مع جماعة من المصريين على مكاتبه الفرنجة واستدعاهم الى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيراوا الكتب مع رجل يثقون اليه وأقاموا ينتظرون جوابه فسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقبه انسان تركاني فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال في نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة وارتاب فيه وفيهما فأتى به الى

صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتب فيهما فقرأها وسكت عليه وكانت رغبة مؤمن الخلافة
 أن يحرث الفرنجة الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها وخرج صلاح الدين في العسكر لقتالهم
 نار مؤمن الخلافة بن معه من المصريين على مختلفهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم
 يتبعون صلاح الدين فيأتون من وراء ظهره والفرنجة من بين يديه فلا تبقى لهم باقية فلما
 قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل انه رجل يهودى فاحضره فأمر بضربه وتقريره
 فابتدأ وأسلم وأخبره بالخبر وأخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤمن الدولة بما جرى
 فلأزم القصر ولم يخرج منه خوفا من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شياً من الطلب
 لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانة لتتزه فلما علم
 به صلاح الدين أرسل اليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأوآ برأسه ثم عزل جميع الخدم الذين
 يتولون أمر القصر واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض فكان لا يجرى
 في القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمره فغضب السودان لقتل مؤمن الخلافة واجتمعوا
 فزادت عدتهم على خمسين ألفا وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضا
 وانتشبت الحرب بين القصرين وكثر القتل بين الفريقين وكاد يتم الظفر للسودان وظهرت
 هزيمة الاجناد الصلاحية فأرسل صلاح الدين في الحال الى محلة السودان المعروفة بالمنصورة
 فأحرقها على أموالهم وعيالهم فلما جاءهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت
 عليهم أفواه السكك فطلبوا الامان بعد أن كثر فيهم القتل فاجيبوا الى ذلك وأخرجوا من
 مصر الى الجيزة فعبير اليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الاكبر في طائفة من عسكره
 فأبدهم بالسيف ولم يبق منهم الا الثريد ولم يراع لهم ذمة ولا عهدا وذلك سنة أربع وستين
 فكانت هذه الواقعة من الوقائع التي تمكنت بها سلطنة صلاح الدين وعلت كلمته

واشتد خوف الفرنجة بالشام من تلك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين لمصر فقاموا
 في سنة خمس وستين وخمسمائة وكاتبوا اخوانهم بصقلية والاندلس وغيرها يستجدونهم
 ويعترفونهم ما يتجدد من ملك الترك لمصر وأرسلوا جماعة يستنصونهم فأمدوهم بالمال والرجال
 والسلاح واستعدوا للترول على دمياط فلما عزموا على الرحيل كان أسد الدين قد مات كإتقدم وملك
 صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحاصروها وضيقوا على من بها فأرسل اليها صلاح الدين العساكر
 في النيل وحشد فيها كل من عنده وأمدهم بالاموال والسلاح والذخائر وأرسل الى نور الدين
 يشكو ما هم فيه من الخافة ويقول اني ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنجة وان سرت
 اليها خلفى المصريون في أهلها بالشروخرجوا عن طاعتي وساروا في أثرى والفرنجة أمامى
 فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العسكر اليه أرسلوا يتلو بعضهم بعضا ثم سار هو بنفسه
 الى بلاد الفرنجة الشامية فنهبا وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه
 قبل خلوا البلاد من ممانع فلما رأى الفرنجة تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين الى
 بلادهم ونهبها وتخربها رجعوا ولم يظفروا بشيء وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما

وأخرج فيها صلاح الدين من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر * حكي انه قال ما رأيت
أكرم من العاضد أرسل الى مرة لمقام الفريخ على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى
التياب وغيرها وأرسل صلاح الدين الى نور الدين والخليفة المستنجد بالله العباسي يعلمها
بأنه على عزم اعادة الخطبة الى المستنجد بديار مصر ففرح الخليفة المستنجد وأرسل الى نور الدين
يستعنه على ذلك وظل المستنجد يتصرف في الخلافة ويدير أمرها جهدا الاستطاعة حتى
وافته المنية في الثامن من ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسائة هجرية يقال ان سبب
موته انه مرض واشتد عليه المرض وكان قد خافه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن
رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز القنفوي وهو حينئذ أكبر أمير في بغداد فلما اشتد
مرض الخليفة اتفقوا ووصيا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام
فامتنع لضعفه فأدخلوه هم قهرا وأغلقوا عليه بابه فمات وقيل ان الخليفة كتب الى
وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن
صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول اني أوصلت الخط الى الوزير
ففعل ذلك وحضر أستاذ الدار وقطب الدين ويزن وأخوه تنامش وعرض الخط عليهم
فاتفقوا على قتل الخليفة فلم يكن بأسرع من أن دخل عليه يزن ومعه قايماز الجبدي
حمله الى الحمام وهو يستغيث وألقيا وأغلقا الباب عليه وهو يصيح الى أن مات ﷺ وكان
بين وزير الخليفة أبي جعفر ابن البلدي وبين أستاذ الدار وقطب الدين عداوة مستحكمة لان
المستنجد بالله كان يأمر الوزير بأشياء تتعلق بهما فيمقلها فكانا يظنان انه هو الذي يسعى بهما
فلما مرض الخليفة وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الامراء والاجناد وغيرهم بالعسد فلم
يتحقق عنده خبر موته فأرسل اليه عضد الدين يقول ان أمير المؤمنين قد خف ما به من
المرض وأقبلت اليه العافية يخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فرمى أنكر عليه ذلك
فعاد الى داره وتفرق عنه الناس وكان عضد الدين أستاذ الدار وقطب الدين قد استعدا
للهرب لما ركب الوزير خوفا منه ان دخل الدار أن يأخذها فلما عاد أغلق أستاذ الدار
أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضره وقطب الدين أبا محمد الحسن بن الخليفة
المستنجد وبإيعامه بالخلافة ولقباه المستضيء بنور الله وشرطا عليه شرطا أن يكون عضد
الدين وزيرا وابنه كمال الدين أستاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم الى ذلك فبايعه
بعده ذلك أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه وبايعه الناس من الغد في التاج البيعة
العامية وعلم الوزير ابن البلدي بما جرى فسقط في يده وقرع سنه ندما على ما فرط من عوده
وأناه من يستدعيه للجلوس للعرزاء والبيعة للمستضيء فغضى الى دار الخلافة فلما دخلها
صرف الى موضع ثم دخل عليه جماعة فقتلوه وقطعوه قطعاً وألقوها في دجلة وأخذوا جميع
ما في داره فأروا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين
وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كانا يظنان فيه

فندما على تفریطهما في قتله

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا شهما كثير الرفق بهم شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس * قال صاحب الكامل بلغني انه قبض على انسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه قال ورد كثيرا من الاموال الى أصحابها وقبض على القاضي ابن المرخم وقد أخذ منه مالا كثيرا فأعادته الى أصحابه وكان ابن المرخم ظلما جائرا في أحكامه اه مات في خلافة المستنجد اخر ستودولو بطرك الاسكندرية فكانت مدته ثلاثين سنة كلها احن وشدائد وكان موته بكنيسة المعلقة بقصر الشمع بفسطاط مصر فبقي الكروسي خاليا مدة اثنين وسبعين يوما ثم أقيم بعده كيرواس الثاني وهو سابع سنتهم كان حبيسا بصومعة سنجار واسمه جرجس من أهل اقلامه فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف لم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر ومات بكنيسة المختار من جزيرة مصر المعروفة بالروضة وهو أول من عمل الكسوة البطريركية من ديباج أزرق وبلارية من ديباج أحمر بتساوير ذهب وقطع الشرطونية فلم يول بعده بطركا مدة مائة وأربعة وعشرين يوما ثم أقيم خائل وهو ثامن سنتهم وأصله من بلدة سخا وكان حبيسا بصومعة سنجار وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الثالث والثلاثون)

(في خلافة المستضيء بنور الله بن المستنجد)

ثم قام بالامر بعد المستنجد أبو الحسن على المستضيء بنور الله بويبع له بالخلافة يوم موت أبيه في ثامن ربيع الثاني سنة ست وستين وخمسمائة هجرية أي سنة سبعين ومائة وألف ميلادية وخطب له باليمن والديار المصرية وقد كانت الخطبة العباسية منقطعة مناهم زمن المطيع كما تقدم الكلام وكان صلاح الدين يوسف قد شرع من أيام المستنجد في تهديد الخطبة لبني العباس فقطع الأذان بجي على خير العمل من ديار مصر كلها وعزل قضاة مصر لانهم كانوا شيعة وولى أفضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعي واستناب في سائر الاعمال شاذية فلما كانت سنة سبع وستين أمر صلاح الدين بأقامة الخطبة لبني العباس بمصر أول جمعة من المحرم وبالقاهرة في الجمعة الثانية فكان ذلك يوما مشهودا قالوا والعجب ان أول من خطب للعزحين أخذت مصر عمر بن عبد السميع الخطيب بجماع عمرو

ويعلم ابن طولون فكان أول من خطب لبني العباس هذه النبوة شريف علوي يقال له
محمد بن الحسن بن أبي الضياء البعلبكي وسيّر صلاح الدين الخبر بذلك إلى نور الدين فأرسل نور
الدين إلى الخليفة المستضيء يعلمه بذلك فزينت بغداد وأغلقت الأسواق وعملت القباب
وفرح المسلمون فرحا عظيما قال ابن الجوزي وقد ألفت في ذلك اليوم كتابا سمّيته النصر على
مصر وكتب العماد الكاتب صلاح الدين إلى الملك نور الدين صاحب دمشق يشّره بذلك

قد خطبنا للمستضيء بمصر * نائب المصطفى امام العصر

في أبيات قد أضربنا عن إرادها هنا صفحا * وقال بعض شعراء بغداد في ذلك أيانا
كثيرة منها

لهنك يا مولاي فتح تتابعت * اليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها * من الترك ناس فيهم الحق يقذف
فعمدت بحمد الله باسم اماننا * تبيته على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن ذلت ليوسف مصره * وكانت إلى عليائه تشوّف
تملكها من قبضة الكفر يوسف * وخلصها من عصبة الرفض يوسف
كشفت بها عن آل هاشم سبأ * وعارا أبي الاسبينك يكشف

وهي طويلة ﴿ قال صاحب حسن المحاضرة قال أبو شامة أنشدت هذه القصيدة للخليفة
قبل موته عند تأويل منام رؤى في هذا المعنى وأراد بيوسف الثاني الخليفة المستنجد
فلم يخطب الا لولده المستضيء فجرى القول باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب
قال صاحب الكامل عند ذكر حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة * وفي هذه السنة في
ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد الامام عبد الله بن يوسف بن
الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن
الظاهر لا عزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن زرار بن المعز
لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي القاهر اسمعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد
ابن المهدي بالله أبي محمد عميد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم
بالخلافة وخطبوا بأمر أمير المؤمنين وكان السبب في إعادة الخطبة العباسية بمصر أن
صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة
العاضد وصار يحكم في قصره صلاح الدين ونائبه قراقوش الخصى وهو من أعيان الامراء
الاسديّة كلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمد بن زكي يأمره بقطع الخطبة
العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار
المصرية عليهم ليلهم إلى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقضاءهم
خوفا من نور الدين فإنه كان يخاف أن يدخل إلى الديار المصرية فيأخذها منه فكان يريد
أن يكون العاضد معه حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه قال

فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه الزاما لافسحة له في مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض في هذا الوقت مرضا شديدا فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراء فتنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافه الا أنه لم يمكنه الا الامتثال لأمر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعمى يعرف بالأمر العالم رأيت أنه بالموصل فلما رأى ما هم فيه من الاجرام وأن أحدا لا يتجاسر بخطب للعباسي قال أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان أول جمعة من المحرم سعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضي ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عززان وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله ولا من أصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي أن نفعجه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة * فلما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه حفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان رتبته قبل موت العاضد فحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرتهم يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلوا الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فحسه الجبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا قال أنا لا أشك فأنى رأيت ووزنته واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الرمز الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ عليه فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب به فسخروا من العاضد فأخذته انسان فضرب به فضرط فتمضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان كل من ضرب عليه يضط فألغاه أحدهم فكسره فاذا الطبل عمل لأجل القولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك ❁ قلت وهو موضع للنظر * قال وكان فيه من الكتب النفيسة المهدومة المثال ما لا يعد فباع بعض من فيه من أمة وعبد وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالامس فسبحان الحى الدائم الذى لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حياه ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده وكان فى نسبة نسعة خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزير والمعز والمنصور والقائم والمهدى ومنهم من لم يخطب له بالخلافة وهو أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القائم محمد بن المستنصر وبقى من خطب له بالخلافة وليس من آباءه وهم المستعلى والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج اليها من أفريقية والعزير والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد

ومدة حكمهم من حين ظهور المهدي بسلماسة في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين الى أن مات العاضد مائتان واثنان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تسكن الا اضطربت ولم تعط الاستلبت ما وهبت ولم تحل الا وتررت ولم تصف الا وتكدرت بل صفوها لا يتخلو من التكدر وكدرها قد يتخلو من الصفو نسأل الله تعالى أن يقبل بقلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقتة ويرهدنا فيها ويرغبنا في الآخرة انه سميع الدعاء قريب من الاجابة ﴿ قال ابن خلكان سمعت جماعة من المصريين يقولون ان هؤلاء القوم يريدون العبيديين في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ألقابا في ورقة تصلح للخلفاء حتى اذا بولى واحد منا لقبوه ببعض تلك الألقاب فكذب لهم ألقابا وأخر ما كتب في الورقة العاضد فاتفق أن آخر من ولي منهم العاضد اه ﴿ قال ابن الاثير ومن الغريب أن العاضد في اللغة القاطع وفي الحديث لا يعضد شجرها فبالعاضد قطعت دولة بني عبيد * قلت وزالت من ديار مصر وانمعت آثارها وقامت مكانها الدولة الايوبية

ولما وصلت البشائر الى بغداد باعادة الخليفة للعباسي كما سبقت الاشارة الى ذلك سير الخليفة انطلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم والمقدمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل الى نور الدين وألبسه الخلع وسير الخلع الى صلاح الدين بالديار المصرية والاعلام السود ثم أرسل الخليفة الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف كآب التقليد ولم ينجح عن ايراده هنا مع طوله تميما للفائدة قال ﴿ أما بعد فان أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قيادا * ولكل أمر مهادا * ويستزيده على نعمته التي جعلت التقوى له زادا * وجعله أعياه الخسلافة فلم يضق عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهادا * وصغر لديه أمر الدنيا فما تسورت له محرابا ولا عرضت عليه جيادا * وحقق فيه قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا * ثم يصلى على من أنزلت الملائكة لنصره امدادا * وأسرى به الى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا * وتجلى له ربه فلم يزغ منه بصرو ولا كذب فؤادا * ثم من بعده على أمرته الطاهرة التي زكت أوراقا وأعوادا * وورثت النور المبين بلادا * ووصفت بأنها آخر الثقلين هداية وارشادا * وخصوصا عمه العباس المدعو له بان يحفظ نفسه وأولادا * وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تخشى نفادا * واذا استوفى القلم مراده من هذه الجملة * وأنبأ القول فيها عن فصاحته المرسله * فانه يأخذ في انشاء هذا التقليد الذي جعله حليفا لقرطاسه * واستدام سبحانه على صفحته حتى لم يكدر يرفع من راسه * وليس ذلك الا قناصة في وصف المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الاكثار * واشنبه الطويل فيها بالاختصار * وهي التي لا يعزى واصفها الى القول المعاد * ولم يستوعر سلوك أطوادها ومن العجب وجود السهل في سلوك الأطواد * وتلك هي مناقبك أيها الملك الناصر السعيد الأجل الكبير العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن

أبوب والديوان العزيز يتساووا عليك محمدنا بشكرك * ويباهى أوليائه تنويها بذكرك *
ويقول أنت الذي تستكني فتكون للدولة سهمها الصائب * وشهابها الثاقب * وكثرها
الذي تذهب الكنوز وليس يذهب * وحاضرها وقد حضرت في نصرتها اذا كان غيرك هو
الغائب * فاشكر اذا مساعيتك التي أهلتك لما أهلتك * وفضلتك على الاولياء بما
فضلتك * ولئن شورك في الولاة بعقيدة الاضمار * فلم تشارك في عزمك الذي انتصر
للدولة بسطة الانتصار * وفرق بين من أمدت بقلبه وبين من أمدت بيده في درجات الامداد *
وما جعل الله القاعد كالذي قال لو أمرتنا لضربنا أكبادها الى برك النجاد * وقد كفلك من
المساعي أنك ككفيت الخلافة أمر منازعتها * وطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت
تدعيها * واقدم مضي عليها زمن ومحراب حقها محفوف من الباطل بمعرا بين * ورأيت
مارآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أولهما كذا بين * فبصر منهما
واحد تجرى أنهارها من تحته ودعا الناس الى عبادة طاغوته وجبته * ولعب بالدين حتى
لم يدري يوم جمعه من يوم أحده ولا يوم سبته * وأعان على ذلك قوم رعى الله بصائرهم بالعمى
والصمم * واتخذوه صنما ولم تكن الضلالة هناك الا ليجل أوصنم * فقامت أنت في وجه
باطله حتى قعد * وجعلت في جيده جبلا من مسد * وقلت ليده بت فاصبح ولايسعي
بقدم ولايبطش بيد * وكذلك فعلت بالآخر الذي نجمت باليمن ناجته * وسامت فيه
سائمه * فوضع يته موضع الكعبة الجمانية * وقال هذا ذو الخلصة الثانية * فأى
مقاميك يعترف الاسلام بسبته * أم أيهما يقوم باداء حقه * وههنا فليصبح القلم للسيف
من الحساد * ولتقصر مكانته من مكانته وقد كان له من الانداد * ولم يحط به منه المزية
الا أنه أصبح لك صاحبا * وفخر بك حتى طارخرا كما عز جانبها * وقضى بولايتك فكان
بها قاضيا لما كان حده ماضيا * وقد قللك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا
ونجدا * وما شملت عليه رعية وجندا * وما انتهت اليها أطرافها برا وبحرا * وما
سنتفذه من مجاورها مسألة وقهرا * وأضاف اليها بلاد الشام وما تحتوى عليه من المدن
المدنية * والمرآكز المحصنة * مستنيا منها ماهو بيد نور الدين اسماعيل بن نور الدين محمد
رحمه الله وهو حلب وأعمالها فقد مضى أبوه عن آثار في الاسلام ترفع ذكره في
الذاكرين * وتخلفه في عقبه في الفائزين * وولده هذا قد هذبته الفطرة في القول
والعمل * وليست هذه الرتبة الامن ذلك الجبل * فليكن له منك جار تدفون منه ودادا كما دنا
أرضا * وتصبح وهو لك كالنيان بشد بعضه بعضا * والذي قدمناه من الثناء عليك
ربما تجاوزتك درجة الاقتصاد * وألقتك عن فضيلة الازدياد * فأياك أن تنظر الى سعيك
نظر الاعجاب * فنقول هذه بلادنا افتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب *
ولكن اعلم أن الارض لله ورسوله ثم خليفته من بعده * فلانته للعبد باسلامه بل المنه
لله بهداية عبده * وكم صلف قبلك من لورام مارته لنا شاسعه * وأجلب مانعه *

لكن ذخره الله لك لتحتفي في الآخرة بمفازته * وفي الدنيا برقم طرازه * فأتق بسيدك عن
 هذا القول القاء التسليم * وقل لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم * وقد قرن
 تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الاسلام شعارا * وفي الرسم فخارا * وتناسب محل
 قلبك وبصرك * وخير ملابس الاولياء ما ناسب قلوبنا وأبصارنا * ومن جعلها طوق يوضع
 في عنقك موضع العهد والميثاق * ويشير اليك بأن الانعام قد أطاف بك اطفافة الاطواق
 بالاعناق * ثم انك خو طبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالانشراح * ولأملك
 بالانفساح * وتؤمر معه بمد يدك العليسا لاتضعها الى الجناح * وهذه الثلاثة المشار اليها
 هي التي تكمل بها أقسام السيادة * وهي التي لا مزيد عليها في الاحسان فيقال انها الحسنى
 وزياده * فاذا صارت اليك فانصب لها يوما يكون في الايام كريم الانساب * واجعله لها
 عيدا وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب * هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعله
 لك حاضرا وأنت ناه عن الحضور * وتضمن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والفضة
 من شيم الغيور * وهذه المكانة قد عزفتك نفسها وما كنت تعرفها * وما تقول الا أنها
 لك صاحبة وأنت يوسفها * فأحرسها عليك حراسة تقضى بتقدمها * واعمل لها فان
 الاعمال بخواتيمها * واعلم أنك تقلدت أمرا يفتتن به التقي الخاسم * ولا ينفك صاحبه
 عن عهدة الملوم * وكثيرا ماترى حسنة يوم القيامة وهي منقسمة بأيدي الخصوم * ولا
 ينجو من ذلك الا من أخذ أهبة الحذار * وأشفق من شهادة الاسمع والأبصار * وعلم
 أن الولاية ميزان احدى كفتيه في الجنة والاخرى في النار * قال النبي صلى الله عليه وسلم
 يا أبا بكر اني أحب لك ما أحبه لنفسى لا تؤمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم فانظر الى
 هذا القول النبوي نظر من لم يخدع بحديث الحرص والآمال * ومثل الدنيا وقد سبقت
 اليك بجذافيها أليس مصيرها الى الزوال * والسعيد من اذا جاءته قضى بها أرب الارواح
 لا أرب الجسوم * واتخذ منها وهي السم دواء وقد تتخذ الادوية من السموم * وما
 الاغتباط بما يختلف على تلاشيه المساء والصبح * وهو كما أزلناه من السماء فأخلف
 به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح * والله يعصم أمير المؤمنين وولاه أمره من
 تبعاتها التي لا يستهم ولا بسوها * وأحصاها الله ونسوها * ولك أنت من هذا الدماء
 حظ على قدر محلاك من العناية التي جذبت بضبعك * ومحلك من الولاية التي بسطت
 من ذرعك * فخذ هذا الأمر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان * وكن في رعاية من
 اذا نامت عيناه كان قلبه يقظان * وملاك ذلك كله في اسباغ العدل الذي جعله الله ثالث
 الحديث والكتاب * وأغنى بشوابه وحده عن أعمال الثواب * وقدر يوما منه بعبادة سبني
 عاما في الحساب * ولم ياتمر به أمير الازيد قوة في أمره * وتحصن به من عدوه ومن
 دهره * ثم يجاء به يوم القيامة وفي يده كتاب أمان * ويجلس على منبر من نور على عين
 الرحمن * ومع هذا فان مر كبه صعب لا يستوى على ظهره الا من أمسك عنان نفسه

قبل عنائه * وغلبت لمة ملكه على لمة شيطانه * ومن أكبر فروضه أن تمحي السير السيئة
 التي طالت مدد أيامها * وأيس الرعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمدا لانحسار
 ظلامها * تلك السير هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيرة * ولا غنى للأيدي الغنية
 اذا كانت ذات نفوس فقيرة * وكلما زيدت الاموال الحاصلة منها قدرا زادها الله محقا * وقد
 استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقا * ولولا أن
 صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ في عقابه * وقبلت توبة المرأة الغامدية بمتابته * وهي
 أشقى من يكون السواد الاعظم له خصما * ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به
 علما * وأنت ملمور بأن تأتي هذه الظلمات فتنهى عن اجرائها * وتلحق أسماءها في
 الهو واهمالها * حتى لا يسبق لها في العيان صورة منظوره * ولا في اللسنة أحاديث
 مذكوره * واذا فعلت ذلك أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يدها فبادر الى ما أمرت به
 مبادرة من يضيق به ذراعا * ونظر الى الحياة الدنيا بعينها فرأها في الآخرة متاعا * واجد
 الله على أن قبض لك اماما مهديا يقف بك على هدالك * وبأخذ بحجزتك عن خطوات
 الشيطان الذي هو أعدى عدالك * وهذه البلاد المنوطة بتترك تشمل على أطراف
 متباعده * وتفترق في سياستها الى أيد متساعده * ولهذا يكثر فيها قضاة الاحكام * وأولو
 تدبيرات السيوف والاقلام * وكل من هؤلاء ينبغي أن يفتن على الاختبار * ويسلط عليه
 شاهد عدل من أمانته الدرهم والدينار * فما أضل الناس شئ كحب المال الذي فترت
 من أجله الاديان * وهجرت بسببه الاولاد والاخوان * وكثيرا ما يرى الرجل الصائم القائم
 وهو عابد له عبادة الاوثان * فاذا استعنت بأحد منهم على شئ من أمره فاضرب عليه
 بالارصاد * ولا ترض بما عرفته من مبدا حاله فان الاحوال تنقل بتنقل الاجساد * وياك
 أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد * وكذلك تأمر هؤلاء
 على اختلاف طبقاتهم بأن يأمرؤا بالمعروف وينهؤا عن المنكر محاسبين * ويعلموا أن ذلك
 من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبيين * وليبدؤا أولا بأنفسهم فيعدلوها عن هواها *
 ويأمرؤا بما يأمرؤن به سواها * ولا يكون ممن هدى الى طريق البر وهو عنها حائد *
 وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج الى طبيب وعائد * فما تنزل بركات السماء الاعلى من
 خاف مقام ربه * وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه * فاذا صلحت الولاية صلحت
 الرعية بصلاحهم * وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضي كل قوم الا بمصابيحهم * ومما
 يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم اخوانا في الاحباب وجيرانا في الاقتراب * وأعوانا
 في توزع الجمل الذي يشغل على الرقاب * فالمسلم أخو المسلم وان كان عليه أميرا * وأولى
 الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا * وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة
 اللقيف * ويتولاها بالوظة العنيف * ولكنها لمن يمال عن جوانبه * ويؤكل من أطايبه *
 ولن اذا غضب لم ير للغضب عنده أثر * واذا ألحف في سؤاله تخلق بمخلق الضجر * واذا

حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر * فذلك الذي يكون صاحبه في أصحاب اليمين * والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوى الامين * ومن سعادة المرء أن تكون ولانه متأديب بآدابه * وجارين على نهج صوابه * واذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة في كتابه * وبعد الوصية فان ههنا حسنة للحسنات كالأم للولد ولطالما أغنت عن صاحبها اغناء الجود * وتيقظت لنصره والعيون رقود * وهي التي تسمى لها الللاء * ولا يخطاها البلاء * ولا مير المؤمنين عناية بقبعها الرحمة الموضوعة في قلبه * والرجبة في المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه * وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية افضالها * وجعلها سببا الى التعويض عنها بعشر أمثالها * وهو يأمرك أن تتفقد أحوال الفقراء الذين قدسرت عليهم مادة الارزاق * وألبسهم التعفف ثوب الغنى وهم في ضيق من الاملاق * فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا * وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا اليها انا نظروا * وينبغي لك أن تهني لهم من أمرهم صرفا * وتضرب بينهم وبين الفقر موبقا * وما أطلنا لك القول في هذه الوصية الا اعلاما بأنها من المهم الذي يستقبل ولا يستدبر * ويستكثر منه ولا يستكبر * وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال * ويتلو جهاد العدو الكافر في مواقف القتال * وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه بما يجعل السيف في ملازمته أخوا * وتسخوله بنفسك ان كان أحد بنفسه سخيا * ومن صفاته أنه العمل المحبوب بفضل الكرامه * الذي يغو أجره بعد صاحبه الى يوم القيامة * وبه يمتحن طاعة الخالق على الخلق * وكل الاعمال عاطلة لا خلوق لها وهو المختص دونها بزينة الخلق * ولولا فضله لما كان محسوبا بشطر الايمان * ولما جعل الله الجنة ثمنا وليست لغيره من الاثمان * وقد علمت أن العدو هو جارك الادنى * والذي يبلغك وتبلغه عينا وأذنا * ولتكن للاسلام نعم الجار * حتى لا يكون له بئس الجار * ولا عذر لك في جهاده بنفسك ومالك اذا قامت لغيرك الاعذار * وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصالفا * أو تطرق أرضه مماسيا أو مصابجا * بل يريد أن تقصد البلاد التي في يد عدوه قصد المغير * وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير * وعلى الخصوص البيت المقدس فإنه بلد السلام القديم * وأخو البيت الحرام في الشرف والتعظيم * والذي توجهت اليه الوجوه من قبيل بالسجود والتسليم * وقد أصبح وهو يشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته فأنهض اليه نهضة تنوغل في قرعه وتبدل صعب قياده بسمعه * وان كان له عام حديبية فأتبعه بعام فحبه * وهذه الاستزادة بعد سداد مافي اليد من ثغركان مهملا خميت موارده * أو مستهدما فرفعت قواعده * ومن أهمها ما كان حاضر البحر كأنه أعشى عورته مكشوفه * وخطنه مخوفه * والعدو قريب منه على بعده * وكثيرا ما يأتيه فجأة حتى يثق برقه برعده * فينبغي أن ترتب جهده الثغور رابطة يكثر شجعانها * ويقبل أقرانها *

ويكون قتالها لان تكون كلمة الله العليا لاله يرى مكانها * وحينئذ يصبح كل منها وله من
الرجال أسرار * وتعلم أهله أن نيا السيف أمنع من نبا الاخبار * ومع هذا فلا بد له
من أسطول بكثير عدده * ويقوى مدده * فانه العمدة التي تعين على كشف العما *
والاستكنار من سببا العبيد والاماء * وجيشه أخو الجيش السليماني فذلك يسرى على
من الرياح وهذا يجرى على متن الماء * ومن صفات خيله أنها جعلت بين العوم والمطار *
وتساوت أقدار خلفتها على اختلاف مدة الاعمار * فاذا أسرع قيل جبال متلفعة بقطع
من الغيوم * واذا نظر الى أشكالها قبل أهله غير أنها تهدي في مسيرها بالنجوم * ومثل
هذا الخيل ينبغي أن يغالى في جياها * ويكثر من قيادها * وتؤمر عليها أميرا يلقي
البحر بمثله من سعة صدره * وبسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بغيره *
وكذلك فليكن ممن أفتت الايام تجاربه وزاجتها منا كبسه * وعن يذل الصعب اذا هو
ساسة وان سيدس لين جانبه * وهذا هو الرجل الذي يرأس القوم فلا يجده هزة بالرياسة *
فان كان في الساقفة في الساق أو كان في الحراسة في الحراسة * ولقد أفحمت عصابة
اعتصبت من ورائه * وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنجح من روائه * واعلم أنه
قد أخذ من الجهاد بركن يقدح في علمه وهو تمامه الذي يأتي في آخره كما أن صدق
النبأ تأتي في أوله * وذلك هو قسم الغنائم فان الايدي قد تناولته بالاجحاف * وخلطت
جهادها فيه بغلوها فلم ترجع بالكفاف * والله قد جعل التظلم في تعدي حدوده
المحدوده * وجعل الاستنثار بالغنم من أشرط الساعة الموعوده * ونحن نعوذ به أن
يكون زماننا هذا شر زمان والناس به شر ناس * لا يمن يستخلفنا على حفظ أركان دينه
ثم نهمل اهمال مضيع ولا اهمال ناس * والذي نأمرك به أن تجرى هذا الامر على
النصوص من حكمه * وتبرئ ذمتك مما يكون غيرك الفائق بقوائمه وأنت المطالب بأتمه *
وفي أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية ما يعينهم عن هذه الاكلة التي تكون غدا
نكالا وجميما * وطعاما ذا غصة وعذابا ألما * فتصفح ماسطرناه لك من هذه الاساطير
التي هي عزائم مبرمات * بل آيات محكمات * وتحبب الى الله والى أمير المؤمنين بافتقاه
كأبها * وابن لك بها محسدا يبقى في عقبك اذا أصيبت البيوت في أعقابها * وهذا الذي
ينطق عليك بأنه لم يأل في الوصايا التي أوصاها * فانه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا
أحساها * ثم انه قد ختم بدعوات دعاها أمير المؤمنين عند ختامه * وسأل فيها خيرة
الله التي تنزل من أبر منزل نظامه * ثم قال اني أشهدك على ما قلده شهادة تكون عليه
رقيبته وله حسية فاني لم أمره الا بأوامر الحق التي فيها موعظة وذكرى * ولن تبعها
هدى ورجة وبشرى * واذا أخذ بها فليججته يوما يسأل فيه عن الحجج * ولم يختلج
دون رسوله على الحسود في جملة من يختلج * وقيل له لا حرج عليك ولا إثم اذا
نجوت من ورطات الإثم والحرج والسلام اه

وفرح يوسف بهذا التقليد فرحا لا يوصف وأمر فضربوا البشار وسيرها الى الآفاق
 وعلت الولاة والافراح أياما وامتدحه الشعراء وتواردت عليه الهاني من أقطار البلاد شرقا
 وغربا ففتوت عزيمته وثبت جأشه وناقت نفسه الى الغزو والجهاد ومنع اغارات الافرنجة
 فسير جيشا الى بلاد الفرنجة الشامية وسار هو خلف الجيش حتى نزل على أعمال عسقلان
 فأغار عليها وعلى الرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنجة في قلة مسرعين لردّه
 عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنجة هاربا ثم عاد صلاح الدين يوسف الى مصر
 فعمل مراكب مفصلة وجلها قطعاً على الجمل في السير وقصد أيلة فجمع قطع المراكب
 وأنزلها في الماء وحصر أيلة برا وبحرا وفتحها عنوة واستباح أهلها وما فيها ثم عاد غائما الى
 مصر فغابت اليه الاخبار بخروج العرب بالاقليم القبلية وانهم عاثوا وأنسدوا وقتلوا ونهبوا
 فسير لقاتلهم أخاه تورانشاه في عسكر كبير فقاتلهم وقهرهم وسامهم الخسف حتى دخلوا تحت
 الطاعة وانكفوا عن الفساد وانكش بكرهم خوفا من صلاح الدين وبطشه واتسعت كلمة
 صلاح الدين وطار صيته وأجله ملوك الفرنجة وحسبوا ما وراء ظهوره واتساع كلمته وحسده
 نور الدين صاحب الشام وكبر عليه ظهوره * وانفق أن صلاح الدين يوسف سار عن مصر في
 صفر سنة سبع وستين وخمسائة الى بلاد الفرنجة غازيا ونازل حصون الشوبك وبينه وبين
 الكرك يوم ليس الا وحصرها وضيق عليها وشدد على من بها من طوائف الفرنجة ودام
 القتال فطلبوا الامان واستمهلوا عشرة أيام فأجابهم صلاح الدين الى ذلك فلما سمع نور الدين
 بما فعله صلاح الدين داخله الريب وحرك فؤاده الحسد فسار على عجل من دمشق فاصدا بلاد
 الفرنجة أيضا ليدخل اليها من جهة أخرى فكلم صلاح الدين يوسف أصحابه في أمر نور الدين
 ومسيره الى بلاد الفرنجة فقالوا له ان دخل نور الدين بلاد الفرنجة على هذا الحال أنت من
 جانب ونور الدين من جانب ملكها نور الدين ومتى زال الفرنجة عن الطريق وأخذ ملكهم
 لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين اليك وأنت ههنا فلا بد لك من
 الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ان شاء تركك أولا فقد لا تقدر على
 الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر فأذن صلاح الدين الى قولهم وأخذ برأيهم وأمر
 بالرحيل عن الشوبك مسرعين الى مصر ولم يأخذ من الفرنجة شيئا وكتب الى نور الدين
 يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمر بلغمته عن بعض شيعة العلويين فيها واتهم عازمون
 على الوثوب بها وانه يخاف عليها اذا بعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم
 وتعود متمتعة وأطال الاعتذار فلما وصل كتابه الى نور الدين تغير حاله وتحرك بغضه الذي كان
 يكتمه على يوسف وعلم أن ذلك من يوسف حيلة ومكر وعزم على قصد مصر واخراجه عنها
 وجعل يتهاى لذلك فسمع صلاح الدين بالخبر تخاف العاقبة وجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين
 أيوب وخاله شهاب الدين الحارثي ومعهم سائر الامراء وأعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين
 وحركته اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال

اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد فوافقه غيره من أهلهم وبالغوا في القول فتناول عليهم نجم
 الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وسفه على تقي الدين وأقعدته وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا
 خالك شهاب الدين ونحن أكر محبة لك من جميع من ترى وانه لورأيته أنا وهذا خالك نور
 الدين لم نمكث الا أن نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لقلنا فاذا كنا
 نحن هكذا فما بالك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لورأى نور الدين وحده لم
 يتجاسروا على الثبات في سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد سمعنا
 وأطعنا والرأى أن نكتب كتابا مع نجيب تقول فيه بلغنى أنك تريد الحركة الى البلاد فأى
 حاجة الى هذا يرسل المولى نجيبا يضع في رقبتي منديلا وبأخذني اليك وما ههنا من
 يمنع * وقام الامراء وغيرهم وتفزعوا على هذا الحال فلما خلا به أيوب قال له بأى
 عقل فعلت هذا أما تعلم أن نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربه جعلنا أهم
 الوجوه اليه وحيث لا تقوى عليه وأما الآن فاذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل
 بغيرنا والاقدار تعمل عملها ووالله لو أراد نور الدين قصبه من قصب السكر لقاتلته أنا
 عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين يوسف ما أشار به أبوه فترك نور الدين قصده
 واشتغل بغيره وأرسل صلاح الدين يعتذر الى نور الدين من نفسه بالحركة على ما
 يقره نور الدين فاستقرت المساعدة بينهما على أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور
 الدين من دمشق لغزو الفرنجة فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه وتواعدا
 على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين من مصر في عسكر عظيم في شوال من
 السنة لان طريقه أبعد وأشق فوصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل
 اليه كتاب صلاح الدين بمخروجه من مصر فزق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه
 وسار الى الكرك فوصل الى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين
 بفرجه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين
 لانهم علموا أنهم ان اجتمعوا به كان عزل صلاح الدين يوسف على نور الدين سهلا فأمر صلاح
 الدين جنوده بالرحيل فرحلوا مسرعين وأرسل صلاح الدين الفقيه عيسى الى نور الدين
 يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على مصر وانه مريض شديد
 المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل معه من التحف
 والهدايا شيئا كثيرا فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه بذلك فعظم عليه وعلم المراد من عود
 صلاح الدين وداخله ماداخله من الغيظ والكدر وعزم على قصد يوسف * ولما وصل صلاح
 الدين الى مصر وجد أن أباه نجم الدين أيوب قد مات وكان سبب موته أنه ركب فرسه يوما
 بمصر فبينما هو سائر اذ جعل الفرس فدقه بالارض دقة شديدة فخملوه الى داره فلم يلبث الا
 يومين ومات فخرن عليه يوسف وبكاء وأقام بمصر يفكر فيما سيكون من نور الدين بعد
 تركه اباه في الكرك وعدم لقائه به فعلم أن نور الدين حائق من ذلك وأنه على عزم الحركة فزاد

خوفه وسقط في يده وجمع أهله وكلهم في الامر وقال لهم ان نور الدين على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأي بينهم على أنهم يملكون بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصموده عن البلاد فان قدروا على منعه أقاموا بمصر وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا البلاد التي اقتنحوها فجهز صلاح الدين أخاه شمس الدولة نورا نشاء في عسكر عظيم وسيره الى بلاد النوبة فوصل الى جزيرة اسوان ثم سار منها الى قلعة ابريم فحصرها وقانله أهلها قتالا شديدا فلم يتغلبوا عليه لانهم لم تكن لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلات الحرب فسلموه القلعة فملكها نورا نشاء وأقام بها ولم ير في البلاد شيئا يرغب فيه وتحتل المشاق لاجله ثم شق عليه ما لقيه من شظف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة الكروب والخطوب فترك البلاد وعاد الى مصر بما غنم من الاماء والعبيد

وظهر لصلاح الدين يوسف أن جماعة من بكار الدولة يريدون الايقاع به واعادة ذرية العلويين وذلك انه كان قد اجتمع جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليميني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان وحاشية القصر ووافقهم على ذلك جماعة من الامراء التابعين لصلاح الدين وحنده وتقررت القاعدة بينهم على استدعاء الفرنجة من صقلية ومن ساحل الشام الى مصر على شئ يذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا مصر فان خرج صلاح الدين بنفسه لقتالهم ثارواهم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنجة وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر للقتال ثاروا به وأخذوه باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه الى اليمن خوفا أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا الى الفرنجة وصقلية والساحل في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنجة وكان جماعة المصريين قد أدخلوا معهم في هذه المؤامرة زين الدين على بن نجما الواعظ والقاضي المعروف بابن بحينة ورتبوا الخليفة من ذرية العلويين والوزير والحاجب والداعي والقضاة الا أن بنى رزيق قالوا يكون الوزير منا وبنو شاوور والقاضي قالوا يكون الوزير منا وكلاهما من بيت الوزارة بمصر فلما علم ابن نجما الحال دخل على صلاح الدين وأعلمه حقيقة الخبر فأمره بملازمتهم ومخاطبتهم ومواطبتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدد أولا فأولا ففعل وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول من بلاد الفرنجة بالساحل بهدية ورسالة وهي في الظاهر الى صلاح الدين وفي الباطن الى أولئك الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأثيمه رسلهم فأتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الفرنجة بما كان من سر خصومه فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به من النصارى ودخله فأخبر الرسول بالخبر على الحقيقة فقبض صلاح الدين في الحال على المقدمين في هذه الحادثة منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب

والعويس وغيرهم وأمر بصلبهم فصلبوا وبقوا كذلك أياما * وقيل في كشف أمرهم أيضا عبارة أخرى وهي انه كان بين عبد الصمد الكاتب وبين القاضي الفاضل الصلاحى مودة فكان اذا لقي القاضي يخدمه ويتقرب اليه بمجهد وطاقته فلقبه يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضي الفاضل ما هذا الالسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر على بن نجما الواعظ وأخبره بالأمر وقال أريد أن تكشف لى الامر فسعى في كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيئا فعهدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال اليه فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع وذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررههم فأقروا فأمر بصلبهم جميعا وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضي الفاضل وخطب صلاح الدين فى اطلاقه فظن عمارة انه يجرى على هلاكه فقال لصلاح الدين يامولانا لاتسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك فندم فأخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتهما الى أفصى الصعيد وأحيط بمن بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله ولم يتعرض صلاح الدين للذين نافقوا عليه من جنده ولا أعلمهم أنه علم بحالهم فكانت هذه الحادثة من أعظم الحوادث التى فاز بالخلاص منها صلاح الدين ووقف على خفى أمرها * ولم يمض بعد ذلك الا القليل حتى جاءته الاخبار بموت نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر ففرح بموته فرحا لا يوصف * مات فى يوم الاربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بعلية الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ثم نقل منها الى المدرسة التى أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين قيسل ومن عجيب الاتفاق أنه ركب ثانى شوال والى جانبه بعض الامراء الاخيراء فقال له أحد الامراء سبحان من يعلم هل يجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نور الدين لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل يجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين بعد أحد عشر يوما ومات الامير المذكور قبل الحول فأخذ كل منهما بما قال * وكان قد شرع فى التجهز للدخول الى مصر لاختذها من صلاح الدين يوسف فانه رأى منه فتورا فى غزو الفرنجة من ناحيته وكان يعلم أن مامنع صلاح الدين من الغزو سوى الخوف منه ومن الاجتماع به فان صلاح الدين يؤثر كون الفرنجة فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل الى الجزيرة والموصل وديار بكر يطلب الجند للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره الى ديار مصر فبطلع يوسف عنها ويخرج منه هو وجميع أهله منها ويستردها لنفسه فبينما هو يتهاى لذلك

آناه أمر الله الذي لا مرد له * قال صاحب الكامل حكى لي طبيب كان يتخدم نور الدين وهو
 من حذاق الاطباء قال استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غييري من الاطباء
 فدخلنا اليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا
 يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به
 قلت له كان ينبغي أن لا تؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض الآن وينبغي أن تعجل
 الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضيء فله أثر في هذا المرض قال وشرعنا في علاجه
 وأسرنا بالفصد فقال ابن سئين لا يفصد وامتنع عنه فعاالجناه بغيره فلم ينفع فيه الدواء وعظم
 الداء ومات رحمه الله ورضي عنه اه * وكان نور الدين أمير اللون طويل القامة ليس له لحية
 الا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلوا العينين وكان قد اتسع ملكه جدا
 وخطب له بالخرمين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة احدى
 عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله * وبموته قام ابنه الملك الصالح
 اسماعيل بالملك بعده وكان عمره يومئذ احدى عشرة سنة وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق
 وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وجاءت الاخبار الى صلاح الدين بولايته فخطب له بديار مصر
 وضربت السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم
 وصار مدبر دولته فلم يرض به بعض الامراء بالشام وقال له كمال الدين ان صاحب مصر
 من أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعه ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن
 طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لانه قد انفرد بملك مصر فلم يوافق هذا القول
 أغراض بعض أمراء الشام لا سيما شمس الدين محمد وخافوا أن يدخل صلاح الدين يوسف
 فيخرجهم فلم يرض الا القليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزبه ويهينه
 بالملك وأرسل اليه دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لابييه
 فلما سار سيف الدين غازي صاحب الموصل الى بلاد الجزيرة وملكها للاسباب التي لم نأت
 على ذكرها لبعدها عن غرضنا أرسل صلاح الدين يوسف الى الملك الصالح يعاتبه حيث لم يعله
 بقصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر في خدمته ويكف سيف الدين عن اطماعه وكتب
 أيضا الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه
 مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولايانه ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد
 الى أحد بترية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بملواى دونى فسوف أصل الى
 خدمته وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه في ترك
 الذب عن بلاده

وتمسك ابن المقدم ومن معه من الامراء بالملك الصالح وهم يراقبون الامور وكانهم
 كانوا يعلمون بقصد الفرنجة بلاد مصر بناء على طلب جماعة الامراء الذين كانوا تأمروا
 على صلاح الدين يوسف فلم يهتموا لجوابه ولا أعاروه أذنا صاغية فلما كانت سنة سبعين

وخمسة سيرة صاحب صقلية الى الاسكندرية عمارة عظيمة عدتها مائتا سفينة تحمل
 الرجال وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب تحمل آلات الحرب وأربعين تحمل
 الازواد وفيها من الرجال خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسة مائة وكان المقدم عليهم ابن
 عم صاحب صقلية وكان وصول هذه العمارة في السادس والعشرين من ذي الحجة
 سنة تسع وستين وخمسة مائة على حين غفلة من أهلها فلما شوهدت أمام المدينة
 خاف الناس خوفا عظيما وخرجوا بسلاحهم وعدتهم لينعومهم من النزول الى البر فنعهم
 والى الاسكندرية من ذلك وأمرهم بملازمة السور فنزل الفرنجة الى البر مما يلي الماء والمنارة
 وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد
 وسيرت الكتب في الحال الى صلاح الدين يوسف يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال
 من أول النهار الى آخره ثم أعاد الفرنجة القتال في اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف
 حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل في ذلك اليوم بعض الجنود المصرية ممن
 كانوا في أقطاعهم القريبة من الاسكندرية فتقوت بهم عزائم أهل البلد وفرحوا بوصولهم
 وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح أهل الاسكندرية أبواب البلد وقاتلوا
 الفرنج قتالا شديدا اليوم كله ثم عادوا الى البلد فدخلوه وقد قتل منهم خلق كثير
 § وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر خرج بعسكره وسير مملوكه ومعه ثلاث جنائب
 ليجت السيرة عليها الى الاسكندرية ويشرب بوصوله وسير طائفة من العساكر الى دمياط خوفا
 عليها واحتياطا ووصل مملوك صلاح الدين والناس في شدة ونادى في البلد بمجيء صلاح الدين
 والعسكر مسرعين ففرح الناس بذلك وتقوت نفوسهم وعاودوا القتال وجدوا فتأخر الفرنجة
 وتقهقروا وقد علموا بقرب وصول صلاح الدين وأنه على ما هو عليه من نفوذ الكلمة وبعد
 الصب فأقلعوا بمرأ بهم وعادوا الى صقلية وكفى الله الناس شرهم * ولم يكن ليظمن صلاح
 الدين يوسف برجوع مراكب الفرنجة عن الاسكندرية وكفهم عن قتال أهلها حتى جاءه الخبر
 من الاقاليم القبلية بخروج § الكنز § أحد المقدمين بالصعيد وأنه اجتمع اليه من أهل البلاد
 والغوغاه والسودان والعربان وغيرهم خلق كثير جدا فجعل صلاح الدين يتأهب لقتاله وأمر
 بجمع الجند وآلات الحرب وكان بالاقاليم القبلية أمير من الأمراء الصلاحية في أقطاعه
 وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين فقام عليه الكنز المذكور وقتله ونهب أرزاقه فغضب
 قتله على أخيه أبي الهيجاء وكان من أكبر الأمراء وأوسعهم شهرة وأشجعهم في الحروب
 فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وجيشا كبيرا فلما وصلوا
 الى مدينة طود قاتلوا من بها وجدوا في قتالهم حتى ظفروا بهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا
 ثم ساروا بعد فراغهم من طود الى الكنز وقد عظم أمره واتسعت كلمته وخضع له معظم
 البلاد فقاتلوه قتالا شديدا وما زالوا يجتدون في قتاله حتى قتل هو ومن معه من الاعراب
 وغيرهم من السود والغوغاه وأمنت بعده البلاد وجاء الخبر بذلك الى صلاح الدين فأمر

بضرب البشائر فإنه كان يخشى من استفحال أمر الكفر وقيام الاقاليم القبلية معه ولما صفت لصلاح الدين الأمور تآقت نفسه الى الغزو والجهاد وفتح المدن والبلدان بجمع عسكرا عظيما للغاية ونأهب للخروج وبينما هو على هذا الحال اذ وردت اليه الاخبار باختلال الامور في دمشق واضطراب الاحوال بها وتناول أيدى الظالمين اليها وانحطاط كلمة الملك الصالح بن نور الدين صاحب الشام واستقلال الكثير من عماله بأعمالهم وخروج بعض الامراء عليه واجتماع كلمة بعض أصحاب الكرامة الذين في خدمة الملك الصالح على استدعاء صلاح الدين يوسف ليملكوه عليهم ويسلموه جميع البلاد وكان مقدمهم في ذلك شمس الدين بن المقدم فسر صلاح الدين بذلك وبالغ في التأهب والاستعداد ثم حصل من الاسباب ما أوجب تأخيره فجاءته الرسل من الشام تستخذه على المسير فلم يلبث أن سار جريدا في سبعمائة فارس ومعه القاضي الفاضل وبعض الامراء فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتب صلاح الدين بالقدم لآخذ البلاد فلما رأى قلة من كانوا مع صلاح الدين خاف على نفسه واجتمع بالقاضي الفاضل وقال ما أرى معكم عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد فان كان معكم مال سهل الأمر فقلوا هنا مال كثير مقدار خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين الى دمشق فلما وصل خبر وصوله الى من بها من العسكر حتى خرجوا جميعا للقائه وخدموه ودخل البلد ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيق وكانت قلعة دمشق بيد خادم اسمه ربحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو يومئذ قاضى البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله الى ربحان المذكور ليسلم القلعة اليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت الا لانصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أخذت منه اليه فصعد كمال الدين الى ربحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين اليها وأخذها وأخذ ما فيها من الاموال وأخرجها الى دار أبيه واتسع بها وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع ذلك يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالملك والخطبة والسكبة باسمه وما زال بدمشق حتى قرر أمرها واستخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ثم سار عنها الى مدينة حصص وكانت حصص وقلعة بعشرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في أقطاع الامير نجر الدين مسعود الزعفراني ولكنه كان مغلوبا عليها لا كلمة له فيها لسوء سيرته في أهلها وتغلب ولاة نور الدين عليها وكان بقلعة حصص وال يحفظها فراسل صلاح الدين من يحمص بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم فلك البلد وأمن أهلها وامتنعت عليه القلعة فسار عن حصص الى مدينة حماة بعد أن وكل بحصار من في القلعة وقطع عنهم الزاد وهو في جميع أحسواله لا يظهر الا الطاعة للملك الصالح بن نور الدين وأنه انما خرج لحفظ بلاده من الفرنجة واستعادة ما أخذه سيف الدين غازي صاحب الموصل من بلاد

الجزيرة فلما وصل الى حماة ملك المدينة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وانما يريد حفظ بلاده فاستخلفه جورديك على ذلك وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي اطلاق شمس الدين عليّ وحسن وعمشان أولاد الداية وقد كانوا معتقلين بحلب فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كشتكين وحبسه فلما علم أخوه بذلك خاف وسلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

وسار صلاح الدين بعيد ذلك يريد أخذ حلب فحصرها وضيق على من بها فقاتله أهلها قتالا شديدا وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم احسان أبي اليكم ومحبتكم لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والذى اليه يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق فهل يرضيكم فعله وهل تطيقون الصبر على ما تكرهون ثم بكى وأعاد عليهم القول وبكى فأبى الناس فيسألوا له الاموال والأنفس وانفقوا على القتال دونه والمنع من بلده وجدوا في القتال وأظهروا من الشجاعة والاقدام ما أعجز صلاح الدين عن التقدم نحو البلد وأرسل سعد الدين الى سنان مقدم الاسماعيليه وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم الى عسكره فلما وصلوا رأيهم أمير اسمه خارتكين صاحب قلعة برقيس فعرفهم لانه جارهم كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رأيهم قال لهم ما الذى أقدمكم وفي أى شئ جئتم فقاموا عليه وضربوه بالسكاكين فجرحوه بجراحات ممّنة وجعل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقيون من الاسماعيليه جماعة ثم قتلوا وتجزر صلاح الدين واشتد تحفظه وبقي محاصرا لحلب الى سلخ جادى الآخرة سنة سبعين وخمسائة ثم رحل عنها مستهل رجب فاصدا حصن لرد الفريجة عنها حيث كانوا قد حضروا لتجدة أهل حلب وخلص ما بيد صلاح الدين من البلاد الشاميه فلما علم الفريجة بوصولهم رحلوا عن حصن ووصل صلاح الدين اليها فحصر القلعة الى أن ملكها وقد كانت ممّنة عليه كما تقدم ثم سار منها الى بعلبك وكان الوالى بها من أيام نور الدين خادم اسمه عين فحصرها صلاح الدين وهم بقناتها أرسل اليه عين يطلب الامان له ولمن معه فأمنهم وسلم القلعة رابع عشرى رمضان من السنة فصار أكثر بلاد الشام بيده وعظم الأمر جدا على الملك الصالح بن نور الدين فكتب الى ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويخبره بما جرى على بلاده ويطلب أن يعبر اليه ليقتلوا صلاح الدين معا ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكانب أطاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ليستزل اليه بعساكره فيجتمعوا على المسير الى الشام فامتنع عماد الدين من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لانه هو الكبير فملا الطمع على الامتناع على

أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا في معظم عسكره وسيره
الى الشام وجعل المقدم عليه أكبر أمراءه المدعو عز الدين محمود زلفندار وسار هو
الى سنجار فحصرها وقتلها ووجد في قتالها فامتنع أخوه عماد الدين بها ووجد في حفظها
والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها ويضيق على من بها أتاه الخبر بانهزام
عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين
وصالحه على ما بيده ورحل الى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة
وخافه الناس واتسعت شهرته وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي على الصلح فلم
يستقر حال * هذا والملك الصالح بن نور الدين يرسل سيف الدين ويطلب حضوره اليه
بعسكره ويستخلفه فكبر الامر على سيف الدين واستعظمه وسير عسكره مع أخيه عز
الدين زلفندار الى حلب ففرح الملك الصالح بوصولهم واجتمع معهم عسكر حلب وساروا
كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف الدين يبذل تسليم حصص
وحماة وأن يقرب يده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يقبل ذلك وأبى الانسليم
بجميع ما أخذ صلاح الدين من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح الدين في هذه الاثناء
يحشد الجنود ويكثر من معدات الحرب ويتجهز للقتال فلما سمع بامتناع سيف الدين من اجابته
الى ما طلب نادى في عسكره بالركوب فركبوا وركب وسار بهم الى عز الدين مسعود
وزلفندار فالتقوا بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة * قال بعض الكتاب
وكان زلفندار جاهلا بالحروب غير عالم بتدبيرها مع جين فيه الا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من
سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت عسكر سيف الدين وانهمزوا شرهزيمة وثبت عز الدين
أخوه سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته تعجب جدا وقال اما أن هذا
يكون أشجع الناس أو أنه لا يدري شيأ في الحرب وأمر أصحابه بالجملة عليه فملاوا فأزالوه عن موقفه
وتمت الهزيمة على عسكر سيف الدين وتبعهم صلاح الدين بعسكره فقتل وغنم من السلاح
والدواب شيأ كثيرا للغاية ووصل المنهزمون الى حلب فلقطعهم صلاح الدين في عسكره وقتلهم
عليها وحاصرها ووجد في حصارها وضيق وأمر بقطع خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال
اسمه من السكة في جميع بلاده * ولما طال الحصار واشتد عليهم الامر راسلوا صلاح الدين
في الصلح فتقررت القاعدة بينهم على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها
فتم الصلح على هذه القاعدة ورحل صلاح الدين بجيوشه عن حلب الى حماة فسير اليه الخليفة
العباسي بها خالعة نفيسة للغاية مع رسوله ثم سار الى دمشق وأقام بها وقد عظم شأنه بما
ملكه من بلاد الشام وبفوزه المتتابع على الملك الصالح وجميع عماله وولائه وقد ملت
جنوده من طول الاقامة بأرض الشام وامتلات أيديهم من السلب والغنائم فطلبوا العود
الى بلادهم والاستراحة فأذن لهم وسار هو كذلك في عسكر مصر ومعه الغنائم الكثيرة فلما
وصل اليها خرج اليه أهله وضربت البشارة وأولم وتصدق وأكثر من الخير للناس

ولما كانت سنة خمس وسبعين وخمسمائة مات الامام المستضيء بنور الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستجد وكان موته في ثانی ذی القعدة فكانت خلافته نحو سبع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه في أمن عام واحسان شامل وسكون وطمانينة لم يروا مثلها وكان حليما مجبا للعفو والصفح عن المذنبين واستوزر في أيامه عضد الدين أبا الفرج ابن رئيس الرؤساء فلبث يتصرف في الامور الى أن قتل في ذی القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة فاستوزر بعده ظهير الدين أبا بكر منصور بن نصر المعروف بالعطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء فتمكن من الخلافة وظهرت كلمته فلما مات المستضيء قام ظهير الدين المذكور بأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله فلما تمت له البيعة صار الحكم في الدولة لاستاذ الدار محمد الدين بن أبي الفضل بن صاحب * قال صاحب الكامل ولم يلبث بن العطار أن قبض عليه ووكل عليه في داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفي ليلة الاربعاء ثامن عشر ذی القعدة أخرج ميتا على رأس جمال فغرز به بعض الناس فناربه العامة فألقوه عن رأس الجمال وكشفوا سوأته وشددوا في ذكركه حبلا وسحبوه في البلد ووضعوا بيده مغرفة كأنها ظم وغسوها في العذرة وصاروا يقولون وقع لنا يامولانا الى غير ذلك من الافعال الشنيعة ثم خلس من أيديهم ودفن قال هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم ومات في خلافة المستضيء خائيل بطرك الاسكندرية فكانت مدته تسع سنين وقيل تسع سنين وثمانية أشهر وكانت وفاته بالعلقة بمصر وانفق في أيامه أن نقص النيل نقصا فاحشا فسيره الخليفة الى بلاد الحبشة بهدية سنوية الى التجاشي فتلقيه التجاشي وأكرم وفادته وأجله كثيرا وسأله عن سبب قدومه فعرفه بنقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك قيل فأمر بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ففتح فزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى روت البلاد وزرعت ثم عاد خائيل بطرك نزع عليه الخليفة وأحسن اليه وأكرمه جدا فلما مات أقيم بعده مقارى أو هو مكار يوس الثاني ناسع سنين وهو راهب من دير بو مقار وكان من الحوادث في أيامه ما سيدكر في محله

(الفصل الرابع والثلاثون)

(في خلافة أبي العباس أحمد الناصر لدين الله)

ثم قام بالامر بعد المستضيء ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بويغ له بالخلافة

يوم وفاة أبيه في أول ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة هجرية أي سنة تسع وسبعين ومائة وألف ميلادية وعمره ثلاث وعشرون سنة وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة له فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همدان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجع صدر الدين وأغلظ عليه في القول حتى انه قال لعسكره في حضرته مال هذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه وتقاتلوه تخاف البهلوان وأذن للبيعة والخطبة للناصر وسير رضى الدين القزوينى مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله في هذه السنة وجاءت الاخبار الى صلاح الدين يوسف بموت المستضى وخلافة ابنه الناصر لدين الله فبايع له وخطب له أيضا وسير اليه الهدايا النفيسة والاعلاق الثمينة وهو بمصر ينشئ العمائر العظيمة والابنية الجسيمة فانه منذ رجوعه من الشام رسم بترميم القناطر والجسور وتطهير الترع وكانت جسور النيل قد أهملت من عهد الدولة الفاطمية فكان اذا فاض طغت مياهه فأغرقت وخربت الطرق وأفسدت الزرع فرمم ما فسد منها وأقام السدود ونقل لبنائها كثيرا من تجارة الاهرام الصغيرة التي كانت حول الكبيرة بالجيزة وغيرها من أحجار المعابد والهياكل القديمة المصرية ومهد الطريق من مصر الى الصعيد الاعلى وأنشأ القلعة بسفح المقطم المعروفة الآن بقلعة الجبل وبني له فيها قصرا وقد كان الى هذا الحين يسكن في دار الخليفة العبيدى ودار الوزير فجعلهما مسكنا لقواد الجيوش وأمراء الدولة من بعده ووكل بالبناء وزيره الامير بهاء الدين الاسدى المحصى وكان جليل القدر مقداما حسن السياسة والتدبير فبالغ في العمل وأكثر من البنائين والعمال والمهندسين ونقر في القلعة بئرا في الصخر عميقا فيه من الماء ما يكفي حاجة الجند والمرابطين بالقلعة وهي باقية الى يومنا هذا والعامية يقولون انها البئر التي ترك فيها يوسف اخوته * قال بعض الكتاب وانما هذا البئر من عمل المصريين القدماء فانطمس بالرمال ولم تحف معالمه فأعاد بهاء الدين حفره عند بناء القلعة واهتم بهاء الدين ببناء سور حول مصر والقاهرة وقلعة الجبل طوله تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشمي وكان قد بدأ بعمارته صلاح الدين يوسف سنة ست وستين وخمسمائة على عهد العاضد العلوى ثم بطل العمل فيه بسبب الفتن والحروب فجد بهاء الدين في عمارته وهدم في تخطيطه كثيرا من المساجد والمعابد والقبور والبيوت والوكائل والعمائر الجسيمة فضج الناس من ذلك وكبر عليهم هذا الامر وحسبوه جورا وظلما من بهاء الدين فابغضوه وسموه قراقوش وكانوا يلقون الرفاع في طريقه وكلها سب ولعن له ولاصحابه وكان اذا مر بالاسواق صاح العامة في وجهه وقالوا ماتل لك هذه النعال يا ظالم وهو لا يلتفت اليهم ولا يؤاخذهم بشئ من ذلك وقد ألف الاسعد بن ممانى كتابا سماه الفاشوش في أحكام قراقوش ذكر فيه من أفاعيل الجسور والعسف وأنواع المظالم شيا كثيرا وحقق بهاء الدين خندقا يمتد من باب الفتوح الى المقس وهو الخطة التي بها جامع أولاد عنان اليوم ومن الجهة الشرقية خارج

باب النصر الى باب البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سورا آخر ببراج مبنيا
بالحجارة العظيمة وابنتى الاشوان العظيمة بمصر لحفظ الغلال التى ترد فى كل سنة من الاعمال
من الاقليم القبلى والبحرى وهى الى الآن تعرف بمخازن يوسف والناس يظنون أنها مخازن
فرعون يوسف التى بناها بعد تعبير رؤياه * قال أصحاب التاريخ وقد بنى سور القاهرة ثلاث
مرات بناء فى المرة الاولى جوهر القائد وفى الثانية أمير الجيوش بدر الجمالى وفى الثالثة بهاء
الدين وزير صلاح الدين يوسف فزاد فيه بهاء الدين القدر الذى يتسدى من باب القنطرة
الى باب الشعربة ومن باب الشعربة الى باب البحر وابنتى مع ذلك قلعة المقس جعلها على
النيل بجانب جامع المقس المعروف الآن بجامع أولاد عنان وزاد فيه أيضا قطعة مما يلى
باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير حتى يتصل
بسور قلعة الجبل

وبينما كان صلاح الدين يشيد العمار ويعهد الطرق ويقيم الجسور ويصلح الترع ويسهل
العقبات بالديار المصرية جاءه الخبر بوفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب والشام
مات فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة هجرية وعمره نحو تسع عشرة سنة وكان على
صغر سنه كثير التأمل واسع الفكر كبير المعرفة وكان يخشى من صلاح الدين يوسف
ويعلم أنه سياتخذ عنه يوما مابقى له من بلاد الشام ولذلك كان كثير الاحتياط بعيد الحساب
فلما مرض وأيس من نفسه أحضر الامراء وسائر الاجناد وأوصاهم بتسليم البلد الى ابن
عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستخلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد
الدين ابن عمك أيضا أحق بها وهو زوج أختك وكان والدك نور الدين يحبه ويؤثره وقد تولى
تربيته بنفسه فهو أصلح للولاية وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أوفق وعز الدين
له من البلاد من الفرات الى همذان ولا حاجة به الى بلدك فقال له ان هذا لم يغب عنى
ولكن قد علمت أن صلاح الدين يوسف قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى الآن
ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا
معه مقام وان سلمت الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا فعاله
وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه ولما قضى نجبه أرسل الامراء الى أتاك عز الدين
يستدعونه الى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل الى الامراء فحضروا
عنده وساروا جميعا الى حلب فدخلوها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ
بمصر * قال أصحاب التاريخ ولولا ذلك لزاجهم عليها وقتلهم وكان تقي الدين عمر بن أخی
صلاح الدين يوسف بمدينة منبج فلما مر بها عز الدين ومن معه الى حلب خاف تقي الدين
وهرب من منبج الى حماة فنار أهل حماة فاشار الامراء والقواد بحلب على عز الدين بقصد
دمشق وأطعموه فيها وفى غيرها من البلاد وأعلموه بحجة أهل الشام له ولاهل بيته فلم
يفعل وقال بيننا وبين فلا نغدر به وأقام بحلب ما شاء ثم سار عنها الى الرقة فلم يستقر به المقام

حتى جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار ليطلب أن يسلم اليه حلب وبأخذ
عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك وألح عماد الدين وترددت الرسل بينهما أياما كثيرة وكله
الامراء في ذلك أيضا فسلمها اليه وأخذ بدلها سنجار وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين
يوسف لما بلغه خبر دخول عز الدين الى حلب وتصرفه فيها كبر عليه الامر جدا وخاف أن
يسير منها الى دمشق وغيرها فيأخذ ما بيد صلاح الدين من البلاد الشامية فانكش وجعل
يراقب الفرص فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار الى الشام وكان
خروجه في الخامس من المحرم افتتاح سنة ثمان وسبعين * قال صاحب الكامل ومن عجيب
ما يحكى من انتظيره انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته ظاهر القاهرة حتى تجتمع العساكر
والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب وكلهم مودعه وسائر معه وكان كل واحد
يقول شيئا في الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وكان ممن حضر هذا المجلس معلم
لبعض أولاد صلاح الدين وكان جالسا خلف الجالسين فأخرج رأسه من بينهم وأشد

تمتع من شميم عرار فوجد * فلما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتناكد المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح
الدين الى مصر الى أن مات مع طول الوقت اه وسار صلاح الدين عن مصر فبعثه التجار
وأهل البلاد ممن كان قصد مصر من الشام فرارا من الغلاء وغيره فجعل
طريقه على أيلة فلما سمع الفرنجة بمسيره جعلوا له لبحار يوه ويصدوه عن المسير فسير
الضعفاء والانتقال مع أخيه تاج الملوك بوري الى دمشق وبقي هو في المقاتلة فشن الغارات
على أطراف الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منها أحد فسار الى دمشق فوصلها بمن معه
سالما ولبث بها أياما حتى أصحح حال جنده ونظم عسكره وسار بهم الى بلاد الفرنجة
في ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم في أقحوان من الاردن فتمتأ الفرنجة
وجاؤا اليه بجموعهم فنزلوا بطبرية ونأهبوا للقتال فسير صلاح الدين يوسف فرخشا ابن
أخيه الى بيان فدخلها قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبي وعم القتل والسبي وجاءت العرب
فأغارت على جفنين واللجون وما جاورهما من البلدان حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنجة
من طبرية حتى نزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وأرسل عسكره يرمونهم
بالنشاب فلم يتحركوا للقتال فعاد صلاح الدين الى دمشق ولبث بها أياما ثم سار منها فعب
الفرات وملك عدة بلاد من ديار الجزيرة وأقطعها للامراء الذين كانوا في خدمته ودخل
الفرنجة دمشق فقتلوا ونهبوا وسبوا ورحلوا عنها وجاءت الاخبار بذلك الى صلاح الدين فلم
يقدر على الرجوع وقد اطمأن بترك الفرنجة لها ورحيلهم عنها ثم سار الى الموصل وحاصرها
فلم يزل منها وعاد عنها الى سنجار فقاتلها فحاصر معه بعض الامراء الاكراد وسلم اليه الناحية
التي هو بها فطرقه صلاح الدين فلما أحس شرف الدين صاحبها بذلك استسكان وخضع
وطلب الامان فأمنه وملك البلد صلاح الدين وسار شرف الدين ومن معه الى الموصل

وقويت عزيمته صلاح الدين بملك سنجار واطمأن على ما بيده من البلاد الشامية اذ صارت سنجار على جميع تلك البلاد كالسور واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين آثر وهو من كبار الامراء واحسنهم سيرة وبقى صلاح الدين يوسف مشغول بالمال بملك حلب ونزعها من عماد الدين زنكي بن مودود وهو يراقب الفرص ويتبين انتفاعها فلما كان المحرم افتتح سنة تسع وسبعين نزل عليها بجيش عظيم واقام بالميدان الاخضر عدة ايام ثم انتقل منه الى جبل جوشن فنزل باعلاه واظهر انه انما يريد ان يبنى مساكن له ولا يحببه وعسكره واقام عليه اياما والقتال بين العسكرين كل يوم وعماد الدين زنكي ومن معه من العسكر النورى يجتدون فى القتال ويدفعون عن البلد فلما كان فى بعض الايام جاء الى عماد الدين بعض الجنود وطلبوا منه مالا للنفقة فاعتذر بقله المال عنده فقال له بعضهم ان من يريد ان يحفظ بلدا مثل حلب لا بد له من صرف الاموال ولو باع حلى نسائه تخاف عماد الدين وحسب ما وراء ذلك فمال الى تسليم حلب الى صلاح الدين واخذ العوض عنها وارسل فى الحال مع الامير طومان الياروفى وكان ممن يميل الى صلاح الدين يوسف ان يسلم حلب وياخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقه وسروج وجرت اليمين على ذلك * قال اصحاب التاريخ وباعها عماد الدين بابخس الامنان اعطى حصنا مثل حلب واخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثمان عشر صفر وتسلمها صلاح الدين يوسف فحجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا فعل عماد الدين حتى ان بعض عامة حلب احضرا جانه وماء ونداءه انت لا يصلح لك الملك وانما يصلح لك ان تغسل الثياب واسمعوه المكروه * واستقر ملك صلاح الدين يوسف وسار عماد الدين الى البلاد التى اخذها فتسلمها وتقررت القاعده بينه وبين صلاح الدين على ان عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لا يجتجج بحجة وامتنح محبي الدين بن الزكي فاضى دمشق صلاح الدين يوسف بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر * مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان فتح بيت المقدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيذكر فى محله وهو من غريب الاتفاق * قال صاحب الكامل وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى اخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حلما جامعا لخصال الخير ومحاسن الاخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد ان استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل ان يدخلها صلاح الدين فلما استقر الصلح حضر صلاح الدين عند اخيه بعوده وقال له هذه حلب قد اخذناها وهى لك فقال ذلك لو كان وانا حى ووالله لقد اخذتها غالية حيث تفقدت مثلى فبكى صلاح الدين وابكى ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فيمنعهم فى سرور اذ جاء انسان فاسر الى صلاح الدين بموت اخيه فلم يظهر هلعاً ولا جزعاً وامر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه

في الدعوة واحتمل الحزن وحده لثلا يتسكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل اه
 ووصلت الاخبار الى صلاح الدين يوسف بوفاة قطب الدين صاحب ماردين وتملك ابنه بعده
 وهو طفل وأن الحكم الى شاه أرمن صاحب خلاط وعسكره فيها وشاه أرمن هذا خال قطب
 الدين فطمعت نفس صلاح الدين في أخذها فسار اليها في جيش عظيم من الرجال والفرسان
 ونازلها فرآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنتان لها منه وهي
 أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فحاصر صلاح الدين البلد وشد في حصارها وكان المقدم
 على عسكرها أمير اسمه برتقش ولقبه أسد الدين وهو من كبار قواد العسكر وأشجعهم وأعلمهم
 بفنون الحرب واشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة فلم يصل صلاح الدين الى ما يريد فعدل
 من القوة والحرب الى اعمال الحيلة والدهاء فراسل زوجة قطب الدين وهي بالبلد يقول لها
 ان أسد الدين برتقش قد مال اليها في تسليم البلد ونحن نرى حق أخيك نور الدين فيك بعد
 وفاته ونريد أن يكون لك في هذا الامر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادي ويكون ميا فارقين
 وغيرها لك وبجهدك ووضع أيضا من أرسل الى برتقش أن الخائون قد مالت للمقاربة والانتقاد
 الى السلطان وان من بخلاط من الجند والعسكر كاتبوه ليسلموا اليه نخذ لنفسك وانفق أن
 رسولا وصل من خلاط ليعلم صلاح الدين يوسف بالطاعة ففرح صلاح الدين بقدوم الرسول
 وأمره بالدخول الى ميا فارقين والاجتماع ببرتقش فدخول واجتمع به وقال له أنت عن
 تقاتل وأنا قد جئت في تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط برتقش في يده وضعفت عزيمته
 وأرسل الى صلاح الدين يطلب أن يقطعه بلدا ومالا وهو يتخلى عن البلد الى صلاح الدين
 فأجاب صلاح الدين الى ذلك وتسلم البلد فلما دخل اليها وفي بوعده الى زوجة قطب الدين
 وعقد نكاح بعض أولاده على بعض بناتها وأقر بيدها قلعة هنا لتكون فيها هي وبناتها
 ورتب الامور في ميا فارقين وقرر اقطاعها وجميع ولاياتها وأحكم قواعدها ثم سارعها يريد
 الموصل فانه كان كثير الرغبة في أخذها من صاحبها شديد الطمع في ذلك فسار نحوها وجعل
 طريقه على نصيبين فوصل الى كفر زمار والوقت شتاء فزلها في عساكره وعزم على المقام بها
 وقطع المدد من القلة والاقوات عن الموصل لضعافها فقد علم أنه لا يقدر على محاربتها لمنعتها
 وكثرة ما بها من الجند وآلات الحرب وطال مكث صلاح الدين بعسكره يخاف عز الدين
 صاحب الموصل فأرسل رسوله الى صلاح الدين في الصلح فقال صلاح الدين الى ذلك فيبينما
 الرسل تتردد بينهما اذ مرض صلاح الدين وسار من كفر زمار عائدا الى حوران فلحقه الرسل
 بالاجابة الى ما طلب فنقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدسة أن يسلم اليه عز الدين
 شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من الاعمال ويخطب له على منابر بلاده
 ويضرب اسمه على السكة وأرسل رسوله الى عز الدين ليحلف بحضورتهم على ذلك فخلف وتسلم
 البلاد التي استقرت القاعدسة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حوران فأقام بها
 مريضا وطال مرضه فأمنت الدنيا وسكنت الفتنة * وكان عند صلاح الدين

من أهله أخوه الملك العادل وهو يومئذ على حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أبسوا منه خلف الناس لاولاده بالطاعة وجمع اليه الامراء وقواد الجند وجعل لكل من اولاده شياً من البلاد معلوما وجعل اخاه العادل وصيا على الجميع وجاءه ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة ليزوره فرأى من شدة مرضه ما أطمعه في أخذ دمشق اذا هومات فسار من عنده الى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر موته ليسير الى دمشق فيملكها وانتقل صلاح الدين من حوران الى دمشق فبلغه ما قاله ناصر الدين فلم يمرض غير قليل حتى مات ناصر الدين ليلة عيد الاضحي قيسل انه شرب الخمر وأكثر منه فأصبح ميتا وقيل ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العميد من دمشق فحضر عند ناصر الدين في تلك الليلة وناداه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح المذكور فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن * ولما مات ناصر الدين شيركوه أخذ صلاح الدين جميع اقطاعه وأعطاه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة قال بعض الكتاب وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شياً كثيراً فحضر صلاح الدين في حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك الا مالا خيراً فيه قال صاحب السكامل وبلغني أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له الى أين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً قال ففجب صلاح الدين والحاضرون من ذلك

ولما كانت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة أخرج صلاح الدين يوسف ولده الافضل عليا من مصر الى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائباً عنه واستدعى تقي الدين منها وسبب ذلك أنه كان استناب تقي الدين بمصر وجعل معه ولده الأكبر الافضل عليا فأرسل تقي الدين يشكوه من الافضل ويقول انه قد عجز عن جباية الاموال معه لانه كان حليماً كريم الطبع اذا أراد تقي الدين مطالبة أحد أومعاقبته منعه فأحضر صلاح الدين ولده الافضل وكتب الى تقي الدين يقول ليس لك بعد أخذ الافضل حجة في الخراج أو غيره وتغير عليه بسبب ذلك وظن انه انما يريد اخراج الافضل عن مصر لينفرد بها حتى يملكها اذا مات صلاح الدين وقوى هذا الخاطر عنده فأحضر أخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقي الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع العساكر والاجناد ليسير الى المغرب الى مملوكة قراقوش وكان قد استولى على بعال نقوسة وبرقة وغيرها وكتب اليه يرغبه في تلك البلاد فتباً للسفر اليه واستعجب معه الجند والعساكر وآلات الحرب فلما سمع ذلك صلاح الدين يوسف ساءه وعلم انه ان أرسل اليه يمنعه لم يجبه فأرسل اليه يقول أريد أن تحضر عندي لأودعك وأوصيك بما

تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد في اقطاعه حياه ومنهج المعرفة وكفر طاب وميا فارقين وجبل
جور بجمع أعمالها * قال صاحب السكامل بلغني من خير بأحوال صلاح الدين انه انما حمله
على أخذ حلب من العادل واعادة تقي الدين الى الشام ان صلاح الدين لما مرض بمران
أرجف بمصر انه قد مات بخبر من تقي الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفي
صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكاري وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند
الى مصر وأمره باخراج تقي الدين والمقام بمصر فسار مجدا فلم يشعر تقي الدين الا وقد دخل
الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه بأمره بالخروج منها فطلب أن يجهله الى أن يتجهز
فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتجهز بفرج وأظهر أنه يريد الدخول الى الغرب فقال له
اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل اليه بطلبه فسار الى الشام فأحسن
اليه ولم يظهر له شيئا مما كان لانه كان حليما كريما صبورا رجه الله اه

ولما دخلت سنة ثلاث وعشمان وخمسة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر
الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر
وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز ثم خرج من دمشق
في عسكرها فسار الى رأس الماء وتلاصقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم
ولده الملك الافضل عليا ثم ساروا جميعا الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك
والشوبك وغيرها فنهبوا وخربوا وأحرقوا ثم سار منها الى طبرية فلحقها وأمن صاحبها فرحلت
عنها فرتب أمورها وأحكم نظامها وسار عنها الى عكا فاستسلمت اليه ونزح الكثير من أهلها
بما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا مابق ودخل المسلمون اليها وسلم البلد بعد ذلك
الى ولده الافضل وأعطى جميع ما فيه من اقطاع وجناح وغير ذلك الى الفقيه عيسى
وكان فيها من السلاح والاموال والمناع وغير ذلك شيء لا يكاد يدخل تحت الحصر وأقام
صلاح الدين بعكا بعد ذلك عدة أيام حتى أتم تقرير جميع أمورها على قواعد مرتبة ثم ملك
بيروت وجبلي وغيرها وأجرى فيها أحكامه وأقام العمال بها على نظامه وترتبه المألوف عنده
فلما دانت له الامور في جميع بلاد الشام الا ما كان منها بيد الفرنجة كان أمر عسقلان
وبيت المقدس عنده أهم فكان كثير التحدث بحوادثهما كبير التولع بمعرفة أخبارهما وكان
يقول أما عسقلان فانها على طريق مصر وأحب الاشياء عندي أن تتصل الولايات لى فلا
يصعب على خروج العسكر منها ودخولهم اليها وأما فتح بيت المقدس ففيه من الذكر الجميل
والصيت العظيم ما يبتى على مر الايام وفي أخذ البلدين فائدة للاسلام والمسلمين وعظمت رغبته
وقويت نفسه بأخذ بيروت فسار منها نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من
العسكر المصري ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة ووجدت في قتالها ونصب
المنجنيقات ورمى بالاجار ليلها ونهارا وسد عليها جميع المسالك فأنقطع المدد وقلت الاقوان
وطال القتال أياما كثيرة فلم يرمن بالمدينة من الفرنجة بدا من التسليم فراسلوا صلاح الدين في

ذلك واشترطوا شروطا فأجابهم صلاح الدين اليها فسلموها ونزح منهم من أراد الخروج بماله
وعياله ووفى لهم صلاح الدين بالامان ثم مال صلاح الدين بعسكره على ماجاور عسقلان
من البلدان فأخذها وأنفذ في جميعها أحكامه فذاع صيته واتسعت كلمته وهابه الملوك لما رأوه
من انتصاره في غزواته وفتوحاته * ولما فرغ من أمر عسقلان وماجاورها من البلدان وقد استتب
له الامر فيها أرسل الى مصر فأخرج الاسطول الذي بها في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام
الدين لؤلؤ الحاجب فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنجة كلما رأوا لهم مراكبا
عاكسوه وأخذوه بما فيه من غلة أو متاع وما زال على هذا الحال حتى وصل فسار صلاح
الدين عن عسقلان الى بيت المقدس وكان به جمع كبير من المقاتلة والفرسان الأشداء وقد
حصنوه تحصينا ونصبوا عليه المنجنيقات ونأهبوا للذب والدفاع فلما قرب صلاح الدين منه
تقدم أمير من أمراء جنود صلاح الدين في جماعة من أصحابه فلقبه جمع من الفرنجة قد
خرجوا من البلد ليناوشوهم القتال فقاتلوه ومن معه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جميع من معه
فأهم المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على بيت المقدس فرأوا على سوره من الرجال ما هالهم
وسمعوا لأهل من الجليلة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع * وبقي
صلاح الدين يوسف خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها لانها كانت
في غاية المنعة فلم يجد عليها موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمور أو كنيسة
صهيون فانتقل الى هذه الناحية ونزلها ونصب في ليلة وصوله المنجنيقات فأصبح من الغد
وقد فرغ من نصبها ورمى بها ورمى الفرنجة بمنجنيقاتهم وقاتلوا أشد قتال لم يره أحد من
الناس وكان فرسان الفرنجة يخرجون في كل يوم الى ظاهر البلد فيقاتلون وبيارزون فقتل
من الفريقين خلق ومات من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكبر الامراء
في جيش صلاح الدين وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلي القتال بنفسه حتى قتل
وما زالوا على جد وشدة في القتال حتى وصل المسلمون الى الخندق وجاوزوه والتصقوا بالسور
ينقبونه والرمات يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمي لتكشف الفرنجة عن الاسوار حتى يتمكن
المسلمون من النقب حتى نقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك أرسلوا الى صلاح الدين في طلب
الامان وخرج صاحب الرملة واجتمع بصلاح الدين يوسف وكله في الكف عن القتال وتقرير
قاعدة تسليم البلد وقال له أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير جدا لا يعلمه
الا الله وانما يفترون عن القتال رجاء الامان فطنا منهم أنك تجيبهم اليه فاذا رأينا أن لامناص
من الموت فواته لنقتل أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تأخذون منها
دينارا ولا درهما ولا تسبيون ولا تأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخرجنا
الخصرة والمجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم
خسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا وقاتلنا كم قتال
من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحيثئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل أمثاله ونموت

أعزاه أو تظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم الى ما يطلبون وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرون عاقبة الامر فيه عن أى شئ ينجلي فأجاب صلاح الدين حينئذ الى ما طلبه صاحب الرملة واستقر أن يأخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجح ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤدها فقد صار ملوكا فيذل صاحب الرملة عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب الى ذلك وسلت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ورتب صلاح الدين على كل باب من البلد أميرا من الامراء ليأخذوا من أهلها ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم أولئك الامراء الاموال وتفرقت أبدى سبأ * قال صاحب الكامل وغيره وكان على رأس قبة الصخرة بالبيت المقدس صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة المذكور تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين سعدوا صاح الناس كلهم صيحة واحدة من البلد ومن ظاهاها من المسلمين والنصارى فسمع الناس صيحة عظيمة كادت الارض أن تميد بهم لعظمتها وشدتها فكان هذا الحادث من العجائب وتحدث الناس به كثيرا * ثم أمر صلاح الدين باعادة ما تخرب من الابنية الى ما كان عليه ولما كانت الجمعة الاخيرة رابع شعبان صلي المسلمون في المسجد الاقصى صلاة الجمعة ومعهم صلاح الدين يوسف وصلى أيضا في قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيي الدين بن الزكي قاضى دمشق ثم رتب صلاح الدين فيه خطيبا واماما يرسم الصلوات الخمس وشرع من قام من الفرنجة في بيت المقدس في بيع مالا يمكنه حمله من أمتعة وذخائر وأموال وأخذ ما يطبق حمله فكان ما يبيع شيا كثيرا من الاسرة والصناديق والبيوت وغير ذلك فاشترى تجار المسلمين وتركوا أيضا من الرخام الذى لا مثيل له من الاساطين والالواح والفصوص وغيره شيا كثيرا ثم ساروا ورحلوا متفرقين * قال أصحاب التاريخ وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين يوسف رجه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا

ولما شاع خبر أخذ صلاح الدين يوسف بيت المقدس وشحنه بالعساكر والاجناد والمهاجرين من المسلمين وأنه قد ولي عليه الظهير أبا الفقيه عيسى وقوض اليه تدبيره هاج النصارى وماجوا ووصل بعض المستقرين من أهل بيت المقدس الى قسطنطينية وغيرها من البلاد الالمانية وأخبروا بما جرى ووردت كتب بابا رومية الى امبراطور الالمان وغيره من ملوك أوروبا في هذا المعنى فهموا باعداد المقاتلين وأكثروا من جمع الاسلحة ومعدات الحرب وبالغوا في التجهز للقتال * قال بعض الكتاب وسار بطررك بيت المقدس الى رومية في جمع من القسوس يستنفرون الناس الى الجهاد واستخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف ورسوموا صورة المسيح في زى رجل عارى البدن حاسر الرأس وبجانبه آخر في زى أعرابي وقد طعنه وأسال دمه وطاقوا بهذه الصورة في الطرق والشوارع وهم يضحون

ويكون ويحئون الناس فهاج الناس وماجوا وكبر عليهم الأمر جدا وزادت حجتهم
وتبعوهم وهم ينادون بالشار بالشار * وبينما كانت خواطر النصارى في اضطراب
وامبراطور الالمان يجهز المقاتلة للخروج للقتال كان صلاح الدين يوسف أيضا يجيش الجيوش
ويكثر من الكراع ومعدات الحرب وهو على عزم أن يفتح ما بقى من بلاد الساحل وسار الى
جبله ففتحها باغراء قاضيا وفتح ماحولها مثل انطربوس ومرقية وأخذ حصن بكسراييل
بين جبله ومدينة حماة وبعد أن قرر أحوال جبله وجعل فيها الأمير سابق الدين عثمان بن
الداية صاحب شيزر سار عنها الى اللاذقية وكان الفرنجة قد ساروا عنها وأخلوها وصعدوا
الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين وقانلوها
وقد دخل الى الفرنجة بالقلعتين قاضى جبله وما زال بهم حتى استأمنوا لصلاح الدين وخرب
عسكر صلاح الدين ما في مدينة اللاذقية من الابنية العظيمة والعمائر الجسيمة المزخرفة المملوءة
بالرخام الملون ونقلوا رخامها وشغوا كثيرا من كنائسها التي قد غرم عليها الاموال الجليله
المقدر وبعد أن قرر أحوالها سلمها الى ابن أخيه تقي الدين عمر وسار صلاح الدين من
اللاذقية الى قلعة صهيون فقاتل من بها وما زال يقاثلهم حتى سلوا اليه على قطعة فسلم
الحصن وسلمه الى الامير ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس ثم بث صلاح الدين
سراياه حول صهيون فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيدو وحصن الجماهرتين وكان جماعة
الفرنجة قد تركوها ورحلوا عنها * قال أصحاب التاريخ فأتت المملكة الاسلامية بتلك الناحية
الا أنه كان دون الوصول اليها من البلاد الاسلامية على عقبه بكسراييل أهوال لان الطريق
السهلة كانت غير مسلوكة فان بعضها كان بيد الاسماعيلية وبعضها بيد الفرنجة فلما
استسلمت الحصون المذكورة استسلمت أيضا قلعة الثغر ووجدوا قلعة بكاس خالية ليس فيها
أحد من الفرنجة فأخذوها وسير صلاح الدين ولده الظاهر غازي صاحب حلب الى سرمينية
لحاصرها وضيق عليها وما زال بأهلها حتى استسلمت على قطعة قررها عليهم فلما أنزلهم
وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وكان فيه وفي بقية تلك الحصون من أسارى المسلمين
الجم الغفير فأطلقوا وكانت جميع هذه الحصون الى سرمينية من أعمال أنطاكية فلم يبق
لها سوى القصير وبغراس ودرج سالك كما ذكره أصحاب التاريخ ثم سار صلاح الدين يوسف الى
حصن برزية ونزل عليه وفتح بعد قتال شديد دام أياما وأمن صاحب الحصن هو
وعائلته ووفى له بالعهد وسيره الى أنطاكية ولبث برزية يومين ثم رحل عنها وأتى
جسر الحديد على نهر العاجي بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من
الجند والقواد وسار عنه الى قلعة درج سالك فقتل عليها ونصب المنجنيقات وتابع الرمي
عليها بالجارة وما زال يجتدي قتالها ويرحف على الاسوار يجنده المرة بعد المرة حتى ظهر
ضعف من بها من الفرنجة وبجزهم عن القتال وطلبوا من صلاح الدين الامان فأجابهم الى
ماطلبوه فخرجوا وساروا الى أنطاكية ولم يأخذوا من أموالهم ومتاعهم شيئا وكذلك فعل

بقلعة بغراس ولما تم له فتح بغراس عرض عسكره ليسير عن بقي منهم الى فتح أنطاكية
 فرأى من ضعفهم وملهم وانقباض نفوسهم ماخفه وأشفق منه فلبث أياما لا يأمرهم بالسير
 واتفق أن صاحب أنطاكية أرسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة وأطلق كل أسير
 عنده من المسلمين ففرح صلاح الدين بذلك واستشار من عنده فاشاروا باجابه الى ما طلب
 ليعود الناس فيستريحوا ويجددوا ما يحتاجون اليه فأرسل صلاح الدين الى صاحب
 أنطاكية بالقبول واصطلحوا مدة على ثمانية أشهر واستخلفه على حفظ الزمام خلف له وأطلق
 من عنده من الاسرى فرحل صلاح الدين بعسكره عن أنطاكية الى حلب ثالث شعبان
 من السنة أى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق العساكر
 الذين مع زنكي بن مودود وعسكر الموصل وغيرها وكانوا قد أشاروا عليه بذلك ففعل وهو
 يخشى العاقبة وكان صلاح الدين قبل المهادنة مع صاحب أنطاكية قد جعل على الكرك عسكرا
 يحصره وكان به الامير رينودى شاتيلون أحد ملوك الصليبيين فلأزمو حصاره مدة طويلة
 حتى فريت أزواد من به من الفرنجة وذرأهم والملك العادل أخو صلاح الدين يشدد في
 الحصار ويضيق على من به فأرسلوا اليه يطلبون الامان ويبدلون تسليم القلعة فأجابهم الى
 ذلك وتسلم القلعة منهم ونزلوا وتسلم أيضا ما يقاربها من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة
 والسبع فاطمات قلوب المسلمين بأخذ ذلك الصقع وفرح صلاح الدين بفتحهم فرحا عظيما وهو
 مع ذلك كان يقول ان العمر قصير والأجل غير مأمون وكيف أطاول الفرنجة ويدهم الى
 الآن كوكب وصفد وغيرها وأقام بدمشق الى منتصف رمضان حتى واقته الجنود والعساكر
 المشرقية وغيرهم ثم سار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وضيق عليها ونصب المنجنيقات
 ووالى الرمي عليها بالحجارة وكان من بها من عسكر الفرنجة قد مضى عليهم أيام كثيرة وهم
 يدافعون عنها ولم يأتهم شيء من المؤنة فقلت أزوادهم وضافت نفوسهم فأرسلوا يطلبون
 الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا الى مدينة صور ووفى لهم صلاح الدين
 بالعهد ثم سار عن صفد الى كوكب فحصرها وأرسل الى من بها من الافرنج يبذل لهم
 الامان ان سلوا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب ان امتنعوا فأبوا الا القتال فقاتلهم ووجد في
 قتالهم ونصب المنجنيقات وتابع الرمي بالحجارة فلم يتمكن منها وطال مقامه عليها ثم حملوا
 على سورها جملة رجل حتى التصقوا به ونقبوه فلما رأى الفرنجة ذلك مالوا الى التسليم
 وأرسلوا الى صلاح الدين في ذلك فأجابهم واستلم منهم الحصن في ذى القعدة وسيروهم
 الى صور فانضموا الى من بها من المقاتلين وأصلحوا حالهم وربوا أمورهم فاستدنت
 شوكتهم وجاءهم المسدد تباعا من صقلية وغيرها فصاروا جيشا عظيما فقدم صلاح الدين
 على تفريطه حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة الى أقصى
 أعمال بيروت فكان لا يفصل بينها غير مدينة صور وقد صارت في غاية القوة والامتناع

بما وفد عليها من جوع الفرنجة والامداد المتابعة واجتمع لهم أيضا جميع أعمال أنطاكية
سوى القصر

ولما تم صلاح الدين أخذ صفد سار الى بيت المقدس فعيد فيه عيسد الاضحى ثم سار
منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة فلما كان ربيع الاول من سنة خمس وثمانين سار
الى شقيف ارنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون وأقام بها يدبر أمر جيوشه
فجرت بينه وبين صاحب الحصن وهو صاحب مدينة صيدا أيضا مخبرات في معنى القتال وفي
المطاوله وتوددت الرسل بينهما وكل منهما راض عما يسأل الآخر فتقررت القاعدة بينهما على
تسليم الحصن في جادى الآخرة من تلك السنة ولبث صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الاجل
المضروب بينهما ولكنه كان قلقا مضطرب البال مفكرا في قرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين
صاحب أنطاكية فسير تقي الدين ابن أخيه فيمن معه من عسكره ومن يأتي من بلاد المشرق
وأمره بالنزول مقابل أنطاكية لتلايغ صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكانت
الاخبار عن صور تأتي اليه في كل يوم أشكالا وكلها تدل على اجتماع الفرنجة بها وما يتصل
بهم من الامداد في البحر وتزايد جوعهم يوما عن يوم فكان مترعج الطاطر كثير الهم شديد
الخوف وكان يخشى من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجوع المتكاثفة
فتنقطع الميرة عنه وكان صاحب الشقيف في هذه الهدنة يشتري الاقوات من سوق العسكر
والسلاح وغير ذلك مما يقوى به حصنه وصلاح الدين لا يسي به الظن * وما دخلت سنة
ست وثمانين حتى تم تجهيز جوع الفرنجة وكثر عددهم وعددهم تحت راية امبراطور الالمان
فسار بهم وهم لا يحصون كثرة يريد بيت المقدس وجعل طريقه على القسطنطينية فلم يستدبر
صاحبها بشئ من الذخيرة ولا الازواد وخشى منهم على بلاده وكادت تقع الحرب بينهما على ذلك
ثم عبروا خليج القسطنطينية واتصلوا ببلاد الملك قلع ارسلان بن مسعود بن قلع ارسلان بن
قتلش بن سلجق فلم يطأ حدودها حتى نارت بهم قبائل التركان فناوشتهم القتال فلم تنل
منهم فجعلوا يسارونهم ويسرقون ما قدروا عليه وما زالوا سائرين حتى قاربوا مدينة قونية
فخرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلع ارسلان يريد منعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد
سرعا مدحورا الى قونية فأسرعوا السير في أثره ونازلوا قونية وجدوا في قتالها وشددوا
فأرسل اليهم قطب الدين يسألهم الجلاء عن المدينة ولهم ما يطلبون فأجابه الامبراطور الى ذلك
بشرط أن يسلم اليهم جميع ما يحتاجون اليه من قوت وغيره فأناهم بما يريدون فتزودوا وطلب
منه رهائن وتسير الكتب الى جميع بلاده بملازمة السكون والطاعة والقيام بكل ما يطلب
منهم فسلم الى الامبراطور نيفا وعشرين أميرا كان بكرهم رهنا وسير الكتب الى الاتاق
بامداد جيوشهم بالميرة والازاد وجميع ما يحتاجون اليه وسار امبراطور الالمان في جوعه حتى
أتى بلاد الارمن فخرج اليه صاحبها لافونة بن اصطفان بن ليون في جماعة من كبار قومه
وأحسن وفادته وقدم له من الاقوات شيا كثيرا وكذلك العلوفات وحكم الامبراطور في بلاده

وأظهره الطاعة فلبث أياما ثم نادى في جموعه بالرجيل فساروا يريدون انطاكية ونزلوا على نهر في طريقهم ولبشوا أياما وانفق أن الامبراطور نزل يوما في النهر ليغتسل فغرق في مكانه فعظم ذلك على أصحابه وأحزنتهم جدا وكان معه ولده فاجتمع على البيعة له جميع الامراء وبارالهند والجزاب وسار بهم يريد انطاكية فرأى من تحصينها وامتناعها مالا يحتاج معه الى المدد فساروا عنها يريدون عكا فغروا بجيلة ولاذقية وقد ملكهما المسلمون فقاتلوهما قتالا عنيفا حتى أخذوهما ثم ساروا الى عكا فخرج عليهم أهل حلب وغيرهم فلم ينالوا منهم ما أرادوا فكلوا يتخطفون من خلفهم وبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياما فرتبوا أمورهم وأحكوا نظامهم وتزودوا وركبوا السفن وأقلعوا الى عكا فلما وصلوا اليها سعد الى المترسين أمامها من جموع الفرنجة من سعد بمن يفضلون الجهاد على العود الى الاوطان وأقلع من أقلع عائدا الى أهله وولده حجة امبراطور الالمان وكان صلاح الدين وأصحابه في قلق وخوف ماعليه مزيد وهم يتوقعون جلاهم عن جميع أرض الشام في كل يوم انهم خسروا عكا وكلوا كلما علوا بقرب جموع ملك الالمان منهم ترفعوا عنهم وأخلوا لهم المسالك وبالغوا في التحرز والالتفات * فلما سافر ملك الالمان بن سافر معه من جموعه وقد تقوت نفوس من بالتاريس أمام عكا من الفرنجة بن جاهم من المقاتلين والمنطوعة رتبوا أمورهم وخرجوا في عدتهم وسلاحهم لقتال المسلمين وقصدوا معسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المصريون وتقهقروا فتبعهم الفرنجة وأعلموا فيهم القتل ودخلوا خيامهم ونهبوا جميع أموالهم وكانت عساكر الموصل قريبة من العساكر المصرية فلما رأوا ما حل بالمصريين حملوا على الفرنجة ومقدمهم علاء الدين حزم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل وجدوا في قتالهم وبالغوا فنالوا منهم ثم افترقوا والقتلى لا تكاد تدخل تحت الحصر فلما كان بعد يومين رأى صلاح الدين وأصحابه من تكرار ورود المدد في السفن والبطس الكبيرة الى من بعكا ما أذهلهم وأخافهم وأوقعهم في حيرة ثم وصل الأمير هنري ابن أخي ملك الفرنسيين لأمه وابن أخي ملك انجلترا لأمه ووصل معه من الاموال والخبرة وآلات الحرب شئ كثير للغاية فلم يستقر به المقام حتى حشد وجند وبذل الاموال ورتب الامور وأحكم نظام المقاتلين من كل صنف ثم أظهر أنه يريد الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين بعسكره من مكانه الى الخروبة فعكف الأمير هنري بن معه على التاريس ونصبوا خلفها المنجنيقات ورموا بالحجارة على البلد وتابعوا الرمي ليلا ونهارا وقويت نفوسهم واشتدت عزائمهم وجاءتهم رسائل بابا رومة بالحث والاستنهاض والمبارزة على الجهاد والجد في القتال وأنه سير الى الآفاق يستنص ملوك المسيحيين الى استخلاص بيت المقدس من يد صلاح الدين يوسف وأن المدد قائم عليهم برا وبحرا فلما كان حادي عشر شوال من السنة اى سنة ست وثمانين خرجوا في عدد عظيم فهال منظرهم صلاح الدين وأصحابه وانقبضت له نفوسهم فنادى صلاح الدين بنقل الانتقال الى بلدة ميمون فنقلوها

وأرسل يسترعى حضور العساكر اليه من الاطراف فحضروا فأحكم نظامهم وجعل أولاده
الافضل عليا والظاهر غازي والظاهر مما يلي القلب وأخاه العادل أبا بكر في الميمنة مع
العساكر المصرية ومن انضم اليه وجعل في اليسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين
صاحب خجاة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عم - ر مع جماعة من أمرائه ونصب
صلاح الدين خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينتظر اليهم لمرض أصابه
بومشذ فاقتلوا قتالا خفيفا ثم عادوا الى مراكرهم وقد عرف الأمير هنري مواقف عسكر
المسلمين وما لديهم من الاسلحة والكرام وغير ذلك فجعل يطاولهم ولا يشكف عن الرمي
على من بعكا منهم بالججارة تارة وبالسهم أخرى واشتد الغلاء في عسكر صلاح الدين وقل
الوارد من المؤنة لتعذر نقلها بسبب الشتاء ووقوف جماعة الفرنجة فبلغت غرارة الخنطة
أكثر من مائة دينار صوري فصبروا على هذا ومع ذلك فكانت تأتيهم المؤنة من البلدان
القريبة على الصعب والذلول وأرسل من بعكا الى صلاح الدين يشكون الضجر والملاحة
والسائمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقديما على جندها فرسم صلاح
الدين بأقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من بها وأمر أخاه الملك العادل ب مباشرة ذلك فانتقل
الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وشحنها بما تسر من الجنود
والعساكر وكانت مراكب الفرنجة قد بلغت الى صور والجزائر فرارا من عواصف الشتاء
فانفتح الطريق الى عكا وتمكنت مراكب صلاح الدين من دخول المينا وتنزيل المقائلة
فدخل عكا عشرون أميرا وخرج منها ستون أميرا لاستيلاء الضجر والملل على جميع
العساكر وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم وقلت النفقة على المقاتلين
فتفرق بهذا السبب أيضا خلق كثير * قال أصحاب التاريخ وانضاف الى ذلك تواني صلاح
الدين ووثوقه بنوابه واهمال النواب فانتشر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنجة
الى عكا وانقطع الطريق وعاد الرمي بالمنجنيقات على البلد ليلا ونهارا وكان ممن دخل
من الامراء الى عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسدية
وكان دخولهم الى عكا في أوائل سنة سبع وثمانين فجدد الفرنجة في القتال وشدوا في
الحصار وسدوا الطرق برا وبحرا وعظم الامر على صلاح الدين وأصحابه * قال صاحب
الكامل فكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم
واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هناك ابتلى المؤمنون
وزلزلوا زلزالا شديدا * ووقع في عسكر صلاح الدين بعض الموت فمات يوسف بن
زين الدين على صاحب اربل وكان قد حضر في عسكره نجدة لصلاح الدين في جملة من
حضر من الاطراف والقتال من الفرنجة قائم على ساق في البر والبحر ووصل الى عكا في
الثاني عشر من ربيع الاول الملك فليب ملك الفرنسيين في سفن كثيرة ومعه كثير من
المقائلة والمتطوعة فنزلت طائفة منهم الى البر ونزل الملك فليب فقابله الأمير هنري وضربت

لقدمه البشارة وعلم من في جميع البلاد التي بيد الفرنجة بخبر قدمه ففرحوا به ولم
 يلبث أن قاتل من بعكا من المسلمين وألح في قتالهم وشدد في التصيق عليهم وكان صلاح الدين
 نازلا بمن معه على شفر عم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنجة ليشتغلهم بالقتال عن
 الزحف الى البلد فلم يكن ليقدروا على ذلك واشتد الكرب على من بالبلد وتولاهم الضجر
 والملل وكبر خوف صلاح الدين وكاد يتولاه القنوط عند ما جاءت الاخبار أيضا بقرب وصول
 الملك ريشارد الملقب بقلب الاسد ملك الانجليز الى عكا في كثير من العساكر والمقاتلين على
 ظهور البطس العظيمة ومراكب الحرب وكان ريشارد قد أئذر بالجهاد فسار في عسكر عظيم
 من انجليز يريد عكا ومر بجزيرة قبرص فنزل عليها لملكها لامور بينه وبين صاحبها لانتعلق
 بما نحن بصدده ووصلت بعض سفنه الى عكا ونزل من بها من المقاتلين والمتطوعين وقاتلوا
 المسلمين مع من يقاتلون من المسيحيين وألحوا في القتال وأمر الملك فليب فنصبوا سبع
 منجنيقات ونابعوا الرمي بها على عكا ليلا ونهارا فعظم الأمر على صلاح الدين وقدم ريشارد
 ملك الانجليز ثلاث عشر جمادى الاولى في جوعه وقد استولى في طريقه على جزيرة قبرص
 وأخذها من الروم ووصل الى ميناء عكا في خمس وعشرين قطعة كبارا مملووة رجالا وأموالا
 فلما عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين أرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم
 يفدهم شيئا فخرج الامير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب من البلد
 واجتمع بالملك فليب ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق من به من
 المسلمين ويكفهم من العوق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك وأبى الا التسليم بغير شرط فرجع
 المشطوب وأخبر بقية الامراء بما جرى فلما كان الليل اجتمع منهم عز الدين أرسل الاسدي
 وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاق وغيرهم واتفقوا على الهرب فخرجوا سرا من أصحابهم
 ولحقوا بصلاح الدين فلما أصبح الناس ورأوا ذلك انقلبوا وازدادوا وهنا على وهنهم وضعفا
 على ضعفهم وأيقنوا بالعطب وأرسل صلاح الدين الى فليب في معنى التسليم بشرط أن
 يطلق من أسرى النصارى بعدد ما في عكا من المسلمين ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم اليهم
 صليب الصليب فلم يفتنع بما بذل وأمر بتشديد القتال فشددوا وزحفوا على البلد بمحدهم
 وحديدهم فلما صارت على وشك السقوط ظهر من بها من المسلمين على السور يحتركون
 أعلامهم ليرأها أصحاب صلاح الدين وكانت هي العلامة اذا اخترمهم أمر فضجوا بالبكاء
 والعيويل ولكنهم لم يقدروا على نفع ولم يدفعوا عن البلد ضرا * قال بعض الكتاب فخرج
 المشطوب الى ملوك الفرنجة وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه وبذل لهم على ذلك
 مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصليب مع أربعة عشر ألف
 دينار الى صاحب صور فأجابوه الى ذلك فسلم البلد اليهم ودخلوه فلما ملكوه غمدروا
 وأحاطوا عن فيه من المسلمين وأموالهم وحبوسهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل
 اليهم ما بذل لهم وقال آخرون بل فتحوا البلد عنوة وأعلموا فيه السيف وأخذوا ما به

من الاموال والمناع وأرسلوا إلى صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا
من عندهم من المسلمين فطاولهم صلاح الدين فأعلموا السيف فيمن بقي من المسلمين ولم
يستبقوا الا بعض الامراء والمقدمين ثم أخذوا يصلحون حال البلد ويرمون ما تهدم منها حتى
عادت الى ما كانت عليه من الامتناع وأقاموا الى شعبان من السنة لا يحركون ساكنا ولا
يستغلون بغير تحصين البلد وترتيب أمورهم ثم برزوا منها وساروا يريدون حيفا وكان الملك
الافضل بن صلاح الدين يوسف في طائفة من العسكر والمتطوعين يراقبون حركات الفرنجة
ومعهم جماعة من الامراء وهم سيف الدين ايازكوش وعز الدين جورديك وعدة من كبار
الجند لما أحسوا بخروج الفرنجة وعلموا أنهم يقصدون حيفا كتب الملك الافضل الى أبيه
صلاح الدين يعلمه بالحال ويستدته فنادى صلاح الدين فيمن معه بالمسير اليه فامتنعوا فعاودهم
فامتنعوا وقد تولاهم الفشل واختلط الحال على صلاح الدين فلما أبطل المدد على الملك الافضل
وعجز عن الوقوف في طريق الفرنجة جعل يتخطف ساقتهم فعاد ريشارد ملك إنجلترا على
ساقه الفرنجة فخماها وجعهم وساروا وهم على أحسن نظام وأجل هيئة حتى أتوا حيفا
فتزلوا بها ونزل المسلمون بقربة فيمون على مقربة من حيفا فأقام الفرنجة بحيفا أياما ثم ساروا
منها الى قيسارية والمسلمون يساروتهم فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقتلوهم فلم
ينالوا منهم ونزل الفرنجة بها ثم قاموا من قيسارية وقد أصلحوا حالهم وساروا يريدون ارسوف
وكان المسلمون قد سبقوهم اليها وتبعهم السوقة والباعة وغيرهم ممن يتبعون العساكر في
الحروب فلما اقترب الفرنجة من البلد خرج عليهم المسلمون وحملوا عليهم حملة منكبة فحمت
فرسان الفرنجة على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون منهزمين لا يلبى أحد على أحد
واختلطوا بالسوقة فعلا الضجيج والصياح ووقع السيف على الاعناق وكثر القتل والتجأ من
بني من المنهزمين الى قلب الجبل وفيه صلاح الدين يوسف فاختل نظامه وولوا جميعا منهزمين
ودخلوا شعرة كثيرة الشجر قريية من موقعهم فظنها الفرنجة أنها مكيدة فلم يتبعوهم * قال
أصحاب التاريخ فلو علم الفرنجة أنها هزيمة لتبعوهم واشتريت الهزيمة وهلك المسلمون عن آخرهم
وعاد الفرنجة فدخلوا ارسوف وأقاموا بها أياما ثم برزوا منها وقد رتبوا أمورهم وساروا
الى بافا فتزلوها وملكوها وبثوا سراياهم في الاطراف فعاثوا وقتلوا وتخطفوا من المسلمين
خلقا كثيرا فم الخوف وضافت نفوس المسلمين وتفرق عن ملوك الاطراف أصحابهم
والمجاهدون معهم وعظم الامر جدا على صلاح الدين يوسف ولازمه الحزن والكدر وتولاه
القنوط واليأس فسار مجتأ في نفر قايل الى الرملة ولحقه بأثقاله فيها وجع اليه الامراء
واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتدمير عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا ومنهم
بالامس واذا جاؤا الى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فلا شك أنهم يظفرون بنا
وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان
العدو قوى ونحن قد ضعفنا وتولانا اليأس ولازمنا اللل فلم تسمع نفس يوسف بتدميرها

ونادى فيمن عنده من العساكر والمتطوعة بالدخول اليها والذب عنها فلم يجبه أحد الى ذلك
 وقالوا ان أردت الذب عنها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار والا فما يدخلها منا
 أحد ونحن الى الآن مانسى ما أصاب أهل عكا فلما أيس من حفظها سار نحوها وأمر
 بتخريبها فغربت وألقيت أبحارها بالبحر وهلك فيها من الاموال والذخائر شئ كثير للغاية وعنى
 أثرها ثم رحل صلاح الدين عن عسقلان بعد تخريبها الى الرملة فحرب حصنها وهدم الكنيسة
 الكبرى التي بها وأتلف جميع ما كان بها من الذخيرة وأما الفرنجة فاتهم أطالوا المقام بيافا
 وشرعوا في عمارتها وتحصينها وأكثروا فيها من الاسلحة والكرع والمدد يتواصل بينها وبين
 بقية القلاع والحصون التي بأيديهم فلما طال مكنتهم بها عظم الامر على صلاح الدين
 وأصحابه وقتل عندهم الاقوات واشتد بهم الضجر فترددت الرسل بين الملك العادل أبي بكر
 ابن أيوب أخى صلاح الدين وبين ريشارد ملك الانكليز في معنى الصلح أو المهادنة واجتمع الملك
 العادل بملك الانكليز مرارا كثيرة وتكلموا في المعنى وشاع يومئذ بين العسكرين أن ستقرر
 القاعدة على أن ملك الانكليز يزوج ابنة عمه الاميرة جوليا من العادل ويكون القدس وما
 بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بيد الفرنجة من البلاد لابنة عم
 ريشارد الملك ثم لم تلبث أن بطلت هذه الاشاعة ولم يتم بينهما صلح ولهذا المصالحة والمصاهرة
 أسباب تكلم الكتاب من الانكليز عنها كثيرا فأضربنا عن ايرادها هنا خوف الاطالة قالوا
 وكان ريشارد ملك الانكليز يفعل ذلك مع الملك العادل خديعة ومكرا وأظهر ريشارد العزم
 على قصد بيت المقدس فأضطرب صلاح الدين من ذلك وسار الى الرملة بجريدة وترك الانتقال
 بالبترون ثم عاد الى البترون وقد برز الفرنجة من يافا يريدون الرملة في ثالث ذى القعدة
 على عزم قصد بيت المقدس فاقربوا من المسلمين وتخطفوهم وأكثروا القتل واشتد البلاء
 على أصحاب صلاح الدين وعظم الخطب فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكر بلفاء
 الفرنجة فلقوا من ذلك شدة بالغة للغاية وأقبل الشتاء وبألت الامطار واشتد البرد
 والناس في ضنك وحرج من حمل السلاح والسهر الدائم تجرزا من الفرنجة ورأى
 صلاح الدين من ملل الجند وعجزهم ما أخافه فسرهم الى أوطانهم فلم يبق معه
 الا العسكر المصرى ومقدمهم يومئذ أبو الهيجاء السمين فسار بهم صلاح الدين الى البيت
 المقدس فنزلوا جميعا داخل البلد ونزل صلاح الدين بدار الاقصى بجوار بيعة قامة
 ورسم بعمارة سور البلد وتجديد ما رث منه فأحكوا بنيانه وعملوا خندقا عظيما خارج السور
 ورتبوا الابراج وتسلم كل برج منها أمير وحصن البلد حتى صارت في غاية الامتناع أما
 الفرنجة فاتهم وصلوا الى الرملة وملكوها وأقاموا بها أياما ثم ساروا منها الى البترون ثالث
 ذى الحجة وقابلوا من بها من أصحاب صلاح الدين ونالوا منهم وجدوا في قتالهم حتى ملكوها
 ورحل عنها من بقي من أصحاب صلاح الدين فنزل بها الفرنجة وأقاموا أياما وبث ريشارد
 ملك الانجليز عيونهم وارصاده لتأتى له بغير ما يفعله صلاح الدين بالبيت المقدس ورسم بعمارة

عسقلان وارجاعها الى أحسن ما كانت عليه وتأهب للسير الى البيت المقدس وقد رتب
المقاتلين على أحسن ترتيب وكان صلاح الدين لما دخل الى البيت المقدس سير رسلا الى
سنان مقدم الاسماعيليه يطلب منه أن يرسل من يقتل ملك الانجليز قبل أن يبرح من
البترون ويأتى الى البيت المقدس وأن من قتل المركيز منسرات صاحب صور فله عشرة
آلاف دينار فأجابه سنان الى ذلك ثم عدل عن قتل ملك الانجليز كي لا يتخلوا الحقو لصلاح الدين
فتطمع نفسه في البلاد وتكثر غزواته وعهد الى قتل المركيز منسرات وكان من كبار الملوك
معرفة بالحروب وحسن السياسة وبينه وبين ريشارد عداوة ومنافسة بسبب تقدم ريشارد
على جميع الملوك الصليبيين واستلامه قيادة الجيش وتصرفه في جميع الامور بدون مشورتهم
خلافًا للعهد واليمين الذي كان بينهم فأرسل رجلين في زى الرهبان فاتصلا بصاحبي صيدا
والرملة وكانا مع المركيز بصور فأفاما معهما أياما كثيرة يظهران العبادة فأانس بها المركيز
وركن اليهما فلما كان في بعض الايام سار المركيز الى أسقف البلد ولبت معه برهة ثم خرج
يريد مقره فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جرحا بليغة وهرب أحدهما فدخل
كنيسة يختفي فيها وانفق أنهم حملوا المركيز الى هذه الكنيسة ليشدوا جراحه فوثب عليه
الباطني المذكور وقتله فقبضوا عليه هو ورفيقه وقتلوهما في الحال وعظم قتل المركيز على
أصحابه جدا وظنوا أن قتله بوضع من ملك الانجليز ليخلو وجهه وينفرد بملك السواحل
الشامية فولوا بعده الامير هنري ابن أخت ملك الفرنسيس من أبيه وهو من كبار الامراء
وأجودهم رأيا وأحسنهم سياسة وخبرة بالحروب وقد تولى ملك جميع بلاد الساحل الشامي
بعد رجوع ريشارد الى بلاده والفراغ من هذه الحرب الصليبية

ووصل ريشارد ملك الانجليز في عسكره الى حصن الداروم أوائل جمادى الاولى
فخبره وعنى معامسه وسار الى بيت المقدس وصلاح الدين فيه فوصل بالعسكر الى بيت
نوبة ثم ساروا من هناك الى قلونية سبخ الشهر وهي على قيد فرسخين من بيت المقدس
وبث سراياه في الأطراف وطاف هو حول البيت المقدس ليرى من أين يأتيه ويقاقل من
به فكبر خوف المسلمين وعظم عليهم الامر وثابروا على السهر والوقوف على السور ليلا
ونهارا لا يلقون عنهم السلاح وعلم الفرنجة بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير
ومقدم ذلك العسكر أمير اسمه فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه ومعهم عدة أمراء من
المصريين فأسرى الفرنجة اليهم وأحاطوا بهم جميعا وأعملوا فيهم السيف بنواحي الخليل
فانهمز الجند شر هزيمة وكثر فيهم القتل وغنم الفرنجة خيامهم وآلاتهم وجميع مالههم
وهرب من نجا من الامراء والجند وصعدوا جبل الخليل فلم يتبعهم الفرنجة •
قال بعض كتاب الاخبار ولو اتبعوهم نصف فرسخ لاتوا عليهم جميعا وعفوا أثرهم وبقي ملك
الانكليز بعسكره حول البيت أياما كثيرة وعسكر صلاح الدين لا يغفلون ولا يباحون الاسوار

ثم تردت الرسل بين ريشارد وصلاح الدين في أمر الصلح والكف عن القتال وحقن الدماء
ورحل ريشارد عن بيت المقدس وسار الى يافا ثم عنها الى عكا فخرج صلاح الدين في عسكر
من البيت المقدس وسار نحو يافا يريد أخذها فقاتل من بها من الفرنجة قتالا عنيفا وحاصر
القلعة وشدد في حصارها أياما واذا ريشارد قد أحاط بالبلد وقاتل صلاح الدين وهزمه
وانتصر عليه ومزق شمل جوعه * قال أصحاب التاريخ وبرز ريشارد الى ظاهر المدينة في
ذلك اليوم واعترض المسلمين وحده وجل عليهم فلم يتقدم اليه أحد وخافوا منه خوفا عظيما
فوقف بين الصفيين واستدعى طعاما ونزل عن فرسه وأكل فشق ذلك على صلاح الدين ونادى
في عسكره بالهجوم على الفرنجة واجتد في قتالهم فتقدم اليه بعض أمرائه ويعرف بالجناح
وهو أخو المشطوب بن علي بن أحمد الهكاري فقال له يا صلاح الدين قل للماليك الذين
أخذوا أمس الغنائم وضربوا الناس بالجماعات أن يتقدموا ليقاتلوا عند انتشار نار القتال
وتكون الغنائم نصيبا لهم * وكان لما دخل عسكر صلاح الدين الى يافا بعد فتحها وصار
المقاتلون ينهبون ما فيها وقف جماعة من مماليك صلاح الدين على أبواب المدينة وكل من
خرج من الجند ومعه شيء من الغنيمه أخذوه منه فان امتنع ضربوه وأخذوا ما معه فهرا
فلما سمع صلاح الدين كلام الجناح غضب وقد أنس الغدر من الامراء ان هو أطال الحرب
مع الفرنجة ورأسل ملك الانجليز في طلب الصلح وطلب التجميل وقد عرف صلاح الدين
ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من سلاحهم ودوابهم وما نقد من نفقاتهم وقال
ان لم يعجل بالصلح تأخر ملك الانجليز ومن معه من الملوكة والامراء الصليبيين عن الرحيل الى
أوطانهم لدخول الشتاء فبقى هنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين وما زال
بريشارد حتى تقرررت القاعدة بينهم في العشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة
وعقدوا الصلح وتحالفوا على هذه القاعدة ونادى كل فريق في عسكره بتقرير قاعدة الصلح
فاختلط العسكران وزار بعضهم بعضا وأباح صلاح الدين لطوائف الفرنجة زيارة بيت
المقدس فزاروه وتفرقوا وبقي ما بيد الفرنجة من السواحل الشامية خاضعة للملك هنري قال
صاحب الكامل وكان هنري هذا خيرا قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم * وعاد صلاح
الدين بعد ذلك الى بيت المقدس فرسم بأحكام سوره وعمل به المدرسة والرباط والبيمارستان
وغير ذلك ووقف عليها الوقوف ثم سار عن البيت المقدس نحو دمشق واستناب به الأمير
جوردك أحد المماليك النورية فدخل دمشق في الخامس والعشرين من شوال من السنة
ففرح الناس به لطول غيبته عنهم وكان بها أولاده الصغار والظاهر والافضل والناظر فلبث
بها فلما كان اليوم الخامس عشر من صفر من السنة أي سنة تسع وثمانين ركب في
طائفة من أصحابه للافاة الحاج ثم عاد وقد أصابته حمى شديدة ولازمته ثمانية أيام ثم مات
بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر المذكور فخرن عليه الناس
حزنا عظيما وغشى الملك والقلعة في ذلك اليوم وحشة وكان كريما جوادا حسن الاخلاق

متواضعا صبورا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب الناس مات وله من العمر سبع
وخسون سنة فعمل الشعراء فيه المراثي الكثيرة من ذلك قصيدة للحماد الكاتب مائتان
وثلاثون بيتا أولها

شمل الهوى والملك عم شتانه * والدهر ساء وأقلعت حسنانه
بأنه أين الناصر الملك الذي * لله خالصة صفت نيانه
أين الذي ما زال سلطانا لنا * يرجى نداءه وتتقى سطوانه
أين الذي شرف الزمان بفضله * وسمت على الفضلاء تشريفانه
أين الذي عنت الفريخ لبأسه * ذلا ومنها أدرى ناراناه
أغلال أعناق الورى أسيافه * أطواق أجياد الورى حسنانه

الى آخر ما قال

قال ابن السبكي في الطبقات الكبرى له يعنى صلاح الدين من الفتوحات التي خلصها
من الفرنجة قلعة ايليا وطبرية وعكا والقدس والخليل والكرنك والشوبك ونبلس
وعسقلان وبيروت وصيدا ويسان وغزة ولد وحصا وخورية والقلعة ومغليسييا
والطود والاسكندرية وهفوس وباماس وارسوف وقيسارية وجبيل ونبيل ومملكية ومقرملا
والجبون وآسمة وياقول ومجدل وبيابل والصابية وبيت نوبا والبسرون والحبيب
والكرسه- وبيت لحم وريحانرا وأحصر الدير وبترفلبيلا وصرير الزيت والوعر والهرمس
وتغليسا والغارزية وتفرع ومجدل والحار والشقيف وسيطة التي يقال لها
قبرزكيا وجبيل وكوكب وانطوطوس واللاذقية ومسكراثيل وصهيون وجبلة وقلعة
العبد وقلعة الجاهيرية وبلاطنس والشغروبكاس وسرمينية وبرزية ودرج ساك وبغراس
وصفد وله مضافات يطول شرحها * قال وكانت مملكته من المغرب الى تخوم العراق
ومعها اليمن والحجاز وملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم اليها من بلاد المغرب والشام بأسرها
مع حلب وما والاها وأكثر بلاد ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره ونشر العدل في
الرعية وحكم بالقسط وبني المدارس والخوانق وأجرى الارزاق وهو الذي بنى قلعة الجبل المقطم
التي هي دار سلاطين مصر وولاتها ولم يكن لهم قبلها الا دار الوزارة بالقاهرة وفتح من بلاد
المسلمين حران وسروجه والرها والرقه والبيرة وسنجار ونصيبين وأمد وملك حلبا والمواريخ
وشهرزور وحاصر الموصل الى أن دخل صاحبها تحت الطاعة وفتح عسكره طرابلس الغرب
وبرقة من بلاد المغرب وكسر عسكر توتس وخطب بها لبني العباس ولولم يقع انطلف بين
عسكره الذين جهزهم الى المغرب لملك المغرب بأسره ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من
العسكر وكان رقيق القلب جدا هذا كله من كلام ابن السبكي في الطبقات * ومن صنائعه
انه أسقط المسكوس والضرائب عن الحجاج بمكة وقد كان يؤخذ منهم شئ كثير ومن عجز عن
أدائه حبس فرعا فانه الوقوف بعرفة وعوض أميرها المدعو شمال اقطاعا بديار مصر يحمل اليه

منه في كل سنة ثمانية آلاف اردب غلة عوناً له ولبن بعده * قال العماد الكاتب وغيره مات صلاح الدين ولم يترك في خزانته من الذهب سوى دينار واحد صوري وستة وثلاثين درهماً ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الاملاك وترك سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة واحدة وكان متديناً في ما كاه ومشربه وملبساً فلا يلبس الا القطن والسكتان والصوف وكان به عرج فقال فيه ابن عيينة الشاعر

سلطاننا أعرج وكاتبه * ذو عيش والوزير منحذب

وكان الخليفة المستضيء أرسل اليه في سنة أربع وستين وخمسمائة خلعة سنوية جداً وزاد في ألقابه معز أمير المؤمنين فلما ولي الخليفة الناصر في سنة ست وسبعين على ما تقدم بيانه أرسل اليه خلعة الاستمرار ثم أرسل اليه في سنة اثنتين وثمانين يعاتبه على تلقيبه بالملك الناصر مع انه لقب أمير المؤمنين فأرسل يعتذر اليه بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء وأنه ان لقبه أمير المؤمنين بلقب فهو لا يعدل عنه وتأدب مع الخليفة غاية الادب فلما مات صلاح الدين يوسف بدمشق كان معه بها ولده الاكبر الافضل كما تقدم القول وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياة أبيه فلما مات أبوه استقل بملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهوين وتبنين وجميع الاعمال الى الداروم وانحلت جميعها عن ملك مصر وكان بمصر أيضاً ولده العزيز عثمان فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشم واعزاز وبرزية ودرج سالك ومنبج وغير ذلك وكان بحمالة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بمحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الافضل وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قد صار الى الكرك في أيام أخيه فامتنع به ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه وهكذا اقتسموا مملكة صلاح الدين فيما بينهم وتصرف كل واحد منهم بمصلحته وهواه * ولتضرب صفحا عن جميع من ذكر وتنتبج حوادث صاحب مصر منهم وهو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح فقد كان من أمره بعد أن استقل بحكم البلاد ودانت له الامور أن سار في الرعية سيرة حسنة مع العفة في المال والغيرة حتى انه ضاق ما بيده ولم يبق في الخزانة درهم ولا دينار فجاء اليه رجل يسعي في قضاء الصعيد بمال فامتنع وقال والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الارض فأحبته الرعية ومالت اليه القلوب وأخلصت له الطاعة وجعل يتصرف فلما كانت سنة تسعين وخمسمائة ناقت نفسه الى توسيع سلطانه وتمديد ملكه فعمد الى الانارة على سلطنة أخيه الملك الافضل على فسار الى دمشق وحصرها وبها أخوه المذكور ونزل بميدان الحصن فكبر الأمر على الافضل وأرسل الى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب وهو يومئذ صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان للافضل غاية الوثوق به والاعتماد عليه فساء الملك العادل ما فعله الملك العزيز وسار من قوره الى دمشق ووجهته الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقي الدين

صاحب حماة وأسد الدين شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرهم واجتمعوا جميعا
بدمشق وانتفقوا على حفظها علما منهم أن العزيز ان ملكها أخذ بلادهم وأذهب سلطانهم
فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لاقدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ بينهم في الصلح
فاستقرت القاعدة على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى
دمشق وطبرية وأعمالها للأفضل على ما كانت عليه وأن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر
جبله ولاذقية وأن يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول وانتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر
ورجع كل واحد من اخوته الى بلاده ولكن لم يرض على هذا الانفاق الا سنة واحدة غير
كاملة حتى نقض العزيز العهد وخرج من مصر في عسكر عظيم الى دمشق يريد حصرها
ناية وكان سبب ذلك أن من كان عنده من مماليك أبيه صلاح الدين المعروفين بالصلاحية
مثل نحر الدين حر كس وقرا سنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل على لأنه كان
أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصيرى وسنقر الكبير وأبيك وغيرهم فكانوا يكرهونه
لذلك وكانوا يخوفون العزيز من أخيه الأفضل ويحرضونه على الاغارة على بلاده ويقولون
ان لم تفعل ذلك مال الاكراد والمماليك الاسدية من عسكر مصر الى أخيك وانضموا
الى عسكره فيخرجك من البلاد فصدق قولهم وعمل بشورتهم وخرج في سنة احدى وتسعين
وخمسة مائة فبلغ خبر تأهبه الى الأفضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به في
قلعة جعبر ودعا الى نصرته وسار من عنده من حلب الى أخيه الملك الظاهر غازى فاستجده
وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الملك الأفضل اليها ودخلها وكان الأفضل
لثقتة به أمر فوابه بادخاله الى القلعة ثم عاد الأفضل من حلب الى دمشق فأرسل مقدم
الاسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الاكراد أبو الهيجاء السمين وغيره الى
الأفضل والعادل بالانحياز اليهما والكون معهما ويحضهما على الانفاق على العزيز
والخروج من دمشق ليسلوهما اليهما * قال أصحاب التاريخ وكان سبب بغض هؤلاء للعزيز
وميلهم الى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال الى طائفة المماليك الناصرية وقدمهم ووثق
بهم ولم يلتفت الى هؤلاء الامراء فانفقوا من ذلك ومالوا الى أخيه وأرسلوا الى الأفضل والعادل
فاتفقا على ذلك أيضا واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء أن الأفضل يملك الديار المصرية
ويسلم دمشق الى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق على ذلك فأنحاز اليهما من ذكرنا
فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب ولايصدق بالنجاة وتساقط
أصحابه عنه الى أن وصل الى مصر وأما العادل والأفضل فانهما أرسلوا الى البيت المقدس وفيه
نائب العزيز فسلمه اليهما وسارا بمن معهما من الاسدية والاكراد الى مصر فرأى العادل من
انضمام العسكر الى الملك الأفضل وميلهم اليه ما أخافه وعلم أنه أى الأفضل ان أخذ مصر
ربما لا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سرا الى الملك العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل
بمدينة بلبس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها جعل العزيز

جاعة الناصرية ومقدمهم نحر الدين جر كس بها ومعهم جاعة أخرى فلما وصل العادل والافضل الى بلبليس نازلوا من بها من أصحاب العزيز وعزم الافضل على مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل الى مصر فنعى العادل من الامرين وقال هذه عساكر الاسلام فان قتلوا في الحرب فمن يرد العدو الكافر وما بها حاجة الى ذلك فان البلاد لك وبمحكك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذت قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الاعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الايام وأرسل الى العزيز سرا وأمره بإرسال القاضي الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحي لعل منزلته عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانحلت العزائم واستقر الامر على أن للافضل البيت المقدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للعادل اقطاعه التي كانت قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز قالوا وانما اختار ذلك لان الاسدية والاكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الافضل الى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز

ولم يستقر الصلح بينهم على ما وصفنا أكثر من حول واحد حتى عاد العادل أبو بكر فأخذ دمشق من الافضل ابن أخيه صلاح الدين وذلك في السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة وكان أبلغ الأسباب في ذلك وثوق الافضل بالعادل المذكور وقد بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده وهو غائب عنه كما تقدم القول وخالف فيه قول أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب * وقال بعض كتاب الاخبار غير ذلك * وهو أنه لما أن سار العادل والافضل الى مصر وحاصروا بلبليس ثم اصطالحا مع العزيز صاحب مصر أقام العادل مع العزيز بمصر فلم يلبث حتى استمال العزيز اليه وقرر معه أن يخرج معا الى دمشق ويأخذها من الافضل وأن يسلمها اليه فسار معه الى دمشق وحاصروها جميعا واستمالوا أميرا من أمراء الافضل يقال له العزيز بن أبي غالب الحمصي وكان الافضل كثير الاحسان اليه والاعتماد عليه والثوق به فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالبواب الشرقي ليحفظه فمال الى العزيز والعادل ووعدهما أن يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة ففتحه في اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومع جاعة من أصحابه فلم يشعر الافضل الا وعه معه في دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الاخضر غربي دمشق فلما رأى الافضل أن البلد قد ملك خرج الى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل في دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا واتفق العادل والعزيز على أنهما يبقيان على الافضل البلد خوفا من أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومع العامة فأخرجهما من البلد وعاد الافضل الى القلعة وبات العادل في دار شيركوه وخرج العزيز الى انخيام فبات فيها وخرج العادل من الغد الى جوسقه فأقام به وعسكره في البلد وفي كل يوم يخرج الافضل اليهما ويجتمع

بهما فبقوا على هذا الحال أياما ثم أرسلوا اليه وأمرهم بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة
 أن يعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق ونخرج الافضل ونزل في جوسق بظاهر
 البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياما يجلس يوما في مجلس شرا به
 فلما أخذت منه الحجر جرى على لسانه أنه على عزم أن يعيد دمشق الى أخيه الافضل فنقل
 ذلك الى العادل في الحال فحضر المجلس من ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم اليه
 البلد وخرج منه وعاد الى مصر وسار الافضل الى صرخد * واتفق أن يخرج العزيز من
 القاهرة يريد الصيد فجعل ينتقل من بلد الى آخر حتى وصل الى مدينة الفيوم فرأى
 ذئبا فركض فرسه في طلبه فعثر الفرس فسقط عنه وحقته حتى فعاد الى القاهرة مريضاً
 واشتد به مرضه فمات في العشرين من المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين وخمسمائة
 * قال أصحاب التاريخ وكان الغالب على أمره مملوك ولده نحر الدين جهاركس فلما مات
 العزيز سير نحر الدين المذكور الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو يحاصر مارد بن
 يستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجداً فلما بلغ الشام رأى بعض أصحاب الملك الافضل
 فقال له قل لصاحبك ان أخاه العزيز مات وايس في مصر من يمنعها فليسر اليها على عقل
 وكان الافضل محبوباً الى الناس فلم يلتفت الى قول ذلك القاصد ولم يتحرك من صرخد حتى
 جاءته رسل الامراء من مصر يدعونهم ليملكوه البلاد وكان سبب ذلك أن الامير سيف
 الدين يار كج مقدم الاسدية والفرقة الاسدية والامراء الاكراد يحبونه كثيراً وكانت المماليك
 الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الاسدية المذكور ونحر
 الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال نحر الدين نولى ابن الملك
 العزيز فقال سيف الدين انه طفل وهذه البلاد نحر الاسلام ولا بد من قيم بالملك يجمع
 العساكر ويقاوم بها والرأى أننا اذا جعلنا الملك في هذا الطفل نجعل معه بعض أولاد
 صلاح الدين يدبره الى أن يبلغ أشده فان العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لاحد غير أهل
 هذا البيت وجرى بين الفريقين كلام ثم اتفقا على هذا فقال جهاركس ومن يتولى القيام بذلك
 فأشار سيف الدين بغير الافضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لثلاثتهم وينفر جهاركس
 عنه فامتنع من ولايته * قال بعض أصحاب الاخبار فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين
 واحداً بعد آخر الى أن ذكر آخرهم الافضل فقال جهاركس هو بعينه عينا وكان يومئذ
 بصرخد مقيماً بها من حين أخذت منه دمشق فقال سيف الدين غمضى الى القانى الفاضل
 وتأخذ برأيه فاتفقا على ذلك وأرسل سيف الدين في الحال القاصد وراه فسار عن صرخد
 للبلتين بقيتا من صفر متسكرا في تسعة عشر نفرا فلما قارب بيت المقدس وقد عدل عن
 الطريق المؤدى اليها لقيه فارسان قد أرسلوا اليه من بيت المقدس فأخبراه أن من بالفدس
 قد صار في طاعته بجد في السير فوصل الى بليس خامس ربيع الاول ولقيته اخوته
 وجماعة الامراء المصريين وجميع الاعيان واتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً

وضعه له نحر الدين مملوك أبيه طعاما أيضا فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلقها أخوه أن يبدأ به فظن نحر الدين جهاركس أنه فعل هذا انحرافا عنه وسوء ظن به فاضطرب خاطره وتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الأفضل وقال ان طائفة من العربان قد اقتتلوا وان لم نغض اليهم نصلح بينهم لأدى ذلك الى فساد عظيم فأذن له الأفضل في المضي اليهم فقارقه وسار مجدا حتى وصل بيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزره كش وسرا سنقر واستقدموا أيضا ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل وأرسلوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها فلم يسر اليهم لان أطماعه كانت قد قويت في أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها حتى اذا أخذها جاءهم على الاثر ليدخل معهم مصر

أما الملك الأفضل فإنه بعد أن استراح من متاعب السفر سار عن بلبس الى القاهرة فوصلها سابع ربيع الاول وعلم بهرب نحر الدين جهاركس فأهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبين جهاركس ومن معه ليعودوا اليه فلم يزدادوا الا بعدا ولحق بهم جماعة آخرون من الناصرية أيضا فاستوحش الملك الأفضل عن بقي من الناصرية فقبض عليهم وهم شفيعة وأبيك فطيس والبيكى الفارس وغيرهم وكل من هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور وسجنهم وجعل الأفضل يتصرف في الامور ويقرر القواعد ويصلح الاحوال ويقضى حوائج الخلق والمرجع في جميع الامور الى سيف الدين ياركج فكان معه ابن أخيه الملك العزيز ملكا بالاسم فقط * ولم يمض الا القليل حتى اجتمعت له الكلمة ومالت اليه القلوب وأحبه الامراء والرعية ووصل اليه رسول من عند أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وأرسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه صاحب حصص يحنانه على الخروج الى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فقال الى رأيهم وبرز من القاهرة في منتصف جادى الاولى من سنة خمس وتسعين وخمسمائة على العزم الى دمشق وأقام بظاهر القاهرة الى ثالث رجب ثم رحل فيه وتعوق في مسيره * قال أصحاب التاريخ ولو بادر وعمل المسير لملك دمشق بغير ممانع ولكنه تأخر فوصل اليها ثالث عشر شعبان فتنزل على جسر الخشب على قيد فرسخ ونصف من دمشق وكان الملك العادل قد أرسل اليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم فقارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا في جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجذ السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبله بيومين وتقدم الأفضل الى دمشق في الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل في ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان الى دمشق من باب السلام وكان سبب دخولهم أن قوما من أجناده من بيوتهم مجاورة لذلك الباب اجتمعوا بأمر اسمه محمد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه في أن يقصد هو والعساكر باب السلامة ليفتصوه لهم فأراد محمد الدين

المذكور أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الافضل ولا أخذ أحدا من العسكر بل سار
 وحده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رأهم
 عامة البلد نادوا بشعار الافضل فاستسلم من به من العساكر والاجناد ونزلوا عن الاسوار
 وبلغ الخبير الملك العادل فكاك يستسلم ولكنه تماسك أما الذين دخلوا البلد فانهم وصلوا
 الى باب البريد فلما رأى عسكر العادل الذين كانوا بدمشق قلعة عددهم وانقطاع مددهم
 وثبوا عليهم وأخرجوهم منه وكان الافضل قد نصب خيامه بالميدان الاخضر وقارب
 عسكره الباب الحديد وهو من أبواب القلعة فقدّر الله أنه أشير على الافضل بالانتقال الى
 ميدان الحصن ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصري ثم
 ان الامراء الاكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يعضون لعضب أحدهم ويرضون لرضا
 الآخر فظن الافضل وباقى الاسدية أنهم فعلوا ذلك لقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا
 من موضعهم وتأخروا ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حصن الى الافضل في الخامس
 والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب وعزموا على الزحف الى
 دمشق فنعهم الملك الظاهر مكرًا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الافضل بذلك أما الملك
 العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الامداد الى الافضل عظم عليه الامر فإرسل الى
 المماليك الناصرية ببيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم الى الافضل
 فسير أسد الدين صاحب حصن ومعه جماعة من الامراء الى طريقهم فنعوهم فسلكوا غير
 طريقهم فجاء هؤلاء ودخلوا دمشق فقوى العادل بهم قوة عظيمة وزال عنه ما كان يخشاه
 وأبس الافضل ومن معه من أخذ دمشق وخرج عسكر دمشق فكبسوا العسكر المصري
 فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف
 وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن
 ماردين ونزل عن معه بحوران فاستدعاه اليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل الى دمشق
 ثاني عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق الى ذبل
 جبل الكسوة واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا الى رأس الماء وهو
 موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام وانفقوا على أن يعود كل الى بلده فلما وصل
 الافضل الى مدينة بليس نزل بها أياما فوصلته الاخبار بان عمه الملك العادل قد سار من
 دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوا له على أن يكون ولد الملك العزيز
 هو صاحب البلاد وهو (أي العادل) المدير للملك الى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكر
 الافضل بمصر قد تفرقوا فسار كل منهم الى اقطاعه فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد
 فأعلمه الامر عن ذلك ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة من قرب اقطاعه ووصل العادل في
 عسكر عظيم فأشار بعض الناس على الافضل أن يخرب سور بليس ويقيم بالقاهرة وأشار
 غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بليس ونزل موضعا يقال له السايح

والتقى هو والعاذل سابع ربيع الآخر سنة ست وتسعين واقتتلوا فلنهمزم الافضل ودخل
 القاهرة ليلا واتفق في تلك الليلة موت القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني كاتب
 الانشاء لصالح الدين ووزيره فحضر الافضل للصلاة عليه وسار العادل حتى نزل على القاهرة
 بعسكره وحاصرها وضيق عليها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم
 تخاذلا فارسل الى عمه في طلب الصلح وتسليم البلاد اليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق
 فلم يجبه العادل فنزل عنها الى حوران والرها فلم يجبه أيضا فنزل الى ميفارقين وحالي وجبل
 جوز فأجابه الى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع
 الآخر واجتمع بالعاذل وسار الى صرخد ودخل العادل الى القاهرة في اليوم المذكور
 ولما تبنت قدم الملك العادل بمصر ناقت نفسه الى الاستبداد بالملك فقطع خطبة الملك
 المنصور بن الملك العزيز وخطب لنفسه وصادر طوائف الجند في اقطاعهم واعترضهم في
 أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم وانحرفوا عليه واتفقت على
 ذلك كلمتهم وبينما هو على هذا الحال اذ وردت الاخبار بتأهب الفرنسيس لآخذ مدينة دمياط
 فلم يهتم العادل بذلك فلما كانت سنة خمس عشرة وثمانئة وصلت مراكبهم الى دمياط في
 صفر فارسوا على بر الجزيرة بينهم وبين دمياط النيل وبنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يحول
 بينهم وبين من يقصدهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات وهرسة وأبراجا ينحرفون بها
 في المراكب الى برج عظيم كان بدمياط مشحون بالرجال ليقاتلوه ويملكوه وقد نزل الكامل بن
 الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعسكر متصل من عنده الى دمياط
 ليمنع الفرنسيس من العبور الى أرضها وأدام الفرنسيس قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه
 بشيء قيسل وكسرت مرماهم وآلاتهم ومع ذلك لازموا قتاله وبقوا على ذلك أربعة
 أشهر حتى ظفروا وملكوا البرج وكان منيعا مبنيا في وسط النيل وفيه سلاسل من حديد
 غلاظ ممدودة من النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر الملح أن تصعد في
 النيل الى ديار مصر فلما ملكوا البرج قطعوا تلك السلاسل لتدخل مراكبهم الى النيل
 ويتمكنوا من البر فأمر الكامل فنصبوا عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك
 النيل فقاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا حتى قطعوه فأخذ الكامل عدة مراكب كبار وملاها
 رملا وخرقها وغرقها في النيل فمئعت سفن الفرنسيس من السلوك فلما رأى الفرنسيس ذلك
 قصدوا خليجا هناك يعرف بالخليج الأزرق كان النيل يجري فيه فحرقوا ذلك الخليج وعقوه
 وأجروا الماء فيه الى البحر الملح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بوره على أرض
 الجزيرة مقابل المنزلة التي فيها الكامل ليقاتلوه من هناك فلما صاروا في بورة حازوه وقاتلوه
 في الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا فلما كان شهر جمادى الآخرة من السنة أي سنة
 خمس عشرة وثمانئة وردت الاخبار من القاهرة بموت الملك العادل فقام ولده الكامل من
 المنزلة الى القاهرة جريده اذ بلغه أيضا أن أمراء الأكراد اتفقوا مع الامير عماد الدين أجد

ابن على المشطوب على خلعه وتعليك أخيه الملك الفائز ابن الملك العادل ليصير الحكم لهم
 عليه وعلى البلاد وشاع الخبر بذلك بين الجند فركب كل انسان منهم هواه ونادى فيهم منادى
 الفشل فتركوا خيامهم وذرأهم وأموالهم وسلاحهم ولم يأخذوا منها الا القليل جدا وتركوا
 من الميرة والكرراع ودواب الحمل ما يجبل عن الحصر ولحقوا بالكامل وأصبح الفرنسيين من
 الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل وعلموا بالخبر فعبروا النيل الى دمياط فغضبوا
 ما في عسكر المسلمين فكان شياً عظيماً جدا وانفق أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل
 وصل الى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس في أمر مريب جدا وكان قد أرسل
 اليه يستجده فقوى به قلبه واشتد أزره وثبت جنانه وعاد الى أشمون طنح وسير الى القاهرة
 من أخرج ابن المشطوب الى الشام قهرا فانصل بالملك الاشرف وصار من جنده أما الفرنسيين
 فانهم لما عبروا الى أرض دمياط شرعوا في حصارها والتصديق عليها فاجتهدت العرب على
 اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وطغوا في الطريق وأفسدوا وبالعوا في الانساد
 فكانوا أشد على المسلمين من الافرنج وأحاط الفرنجة يومئذ بدمياط وقائلوها برا وبحرا وألوا
 عليهم خندقا بمنعهم من يريدهم وأداموا القتال واشتد الحال على أهلها شدة بالغة وتعذرت
 عليهم الاقوات وكثر القتل والجرح فيهم ودام الحصار زهاء أربعة شهور فسلموا البلد الى
 الفرنسيين في عشرين من شعبان سنة ست عشرة وثمانية قهرا وخرج منهم قوم وأقام
 آخرون فدخّل الفرنسيين المدينة وأقاموا بها وبثوا سراياهم في كل ما جاورها فجلا أهلها
 عنها وشرعوا في عمارتها وتحصينها وبالعوا في ذلك حتى انها صارت لا ترام الا بعد عناء شديد
 أما الكامل فإنه أقام بالقرب من الفرنسيين في أطراف البلاد لا يأتي عملا وكثر توارد المدد
 للفرنسيين من كل صوب وحذب فعظمت هيبتهم في قلوب المسلمين وعم الخوف منهم
 وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فحرب بيت المقدس في ذي القعدة خوفا من
 وصول الفرنسيين اليه وأخذهم وقد خاف الناس كافة وأشرف الاسلام وأهله وبلاده على
 خطة خسف في مشرق الارض ومغربها وصاروا يتوقعون البلاء في كل يوم وأراد أهل مصر
 الجلاء عن البلاد الى الافطار الحجازية والديار الشامية وغيرها فلم يتمكنوا من ذلك لوقوف
 العربان في الطرق وافسادهم في البلاد وفعلهم بالمسلمين ما لم تفعله الفرنسيين من النهب
 والسلب وهتك الاعراض وسبي النساء والفرنسيين قد أحاطوا بهم من كل جانب وتابع
 الكامل كتيبه الى أخويه المعظم صاحب دمشق والاشرف موسى بن العادل صاحب
 الجزيرة وديار أرمينية يستجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فليرسلا
 العسكر اليه وبقي الامر كذلك مع الفرنسيين الى سنة ثمان عشرة وثمانية ثم وصل
 الملك الاشرف الى مصر وكان الفرنسيين قد ساروا من دمياط وقصدوا الكامل ونزلوا
 مقابله وبينهم ما خليج من النيل وهو بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرح الى عسكر
 المسلمين وقد تيقن الناس جميعا بأنهم يملكون الديار المصرية لا محالة فلما علم الكامل

بوصول أخيه الأشرف لوجه إليه ولقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما أما الملك
المعظم صاحب دمشق فإنه قصد دمياط ظنا أن أخويه وعسكرهم قد نزلوا بها واجتمع
الأشرف بالكامل فاستقر الأمر بينهما على التقدم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة
فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنسيين وازدادوا قريبا وتقدمت شوافي المسلمين من النيل وقاتلوا
شوافي الفرنسيين وترددت الرسائل بين الفريقين في تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون
للفرنسيين بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة مع اللادقية وجميع ما فتحه صلاح
الدين ما عدا الكرك ليسلوا دمياط فلم يقبلوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب
بيت المقدس ليعمره بها فلم يتم بينهم أمر * وبينما هم على هذا الحال من الخلاف عبر طائفة
من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنسيين فقطعوا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض
ولم يبق للفرنسيين جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فنصب الكامل حينئذ سورا على
النيل عند أمهون وعبرت العساكر عليها فلك الطريق التي يسلكها الفرنسيين ان أرادوا
العود إلى دمياط فراسل الفرنسيين عند ذلك الكامل وخابروه في أمر الصلح وتسليم دمياط
بغير عوض وانفق في هذه الأثناء وصول الملك المعظم صاحب دمشق ومعه عسكر جبار
فاستتدت بحضوره ظهور المسلمين وتموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة سابع
رجب سنة ثمان عشرة وستمائة وتسلمت في ناسع رجب المذكور فدخلها المسلمون فلم يجدوا
من أهلها الا القليل فقد كانوا تفرقوا أيدي سبا ورأوها حصينة لما بذله الفرنسيين في
تحصينها

ولما رحلت جيوش الفرنسيين عن دمياط جلس الأفضل للعزاء على موت أبيه الملك
العادل مع طول المدة فإنه مات في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة كما تقدم
القول وجعل إلى دمشق ودفن بالتربة التي أعدها لنفسه بها * قال أصحاب التاريخ وكان العادل
عاقلا ذا رأى شديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما متواضعا وكان عمره خمسا وسبعين
سنة وشهورا وملك دمشق من الأفضل ابن أخيه وملك مصر منه أيضا * ومن أعجب ما روى
في مناقب الطوالع أنه لم يملك الأفضل مملكة الا وأخذها منه عمه العادل المذكور فأول ذلك
أن صلاح الدين أعطى ابنه الأفضل حوران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة
تقي الدين فسار إليها فلما وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ
هذه البلاد منه ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة
أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه ثم تملك صرخد فأخذها منه وهذا من غريب الاتفاق
وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق
والقدس وطبرية والاردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل
بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخراسان وأعمالها لابن عمه الأشرف موسى وأعطى الرها
لولده شهاب الدين غازي وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفي ثبت كل في

الملك التي أعطاه له أبوه وانفقوا اتفاقا حسنا ولم يجرب بينهم من الاختلاف شيء بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه ولا يظن به سوء

وحدث في أيام الملك العادل المسذ كور فناء عظيم بديار مصر أهلك الكثير من الاغنياء والفقراء وحصل عقب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع في جميع البلاد فرحل الكثير من الناس الى دمشق والمشرق والمغرب وكان الفقراء يأكلون لحوم الكلاب والقطط والحوانات فلما نفذت أوكلات صاروا ينبشون القبور وبأكلون جيف الاموات وبلغت بهم الشدة مبلغا عظيما حتى صاروا يخطفون الاطفال في الاسواق من أمهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشورونهم وبأكلوتهم جهارا في الشوارع قال أصحاب الاخبار دخلت امرأة يوما على الملك العادل وهي خائفة ترجف فسألها عن حالها فقالت اني يامولاي قابلة وان قوما استدعوني في هذا الصباح لأولاد امرأة فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لي طعاما كثير اللحم غير أنه لا يشبه اللحم المعهود فأنكرته ولم تقبله نفسي ثم وجدت بنتا صغيرة هناك فاخترت بها وسألتها عن ذلك اللحم فقالت البنت ان فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبي وها هي معلقة اربا في هذه الخزانة فاقشعر جسمي من هذا الخبر وبحثت في الحال الى تلك الخزانة ففتحتها على حين غفلة فوجدتها مملوءة من لحم تلك المرأة فحنت اليك لاعلمك بذلك وهذه قصتي فتعجب الملك العادل من كلامها وأرسل معها من هجم على تلك الدار وأخذ من فيها وهرب صاحبها وبقي محتفيا حتى أصلح أمره مع حاكم البلد بدفع ثلثمائة دينار فدية عن نفسه وكان الذين اعتادوا منهم على أكل لحم بني آدم يصيدون الناس باصناف الحيل والمخادعة فكانوا يستجلبونهم الى بيوتهم بأنواع الملاعب فيسذبونهم وبأكلونهم فوقع مرة في أسرهم ثلاثة أطباء أحدهم خرج معهم ولم يرجع والثاني أعطته امرأة درهمين على أن يذهب معها الى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت به في الازقة ومضائق الطرق فكر في نفسه وعلم الحيلة نخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشمها فتركنه وهربت وأما الثالث فان رجلا استدعاه الى زيارة مريض وأطعمه في الاجرة فذهب معه وما زال يسير به من مكان الى مكان حتى أدخله دارا خربة فارتاب الطبيب منه وتوقف في وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج اليه رفيقه وهو يقول له ما هذه العاقبة هل حصلت على صيد ينفع نخاف الطبيب عند سماعه هذا الكلام وخفق قلبه وأيقن بالهلاك وكان في حائط ذلك الدرج سبلك صغير يشرف على اصطبل فالتى نفسه من ذلك السبلك فجاء في وسط الاصطبل فقام اليه صاحب الاصطبل وقال له من أنت ومن تكون نخاف خوفا عظيما وكنتم أمره عنه خوفا منه أيضا فقال له الرجل صاحب الاصطبل لا بأس عليك قد علمت ما حالك ولا يخفك أن أهل هذا البيت يذبحون الناس بالاحتيايل والمخاداع والحسد لله على سلامتكم ثم أخرجه من ذلك المكان وسار معه حتى أوصله السوق قال الراوى ولولا هذا التصادف والاتفاق

لهلك الطبيب وانقطع خبره وكانت مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة
كلها احسن ومحسن

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين وستمائة مات الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد
ابن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله مات في آخر ليلة من رمضان فكانت
خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وعثمانية وعشرين يوما وكان عمره سبعين سنة تقريبا
فلم يزل الخلافة أطول مدة منه الا ما قبل عن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر فانه ولي
سنتين سنة * وكان الخليفة الناصر قد بقي ثلاث سنين عابلا عن الحركة وقد ذهبت
احدى عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا ثم أصابه في آخر أيامه اسهال شديد استمر
عشرين يوما مات بسببه * قال أصحاب التاريخ ولم يطلق في طول مرضه شيئا مما كان
أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبج السيرة في رعيته ظالما تغرب بلاد العراق وتفرق أهله
في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشيء وضده فن ذلك أنه عمل دور الضيافة
في بغداد ليفطر الناس عليها في رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة
للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التي جردها في بغداد خاصة ثم أعادها
وقصره على رعي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فأبطل الفتوة في البلاد
جميعها الا من يلبس سراويل يدعى اليه ويلبس كثير من الملوك منه سراويل الفتوة وكذلك
منع الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمي بالبندق الا من ينتمى اليه
فأجاب الناس بالعراق وغيره الى ذلك * قلت فاذا كان هذا غرام الخليفة أيام خلافته كان
من أعجب الامور بل من أكبر المعاييب وكان ما ينسبه العجم اليه من أنه هو الذي أطمع
التر في البلاد وراسلهم في ذلك صحيفا فهو اذا الطامة الكبرى على هامة الخلافة والداهية
الدهياء التي يصغر عندها كل ذنب عظيم

ومات في أيامه مكاربوس بطرك الاسكندرية وكان يعرف بمكاربوس الثاني وكان تقديمه بدير
أبومقار وكل بالاسكندرية ثم عاد الى مصر وأقام بها أياما ثم عاد الى دير أبومقار ثانية ففقد
به ثم جاء الى مصر ففقد في كنيسة المعلقة وأقام ستا وعشرين سنة وأحدا وأربعين يوما ومات
نقلت مصر من بطرك للتأصلين سنتين وشهرين وفي أيامه حصلت زلزلة عظيمة بالقاهرة هدمت فيها
كنيسة المختار بالروضة قال بعض أهل التاريخ والصحيح أن الذي هدمها هو الافضل فانها كانت
في بستانه وكان كثير الضجر من وجودها في بستانه فلما مات أقيم بعده غيريال المكني بابي العلاء
صاعد بن شريك الشماس بكنيسة مرقوريوس بالمعلقة وهو السبعون من بطاركة الاسكندرية
وأصله من بكار الكتاب بمصر وكل بالاسكندرية وقدس بالديارات بوادي هيب وأقام أربع
عشرة سنة ومات فخلا الكرسي بعده ثمانية أشهر ثم قدم بعده مخائيل بن التقادوسى الراهب
بقلاية الدمشيرية وهو حادى سبعين وأصله راهب من دير أبى مقار فأقام سنة وسبعين يوما
ومات ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس المكني بابى الفتح

بالمعلقة وكل بالاسكندرية وهو ثاني سبعهم وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الخامس والثلاثون)

(في خلافة الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله)

ثم قام بالامر بعد الخليفة الناصر ابنه محمد الظاهر بأمر الله ببيع له بالخلافة يوم موت أبيه في الاول من شوال سنة اثنيتين وعشرين وثمانية هجرية أي نحو سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ميلادية ولم يكن أبوه الملك الناصر يحبه فإنه بعد أن خطب له بولاية العهد على منابر العراق وغيرها من البلاد عاد نخلعه وأرسل الى الآفاق بقطع الخطبة له * قال أصحاب التاريخ وإنما فعل ذلك لأنه كان يميل الى ولده الاصغر علي فاتفق أنه مات سنة اثنى عشرة وثمانية ولم يكن للخليفة ولد خلاف ولي العهد المذكور فاضطر الى اعادته الا أنه كان تحت الاحتياط والحجر عليه لا يتصرف في شيء ما فلما مات أبوه ولي الخلافة وأحضر الناس لاخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله يعني بذلك أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الامر عنه فظهر وولي الخلافة بأمر الله لا بسعي أحد * فلما وليها أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنة العرين وأعاد الاموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله وكانت شياً كثيراً جداً وأطلق المكوس في البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق وأن يسقط جميع ما جددته أمير الخراج بأمر أبيه وكان شياً كثيراً وتقدم الى القاضي في أن كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً يملك يعيده اليه من غير اذنه وأقام رجلاً صالحاً في ولاية الحشرى وبيت المال وكان هذا الذي أقامه حنبلياً فقال انني من مذهبي أورث ذوى الارحام فان أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت والا فلا فقال له أعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تمتق سواء * وكانت العادة ببغداد أن الحارس بكل درب ييكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع بعض الاصديقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كل صغيرة وكبيرة فكان الناس من هذا في حجر عظيم فلما ولي الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم فلا يكتب أحد الينا الا ما يتعلق بصالح دولتنا فقبل له ان العلامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله أن يصلح أحوالهم * ومحاسن أعماله كثيرة جداً منها انه أخرج بوقيعاً الى الوزير بحظه ليقراً على أرباب الدولة فلما وصل الرسول قال أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برزمرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أتتم الى امام فعال أحوج منه الى امام قوال فقرؤه فاذا في أوله بعد البسمة * اعلموا

أنه ليس امهالنا اهمالا ولا اغضاؤنا اغفالا ولكن لبناؤكم أياكم أحسن عملا وقد عفونا
لكم ماسلف من تخريب البلاد وتشريد الرعية وتقيج الشريعة واطهار الباطل الخسلي في
صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسميه الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كالاعراض
انتهزتم فرصها مختلسة من براثن لئث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بالفاظ مختلفة على
معنى وأنتم أمناءه وثقاته فتستميلون رأيه الى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم
وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والا أن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا
وبفقركم غنى ويباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الا من اصر ولا ينتقم
الا من استمر بأمركم بالعدل وهو يريد منكم وبينها كم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله
تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء
الله في أرضه وأمنائه على خلقه والا هلكتم والسلام ﷺ وكانت أيامه قصيرة اذ مات في الرابع
عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر
يوما * قال صاحب الكامل وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل
والاحسان الى رعيته ولما مات وجدوا في بيت في داره ألوف رقايع كلها محتومة لم يقصها
فقيس له ليقصها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعيات ولقصر مدة خلافته لم يقع فيها من
الحوادث شيء يذكر وعمل له العزاء في البلاد كلها لاحسانه وفضله على الرعية وولى الخلافة
بعده ابنه أبو جعفر المنصور

(الفصل السادس والثلاثون)

(في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بالله)

ثم قام بالامر بعد الظاهر بأمر الله ابنه الاكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله
بويبع له بالخلافة يوم وفاة أبيه في الرابع عشر من رجب سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة هجرية
أى سنة ست وعشرين ومائتين وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة سلك في الخير
والاحسان الى الناس سيرة أبيه وأمر فنودي ببغداد بأفاضة العدل وأن من كان له حاجة
أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أنت على خلافته
أراد أن يصلي الجمعة في المقصورة التي كان يصلي فيها الخلفاء قيل له ان المطبق الذي يسلك
فيه اليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار الى الجامع وهو جامع القصر ظاهرا يراه
الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين من حرير ولم يترك أحدا يمشي معه من أصحابه
للصلاة بالموضع الذي كان يصلي فيه وسار هو ومعه خادمان وركابا لغير فصلي وعاد

وكذلك

وكذلك الجمعة الثانية حتى أصح له المطبق * واهتم بمصالح الرعيمة وحاجات الخلق فسدبر الامور وأحسن السياسة وكان محبا للرعيمة ميالا للعدل كثير الحلم كثير العفو ولكنه كان قليل الحظ اذ تحرك الفرنجة في أيامه ولم يتكفوا عن شن الغارات على بلاد الاسلام في البر والبحر وكانوا يبالغون جدا في قتل المسلمين فهاله أمرهم وأزعجه وخشى العقابته وسير الى الملك الكامل صاحب مصر يستجده فتجهز الملك الكامل وجمع عسكرا جرارا وسار به الى الشام في شوال سنة خمس وعشرين وثمانمائة وفي نيته التغلب عليها وأخذها فوصل الى بيت المقدس ثم سار عنه الى مدينة نابلس وأغار على تلك البلاد وكانت من أعمال دمشق وهي تابعة للملك المعظم فلما علم الملك المعظم بذلك خاف أن يقصده أيضا وبأخذ دمشق منه فأرسل الى عمه الملك الأشرف يخبره بحاله ويستجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدا فدخل دمشق فلما سمع الملك الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد كان منيعا وقد صار به من يتنعه ويحميه وأرسل اليه الملك الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء الى دمشق الاطاعة له وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنجة عن بلاد المسلمين فأعاد الكامل الجواب يقول وأنا ما جئت لهذه البلاد الا بسبب الفرنجة فانه لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الحسن على مدى الاعصار وعمر الايام فان أخذته الفرنجة حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدونه ما يناقض ذلك الذكر الجليل الذي ذكره عمنا وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم انهم ما يفتنون حينئذ بما أخذوه ويتعدونه الى غيره وحيث قد حضرت أنت فانا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني اني قاتلت أخي أو حاصرته حاشا لله تعالى ❦ وتأخر عن نابلس يريد الديار المصرية ونزل تل العجول نخاف الأشرف ومن بالشام فاطبة وعلموا أنه ان عاد استولى الفرنجة على البيت المقدس وغيره مما يجاوره ولا يمنعونه فترددت الرسل وسار الأشرف بنفسه الى الكامل أخيه فحضر عنده في ليلة عيد الأضحي ومنعه من العود الى مصر فلبثا بمكانهما وقد تم ما كان يتموقعه الملك الكامل من عودة الفرنجة فانهم وصلوا في عدد كثير ونزلوا على السواحل الشامية وأخذوا يفسدون فيما يجاورهم من البلاد الداخلة تحت حكم الاسلام * قال بعض كتاب الاخبار ومضى اليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم على المسلمين واتفق موت الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق فقوى طمع الفرنجة بموته فساروا الى عكا ونزلوا بها وربوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للقتال فلما رأى الملك الكامل هو وأخوه الملك الأشرف ما فعله الفرنجة خافا وبعثا بالرسل الى ملك الفرنجة دفعات كثيرة وتخابرا معه في الصلح وطال الامر بين الفريقين ثم استقرت القاعدة على أن يسلموا للفرنجة بيت المقدس ومعه عدة بلاد أخرى من ملحقاته

ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين فتسلمه الفرنجة
ورموا سوره وحصنوه تحصينا عظيما وذلك سنة ست وعشرين وثمانية هجرية * ولما
كانت سنة خمس وثلاثين وثمانية جاءت الاخبار الى الملك الكامل صاحب مصر بموت أخيه
الملك الاشرف فسار من مصر الى الشام يريد دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك
وهو لا يشك في أن الملك الكامل يسلم اليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما وكان بدمشق الملك
الصلاح اسمعيل فاستعدت للحصار وأرسل اليه صاحب حصص نجدة فنازل الملك الكامل دمشق
وما زال يقا تلها حتى ظفر وأخرج منها الملك الصالح اسمعيل وعرضه عنها بعبك وما حولها
مضافا الى بصرى وكان قد ورد من قبل الخليفة المستنصر محيي الدين يوسف ابن الشيخ
جمال الدين بن الجوزي رسولا للتوفيق بين الكامل ومن معه فسلم الملك الكامل دمشق
لاحدى عشرة بقيت من جمادى الاولى واشتد حنق الملك الكامل على شيركوه صاحب
حصص لمعاونته للصلاح اسمعيل فأمر العسكر فبرزوا بقصد حصص وأرسل أيضا الى صاحب
حماة وأمره بالمسير الى حصص فاشتد خوف شيركوه وتخضع للملك الكامل وأرسل اليه نساءه
فدخلن على الملك الكامل فلم يلتفت اليهن وصمم على الانتقام ولكنه لم يتم له قصده اذ
اخترمته المنية حنق أنفه بدمشق وكان سبب موته أنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام
فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة الى صدره وبورمت معدته
واشتدت به الحمى فنهاه اطباء عن القيء وخزفوه منه فلم يقبل وتقابا ثبات لوقته وعمره نحو
ستين سنة * قال أصحاب التاريخ وكان بين موته وموت أخيه الاشرف نحو ستة أشهر
وكانت وفاته لتسع بقين من رجب سنة خمس وثلاثين وثمانية فكانت مدة ملكه على مصر
من حين مات أبوه عشرين سنة وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة فخكم في
مصر نائبا وملكها زهاء أربعين سنة * وكان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت
الطرق في أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صني
الدين بن شكر فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده وكان يخرج بنفسه فينظر في
أموار الجسور عند زيادة النيل واصلاحها فعمرت في أيامه البلاد وزاد خصبها وكثرت غلاتها
ودرت أرزاقها فأحببه الرعية ومالت اليه القلوب المتباعدة عن محبة أهل هذا البيت
الصلاحى وانفق الامراء الذين كانوا معه بدمشق على تخليف العساكر والاجناد لولاه الملك
العاقل أبي بكر وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فخلف له جميع العساكر وأقاموا في دمشق
الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب نائبا عن أبي بكر بن الكامل
وتقدمت الامراء الى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وتهددوه ان هو تأخر فرحل
الى الكرك وتفرقت العساكر فسار أكثرهم الى مصر وتأخر مع الجواد يونس بعضهم
ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ * ولما بلغ شيركوه صاحب حصص خبر موت الملك الكامل
صاحب مصر فرح فرحا عظيما وحصل على ما كان يطمع نفسه فيه وأظهر سرورا ما عليه

من مزيد ولعب بالكرة على خلاف العادة وهو في عشر السبعين وأرسل عسكريا فاسترجع
سبية من نواب الملك المظفر وتغلب عليها وقطع القناة الموصلة منها الى حماة فبيست بسايتها
وعزم على قطع النهر العاصي عن حماة أيضا فسد مخرجه من بحيرة قدس التي بظاهر حصص
وتجهز وركب متن هواء غير حاسب لما وراء ذلك حسابا * وكانت أعمال الكامل كلها خيرا
واصلحا قال الحافظ عبد العظيم المنذرى أنشأ الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة وعمر القبة
على ضريح الشافعي وأجرى الماء من بركة الحبش الى حوض السبيل والساقية التي على
باب القبة المذكورة وأوقف غير ذلك من الوقوف على أنواع البر وله المواقف المشهورة بدمياط
مع الفرنجة اه وقال ابن خلكان واتسعت المملكة للملك الكامل حتى قال خطيب مكة
مرة عند الدعاء له * سلطان مكة وعبيدها * واليمن وزبيدها * ومصر وصعيدتها
والشام وصناديدها * والجزيرة ووليدتها * سلطان القبلتين * ورب العلامتين * وخدام
الحرمين الشريفيين * الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين اه

ووردت الاخبار الى الملك الاكبر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وهو صاحب حصن
كيفا بولاية أخيه العادل أبي بكر واتفاق كلمة الامراء والقواد على البيعة له فأهمه
ذلك وأقلقه وجعل يراقب الفرص الى أن علم بمجز أخيه عن القيام بأعباء الملك واختلال
أمور المملكة فتمرد للقتال وسار في عسكر عظيم يريد مصر ليأخذها من العادل
ويتغلب عليها فبرز العادل الى بليس يريد قتال الملك الصالح فلم يكدي يصل اليها حتى
اختلفت عليه الامور ونخرج عليه الجند وشقوا عصا الطاعة فقبضوا عليه واعتقلوه وأرسلوا
الى الصالح أيوب فوصل اليهم في قلة فملكوه وبايعوا له وذلك في صفر سنة سبع وثلاثين
وسمائه وسيروا الخبر بذلك الى الآفاق وأقام الصالح في الملك وقد دانت له الامور وثبتت قدماء
فأحسن السياسة والتدبير فكانت مدة ملك العادل سنتين غير كاملتين واتسعت كلمة الملك
الصالح ونصرف في الامور وقبض على سائر الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع أخيه
ثم أمر بهم فقتلوا جميعا وخلع الملك الجواد بونس ومنعه من دخول مصر وتوعدته بانقتل
ان هو عاد اليها فسار الجواد الى جماعة الفرنجة في عسكا وجب اليهم قتال الصالح
واستخلاص البلاد منه ففرحوا به وأحسنوا وفادته وسيروه الى صاحب دمشق في طلب
التعاقد على ما فيه المصلحة لهم جميعا فتم لهم الاتفاق مع صاحب دمشق والملك المنصور
ابراهيم صاحب حصص وتحالفوا على أن تسيروا جماعة الفرنجة الى مصر لقتال الصالح ونزع
البلاد منه وأن يكون لهم في مقابل ذلك أورشليم وطبرية وعسقلان والشقيف والصعيد
وبادر الفرنجة من حيثئذ فلكوا تلك الاماكن وأخذوا في ترميم حصون عسقلان
وطبرية وجعلوا يعدون المعدات ويتأهبون للزحف على ديار مصر ووردت الاخبار بذلك
الى الملك الصالح فأقلقته وكان لما تمكن جنكيزخان من شرق آسية ودانت له الامور
فيها ولم يطعه الخوارزميون كبر عليه هذا الامر وأعظمه وطردهم من آسية فجاءوا شرق

الشامات ونزلوا هناك في طلب الرزق وقد علم الملك الصالح صاحب مصر بمقدمهم ذلك
فأنفذ اليهم رسلا في التحالف على قتال الفرنجة ومن تعاهد معهم على قتاله فأجابوه الى
ذلك وأسرعوا في الزحف الى أن بلغوا غزوة حاربوا الفرنجة عند أسوارها ووصلت اليهم
النجدة من الملك الصالح فانهزمت الفرنجة فقبعهم الخوارزميون وعسكر مصر حتى أخذوا منهم
غزوة بيت المقدس واشتدت عزيمته الملك الصالح بما ناله من الغلبة على الفرنجة فسار في
جيش عظيم الى دمشق يريد أخذها فحاصرها وألح في قتالها حتى أخضعها لسلطانها وخرج
الى حصن وحاصرها فلم يزل منها مأربا وعهد الى التقرب من الخليفة المستنصر بالله العباسي
ليعظم بذلك أمره وتعلو كلمته وتنضم اليه القلوب المتباعدة عنه فأرسل اليه هدية نفيسة فلم
يكذب يصل رسوله بالهدية حتى جاء الخبر بموت الخليفة مات بكرة يوم الجمعة العاشر من جمادى
الآخرة سنة أربعين وثمانمائة هجرية فكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة الا شهرا * قال
أصحاب التاريخ وكان حسن السيرة عادلا في الرعية وهو الذي بنى المدرسة في بغداد المسماة
المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة فلما مات اتفق أرباب
الدولة على تقليد الخلافة لولده عبد الله ولقبوه المستعصم وهو سابع ثلاثي الخلفاء العباسيين
وآخرهم وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور

ومات في أيام الخليفة المستنصر بالله بوحناء بطرقة الاسكندرية بعد أن أقام تسع عشرة
سنة وكان اسمه أولا يونس أبو القحح من دير أبي حنيس وكانت أيامه كلها شديدا واحنا
وبلايا ومحننا تكاد أن لا تدخل تحت الحصر وقد أضربنا عن إيرادها هنا وخلا الكرسي
بعد موته ثلاثة وأربعين يوما ثم أقاموا بعده حرقس بن زرعة المكنى بأبي الفرج ثالث
سبعهم وهو سرياني المحتد ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في حينه

(الفصل السابع والثلاثون)

(في خلافة المعتصم بالله بن المستنصر بالله)

ثم قام بعد المستنصر بالله ولده المعتصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر
ابن الظاهر محمد بن الناصر العباسي وهو آخر الخلفاء العراقيين يوبع له بالخلافة في جمادى
الاولى سنة أربعين وثمانمائة هجرية أي سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ميلادية فلم تستقر
به الخلافة حتى أساء التدبير وانهمك على اللعب بالحمام وغير ذلك مما لا يليق بالخلافة
قال أصحاب الاخبار وكان قليل الرأي ضعيف العزيمة لا حزم له ولا حرمة ولا هيبة فلما جات

البشار الى الملك الصالح بخلافته أرسل اليه يطلب منه تقليدا بمصر والشام بجاهه التشريف
والطوق الذهب والمركوب فلبس التشريف الاسود والعمامة والحبية وركب الفرس في موكب
حافل للغاية وأول لاهراء الدولة وكبار الجند وليمة فاخرة ولم تتم أفراحه هذه حتى ورد عليه
كتاب الملك لويز ملك الفرنسيين يقول * أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الامة العيسوية
كأنه لا يخفى على أنك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الاندلس وما
يحملونه اليها من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال والنساء
ونستأمر البنات والصبيان ونختلي منهم الديار وأنا أرسلت لك مافية الكفاية وبذلت لك
النصح الى النهاية فلوحظت لي بكل الايمان وأدخلت على القسس والرهبان وحجت قدامي
الشمع طاعة للصليبان لكنك راحلا اليك وقائلك في أعز البقاع عليك فاما أن تكون البلاد
لي هدية حصلت في يدي واما أن تكون البلاد لك والغلبة على فيدك العليا تمتدة الى
وقد عرفتك وحذرتك من عساكر في ساحتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم
مرسلون اليك بأسيايف القضا * فلما وقف الصالح على ما في الكتاب بكى واسترجع وقال
للقاضي بهاء الدين زهيرا كتب الجواب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا
محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين * أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهمد فيه بكثرة
جيوشك وعدد أبطالك فمن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الاجتدناه ولا بغى علينا باغ
الادمرناه ولورأت عينك أيها المغرور حسد سيوفنا وعظم حروبنا وفحصنا منكم الحصون
والسواحل وتخربينا ديار الاواخر منكم والاوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا
بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك فهناك تسمى الظنون وسيعلم الذين ظلموا
أى منقلب يتقلبون فاذا قرأت كتابي هذا تكون فيه على أول سورة النحل أنى أمر الله
فلا تستجلبوه وتكون فيه على آخر سورة ص وتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله
تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين
وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقبلبك والسلام
وجاهته الاخبار بوصول المراكب الفرنسية مشحونة بالعساكر والاجناد وهذه غزوتهم
السابعة الصليبية فأهمه أمرهم وخرج من القاهرة الى المنصورة ونزل بها وشحن مدينة دمياط
بالآلات العظيمة والذخائر الوافرة وجعل فيها بنى كنانة وهم موصوفون بالبسالة والاقدام
وأرسل نحر الدين ابن الشيخ في طائفة عظيمة من الجند ليكونوا قبالة الفرنسيين اذا نزلوا من
مراكبهم فتقدم الفرنسيين نحو البر ونزلوا من المراكب وهجموا على المدينة يريدون أخذها
وذلك في أوائل سنة سبع وأربعين وكان مقدم الفرنسيين في هذه الحملة الملك لويز التاسع
ملك الفرنسيين يخاف نحر الدين ابن الشيخ وهاله ككثرة جيوش الفرنسيين فعبر من البر
الغربي الى البر الشرقي في جماعة من المسلمين ووصل الملك لويز بعسكره الى البر الغربي لتسع
بقيين من صفر من السنة فلما جرى ذلك هرب أيضا بنو كنانة وأهل دمياط كافة وأخيلوها

وتركها مفتحة الابواب فلكها الفرنسيين بغير قتال واستولوا على ما بها من الذخائر والسلاح
فعظم الامر جدا على الملك الصالح وأمر بالقبض على من يوجد من بني كنانة وصلبه فقبضوا
عليهم وصلبوا عن آخرهم وكان الملك الصالح وهو مقيم بالمنصورة يقاسى ألم المرض وهو
السل والقرحة التي كانت به فلم يقدر على الخروج للقاء عساكر الفرنسيين واشتدت به علقته
شدة بالغة وكان كلما سمع بظفر الفرنسيين فلق واضطرب فلما كانت ليلة الاحد لأربع
عشرة ليلة مضت من شعبان من السنة أى سنة سبع وأربعين وستائة مات فكانت مدة
تلكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربع وأربعين
سنة وقيل أربعين وكان مهيبا على الهمة عفيفا طاهر اللسان وقد جمع من المماليك التركة
مالم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر أمراء عسكره من مماليكه ورتب جماعة منهم
حول دهليزه وسماههم (البحرية) فكان من أمرهم ما سئلتى عليك في محله * وكان شديد البأس
لا يجسر أن يخاطبه أحد الا بحجبا ولا يتكلم أحد بمحضرتة ابتداء وكانت القصص تضعها
بين يديه الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للوقعين وكان لا يستقل أحد من أهل دولته
بأمر من الامور الا بعد مشاورته وكان يحب العمارة والبناء فبنى قلعة الجزيرة التي هي الروضة
واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها وسماههم البحرية وبنى بالقاهرة المدارس الاربع بن
القصرين وبنى الصالحية وهي بلدة بالشام وبنى له فيها قصورا للصيد وبنى قصرا عظيما
بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش وكان له ثلاثة اولاد أحدهم فتح الدين عمر مات في
حلب الصالح اسماعيل وكان قد مات ولده الآخر قبله ولم يبق له غير المعظم تورانشاه بحصن
كيفا ومات الملك الصالح المدكور ولم يوص بالملك لاحد وكانت له جارية اسمها شجرة الدر
فلما مات أخفت خبر موته وبقيت تعلم بعلامته ثم أحضرت نحر الدين ابن الشيخ والطوائى
بجمال الدين محسنا وهما من كبار الامراء وعرفتهما بموت السلطان فكنتموا ذلك
نحوا من الفرنسيين وانفقوا على أن شجرة الدر تجتمع الامراء كافة وتقول
لهم ان السلطان يأمركم أن تحلفوا له أولا ثم لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا
من بعده والامير نحر الدين بن الشيخ بانابكية العسكر فاجتمع الامراء وحلفوا وكتب الى حسام
الدين بن أبي علي وهو يومئذ النائب بمصر بمثل ذلك حلف وحلفت العساكر والاجناد
وجميع الكبراء بمصر والقاهرة على ذلك أيضا في العشر الاواسط من شعبان من السنة
فكانت تخرج الكتب وغيرها وعليها علامة الملك الصالح وكان الذي يكتبها خادم صغير يقال
له السهيلي فلا يشك أحد في أنها بخط السلطان * وأرسل نحر الدين ابن الشيخ قاصدا
لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا فلما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن
كان أرباب الدولة لا يجسرون أن يتفوهوا بذلك وبلغ الخبر الملك لويز ملك الفرنسيين وهو
بدمياط فسار في طائفة عظيمة من جنوده في مستهل رمضان يريد المنصورة فلما صار على مقربة
منها لاقته عساكر المسلمين فاقتتلوا قتالا عظيما جدا مات فيه جماعة من كبار المسلمين ونزل

الفرنسيس بجزر مساح ثم اقتربوا من معسكر المسلمين وكبسوهم على المنصورة بكرة الثلاثاء
لخم خلون من ذى القعدة وكان نحر الدين يوسف بن الشيخ صدر الدين بن جوهر مقدم
العساكر الاسلامية في الحمام بالمنصورة فركب مسرعا فصادفه جماعة من عسكر الفرنسيس
فقتلوه حمل المسلمون والاتراك البحرية على الفرنسيس حتى ردهم بعد قتال عنيف للغاية
أما الملك المعظم تورانشاه فإنه لما وصل اليه القاصد قام من يومه من حصن كيفا ووصل
الى دمشق وعيد بها عيد الفطر ووصل الى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة
سنة سبع وأربعين وثمانئة فلم يستقر به المقام حتى شدد الفرنسيس في القتال وقامت الحرب
بين الفريقين برا وبحرا وجلت مراكب المسلمين على مراكب الفرنسيس فأخذت منهم عدة
كثيرة واشتد الامر على الفرنسيس وقتل عندهم الاقوات وصعب لذلك عليهم المقام قبالة
المسلمين فرحلوا ليلة الاربعاء لثلاث بقين من المحرم افتتح سنة ثمان وأربعين يريدون مدينة
دمياط فاقتنى المسلمون أثرهم فأنجاز الملك لويز بن مع من السلوك والامراء الى بلد هناك
وطلبوا الامان فأمهم الطواشي محسن الصالحى ثم غدر بهم وأحضرهم أسرى الى المنصورة
فقيد الملك لويز وجعله في دار كان ينزلها كاتب الانشاء نحر الدين بن لقمان * قلت وآثارها باقية
الى هذا اليوم وقد تهدم أكثرها * ووكل به الطواشي صبيح المعظمى ففرح المسلمون بذلك
فسرحا لا يوصف وسار الملك المعظم من المنصورة الى فارسكور ونزل بها ونصب بها برجا من
خشب وقرب اليه أصحابه الذين جاؤا معه من حصن كيفا واعتمد عليهم وسلم اليهم مقاليد
الامور * قال كتاب الاخبار وكان أولئك الناس من الارائل * واطرح جانب أمراء أبيه
وماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه فانفقوا جميعا على قتله وتحالفوا
على ذلك فلم يشعر الا وقد هجموا عليه بالسيوف ومقدمهم ركن الدين بيبرس وضربه بالسيف
فهرب الملك المعظم الى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور فاطلقوا في البرج النار فخرج
المعظم منه هاربا طالبا البحر ليركب في حرقته فخالوا بينه وبين الحرقاة بالنشاب فطرح
نفسه في البحر فأدركوه وأجهزوا عليه في نهار الاثنين المذكور فكانت مدة اقامته في الملك
من حين وصوله شهرين وأياما * ولما جرى ذلك اجتمع الامراء وانفقوا على أن يقيموا شجرة
الدرزوجة الملك الصالح في المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف
بالتركانى أتائبك العسكر وحلقوا على ذلك وخطبوا لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة
باسمها * قال أصحاب الاخبار فكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة
الملك المنصور خليل وكانت شجرة الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا وكان اسمه
خليلاً فسميت والدة خليل وكانت علامتها على التوقيع والدة خليل

ولما استقر لها الملك وقع الحديث مع لويز ملك الفرنسيس في تسليم مدينة دمياط
بالافراج عنه فتقدم لويز الى من بها من نوابه في تسليمها فسلموها وأصعد عليها السلطان يوم
الجمعة ثلاث مضي من صفر سنة ثمان وأربعين وثمانئة وأطلق ملك الفرنسيس فركب في

البحر مع جنوده نهار السبت وأقلعوا الى عكا ثم عادت العساكر ودخلت القاهرة يوم الخميس
 تاسع صفر وأرسل المصريون رسولا الى الامراء الذين بدمشق في موافقتهم على ما فعلوه من
 تولية شجرة الدر قلم يوجبوا اليه وطال الامر بينهم أياما ثم عادوا فانفقوا على جعل عز الدين
 أيبك الجاشنكير في السلطنة لانهم رأوا أنه اذا استقر أمر المملكة لامرأة على ما هو عليه
 الحال تفسد الامور فولوا أيبك وأركبوه بالصناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم
 السبت آخر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ولقبوه بالملك المعز * وكان لصالح الدين
 يوسف بن الملك الكامل ولد اسمه الاشرف موسى وله من العمر ثمان سنين فلكوه مع عز
 الدين أيبك فخطب لهما معا وضربت السكة باسمهما وسموا الاشرف المذكور السلطان
 وأبطلوا السكة والخطبة التي كانت باسم شجرة الدر فكانت مسدة ملكها ثلاثة أشهر * قال
 بعض كتاب الاخبار ان شجرة الدر هي التي خلعت نفسها من تحت المملكة وتزوجت بالامير
 أيبك المذكور وهو أول ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية * فلما استقرت به السلطنة
 وتصرف في الامور شجعت أفوف الاتراك أبناء جنسه وعظم من يومئذ شأنهم ومدوا أيديهم
 الى العامة واستوزر الاسعد الفارزي فكان بثس الرجل أكثر من احداث المغارم والمكوس
 فأبغضه الناس وكبر بغضهم لاييبك فكان أهل مصر والقاهرة يحقرونه ويسمعونه ما يكره
 اذا ركب ويقولون لا يزيد الا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة لاعبدا رقا وانحرفت خواطر
 الجند عليه فجعل يسارهم ويسترضيهم بالعطايا الجزيلة وما زال حتى دانت له بعد ذلك
 الامور واستتب كتفه وبسط يده على جميع المملكة فرسم يهدم سور مدينة دمياط تخلصا
 من غارات الفرنسيين فهدموه في العشر الاخير من شعبان وبنوا مدينة بالقرب من
 دمياط في البر وسموها المنشية وكانت الاسوار التي هدموها من عمارة المتوكل الخليفة
 العباسي وكبر أمر ولاية الامير أيبك على الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق
 وأعظمه جدا فخرج الملك من بيت أبيه الى الموالي والعبيد فتركه يريد أخذ ملك مصر
 من يد أيبك المذكور استصغارا له واستخفافا بقدره فسار من دمشق وصحبته من ملوك أهل
 بيته الصالح اسماعيل بن العادل بن أيوب والاشرف موسى صاحب حصن والمعظم تورانشاه
 ابن السلطان صلاح الدين وأخو المعظم نصر الدين والامجد حسن والظاهر شادى ابنا الناصر
 داود بن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب وتقي الدين بن عباس بن الملك العادل بن أيوب
 في جيش عظيم للغاية ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الارمني واليه تدبير المملكة وكان
 خروجهم من دمشق في يوم الاحد منتصف رمضان من السنة فلما بلغ المصريين خبر
 قدومهم هالهم أمرهم واهتموا لقتالهم ودفعهم وبرزوا الى السائح وتركوا الاشرف المسمى
 بالسلطان بقلعة المقطم وخرج أيبك حينئذ على ولدي الصالح اسماعيل وهما المنصور ابراهيم
 والملك السعيد عبد الملك وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك وقطع
 عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أيهما الصالح اسماعيل ويتخوف منه ثم

التقى العسكران بالقرب من العباسية بأقليم الشرقية في الخامس عشر من ذي القعدة فكانت الغلبة أولا على جنود مصر فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك في جماعة قليلة من البحرية فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر الى المعز أيبك فلما انكسر المصريون وتبعهم العسكر الشامي ولم يشكوا في النصر والغلبة بقي الملك الناصر تحت الصناجق السلطانية مع جماعة بسيرة من المتعمين لا يتحركون من موضعهم فحمل المعز أيبك بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام ثم حل أيبك لطاب شمس الدين لؤلؤ فهزمهم وأخذ شمس الدين أسيرا فضرب عنقه بين يديه وكذلك أسر الامير ضياء الدين بن أيوب القهري فحز رأسه وأسرى يومئذ الملك الصالح اسماعيل والاشرف صاحب حصص والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب وأخوه نصرة الدين ووصل عسكر الملك الناصر في أثر المنهزمين الى العباسية وضربوا بها دهليز الملك الناصر وهم لا يشكون أن الهزيمة تمت على المصريين فلما جاءهم الخبر بفرار الملك الناصر اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم فنهزم من أشار بالدخول الى القاهرة وتلكها * قال بعض كتاب الاخبار ولو فعلوه لما بقي مع المعز أيبك من يقاتلهم به وكان هرب منهم لترفع المنهزمين الى الصعيد الاعلى * ومنهم من أشار بالرجوع الى الشام وكان معهم تاج الملوك بن المعظم وهو مجروح بجراح ليست خفيفة * ودخل المنهزمون من المصريين الى القاهرة من غد الواقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر والقاهرة في غلبة الملك الناصر وملكه ديار مصر فخطب له الخطيب في الجمعة المذكورة بقلعة الجبل وبصر وأما القاهرة فلم يبق فيها في ذلك النهار خطبة لاحد ثم وردت اليهم البشرى بانتصار المماليك البحرية ودخل المعز أيبك والبحرية الى القاهرة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة ومعه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين فحبسوا بقلعة الجبل وفي ثالث يوم دخوله أمر باخراج أمين الدولة وزير الصالح اسماعيل وأستاذ داره المسمى بعمور وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل وأوعز الى جماعة من أصحابه بقتل الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل بن أيوب فلما كانت ليلة الاحد السابع والعشرين من ذي القعدة هجموا عليه وهو يصق صب السكر وقبضوا عليه وأخرجوه الى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه ودفنوه هناك وعمره يقرب من خمسين سنة فعلت كلمة المعز أيبك من حينئذ واتسعت شهرته ومالت اليه القلوب وجعل ينصرف في أمور المملكة بالاشتراك مع الملك الاشرف لا يقدر على الاستقلال بها ولا الاستبداد بالاحكام لممانعة خوشداه اقطاي الجدار له في ذلك فكان أيبك في حزن دائم من ذلك * فلما كانت سنة اثنتين وخمسين وستمائة دبر المعز أيبك أمر قتل اقطاي فأوقف له في بعض دهاليز الدور التي بقلعة الجبل ثلاثة مماليك أحدهم يسمى قطز والثاني بهادر والثالث سنجر الغمي فلما مر بهم فارس الدين اقطاي المذكور ضربوه بالسيف

فقتلوه ووصل خبر قتله الى المماليك البحرية فارتجفوا وقرروا من مصر الى الشام خوفاً من المعز أيك نغلا الجؤ للعز واستقل بالسلطنة وخلع الاشرف موسى منها وسيه الى عمانه فكان الاشرف موسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في ديار مصر وكان انقضاء دولتهم في هذه السنة أي سنة اثنتين وخمسين وستمائة هجرية وسنة خمسين ومائتين وألف ميلادية فكان عدد ملوكهم تسعة أولهم الملك صلاح الدين بن أيوب وآخرهم الاشرف موسى أو الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح الايوبي فسبحان من له الملك وحده والسلطان الدائم بلا زوال

فبادوا جميعا ولا مخبر * وماؤا جميعا وصح الخبر

فلما تمت نعمة المعز أيك بملكه على ديار مصر وما يتبعها من الشامات واستقل بمحكها ظهرت على يديه الدولة الشركسية التي هي احدى فروع الدولة التركية وتمكن سلطانها فتولى حكم البلاد منها سبعة وأربعون ملكا أولهم المعز أيك المذكور وآخرهم طومان باي وهم الملقبون بمماليك الدولة الايوبية الكردية ليمتازوا عن المماليك البحرية وكان الملك الصالح الايوي قد اصطفاهم لنفسه وخصهم بخدمته فكان لهم التقدم في أيامه كما سبقت الاشارة الى ذلك قال أصحاب التاريخ وكان فيهم قضاة وخشونة واستتار بالامور كلها * وأحسن المعز أيك التدبير وأقام العدل بين الرعية وشدت على المماليك العززية لتمردهم وتناول أيدي بعضهم الى العامة فكرهوه وجعلوا يترقبون الفرص للقبض عليه فعلم نيتهم واستعدت لهم وبالغ في الاستعداد * فلما كانت سنة ثلاث وخمسين هموا بالقبض عليه فلم يفلحوا فهربوا من مخيمهم الى العباسية على حية فأحاط على وطافاتهم جميعها وأخذ ما فيها فهابه الامراء كافة وحسده الملك الناصر صاحب الشام وخاف أن يأخذ ملكه فسير كمال الدين المعروف بابن العديم رسولا من قبله الى الخليفة المستعصم وصحبه مقدمة جليظة وطلب خلعة من الخليفة فعلم المعز أيك بقصدته فأرسل شمس الدين سنجر الاقرع وهو من مماليك المنظر غازي صاحب ميا فارقين الى بغداد بتقدمة جليظة جدا وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب الشام فبقى الخليفة متحيرا أياما ثم انه أحضر سكيئا من البلسم كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكيين رسول صاحب الشام علامة مني في انه له خلعة عندي في وقت آخر وأما في هذا الوقت فلا يمكنني اعطاؤه شيئا فأخذ رسول صاحب الشام السكيين وعاد الى الملك الناصر يوسف بغير خلعة فكبر عليه هذا الامر وجعل يراقب الفرص وهو قلق وجل ودس الى شجرة الدر من يعلمها بحاله * وكانت شجرة الدر كثيرة التداخل في أمور المملكة ولها بعض الغلبة على أمر المعز أيك فأحس المعز بذلك فكان يضر لها السوء ويعمل على التخلص منها واتفق انه سير الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من يخطب له ابنته ليتزوج بها فلما علمت شجرة الدر بعزمه وكانت قد آنست منه البغض وأحست بالشر صارت تترصد الفرصة للايقاع به فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وخمسين

وستمائه خرج الى لعب الكرة ثم عاد ودخل الحمام فأوعزت في الحال الى سنجر الجوهري
 مملوك الطواشي محسن وبعض الخدم بأن يقتلوه فدخلوا عليه وقتلوه وأرسلت شجرة الدر في
 تلك الليلة اصبح المعز أيبك وناعته الى الامير عز الدين الجلبى الكبير وطلبت منه أن يقوم
 بالأمر فلم يجسر على ذلك وظهر الخبر فثارت ممالك المعز لقتل شجرة الدر فنانع عنها طوائف
 المماليك الصالحية واجتمع كافة الامراء وكبار الجنود ليولوا ملك البلاد لمن يصلح فانقفت
 كلمتهم جميعا على اقامة نور الدين على بن المعز أيبك ولقبوه بالملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة
 سنة ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة الى البرج الاحمر ثم قبضوا على الخدام الذين وافقوها
 على قتل الملك فصلبوهم وهرب سنجر الجوهري ولكنهم ظفروا به بعد ذلك وصلبوه
 واحتيط بالصاحب بهاء الدين على بن خبا الذي كان وزير شجرة الدر وأخذ خطه بستين
 ألف دينار ﴿ ولما تولى الملك نور الدين على المنصور واستقرت به السلطنة قبض على شجرة
 الدر ودخل بها على أمه فأمرت باعدامها فقتلها الخواري بالقباقيب ورماها بالخنديق وهي
 عريانة على باب القلعة وبقيت أياما ثم دفنت بالتربة التي كانت قد أعدتها لنفسها * قال
 كتاب الاخبار وقد جوزيت من جنس عملها لانها كانت سعت في قتل الملك المعظم فبات
 غريفا كما تقدم بيانه في محله وترك ثلاثة أيام على شاطئ النيل فكذلك فعل بها

ودخلت سنة ست وخمسين وستمائه هجرية بكثيرة من الحوادث المهمة فقصد في
 أولها هولاء كوكو ملك التتار دار السلام وحاصرها وضيق عليها وشددت حتى ملكها في
 العشرين من المحرم وقبض على الخليفة المستعصم بالله * قال أهل التاريخ وكان
 سبب ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة كان رافضيا وكان أهل الكرخ
 أيضا روافض فحرت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد على جاري عادتهم فأمر أبو بكر بن
 الخليفة وركن الدين الموادار العسكر فذهبوا الكرخ وقتلوا النساء وركبوا بهن الفواحش
 فعظم فعلهم على الوزير ابن العلقمي وعزم على الانتقام فكتب التتار وأطعمهم في
 ملك دار السلام وكان عسكر بغداد قد بلغ يومئذ مائة ألف فارس فقطعهم المستعصم
 ليحمل الى التتار فحصل اقطاعاتهم فأصبح عسكر بغداد بعد ذلك أقل من عشرين
 ألف فارس ثم أرسل ابن العلقمي الى التتار أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين ببغداد في جمع
 عظيم للغاية فلما علم الخليفة بخبر قدومهم أخرج عسكره لقتالهم ومقدمهم ركن الدين بن
 الموادار فالتقوا على مرحلتين من دار السلام واقتلوا قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة
 ودخل بعضهم ببغداد وسار بعضهم الى جهة الشام ونزل هولاء كوكو على بغداد من الجانب
 الشرقي ونزل باجو من أكبر مقاميته الى الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة وخرج
 مؤيد الدين بن العلقمي الوزير الى هولاء كوكو فاستوثق لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم وقال
 ان هولاء كوكو يقيمون في الخلافة كما فعل بسطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر
 وحسن له الخروج الى هولاء كوكو فخرج اليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزله في

خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء والامائل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده وكذلك صار يخرج الى التتار طائفة بعد طائفة حتى تكاملوا فأمر هولاء قو ققتلهم التتار عن آخرهم ثم مسدوا الجسر وعمدى باجو ومن معه وبدلوا السيف في بغداد وهجموا على دار الخلافة وقتلوا كل من كان فيها من الاشراف ولم يسلم الا من كان صغيرا فأخذ أسيرا ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوما ثم نودي بالامان قال الراوى وأما الخليفة فانهم قتله ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرق في دجلة وقيل غير ذلك وكان هذا المستعصم وهو عبدالله أبو أحمد ابن المستنصر أبي جعفر منصور بن محمد الظاهر بن الامام الناصر أحمد ضعيف الرأي كما تقدم وقد غلب عليه أمراء دولته لسوء تدبيره وانهماكه في اللذات وعدم اهتمامه بمقام الخلافة ومسد الامامة فكانت خلافته نحو ست عشرة سنة وبموتها زالت الخلافة من العباسيين وانقرضت دولتهم وانجحت آمارها فلم تكن شيئا مذكورا ❦ قال أصحاب التاريخ كان ابتداء دولة الخلفاء العباسيين في سنة اثنتين ومائة هجرية وهي السنة التي بويع فيها السفاح بالخلافة وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة على التقريب وعدة خلفائهم سبع وثلاثون خليفة * حكى القاضي جمال الدين بن واصل قال لقد أخبرني من أتق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ماصورته * ان علي بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض الخلفاء من بني أمية عنده أنه قال ان الخلافة تصير الى ولده فأمر الاموى بعلي بن عبدالله فجعل على جبل وطيف به وضرب وكان يقال عند ضربه هذا جزء من يقترى ويقول ان الخلافة تكون في ولده فكان علي بن عبدالله المذكور رحمه الله يقول اي والله لتكونن الخلافة في ولدي ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العليج من خراسان فينزعهما منهم فوقع مصداق ذلك بورود هولاء كوازالة ملك بني العباس على يديه فأقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وذلك من يوم الاربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخسين وثمانئة وهو يوم قتل الخليفة المستعصم الى سنة تسع وخسين وثمانئة فسبحان من له الدوام والبقاء

وكما كانت دار السلام في قلق واضطراب بسبب دخول هولاء كوا اليها بعسكره نطافرا منصورا وقتله للخليفة المستعصم وجميع رجال الدولة و كبار البلد كانت مصر كذلك بسبب الارهاصات الداخلية والفتن المتواليمة وتحزب بعض الامراء ضد البعض الاخر وتغلب بعضهم على امر الملك المنصور لاسيما سيف الدين قطز أحد عماليك المعز أيك فقد كان شديد البأس واسع الكلمة كبير الهيبة وكان يراقب الفرص نلخ الملك المنصور ليتولى الملك مكانه وما زال على هذا الحال الى أن انفق في أوائل ذي الحجة سنة تسع وخسين وثمانئة خروج علم الدين المغنمي وسيف الدين بهادر وجمع من كبار المعزية الى الرمي بالبندق وكان لهما كلمة نافذة وشهرة كبيرة فانتهز سيف الدين قطز المذكور فرصة غيابهما وقبض على ولد

أستاذة الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيمنك وخلعه من السلطنة فلما قدم المغني
 وبهادر المذكوران لم يمهلهما حتى قبض عليهما واعتقلهما تخافة بقية الامراء ودانوا له وبالغوا
 في الخضوع اليه فتولى الملك وقبض على زمام السلطنة وتلقب بالملك المظفر ووردت عليه
 رسائل التهاني من كل صوب وحذب * وكان الملك الناصر يوسف صاحب الشام قد أرسل
 الى الملك المنصور على قبل خلعه كمال الدين بن العديم مستقيدا على التتار واتفق خلع الملك
 المنصور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم المذكور فلما استقر قطز بمنصب السلطنة
 كلفه كمال الدين فيما جاء بصده فأعاد جواب الملك الناصر يوسف بأن يفجده ولا يقعد عن
 نصرته فعاد ابن العديم بهذا الجواب ثم أخذ الملك المظفر حينئذ في جمع الجيوش واععداد
 معدت الحرب وفرق في جيوشه الاموال فكانت زهاء ستمائة ألف دينار جمعها مما فرضه على
 أهل البلاد مما سماه تصقيع الاملاك وزكاتها وما ناله من ثلث التراكات مما قيمته ستة آلاف
 دينار في سنة ونخرج يريد قتال التتار ومعه الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك
 الافضل على في أوائل رمضان من السنة فلما علم كتبغا وهو نائب هولاء كوعلى الشام
 ومقدم التتار بسير العساكر الاسلامية اليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من بالشام من التتار
 وسار الى لقاء المسلمين وكان الملك السعيد صاحب الصيبية بن الملك العزيز بن الملك العادل
 ابن أيوب صحبة كتبغا فتقارب الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا فانهمزم التتار شر هزيمة
 وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب وكثر فيهم القتل وقتل كتبغا وأسر ابنه وترفع من سلم
 من التتار الى رؤس الجبال وتبعهم المسلمون فاخذوهم وهرب من سلم منهم الى المشرق فجرد
 الملك المظفر قطز ركن الدين بيبرس البندقداري في أثرهم وهو من مقدمي الامراء المصرية
 وبارك العسكر وكان ممن صحب التتار أيضا في هذه الواقعة الملك الاشرف موسى صاحب
 حمص فلما رأى ما حل بهم من الفشل والقتل فارقهم وتقدم الى الملك المظفر قطز في طلب
 الامان فأمنه وأقره على ما بيده من البلاد وأما الملك السعيد صاحب الصيبية فانه أمسك
 أسيرا وأحضر بين يدي الملك المظفر قطز فأمر به فضرب عنقه بين يديه ثم دخل الملك
 المظفر دمشق ظافرا منصورا ففرح به أهل دمشق فرحا لا يوصف فجعل ينظر في الامور
 وبأمر وينهى ويصلح ما أفسده التتار ولبث على هذا الحال أياما فعظم شأنه واتسعت شهرته
 وطار صيته فحسده أصحابه وكرهوه وخافوا أن تطول مدته فاتفق منهم بيبرس البندقداري
 الصالحى مع آخر اسمه آنصو مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صوغان
 أوغلى على قتله وتحالفوا على ذلك فلما قام من دمشق وسار يريد الديار المصرية ساروا معه
 يرتقبون الفرص فلما وصلوا الى القصر بطريق الرملة وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق
 الدهليز والعسكر الى الصالحية قامت بين يدي قطز أرنب ففرح بها وساق عليها يريد قصصها
 فساق هؤلاء المذكورون معه فلما بعدوا تقدم اليه آنصو وأظهر أنه يريد أن يشفع عند
 الملك المظفر قطز في انسان فأجابه الى ذلك فأهوى ليقبل يده وقبض عليها فحمل عليه بيبرس

البندقدارى حينئذ وضربه بالسيف واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب وكان ذلك في سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخسين وثمانمائة فكانت مدة ملكه أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وساق بيبرس وأولئك المذكورون معه بعد قتله حتى لحقوا بالدهليز بالصالحية فسألهم أقطاي فارس الدين نائب السلطنة عن الملك المتظفر فظروا فقالوا له قتلناه فقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له أقطاي ياخوند اجلس في مرتبة السلطنة بجلس فاستدعيت العساكر والاجناد للتعليف له فحلفوا في اليوم الذي قتل فيه فظروا وهو سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخسين وثمانمائة

واستقرت السلطنة لبيبرس وتلقب بالملك الفاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ثم غير لقبه عن الملك القاهر وتلقب بالملك الظاهر لانه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ماتلقب به أحد فطالت مدته فلما حلف له الجنسد ورجال الدولة يمين الطاعة سار بهم الملك الظاهر بيبرس المذكور من الصالحية يريد القاهرة ثم تركهم في الطريق وسار في جماعة من أصحابه فصعد الى قلعة الجبل ففتحت له فدخلها واستقرت قدمه في المملكة وفرح الناس به وزينوا له مصر والقاهرة أياما فجعل يتصرف في الامور ويقرر قاعدتها على ما يجب ثم لم يلبث أن سير علاه الدين البندقدارى أستاذاره في عسكر عظيم لقتال علم الدين سنجر الجلبى المستولى على دمشق من قبل الملك قطز فقاتله بظاهر دمشق فهرب الجلبى الى بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل الى مصر فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشامات مثل حماة وحلب وحصص وغيرها وأقام ايدكين البندقدارى الصالحى في دمشق لتدبير الامور فعظمت شوكة الملك الظاهر وظهرت كلمته ودانت له الامور كما يشاء وهاب به الملوك وتزلفوا اليه وسيروا اليه الهدايا الجليلة والتحف النفيسة حتى كان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر في محله

(المقالة السادسة)

(في كيفية ظهور الخلفاء العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله)

(وفيها فصول)

لما كان الملك الظاهر بيبرس المذكور شديد الرغبة في الغزو والفتوح ومنازعة هولاء كرومن حذا حذوه من ملوك الخوارج وكان يخشى أنه اذا تقدم الى ذلك فشل أمره وتفرق الناس عنه وزالت سلطنته اذا لم تفرض له الامور بالفرض الشرعى وقد كانت الدنيا

الى هذا الحين بغير خليفة بعد موت الخليفة المستعصم على ما مر بك بيانه عمد الى البحث عن بقى من سلالة الخلفاء العباسيين وأظهر الاهتمام بامرهم وأجرل العطاء لجماعة من العربان ليأتوه بالخبر فلما كانت سنة تسع وخسين وستائة قدم الى القاهرة في مستهل رجب جماعة من العربان ومعهم رجل أسود اسمه أحمد أبو القاسم زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد بن الامام الناصر العباسي قالوا وكان معتقلا ببغداد ثم أطلق وكان عدة أولئك العربان عشرة منهم الامير ناصر الدين مهنا فلما علم الملك الظاهر بقدومهم أظهر الفرح وخرج لقايتهم ومعه القاضي تاج الدين والوزير والعلماء والاهراء والشهود والمؤذنون فتلقوه فدخل من باب النصر في أبهة عظيمة وكبكية زائدة وأنزلهم الملك الظاهر ببيرس مكانا رحبا وبالغ في الضفاوة بهم فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخسين جلس الملك الظاهر ببيرس وأبو القاسم الاسود المذكور في الديوان بقلعة الجبل وجلس القاضي والوزير والامراء على طبقاتهم وأثبت أبو القاسم المذكور نسبه لدى القاضي تاج الدين بالوجه الشرعى فلما ثبت ذلك وقف قاضى القضاة قائما وأشهد على نفسه ثبوت النسب ثم قام عز الدين ابن عبد السلام شيخ الاسلام يومئذ فبايعه بالخلافة أولا ثم السلطان الملك الظاهر ثم القاضي تاج الدين ثم الامراء ورجال الدولة واحدا فواحدا وركب من يومه في دست الخلافة بعصر والامراء بسين يديه والناس حوله وشق القاهرة ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وطبروا الاخبار بذلك الى الاآفاق فكان الناس في خلافته على طرفي نقيض ولكل فريق حجة والله سبحانه أعلم بالحقائق

أقول ولما لم يكن من رأينا الانتقال الى البحث في كنه هذه الخلافة ولا في كيفية صيرورتها الى أبي القاسم الاسود المذكور كى لا ينظر بنا القلم الى الخوض في مجال قد تسابق فيه حقول الكتاب وكبار أهل النقد على غير جدوى لاختلاف الاقوال فيه وتعدد المذاهب وتباين الاهواء وقد جاء في حديث صاحب الشريعة الاسلامية في الامر بطاعة الخليفة ما نقله * اسمعوا وأطيعوا ولو اسعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة * وكان الغرض من هذا المؤلف انما هو ذكر الحوادث على ترتيب سننى خلافة كل خليفة من سبق الى هذه الفترة التي بات فيها الاسلام بغير خليفة قد التزمنا هذه الخطة بعينها في تقييد حوادث وأبناء المدة من ظهور أبي القاسم هذا على ترتيب سننى خلافته وخلافة من يأتي بعده من يكون لله في الارض خليفة كما جاء به حديث صاحب الشريعة عسى أن لا يشكل الامر على القارئ ولا تفوته الفائدة من سرد الحوادث والاخبار متتابعة كتتابع سننى الخلافة وانصال أدوارها بعضها ببعض ❁ وكما كانت دار السلام وغيرها مقرا للخلافة العباسية والامامة الاسلامية الى هذا الحين فقد أصبحت مدينة القاهرة مقرا لها أيضا بظهور أبي القاسم هذا والبيعة له ولكن على آخر رمق من حياة الخلافة بعد ذلك الحول والطول والقوة والسود فسبحان من قسم الحظوظ

(الفصل الأول)

(في خلافة المستضرب بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بالله)

وقام بالامر بعد قتل الخليفة المستعصم على ما امر بك بيانه في حينه عمه أحمد بن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر العباسي * قال أصحاب التاريخ وهو أخو المستنصر يبيع له بالخلافة بمدينة القاهرة في يوم الاثنين ثالث عشر رجب سنة تسع وخسين وثمانئة أي سنة ستين ومائتين وألف ميلادية وذلك بعد قتل المستعصم بثلاث سنين ونصف سنة وأيام ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وكتبت الكتب ببيعته الى الآفاق وأُنزل بقلعة الجبل هو وخدمه وحشمه فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ركب في أبهة السواد وجاء الى الجامع بالقلعة فصعد المنبر وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس ودعا للسلطان ثم نزل فصلى بالناس وفي يوم الاثنين رابع شعبان ركب أيضا وركب معه السلطان والقاضي والوزراء والامراء وأهل الحل والعقد الى خيمة عظيمة قد ضربت له بظاهر القاهرة فألبس السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء وطوقا من ذهب في عنقه وقبدا من ذهب في رجله وفوض اليه الأمور في البلاد الاسلامية كافة وما سبقت منه من البلاد الاخرى ولقبه بقسيم أمير المؤمنين ثم صعد بعد ذلك نحر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبرا فقرأ عليه تقليد السلطان وركب السلطان بهذه الابهة والقيد في رجله والطوق في عنقه والوزيرين يديه ورجال الدولة مشاة سوى القاضي والوزير فشق من القاهرة وقد زينت له فكان يوما مشهودا ثم بعد قليل طلب الخليفة من السلطان أن يجهزه الى بغداد لقتال هولاء كوا واستخلاص دار السلام منه فأجابته الى ذلك ورتب له جندا وجيش له عسكريا وأقام له كل ما يحتاج اليه ودفع اليه ألف ألف دينار وسار السلطان بصحبته الى دمشق فدخلوها في يوم الاثنين سابع ذي القعدة وصليا فيها الجمعة ثم سار الخليفة من دمشق بعسكره وركب الملك الظاهر وودعه وأوصاه بالتأني في الامور ثم عاد الى الديار المصرية فدخلها سابع عشر ذي الحجة فلم يلبث الا قليلا حتى وصلت اليه كتب الخليفة بمصر انه قد استولى على عانة والحديثة وولى عليهما وأن كتب أهل العراق وصلت اليه يستحثونه على الوصول اليهم ففرح الملك الظاهر بذلك وترامت آماله الى المرحى البعيد * وبينما كان الخليفة يجهز السير بعسكره الى بغداد اذ وصل اليه التتار في جمع كثير وأحاطوا بعسكره واقتتلوا قتالا يسيرا فظفر التتار بعسكر الخليفة وقتلوا الخليفة وجماعة كثيرة من أصحابه ونهبوا ما كان معه من الاسلحة والكرعاك وشدوا على من بقي من العسكر ففترقوا أيدي سبأ ووصلت

الايخبار الى السلطان الملك الظاهر بما وقع فشق عليه الامر واستعظمه * قال أصحاب التاريخ وقد كان يود نصرته وفتح له البلاد وجاء أن تكبر دولة الملك الظاهر على يديه فلم يوفق الى ذلك وقتل الخليفة في ثالث المحرم سنة ستين وثمانئة فكانت خلافته دون الستة أشهر

وكان من شهد الواقعة مع الخليفة وهرب مع من نجا أبو العباس أحمد بن الأمير أبي علي الحسن القبي بن الأمير علي بن الأمير أبي بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرحبة وجاء الى عيسى بن مهنا فكانت فيه الملك الظاهر فطلبه فقدم الى القاهرة ومعه ولده وجماعة فدخلها في سابع عشر ربيع الآخر فتلقاها السلطان وأظهر السرور به وأزله بقلعة الجبل وأغدق عليه واستمر ببقية العام بلا مبايعة والسكة تضرب باسم المستنصر المقتول فلما كان المحرم افتتح سنة احدى وستين تمت له البيعة وتقلد الخلافة بعد ثبوت نسبه على ما سيذكر

(الفصل الثاني)

(في خلافة الحاكم بامر الله بن المستظهر بالله العباسي)

ثم تولى الخلافة أبو العباس أحمد ابن الأمير أبي بكر علي بن أبي بكر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله العباسي ببيعة له بالخلافة في يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة احدى وستين وثمانئة هجرية أي سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ميلادية وذلك انه لما كان يوم الخميس المذكور جلس السلطان الملك الظاهر ببيبرس مجلسا عاما وجاء أبو العباس المذكور راكبا الى الايوان الكبير وجلس مع السلطان بعد ثبوت نسبه فقرأ نسبه على الناس ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بامر المؤمنين ثم أقبل هو على السلطان فقلده الأمور ثم بايعه الناس على طبقاتهم ولقب الحاكم بامر الله فلما كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس فقال في خطبته الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركنا وظهيرا * وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا * أحده على السراء والضراء * وأستعينه على شكر ما أسبغ من النماء * وأستنصره على الاعداء * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له * وأن محمدا عبده ورسوله * صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء * وأئمة الاقتداء * الاربعة الخلفاء * وعلى العباس عمه * وكاشف غمه * وعلى السادة الخلفاء الراشدين * والأئمة المهديين * وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين * أيها الناس اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام * والجهاد محتوم على

جميع الانام * ولا يقوم علم الجهاد * الا باجتماع كلمة العباد * ولا سببت الحرم الا
 بانتهالك المحارم * ولا سفكت الدماء الا بارتكاب المآثم * فلو شاهدتم أهل الاسلام *
 حين دخلوا دار السلام * واستباحوا الدماء والاموال * وقتلوا الرجال والاطفال *
 وهدموا حرم الخلافة والحريم * وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم * فارتفعت
 الاصوات بالبكاء والعيويل * وعلت الضجبات من هول ذلك اليوم الطويل * فكم من
 شيخ خضبت شيبته بدمائه * وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه * فشمروا عن سابق الاجتهاد *
 في احياء فرض الجهاد * فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لانفسكم
 ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * فلم تبق معذرة في القعود عن أعداء الدين *
 والمحاماة عن المسلمين * وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الاجل العالم العادل المجاهد المؤيد
 ركن الدنيا والدين قد قام بنصر الامامة عند قلة الانصار * وشرذ جيوش الكفر بعد
 أن جاسوا خلال الديار * فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود * والدولة العباسية
 متكاثرة الجنود * فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة وأخلصوا نيابكم تنصروا *
 وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا * ولا يرد عنكم ما جرى فالجرب سجال والعاقبة للمتقين *
 والدرهم يومان والآخرة للؤمنين * جمع الله على التقوى أمركم * وأعز بالايمان نصركم *
 وأستغفر الله العظيم لى ولبكم ولسائر المسلمين فاستغفروه انه هو الغفور الرحيم * ثم خطب
 الثانية ونزل فصلى بالناس وكتب ببيعتهم الى الآفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه
 قال أبو شامة نخطب له بجماع دمشق وسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرم من
 هذه السنة * وقال ابن فضل الله ونقش اسمه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم قال ثم
 خاف الظاهر عاقبة أمره فأسكنه عنده بقلعة الجبل وعنده حريمه وخدمه وعلماؤه موسعا
 عليه في النفقات والكساوى يتردد عليه العلماء والقراء على أكل ما يكون من أنواع الاكرام
 وملازمته بجانب الاجلال والمهابة ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ثم أسقط اسمه من
 سكة النقود وأبقاه على المنابر فقط

وجعل الظاهر بيبرس منذ مبايعة هذا الخليفة الحاكم بأمر الله يتأهب لغزو التتار
 والاخذ بالثار فبنى دار العدل القديمة تحت سور قلعة الجبل وصار يجلس بها لعرض
 العساكر في كل اثنين وخميس وما زال حتى جيش جيشا خفغا وسار به في سنة ست وستين
 الى الشام وقاتل من يباها حتى ملكها واستولى على الشقيف وانطاكية وبغراس وطبرية
 والقرين وارصوف وصافيتا وايباس وهرقية وعرج على دار السلام فحاصرها وضيق
 في حصارها وما زال بها حتى دخلها وأباحها أياما ثم رتب أمورها وأحكم نظامها ثم سار منها
 وصحبته ولده الامير بركة خان الى مصر يريد الحج ثم بمدينة حلب وكانت في أيدي التتار
 فقاتلهم وأجلاهم عنها ثم عرج الى بيت المقدس وعاد قافلا الى مصر ولبت بها الى ميعاد
 خروج ركب الحاج فخرج من القاهرة في كبكبة عظيمة وسار برا الى السويس يريد

مكة وخرج معه جماعة كثيرة وقد كانت الطريق من مصر الى مكة الى ذلك الحين من
 صحراء عيذاب فكان الجحاج يركبون السفن بالنيل من ساحل القسطنطين الى مدينة قوص
 بالصعيد الاعلى ثم يركبون الابل منها فيقطعون صحراء عيذاب الى ساحل البحر الاحمر
 ويركبون السفن بالبحر الاحمر الى جدة التي هي ميناء مكة وكذلك كانت تأتي على هذه
 الطريق جميع قوافل التجار من الحبشة والهند واليمن وجميع جزيرة العرب فكانت لذلك
 الصحراء المذكورة آهلة عامرة آمنة فلما سار الظاهر بيبرس الى مكة برا تبعه الناس في ذلك
 واقتدوا به وتحولوا عن طريق صحراء عيذاب وكذلك تحولت قوافل التجار بعد سنة ستين
 وسبعمائة هجرية فزالت بهجة مدينة قوص وقلت أهميتها وتقهقرت تفهقرا سريعا حتى
 أصبحت بالحالة التي هي عليها الآن أو أهم بقليل * ولما رجع من الحج اهتم بأمر الرعية وبالغ
 في ترتيب أحوال المملكة وعمل على تأمين السبل وقطع شأفة أهل الفساد * وبينما هو على
 هذا الحال اذ جأته الاخبار ترى بزحف طوائف التتار الى أرض الشام ومحاصرتهم بيرة
 جيش عسكرا عظيما وسار بهم الى قتال التتار وصحبته الأمير قلاوون الالائي فالثاني الجمعان
 عند بيرة واقتتلوا قتالا عنيفا فانصر المسلمون على التتار نصرة مؤزره واستولوا على بيرة
 وساروا منها الى أرمينية ففتحوها عنوة وأباحها بيبرس أياما فغنموا وسبوا وقتلوا وأراقوا فيها
 الدماء الكثيرة ولبث بها حتى رتب أمورها وقرر أحوالها وسار عنها يريد القاهرة فلما صار
 على قيد فرسخ منها خرج الامراء والكبراء والعلماء والفقهاء وعامة الناس للقائه وضربت
 البشارة لقدمه فدخل من باب النصر وقد فرشوا له الطريق بالسط والطنافس الفاخرة
 اجلالا وتعظيما فشق من وسط المدينة وصعد الى قلعة الجبل ثم أولم وأعطى الناس وكان قد
 ترك الامير قلاوون بالشام فلم يمض الا القليل على وصوله حتى جاءه الخبر بزحف بغا خان بن
 هولاكو ملك التتار على أرض الشام وحصره بيرة ثانية فأنفذ الى الامير قلاوون بقتالهم
 واجلائهم عن البلاد فسار اليهم الامير قلاوون في قلعة من العساكر المصرية وضر بهم
 ضربة أرجعتهم على أعقابهم فسر الملك الظاهر بذلك سرورا عظيما ومال الى الأمير قلاوون
 وأحبه واعتمد في كثير من الامور عليه

وتافت نفس الملك الظاهر بيبرس الى فتح بلاد النوبة والصعيد الاعلى فأنفذ في سنة أربع
 وسبعين الامير آق سنقر في جيش عظيم فسار من ساحل القسطنطين الى اسوان فقاتلها وما
 زال بها حتى استولى عليها وترفع الى الصعيد الاعلى يغزو ويفتح ويجرق ويحرب ويسفك
 الدماء حتى ملك جميع مصر العليا وأخضعها لحكم الملك الظاهر وقرر أمورها على ما شاء
 وقفل راجعا مثقلا بالغنائم من الذهب والفضة وسن القنيل والريش والعبيد والاماء
 والخصيان والنيل والدواب ووحوش البر ففرح الملك الظاهر بقدومه وسر باتساع ملكه
 وطمع في فتح بركة واخضاعها لحكمه فسار لقتال من بها وعاد ظافرا منصورا فلما كانت سنة
 خمس وسبعين عاد بغا خان بن هولاكو الى الزحف على أرض الشام ليأخذها من عامل

الظاهر فأهزم الظاهر ذلك واستعظمه وجيش جيشا عظيما وخرج به من القاهرة في يوم
الخميس لعشرين مضت من رمضان من السنة وسار يريد قطع شأفة التتار ومحو أثرهم
فوصل الى حلب ومنها الى النهر الازرق ثم الى ابلستين فوصل اليها في ذى القعدة فسير بغيا
للقائه عسكريا عظيما ومقدمهم كبير اسمه تباون وهو من كبار المقدمين فالتقى الفريقان في
أرض ابلستين يوم الجمعة عاشر ذى القعدة واقتتلوا فانهزم التتار وأخذتهم سيوف المسلمين
وقتل مقدمهم تباون وغلب كبراهم وأسروا منهم جماعة كثيرة وكان ممن أسروا في هذه الموقعة
سيف الدين قجق وسيف الدين أرسلان فلما تم الظفر للملك الظاهر بيبرس سار الى قيسارية
واستولى عليها وكان الحاكم بالروم يومئذ معين الدولة سليمان البرواناه فكان يكتب الملك
الظاهر في الباطن والملك الظاهر يظن انه ان وصل قيسارية يصل اليه البرواناه على ما كان
قد اتفق معه في الباطن فلم يحضر اليه وأقام الملك الظاهر على قيسارية سبعة أيام في
انتظاره وخطب له على منبرها ثم رحل عن قيسارية وقد نفذت منه الاقوات فحصل للعسكر
شدة بالغة جدا وفقى العلف ثماتت دواب الجمل والتليل ووصلوا الى عمق حارم وهم في أسوأ
حال فلبثوا بها شهرا فلما بلغ بغا بن هولوا كوما حبل بقومته التتار ساق في جمع المغل
حتى جاء الانبستين وشاهد عسكره صرعى جيفا واشلالا ولم يشاهد أحدا من عسكر الروم
مقتولا فالتهب قلبه بنار الغيظ وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين ونهب ونزب
وقفل مالا خيرا فيه ثم سار الى الاردن وصحبته معين الدين البرواناه فلما استقر بالاردن أمر
بالبرواناه فقتل وقتل معه نيفا وثلاثين نفسا من مماليكه وخواصه

أما الملك الظاهر بيبرس فانه بعد أن أقام بمق حارم شهرا يصلح حال عسكره رحل عنها
في أواخر سنة خمس وسبعين ونزل بالقصر الابلق ثم سار منها لغزو الروم وعاد فلما كان المحرم
افتتاح سنة ست وسبعين وستمائة مرض مرضا شديدا ومات في يوم الخميس السابع
والعشرين منه وكانت وفاته وقت الزوال وقد اختلف في سبب موته * قال بعض كتاب
الاخبار انكسف التمر كسوفها كليا وشاع بين الناس أن ذلك سبب موت رجل جليل القدر
فأراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل الى غيره فاستدعى بشخص من أولاد الملوك الايوبية
يقال له الملك القاهر من ولد الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى وأحضر خرا مسجوما وأمر
الساقى فسقى الملك القاهر ثم شرب الملك الظاهر ناسيا بذلك الكاس التي شرب منها القاهر
على أثر شربه فمات القاهر عقب ذلك وحصلت للملك الظاهر حتى محرقة ومات بها في التاريخ
المذكور وقال آخرون غير ذلك فكتم نائبه ومملوكه بدر الدين بيلبك المعروف بالخزندار خبر
موته وحفظه وكفنه وتركه في قلعة دمشق الى أن تمت تربته بدمشق بقرب الجامع فدفن
بها وهي مشهورة معروفة وارتحل بعد ذلك بيلبك بالعساكر ومعهم المحفظة مظهرا ان الملك
الظاهر فيها وانه مريض وسار الى مصر وكان الملك الظاهر قد حلف العساكر لولده بركة خان
ولقبه الملك السعيد وجعله ولي عهده فوصل بيلبك الخزندار بالخرائن والعسكر الى الملك

السعيد بركة وهو بقلعة الجبل وأصبحوا وقد أظهروا موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك
السعيد للعزاء ثم جددوا له البيعة واستقرت له السلطنة فكانت مدة ملك الملك الظاهر
بيبرس سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام على التحقيق لانه ملك في سابع عشر ذي
القلعدة سنة ثمان وخسين وستمائة ومات في السابع والعشرين من المحرم افتتاح سنة ست
وسبعين وستمائة وكان ملكا شجاعا عاقلا مهيبا ملك مصر والشام واستولى على النوبة
وفتح القنوجات الجليلة فكان ما فتحه مما بأيدي الصليبيين يافا وطبرية وصفد والشقيف
وارسوف وقيسارية وانطاكية وحصن الاكراد والقصير وبغراس وحصن عكا والقرين ومرقية
وصافيتا وحلب قال أصحاب التاريخ وناصفهم في طرسوس وأذنة والمرقب والمصيصة وبانياس
وغيرها وتلك مما كان بيد المسلمين على بعلون وبعبك ودمشق وحصص وصرخد والصلت وتل
ناشر والرحبة وتدمر والرصافة والخوانى والقدموس والعليقة وقلعة الكهف وصهيون
وبلاطيس والرصافة ومصيف والقلعة والشوبك والكرك

وعمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور
الاسكندرية وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وبني منارة رشيد وأنشأ الشوانى وعمر عدة
قلاع بالديار الشامية والاناضول وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير خارج
باب الحسينية وحفر خليج الاسكندرية القديم وبني في طريقه قرية سماها الظاهرية وحفر
بحر أشمون طناح وجدد الجامع الأزهر بالقاهرة وأعاد اليه الخطبة بعد انقطاعها حيناً من
الدهر وأنشأ قناطر السباع * وأصله مملوك فبجاني الجنس وكان أسمر أزرق العينين جهورى
الصوت حضره ووملوك آخر مع تاجر الى حماة فاستحضرهما الملك المنصور محمد ليشتريهما فلم
يجبه واحد منهما وكان ايديكين البندقدار الصالحى مملوك الملك الصالح أيوب صاحب مصر
قد غضب عليه الملك الصالح وكان قد توجه ايديكين الى ناحية حماة فأرسل الملك الصالح
المذكور وقبض على ايديكين واعتقله بقلعة حماة فتركه الملك المنصور صاحب حماة في جامع
قلعة حماة واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر بيبرس مع التاجر فلما قلبه الملك المنصور
ولم يشتريه أرسل ايديكين البندقدار وهو معتقل فاشتراه وبقي عنده ثم أفرج الملك الصالح عن
البندقدار فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر وبقي مع أستاذه البندقدار مدة ثم أخذه الملك
الصالح من البندقدار فانتسب الى الملك الصالح دون البندقدار وكان يخطب له وينقش على
الدرهم والدنانير بيبرس الصالحى فسبحان المعطى بغير حساب

واستقر الملك للسلطان الملك السعيد بركة بن الملك الظاهر بيبرس في مصر والشام في أوائل
ربيع الاول من السنة أى سنة ست وسبعين واستقر بدر الدين بيلبك الخزندار في نيابة السلطنة
على ما كان عليه مع أبيه الملك الظاهر واستمرت الأمور على أحسن حال وأتم نظام فلم تطل
أيام بيلبك الخزندار بعد ذلك ومات على ما يقال حتف أنثه وقيل انه مات مسموما والله سبحانه
وتعالى أعلم بالحقائق فتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين العزبانى قال أصحاب التاريخ

ولكنه لم يتمكن من التغلب على الملك السعيد فخطب لذلك الملك السعيد وخط وقدام الاصاغر على الاكابر وأبعد عنه أكثر الامراء وقبض على سنقر الاشقر والبيسرى وبقي الامر كذلك حتى خرجت هذه السنة ودخلت سنة سبع وسبعين وستمائة فجهز السلطان الملك السعيد يريد الديار الشامية ثم خرج في عسكر عظيم ووصل الى دمشق ثم جرد منها عسكرا مع الامير سيف الدين قلاوون الصالحى وجرّد أيضا صاحب حياة فساروا جميعا ودخلوا الى بلاطيس وشنوا الغارة عليها وغنموا ثم عادوا الى جهة دمشق واتفقوا على أن يشقوا عصي الطاعة على الملك السعيد بركة ويخلعوه من السلطنة لسوء تدبيره وبغضهم لافعاله وحرروا بدمشق ولم يدخلوها فأرسل اليهم الملك السعيد واستعطفهم وأدخل عليهم والمدنه فلم يلتفتوا الى ذلك وداوموا السير فركب الملك السعيد وساق وسبقهم الى مصر وصعد الى قلعة الجبل وسار العسكر في أثره فلما كانت سنة ثمان وسبعين وصل العساكر الى مصر في أثر الملك السعيد وذلك في ربيع الاول وحصله الجبل فخامر عليه أكثر من كان معه من الامراء فصاروا يهربون واحدا بعد واحد من القلعة وينضمون الى العسكر المحارب فلما رأى الملك السعيد منهم ذلك أجاب الى الانخلاع من السلطنة وأن يعطى الكرك فأجابوه الى ذلك وأنزلوه من القلعة وخلعوه في ربيع الاول من السنة أى سنة ثمان وسبعين وسيروه في الحال الى الكرك صحبة بيدغان الركنى وجماعة معه فوصل اليها وتسلمها بما فيها من الاموال والخزائن وكان شيا كثيرا قال كتاب الاخبار وبعد أن جرى ذلك وتم على ما أراده الامراء اجتمعوا وهم بدر الدين البيسرى الشمسى وايتمش السعدى وبكتاش الفخرى أمير سلاح وغيرهم على اقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في السلطنة ولقبوه بالملك العادل وذلك في شهر ربيع الاول المذكور وعمره يومئذ سبع سنين وشهور ثم خطب له وضربت السكة باسمه وصار الامير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر فلما استقر الحال على ما ذكر أرسل الامير سيف الدين قلاوون الامير شمس الدين سنقر الى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد بركة على ما تقدم بيانه قبضوا على عز الدين ايدمر نائب السلطنة بدمشق وسجنوه وتولى تدبير دمشق بعسده أفوش الشمسى نائب السلطنة بجلب فسار الامير شمس الدين ويولاهما واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة

ولم تكن مدة الملك العادل سلامش المذكور لتطول سوى بضع أشهر وقام الامير سيف الدين قلاوون أتابك العسكر وخلعه من السلطنة وجلس هو على تخت الملك يوم الاحد الثاني والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين ولقب نفسه بالملك المنصور فلما استقرت به السلطنة وثبتت قدماء فيها قام سنقر الاشقر متولى دمشق وخرج عن طاعته وادعى السلطنة واستخلف العساكر والاجناد خلفوا له وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر وكان ذلك لاربع وعشرين خلت من ذى القعدة وبيات الاخبار بذلك الى الملك المنصور قلاوون فأهمله الامر جسدا وجهز عسكرا عظيما للغاية مع علم الدين سنجر الجلبى وهو من

مقدّمى العساكر المصرية وكذلك بدر الدين بكتاش وبدر الدين الايدمرى وعز الدين الانجم
 فساروا جميعا الى الشام وبرز سنقر بجيوش الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان في ناسع
 عشر صفر واشتبك القتال فلم يكن بأسرع من أن ولى الشاميون وسنقر منهزمين فلبعت فيهم
 سيوف المصريين ونهبت أنقلاهم وكان السلطان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه
 حسام الدين لاجين السلطان نائبا بقلعة دمشق فاعتقله سنقر بها فلما انهزم سنقر أفرج عن
 حسام الدين وعن آخرين لم يخالفوا مع سنقر ولم يخلفوا له وكتب الحلبي الى السلطان
 الملك المنصور بالنصر فرسم بتعيين الامير لاجين المنصورى نائبا للسلطان بالشام أما سنقر
 الاشقر فانه هرب الى الرجبة وكان ابيغابن هولاءكو ملك التتار وأطمعه في البلاد
 وكان عيسى بن مهنا أمير العربان مع من حلف لسنقر وقاتل معه وكتب بذلك الى
 ابيغابن أيضا موافقة له ثم سار سنقر من الرجبة الى صهيون في جمادى الاولى واستولى
 عليها وعلى برزية وبلاطس والثغر وغيرها بعد حروب كثيرة * وطمع ابيغابن هولاءكو
 ملك التتار في ملك الشام فسير جيشين عظيمين أحدهما مقدمه اباكه خان والثاني مقدمه
 منجو تيمور بن هولاءكو عدته ثمانون ألف فارس فالتقوا بالمصريين واقتتلوا قتالا عنيفا
 فصبر المصريون وفانلوا قتال الاسود حتى فازوا بالتتار وانتصروا عليهم نصره مؤزره
 وقتل منجو تيمور تحت سنابك الخيل وفر اباكه خان الى حمدان فقبض عليه أخوه
 نيكودارا وغلان وسقاء السم فمات حينه وتولى نيكودارا المذكور الملك بعده وراسل
 الملك المنصور قلاوون في أمر الصلح أو الهدنة وأظهر الاسلام وسمى نفسه أحمد خان فتهرت
 قاعدة الصلح بين الفريقين وتعهد أحمد خان بالطاعة والولاء فعاد الملك المنصور ظافرا مؤيدا
 وابت الخلال في سكون والأمر على ما يرام حتى قامت الفتنه في جوف البلاد وخرج على
 الملك المنصور كبار الامراء والمماليك ونبذوا طاعته وعملوا على خلعه فتأهب لاذلالهم وتجرد
 لقطع شأفتهم وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام كاملة ولم يرحم صغيرا لصغره ولا شيخا
 لشيخوخته واشتد القتل حتى امتلأت الاسواق بجثثهم بين رجال ونساء وأولاد فاشتد
 الهول على الناس وعظم الخطب وارتفعت أصوات النساء بالبكاء واستغاثوا فاجتمع العلماء
 ودخلوا على السلطان وشكوا اليه ما يلاقيه الناس من هول هذا الامر وتلطفوا في القول
 وبالغوا في الاستشفاع فأجابهم الى ما يسألون وأمر قنا دوا بالكف عن القتل وحقق الدماء
 الا أنه ضيق على من بقى منهم وأبطل كثيرا من عاداتهم بعد أن كانوا يلبسون
 الالبسة المطرزة بطراز الذهب والفضة ويضعون العمام من الحرير والوشى ويرخون
 ضفائر الشعر على ظهورهم مغطاة بالحرير وغير ذلك من أنواع الزينة والترفة فزال بعد ذلك
 هيبتهم وانكسرت شوكتهم وأمن الناس من شرهم وزال عنهم بأسهم

ولما كانت سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية تحرك الامير سلامش متولى الكرك يريد
 الاستقلال والخروج عن تابعية السلطان الملك المنصور قلاوون فاستعظم الملك المنصور هذا

الامر وسار من مصر في جيش عظيم الى الكرك فلاقاه سلامش في جمع عظيم واقتتلوا فدارت عليه وعلى جيشه الدائرة وسقط سلامش في قبضة الملك المنصور فأحضره الى القاهرة مكبلا بالحديد وسجنه فلبث مسجوناً الى ما بعد وفاة الملك المنصور * ورسم بعد ذلك الملك المنصور لولده الملك الصالح علاء الدين بولاية العهد بعده وسلطنته وأركبه بشعار السلطنة وشق في وسط المدينة بابية وكبكية عظيمة ولكنه لم يلبث أن أدركته المنية وهو في شرح الشباب وزهوة العمر أصابته حتى خبيثة مات في سنة سبع وثمانين وستمائة فحزن عليه السلطان الملك المنصور حزناً عظيماً وبكاه بكاء مراراً وجلس للعزاء أياماً كثيرة وفرق الصدقات الكثيرة وخرج من مصر في جيش فراراً مما يلاقيه من ألم الحزن على فقد ولده فسار يريد فتح طرابلس وقد كانت الى ذلك الحين في أيدي الصليبيين لا ينازعهم عليها منازع من نحو المائة وثمانين سنة * فلما وصل اليها حاصرهما وضيق عليها وشدد ووالى الرمي عليها ليلاً ونهاراً حتى نظف بها وفتحها فباحها أياماً كثيرة وهدم أسوارها وخرب بناها حتى أوشكت أن تصبح أثراً بعد عين ثم أمر فرموا ما بقي منها وأعادوا اليها بعض رونقها وولى عليها أميراً من المصريين ورتب له جماعة من العساكر يقومون بحراسة أبراجها ويدفعون عنها عند الحاجة * قال أهل التاريخ ولم يجسر أحد الى هذا الحين ممن سبقه من الملوك مثل صلاح الدين أيوب وغيره على التعرض الى طرابلس لخصانتها وكثرة عساكرها ثم سار لغزو عكا ففتحها أيضاً وبرز الى مسجد التبريز ومعه العساكر والاجناد المتوافرة فلما أقام به أياماً ابتداء مرضه وكان في العشر الاواخر من شوال وهو بالدهليز بالمكان المذكور وأخذ مرضه يتزايد حتى مات يوم السبت السادس ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة وكان جالوسه على تخت الملك في اليوم الثاني والعشرين من رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة فكانت مدة ملكه نحو من احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وأياماً وترك ولدين هما الملك الأشرف صلاح الدين خليل والسلطان الاعظم الملك الناصر محمد * وكان ملكاً مهيباً حليماً جليلاً القدر كثير العفو شجاعاً غير سفكاً للدماء محباً للرعية ميالاً الى فعل الخير كثير الاحسان وافر الحرمة فلما مات اجتمع الامراء من الخاصكية وغيرهم وتكلموا فيمن يتولى السلطنة بعده فاتفقت كلمتهم على تولية ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل

فلما كان اليوم الثاني من موت الملك المنصور اجلسوا الأشرف صلاح الدين خليل المذكور على تخت السلطنة وبايعوه البيعة العامة بعد أن بايعه الخليفة الحاكم بأمر الله ابن المستظهر بالله في السابع من ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ولم تستقر به السلطنة حتى قبض على حسام الدين طرنتاي نائب السلطنة يومئذ قبض عليه في يوم الجمعة ثاني عشر ذي القعدة وقتله وفرض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدر وقلد الوزارة الى شمس الدين محمد بن السلغوس * ولما رتب أمور الدولة على ما شاء سار الى ارمينيا وحاصر أرودم وضيق عليها وشدد في الحصار حتى فتحها وأقام بها أياماً فذاع صيته وكبرت

هيئته وهابه الملوك المجاورون للملك وتزلفوا اليه وعاد الى القاهرة وأقام بها أياما ثم خرج
 منها على الهجن يرد الكرك وسارت عساكره على الطريق الى دمشق وسار السلطان
 ودخل دمشق ثم سار منها الى البرية متصيدا ووصل الى العزقلس وهو جفصار في طرف بلاد
 حص من الشرق ونزل عليه وأرسل الى مهنا بن عيسى أمير العرب وأخويه محمد وفضل
 وولده موسى بن مهنا وكان قد أضر لهم السوء لامر نقه على عيسى المذكور فحضروا اليه
 في قلة من قومهم وهم لا يعلمون بسوء نيته فقبض عليهم في الحال وسيرهم الى مصر
 فحبسوا في قلعة الجبل وعاد السلطان خلفهم فوصلها في رجب من السنة وجعل
 يتصرف في الامور فظهرت عليه علامات الخيلاء وتبدلت أحواله وتغيرت طباعه
 وأساء معاملته رجال الدولة وكافسة الناس وتخوف لافل سبب فانحرفت الخواطر عنه
 وأبغضه الامراء وتمنوا هلاكه * وكانت طائفة الكتاب من القبط الى سلطنته في صدر
 الدولة ولههم الكلمة النافذة والرأى المسموع وقد أحبهم الامراء الخاصكية كثيرا ومالوا
 اليهم جدا وكان منهم كاتب عند خاصكي يعرف بعين الغزال فوجد يوما في طريقه بمصر
 سمسارا بشونة مخدومه فلما رآه السمسار نزل عن دابته وسلم عليه فسأله الكاتب عن مال
 تأخر عليه من ثمن غلة الامير وأمر غلامه فنزل وأمسك السمسار وسار به نحو دار الامير
 فصاح السمسار فجمع الناس وكثرت العامة وعلت بينهم الضوضاء حتى صار الى صليبية
 جامع ابن طولون والناس يكثران وكان قد قرب الكاتب من بيت أستاذه فأحاط العامة
 بالكاتب وألقوه عن دابته وخلصوا السمسار من غلامه فسبق القلام الى بيت الامير ليستجده
 فقامت طائفة من غلمان الامير فخلصوا الكاتب من العامة وشرعوا في القبض عليهم فصاحوا
 هذا ما يحل ومروا مسرعين الى أن وقفوا تحت قلعة الجبل وصاحوا نصر الله السلطان
 وأكثروا من الضجيج والصياح فأرسل من يكشف الخبر فعرفوه ما كان من أمر
 الكاتب والسمسار وما وقع منهما فغضب السلطان وطلب الكاتب ورسم للعامة باحضار
 النصارى اليه وطلب الامير بدر الدين بيدر النائب والامير سنجر الشجاعي ورسم لهما
 باحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم فما زال به حتى استقر الحال على أن ينادى في
 القاهرة ومصر بأن لا يستخدم أحد من النصارى أو اليهود عند أمير وأمر الامراء كافة
 بأن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام فمن امتنع ضربت عنقه
 ومن أسلم استخدموه عندهم ورسم للنائب بان يعرض على جميع مباشرى الديوان السلطاني
 ويفعل بهم كذلك فنزل الطاب لهم فصارت العامة والحرافيش تسبق الى بيوتهم وتنهبها حتى
 عم النهب بيوت جميع النصارى واليهود وأخرجوا نساءهم سبايا وقتلوا جماعة منهم بأيديهم
 فقام الامير بيدر مع السلطان لرد العامة وركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصراني
 حل دمه وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعد ماضرهم فانكفوا عن النهب بعد
 ما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا جماعة بها * ثم جمع النائب جماعة من كتاب السلطان

والامراء وأوقفهم بين يدي السلطان فرسم للشجاعي والامير جاندار أن يأخذوا عدة معهم ما
وينزلوا الى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ويحفرها وحفرا كبيرة ويلقوا فيها الكتاب
الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب نارا فتقدم الامير بيدر وشفع فأبى أن يقبل شفاعته وقال
ما أريد في دولتي ديوانيا نصرانيا فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر في خدمته
ومن امتنع ضربت عنقه فأخرجهم الى دار النيابة وقال لهم يا جماعة هذا ما وصلت قدرتي
اليه مع السلطان في أمركم وقد قبل شفاعتي على شرط وهو أن من اختار منكم دينه قتل
ومن اختار الاسلام خلع عليه وبأمر أمر خدمته فابتدعه الملكين بن السقاعي أحد المستوفين
وقال ياخوند وأي شيء تختارونه منا الآن قولوا لنا ما تختارونه ونحن نتبع قولكم فغلب الامير
بيدرا الضحك وقال ويحك يا ملكين أنت تختار غير دين الاسلام ثم أمر فأحضروا العدول
واستلهمهم جميعا وكتب بذلك شهادات عليهم ودخل بها على السلطان ثم خرجوا الى مجلس
الوزير صاحب شمس الدين محمد بن السلغوس فبدأ بعض الحاضرين بالملكين بن الصقاعي وناولوه
ورقة ليكتب عليها وقال يا مولانا القاضي اكتب على هذه الورقة فأجابته على الفور * يا بني والله
ما كان لنا هذا القضاء في خلد * فأعجب القوم بفصاحته وسرعة خاطره في هذا الوقت الضيق
وتوجهوا لحالهم جدا وراجع الامراء السلطان في أمرهم وألحوا عليه فأجابهم الى ما يطلبون
فكانت حاله من أشد الاحوال وأنكأها مات فيها من الاطفال والشيخ والرجال عدد كثير وبلغت
فعال العامة بأصحاب البيوتات من النساء مبلغا عظيما للغاية فكان يخرجن حاسرات مكشوفات
الوجوه هائعات في الطرق والحارات لا يعرفن للسلامة سبيلا وكان الامير بيدرا يرق لحالهن
ويتوجع لمصابهن فأنجعل ذلك السلطان وندم على ما بدا منه وتوجع كثيرا وقد كثرت خطه
وخطه وأخذ للناس بالشبهات وتخوفه من مماليكه وأمراء دولته حتى من أقرب الناس اليه
وأخصهم به فشدد وهدد وبالغ في التحرز فكرهه مماليكه وتفرقوا عنه وجعل الامير بيدرا
يراقب الفرص للإيقاع به والتخلص من شره فلما كان أول المحرم افتتح سنة ثلاث وتسعين
وسمائة خرج من قلعة الجبل يريد الصيد وسار في طائفة من الجند الى أن وصل تروجة
بالجزيرة ونصب دهليزه وركب في نفر قليل من خواصه وخرج للصيد فقصده مماليك والده
وهم بيدرا نائب السلطنة ولاجسين الذي كان متوليا نيابة السلطنة بالشام وكان قد اعتقله
السلطان مرة بعد أخرى وقرا سنقر الذي كان خلعه عن نيابة السلطنة بجلب وبهادر رأس
النوبة وجماعة من الامراء فلما قاربوا السلطان خاف منهم وأرسل اليهم أميرا يقال له كرت
أمير اخور ليكشف خبرهم وسبب مجيئهم في هذا الحين فلما وصل اليهم أمسكوه على الفور
وقاربوا السلطان وكان بينهم وبينه خور ففاوضوه ووصلوا اليه وتقدم بيدرا نحوه وعاجله
بضربة بسيفه ثم فعل به كذلك لاجسين حتى مات وتركوه ملقى على الارض فحمله أيدمر
الضغرى والى تروجة الى القاهرة فدفن في تربته التي أنشأها بجوار مشهد السيدة نفيسة
وذلك في الثالث عشر من المحرم المسذكور فكانت مملكته ثلاث سنين وشهرين ليس الا

وفرح الناس بموته فرحا عظيما فكانوا لا يذكرونه الا باللغات

وانفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا الذى هو مملوكه وأن يلقبوه بالملك
القاهر فساروا على هذا العزم نحو قلعة الجبل فاجتمعت عند ذلك ممالك السلطان
الملك الاشرف وانضموا الى زين الدين كتبغا المنصورى وساروا فى أثر بيدرا ومن معه
فلحقوهم عند الطرانة فى خامس عشر المحرم فاقتتلوا فلنهم بيدرا وأصحابه وتفرقوا فى الاقطار
فتبعوا بيدرا حتى لحقوه واحتزوا رأسه ورفعوه على رمح واختفى لاجئين وقراسنقر ولم يطلع
لهما على خبر ووصل زين الدين كتبغا وجماعة الممالك السلطانية بعد قتل بيدرا الى قلعة
الجبل وبها علم الدين سنجر الشجاعي نائبا وانفقوا على تولية السلطان الملك الناصر بن السلطان
الملك المنصور فأجلسوه على تخت السلطنة فى العشر الاواسط من المحرم وعمره يومئذ
تسع سنين وتقرر أن يكون الامير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة وعلم الدين سنجر
الشجاعي وزيرا وركن الدين بيسبرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار وتبعوا الامراء الذين
اتفقوا مع بيدرا على قتل الملك الاشرف فظفروا أولا يهادر رأس النوبة وأقوش الموصلى
الحاجب فضربت أعناقهما وأحرق جثتهما ثم ظفروا بطرناى الساقى وإيتاق ونفيسة
وأروس السلحدارية ومحمد خواجا والطنبغا الجمدار وآق سنقر الحسامى فاعتقلوا بمخزاة البنود
أياما ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم
وقبض بعد أيام أيضا على مختار الساقى فشنق * ووافق زين الدين كتبغا والشجاعي على
القبض على شمس الدين محمد بن السلعوس وزير السلطان الملك الاشرف فقبضا عليه وتولى
الشجاعي معاقبته واستصنى ماله وقتله وكان ابن السلعوس قد بلغ عند السلطان منزلة عظيمة
وعكس فى الدولة وصارت الامور كلها له وكان لابن السلعوس المذكور أقارب وأهل بدمشق
فلما صار الى هذه الحالة أرسل فأحضرهم بمصر فحضروا جميعا الا شخصا منهم فانه استمر
مقيما وكتب الى ابن السلعوس بقول

تقبه يا وزير الارض واعلم * بأنك قد وطئت على الافاعي

وكن بالله معتصما فانى * أخاف عليك من نهش الشجاعي

ولم تمض مدة طويلة حتى وقعت الوحشة بين الامير زين الدين كتبغا وعلم الدين
سنجر الشجاعي المذكور فصار مع كل منهما جماعة من الامراء واشتد الامر بينهما واستفعل
الخلاف فتزل كتبغا ومن معه من قلعة الجبل وبقي سنجر وأصحابه بها لا يبرحون فحصره
كتبغا وما زال حتى غلب عليه وقتله واحتز رأسه وطيف به فى البلد وذلك فى صفر من
السنة أى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة فلما شاع خبر موته ظهر حسام الدين لاجين وشمس
الدين قرا سنقر من الاستنار بعد الغيبة فأخذ لهما زين الدين كتبغا الامان من السلطان
وقرر لهما الاقطاعات الجبلية وأعز جانبهما وأخذ زين الدين المذكور من هذا الحين يعمل

على اختلاس الملك من أستاذه الملك المنصور فلما كان يوم الاربعاء تاسع المحرم افتتح سنة
أربع وتسعين وثمانمائة أزال من طريق مقاصده ما كان يحول دون الوصول اليها وخلع
السلطان الملك المنصور من تحت السلطنة وجلس هو على سرير الملك ولقب نفسه الملك
العدل زين الدين كتبغا واستخلف الناس على ذلك خلفوا وخطب له على منابر مصر والشام
ونقشت السكة باسمه ثم قبض على السلطان الملك الناصر ووضع في قاعة بقلعة الجبل
وحجبه عن الناس فصار لا يراه أحد ولا يسمع بغيره فكانت مدة ملك السلطان الملك الناصر
المدكور سنة الاياما

ولما استتب الامر لزين الدين كتبغا جعل نائبه في السلطنة حسام الدين لاجين الذي
كان مستترا بسبب قتل السلطان الملك الاشرف وأخرج عن الامير مهنا أمير العربان واخوته
وابنه عيسى وزودهم وسيرهم الى بلادهم وخرج في شوال من السنة يريد الشام فوصل دمشق
وأقام بها أياما وقد نعم على عز الدين أيبك الجوى نائب السلطنة بالشام أمورا فخلعه وولى
مكانه سيف الدين أحد مماليكه وقام من دمشق في أوائل المحرم افتتح سنة سبع وتسعين
وسمائه بالعسكر متوجها الى مصر فلما وصل الى نهر العرجا واستقر بدهليزه وتفرقت
مماليكه وغيرهم الى خيامهم ركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب السلطنة بسنجقه
ونفاره وانضم اليه بدر الدين البيسرى وقرا سنقر المنصوري وسيف الدين قلمحاق المنصوري
وبهادر الظاهري وغيرهم من كبار الامراء وكانوا قد اتفقوا مع لاجين نائب السلطنة على
الغدر بالسلطان كتبغا المدكور لبغضه لهم واعراضه عنهم الى بعض خواصه وباعتوه عند
الظهر في دهليزه بالمتزلة المدكور فلم يتمكن من جمع أصحابه وركب في نفر قليل فحمل
عليه نائبه لاجين فقتل يكتوت الازرق ونجاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى
العدل هاربا راجعا الى دمشق حيث كان بها مملوكه عزلو ووصل اليها فركب مملوكه عزلو
المدكور والتقى به ودخل الى قلعة دمشق واهتم بجمع العساكر والتأهب للقتال مع لاجين
فلم يوافقهم عسكر دمشق على ذلك ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه عن السلطنة ولبث
بقلعة دمشق وأرسل الى حسام الدين لاجين يطلب منه الامان وموضعا يأوى اليه فاعطاه
صرخد فسار كتبغا الى صرخد واستقر بها الى أن كان من أمره ماسد كرفي حينه . وأما
حسام الدين لاجين فانه لما هزم العادل كتبغا على ما ذكر نزل بدهليزه عند نهر العرجا واجتمع مع
الامراء الذين وافقوه على ما بدا وشرطوا عليه شروطا فالتزمها فكان من تلك الشروط أن لا ينفرد
عنهم برأى ولا يغري مماليكه بهم كما فعل كتبغا فأجابهم الى ذلك وحلف لهم واستخلفهم على
الطاعة خلفوا وابعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وذلك
في المحرم افتتح سنة ست وتسعين وثمانمائة فكانت مدة ملك السلطان الملك العادل زين
الدين كتبغا المنصوري سنتين تقريبا الى أن خلع
ولما بايع الامراء الملك المنصور حسام الدين لاجين رحل من فوره بالعسكر الى مصر

ووصل اليها فدخلها في أبهة زائدة وصعد الى قلعة الجبل واستقر بها وجعل يتصرف في
 الامور ويرتب الاحوال على ما يريد ثم سير الامير سيف الدين منجق الى دمشق وجعله نائب
 السلطنة بالديار الشامية وأخرج السلطان الملك الناصر من معقله بقلعة دمشق وسيره الى
 الكرك محبة سلار فأوصله اليها وتركه بها وعاد سلار الى مصر وأفرج كذلك عن بيبرس
 الجاشنكير وعن عدة أمراء كان العادل كتبغا قد قبض عليهم واعتقلهم في أبيامه * وتاقت
 نفسه الى التشبه بكار الملوك عن سلفه في الغزو والفتوحات فجيش جيشا عظيما وسار
 الى بلاد الروم فلم يفتح الله عليه بشئ منها الا القليل جدا في جانب ما فقد من المال
 والرجال وذلك لانحراف قلوب الامراء عنه وتسليم أموره الخصوصية الى الاحداث من
 المماليك الذين اصطفاهم لنفسه وعينهم لخدمته وكان القائم عليهم شخص اسمه سيف
 الدين طغجي * قال أصحاب التاريخ وكان سبب بغض الامراء له ما فعله بهم من أخذ
 جانب من اقطاعاتهم واخراجهم من دواوينهم وجعله لهم ولجميع العساكر والاجناد أحد
 عشر قيراطا بدل عشرين وقد كانت القاعدة الى سلطنة الملك المنصور لاجئين أنهم اعتبروا
 أرض مصر أربعة وعشرين قيراطا فخصوا السلطان منها بأربعة والعساكر والاجناد بعشرة
 وسائر الامراء بعشرة ولما كان الامراء هم المتولين ادارة شؤون جميع العساكر في السلم
 والحرب كانوا لا يعطون للعسكر من اقطاعهم الا بقدر الحاجة وربما أقل بكثير أولا
 يعطونهم ويضمون ما يستغل منها الى دواوينهم الخصوصية فكثرت لذلك اقطاعات الامراء
 وأوى اليها أهل الشقاوة والفساد فعاثوا فيما جاورها من البلاد والقرى والمزارع وقطعوا
 الطرق على المارة وأبنا السبيل وعجز الولاة عن ردعهم خوفا من اغضاب الامراء وكانت
 الحقوق الديوانية تمنع من هذه الاقطاعات فكانت طعمة لاعوان الامراء فلما تولى السلطنة
 الملك المنصور لاجئين رآه جميع البلاد ورد تلك الاقطاعات على أربابها وأخرجها جميعها من
 دواوين الامراء ورتب للامراء وجميع الاجناد أحد عشر قيراطا وأفرد تسعة لحاجة
 العسكر عند الاقتضاء وحرر أوراقا بما يكفي الامراء والاجناد * فلما أيس الامراء من رجوع
 الاحوال الى ما كانت عليه قبل سلطنة لاجئين وقد أحسوا بعزم السلطان على الايقاع بهم
 عدوا الى قتله واختاروا لذلك جماعة من مماليكه فلما كانت ليلة الجمعة حادى عشر ربيع
 الآخر سنة ثمان وتسعين في أوائل الليل دخل عليه جماعة من أولئك المماليك وهو يلعب
 بالشطرنج وتقدم أحدهم نحوه واسمه سيف الدين كرجي وضر به بسيفه وقتلاه الباقون
 بسيوفهم حتى قتلوه وطلبوا مملوكه ونائبه منكوتر فهرب واستجار بسيف الدين طغجي
 الاشرقي مقدم المماليك فأجاره وبعث به الى الجلب فحبسه هناك ثم بعد استقراره في الجلب
 توجه اليه كرجي الذي قتل السلطان ومعه جماعة وأنزجوه وذبحوه على رأس الجلب وباتوا
 ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جلس طغجي مقدم المماليك في موضع النيابة وأمر ونهى * قال
 كتاب الاخبار وكان هنالك جماعة من كبار الامراء المتقدمين مثل حسام الدين استاذ القار

ويسير الجاشنكير وغيرهم فأخذهم أخذ الغيظ مما فعله طغجي فانفقوا على الوقعة به
واعادة الملك الى السلطان الملك المقيم بالكرك الذي تقدم الكلام عنه واتفق في هذه الاثناء أن
حضر بعض العسكر الذين كانوا في حلب ومعهم أمير السلاح وغيره من الامراء فأشار الامراء
المتأمرين على طغجي المذكور بالركوب للقاء أمير السلاح فامتنع فعادوه فأجاب وركب
من قلعة الجبل وجعل نائبه بها كرجي فأنال السلطان الملك المنصور لاجين فلما اجتمع الامراء
بأمر السلاح تحدثوا فيما فعله أولئك الصبيان من قتل السلطان وبالغوا في الامر واتهموا
طغجي المذكور بفعله وكان طغجي جالسا بينهم فأنكر ذلك وبالغ في الانكار فقام عليه
الامراء بالسيوف فهرب منهم فأدركوه وقتلوه وقصدوا كرجي بقلعة الجبل فهرب فاتبعوه وقتلوه
أيضا وذلك في ربيع الآخر من السنة فكانت مدة ملك حسام الدين لاجين الملقب بالملك
المنصور ستين وثلاثة أشهر وقيل سبعة وأربعين يوما لم يأت فيها بعمل يذكر ولا يعرف يشكر
ولما قتل الملك المنصور وطغجي على الوجه المذكور اتفق الامراء كافة على اعادة
الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدين بن فلاوون الى مملكته فبعثوا اليه
سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولي الى الكرك فأحضراه الى مصر وصعد الى قلعة
الجبل في أيلة وكبكية عظيمة فلما كان يوم السبت رابع عشر جادى الاولى من السنة
أى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة أجلسوه على سرير الملك وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق
وضربت السكة باسمه فكانت هذه ولايته الثانية واتفق معه الامراء على أن يكون سيف
الدين سلا نائبا للسلطنة وييسر الجاشنكير أستاذ الدار ويكثر الجوكندر أمير جندار
ففعل وفوض نيابة السلطنة بالشام الى جمال الدين أقوش الأقرم وأفرج عن شمس الدين
قرا سنقر من الاعتقال وكان له فيه نحو سنة وشهرين ثم سيره الى الصبية وقد كانت البلاد
بغير ملك مدة أحد وأربعين يوما الى أن حضر السلطان الملك الناصر محمد بن فلاوون المذكور
وعاود التنار الكرة في أيام الملك الناصر على بلاد الشام فعبروا الفرات في شهر ربيع
الآخر سنة سبعمائة فخفلت منهم المسلمون ودخلت بلاد حلب وسارقا سنقر بعسكر حلب
الى حماة وبرز زين الدين كتيغا وعسكر حماة الى ظاهر البلد ووصل العساكر من دمشق
أيضا واجتمعوا بحماة ونزل التنار على سرين والمعرة ونيزين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون
فكبر الأمر على السلطان واستعظمه جدا وسار في عسكره ووصل الى العرجاء وكان الوقت
شتاء فانفق أن هطلت الامطار بشدة زائدة فاشتدت الاحوال حتى انقطعت الطرقات
وانقطعت الاقوات وبجز السلطان والعسكر عن القيام على تلك الحال فرحلوا وعادوا الى
مصر وبقيت التنار تعيث وتفسد وتفعل بالبلاد مالا خير فيه نحو ثلاثة أشهر ثم رحلوا الى
بلادهم فرجع عسكر حلب ولم يستقر بالسلطان المقام بعد رجوعه حتى تغيرت عليه قلوب
الامراء وقامت الفتنة بسبب تولى بعضهم المناصب دون البعض الآخر وتجزوا وتفرقت
كلتهم وكاد يتعذر على السلطان تلافى الأمر وبينما هم على هذا الحال من الاضطراب

والاختباط اذ مات الخليفة أبو العباس الحاكِم بأمر الله في ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى
الاولى سنة احدى وسبعمئة فارسل نائب السلطنة خلف جميع من في البلاد من الامراء
والقضاة والعلماء والصوفية ومشايخ الزوايا والرباطات وغيرهم ليحضروا للصلاة على الخليفة
فكان المجتمعون خلقا كثيرا جدا وبعد الصلاة عليه دفنوه بجوار السيدة نفيسة في قبة بنيت له
فكان الخليفة المذكور أول خليفة مات بمصر من بنى العباس وكانت خلافته أربعين سنة
وأشهرها ولم يكن له من الامر شئ سوى الامامة والخطبة في صلاة الجمعة

قال أبو شامة ولاحظه الملك الأشرف خليل بن قلاوون أتم ملاحظة من سبقه ورعى
لوجه نعمة الخلافة فيه حقها من جميل المحافظة وقال غيره خطب الخليفة الحاكِم بأمر الله
بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين وثمانئة بسؤال الملك الأشرف له ذلك
وذكر في خطبته بولاية السلطنة للأشرف ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورة بحضور السلطان
والقضاة وحض على غزو التتار واستمقاذ بلاد العراق من أيديهم وذلك سنة تسعين وثمانئة
في ذى القعدة ثم خطب مرة رابعة في التاسع والعشرين من ربيع الاول سنة احدى
وتسعين وحث على الجهاد والنفير وصلى بالناس الجمعة وجهر بالبسملة وقال الذهبى في العبر
آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله ولم يخطب بعده خليفة الا الحاكِم العباسى هذا
فانه خطب في خلافته وقال ابن فضل الله لما ملك المنصور لاجين زاد في اكرامه أى في
اكرام الخليفة الحاكِم بأمر الله وصرفه في الر كوب والتزول فبرز الى قصر الكباش وسكن به
ثم انه حج في سنة سبع وتسعين وثمانئة فاعطاء المنصور لاجين ستمائة ألف درهم ورجع من
الحج فأقام بمنزله الى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الاولى سنة احدى وسبعمئة
ودفن بجوار السيدة نفيسة اه

ومات في أيام الخليفة الحاكِم بأمر الله مرقس بطرك الاسكندرية فكانت
مدته اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة وعشرين يوما وفي أيام مرقس هذا
انتقل مرقس بن قنبر وجماعة من القنبرة الى رأى الملكية وبالغوا في نصرة الملكيين أياما
كثيرة فاستعظم المناصلون هذا الامر وكثيرين الفريقين الاخذ والرد الى أن عاد القنبرة
الى المتأصلين فقبلوا فلم يلبثوا الا القليل حتى ارتدوا الى الملكية ثم رجعوا فلم يقبلوا
وكان مرقس بطرك المذكور ذا همة ومروءة عاقلا رزيناً حازماً يحسن السياسة والتدبير
وكان جليلاً مهيباً مقبول الكلمة واحترقت في أيامه كنيسة أبو مرقوره وخلا بعد موته
الكرسى سبعة وعشرين يوماً ثم أقيم يوحنا بن أبى غالب وهو رابع سبعين من أهالى مصر
وكل بالاسكندرية وكان من طائفة التجار يتردد الى اليمن فى البحر حتى كثر ماله وكان معه
مال لاؤلااد الخياط فاتفق أنه غرق فى البحر الاحمر وذهب جميع ماله ونجا بنفسه الى
القاهرة وقد أيس أولاد الخياط من مالهم فلما بلغهم خبر حضوره قابله فاعلمهم أن مالهم
قد سلم لانه كان قد حمله فى ناقار خشب مسمرة فى المركب فصار لهم به من هذا الحين عناية

كبرى فلما مات مرقس البطرك سعى يوحنا المذكور للقس أبي باسريوليسه بطرركا قيل
فقال له اولاد الخبايا خذ أنت البطركية ونحن نزيك فوافقهم يوحنا على ذلك فسعوا له
وأقاموه بطرركا فشق الامر على أبي باسري وهجره بعد صحبة طويلة وكان معه لما استقر في
البطركية سبعة عشر ألف دينار مصرية أنفقها على الفقراء وأبطل الديارية ومنع الشرطونية
ولم يأكل لأحد خبزا ولم يقبل من أحد هدية حتى مات رحمه الله تعالى
ولما مات الخليفة الحاكم بأمر الله قام بالخلافة بعده ولده أبو الربيع سليمان ولقب
بالمستكني بالله وكان أبوه قد عهد اليه بالامر قبل وفاته فبويع بغير خلاف ولا جدال

(الفصل الثالث)

(في خلافة المستكني بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله)

ثم قام بالامر بعد الحاكم بأمر الله ولده المستكني بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم
بأمر الله بويع له في العشرة الاواخر من جمادى الاولى سنة احدى وسبعائة هجرية أى سنة
احدى وثلثمائة وألف ميلادية وخطب له على المنابر بالديار المصرية والشامية وسارت
البشائر بذلك الى جميع الاقطار والممالك الاسلامية * قال ابن كثير قدم البريد من القاهرة
سادس عشر جمادى الآخرة فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ومبايعة المستكني
وانه حضر جنازته الناس كلهم مشاة نقطب يوم الجمعة ناسع جمادى الآخرة للخليفة
المستكني بجامع دمشق وكتب له تقليد بالخلافة وقرئ بحضوره السلطان والدولة يوم الاحد
العشرين من ذى الحجة ولم يكن السلطان أمضى له عهد والده حتى سأل الشيخ تقي الدين بن
دقيق العيد وهو قاضى القضاة يومئذ هل يصلح للخلافة أم لا فقال الشيخ تقي الدين نعم يصلح
قال وانما احتيج الى ذلك لانه كان صغير السن لم يبلغ عشرين سنة فان مولده كان في أربع
وثلاثين وستمائة وكان له ابن أخ أسن منه فكان ينازعه الامر فلما أشار الشيخ باستخلافه
أمضى عهد والده فكان العهد هكذا

الحمد لله الذى رفع المستكني به لما اتصب بشريف همته للعلى الاسمى * ومنع الأمة
به بربيع خفض العيش وحرم أمرهم على الصلاح والتوفيق حزما * وأدام الأئمة من قريش
وتظم لا لى حكم أحكامهم فى جيد الزمان تظما * وجعل الناس تبعاً لهم فى هذا الامر
فغيرهم بالخلافة العظمى لا يدعى ولا يسمى * فالحاكم الحسين المسترشد المستظهر بنخبة
الدين القائم بأمر الله القادر المقندر الموفق المتوكل المعتمد الرشيد المهدي الكامل من
اقتنى لسن سنتم رسما * استودع الخلافة فى بنى العباس الذى كان نبيه الكريم عما *

وفرج عنه ليلة العقبة ببايعة الانصار كربا وغما * فبشره بأن الخلافة في عقبه فعمه
 بالسورور غما * فلما انتهى ذلك السرفى العوالم الى الحاكم قيل وقد نكبت هيئة الخلافة
 عن معرفته - حقوقها العظيم من كل عظيم ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما * أجدد
 حمد من لم يثن عن طاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر عزمنا * والله يؤتيها من يشاء من خلقه
 اختيارا ورغما * وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى دعا الى مودة أولى القربى وهم أفضل
 قرابة زكاة وأقرب رحما * صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وخلفائه وعترته الذين هم أعدل
 البرية حكما * وبعد فان الملك السلام منذ أسجد لآدم ملائكته الكرام فى سالف الأزمان
 قدما * جعل طاعة خلفائه فى بلاده على سائر عبادته حقا كيف لاوبهم يعمر الوجود وتقام
 الحدود وتهدم أركان الجورهدما * فبصياتهم تأمن البلاد وربما تصادف قرب وفاتهم أن
 لبس القمر ليلة التم حلة السواد وأخفى جرما * ولما كان سنة من تقدم من الأئمة الخلفاء اذا
 خاف أن يهجم عليه الحمام هجما * ولاتهدى اليه الايام ألما وسقما * تفويض الامر بولاية
 العهد الى الخلق خير ذريته وبنية نجدة وحزما * أشهد على نفسه الشريفة مولانا الامام
 الحاكم الحاكم عليه تقواه * المراقب لله فى سره ونجواه * الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين
 وخليفة رب العالمين * ابن عم سيد المرسلين وارث الخلفاء الراشدين * أبو العباس أحمد ابن
 الأمير الحسن بن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبى منصور الفضل ابن أمير المؤمنين المستظهر
 بالله أبى العباس أحمد ابن أمير المؤمنين أبى القاسم عبد الله ابن المرحوم الذخيرة للدين ولى
 عهد المسلمين محمد ابن الامام القائم بأمر الله أبى عبد الله محمد بن القادر بالله أبى العباس
 أحمد ابن أمير المؤمنين أبى الفضل جعفر المقننر بالله ابن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى
 العباس ابن الأمير محمد الموفق بالله أبى طلحة ولى عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين جعفر
 المتوكل ابن أمير المؤمنين أبى اسحق محمد المعتمد بن هرون الرشيد ابن أمير المؤمنين محمد
 ابن أمير المؤمنين عبد الله حبر الأمة بن عباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم
 أعز الله به الدين * وأمنع ببقاء نسله الشريف الاسلام والمسلمين * وهو فى حالة بسوغ معها
 الاشهاد عليه * ويرجع فى الامور المنوطة للخلافة الشريفة اليه * أنه عهد الى ولده لعليبه
 الامام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان شيد الله به أركان الايمان * ونصر بركة سلفه
 العصاة المحمدية على أهل الكفر والطغيان * وجعله ولى عهده واستخلفه من بعده لما يعلمه
 من أهليته * وعدالته وكفالته وصلاحه لذلك وكفائته * وأستخصه لشهود هذا المكتوب
 الشريف * ونبه على استحقاقه لذلك ومحل العالى المنيف * عهدا صحيحا شرعيا * معتبرا
 تاما مرعيا * وفوض اليه أمر الخلافة العظيمة تفويضا شرعيا صريحا * وعقد له عقد
 ولاية العهد على الامة عقدا صحيحا * وقبل ذلك منه القبول الشرعى * المعنبر المرضى *
 فآله تعالى يجمع به كلمة الاسلام * وبصحبه فى خلافته الشريفة رأيا موقفا ويقع بركة
 سلفه الكرام أهل الطغيان * ويهيئ له من أمره مرفقا بمنسه وكرمه أمين * والحمد لله رب

العالمين * وصلواته على سيد المرسلين * نبيه وآله وصحبه أجمعين * وبه شهد في اليوم المبارك التاسع عشر من جمادى الاولى سنة احدى وسبعمائة أحسن الله العقبى في ختامها * وأجرى الخيرات فيما بقي من شهرها وأيامها اهـ

ولما بايعه السلطان والقضاة والاعيان ألبس جبة سوداء وطرحه سوداء وخلع السلطان على أولاد أخيه خلع الامراء وأشهد عليه أنه ولي الملك الناصر جميع ما ولاء والده وفوض اليه جميع الامور ثم نزل في داره بالكبش ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم ثم رسم السلطان بعد ذلك أن ينتقل هو وأولاده وجميع من يلوذ به الى قلعة الجبل اكراما لهم وتعظيما فانتقلوا في جمادى الآخرة ونزلوا في دارين منها وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة واستمر هو والسلطان دهرًا كالأخوين يلعبان بالاكرة ويخرجان الى المنتزهات ويسافران معا الى غزو التنار حتى وشى الواشى بينهما وكان من أمرهما ما سيذكر في محله ان شاء الله

ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة نزل بديار مصر نازلة لم يسبق لها مثيل فقد زلزلت الارض زلزالا عظيما فانشقت الصخور وهدم كثير من المباني والدور بمصر والقاهرة والاسكندرية وغيرها ومات خلق كثير تحت الردم ودمرت من أسوار مدينة الاسكندرية ستا وأربعين بدنة وكانت القتلى تنثر وتستغيث تحت الردم والناس في دهشة لا يلتفتون اليهم بل كل مشغول بنفسه قال كاتب الاخبار فكانت ساعة يالها من ساعة تشيب من هولها الولدان وبقيت الخرائب دهرًا فكأنوا اذا أرادوا حمل ما اتهم من ترابها ظهرت جثث النساء والرجال والاطفال على هيئات مختلفة تنفطر من رؤيتها القلوب واستمروا على هذا أياما كثيرة وعم الخوف الناس وأخذ من قلوبهم وتطيروا من سلطنة الملك الناصر محمد بن فلاوون فانتحرفت قلوبهم عنه وتناولت أيدي بعض الامراء الى العبث بأمور المملكة وظهر سلاار نائب المملكة وبيبرس الجاشنكير أستاذ الدار واستبدا بالأمر وتجاوزا الحد في الانفراد بالاموال والأمر والنهي ولم يتركوا للسلطان غير الاسم وحصره في قلعة الجبل أياما كثيرة حتى قبل جميع ما طلباه صاغرا وكان كلما هم بانخلاص صادفه من الشدة ما يقعه وطال عليه الحال فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وسبعمائة أظهر الرغبة في الخروج الى الحج وأخذ في التأهب والاستعداد وخرج في الخامس والعشرين منه فسار في خدمته جماعة من الامراء هم عز الدين ايدمر الخطيرى والامير حسام الدين قرا لاجين والامير سيف الدين آل ملك وغيرهم فسار الى الكرك ووصل اليها في عاشر شوال وكان النائب بها جمال الدين أقوش الاشرقي فعمل الولاثم واحتفل بالسلطان احتفالا عظيما فعبر السلطان الى المدينة ثم الى القلعة قال بعض الكتاب ولما عبر على الجسر الى القلعة والامراء تمشى بين يديه والمماليك حوله وخلفه سقط جسر القلعة وقد أصيبت يد فرس السلطان وهوراكب داخل عتبة الباب فلما أحس الفرس بسقوط الجسر أسرع حتى كاد أن يدوس الامراء المشاهدين بين يديه وسقط في الخندق من المماليك وأهل الكرك عدد كثير ونزل في

الوقت السلطان عند الباب وأمر فأحضروا الجنيات والرجال ورفعوا الذين سقطوا في الخندق جميعا * ولما استقر به المقام أمر من كان معه من الامراء بالرجوع الى مصر وكشفهم على أنه انما أظهر السفر الى الاقطار المجازية وسيلة الى المقام بالكرك وعدم العود الى مصر تخلصا من فعال سلار وبيبرس الجاشنكير فراجعهم الامراء في ذلك فلم يقبل وأصر على البقاء بالكرك فعاد الامراء الى مصر وأعلموا من بها بالخبر وتساوروا فيما بينهم واتفقوا على أن يولوا السلطنة ببيبرس الجاشنكير وأن يكون سلار مستمرا على نيابة المملكة كما كان عليها وحلفوا جميعا على ذلك

فلما كان يوم السبت الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وسبعمائة خرج بيبرس من داره راكبا في شعار السلطنة وحوله الامراء والمماليك على اختلاف طبقاتهم وأمامه الجنائب السلطانية وسار الى الديوان الكبير بقلعة الجبل وجلس على سرير الملك ولقب بالملك المنقور ركن الدين بيبرس المنصوري وطير الخبر الى فؤاد السلطنة بالشام فحلفوا له وكتب تقليدا الى السلطان بالكرك و دستورا بما عينه له من الاقطاع وأرسلهما اليه * قال كتاب الاخبار واستقر الحال على ذلك بلا منازع حتى خرجت هذه السنة فكانت مملكة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية نحو العشرين سنة * ولما استقر ببيبرس المنصب استبد بالامر وأساء التدبير وأظهر الشدة والجفاء للكثير من الامراء فانخرقت خواطرهم وابتعدوا عنه وظهرت بينهم دلائل الوحشة والنفور وزح عن مصر منهم جمال الدين أفراس الموصلي المعروف بقتال السبعة وهو من ممالك بدر الدين بن لؤلؤ صاحب الموصل وكذلك لاجين الجاشنكير المعروف بالزبرج ومعهما زهاء ألفي فارس من عسكر مصر وبعض من عسكر حماة قاصدين حلب فدخلوها وكان نائب السلطنة فيها يومئذ قرا سنقر المنصوري واتفق أن حضر أيضا جماعة من عسكر دمشق مع الحاج بهادر الظاهري فسرقوا قرا سنقر بقدمهم وبعثوا الى تمهيد السبل لارجاع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الى كرسي السلطنة فجعل يستميل الناس الى طاعة السلطان ويستجدهم لنصرته وخرج أيضا جماعة من المماليك على حجة وغيت مفارقين طاعة بيبرس المذكور وساروا الى السلطان بالكرك وأعلموه بما عليه الناس من طاعته ومحبة وبغضهم لبيبرس فنقوت عند ذلك آمال السلطان وأعاد خطبته بالكرك ووردت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم ياقون على طاعته وكذلك وردت اليه المكاتبات من حلب فسار بعن معه من الكرك في جادى الآخرة الى قرية عمان وهي قريب من رأس الماء ونزل بها فجاءه أحد ممالك قرا سنقر نائب السلطنة بحماة برسالة مكذوبة على قرا سنقر الى السلطان بعدم تعويله على ما وردت به كتب أولئك الطائعين وسرعة رجوعه الى الكرك فصدق السلطان هذا الخبر وظنه حقا وعاد مسرعا الى الكرك فبين معه من العساكر واستمرت العساكر مع ذلك على طاعته واستدعائه وانحلت في هذه الفترة حكومة بيبرس

أر كادت وجاهره الناس بالعداوة وأظهروا الخلف وانعكست الأمور عليه وخرج
أغلب الجند عن الطاعة فرحل من كان بحماة من الجند والعساكر بغير دستور ولا مرسوم
ولم يبق بحماة إلا بعض العسكر المصري * ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العسكر
له وخرجهم عن طاعة بيبرس وبقاء العسكر الشامي جميعه على الاخلاص والولاء عاود
المسير الى دمشق وخرج من الكرك وخرجت عساكر دمشق الى لقائه وكان نائب
السلطنة بدمشق أقوش الأفرم وهو من الطائعين لبيبرس فلما لم يقدر على منع العسكر من
الخروج هرب من دمشق فدخلها السلطان في يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان من السنة
وهيئت له قلعة دمشق فلم ينزل بها ونزل بالقصر الابلق فأرسل الأفرم اليه يطلب
الامان فأمنه فقدم الى طاعته وتتابع وصول العسكر لنجدة السلطان من حماة
والساحل ووردت عساكر الشام جميعا فلما تكاملوا رسم لهم السلطان بالتأهب للمسير الى
ديار مصر وأرسل الى الكرك فأحضر ما كان بها من الخواصل وأنفق في العسكر ثم سار بهم
من دمشق في يوم الثلاثاء تاسع رمضان سنة ثمان وسبعمائة * فلما بلغ بيبرس الجاشنكير
ونائبه بمصر ما فعله السلطان خافا جدا وجرى بيبرس عسكرا عظيما مع الأمير برلقى وغيره من
المقدمين فساروا الى الصالحية وأقاموا بها وكان برلقى المذكور من أكبر أصحاب الجاشنكير
وأعزهم اليه وسار السلطان بجيشه حتى وصل غزوة في يوم الجمعة تاسع عشرى رمضان فلم
يشعر عسكر مصر بوصول السلطان الى غزوة حتى أخذوا يتقدمون له بالطاعة فريقا بعد فريق
وكان ممن قدم له الطاعة أيضا برلقى قائد الجيوش وغيره من المقدمين وكثير من العساكر ثم
تتابعت الطلاب وكان السلطان يلقي في كل يوم وهو سائر طلبا بعد طلب من الامراء
والمماليك والاجناد يقبلون الارض ويسرون بين يديه قاصدين الديار المصرية ووردت
الاخبار بذلك الى بيبرس فأسرع في خلع نفسه وسير ركن الدين بيبرس الدوادار ومعه
بهدار آص الى السلطان في طلب الامان وأن يتصدق عليه ويعطيه اما الكرك واما حماة
أوصهيون وأن يكون معه ثلثمائة مملوك من مماليكه فأجابه السلطان الى مائة منهم وأن يعطيه
صهيون وأسرع مع ذلك في المسير الى مصر فهرب الجاشنكير من قلعة الجبل الى الصعيد
وخرج سلاار الى طاعة السلطان والتفاه يوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان قاطع
بركة الحاج وقتلهم ثم ضرب للسلطان الدهليز بالبركة فلم ينزل به ورحل في نهارة ومعه
العسكران الشامي والمصري فوصل الى قلعة الجبل من يومه وصعد اليها وجلس على سرير
الملك بعد العصر في نهار الاربعاء مستهل شوال سنة تسع وسبعمائة فكانت هذه أيضا
سلطنته الثالثة

وفي يوم الجمعة ثالث شوال وهو اليوم الثالث من دخول السلطان القاهرة سار سلاار من
قلعة الجبل الى الشوبك بحكم من السلطان حيث أنتم بها عليه وأعطى سيف الدين قبيق
حلبا واسترجع منه حماة فقام اليها وقام معه عسكر حماة ورسم للامير أقوش الأفرم

بصرخد فسار اليها وقررت نيابة السلطنة بالشام لشمس الدين قرا سنقر وقرر حجة للعاج بهادر
الظاهرى ثم استرجعها منه وقرره على نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل استدمر
عنها وقرر الامير سيف الدين بكتمر الجوكندار في نيابة السلطنة بمصر ورتب جميع الامور
على ما اراد ودانت له الاحوال فجعل يتصرف فيها * أما بييرس الجاشنكير فانه لما هرب الى
الصعيد وكان قد أخذ معه شياً كثيراً من الاجمال والاموال أرسل السلطان فاسترجع منه ما
أخذه وضييق عليه فقصد المسير الى صهيون حسبا كان طلب فسار من اطفحج الى السويس
ومنها الى الصالحية ثم سار منها الى أن وصل الى موضع بأطراف غزة يسمى العنصر قرب
الداروم وكان قرا سنقر متوجها الى دمشق نائبا بها على ما استقر عليه الحال فوصل اليه
مرسوم السلطان بالقبض على بييرس المذكور فركب قرا سنقر في الحال وكبس عليه بالمكان
المذكور وقبض عليه وسار به الى مصر حتى وصل الى الخطارة فبعث اليه السلطان باستدمر
الكريسي وتسلم منه بييرس وأخذته الى قلعة الجبل واعتقه له فيها وذلك في يوم الخميس رابع
عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعمائة فكان آخر العهد به وكانت مدة سلطته أحد عشر
شهرا لاغير * قال كتاب الاخبار وبييرس هذا هو الذى بنى البييرسية بالدرب الاصفر
ودفن بها وجدد جامع الحاكم بعد الزلزلة التى سبق الكلام عنها فى حينها * وانتظمت للملك
الناصر الامور واستقرت له الاحوال فنصرف واستبد بالامر وأنشأ العمارات العظيمة فى سنة
عشرين وسبعمائة منها الميदान المعروف بميدان الهاوى المجاور لقناطر السباع وعُد الى بناء
زربية فى التل الاعظم بجوار الجامع الطيبرسى فرسم بنقل كوم تراب كان هناك وحفر ما تحته
من الطين لاجل بناء الزربية وأجرى الماء الى مكان الحفر فصار يعرف بالبركة الناصرية وكان
الشروع فى حفر البركة المذكورة سنة احدى وعشرين وسبعمائة * قال أصحاب التاريخ فلما
انتهى الحفر الى جانب كنيسة الزهرى (كانت هناك كنيسة تسمى كنيسة الزهرى بالقرب
من قناطر السباع فى الخليج الغربى غربى باب اللوق وكان بها كثير من النصارى لا يزالون
فيها ويحياها عدة كائنات فى الموضع الذى يعرف بحكر ابغا ما بين السبع سقايات وبين قنطرة
السد خارج مدينة القسطنطينية) أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى حتى بقيت قاعة
فى وسط الموضع الذى عينه السلطان للحفر وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة ومع ذلك
لم تسقط وصار العامة من غلمان الامراء العاملين فى الحفر وغيرهم فى كل وقت يصرخون
فى طلب هدمها الى أن كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة
وترك أعمال الحفر فجمع عدة من غوغاه العامة بغير مرسوم من السلطان وصاحوا
بصوت مرتفع الله أكبر ووضعوا ايديهم بالمساحى ونحوها فى الكنيسة المذكورة وهدموها
حتى بقيت كوما وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان بها من اواني
الذهب والفضة والحلى وغيره من الاشياء الثمينة ثم تطاوت ايديهم الى الكنائس الاخرى
فهدموا كنيسة بومينا التى كانت بالحراء وكانت معظمة جدا من قديم الزمان وبها كثير من

المسيحين قد انقطعوا فيها وكان يحمل اليهم بها من مصر سائر ما يحتاج اليه ويبعث اليها بالنذور والخلية والصدقات الكثيرة فوجد فيها مال كثير من نقود ومصوغات وتسلق العامة الى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالا وقاشا وغيره فكان أمرا مهولا للغاية ثم مضوا من كنيسة الجراء بعد ما هدموها الى كنيسة أخرى بجوار السبع سقايات تعرف احدهما بكنيسة البنات وكان بها كثير من الراهبات المتعبدات وعدة من الرهبان فكسروا أبواب الكنيسة وسبوا البنات سبيا وكن زيادة عن ستين بنتا وأخذوا ماعلين من الثياب ونهبوا سائر ما ظفروا به وأحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها * قال المقرري هذا والناس في صلاة الجمعة فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولاء كبيرا من كثرة الغبار ودخان الحريق وخرج الناس وشدة حركتهم ومعهم ما نهبوه من الامتعة فكان ذلك اليوم أشبه بيوم القيامة وانتشر الخبر وطار الى الرميثة تحت قلعة الجبل فسمع السلطان ضجة عظيمة أفزعته فبعث ليكشف الخبر فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجا عظيما وغضب من تجرى العامة واقدماهم على ذلك بغير أمره وأمر الامير ايدغمش أمير اخور أن يركب بجماعة الاوشاقية ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله فأخذ ايدغمش يتها للركوب واذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت في القاهرة ونزبت كنيسة بجارة الروم وكنيسة بجارة زويلة وجاء الخبر من مدينة مصر أيضا بأن العامة قامت بمصر في جمع كثير جدا وزحف الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع فقفلهما الموكلون بها وهم محصورون بها وهي على وشك أن تؤخذ فتزايد غضب السلطان وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة فراجعه الامير ايدغمش فتأخر ونزل من القلعة في أربعة من الامراء الى مصر وركب الامير بيبرس الحاجب والامير ألماس الحاجب الى موضع الحفر وركب الامير طينال الى القاهرة وكل منهم في عدة وافرة وقد أمر السلطان بقتل كل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يبقوا على أحد فقامت القاهرة ومصر على ساق وفترت النهاية فلم يظفر الامراء منهم الا بن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخير الذي نهبوه من الكنائس ولحق الامير ايدغمش بمصر وقد ركب الوالى الى المعلقة قبل وصول ايدغمش ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فر منهم ولم يبق الا أن يحرق باب الكنيسة فجرد ايدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالما لا يحصر وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بأرجاف الناس من غير اهراق دم ونادى مناديه من وقف حل دمه ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا وصار ايدغمش واقفا الى أن أذن العضر خوفا من عود العامة ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت بأعوانه هنالك وترك معه خمسين من الاوشاقية * أما الامير ألماس فانه وصل الى كائس الجراء وكنائس الزهري ليتداركها فإذا بها قد صارت كيمانا ليس بها جدار قائم فعاد وعاد الامراء فردوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد الاحنقا فما زالوا به حتى سكن غضبه قال الراوى وكان الامر في هدم هذه الكنائس من أعجب العجب وهو أن الناس لما كانوا في صلاة

الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل فعند ما فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصيح في وسط الجامع اهدموا الكنيسة التي في القلعة اهدموها وأكثر من الصباح المزعج حتى خرج عن الحد ثم اضطرب فتعجب السلطان والامراء من قوله ورسم لتقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك فمضوا من الجامع الى خرائب التار من القلعة فاذا فيها كنيسة بنيت فهدموها قال ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بوقعة كنائس الجراء والقاهرة فكثير تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير وطلبه فلم يوقف له على خبر اه ولما شاع خبر الكنيسة التي كانت بمخرائب التار بقلعة الجبل وما جرى عليها بأمر السلطان نار العامة وهدموا كنائس الزهري وكنائس الجراء وغيرها من كنائس القاهرة وحرقوا وقتلوا وسبوا ونهبوا وفعلوا من الفظائع ما لا يقع تحت حصر وكان الذي هدم في ذلك اليوم من الكنائس بالقاهرة كنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستين بحارة زويلة ثم جاءت الاخبار أيضا من مدينة الاسكندرية بأن العامة هدمت بها أربع كنائس وكنيستين بمدينة دمنهور وست كنائس بمدينة قوص وما حولها من العمار وتوآرت الاخبار من الاقاليم القبلية والبحرية بكثرة ما هدم من الكنائس والديارات في جميع أعمال مصر ما بين قوص والاسكندرية ودمياط وغيرها فكانت شدة عظيمة للغاية

ولم تكن لتسكن خواطر الناس حتى ظهر الحريق في القاهرة ومصر في عدة مواضع فوقع الحريق في ربيع بقط الشوائين من القاهرة في يوم السبت عاشر جمادى الاولى وسرت النار الى ما حوله واستمرت الى آخر يوم الاحد قتل في هذا الحريق شئ كثير وعند ما أطفئ وقع الحريق بحارة الديلم في زقاق العريسة بالقرب من دار كريم الدين ناظر الخصاص في خامس عشر جمادى الاولى وكان يوما شديد الريح فسرت النار من كل ناحية حتى وصلت الى بيت كريم الدين وبلغ ذلك السلطان فانزعج لما كان هناك من الحواصل السلطانية وسير طائفة من الامراء لاطفائها فجمعوا الناس لذلك وتكاثروا عليها وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين الى ليلة الثلاثاء فتزايد اشتعال النار وبجز الامراء والناس عن اطفائها لكثرة انتشارها في الاماكن وقوة الريح التي فلفت باسقات النخل وغرقت المراكب فلم يشك الناس في حريق القاهرة كلها وصعدوا المآذن وبرز الفقراء وأهل الخير ونجوا وبعجوا وجأروا وكثر صراخ الناس وبكأؤهم وصعد السلطان الى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح واستمر الحريق والحث يرد على المكلفين بالاطفاء من السلطان الى يوم الثلاثاء فنزل نائب السلطان ومعه جميع الامراء وسائر السقائين ونزل الامير بكتر الساقى فكان يوما عظيما لم ير الناس أعظم ولا أشد هولاً منه ووكالوا بأبواب القاهرة من برد السقائين اذا خرجوا من القاهرة لاجل اطفاء النار فلم يبق أحد من سقائى الامراء وسقائى البلد الا وعمل وصاروا ينقلون الماء من المدارس والحمامات وأخذ جميع التجارين وسائر البسائين لهدم الدور فهدم في هذه النوبة ماشاء الله من الدور العظيمة والرباع الكبيرة وعمل في هذا الحريق أربعة

وعشرون مأمورا من الامراء المقدمين سوى امراء الطيلخانات والعشراوت والمالبيك
وعمل الامراء بأنفسهم فيه وصار الماء من باب زويلة الى حارة الديلم في الشارع بجرا
من كثرة الرجال والجمال التي تحمل الماء ووقف بكثر الساقى والامير ارغون النائب
على نقل الحواصل السلطانية من بيت كريم الدين الى بيت ولده بدر الرصاصى وخربوا
سنة عشر دارا من جوار الدار وما قابلها حتى تمكنوا من نقل الحواصل فماكل اطفاء
الحريق ونقل الحواصل حتى وقع الحريق في ربيع الظاهر خارج باب زويلة وكان يشتمل
على مائة وعشرين بيتا وتحتته قيسارية تعرف بقيسارية الفقراء وهبت مع الحريق ريح
قوية فركب الحاجب والوالى لاطفائها وهدموا عدة دور من حول الربيع حتى انطقت ووقع
في ثانى يوم حريق بدار الامير سلار في خط بين القصرين ابتداء من الباذهنج وكان ارتفاعه عن
الارض مائة ذراع فوقع الاجتهاد فيه حتى اطفئ فأمر السلطان الامير علم الدين سنجر الخازن
والى القاهرة والامير ركن الدين بيبرس الحاجب بالاحتراز واليقظة ونودى بأن يعمل عند كل
حافوت دن فيه ماء أوزير يملوه بالماء وان يقام مثل ذلك في جميع الحارات والازقة والدروب
فبلغ ثمن كل دن خمسة دراهم بعد درهم وثمانية دراهم ووقع حريق أيضا بجارة
الروم وعدة مواضع حتى وجدوا هذا الحريق من نطف قد لف عليه خرق مبتلة بزيت وقطران
قال راوى هذا الخبر فلما كانت ليلة الجمعة النصف من جادى قبض على راهبين خرجا
من المدرسة الهكارية بعد العشاء الاخيرة وقد اشتعلت النار في المدرسة ورائحة الكبريت
في أيديهما فحملا الى الامير علم الدين الخازن والى القاهرة فأعلم السلطان بذلك فأمر بعقوبتهما
قال وينما هو نازل من القلعة واذا بالعامه قد أمسكوا نصرانيا وجد في جامع الظاهر
ومعه خرق في هيئة الكعك في داخلها قطران ونطف وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر وما
زال واقفا الى أن خرج الدخان فشى يريد الخروج من الجامع وكان قد فطن به شخص
وتأمله من حيث لا يشعر وقبض عليه فتسكأ الناس بخروءه الى بيت الولى وهو بهيشة
المسلمين فعوقب عند الامير ركن الدين بيبرس الحاجب فاعترف بأن جماعة من النصارى قد
اجتمعوا على عمل نطف وتفريقه مع جماعة من أتباعهم وانه ممن أعطى ذلك وأمر بوضعه
عند منبر جامع الظاهر ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل وأنهما
الذنان أحرقا المواضع التي تقدم ذكرها بالقاهرة غيرة وحنقا من المسلمين لما كان من هدمهم
الكنائس وان طائفة النصارى تجتمعوا وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لمل هذا النطف
واتفق وصول كريم الدين ناظر الخالص من الاسكندرية فعرفه السلطان ما وقع من القبض
على النصارى فقال النصارى لهم بطرك يرجعون اليه ويعرف أحوالهم فرسم السلطان
بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث معه في أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم في
ذلك فجاء مع والى القاهرة فلما أن دخل بيت كريم الدين بجارة الديلم وأحضروا اليه الثلاثة
النصارى من عند الولى قالوا لكريم الدين بمحضرة البطرك والولى جميع ما اعترفوا به قبل

ذلك فبكي البطرك كثيرا عند سماعه هذا الكلام وقال هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة
 سفهاء المسلمين على تخريب الكنائس وانصرف من عند كريم الدين مبيلا مكرما فوجد كريم
 الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها فركبها وسار وأصبح كريم الدين يريد الركوب الى
 القلعة على العادة فلما خرج الى الشارع صاح به العامة مايجل لك بافاضى تحامى للنصارى
 وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال فشق عليه ماسمع وعظمت نكايته
 واجتمع بالسلطان فأخذ يهون عليه أمر النصارى المسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال فرسم
 السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم فنزل وعاقبهم عقوبة شديدة للغاية قال الراوى فاعترفوا بأن
 أربعة عشر راهبا بدير البغل قد تحالفوا على احراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع
 النقط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعلوا للقاهرة ثمانمائة ولمصر ستمائة فكبس دير البغل
 وقبض على من فيه وأحرق منهم جماعة منهم أربعة بشارع صليبية ابن طولون في يوم الجمعة
 فاجتمع لمشاهدتهم عالم كثير فاجترأ من ذلك اليوم جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم وصاروا
 يسلبون ما عليهم من الثياب حتى خش الأمر وتجاوزوا فيهم المقدار فغضب السلطان من
 ذلك وهم أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير في يوم السبت
 فرأى من الناس أمما عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يضجون نصر الله الاسلام انصر
 دين محمد بن عبد الله فجزع من ذلك وعند ما نزل الميدان أحضر اليه الخازن نصرانيين
 قد قبض عليهما وهما يحرقان الدور فأمر بإحراقهما فأخرجا وأحرقا بمراى من الناس
 وبيناهم في احراق النصرانيين اذ ابديوا في الامير بكتر الساقى قد مر يريد بيت الامير وكان
 نصرانيا فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته الى الأرض وجرده من جميع ما عليه من
 الثياب وجلوه ليلقوه في النار ثم تركوه واتفق مع هذا مرور كريم الدين وقد لبس التشريف
 من الميدان فرجه من هناك رجما متتابعا وصاحوا كم تحامى للنصارى وتشد معهم ولعنوه
 وسبوه فلم يجد بدا من العود الى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد فحيح العامة وصياحهم
 حتى سمعهم السلطان فلما دخل عليه وأعلمه الخبر امتسلا غضبا واستشار الأمراء وكان
 بحضوره منهم الامير جمال الدين نائب الكرك والامير سيف الدين ابوبكرى والخطيرى وبكتر
 الحاجب في عدة أخرى فقال ابوبكرى العامة عى والمصلحة أن يخرج اليهم الحاجب
 ويسألهم عن اختيارهم حتى يعلم فكره السلطان منه ذلك وأعرض عنه فقال نائب الكرك
 كل هذا من أجل الكتاب النصارى فان الناس أبغضوهم والرأى أن السلطان لا يعمل في
 العامة شيئا وانما يعزل النصارى من الديوان فلم يجبه هذا الرأى أيضا والتفت الى الامير
 ألباس الحاجب وقال له امض ومعك أربعة من الأمراء وضع السيف من باب زويلة الى
 باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحد البنة وقال لوالى القاهرة اركب الى باب اللوق والى
 باب البحر ولا تدع أحدا حتى تقبض عليه وتطلع به الى القلعة ومتى لم تحضر الذين رجوا
 وكبلى يعنى كريم الدين والا وحياة رأسى شنتك عوضا عنهم وعين معهم عدة من المعاليك

السلطانية فخرج الامراء بعد ما تملكوا في المسير حتى اشتهر الخبر فلم يجدوا أحدا من الناس حتى ولا غلمان الامراء ولا حواشيهم ووقع القول بذلك في القاهرة فقفلت الاسواق وتفرق الناس واختفوا وسار الامراء فلم يجدوا في طول طريقهم أحدا الى أن بلغوا باب النصر وقبض الوالى من باب اللوق وناحية بولاق على كثير من الكلابية والنوتية وأسقاط الناس فاشتد الخوف وعذى كثير من الناس الى البر الغربى بالجيزة وخرج السلطان من الميدان فلم يجد في طريقه الى أن صعد قلعة الجبل أحدا من العامة فلما استقر بالقلعة سير الى الوالى يستجمل حضوره لما غربت الشمس حتى أحضر من أمسك من العامة نحو مائتى رجل فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم وجماعة رسم بتوسيطهم وجماعة رسم بقطع أيديهم فصاحوا جميعا ياخوند مايجعل لك ما نحن الذين رجنا قيسل فيكى الأمير بكتم الساقى ومن حضر من الامراء رجعة لهم وما زالوا بالسلطان الى أن قال للوالى اعزل منهم جماعة وانصب الخشب من باب زويلة الى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم فلما أصبح يوم الاحد علق الجميع من باب زويلة الى سوق الخيل وكان فيهم من له بزة وهيئة ولم يفتح أحد من أبواب الحوانيت بالقاهرة ومصر في هذا اليوم حانوتا ❀ وجلس السلطان في الشباك وقد أحضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى فقطع أيدي وأرجل ثلاثة منهم والامراء لايقدرن على الكلام معه في أمرهم لشدة حنقه فنقدم كريم الدين وكشف رأسه وقبل الارض وهو يسأل العفو فقبل سؤاله وأمر بهم أن يعملوا في حفير الجيزة فأخرجوا وقد مات ممن قطع أيديهم اثنان وأتزل المعلقون من على الخشب وعند ما قام السلطان من الشباك وقع الصوت بالحريق في جهة جامع ابن طولون وفي قلعة الجبل وفي بيت الامير ركن الدين الاحمدى بحارة بهاء الدين والفندق خارج باب البحر من المقس وما فوقه من الاربع واستمر الحريق في الاماكن الى يوم السبت فلما ركب السلطان الى الميدان على عادته وجد خلقا كثيرا جدا من العامة قد صبغوا خرقا من التماس بلون أزرق وعملوا فيها صلبانا بيضا وعند ما رأوا السلطان صاحوا بصوت عال واحدا لا دين الا دين محمد بن عبد الله بملك الناصر يا سلطان الاسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصرارى فتعجب السلطان من فعالهم وسار حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل ولم يستقر به المقام حتى أمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه من وجد نصرانيا فله ماله ودمه فخرج ونادى بذلك فصاحت العامة وصرخت نصرل الله وضجوا بالدعاء وكان النصرارى يلبسون العمام البيض فنودى في القاهرة من وجد نصرانيا بعمامة بيضاء حل له دمه وماله ومن وجد نصرانيا راجبا حل له دمه وماله وخرج مرسوم بلبس النصرارى العمام الزرقاء وأن لا يركب أحد منهم فرسا ولا بغلا ومن ركب سمارا فليركبه بلا لكاف عرضا ولا يدخل نصرانى الى الحمام الا وفي عنقه جرم ولا يتزيا أحد منهم بزى المسلمين ومنع الامراء من استخدام المسيحين وأخرجوا من ديوان السلطان وكتب لسائر الاعمال بصرف جميع المباشرين من

المسيحيين وكثر ايقاع المسلمين بهم حتى تركوا السعي في الطرقات ولبث الحال هكذا أياما ثم نودي في الناس بعد ذلك بالأمان وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان الى الميدان وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالمسيحيين وزادوا في الخروج عن الحد فاطمأنوا وخرجوا على العادة الى جهة الميدان ودعوا للسلطان وصاروا يقولون نصرنا الله يا سلطان الارض اصطلمنا اصطلمنا فأعجب السلطان منهم ذلك وتبسم من قولهم وقد سكنت الخواطر وعادت الامور الى سابق مجراها وكانت هذه الحوادث من أشنع ما حل بمصر خرب فيها من الكنائس كنيسة بخرائب التربة قلعة الجبل وكنيسة الزهري في الموضع الذي فيه البركة الناصرية وكنيسة الجراء وكنيسة بجوار السبع سقايات تعرف بكنيسة البنات وكنيسة أبي مينا وكنيسة الفهادين بالقاهرة وكنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيسة بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالبندق وأربع كنائس بشفر الاسكندرية وكنيسة بمدينة دمنهور الوحش وأربع كنائس بالغربية وثلاثة بالشرقية وست بالهنساوية وباسيوط ومنفلوط ومنية ابن خصيب ثمان كنائس وبقوص وأسوان احدى عشرة كنيسة وبالاطفيحية كنيسة وبسوق وردان من مدينة الفسطاط وبالمصاصه وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس وخرب من الدورات شئ كثير * قال بعض أهل التاريخ وأقام دير البغل ودير شهران مدة لا يأوى بهما أحد واحترق بالقاهرة ربع في سوق الشوائين وزقاق العربية بحارة الديلم وستة عشر بيتا بجوار بيت كريم الدين وعدة أماكن بحارة الروم ودار بهادر بجوار المشهد الحسيني وأماكن باسطبل الطارمة وبدر العسل وقصر أمير سلاح وقصر سلار بخط بين القصرين وقصر يسرى وخان الحجر والجلون وقيسارية الادم ودار بيبرس بحارة الصالحية ودار ابن المغربي بحارة زويلة وعدة أماكن بخط بئر الوطاويط وبالحكر وفي قلعة الجبل وغير ذلك من الاماكن بمصر والقاهرة قال وكانت هذه الخطوب العظيمة في مسدة يسيرة للغاية فلما وقع مثلها في الازمان المتطاولة هلك فيها من الخلق وتلف من الاموال وخرب من الاماكن ما لا يمكن وصفه لكثرتة ولله عاقبة الامور

وبينما كانت هذه الخطوب تتعاقب والناس في خوف ما عليه من مزيد كان الواشون وأصحاب السعاية يوقعون بين الخليفة المستكني بالله وبين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وما زالوا يوغرون الصدور حتى أبغض الناصر الخليفة ومال عليه وأخذ يراقب أموره وينتقد أعماله فاشتدت الوحشة بينهما وخرجت سنة ثلاثين وسبعائة على هذا الحال فأمره السلطان أن ينتقل من القلعة الى مناظر الكبش حيث كان أبوه ساكنا ثم أمره أن يخرج الى بلدة قوص بصعيد مصر فيقيم بها الى ما شاء الله فخرج في ثامن عشر ذي الحجة من سنة سبع وثلاثين هو وأولاده وأهله فكانوا زهاء المائة نفس ورتب لهم ما كان مرتبا لهم بمصر من الكساوي والمأكل فتوجع الناس لخروجه كثيرا * قال الحافظ ابن حجر وكان

طول مدته يخطب له على المنابر حتى في مدة إقامته بقوص واستمر بها الى أن مات في شعبان سنة أربعين وسبعمائة ودفن بها * وكان قد عهد بالخلافة قبل موته الى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا وأثبت ذلك على يد قاضي مدينة قوص فلما بلغ ذلك الملك الناصر لم يلتفت الى العهد المذكور وطلب ابن أخي المستكني ابراهيم ابن ولى العهد المستمسك بالله أبي عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبي العباس وكان جده الحاكم قد عهد الى ابنه محمد ولقب المستمسك بالله فمات في حياته فعهد الى ابنه ابراهيم هذا فلما منه أنه يصلح للخلافة فراه غير صالح لما هو فيه من الانهماك في اللعب ومعاشرة الارذال فنزل عنه وعهد الى ولده المستكني وهو عم ابراهيم وكان ابراهيم المذكور قد نازعه لما مات الحاكم فلم يلتفت الى منازعته اعتمادا على قول الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد كما تقدم بيان ذلك في محله فأقام على ضعيفته حتى كان هو السبب في الواقعة بين عمه وبين الملك الناصر وجرى ما جرى من تبعيده الى مدينة قوص فلم يمض الملك الناصر عهد المستكني لولده وبابيع ابراهيم هذا يوم الاثنين ثالث رمضان كما سيذكر في محله ولقب الواثق بالله وراجع الناس السلطان في أمره ووسموه بسوء السيرة خصوصا قاضي القضاة عز الدين بن جماعة فإنه جهد كل الجهد في صرف السلطان عنه فلم يفعل وما زال بهم حتى بايعوه كرها * قال صاحب حسن المحاضرة ثم ان الله فجع الملك الناصر بموت أعز أولاده الأمير أولئك فكان ذلك أول عقوباته ولم يتبع بالملك بعد وفاة المستكني فأقام بعده سنة وأياما وأهلكه الله وقد قيل ان وفاة المستكني كانت سنة احدى وأربعين فعلى هذا لم يتم الحول على الناصر حتى مات بعد ثلاثة أشهر سنة الله فبين من من الخلفاء أحدا بسوء فإن الله يقصمه عاجلا وما يدخره له في الآخرة من العذاب أشد قال ثم ان الله انتقم من الناصر في أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد في البلاد والقتل بجميع من تولى الملك من ذريته اما أن يخلع عاجلا واما أن يقتل فأول ولد تولى بعده عوجل بخلعه ونفيه الى قوص حيث كان قد سير الخليفة ثم قتل بها وغالب من تولى من ذريته لم تطل مدته اه

ومات الخليفة المستكني وهو ابن بضع وخسين سنة بمدينة قوص فكانت خلافته تسعا وثلاثين سنة وكان موته في شعبان سنة أربعين وسبعمائة كما ذكر

ومات في أيامه يوحنا بطريرك الاسكندرية وكان من الحوادث في أيامه ما وصفنا من تخريب الكنائس والديارات وقتل الرجال والاطفال وسبي النساء وغير ذلك من الخطوب التي لم يسبق لها مثال في الايام الفجيرة وقد أقام بطريركا ستا وعشرين سنة * فلما مات قام أبو القسوح ابن العياط مع السلطان الملك الناصر في ولاية القس داود بن يوحنا بن لقلق الفيومي فإنه كان خصيما به فأجابه السلطان الى ذلك وكتب توقيعه فشتى ذلك على المسيحيين وقام منهم الاسعد بن صدقة كاتب دار النفاذ بمصر ومعه جماعة وتوجهوا سعرا ومعهم الشموع الى تحت قلعة الجبل حيث كان يسكن السلطان واستغاثوا وأوقعوا

في القس داود وقالوا انه لا يصلح وفي شريعتنا أنه لا يقوم البطرك الى هذا المسند الا بانفاق الجمهور عليه فبعث السلطان بطيب خواطريهم وكان القس المحكي عنه قد ركب بكرة ومعها لفيف الاساقفة وخلق كثير من المسيحيين ليقدموه بكنيسة المعلقة بمصر وذلك يوم الاحد فركب السلطان من قلعة الجبل وأوقف ولاية القس المذكور وبعث في طلب الاساقفة لتحقيق الامر فوافهم الرسل مع القس في الطريق فأخذوهم فدخل القس عندئذ في كنيسة في الطريق وبطلت رسامته يومئذ فأقام المتأصلون بغير بطرك تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما وكان بعد ذلك من أمرهم ما سيذكر في محله

(الفصل الرابع)

(في خلافة ابراهيم الواثق بالله ابن ولي العهد المستمسك بالله)

لمامات الخليفة المستسكن بالله أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله طلب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ابن أخي المستسكن ابراهيم ابن ولي العهد المستمسك بالله أبي عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد وبايعه بالخلافة في يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ست وأربعين وسبعماية هجرية أي سنة خمس وأربعين وثلثمائة ميلادية رغما عما بدا من قاضي القضاة عز الدين بن جماعة من صرف السلطان عنه وما زال السلطان بالناس حتى بايعوه في السنة المذكورة واستقرت له الخلافة فبالغ السلطان في تعظيمه وقربه اليه واختص به ورتب له الرواتب الكثيرة نكاحه في ولد المستسكن والمتحزبين له وما زال على هذا الحال والناس في خلافته على قسمين حتى مرض السلطان الملك الناصر ومات في يوم الاربعاء سابع عشر ذي الحجة سنة احدى وأربعين وسبعماية ولاختلاف الامراء وتباين أغراضهم لم يتفقوا على الذي يولونه السلطنة من بعده فاشتغلوا بذلك وتركوا السلطان المتوفى ليلة في قلعة الجبل بغير دفن حتى تم الامر لابنائه أبي بكر المنصور في يوم الخميس ثم أخذوا في تجهيز السلطان المتوفى فوضع في محفة بمد العشاء الاخيرة وحمل على بغلين وأنزل من قلعة الجبل الى الاسطبل السلطاني وسار به الامير ركن الدين بيبرس الاجدى أمير جندار والامير نجم الدين والى القاهرة وقطوبغا الذهبي وعلمدار خوطا بهار الدوادار وعبروا به الى القاهرة من باب النصر وقد أقفلت الحوائط كلها ومنع الناس من الوقوف للنظر اليه وقدام المحفة شعة واحدة في يد علمدار وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون وكان الامير علم الدين سنجر الجاولي ناظر المارستان قد جلس معه القضاة الاربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سراقوس والشيخ ركن الدين عمر بن

الشيخ ابراهيم الجعبري حطت المحفة وأخرج منها ووضع تجاه الفسقية التي بالقبة وأمر ابن
 أبي المظاهر مغسل الاموات بتغسيه فغسله وكفن في نصيفة وعملت له أخرى طراحة ومخدة
 ووضع في نابوت من خشب وصلى عليه فاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن محمد بن
 جماعة الشافعي عن حضر وأزل الى قبر أبيه في سحلية من خشب وقد ربطت بحبل ونزل
 معه الى القبر الغاسل الامير سنجر الجاولي * قلت فسبحان من لا يحول ولا يزول انظر
 كيف ملك كثيرا من الممور من الارض ومات غريبا وغسل طريقا ودفن وحيدا ان في
 ذلك لعبرة لقوم يتصرون ﴿ قال بعض كتاب الاخبار ومات الملك الناصر وليس له نائب
 بديار مصر ولا حاجب متصرف وكان ابيض اللون قد وخطه الشيب وفي عينيه حول
 وبرجله البني أثر شوكه تنغص عليه أحيانا وتؤلمه وكان لا يكاد يمس بها الارض ولا يمشي
 الا متكئا على أحد أو متوكئا على شيء ولا يصل الى الارض الا أطراف أصابعه وكان شديد
 البأس يتولى الامور بنفسه مهيبا عند أهل دولته اذا وقف الامراء في خدمته لا يجسر
 أحد أن يتكلم مع آخر كلمة ولا يلتفت بعضهم الى بعض خوفا منه ولا يمكن أحدهم
 أن يذهب الى بيت أحد البتة لا في وليمة ولا غيرها فان فعل أحد منهم شيئا من ذلك قبض
 عليه وأخرجته من يومه منفيًا وكان عارفا بأمر رعيته وأحوال مملكته وأبطل نبابة
 السلطنة من ديار مصر في سنة سبع وعشرين وسبعمائة وأبطل الوزارة وصار يتحدث
 بنفسه في الجليل من الامور والحقير فعظمت حاشية المملكة وكثرت أتباع السلطنة
 وتحوّلوا في النعم الجزيلة حتى انحولة منهم والكلابزية وكان كثير الاخذ بالشبهات فقتل
 في أيامه خلقا كثيرا من الامراء وكان اذا كبر أحد من أمراءه وظهر قبض عليه وسلب
 نعمته وأقام بدله من صغار مماليكه الى أن يكبر ويعظم أمره فيقبض عليه ويقسم بدله
 ليأمن بذلك شرهم وكان كثير التخيّل والحذر حتى انه اذا تخيل من ولده قتله وفي آخر
 أيامه عظم شرهه في جمع الاموال فصادر الكثير من الدواوين القبط والولاء وغيرهم
 ورعى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال وانكس وكان مخادعا كثير التخيّل
 لا يقف عند قول ولا يني بعهد ولا يبر في عيّن وكان محبا للعمارة فعمر عدة أماكن
 منها جامع القلعة وقد هدمه مرتين وعمر القصر الابلق بالقلعة ومعظم الاماكن
 التي بالقلعة وعمر الجرى الذي ينقل الماء عليه من النيل الى قلعة الجبل على
 السور وعمل المسدان تحت القلعة ومناظر سرياقوس وانخافقه بسرياقوس وحفر الخليج
 الناصري بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطئ النيل بظاهر مصر ووجد جامع
 الفيلا الذي بالرصد والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة وغير ذلك وما زال يعمر
 منذ عاد في ولايته الثالثة الى أن مات * قال بعض كتاب الاخبار وبلغ مصروف العمارة
 في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة عنها ثلثمائة وخمسون دينارًا سوى من يسخر
 من المقيدون وغيرهم في عمل ما يعمره وحفر عدة من الخيجان والترع وأقام الجسور

بالبلاد حتى انه كان يصرف من الاجباز على ذلك ربع متصل الاقطاعات وحفر خليج
الاسكندرية وبحر المحلة مرتين وبحر الليبي بالبحيرة وعمل جسر شيبين وجسر اجاش بالشرقية
والقليوبية مدة ثلاث سنين متواليه فلم ينجح فأنشأ بنيانا بالطوب والجير وأنفق فيه
أموالا عظيمة وراك في أيامه ديار مصر والشام وغزا عدة غزوات فتح فيها جزيرة ارواد
في سنة اثنتين وسبعمائه وفتح مطلمة في سنة خمس عشرة واناث في ربيع الاول سنة
ثلاث وعشرين وخرّبها ثم عمرها الارمن فسير لها جيشا عظيما فأخذها وأخذ معها
عدة بلاد من بلاد الارمن وذلك سنة سبع وثلاثين وأقام بها نائبا من أمراء حلب وعمر
قلعة جعبر بعد خرابها واندثارها وضرب السكة باسمه في سنة احدى وأربعين في شوال
وخطب له في ارتتا احدى بلاد الروم وضربت السكة باسمه أيضا وكذلك ببلاد القرمان وبلاد
الكرد وكثير من بلاد الشرق وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف بمماليك أبيه
ومماليك الامراء باسمهم ووقائعهم وكان على الهمة كبير السياسة واسع المعرفة بمهادنة الملوك
يبذل في ذلك من الاموال مالا يوصف كثرة فكان كتابه ينفذ أمره في سائر أقطار الارض
وهو مع ذلك مؤيد في جميع أموره مظفر في كل أحواله مسعود في سائر حركاته * وكانت
مدة سلطنته في المرة الثالثة أربعاً وأربعين سنة وخمسة عشر يوماً خارجاً عما بين ذلك قال
بعض الكتاب ولما احتضرندم على ما فعل من مبايعة ابراهيم الواثق بالله ابن ولي العهد
المستمسك فأوصى الامراء برد العهد الى ولي عهد المستكني بالله وخلع بيعة الواثق * فلما
استقرت السلطنة بولده أبي بكر المنصور عقد مجلساً يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة
احدى وأربعين وسبعمائه وطلب الواثق ابراهيم وولى العهد أحمد بن المستكني المتوفى بمدينة
قوص وسأل القضاة قائلاً * من يستحق الخلافة ثمراً * فقال ابن جماعة ان الخليفة
المستكني المتوفى أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليه أربعين عدلاً بمدينة قوص
ونبت ذلك عندي بعد ثبوته على يد نائبي بمدينة قوص فعند ذلك قام السلطان وخلع الواثق
ابراهيم وبابح أحمد وبابح القضاة كلهم * قال الحافظ بن حجر ولقب أولاً المستنصر ثم لقب
الحاكم بأمر الله لقب بعده وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة وقد أضربنا هنا عن ايرادها
فكانت مدة خلافة الواثق ابراهيم المذكور ثلاثة أشهر وتسعة أيام
قلت ولم يعتبر جماعة المؤرخين خلافة الواثق المذكور مسدة صحيحة ولذلك لم يذكرها
أحد منهم في مددهم سوى الذهبي في آخر ذيله على العبر وقد قال الحسيني في ذيله على العبر
أيضاً ان الذى قام بالخلافة بعد المستكني ابنه أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله وكان ولي
عهد أبيه اه

(الفصل الخامس)

(في خلافة الحاكم بأمر الله أحمد بن المستنفي بالله)

ثم قام بالامر بعد المستنفي بالله ابنه الحاكم بأمر الله أحمد وكان ولي عهد أبيه كما سبقت الإشارة الى ذلك بويج له بالخلافة يوم الخميس حادى عشرى ذى الحجة سنة ست وأربعين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وأربعين وثلثمائة وألف للبلاد بمشورة ابن جماعة بايعه السلطان المنصور أبو بكر بن الملك الناصر قلاوون وبايعه القضاة والامراء بعد خلع الواثق ابراهيم فى اليوم المذكور ولقب بالحاكم بأمر الله لقب جده واستقرت له الخلافة وأمدته السلطان بالرواتب الكثيرة والعطاء الوافر * فلما كان ثانى يوم المحرم افتتاح سنة اثنين وأربعين وسبعمائة حضر الخليفة الحاكم بأمر الله المذكور والسلطان الملك المنصور أبو بكر والقضاة بدار العدل فجلس الخليفة على الدرجة العليا وعليه خلعة خضراء وفوق عمامته طرحة سوداء مرفومة بالذهب وجلس السلطان دون مقام الخليفة وخطب خطبة فتحها بقوله * ان الله يأمر بالعدل الآتية وبقوله * وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم الآتية * ثم أوصى الامراء بالرفق بالرعية واقامة الحق وتعظيم شعائر الاسلام ونصرة الدين ثم قال * نحن نكث فانما ينكث على نفسه وقرأ الآتية * وجلس ثم جرى بمخلعة سوداء ألبسها الخليفة السلطان بيده ثم قلده سيفا عربيا ثم أخذ علاء الدين بن فضل الله كاتب السر فى قراءة عهد الخليفة للسلطان حتى فرغ منه ثم قدمه الى الخليفة فكتب عليه ثم كتب بعده القضاة الاربعة بالشهادة عليه ولكن لم تطل مدة السلطان الملك المنصور بعد ذلك فانه سلم الأمير قوصون زمام الملك وصرفه فى جميع الامور بلا استثناء نخائه وعمل لنفسه وكان من امره ما سبى عليك * قال بعض كتاب الأخبار وقوصون هذا هو سيف الدين حضر من بلاد برصكة الى ديار مصر صحبة خوند ابنة أريك امرأه الملك الناصر محمد ابن قلاوون فى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة عشرين وسبعمائة ومعه قليل من العصى وطسما ونحو ذلك مما قيمته خمسمائة درهم لينجر فيها فطاف بذلك فى الأسواق بالقاهرة وتحت قلعة الجبل وفى داخل القلعة فاتفق انه فى بعض الايام دخل الاسطبل السلطانى ليبيع ما معه فأحبه بعض الاوشاقية وكان صبيا جيلا طويل القامة له من العمر ما يقارب الثمان عشرة سنة فصار يتردد الى الاوشاقى الى أن رآه السلطان فوقع منه موقعا فسأل عنه فعرف بأنه يحضر لبيع مامعه وأن بعض الاوشاقية يولع به فأمر باحضاره اليه وابتاع منه نفسه ليصير من جملة ممالك السلطانية فنزله من جملة السقاة وشغف به وأحبه جدا كثيرا فأسلمه للامير بكتمر الساقى وجعله أمير عشرة ثم أعطاه امرأه طبلخاناه ثم جعله أمير مائة

مقدم ألف ورفاه حتى بلغ أعلى المراتب فلما كبر وظهر أمره أرسل الى بلاده وأحضر اخوته
سوسون وغيره من أقاربه وأمر الجميع واختص به السلطان بحيث لم ينل أحد عنده ما ناله
وزوجه بابنته وتزوج السلطان أخته فلما احتضر السلطان جعل له وصيا على أولاده وعهد
لابنه أبي بكر فأقيم في الملك من بعده وأخذ قوصون المذكور في تدبير المملكة وتصرف في
جميع الامور وحجر على أبي بكر وضيق عليه ثم ناقت نفسه الى الملك فأخذ في أسباب
السلطنة وأخرج أبا بكر المنصور بعد شهرين من ولايته الى مدينة قوص بصعيد
مصر في يوم الاحد لعشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين وسبع مائة هو واخوته فتهتك
يومئذ نساء أبيه الناس وكثر البكاء والعيول بالقاهرة يوم خروجه ولم يستقر به المقام
بقوص حتى سير اليه من قتل وخاف قوصون أن يجبل بارتقاء كرسي السلطنة فأقام بعد
الملك المنصور أخاه أبا بكر علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ولقب بالاشرف ولم
يكمل له من العمر ثمان سنين وقيل ست وقيل خمس وتقلد قوصون نيابة السلطنة بديار
مصر فأمر حاشيته وأقاربه ستين أميرا وأكثر من العطاء وبذل الاموال والانعام فصار
أمر الدولة كله بيده هذا وأجد بن السلطان الملك الناصر بمدينة الكرك مقيم يراقب الفرص
ويستطلع الاخبار يخاف قوصون منه وأخذ في التدبير عليه فلم يتم له ما أراد من ذلك
وحرك ساكنا في نفس أجد فجزد أجد بعد ذلك لطلب الملك وخاطب الامراء وكاتب بعض
النواب بالديار الشامية والمصرية فأذعنوا اليه وكان بمصر من الامراء الامير ايدغمش والامير
آل ملك وقاراي والمارداني وغيرهم فارتاب قوصون منهم وأخذ في التدبير عليهم فأحسوا
بذلك وخافوا فوات الوقت فركبوا لقتاله وحصروه بقلعة الجبل وما زالوا حتى قبضوا عليه
في ليلة الاربعاء آخر رجب سنة اثنتين وأربعين ونهبت داره وسائر دور حواشيه
وأسيابه وسير الى الاسكندرية صحبة الامير قلاي فقتل بها واعتقلوا السلطان الملك الاشرف
بقلعة الجبل في أوائل شعبان وبقي معتقلا الى أن مات في سنة ست وأربعين * قال
صاحب السكردان والله أعلم كيف كان موته فكانت سلطنته خمسة أشهر وعشرة أيام
وقام الامير ايدغمش بأمر الدولة وتدبير المملكة وسير الى شهاب الدين أحمد بن الناصر
محمد بن قلاوون يستدعيه من الكرك ليولييه سلطنة مصر فقام على البريد في عشرة
من أهل الكرك ليلة الخميس ثامن عشر رمضان وعبر الدور من قلعة الجبل بمن كان معه
واحتجب عن الامراء ولم يخرج لصلاة العيد ولا حضر السباط على العادة الى أن لبس شعار
السلطنة وعقد له المبايعة بينه وبين الخليفة الشيخ تقي الدين بن السبكي وكان قد حضر
يومئذ من الشام ولقب بالملك الناصر شهاب الدين وجلس على سرير الملك في يوم الاثنين
عاشر شوال من السنة فلما استقرت به السلطنة وتصرفت في الامور أعرض عن الامراء
وتقاعد عنهم ولم يراع لهم حرمة ولا اعتبارا وما زال حتى ساءت سيرته وخبت مبرته
واشدت الوحشة بينهم وبينه فخشي شر العاقبة وأظهر السفر الى الكرك لترويح النفس

والتخلى عن أشغال السلطنة حينما خرج في يوم الأربعاء ثاني ذى القعدة واستخلف الامير آق سيفر نائب الغيبة فلما وصل قبة النصر بظاهر القاهرة نزل عن فرسه ولبس ثياب العرب ومضى مع خواصه من أهل الكرك على البريد وترك الاطلاب فسارت حتى وافته بالركك فرد العسكر الى بلاد الخليل وأقام بقلعة الكرك ففرح الامراء بخروجه وخلعوه في يوم الأربعاء حادي عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما أو أربعين يوما ثم قتل في أوائل سنة أربع وأربعين كما سيذكر في محله.

ولما خلع الملك الناصر شهاب الدين المذكور أقاموا بعده أخاه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وبايعوه في يوم الخميس ثاني عشر المحرم المذكور وقام الامير أرغون زوج أمه بتدبير المملكة ومعه عدة من الامراء فلما استقرت به السلطنة سيرا الى الكرك جماعة من الامراء وكثيرا من العساكر والاجناد لقتال الناصر محمد وكانت قد وردت اليه الاخبار بتأهب الناصر محمد لرد الملك لنفسه والاستعداد للبطش بجميع الامراء المصريين فالتقى الجمعان واقتتل الجنود قتالا شديدا فكانت الحرب بينهم سجالا وطالت أياما كثيرة فلما كان في أحد الايام اشتبك القتال بين الفريقين واشتد فبقت العساكر المصرية وقامت قتال الابطال وما زالت حتى أخذت الناصر محمدا من وسط قومه فانقض عليه سيف الدين منجق اليوسفي وكان من أجناد السلطانية واحتر رأسه فانفشل أصحابه وتمزق جمعهم وولوا مدبرين وتمت عليهم الهزيمة وعاد اليوسفي الى مصر ومعه رأس الناصر محمد في غلق وعاد الامراء ومن بقي من العساكر ووصل الخبر بما جرى الى السلطان الملك الصالح عماد الدين ففرح بالنصر وأجاز اليوسفي بالامرة على ديار مصر فظهر نبله وصار من هذا الحين يتنقل في مراتب الدولة حتى عظم شأنه واتسعت كلمته وكان من أمره بعيد ذلك ما سيذكر في حينه * ولما أحضرت رأس الناصر محمد أمام السلطان الملك الصالح ووقع بصره عليها فزع وأخذته الخوف فمرض واشتد به المرض وما زال يتأبه حتى مات في ليلة الخميس رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة وقيل رابع ربيع الآخر وعمره نحو عشرين سنة فكانت سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأحد عشر يوما وكان حسن السيرة لين العريكة بعيد الغضب محجورا عليه في جميع أموره ليس له من الملك سوى الاسم فقط والامر بيد الامير أرغون ومن كان معه من الامراء المصريين فقام بالامر بعده أخوه زين الدين شعبان بعهد من أخيه ولقب الملك الكامل وجلس على تخت السلطنة من غده فلما استقرت به السلطنة ناقت نفسه الى الاستبداد بالملك وعمل على تبييض الامير أرغون ومن معه من الامراء واستمال اليه جماعة من المماليك فأحس الامراء بفعاله ووقعت الوحشة بينه وبينهم وطال الامر وكرهوا ما هو عليه وكبر خوفهم فركبوا عليه وتمجدوا لقتاله وركب هو كذلك في طائفة من المماليك الذين اصطفاهم لنفسه والتقى الجمعان واقتتلا

فلم يثبت أصحابه عند احتدام الوطيس وخذلوه فعاد الى قلعة الجبل منهزماً فأبعده الامراء
 وساقوا خلفه وحصلوه بالقلعة في يوم الاثنين مستهل جادى الآخرة سنة سبع وأربعين
 ثم خلعوه في اليوم المذكور فكانت سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوماً واجتمع جميع
 الامراء وتشاوروا فيمن يصلح للولاية بعده فاتفقوا على تولية أخيه زين الدين حاجي فبايعوه
 بالملك من يومه ولقبوه بالملك المظفر * فلما تمت له البيعة واستقرت به السلطنة عثت
 بالامور وأساء السيرة وخبت منه السريرة وانهمك في الملاذ والملاهي واللعب واستبد
 بالامر وعمل على تذييل الامراء وابعادهم عن خدمة الدولة واختص بطائفة من الاحداث
 وسير الامير سيف الدين منجك اليوسفي الى دمشق وولاه الحجابة بها مكان ابن طوقل الحاجب
 فانسعت كلمته بالشام وكبرت حرمة وعظم أمره فاستعظم الامراء بمصر ذلك جداً وخافوا
 من الملك المظفر وهو يخادعهم ويظهر لهم خلاف ما يبطن ويعمل على الايقاع بهم فلما
 أبسوا من الصلح تحالفوا على قتاله وركبوا جميعاً عليه فركب هو كذلك في طائفة من أصحابه
 واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالاً وما زالوا يقاتلون حتى خذله من كان معه من المماليك
 وتركوه فهرب فقبضه الامراء حتى قبضوا عليه واعتقلوه أياماً ثم ذبحوه في يوم الاحد ثاني
 عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمئة فكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة أشهر واثني
 عشر يوماً لم يعمل فيها عملاً يذكر * وعاد الامراء وتشاوروا فيمن يصلح للسلطنة فاتحدت كلمتهم
 على تولية أخيه بدر الدين أبي المعالي حسن بن محمد فبايعوه بالملك من يومه ولقبوه بالملك
 الناصر وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمئة وله من العمر
 يومئذ احدى عشرة سنة وأركب من يومه من باب الستارة بقلعة الجبل وعليه شعار
 السلطنة وفي ركابه جميع الامراء الى أن نزل بالايوان السلطاني ومديرو الدولة يومئذ الامير
 بلغاروس والامير الجيفا المظفرى والامير شيخو والامير طاز وأحمد شاد الشرايخناه وأرغون
 الاسماعيلى نخلع على بلغاروس واستقر في نيابة السلطنة بديار مصر مكان ارقطاي وقرر
 ارقطاي في نيابة السلطنة بجلب وخلع على الامير سيف الدين منجك اليوسفي واستقر في
 الوراثة مع الاستدارية وقرر الامير ارغون شاه في نيابة السلطنة بدمشق الشام وجعل
 يتصرف في الامور على ما يشاء * ولما كانت سنة تسع وأربعين وسبعمئة هجرية كثرت انكشاف
 الاراضى من ماء النيل بالبر الشرقى فيما يلي بولاق الى الفسطاط فاهتم رجال الدولة بسد
 البحر مما يلي الجيزة وفوض ذلك الى الامير منجك فجمع لذلك من الاهالى والامراء من الاموال
 شيئاً كثيراً جداً وبالغ في العمل وطال الامر أياماً كثيرة فلم يجد نفعا وساء الحال وانقطعت
 الآمال من رى تلك الاراضى وتطير الناس وخافوا شراً من تلك السنة فقبض السلطان على
 منجك المذكور في ربيع الاول من السنة واعتقله واشتد بأسباب ذلك الغلاء وقيل الوارد
 من الغلال وغيرها * قال بعض كتاب الاخبار وظهر بعد ذلك الوباء واشتد وكثر الموت في
 الناس كثرة بالغة فكان الفقراء يموتون في الازقة والحارات وعلى أبواب المساجد ولا

يجدون من يحملهم وامتلات كذلك البيوت بالموتى وبقوا أياما بغير دفن فكانت الكلاب
تدخل البيوت وتأكل الاحياء من الاطفال وتشتبع من جثث الاموات فكان أمرا مهولا
للغاية وبقى أياما كثيرة حتى ارتفع وزال * وقد تشاءم الناس من أيام السلطان الملك الناصر
بدر الدين وتطيروا من حكمه فأنحرفت عنه القلوب وتغيرت عليه الخواطر وقد زادهم بغضاله
وحقدا عليه سوء تصرفه وعدم اكترائه بالامور وكرهته للامرء فإنه لما رشد وأثبت رشده
في سنة احدى وخسين وسبعائة هجرية استبد بالامر وجعل يتصرف بما في نفسه وقبض
على الأمير منجيك الوزير وسجنه ورسم بالقبض على الامير بلغاروس نائب السلطنة بديار
مصر وهو مسافر الى الحجاز فقبضوا عليه وألقوه في السجن وعمل على الوقيعة بالامير شيخو
العمرى ولكنه كان يخشى العاقبة لما لشيخو المذكور من الصولة والكلمة المسموعة فانفق ان
شيخو خرج متصيذا الى ناحية طناب بالغربية فلما كان يوم السبت رابع عشر
شوال سنة احدى وخسين استدعى اليه السلطان جميع الامراء واستخلفهم لنفسه خلفوا
بالطاعة والوفاء فكتب عند ذلك تقليدا للامير شيخو بنبابة طرابلس وجهزه اليها مع الامير
سيف الدين طينال الجاشنكير فصار اليه وأخذ من طينال ولم يمكنه من العود الى القاهرة
فوصل الى دمشق ليلة الثلاثاء رابع ذى القعدة ولم يستقر به المقام حتى ظهر مرسوم
السلطان ببقاء شيخو بدمشق على اقطاع الامير بيليك السالى وتجهيزه الى القاهرة فخرج بيليك
من دمشق وأقام شيخو على اقطاعه فلما وصل بيليك الى القاهرة الا وقد وصل دمشق مرسوم
السلطان بامسالك شيخو وتجهيزه الى السلطان مقيدا وتقييد مماليكه واعتقالهم بقلعة دمشق
فقبض عليه وسير الى القاهرة مكبلا بالقيود * ولما وصل الى قطيا ساروا به منها الى الاسكندرية
فلم يزل معتقلا بها الى أن خلع السلطان الملك الناصر حسن وبولى أخوه الملك الصالح فأفرج
عنه وعن منجك الوزير وعدة من الامراء فوصلوا الى القاهرة في رابع رجب سنة اثنين
وخسين وسبعائة وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر في محله ان شاء الله * قال أصحاب التاريخ
وشيخو هذا هو الامير الكبير سيف الدين أحمد أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون
حظى عند الملك المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون وزادت وجاهته حتى شفع في الامراء
وأخرجهم من سجن الاسكندرية ثم انه استقر في أول دولة الملك الناصر حسن أحد امراء
المشورة ثم ترفع الى أن صارت القصص تقرأ عليه بحضرة السلطان في أيام الخدمة وصار
زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شره وكان نافذ الكلمة مسموع الرأى
صائب الفكر ميالا الى الدعسة والسكون والتأليف بين الاحزاب فاجبه الامراء ومالوا اليه
وأخذوا بقوله فلم يخالفوا له كلمة * واشتد السلطان الملك الناصر على بقية الامراء والعمال
بالجهات وضيق عليهم وقبض على الامير المجاهد صاحب اليمن وأتى به الى القاهرة مقيدا
بالحديد وألقاه في السجن أياما ثم أطلقه ثم عاد فقبض عليه وسيره الى قلعة الكرك وسجنه
بها فامتلات قلوب الامراء كافة حقدا عليه واجتمعوا وتحالفوا على قتاله فلما كان يوم الاحد

سابع عشرى جمادى الآخرة ركبوا لقتاله وهم طاز واخوته وبلغا الشمسى وبلغوا ووقفوا تحت القلعة وصعد الامير طاز وهو متقلد سلاحه الى قلعة الجبل في عدة واقرة من الجند وقبضوا على السلطان في الحال ومجنوه بالدور الاسفل من القلعة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر

ثم أقاموا بعده أخاه صلاح الدين صالح ويايعوه في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة وطيروا الاخبار بذلك الى الآفاق وبقى السلطان الملك الناصر أبو المعالى حسن معتقلا مؤثرا الاستغال بالعلم * قال بعض الكتاب وكتب بخطه نسخة من كتاب دلائل النبوة للبيهقى فكانت حسنة وكان لا يتحرف في الظاهر لشيء من أمور الدولة ولا لشيء من أحوالها وكان يظهر غاية الرضا عن الحالة التي هو عليها * أما السلطان الملك الصالح صلاح الدين فإنه لم يستقر به الملك حتى كثر لهوه وخرج عن الحد في التبذل والعبث بمصلحة الدولة وأمور المملكة وكان هو الثامن عن تولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم جعل يبطل ما أمضاه أخوه فرسم بالأفراج عن الأمير شيخو والأمير منجك من معتقلهما بمدينة الاسكندرية فحضر الى القاهرة في رجب سنة اثنتين وخسين وسبعماية ونزل الأمير منجك بالاشرفية من قلعة الجبل وكان السلطان الملك الناصر قد صادره وأخذ جميع أمواله ووزق أملاكه على بعض المماليك السلطانية فلما استقر بالاشرفية بعث اليه الأمير شيخو خمس رؤس خيل وألني دينار وبعث اليه أيضا جميع الامراء بالتقدمات والهدايا وأقام لا يعمل عملا ولا رجوع الى خدمة الدولة فكان يجلس على حصير فوق ثوب سرج عتيق وكلما أتاه أحد من الامراء يبكي ويتوجع ويقول انظروا كيف أخذوا جميع مالى حتى صرت على ما ترونى ثم كتب فتوى تتضمن أن رجلا مسجوناً في قيد هدد بالقتل ان لم يبع أملاكه وأنه خشى على نفسه القتل فوكل في بيعها فافتاء الفقهاء بأنه لا يبيع ببيع المكروه فتقدم الامراء الى السلطان في أمره وفي رد أملاكه عليه فعارضهم في ذلك الأمير صرغتمش ثم قبل السلطان أن يرد عليه من أملاكه ما أنعم به السلطان على مماليكه فاسترد عدة أملاك وأقام الى أن قام ببلغاروس بحلب وخرج عن طاعة السلطان فاحتق منجك بعد ذلك وحسب السلطان ما وراء اختفائه فطلبه فلم يجده فأمر بإطلاق النداء عليه بالقاهرة ومصر وقتل عليه وهدد من أخفاه وألزم عربان العايد باقتفاء أثره فلم يوقف له على خبر وكبسوا عليه عدة أماكن بالقاهرة ومصر وقتل عليه حتى في داخل الصهاريج التي بالجامع الذي بناه فاعياهم أمره وأدرك السلطان السفر لحرب ببلغاروس بحلب فخرجه فأخذ يتأهب لذلك الى يوم الخميس رابع شعبان فخرج الأمير طاز وعرض الأمير شيخو والأمير صرغتمش أطلاجهما وقد وصل الأمير طاز الى مدينة بليس فحضر اليه من أخبره انه رأى بعض أصحاب منجك فسير اليه وأحضره وقتشه فوجد معه كتاب منجك الى أخيه ببلغاروس بحلب وفيه انه محتف عند الحسام الصفدى استاداره فبعث الكتاب الى الأمير شيخو فوافاه والاطلاب خارجة

فاستدعى بالحسام وسأله فأنكر فعاقبه الأمير صرغتمش فلم يعترف فركب الى بيت الحسام
 بجوار الجامع الازهر وهجمه واذا منكب ومعه مملوك قشدة وثاقه وساربه مشهرا بين الناس
 وقد هرعوا من كل مكان الى قلعة الجبل فسجن بالاسكندرية ثانية الى أن شفع فيه الأمير
 شيخو فأفرج عنه في ربيع الاول سنة خمس وخسين ورسم له أن يسير الى صفد فسار اليها
 من غير أن يعبر الى القاهرة ولم يتم خروج السلطان لقتال بلغاروس حتى دخلت سنة ثلاث
 وخسين وسبعمئة وظهر الطاعون بمصر واشتد شدة بالغة فكثرت الموت في الناس وعم فتأخر
 السلطان الملك الصالح عن المسير لقتال بلغاروس بحلب وتعطلت أعمال الدولة بسبب اشتداد
 الطاعون وكثرة الموت وأصاب الطاعون الخليفة الامام الحاكم بأمر الله فمات ولم يعهد لاحد
 بالخلافة بعده فجمع الأمير شيخو جميع الامراء والقضاة وأهل الحبل وانعقد وكان قد رجع
 الى خدمة الدولة بعد الاعتقال وتولى مسند الحبل والعقد وطلب جماعة من بني العباس ليرى
 من هو أصلح للامامة وتولى منصب الخلافة فوقع الاختيار على أخيه أبي بكر بن المستنكى
 فكانت خلافة الحاكم بأمر الله نحو اثنتي عشرة سنة وكانت أحواله كلها شدة وعيشته في
 ضيق لعدم كفاية المرتبات المعينة لمنصب الخلافة

(الفصل السادس)

(في خلافة المعتض بالله أبي الفتح بن أبي بكر المستنكى بالله)

ثم قام بالخلافة بعد الحاكم بأمر الله أخوه المعتض بالله أبو الفتح ببيع بغير عهد
 وقيل بعهد من أخيه الحاكم بأمر الله وهو أبو الفتح بن أبي بكر المستنكى بالله أبي الربيع
 سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن أبي علي بن المسترشد بالله العباسي ولقب
 بالمعتض وكنى أبا الفتح وذلك سنة ثلاث وخسين وسبعمئة هجرية أي نحو سنة اثنتين
 وخسين وثلثمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الخلافة ضم اليه نظر المشهد النفيسي
 ليستعين بما يرد الى ضريح السيدة نفيسة من نذر العامة على تقويم أوده * قال كتاب
 الاخبار لان مرتب الخلفاء كان الى هذا الحين على مكس الصاع لا غير وحسبه أن يقوم بما
 لا بد منه من قوتهم فكانوا أبدا في عيش ضيق فحسنت نوعا حالة الخليفة المعتض بما كان يبيعه
 من الشمع المحمول الى المشهد ونحوه وصار في رغد من العيش وكان الى ما بعد تولية المعتض
 الخلافة بايام قد ارتفع الطاعون وزال من جميع البلاد فجعل السلطان الملك الصالح يتأهب
 لقتال بلغاروس بحلب وأمر فنادوا في الجند بالخروج الى ظاهر القاهرة فصاروا يخرجون
 أطلابا والسلطان يستحث الامراء ويشدد عليهم وهم يتلكؤن ويظهرون غير ما يبطنون

وظالت أيام النداء في العسكر بالخروج وعظم بغضهم لنصرة السلطان الملك الصالح على بلغاروس وكره الامراء السلطان وظهر بغضهم له فأهمل لذلك التجربة وبطلت أو كادت وتشاغل السلطان عنها باستمالة العامة واسترضائهم ليكونوا له عوناً على الامراء اذا ركبوا عليه وخرجوا عن طاعته فعرف العامة منه ذلك وأخذت منهم الخيلاء فعملوا يطلبون من السلطان المطالب الكثيرة وتقدم اليه جماعة منهم في طلب أخذ جميع الاملاة الموقوفة على الديارات والكنائس بمصر وأعمالها وألحوا في الطلب فقال السلطان الى قولهم وأحال الامر على ديوان الاحباس فوجد أن للنصارى أوقافاً تبلغ زهاء الخمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الكنائس والديارات فلما عرضوا ذلك على الامير شينجو والامير طاز والامير صرغتمش وهم القائمون بالامر يومئذ قرروا بأن تضاف جميع هذه الاطيان الى اقطاعات الامراء وتزرع من ايدى النصارى فانتزعوها واشتد الحال على النصارى بعد ذلك شدة عظيمة وعاد العامة الى تخريب الكنائس وهدم الديارات كما فعلوا في أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فهدموا عدة كنائس بمصر والقاهرة وخرّبوا عدة أخرى وخرج الحاجب والامير علاء الدين على بن الكوراني والى القاهرة الى ناحية شبرى الخيام من ضواحي مصر فهدموا كنيسة بها وأخذوا منها اصبع الشهيد وأحضره الى الملك الصالح فرسم باحرقه فاحرق بين يديه وذرى رماده في البحر * قال بعض كتاب الاخبار فبطل عميد الشهيد من يومئذ واشتد العامة على النصارى شدة بالغة وتناولت ايديهم الى السلب والنهب وغير ذلك والسلطان لا يرد للعامة كلمة ولا يوقفهم عند حد ارضاء لهم والامراء في شاغل بما يدبرونه للسلطان وظل الحال هكذا أياماً ثم سكنت الفتنه وعادت الامور الى ما كانت عليه وعاد السلطان الى الاهتمام بتجريد العسكر لقتال بلغاروس بمحلب وهم بتولية موفق الدين مسند الوزارة وهو قبضى مرتد فعارضه الامراء في ذلك وطلبوا تولية علم الدين وهو قبضى مرتد كذلك فامتنع السلطان من قبوله وعارض فشدد الامراء في الطلب وانضم بعضهم الى بعض واتحدوا على اكرام السلطان على تولية علم الدين المذكور والا خلعوا السلطان وترددت الرسل بين الفريقين واشتد الخلاف وطال الحال أياماً فبطل الاهتمام بأمر التجربة ثانية وتحرز السلطان من الامراء وجمع اليه مماليكه الذين اصطفاهم لنفسه فلما كان يوم الاثنين ثلثي شوال سنة خمس وخمسين نار عليه الاميران شينجو وطاز وقبضا عليه وسجنناه بقلعة الجبل فكانت سلطنته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وهذا عجيب في الاتفاق ثم انحدرت كلمة الامراء على ارجاع السلطان الملك الناصر حسن فأخرجوه من معتقله وأجلسوه على تخت السلطنة في يوم الاثنين المذكور فكانت مدة سجنه بقلعة الجبل ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً فلما استقر به المنصب وتصرف في الامور رسم بالقبض على الامير طاز فامسك وأخرج الى الديار الشامية ثم جعل يأمر وينهى ويتصرف في الملك مستتبداً فهابه الامراء واتسعت

كلمته وكبرت شهرته وضرب الفلوس الجدد فعمل كل فلس زنة مثقال وكان كثير البغض
للأمرء شديد الرغبة في الايقاع بهم والتخلص منهم شرهم فكان لا ينكف عن تذليلهم
والسكابة بهم وتفريقهم عن بعض فاشتد بغضهم له وجعلوا يدبرون على قتله والتخلص
منه * وما دخلت سنة اثنتين وستين وسبعائة حتى ظهر الطاعون بمصر والقاهرة
واشتد وفشا فكثر الموت في الناس والدواب أيضا وعظم أمره ومات خلق كثير للغاية فخرج
السلطان في طائفة من مماليكه وعدى الى براجزية وأقام بناحية ككوم برا فرارا من
الطاعون وخرج معه الأمير بلبغا في طائفة من عسكره وخيم على مقربة من خيام السلطان
لحراسته فراسله الأمرء في أمر قتله فاجابهم الى ذلك وجعل يخالف أمر السلطان
ويقبح فعالة فاستعظم السلطان منه ذلك وكبر عليه الأمر وما زالا يتنازعا والامير بلبغا
يراقب الفرص ليغتاله الى ليلة الاربعاء تاسع جادى الاولى ركب السلطان في جماعة من
أصحابه ليكبس على الأمير بلبغا في نخيمته ويقتله فأحس بلبغا بذلك فخرج عن الخيام وكمن
بمكان وهو لباس آلة حربية في جماعة من قومه فلم يظفر السلطان به ورجع فثار به بلبغا
وهجم عليه عن معه فأنكسر السلطان وفر يريد قلعة الجبل فتبعه بلبغا وقد انضم اليه جماعة
من الأمرء وغيرهم ممن لا يحبون السلطان فدخّل السلطان الى القلعة وصار يقاتل مع
طائفة من مماليكه أياما وراء السور ثم أحس بالكسرة وأنه على وشك أن يؤخذ فنزل متغيبا
ومعه ايدمر الدوادر يريد الخروج الى الشام وسارا الى بيت الامير شرف الدين موسى بن
الازكشى أمير حاجب يريدان الاختفاء به حتى يمسر لهما الخروج فبعث شرف الدين
المذكور الى الأمير بلبغا يعلمه بجيء السلطان اليه فبعث بلبغا في الحال من قبض عليه هو
والامير ايدمر ومن ذلك الوقت لم يوقف له على أثر البتة مع كثرة تفتيش أتباعه وحواشيه
على قبره وما آل اليه أمره فكانت مدة ولايته الثانية ست سنين وسبعة أشهر وأياما * قال
أصحاب الاخبار واشتد في أيامه على القبط بمصر ورشيد بغير سبب فضيق عليهم وأبعدهم
عن خدمة الدولة فلاطفه بكارهم لعله يرتدع فلم يفلح عما هو عليه فعاكسوه وأنعبوه
وبالغوا في تسفيهه والازدراء به فهم بالايقاع بهم فلم يظفر لبغض الأمرء له وكراهة طوائف
المماليك له فعاد الى ملاطفتهم واستمالتهم فلم يفلح لتفاقم الخطب واشتداد النفرة منه وما
زال كذلك حتى قبض عليه وقتل

وبنى في أيامه جامع المشهور وهو تحت قلعة الجبل فيما بين القاعة وبركة الفيل
وكان موضعه بيت الأمير بلبغا * قال صاحب الخطط وابتدأ السلطان عمارته في سنة سبع
وخمسين وسبعائة وأوسع دوره وعمله في أكبر قالب وأحسن هيئة وأضخم شكل ولا يعرف
في بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع أقامت العماره فيه مدة ثلاث
سنين لا تبطل يوما واحدا وأرصد مضر وفها في كل يوم عشرين ألف درهم عنها نحو ألف
منقال ذهباً * قال ولقد أخبرني الطوائف مقبل الشامي انه سمع السلطان حسنا يقول

أنفق على القالب الذي بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم نقرة وهذا القالب مما رى على الكيمان بعد فراغ العقد المذكور * قال وسمعت السلطان المذكور يقول لولا أن يقال ملك عجز عن اتمام بناء بناه تركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه وفي هذا الجامع عجائب من البنين منها أن ذرع ايوانه الكبير خمسة وستون ذراعا في مثلها ويقال انه أكبر من ايوان كسرى الذي بالمسرات من العراق بخمسة أذرع ومنها القببة العظيمة التي لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ومنها المنبر الرخام الذي لا نظيره ومنها البوابة العظيمة ومنها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع الى غير ذلك وكان السلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منائر الى ان كان يوم السبت سادس شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمئة فسقطت المنارة التي على الباب فهلك تحتها نحو ثمانمائة نفس من الايتام الذين كانوا قد رتبوا بمكتب السبيل الذي هنالك ومن غير الايتام وسلم من الايتام ستة أطفال فأبطل السلطان بناء هذه المنارة وبناء نظيرتها وبقي هناك منارتان قائمتان الى اليوم * ولما سقطت المنارة المذكورة لهجت العامة بمصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن على بن محمد السبكي في سقوطها هذه الايات

أبشر فسهلك يا سلطان مصر أتي * بشييره بمقال سار كلئيل
ان المنارة لم تسقط لمنقصة * لكن لسرخني قد تبين لي
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت * فالوجد في الحمال أذاها الى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل * تصدعت رأسه من شدة الوجد
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت * من خشية الله لا للضعف والخلل
وناب سلطانها فاستوحشت ورمت * بنفسها لجوى في القلب مشتعل
فالمجد لله حظ العين زال بما * قد كان قدّره الرحمن في الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة * شيدت ببيانها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها المتلات * علما فليس بمصر غير مشتغل

قال فانفق قتل السلطان بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما * ومات السلطان قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتمه بعده الطواشي بشير الجدار وكان قد جعل السلطان لهذا الجامع أوقافا عظيمة فلم يترك منها الا شئ يسير وأقطع أكثر البلاد التي وقفت عليه بديار مصر والشام لجماعة من الامراء وغيرهم وصار هذا الجامع في مقابلة قلعة الجبل لانه قلما تكون فتنة بين أهل الدولة الا ويصعد عدة من الامراء وغيرهم الى أعلاه ويصير الرمي منه على القاعة * فلما كان في سلطنة الملك الظاهر برفوق لم يحتمل ذلك وأمر فهدمت الدرج التي كان يصعد منها الى المنارتين والبيوت التي كان يسكنها الفقهاء ويتوصل من هذه الدرج الى السطح الذي كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج التي كانت

بجانبى هذه البسطة التى كانت أمام باب الجامع حتى لا يمكن التسور الى الجامع وسد من وراء الباب النحاس الذى لم يعمل فيما عهد باب مثله وفتح شبلك من شبائك احدى مدارس هذا الجامع ليتوصل منه الى داخل الجامع عوضا عن الباب المسدود فصار هذا الجامع تجاه باب القلعة المعروف بباب السلسلة وامتنع صعود المؤذنين الى المنارتين وبقي الاذان على درج هذا الباب * قال المقرئى وكان ابتداء هدم ما ذكر في يوم الاحد ثامن صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ في عمارة الجامع بجوار باب زويلة اشترى هذا الباب النحاس والتنور النحاس الذى كان معلقا في الجامع المذكور بمائة دينار ونقله في يوم الخميس سابع عشرى شوال سنة تسع عشرة وثمانمائة فركب الباب على البوابة وعلق التنور تجاه المحراب * فلما كان يوم الخميس تاسع شهر رمضان سنة خمس وعشرين وثمانمائة أعيد الاذان في المشذتين كما كان وأعيد بناء الدرج والبسطة وركب باب بدل الباب الذى أخذه المؤيد واستمر الامر على ذلك

ولما مات السلطان الملك الناصر حسن المذكور اجتمع الامراء وتشاوروا فممن يولونه السلطنة بعده فوقع اختيارهم على ابن أخيه السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون وعمره يومئذ أربع عشرة سنة فبايعوه في يوم الاربعاء تاسع جمادى الاولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور وركب من يومه في دست السلطنة وصعد الى قلعة الجبل في كيبكة عظيمة للغاية * ولما استقر به المنصب قام بالامر بلبغا وأخذ في تدبير الملك والتصرف في الامور فأمر ونهى واستبد فانتسعت كلمته وعظمت سطوته وهابه الامراء جميعا وعمكن من الملك كل تمكن ودانت له الامور فلما بلغ السلطان الملك المنصور أشده لم يطق الصبر على فعال بلبغا وتافت نفسه الى الاستبداد بالملك فجعل يستعمل الحيلة في نزعها من يد بلبغا ويستعمل اليه الامراء وطوائف الممالئ ويعمل على تقرب العامة منه فلم يقلح وكان من أمره ما سيدكر في محله

ولما دخلت سنة ثلاث وستين وسبعمائة مرض الخليفة المعتضد بالله أبو بكر بن المستكن بالله وطال مرضه واشتدت علته الى ليلة الاربعاء ثامن عشر جمادى الاولى مات في داره بالكيش فكانت خلافته نحو عشر سنين قال بدر الدين في ترجمة الخليفة المذكور هو أمير المؤمنين * وقائد المذعنين * وامام الأئمة * وقدره المتكلمين في براءة الذمة * عات أركانها * وبسطت أعصانه * وتجملت به ديار مصره * وصغت الى رأيه ملوك عصره * رأس وساد * ومنع وأفاد * ورفل في حلل النعيم * وهدى الى سلوك الطريق المستقيم * واعتضد بالله في أموره * ولم يخف عن الناس بجمبه ولا ستوره * واستمر سائرا في منهاج عزه وبقائه * الى أن لحق بعد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه * وكان الخليفة المعتضد المذكور يقنع بالكفاف حسن السيرة حج مرتين احدهما سنة أربع وخمسين والثانية سنة ستين وكانت أمور عيشه متيسرة

وفي خلافته سعى المتأصلون في اقامة بطرك لهم بعد تلك العطلة التي وقعت بسبب
القس داود بن لقلق التي تقدم بيان حوادثها واتحدت كلمتهم في هذه المرة على اقامة
القس داود المذكور فعمل بكارهم على تقليده المنصب وألحوا وأكثروا الطلب حتى تم له
الامر فكان خامس سبغى بطاركة الاسكندرية وهو من مدينة الفيوم فلما استقر به المنصب
أحسن السياسة وقام بواجب الرياسة وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل السابع)

(في خلافة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد)

ثم قام بالامر بعد الخليفة المعتضد ابنه أبو عبد الله محمد بعهد من أبيه في يوم الخميس
ثاني عشر جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة هجرية أي نحو سنة احدى وستين
وثلاثمائة وألف ميلادية ولقب بالمتوكل على الله وخلع عليه من يومه بين يدي السلطان المالك
المنصور محمد بن المالك الظفر حاجي وفوض اليه نظر المشهد النفيسي على ما كان عليه أبوه
من قبل وفوض هو الى السلطان الملك المنصور التصرف في أمور المملكة ومهام الدولة
وأشهد على نفسه بذلك فزادت رغبة السلطان من حينئذ في الاستبداد بالامر والتخلص من
يلبغا وعظم عليه ما هو فيه من الحجر والتقيد وتجرد لمعاداة يلبغا وايقافه عند حده وجعل
يستميل بعض الامراء وأصحاب الكرامة وأجزل العطاء الى طوائف المعاليك ليكونوا له عوناً
على يلبغا كل هذا ويلبغا لا يلتفت اليه ولا يهتم به حتى ظن السلطان أنه بلغ المنشود
وتم له المقصود فلما كان يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ركب
الامير يلبغا في نفر من أصحابه وصعد الى قاعة الجبل وقبض على السلطان الملك المنصور ففر
من كان حوله من الاجناد والمماليك وتركوه فخلعه يلبغا في الحال ومجنسه بالقلعة من
يومه فكانت سلطنته سنتين وأشهرًا وبقي مسجوناً الى أن مات سنة احدى وثمانين وسبعمائة
هجرية * وفي اليوم الثاني من خلع السلطان الملك المنصور اجتمع يلبغا مع الامراء
وتشاوروا فمضى صلح للسلطنة فانفقت كلمتهم على تولية ابن عمه زين الدين أبي المعالي شعبان
ابن حسين بن الناصر محمد بن المنصور فلالون ولقب بالملك الاشرف وعمره يومئذ عشر سنين
قال أصحاب التاريخ ولم يل من بني فلالون من أبوه لم يتسلطن سواء وقام الامير يلبغا بتدبير
الملك والتصرف في جميع الامور على ما كان عليه أيام الملك المنصور وزيادة ولبث على هذا
الحال زهاء الاربع سنين وقد عظم شأنه وكبر عدم اكرامه بالامور وزاد احتقاره لتكبار الدولة
واستخفافه برجال السلطنة وكثرت مماليكه المعروفة بالخاصكية وساروا بسيرته فعاثوا وجاروا

وظلموا الرعية وتناولت أيديهم الى أموال الناس واستحلوا ما لا يحل * وظهر القحط في هذه
الايام بمصر وعم جميع المدن والقرى فأكل الناس الكلاب والقطط والميتة وجذور الاشجار
واشتد الحال شدة بالغة واتصل بالديار الشامسية وتنفسى فيها فضج الناس وعجوا وأكثروا أهل
مصر من الاستغاثة والتضرع الى الله سبحانه وتعالى وذهب جماعة الى دار الامير يلعبوا ورجوه
بالطوب وصاحوا ما يحل لك أن تطلق المماليك يعيئون في الارض وقد ابتلانا الله بسبب فعالهم
بالقحط فعظم الامر على يلعبا وتطير من ذلك ولبث الحال على هذه الشدة أباما كثيرة حتى
أكل بعض الناس أولادهم وفشا هذا الامر بينهم فلم يبق منسكورا ثم ارتفع القحط فحمد الامير
يلعبا الى ايقاف ممالكة عند حدهم وكف أذاهم عن الرعية وشدت في ذلك وبالغ في العقوبة
فانحرفت نحو اطرهم عنه وتوغرت صدورهم منه وزالت عنهم هيئته فانفقوا على قتله وجعلوا
يراقبون الفرص فلما كان في بعض الايام كبسوه بداره التي في الكباش وهم في عدة عظيمة وقتلوه
ونهبوا ما في داره من حلى وملبوس ففرح السلطان الملك الاشرف بموته وظن كمال استقلاله
بالملك فقاسم الامير استدمر الناصري أحد مماليك يلعبا المذكور وضم هؤلاء المماليك اليه
ونولى الامارة عليهم ونادى السلطان الملك الاشرف بالشر وكشف أولئك المماليك بما في سره
فقويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم وتجردوا الى نزع الملك من آل فلاوون ثم لم يلبثوا أن ركبوا
جميعا لقتال الاشرف وركب الاشرف لقتالهم ومعه المماليك السلطانية واقتتل الفريقان
وطالت الحرب بينهم أياما وما زالوا حتى انهزم استدمر وجميع الخاصكية وانتصر الاشرف
عليهم نصرة مؤثرة وقبض على كثير منهم فقتل طائفة وأغرق طائفة وأبعد طائفة وبقي
منهم بمصر جماعة التجؤا الى بعض الامراء * قال بعض كتاب الاخبار وكان هؤلاء المماليك
مختلفي الاجناس غلاظ الطباع أشقياء لا دين لهم ومنهم الامير صرغمش واستدمر والجاوي
اليوسفي ولم يزل من بقي منهم في اختلاف ومقت وهياج وحقد للدولة الى أن تهيأوا وعادوا
الى خدمة الدولة واتفقوا على أن طائفة منهم تسكن بالطباق وان يدخلوا في سلك مماليك
الاسياد يعنى أولاد السلطان ففعلوا ومنهم من بقي أمير عشرة ومنهم من انضم الى المماليك
السلطانية ومماليك الامراء وظهروا بعد الانكماش فكافوا أرذل مذكور في الديار المصرية
وعادوا الى العمل على الايقاع بالسلطان ونزع الملك من ذلك البيت

فلما كانت سنة ثلاث وستين وسبعمائة عزم السلطان الملك الاشرف على الحج وأخذ في
الاسباب فانتهز عند ذلك أولئك المماليك الفرصة وكتبوا أمرهم وواعدوا مع أصحابهم
الذين تأهبوا للخروج في خدمة السلطان على أنهم يثيرون الفتنة مع السلطان في
العقبة وكذلك المقيمون بمصر يخرجون فينقضون نظام الدولة ويحدثون الفوضى ويزلون
السلطان وجميع الامراء ويستبدون هم بالملك فيفعلون ما يستحسنون وخرج السلطان
من مصر يريد الحجاز وهو في أهبة عظيمة للغاية وتجمل زائد في عدة وافرة من الاطناب وقد
رتب قبل خروجه الامور واستخلف بمصر والثغور من يثق بهم في خدمته وأخذ معه من

أولئك المماليك من لا يظن فيه الخيانة وكان بينهم جملة من المماليك الاخر فلم يبعد عن مصر الا قليلا حتى قام من كان بها منهم وأناروا الفتنة واستمالوا اليهم جماعة من المماليك السلطانية ونادوا بموت السلطان الملك الاشرف وأقاموا ابنه بدلا منه ولبثوا منتظرين فعل أصحابهم الذين هم في خدمة السلطان أما هؤلاء فانهم لما وصلوا الى العقبة ناروا على السلطان فقاتلهم واشتد القتال بين الفريقين أياما فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انهزم السلطان بعد أمور طويلة وطلب العود الى مصر وصحبته كبار الامراء وبعض عماليكه الذين اصطفاهم فذهب الخاصكية الخزينة السلطانية وما فيها ونهبوا جميع ركاب الحج وأخذ بعضهم ما سلبه وسار الى الشام والبعض الى الحجاز والبعض الى مصر وعاد نساء السلطان الى مصر في أسوأ حال وأشد ضيق وقد ذبح الكثير من الامراء في هذه الواقعة وتبعوا السلطان فلحقوه عند قلعة الجبل فانتشب القتال بينه وبينهم واشتد وقاتل السلطان قتال الابطال وطال الحال أياما اختل فيها نظام الدولة وعاث أهل الفساد وكثرت العريضة بمصر والقاهرة والقري القريبة وارتفع الامن وعم الخطف فانكشف الناس عن الخروج الى الاسواق وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وقاتل أهل الاطراف العامة من فوق أسطحة البيوت وما زال الحال هكذا حتى قبض الخاصكية على السلطان وقد تفرق عنه من بقي من أصحابه وسجنوه أياما قلائل ثم خنقوه ونهبوا جميع بيوت الاموال وذخائر السلطان واقتسروا محاطيه وكذلك فعلوا بأموال وذخائر ومحاطى جميع الامراء وأزالوا عن الدولة القلاوونية عزها وروقتها وأذهبوا بهجتها وكان قتل السلطان الملك الاشرف في يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة فكانت مدة ملكه أربعة عشر سنة وشهرين وخمسة عشر يوما وأنشأ في أيامه قصره المعروف بالاشرفية تحت قلعة الجبل سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ولما فرغ منه صنع فيه أفراحا عظيمة للغاية لم يعمل مثلها في الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه الأمير موسى بن الصالح على بن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاهي وجميع الامراء ونثر عليهم الذهب ونخل عليهم اطلع السنية

ولما مات السلطان الملك الاشرف اجتمع أصحاب الكلمة من الامراء وهم قرطاي وايتبك وغيرها وكتبوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي يطلبون منه أن يبايع من يشاء بالملك فكتب يقول اختاروا من بينكم من تشاؤون وأنا أبايعه فوقع اختيارهم على ابن الملك الاشرف علاء الدين وعمره يومئذ سبع سنين فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور وكان الأمير طشمر رأس الفتنة وزعيم الخاصكية الذين ناروا على السلطان الملك الاشرف بالعقبة قد تأخر بسبب ركب الحاج فلما وصل الى القاهرة أرسل اليه قرطاي انك قد استقرت في نيابة دمشق فسر الى الشام فرأى العجز فتوجه الى دمشق كارها وجعل قرطاي يتصرف في الدولة ويستبد بالملك حتى علت كلمته ودانت له الامور وعظمت شوكته فانغضه الامراء وحدثوا عليه وأخذوا يراقبون الفرص ليقتكوا به * فلما كان في أحد الايام قام ايتبك في نهر من

أصحابه وأمسك قرطاي المذكور وغدر به واستقل بالحكم وتصرف في الامور وطير الخبر بذلك الى الآفاق فلما علم بالخبر الامير طشتمر نائب دمشق شق عليه وكان نائب حلب وبقية فواب الشام واستجدهم على قتال ايتبك فأجابوه الى ذلك وركب اليه اشغتمر نائب حلب ومعه العساكر الحلبية واجتمع الكل بدمشق فأصدين الديار المصرية وجاءت الاخبار بذلك الى ايتبك فسير عسكرا لقتالهم وخرج هو كذلك ومعه السلطان وبعض الامراء وكان بين ايتبك وبين الامير برقوق والامير بركة شقاق وهما يرافبان الفرص للغدر به فلما وصل ايتبك الى اول منزلة ركب عليه المذكوران في نفر من خواصهما يريدان البطش به فهرب نحو القاهرة وانفشل العسكر ورجع السلطان والامراء وكتب برقوق وبركة الى طشتمر انك تحضر أميرا كبيرا للقاهرة فأجاب الى ذلك وتفرقت العسكر من دمشق وسار طشتمر الى مصر فلاقاه برقوق وبركة ودخل القاهرة في موكب حافل واستقر أميرا كبيرا بمصر وأخذ يتصرف في أمور الدولة فلما رأى برقوق من اتساع كلمة طشتمر واقبال الدنيا عليه بجذافها حسده وندم على تسليمه مقاليد المملكة وناقت نفسه الى الملك وكان غاية في المكر والدهاء صبورا حازما مدبرا مولعا بالاستقلال فجعل يدبر انفسه ويستميل كبار القوم حتى جاء عيد الاضحي من سنة تسع وسبعين وسبعمئة فركب في طائفة من أصحابه على طشتمر وأمسكوه واستقر برقوق يحكم البلاد وتصرف في أمور الدولة فعملت كلمته وكبرت شهرته وطار صيته وهابه الامراء وما زال على هذا الحال من الشهرة والمجد حتى مات السلطان الملك المنصور في صبح ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة هجرية بعد أن حكم أربع سنين وأربعة أشهر فجمع برقوق الامراء كافة وتشاوروا فبين يصلح للسلطنة فانفقت كلمتهم على تولية زين الدين حاجي أخى الملك المنصور وله من العمر يومئذ ست سنين فبايعوه من يومه ولقبوه بالملك الصالح وأركبوه في دست السلطنة فلم يكن له منها سوى الاسم والكلمة للامير برقوق ولبث الامير برقوق بعد ولاية السلطان الملك الصالح زين الدين سنة ونصف سنة يعمل على اعلاء كلمته وتوسيع شهرته وأخذ الملك لنفسه فلما تم له الامر قام في التاسع عشر من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمئة على الملك الصالح وخلعه ونفاه واستلم مقاليد الملك فكانت مدة سلطنة الملك الصالح سنة ونصف سنة وبضع أيام وكان هو آخر من حكم ديار مصر من دولة المماليك سلالة قلاوون المعروفين عند أهل التاريخ بالمماليك البحرية وبموتهم انقضت دولتهم وعفت آثارهم بعد أن حكموا نحو من مائة وثلاثين سنة وقد مر بك بيان أخبار هذه المدة وما وقع فيها من الحوادث فقامت بعدها دولة المماليك الثانية وظهرت بظهور برقوق المذكور وهو رأسها ومؤسسها فسبحان من له الملك والملكوت وهو على كل شيء قدير

(وصل)

(في أصل الجراكسة وفي طباعهم وأديانهم)

وفي

(منشأ دولتهم الثانية بديار مصر)

قال أصحاب التاريخ قد سمي الكتاب هذه الدولة بدولة الممالك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم كانوا من الشعب الشركسي وقد اختلفوا في محل ظهورهم فمنهم من قال انهم ظهروا بأسيمة العليا ومنهم من قال انهم نشؤا بسبيريا ناحية بحيرة بيكال في نحو القرن السادس للميلاد المسيحي * والثاني أشهر * ثم نزحوا الى بحر قزوين فاستوطنوا غربيه وأنشؤا لهم مساكن على شبه الخيام فسميت تلك الاصقاع من ذلك الوقت باسم شركاسيا وتاسلوا وغوا غموا عظيما فكانوا بعد ذلك يحملون الى أقطار العالم للتجار بهم كالسلع سواء بسواء وكانوا كغيرهم من بقية الامم في الازمان الغابرة عاكفين على عبادة الاوثان والتقرب اليها بالقرابين والذبائح وتقديم التقدام من الاسلحة والحلي * قال بعضهم وكان في أحد الجبال الواقعة ما بين سخوم وصوغوجق التي يقال لها غوبية شجرة عظيمة عجيبية المنظر تعادل في كبرها السنيدان وهي مكونة من عدة أشجار مختلفة الاجناس قد نبتت في مكان واحد وتسمى عندهم يعني عند طوائف الشراكسة باسم * قودوش * فكان يأتي اليها في يوم معلوم من كل سنة طير كبير اسمه بيوغه زعموا انه يسند رأسه على تلك الشجرة ليسلم نفسه للذبح قربانا لها ولا يمانع من يأتي ليدبحه فانما فعل ذلك قام أحد الجماعة الحاضرين هنالك في ذلك اليوم فيذبحه في الحال ثم يصبون على رأسه وعينيه شيئا من الخمر أو البوزة ثم يكشفون رؤسهم ويأخذون طقياتهم بأيديهم ويضجون ويقولون يا الهنا العظيم ان عنايتك بعبيدك ليس لها حساب ولا حد ثم يسجدون وتضرعون لهذه الشجرة وهم مكشوفو الرؤس وبعد ذلك يقسمون فيما بينهم لحم ذلك الطير وجلده ويحمدون معبودهم وينصرفون واذا سار جماعة منهم الى السرقة والنهب بجرا في القارب المعروف عندهم باسم نجايا أو نرجوا الى السلب في الطرق والجبال ينشدون لتلك الشجرة شيئا من سلاحهم وآله حريمهم ان هم فازوا وظفروا بفريستهم فيقول الواحد منهم ان غلبت في فوتي هذه فاني أنذر لشجرة قودوش أحسن بارودة أو أحسن درع أو أحسن شيء لاتفنيه الامطار ولا تعمل فيه العواصف فاذا تم له ما أراد أتى بما نذره فيعلقه على أغصان تلك الشجرة

ولذلك كان يرى على أغصان قودوش المذكورة شئ كثير من تلك النذور باقية معلقة محترمة
 لا يستطيع أحد أن يمسه بيده لانهم يزعمون أن من سرق شئاً من تلك الاشياء مات لساعته
 وكان لمعبودتهم قودوش هذه نواب يعرفون باسم طغالك وهؤلاء النواب يختارهم الناس يعنى
 اذا رأى أحد من الناس شجرة فى جوار داره واستحسنها واستعظم حجمها اتخذها نائبة عن
 قودوش فيستر ساقها بسياج لطيف ويربط أطرافها من أعلى بالحبال والخشيش اليابس على
 هيئة عمامة ثم يسميها باسم طغالك وينسبون اليها نساء زرعهم وحفظه من الصيال فإذا هاف
 الزرع مثلاً ونقصت غلة الأرض فى سنته تقدموا الى تلك الشجرة وجعلوا يتضرعون اليها
 ويقولون وهم حاسرو الرؤس نرجو كرمك أيها المعبود العظيم أن تبارك فى غلات أرضنا
 وتكثرها فى عامنا هذا فقد كانت فى العام الماضى غير كافية لنا ولضيوقنا ثم يسجدون
 تحتها لجهة الشرق ويذبحون رأساً من الضأن أو المعز قرباناً ويصبون على رأسه شئاً من
 الخمر أو البوزة ويكثرون هذه الضراعة والابتهال كل قليل الى زمن الحصاد فإذا أخضبت
 أرضهم وكثرت غلاتها فى عامهم ذلك فرحوا وخروا سجداً لمعبودتهم وبالغوا فى تعظيمها والا
 حنقوا وصاحوا عليها لماذا لا تسمعين ندائنا ثم يعضبون فيترعون عنها أوراقها ويقطعون
 أغصانها ثم ينزعونها من أصلها ويحرقونها ويتخذون لهم معبودة أخرى مكانها ثم يتقدمون
 اليها بالتجميل والتعظيم ويقولون لها يا معبودنا الجديد ان الطغالك الذى كان لنا فعبدناه من
 قبلك حيناً قد أساء الينا فألقيناه فى النار والنور وجعلناك لنا طغالك جديدة وسنقوم
 بعبادتك خير قيام فان أنت لم تصبى الى ندائنا قلعتناك وألقيناك فى النار * قال الراوى وكان
 هذا التنبيه من عاداتهم القديمة * وكانت عادة السلاطين الجانكيزيين أنهم يعطون أولادهم
 الى أمراء الجراكسة لارضاعهم وتربيتهم على حالة البداوة فإذا أمروا بسدة الرضاع والتربية
 ردوهم الى آبائهم فكانوا لذلك يغدون ويروحون الى بلاد القرم ولاختلاطهم عن اعتنق
 الدين الاسلامى من التنازل ببعضهم الى التدين به فخلطوه ببعض عاداتهم فكانوا يصومون
 شهراً فى السنة وبعد أربعة أشهر من هذا الشهر يطبخون حبوب عاشوراء ثم بعد ذلك بشهر
 أيضاً يدعون لقراءة المولد النبوى شيئاً عارفاً برطانهم فيقرأ عليهم شيئاً تقليداً للاسلام وكانوا
 يعملون فى كل سنة ضيافة على اسم سلطان الابطال الامام على بن أبى طالب ويتظاهرون
 مثل العلويين وظلوا على هذا الحال حيناً من الدهر وهم لا يعرفون من الاسلام غير الاسم
 فقط لان العبادة التى نتلوها عن التنازل يقصدوا بها عرض العبودية لجانب الحق سبحانه
 وتعالى وتعظيم نبيه ورسوله بل كانت لحصول الفيض والبركة * قال بعض الكتاب وكانوا
 أيضاً يعملون عيد فصح لروح أبى جهل ويسمون هذا الفصح باسم صاوصوروق اه وقد
 دخلت النصرانية فى عدة جهات من بلاد الجراكسة بسبب الجنوزيين الذين استوطنوا
 ساحل البحر الاسود فى القرون المتوسطة شمال الى التدين بها الكثير منهم وكادت تم جميع
 القبائل فلما تغلبت الدولة العثمانية على بلادهم واستقر أمرها ظهر الدين الاسلامى وزال

وكانت لهم حكايات وروايات غريبة للغاية يروونها بالسند الى معبوداتهم ودينهم قبل الاسلام * منها أنهم كانوا يروون أن رجلا محبوسا في مغارة في جهة قلعة الحجاج الكائنة في جبل البرز يقال له **ضمالك ماري** فاتفق أن رجلا من أهل قريه كانت تقرب من ذلك الجبل كان يتجول في الجبل للصيد فرأى المغارة المذكورة ففكر في نفسه وقال ليها تصلح مأوى للغنم ثم دخلها فلم ينته الى جوفها حتى سمع صوتا مريعا أوقفه عن السير فجعل يفرط عينيه بيديه لعله يرى ما في داخل المغارة واذا به يرى شيئا هائلا على شكل الانسان مربوطة بحبل الى عنقه ويدها مقيدتان بقيد محكم وفي وسطه سلسلة من حديد فوقف الرجل قليلا حتى سكن روعه واطمأن جأشه وعلم أنه محبوس وبينما هو يفكر في أمر ذلك المحبوس اذ خاطبه المحبوس قائلا مريا أئني لانتخب واقترب مني فاني مرهون هنا ومنتظر للوقت المعهود فان أنت أحسنت لي العمل فأتني بعضي طويلا تشبه القصبية الطويلة التي يعلق بها حبل الغسيل فان فعلت و قدرت على أن أنزل هذا السيف المعلق أمامي فأتني أنخلص من هذا القيد وهذه السلسلة التي أنا مربوط بها فأجازيك على احسانك بخير الاحسان وأحفظ لك هذا الجبل على الازمان قالوا نحن اليه الرجل وأناه بعضا فتناولها ويدها مربوطتان ومدتها نحو السيف واجتهد جهده في تنزيله فلم يقدر فالتفت الى الرجل وقال له بورك فيك لم يأت وقت مجاني ولا ساعة خلاصى من هذا الاسر وكسر العصا قطعها فجعلها جذاذا كقطع السوالف فتركه الرجل وانصرف وعاد الى القرية فأخبر زوجته وأولاده بما رآه وحدتهم بما سمعه من ذلك المحبوس ولبث أربعة أيام ومات وشاع خبر موته وما أخبر به أولاده من خبر ذلك المحبوس فاجتمع أهل القرية وقالوا كيف يموت وقد عاش جده وأبوه أكثر من مائة عام وهما لم يشاهدا ذلك المحبوس ولا المغارة ولو لم يره هو مامات وهو في هذا العمر واستولى الخوف من الموت على جميع أهل القرية فتعاهدوا على أن لا يذهب أحد منهم الى تلك المغارة وشاع خبر ما وقع بين القرى المجاورة فاجتمعوا وتعاهدوا على أن لا يقتربوا من تلك المغارة ولا يراها أحد منهم وعملوا لذلك حدودا لا يتخطوها فأوت الى تلك الحدود الوحوش من الثعالب والسمور والفهد وكلب الماء وكثير من الطيور كالرهو والليل والرخم والغرنوق ودجاج الارض والذرايح وصيدها جميعها ممنوع فيما بينهم ولم تزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد للمارين وهي آمنة مطمئنة لاخوف عليها * ومن عادة الامهات عندهم أنه اذا بكى الطفل وأسكتته أمه ولم يسكت خوفاً منه بصاحب تلك المغارة فتقول له مه والا أتيتك بصاحب المغارة فيفعل بك كذا وكذا ويروون عن هذا المحبوس غير ذلك أيضا ولهم عادات في عباداتهم كثيرة غير ما ذكرناه قد أضربنا عن ارادها هنا

(لاحقة)

(في أخلاق الجراكسة وعاداتهم)

جاء في تاريخ العلامة جودت باشا ما تعريبه ﷺ جيت أرض قبائل الجراكسة والاباطنة
 طولاً وعرضاً فوجدتها نظيفة طاهرة من جميع الادران ووجدتهم قوما عقلاء قابلين
 للعضارة والمدنية ذوى شجاعة وجسارة صادقين في أقوالهم ثابتين فيها لا يتكلمون بالكذب
 أصلاً ولا يحلفون أيماناً كاذبة فاذا اتخذت لك منهم خادماً فمهما ﷻ كان عنيدا فظاً عاصياً
 فاستخلفه على الامانة والولاء فاذا حلف لا يخونك أبداً ولا يحنت في يمينه ولا يعمل على خلاف
 ما أقسم به ولكن يجب استخلافه على كل أمر بحرفه فتقول له احلف أنك لا تخونني في
 كذا وفي كذا فاذا ارتكب الخيانة في أمر وعانته عليه وكان غير داخل في عداد
 ما استخلف عليه قال قد حننت في هذا الامر لاننى لم احلف على عدم الخيانة فيه * قال
 وهسم قوم في غاية السخاء والكرم يقرون الضيف حتى لو كان صاحب البيت من أشرفهم
 والضيف من صغاليكهم أو من أحد العامة فانه لا يقعد في حضوره بل يخدمه واففا على
 قدميه ولا ينام بل يقضى ليله مسلحاً بسلاحه لحفظه وحراسته ومن عاداتهم أن صاحب البيت
 لا يأكل مع الضيف ولا من الطعام الذى صنع للضيف ولا ينزعون عن الدجاج الذى يخبونه
 للضيف رؤسها عن أبدانها بل يضعونها أمام الضيف كذلك اشارة الى أن رؤسهم وأجسامهم
 فداء له وألبستهم تكاد ﷻ تكون جميعها من لون واحد فبالفرق بين الغنى والفقير
 فى الملبس وفقراؤهم لا يصيرون أغنياء وأغنيائهم لا يصيرون فقراء وجميعهم يعتقدون أنهم
 اخوة بعضهم لبعض فاذا لزم لأحدهم شئ وطلبه من الآخر أعطاه اياه بلا معاوضة ولا
 يجيبه بكلمة لا * ومن عاداتهم أن لا يقتل أحدهم الآخر ولا يشتمه ولا يسبه ولا يضربه
 ويستخدمون أسراهم بالرفق واللين من غير أن يضربوهم أو يؤذوهم ولا يقرون عليهم فى
 المأكل والمنسرب وليس من الأمور المعيبة عندهم النهب والسلب أو التخريب بل يعتبرون
 ذلك من البسالة والاقدام * ومن عاداتهم احترام الشباب للشيوخ فلا يقصر الشاب فى
 خدمة الشيخ بل يقوم بخدمته قيام العبد لخدمة مولاه ويصح لصاحب الحسب والنسب
 والتقدير الرفيع من قبائل الجراكسة أن يتزوج بنت أحد الناس ليكسبها قدراً وشرفاً
 ولكن لا يصح أن الاصغار من الناس يتزوجون بنات ذوى الحسب الرفيع مطلقاً ولا
 يسكنون بجوار بعضهم بل بيوتهم متفرقة على رؤس الجبال فاذا حدث لأحدهم حادث
 نادى بما يعبر عنه بلسان التتار أبش حريق فيصل خبر ذلك الحادث الى جميع البيوت فى
 وقت قريب للغاية فيجتمعون ويتكلمون فى أمر ذلك الحادث واذا قاموا لحرب قدموا عليهم

أحدهم فلا يبقى لأحد منهم كلمة فوق كلمته فعليه تدبير أمرهم في تلك الحرب وعليهم طاعته في جميع ما يأمر به فإذا انتقضت الحرب عاد كل إلى ما هو عليه من الحرية والاستقلال ولغتهم متعدّدة ولا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة قال ومع هذا كله فإنهم متوحشون جبليون لا يميزون بين الكفر والإيمان ولا بين الخير والشر ولا يقدر غريب أن يطوف بينهم وإذا أراد أحد الناس أن يريين مساكن إحدى قبائلهم أخذ معه دليلا من قوم تلك القبيلة والواقع في مخالط العطب وهذا الدليل يقال له (شاغرى) وهذا الشاغرى يكون مرعى الجانب مسموع الكلمة فإذا شاء أحد من الناس الاختلاط بقبائل أولئك القوم وعاشرتهم والتطواف بين منازلهم كواحد منهم لزمه أن يتبنى لأحد أصحاب الحسب وطريقة ذلك عندهم أنه يأخذ أولا ثوبين من الثماش الأبيض وجلدا من السحتيان وبرة وخيطا ومشطا وكستباناً ثم يطلب له دليلا فإذا وجدته يعطيه أحد الثوبين المذكورين أجرة ليوصله إلى أمير القبيلة التي يختارها فيسير به إلى دار الأمير فيقدم هديته إلى امرأة صاحب الدار وإذا كان صاحب الدار غائبا في ذلك الوقت لزمه الدخول إلى فناء الدار وطلب زوجة صاحب الدار فإذا جاءت به هجم عليها وأخذ بعمه أحد تديها وجعل يرضعه وهو يقول قد صرت في بيت الوالدين وصرت لك ابنا في الرضاع يفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتا وكان زفافها إليه تلك الليلة وإذا كان لا يعرف رطانهم يبلغهم ما يقول بواسطة ترجمان منهم وقاعدتهم في هذا الأمر أن المرأة تمسح بيدها على ظهره إشارة لقبول بنوته ثم تأذن له بالإقامة عندهم وعند ما يأتي زوجها تخرج إليه وتقول له انظر إلى هذا فقد اتخذته لي ولدا ثم تشير إلى زوجها بأن يقبل يده فيفعل ويقبله أيضا ويأخذ من يومه في تدارك أمر ضيافته فيعد لذلك ما طاب من إناء كل والمشرّب ويدعو قبيلته ومن جاورها من بقية القبائل ويجعل ذلك الوقت عيدا فإيا كرون وبشربون ويفرحون يومهم ذلك وفي ختامه يقول صاحب الدار لجميع من حضر انظروا قد اتخذت هذا لي ولدا فيمشون في وجهه ويمنون ثم ينصرفون ويبقى صاحب الدار وذلك الرجل في الاتصال كالأب والابن ويظهر كل منهما للاخر محبته فيغدو الرجل وروح بلا ممانع فإن كان تاجرا فلا يبقى في حاجة إلى من يحفظ عليه ماله بل يكون أمنا من جميع المخاوف والمخاذير فإذا صادفه في طريقه أحد وقصده بسوء من أخذ ماله أو أذاهب روحه فقال أنا متبنى لذلان فإنه ينكف عنه فإذا لم يلتفت إلى قوله وأخذ ماله أو أخذه أسيرا واتصل خبر ما جرى له بأبيه قام لاسترجاع ما أخذ منه أو استخلاصه وأخذ أيضا من الفاعل لذلك تسعة أمثال ما اغتاله ويسمون ذلك عندهم (عيبلىق) أى جزاء ما ارتكبه من العيب وهى عادة من رسمهم القديم وإذا كان الصائل أو المغتال لا قدرة له على دفع هذا الجزاء أخذ أسيرا وبيع * ومن عاداتهم أن من يحكم عليه بالجزاء لا يهرب بل يسلم نفسه وإذا كان له بنات ورضى أب من أخذ ماله بأخذهن جازله بحسب قانونهم أخذ اثنتين متين بدلا عن أبيهما فيباعان عوضا عن أبيهما

والقتل عندهم من أكبر الجرائم وأشدّها عقاباً ولذلك يتباعدون عنه ما استطاعوا
 فإذا ضرب أحدهم آخر ضرباً أفضى به إلى الموت كان الجزاء بحسب مرتبة الأهل وهم على
 ثلاث مراتب وهي مرتبة البكوات * ومرتبة الأوزنيين * والطوقاد * فالبكوات هم كبار
 القبائل وأصحاب الحسب والنسب والأوزنيون هم أواسط الناس والمسائير منهم والطوقاد هم
 العامة فإذا كان المقتول من أواسط الناس كانت دية عشرين عدداً حسب اصطلاحهم
 خمسة منها أسرى تقاس قسودهم على قدر معلوم بالشبر والخمسة الثمانية منها عبارة عن
 خمسة رؤس من جياد الخيل كل رأس بقيمة أسير والخمسة الثلاثة منها عبارة عن خمسة
 دروع كل درع قيمة أسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقه) يعطى فيها سيف وبارودة
 وقوس ولابد من قيام المحكوم عليه بالدية بجميع ذلك على أي حال كان ولما لم يكن عندهم
 نقود ولا سكة كان تقدير قيمة الأسير عندهم بالشبر ولا يعتبر عندهم عن الأسير بحسب
 جماله أو بشاعته بل ينظر حسابه على حسب الشبر والأسير التام عندهم ستة أشبار فإذا
 كان أقل من ذلك عدت ناقصاً فإذا لزم أحدهم أن يعطى آخر أسيراً تاماً وأعطاه إياه بقياس
 أربعة أشبار مثلاً لزمه أن يتم الباقي بشئ آخر * ومن عاداتهم أيضاً أنه إذا زنت امرأة
 وثبت زناها بيعت هي وجميع أولادها بأجنس الأثمان * وقاعدة ذلك عندهم * أن زوج تلك
 الزانية يذهب إلى أبيها وأمها ويخبرهما بما وقع ويقول إن بنتك بنت حرام فخذوها عني
 وأعطوني ما أخذتوه مني مقدماً في عقد زكاحها فعند ذلك يتبرأ منها والداها ويأذناه بأخذها
 وبيعها هي وأولادها فيحملها مع أولادها إلى النخاس وبيعههم ويأخذ منهم فلا يصل إلى
 داره إلا ويكون قد فترق جميع الثمن المقبوض على أخوانه وخلانته وبيت ليلته تلك ويصبح
 فيسير إلى بيت الزاني ومعه بعض كبار القبيلة ويقول له قد بعث المرأة بكذا من الثمن وأطلب
 منك حتى ثم يتركه وينصرف ويرسل إليه في ثاني يوم من يطالبه بهذا الثمن فلا يسع الزاني
 إلا أن يقوم بدفع الثمن الذي بيعت به المرأة وتسعة أمثاله أيضاً جزاء ما ارتكبه من فعل
 الزنا فإن كان الزاني لأمال عنده ولم يوجد من يعينه على ذلك فيقوم عليه والداه ويقيدانه
 ويملئانه إلى زوج المرأة ويقولان له هذا حقك فيأخذ به بحيث لا يضربه ولا يشتمه ولا يهينه
 ولا يوبخه ولا يقول له أنك فعلت كذا وكذا لأن الشتم والخس القول عندهم مكروه ويسير
 به إلى السوق وبيعه بأى قيمة أعطيت فيه ثم يلتفت إلى الشخص ويقول له هذه قيمتك
 ويفرق ما قبضه من الثمن على الحاضرين ثم إن قبيلة الجاني توفى بقيمة حقه

وبلاد الجرا كسة لطيفة الهواء والماء وفصولها الأربعة جميلة وأراضيها خصبة ذات
 محاصيل كثيرة وبنيت فيها جميع أصناف الخضر ولكن جميع قبائل الجرا كسة
 لا يأكلون الخضر ويعيشون على أكل اللحم فقط وليس لهم غاية في الفلاحة فهم ذوو
 كسل وبطالة وطباعهم أشبه شئ بطباع العرب البادية ولكنهم لا يعادون بعضهم
 ولا توجد بينهم آداب ولا رسوم مدنية ولا ما يوجب الترقى والحشمة والاحترام من

بعضهم وفي بلادهم جميع أنواع النباتات كالسنا والراوند الصيني ونوع من السحلب
 القوى وجميع أنواع الفاكهة والخضر والزيتون والكستنة والشاي السبرى ومن أشهر
 الأشجار عندهم شجر البقس وهو يصلح للسفن جدا فلذلك إذا أتى أصحاب السفن
 لاخذ شئ منه لا يتقدمون الى ذلك الا اذا وضعوا رهائن منهم عند بكار الجراكسة وأخذوا
 معهم رهائن منهم أيضا ليكونوا آمنين من شر أصحاب القرصان المعروفين باسم نجليا ولا
 يوجد عندهم ملح مطلقا وهو عزيز للغاية عندهم فلذلك جرت العادة عند أصحاب
 السفن التي تسير الى بلاد الجراكسة أن يأخذوا معهم كثيرا من الملح ويتعاملون به معاملة
 العروص وذلك بأن يضعوا مقدارا من الملح في احدى كفتى الميزان ويجعلون في الكفة
 الثانية مقدارا من العسل مثلا أو من سمن العسل أو من جلود الثعالب والسمور * وفي
 بلادهم أيضا سائر أنواع الصيد من الطير والوحش ولهم في القنص أمر غريب ومنه صيد
 الفهد وهو مخصوص بالنساء وذلك أنهم يعلقن قطعة من اللحم في شجيرة ذات شعوب
 فيأتى الفهد ويثب لأخذ اللحم فتملق رجليه في شعبة الشجيرة فيمسك وفي الحال يسلمنه الى
 رجل طويل القامة يسبح جلده * ومن عاداتهم الغربية أن الذى يسبح الفهد يلزم أن يكون
 مساويا للفهد في الطول ولهم عوائد أخر غير ما ذكر قد أضربنا عن ايرادها خوف الاطالة
 وقد جاء بهؤلاء الجراكسة ملوك مصر وأكثروا من شرائهم وتغالوا في ملبسهم
 ومركبهم لا سيما السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الكامل فكانوا مع من بقى
 من المماليك البحرية الذين اصطفاهم السلطان الملك الصالح لخدمته وسلم اليهم دولته يدا
 واحدة فكانت لهم حراسة الحصون والقلاع وفي أيديهم سائر الابراج وقد
 سكنوها وتسموا بها فكان يقال لهم البرجية كما كان المماليك البحرية يسمون أيضا في أيام
 الملك الصالح بالحلقة اشارة الى أنهم كانوا لا يفارقونه في حمله وترحاله وما زالوا على هذا
 الحال حتى عظم أمرهم واشتد بأسهم وظهرت كلمتهم وهابهم الامراء لتمكنهم من مناصب
 الدولة وأمور المملكة وتراف اللاتين الى بكارهم وأدنوهم خوفا من بطشهم وأخذوا برأيهم
 وعملوا بمشورتهم فسادوا وأمروا وفازوا واشتهروا وظهر من بينهم برفوق اليلبغاوى
 العمري الذى تقدم الكلام عنه واشتهر أمره واتسعت كلمته وخضع له كبار الدولة
 وأمراء المملكة فنصرف في جميع الامور تصرف المستبد وركب في دست السلطنة في
 أيام الملك المنصور وفي سلطنة أخيه الملك زين الدين حاجى وما زال على هذا الحال من
 الرفعة والسودد وعلو الكرامة حتى تمكن ورخت قدمه وخلع السلطان الملك الصالح
 زين الدين واستبد بالملك وطلب من الخليفة المتوكل البيعة فبايعه وبايعه القضاة والعلماء
 والامراء وبكار الدولة ولقبوه بالملك الظاهر تفاقولا بالملك ركن الدين بيبرس البندقدارى * ثم
 كان من أمره وأمر من جاء بعده من هذه الطائفة ما سيذكر بعد

(فصل — ل)

(في الكلام على ما وقع في أيام هذه الدولة أعني دولة الموحدين الثانية

الى انقراضها وزوال ملكها)

لما تمت البيعة للسلطان الملك الظاهر برفوق أحسن السيرة وبالغ في الاهتمام بشؤون البلاد وراحة الرعية ورتب أمور الدولة وأتقن نظام المملكة وحصن الثغور وعمر الإبراج ورمم القلاع وأكثر من العمائر والاحتداد وتأهب لقتال تيمورلنك وقد كان تيمورلنك على عزم الزحف على الشام وأخذها والركوب على ديار مصر واستخلاصها من يد السلطان الملك الظاهر فخرج السلطان الملك الظاهر في أبهة عظيمة وسار من القاهرة في جيش جرار لقتال تيمورلنك * فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت جيوش تيمورلنك شر هزيمة وعادت خاسرة وعاد السلطان الملك الظاهر برفوق بجيوشه الى القاهرة ظافرا غانما ودخل من باب النصر في أبهة وأمامه الامراء ورؤساء الدولة ففرح الناس برجوعه ودقت البشائر ولم يستقر به المقام بالقاهرة حتى سعى أصحاب السعاية بينه وبين الخليفة المتوكل فاعلموه أن الخليفة واطأ جماعة من أهل الفساد على قتله اذا لعب الكرة وأنه تعاهد مع آخرين على نصرته واستبداده بالامر وأن الخليفة يقول انه ما فؤوض الى السلطان الملك الظاهر برفوق السلطنة الا كرها وأنه لم يسرف في ملكه بالعدل فاستعظم الملك الظاهر هذا الامر وبث العيون والارصاد حول الخليفة المتوكل فكبرت الوحشة بينهما وخاف كل من صاحبه وتحفظ فاستدعى السلطان الملك الظاهر بالقضاء والائمة والعلماء وخطبهم في أمر الخليفة وما بدا منه وأعلمهم بخبر الدعاة الذين انضموا اليه ووافقوه على خلع السلطان فأجمعوا على خلع الخليفة وطال الاخذ والرد بينهم أياما ثم خلعوه وقبض عليه وسجن بقلعة الجبل في سنة سبع وثمانين وسبعمائة هجرية وقيل بل امتنعوا من اجابة طلب السلطان وقاموا عنه فخلع هو الخليفة بقوته واعتقله بالقلعة ثم طلب عمر بن ابراهيم بن المستمسك بن الحاكم وبايعه ولقبه الوائى بالله وذلك في رجب سنة خمس وثمانين وسبعمائة * فلما كان ذو القعدة من السنة المذكورة أخرج المتوكل من سجنه فأقام بداره مكرما لا خوف عليه * وقد كان الخليفة المتوكل المذكور خلع قبل هذا الحين بقليل وذلك انه لما مات الاشرف وأقيم ولده المنصور على كان الامير ايتبك البسدرى مدبر دولته فوقع بينه وبين الخليفة المتوكل كلام حقد أيتبك على المتوكل أمورا فطلب نجم الدين زكريا بن ابراهيم ابن ولي العهد المستمسك ابن الخليفة يوم الاثنين رابع ربيع الاول سنة تسع وسبعين وخلع عليه وأقامه خليفة

فاستقر بغير مبايعة ولا اجماع ولقب المعتصم بالله * فلما كان العشرون من الشهر المذكور كالم الامراء ايتبىك فيما فعله مع المتوكل ورغبوه في اعادته الى الخلافة فاعاده وخلع زكريا فكانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوما ولم يتم الشهر على ايتبىك حتى اتفق العسكر على خلافه وقاموا عليه فهرب فقبضوه وظفروا به في تاسع ربيع الآخر من السنة فقيده وسجنوه بالاسكندرية ثم كان آخر العهد به فقال فيه شهاب الدين ابن العطار

من بعد عز اذل ايتبىكا * وانحط بعد السمق منفثكا

وراح يبيكي الدماء منفردا * والناس لا يعرفون أين بكى

واستقر الواثق في الخلافة الى أن مات حتف أنفه يوم الاربعاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة أو سنة سبع وثمانين وسبعمائة فكلم الناس برقوقا في اعادة المتوكل الى الخلافة فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذى كان ايتبىك قد ولاء تلك الايام اليسيرة فبايعه ولقب بالمعتصم بالله فاستقر الى يوم الخميس ثانى جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وسبعمائة * قال بعض أهل التاريخ وندم برقوق على ما صنع بالمتوكل فخلع زكريا وأعاد المتوكل الى الخلافة فركب من يومه في الدست وحلف الفضاة كلا من الخليفة والسلطان على موالاته الآخر ومناصحته وأقام زكريا بداره الى أن مات مخلوعا في سنة احدى وثمانمائة هجرية وقرئ تقليد المتوكل في المشهد النفيسى في ثامن عشر الشهر بمحضرة الفضاة والامراء وقرر له السلطان دارا بقلعة الجبل يسكنها ويركب الى داره بالمدينة متى شاء واستمر في خلافته مهيبا محترما محبوبا عند الامراء والوجهاء وكثرت اولاده كثيرة فائقة وأثرى وكثر ماله وهابه الملك الظاهر برقوق لما رأى من طاعة الامراء له واجتماع رجال الدولة على كلمته والأخذ بعشورته فلم يلبث على مصافاة السلطان الملك الظاهر الا قليلا حتى عادت الوحشة بينهما واستحكمت النفور واشتد الخلاف فاتخذ الخليفة المتوكل مع جماعة من كبار الامراء وبينهم الامير بلبغا الناصرى والامير منطاش على خلع السلطان الملك الظاهر فقاموا عليه وخلعوه من السلطنة وسيروه منفيا الى قلعة الكرك واستقدموا السلطان الملك الصالح حاجى آخر ملوك دولة المماليك البحرية الذى قد كان خلعه برقوق على ما تقدم بيانه فحضر وبايعوه في السادس من جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ولقب بالملك المنصور واتسعت كلمة منطاش وكبرت صولته وتاقت نفسه الى الملك فركب في سنة اثنين وتسعين وسبعمائة على بعض الامراء وقتلهم وأمسك الناصرى مع جماعة من الامراء وسيرهم الى الاسكندرية وألقاهم فى السجن وأرسل الى بزلاز نائب دمشق من أمسكه وقتله وأقام بدله في نيابة دمشق الامير جنتمر أخا الامير طاز وسير الى قلعة الكرك من يقتل السلطان الملك الظاهر برقوق وكان المرسل مقوتا عند أهل الكرك فلما علموا بخبر مجيئه قاموا عليه وقتلوه

وأطلقوا السلطان الملك الظاهر برفوق فسار برفوق الى دمشق في نفر من أصحابه نخرج اليه صاحب دمشق بالعساكر الشامية فانتصر عليهم برفوق نصرة عظيمة ونزل بقبة يلبغا وحاصر دمشق وضيق عليها وشدد وتوجه اليه نائب حلب المدعو كشيغا بعساكر حلب فاصرا له واجتمع اليه أيضا كل من كان قد تفرق عنه فكبرت جموعه وجاءت الاخبار بذلك الى منطاش بالقاهرة فخرج اليه منطاش بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام والتقى الجمعان بناحية شقيب فانتصر البعض من الفريقين وانكسر البعض ولم يعلم أحدهما حال الآخر فولى كشيغا هاربا نحو حلب وولى منطاش نحو دمشق ولم يشعر السلطان الملك الظاهر برفوق بنفسه الا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجي فنزل في الحال عن فرسه وأمسك الملك المنصور وقيده وجلس هو على كرسي السلطنة وصار كل من يحضر من الفريقين يبغده جالسا في دست السلطنة فلا يسعه الا النزول وتقبيل الارض بين يديه فلما كان اليوم الثاني خرج منطاش فيمن بقي من عسكر مصر والتقى الجمعان وتناوشا قليلا ثم رجع كل الى مقره وسار السلطان الملك الظاهر برفوق من ليلته قاصدا مصر ومعه جماعة من عسكر حلب والعسكر الشامي والمصري ووصل اليها فوجد عماليكه قد خرجوا جميعا من الحبوس وأمسكوا أعوان منطاش والعاملين معه ومنطاش بدمشق فدخل السلطان الملك الظاهر برفوق مصر فرحا مطمئنا وأطلق جميع الامراء الذين حبسهم منطاش وأما منطاش فانه لما بلغه خبر وصول السلطان الملك الظاهر برفوق الى مصر وما جرى فيها أرسل أمير اسمه تتمر الموساي الى حلب نائبا وحاصروا كشيغا في قلعتها وجاء الخبر بذلك الى السلطان برفوق فجهز عسكرا عظيما من مصر ومقدمهم الامير يلبغا الناصري وسير معه الامير الجوباني نائبا بدمشق وقراد مرداش نائبا بطرابلس فلما أحس منطاش بقدمهم هرب من دمشق وبلغ ذلك تتمر وهو يقاتل من بحلب فهرب أيضا وخرج الناصري والجوباني ومن معهم من العساكر من دمشق في أثر منطاش وهو منضم الى نعيم بن جبار وعنقا فحصلت بين الفريقين وقعة عظيمة للغاية على مدينة حص قنسل فيها الجوباني وجماعة من الامراء وعاد الناصري الى دمشق فجاءه تقليد نوابتها وبلغ ذلك كشيغا نائب حلب فأخذ في عمارة سورها ولم تكن عمرت من عهد طازان ووصل منطاش ونعيم وعنقا في جيش جرار ونازلوا حلب وحاصروها في شهر رمضان فلم يتمكنوا منها ورجعوا عنها خاسئين وأرسل السلطان الملك الظاهر برفوق في طلب الامير كشيغا فحضر الى مصر فولاه بها أميرا كبيرا واستقر عوضه قراد مرداش بولاية حلب ب ولم ينكف منطاش عن شن الغارة كل قليل من الزمن على البلاد الشامية وكثر عبثه وفساده فكبر أمره على السلطان برفوق وخرج في جيش عظيم يريد الشام وبلغ ذلك منطاش فهرب نحو الشرق وقدم السلطان دمشق واستعجب معه الناصري وسارا الى حلب وأقاما بها أياما ثم عاد الى دمشق وفي ليلة عوده قتل يلبغا الناصري وجماعة من الامراء بقلعة حلب وأخذ معه قراد مرداش وقرر

عوضه في حلب الامير سيف الدين بظا الدوادار وسار في عسكره يريد مصر فدخلها في سنة
أربع وتسعين وسبعائة وفي قلبه غصة لعدم ظفره بمنطاش وراحة البلاد منه فلم يحض على
وصوله الا القليل حتى جاءه الخبر بمسير منطاش الى نعيم بن جبار ونزوله عليه طينيا فأرسل
السلطان برقوق ووعده نعيما باعادة الاميرية اليه ومناه حتى سلم منطاش فسيره السلطان
مع جماعة الى قلعة حلب فقتل بها وأحضر رأسه الى القاهرة وعلق بباب زويلة وعاد
السلطان فنكت وعده لنعيم وأرسل اليه بوخسه ويعبیره بأنه خان ذمة العرب ولم يوله
الاميرية فقدم نعيم على ما صنعه بمنطاش وتمكن السلطان الملك الظاهر من السلطنة وثبتت
قدماء في منصبها فهابها الناس وكبرت شهرته وتقرب منه الامراء والمولود وأهدى له الامير
يوسف بن قرا محمد أمير التركان بالشرق مدينة تبريز وبعث اليه بمفاتيحها مع بعض بكار
قومه فأرسل اليه برقوق خلعة سنينة وفوض اليه الغزو وفتح ما تمكن من فتحه من المدن
والامصار ففرح قرا يوسف بذلك وجيش عظيمًا وخرج للغزو وقتال التتار فركب عليه
تيمورلنك في عسكر جرار وقاتله فانتصر عليه تيمورلنك نصرة عظيمة ومزق عساكره كل
مزق فسار قرا يوسف ومعه أحمد بن عويس وهو من كان حالفه على قتال التتار الى
قسطنطينية مستجيرين بالامبراطور منول فلم ينجدهما ولم يسمح لهما بالبقاء في بلاده خوفا
من تيمورلنك لا سيما وقد كانت الامبراطورية كلها في ضعف واختلال بأسباب الحوادث
المتراكمة وهجمات السلطان بايزيد رابع سلاطين آل عثمان على معظم ايالات المملكة
الرومانية الشرقية وضم الكثير منها الى أملاكه وقربه من مقر الامبراطورية لولا قيام
تيمورلنك من خلفه في عسكر كبير ومنعه من التقدم الى القسطنطينية * ولما لم يتمكن قرا
يوسف وأحمد بن عويس من البقاء في جوار منويل الامبراطور جا آ الى مصر في نحو سنة
خمس وتسعين مستجيرين بالسلطان الملك الظاهر برقوق فأحسن برقوق وفادتهما وأتزلهما
منزلا رحبا وليثا عنده أياما وكان تيمورلنك والسلطان بايزيد التركي يمتني كل منهما فتح
ديار مصر ونزعها من يد دولة المماليك الثانية فعمد كل منهما الى ارسال وفد الى برقوق
فتقدم وفد بايزيد الى برقوق في معاهدتهم على السلم والى الخليفة المتوكل
على أن يقرهم على ما بيدهم من سلطنة الاناضول فأجابهم الى ذلك أما سفراء تيمورلنك
فانهم أغلظوا في القول وسألوه تسليم قرا يوسف وأحمد بن عويس فطيب برقوق خاطرهم
ولا طفهم فلم يزدادوا الاعتوا فأمرهم فقتلوا جميعا فشق ذلك على تيمورلنك واستعظمه
وسار في جيش عظيم الى مصر آخذنا بالثار فزبالها ففتحها وأعمل السيف في أهلها تشنفا
وانتقاما فأهلك منها خلقا كثيرا ثم جاء الى حلب فأنكى فيها نخشى السلطان برقوق العاقبة
وخرج من القاهرة في عسكر عظيم وصعبته السلطان أحمد بن عويس يريد دفع تيمورلنك
عن البلاد فلما وصل الى دمشق خلع على السلطان أحمد المذكور وجهه بشعار الملك وسيره
الى بغداد فانحدها وضرب السكة باسم السلطان برقوق وجعل السلطان برقوق يتأهب لصده

تيمورلنك ويكثر من جمع الاسلحة والكرع الا أن النية أدركته قبل أن يتم له الارب فمات
 بدء الصرع في يوم الجمعة خامس عشر شوال سنة احدى وثمانمائة هجرية وعمره ستون سنة
 فحزن عليه الناس حزنا عظيما لعدله ورفقه بالرعية وقد أبطل في أيامه المكوس عن
 الفاكهة والاثمار التي كانت ترد من طريق بولاق وكان كثير الصدقات محبا للعلم والعلماء
 بنى مدرسة عظيمة وسماها المدرسة الظاهرية وابنتى جامعها لا يزال الى يومنا ظاهرا معروفا
 بجامع برقوق وكان له ولع باقتناء الاسلحة وجياد الخيل والاستكثار من الممالك الجراكسة
 وكان كثير العناية بامور الدولة وتنظيم المملكة

ولما مات السلطان الملك الظاهر برقوق المذكور بايعوا بالملك ابنه فرج زين الدين
 الملقب بابي السعادات وله من العمر يومئذ ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر
 فلما كانت سنة ثلاث وثمانمائة وردت الاخبار الى الملك الناصر بتأهب تيمورلنك
 للزحف على ديار مصر والشام فانه لما عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك
 الظاهر برقوق فاستبشر لذلك وأنعم على مخبره بمجملة تحف وكان في نفسه منه لقتله رساله
 ومن أخذ السلطان با يزيد خان مدينة سيواس عقب موت صاحبها القاضي برهان الدين
 سنة ثمان وتسعين وسبعائة مع ملطية وأخذ السلطان أحمد بن عويس بغداد فقصد بلاد
 الشام ومعه من العساكر مالا يكاد يحصى * قال أبو الوليد محمد بن الشخصية الخنفي
 أخبرني الحافظ الخوارزمي أن بديوان عساكر تيمورلنك المختصة به ثمانمائة ألف وانه اجتاز
 على سيواس وحاصرها وأخذها بعد أن حلف لاهلها أن لا يضع فيهم السيف فلما تمكن
 منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء ثم أحرق البلد وأخربها وتوجه نحو البساتين فوجد أهلها
 قد أخلوها فأحرقها وخربها ثم توجه الى ملطية فهرب من كان بها فأخذها وخربها ثم اجتاز
 بهنق فحصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحا * ولما كان يوم الخميس
 تاسع ربيع الاول وصل الى حلب ونازلها وكان العامل عليها يومئذ المقر السيفي دمرdash
 الخاصكي فارسلي يستنجد بجأته عساكر دمشق مع نائبها سعيد بن سودون خال الملك الناصر
 وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفي شيخ الخاصكي وعسكر حماة مع نائبها دقاق وعسكر
 صنفد وغزة فلما اجتمعوا اختلفت كلمتهم فن قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الاسوار ومن
 قائل اخرجوا الى ظاهر البلد بالخيام وظلوا على هذا الحال أياما فلما رأى الامير دمرdash نائب
 حلب اختلافهم خاف شر العاقبة فاذن للناس في اخلاء المدينة والتوجه حيث شاؤوا فلم
 يوافقوه على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد لتقاء العدو وحضر قاصد تيمورلنك وطلب
 الاجتماع بنائب دمشق فاذن له فلما دخل عليه أمر بعض غلمانه فقتلوه قبل أن يسمع
 كلامه فلما لم يرجع القاصد علم تيمورلنك أنه قتل فننادى في العسكر بالخروج فخرجوا
 من خيامهم وزحف بهم على المسلمين في يوم السبت حادي عشر ربيع الاول وأمامهم القبلة
 فزعر المسلمون وخافوا وولوا نحو المدينة وازدحموا على الابواب فمات منهم خلق عظيم

والعدو وراهم بأسر وبقتل بجهد السيف وأخذ تيمورلنك البلد عنوة فصعد فواب المملكة
وخواص الناس الى القلعة وكان أهل حلب قد أودعوا غالب أموالهم بها فحاصر القلعة
وشدد عليها وضيق فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الاول أخذها بالامان والايامن
مجردة عن الذمة والايامن فدخلها العسكر وابثوا بها يومين اثنين ثم غدروا بكل من فيها وأمر
فنفقوا جميع ما كان بها من الاموال والاقشة والامتعة مما لا يحصى وغاب أغلب
المسلمين بأنواع العقوبات وجسهم بالقلعة ما بين مقيسد ومنزجر ومسجون ومرسم عليه
ثم نزل تيمورلنك من القلعة الى دار النياحة وصنع وليمة على زى المغل فوقف سائر الملوك
والنواب في خدمته وأدار عليهم كوؤس الخمر فشربو وطربوا في ذلك اليوم والمسلمون
في عقاب وعذاب وقتل وسبي وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب
ونبش الى آخر شهر ربيع الاول فركب تيمورلنك في عسكره وسار نحو دمشق وقد أظلم
على حلب نائبا اسمه الامير موسى فلما جاءت الاخبار الى الملك الناصر بمسير تيمورلنك
الى دمشق خرج من القاهرة في عسكر كبير وسار نحو دمشق لقتال تيمورلنك فالتقى
الجمعان وانتشبت الحرب بينهما فكانت سجالا ثم وقعت الهزيمة على الملك
الناصر ومزقت عساكره كل ممزق فعاد الى القاهرة ليجمع ما تفرق منهم ويعود لقتال
تيمورلنك فبلغه أن تيمورلنك قد اشتغل عنه بقتال السلطان بايزيد ابن السلطان عثمان
التركي ففرح بذلك واستبشر * وكان تيمورلنك لما وصل الى قرا باغ بلغه أن بايزيد سار الى
ارزنكان وأخذها فغظم ذلك على تيمورلنك واستكبره وسار في عسكره الى بلاد السلطان
بايزيد يريد أخذها فخرج عليه السلطان بايزيد والتقى الجمعان بانكورية وحصل بينهما
قتال شديد فدارت الدائرة على السلطان بايزيد وسقط أسيرا في يد تيمورلنك وبقي عنده
مأسورا الى أن مات واستولى تيمورلنك على غالب بلاد وجهز قصاده الى السلطان
الملك الناصر صاحب مصر يطلب منه أميرا من أمراء ابيه الطنندي كان قد أمسكه من
عدة سنين قرا يوسف وجهزه الى الملك الظاهر برفوق وبقي في مصر الى ذلك الحسين خفاف
السلطان الملك الناصر من ذلك وخشى شر العاقبة وترددت الرسل بين تيمورلنك وبينه في
تقريب قاعدة للصلح وما زالوا حتى انعقدت بينهما مودة ومهادنة فارسل السلطان الملك الناصر
الى تيمورلنك زرافة حبشية فاهداه تيمورلنك فيلا وتماجت رسائل المودة بين الفريقين
فظن الناس خضوع السلطان الملك الناصر الى تيمورلنك واعترافه بالمبايعة الى دولة التتار
فخوفوا من ذلك وانقبضت نفوسهم وانحرفت خواطرهم على الناصر وأحس هو منهم
بذلك فانكش وتحرز وأبعد عنه كثيرا من الامراء ومقدمي الاجساد وكبرت الوحشة بينهم
وبينه * واتفق أن قصر النيل في سنة ست وثمانائة هجرية ثم شرقت البلاد فدهى أهل
الصعيد من ذلك بما لا يوصف واشتد القحط وكثر الموت في الناس والدواب فماتت في مدينة
قوص وحدها جوعا زهاء سبعة عشر ألفا وماتت في أسبوط أحد عشر ألفا ومات نحو ذلك

وأكثر في مدن أخرى واشتد الكرب وعم الخطب وطالت الشدة أباما فزاد بغض الناس
 للملك الناصر واعتمدوا انه ما وقع لهم ذلك الا لتقرب الناصر من تيمور لنك وخضوعه لدولة
 التتار ثم ارتفع الموت عن الناس وكثر الوارد من الجيوب والاقوات ففرحوا بذلك وجاءت الاخبار
 بموت تيمور لنك في السابع عشر من شعبان سنة سبع وثمانمائة فزاد فرحهم واطمان جاش
 السلطان الملك الناصر وهم باسترجاع ما أخذه تيمور لنك من البلاد الشامية وطمع في ذلك
 لما تحقق من وقوع الفتنة بين أولاد تيمور لنك واختلال نظام مملكة أبيهم فآخذ بجيش
 الجيوش ويكثر من جمع الاسلحة والكرع بدون مشورة الامراء ومقدمي العساكر فآغضهم
 ذلك منه وانضموا الى أعدائه من بقية الامراء المبعدين فلما حانت لهم الفرص ركبوا
 وضيقوا عليه في قصره وقام معهم العامة والغوغاء وكثر صياحهم حول القصر وبالغوا
 في سبه ورميه بالثيابة وعدم الصلاحية للملك وعقد جماعة من الامراء لواء وساروا به
 الى حيث الامير عز الدين عبد العزيز أخى الناصر وأركبوه وساروا في ركابه الى قصر الملك
 الناصر فحاصروه وضيقوا عليه وذلك في السادس عشر من ربيع الاول سنة ثمان وثمانمائة
 فلما رأى الناصر انه مأخوذ لاجل حاله تنازل عن السلطنة وخلع نفسه منها فرضوا بذلك
 وانصرفوا عنه فخرج من قصره واختفى عند بعض خواصه فظن الناس يومئذ انه قتل بين
 الغوغاء وأتموا البيعة لآخيه عز الدين عبد العزيز المذكور ولقبوه بالملك المنصور فكانت
 سلطنة الملك الناصر ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوما * ولما استقر المنصب
 بالسلطان الملك المنصور عبد العزيز جعل يتصرف في الامور ويدين قوما ويقصى آخرين ثم
 أساء السيرة فأبغضه الناس وندم الامراء على ما فعلوه بأخيه الناصر فانصل ذلك بالناصر
 فخرج من محبته وشاع خبر ظهوره وتقدم اليه الامراء في أن يعود الى السلطنة فاجابهم الى
 ذلك فولوه المنصب في جمادى الآخرة من السنة فلما قبض على زمام الامور أمسك أخاه
 عز الدين ونفاه الى الاسكندرية فقتل بها في السابع من ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة
 وقيل سنة ثمان وثمانمائة فكانت سلطنته شهرين غير كاملين

ولم يكن الخليفة المتوكل على الله ليتعرض الى شئ من أمور السلطنة في كل هذه المدة
 بعد الذي جرى له مع السلطان الملك الظاهر برقوق بل كان منعكفا على أشغاله الخصوصية مع
 هيبته وقار وشهرة مطاع الامر مسموع الكلمة حتى مات ليلة الثلاثاء عشري رجب
 سنة ثمان وثمانمائة هجرية * قال أصحاب التاريخ وهو أول من أثرى من خلفاء مصر
 وكثر ماله ورزق أولادا كثيرة يقال انه جاء له مائة ولدا وبين مولود وسقط ومات عن عدة
 أولاد ذكور واثان ولى الخلافة منهم خمسة ولانظير لذلك وتولى الخلافة من اخوته أربعة وانفق
 للمتوكل هذا أن عاد الى الخلافة بعد خلعه مرتين ولم يقع ذلك لاحد فيما تقدم الا للمتوكل
 فقط * وذكر الحافظ بن حجر في انباء الغر أن مولد المتوكل كان في سنة نيف وأربعين وسبعمائة

وانه لما تسلطن برفوق المرة الاولى حسن له جماعة من أهل الدولة وغيرهم طلب الملك
فكاتب الامراء والعربان مصرا وشاما وعراقا وبث الدعاء في الآفاق فبلغ ذلك برفوق
نخلعه وسجنه نخرج ببلغا الناصري على برفوق بسبب ذلك فافرج عنه برفوق وأعاده
الى الخلافة وفرح الناس به فرحا عظيما * قال فلما اتصر الناصري وزالت دولة برفوق
قال الناصري للخليفة بمحضر من الامراء بامولانا أمير المؤمنين ما ضربت بسبني هذا الا
في نصرتك وبالغ في تعظيمه وتبجيله فتبرم المتوكل من الدخول في الملك وأشار باعادة
حاجي بن شعبان * وكان المتوكل قد عهد بالخلافة لولده أحمد واقبه المعتمد على الله ثم
خلعه وعهد الى ابنه أبي الفضل العباسي فاستقر في الخلافة بعده كما سيدكر في محله
ولقب المستعين بالله فكانت خلافة المتوكل المذكور نحو من خمس وأربعين سنة
ومات في أيامه كيرلس بطرك المناصلين بعد أن أقام سبع سنين وقد وقعت في أيامه
شدة عظيمة قامى فيها الناصري من البسلايا والمخن مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكبر الامر
على كيرلس البطررك وعظم الخطب فكان صيبورا وقورا عظيم العناية بالامة فلما مات خلا
الكرسى بعده ثمان سنوات * ثم أقيم بعده ابن القس أبوالمكارم بن كليل الشماس المصري
وسمى اثناسيوس وهو سادس سبعينم فأقام احدى عشرة سنة ومات ولم يقع في أيامه من
الحوادث شئ فاخثاروا بعده شماسا اسمه غيريال أصابته القرعة فنقم عليه جماعة واخثاروا
آخر اسمه يوحنا فوعدت لذلك بينهم الشحنة فاشتد اللدد وطال الخصام وعمل كل فريق على
نصرة صاحبه وتقوى أصحاب يوحنا وثبت قدمهم فتمكنوا من اقامته بطركا فكان سابع
سبعينم وأقام ست سنين وتسعة أشهر كلها منافسة ومما كسبه وختم ثم قاموا عليه وخلعوه
وسجنوه باحدى الديارات وولوا غيريال مكانه فأقام سنتين وشهرين كانت الفتنة في خلاهما
لا تخمد نارها ولا ينطفئ أوارها وكان المناصلون لذلك على طرفي نقيض وقد نادى بينهما
منادى القلق الدائم والكمد الملازم ثم عاد أصحاب يوحنا فنغلبوا وظفروا وقاموا على غيريال
نخلعوه وسجنوه وأخرجوا يوحنا من معقله وأعادوه الى منصب البطرركية ثانية فعهدنا من
سبعينم * قال بعض كتاب الاخبار وكان يوحنا هذا رجلا جليل القدر وقورا واسع العلم
والمعرفة فلما استقر به المنصب دبر الامور فأحسن التدبير وعمل على ازالة الوحشة من بين
الاحزاب وبالغ في التلطف مع الحزم ففاز ونجح ومالت اليه القلوب واتحدت على محبته
الحواطر فعظمت شهرته واتسعت كلمته وطالت أيامه وكان من الحوادث فيها ما سيدكر
في محله

(الفصل الثامن)

(في خلافة أبي الفضل المستعين بالله ابن المتوكل)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المتوكل على الله ابنه أبو الفضل العباسي بويج له بها في ثمانى يوم وفاة أبيه سنة ثمان وثمانمائة هجرية أى سنة خمس وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستعين بالله فلما استقرت به الخلافة أدنى منه جميع الامراء وتجنب الى رجال الدولة واستمال اليه العامة فمالوا الى محبته ودانت له الامور واجتمع الناس على طاعته وبقيت الاحوال ساكنة والخواطر مطمئنة الى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة فووقت فتنة عظيمة بين السلطان الملك الناصر فرج وبين شيخ المجدى أحد كبار الامراء نخرج عليه شيخ وشق عصا طاعته وكان شيخ المذكور أحد عماليك الملك الظاهر برقوق المقرين اليه وكان جليل القدر عالما داهية واسع المعرفة والتدبير شدد في معاداة الملك الناصر ورماه بالكفر والزندقة والانحلال وتقرب من كبار الامراء واستمالهم الى مذهبه فوافقوه على خلع الناصر وتوليتهم من بأهل لمنصب السلطنة فكاشف الخليفة المستعين بالله بما فى نفسه وجبب اليه الملك وأعلمه أن الامراء والناس كافة ميالون الى مبايعته فقال الخليفة الى السلطنة وتافت نفسه اليها وجعل شيخ المجدى يراقب الفرص للايقاع بالناصر فاتفق خروج الناصر من مصر الى الشام ترويحاً لنفس فلم يستقر به المقام بدمشق حتى سبر اليه الامير شيخ من يستقدمه الى مصر ويسأله التنارل عن الملك طوعاً قبل أن يحل به العطب فأكبر الناصر هذا الامر وأعظمه وقبض على رسول الامير شيخ وسجنه ونادى فى عسكر الشام بالخروج الى مصر وجاءت الاخبار بذلك الى الامير شيخ فاستعد لقاته واشتد على الخليفة فى خلعه وقد أثبتوا عليه الزندقة والكفر وحكم ناصر الدين بن العديم بسفك دمه واتفق رأى الامراء كافة على سلطنة الخليفة المستعين بالله واستقلاله بالامر فوافقهم الخليفة بعد شدة وتوثق منهم بالايمان فبايعوه وحلفوا له على الوفاء فلم يغير لقبه وجلس على سرير الملك وقام الكل بين يديه ووردت بعد ذلك الأخبار بقرب السلطان الملك الناصر الى حدود الديار المصرية نخرج الامير شيخ فى عسكر عظيم ومعه الخليفة المستعين وجماعة من أكبر الامراء فدخلوا الشام بغير قتال وجعل الخليفة يتصرف فى الأمور فقرر الامير بكتمر حناق على نيابة الشام وقرقلس فى نيابة حلب وسودون الجلب فى نيابة طرابلس وجعل الامير شيخ والامير نوروز فى ركابه يدبران الامر ونادى منادى الخليفة ألا ان فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ومن حضر الى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين فهو آمن فنسئل

الناس من الناصر ففر الناصر الى مدينة حلب فلما علم به أهلها قام أناس منهم على أسواق البلد فنادوا نصر الله أمير المؤمنين فلما سمع الرماة ذلك تخوفوا على أنفسهم ولم يعيروه وقبضوا على الناصر وقتلوه بحكم ابن العديم في الخامس والعشرين من المحرم افتتاح سنة خمس عشرة وثمانمائة هجرية وكتب المستعين الى القاهرة باجتماع الكلمة اليه وعزل الخلال البلقيني فأغضبه وفعل معه بعد ذلك ما فعل ثم أرسل المستعين كتابا ثانيا الى من بالقاهرة من الاعيان فأرسل الى الجامع الطولوني فقرأ خطيبه ابن النقاش على المنبر ثم أرسل الى الجامع الازهر فقرأ خطيبه الحافظ بن حجر على المنبر وصدرت الكتب منه أيضا الى أمراء التركمان والعربان والعنبر فكان مفتحتها ﷺ من عبد الله ووليه الامام المستعين بالله أمير المؤمنين * وخليفة رب العالمين * وابن عم سيد المرسلين * المفترضة طاعته على الخلق أجمعين * أعز الله ببقائه الدين * الى فلان ثم سار بالعسكر المصرى ومن انضم اليه أيضا من العساكر الشامسية الى القاهرة فدخلوا في يوم الثلاثاء ثاني ربيع الآخر من السنة بعد أن تلقاهم الناس الى قضايا والصالحية وبلبيس وحصل للناس من الفرح بذلك مالا مزيد عليه وشق الخليفة القاهرة والامراء بين يديه الى قلعة الجبل فنزل بها ونزل الامير شيخ الاسطبل بيباب السلسلة فلما كان الثامن عشر من ربيع الآخر صعد الامير شيخ والامراء كافة الى القصر وجلس الخليفة على تخت الملك نخلع على الامير شيخ خلعة عظيمة بطراز لم يعهد مثلها وفوض اليه أمر المملكة بالديار المصرية في جميع الامور وكتب له أن يولى ويعزل من غير مراجعة وأشهد عليه بذلك ولقب نظام الملك فكان الامراء اذا فرغوا من الخدمة بالقصر نزلوا في خدمة الامير شيخ الى الاسطبل فأعيدت الخدمة اليه ليكون عنده الابرار والنقض ثم يتوجه دواده الى الخليفة المستعين فيعلم على المشورات والتواقيع وظل الحال على ذلك حينما وقد نودى في الناس برفع المظالم والمكوس وغير ذلك مما أنقل الرعية فأحب الناس الخليفة المستعين جدا ومالوا اليه بقلوبهم وعمل الحافظ أبو الفضل ابن حجر في المستعين قصيدته المشهورة التي مطلعها

الملك أصبح ثابت الاساس * بالمستعين العادل العباسي

فلما كان في شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة أمر الامير شيخ دواده أن لا يمكن الخليفة المستعين من كتابة العلامة الا بعد عرضها عليه ففعل الدوادار ذلك فاستوحش الخليفة وضاق صدره وراجع الامير شيخ في ذلك فلم يلتفت اليه وسأله أن يفوض اليه السلطنة على العادة فأجاب الخليفة بشرط أن ينزل من القلعة الى بيته فلم يوافق شيخ على النزول بل استنظره أياما فلم يفوض اليه السلطنة فقام عليه ونقله من القصر الى دار من دور القلعة ومعه أهله ووكل به من يمنعه الاجتماع بالناس فكتب المستعين الى الامير فيروز سرا يستنجده وكان يومئذ واليا على دمشق من قبل المستعين فأسرع لجنده في جيش عظيم

للغاية فلما بلغ القاهرة جمع في سابع ذى القعدة العلماء والقضاة واستفتاهم عما صنعته
الامير شيخ بالخليفة المستعين فأقتوه بعدم جواز ذلك فأجمع على قتال الامير شيخ فاستمر
الخليفة المستعين بالقلعة الى ذى الحجة سنة ست عشرة وهو باق على الخلافة وتقررت قاعدة
الصلح بينه وبين الامير شيخ فعاد فيروز بعسكر الشام الى دمشق وسكنت الفتنة بعد
ذلك أياما قلائل * وعزم الامير شيخ على الشخوص الى الشام بعد رجوع الامير فيروز
خاف من المستعين وخشى غائلته فراجع البلقيني في أمره وكشفه بما في نفسه وكان في
نفس البلقيني من الخليفة المستعين شئ لكونه عزله من منصبه كما سبقت الاشارة اليه فأقام له
دعوى شرعية وحكم بخلعه من الخلافة نخلع قهرا وسير الى الاسكندرية فأقام بها مخلوعا الى
أن مات بالطاعون في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة هجرية فكانت خلافته
نحو من أربع سنين وكانت مدة جلوسه على تخت السلطنة سبعة أشهر وخمسة أيام وأقاموا
بعده أخاه أبا الفتح داود

(الفصل التاسع)

(في خلافة ابن النخ داود المعتمد)

ثم قام بالامر بعد المستعين أخوه أبو الفتح داود ببيع بالخلافة يوم خلع أخيه سنة ست
عشرة وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية فلم يكن له في أمور
المملكة كلمة ولا رأى والامر للامير شيخ المحمدي فانه بعد أن عاد من الديار الشامية وقد قرر
أمورها على ما شاء قبض على زمام الملك واستبد بالنتصب فأحسن السياسة واستمال اليه
الرعية وحذا حذو الخليفة المستعين في ابطال المكوس والمغارم والرفق بالرعية فأحبه الناس
واجتمعت اليه القلوب وأمنت الرعية وسعدت البلاد ودرت الارزاق ورخصت الاقوات
وكثر الوارد منها وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد وأرباب الشقاوة * قال المقرئى وأنشأ
جامعه المشهور بجوار باب زويلة من داخله حيث كانت خزنة شمائل وأول ما ابتدئ به في
أمر هذا الجامع أن رسم في رابع شهر ربيع الاول سنة ثمان عشرة وثمانمائة بانتقال
سكان قيسارية سنقر الاشقر التي كانت تجاه قيسارية الفاضل ثم نزل جماعة من أرباب الدولة
في خامسه من قلعة الجبل وابتدئ في الهدم في القيسارية المذكورة وما يجاورها فهدمت
الدور التي كانت هناك في درب الصفيرة وهدمت خزنة شمائل فوجد بها من رعم القتلى
ورؤسهم شئ كثير الى أن قال وكان السبب في اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان
يريد المؤيد شيخ المحمدي حبس في خزنة شمائل هذه أيام تغلب الامير منطاش وقبضه على

المماليك الظاهرة فقاسى في ليلة من البق والبراغيث شدائد فنذرته تعالى ان يسره ملك مصر أن يجعل هذه البقعة مسجدا لله عز وجل ومدرسة لاهل العلم فاختر لذلك هذه البقعة وفاه بنذره الى أن قال وفي يوم الخميس سابع عشر شوال نقل باب مدرسة السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون والتنوير التماس المكفت الى هذه العمارة وقد اشتراها السلطان بخمسمائة دينار وهذا الباب هو الذى عمل لهذا الجامع وهذا التنوير هو التنوير المعلق تجاه المهراب الى أن قال وبلغت النفقة على الجامع الى آخريات شهر رمضان هذا سوى عمارة الامير نحر الدين زيادة عن سبعين ألف دينار وتردد السلطان الى النظر في هذا الجامع غير مرة فلما كان في أثناء شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ظهر بالمشنة التى أنشئت على يدته باب زويلة التى تلى الجامع اعوجاج الى جهة دار التفاح فكذب محضر بجماعة المهندسين أنها مستحقة للهدم وعرض على السلطان فرسم بهدمها فوقع الشروع فى الهدم يوم الثلاثاء رابع عشره واستمر فى كل يوم فسقط يوم الخميس سادس عشره منها حجر هدم ملكا تجاه باب زويلة هلك تحته رجل فغلق باب زويلة خوفا على المارة من يوم السبت الى آخر يوم الجمعة سادس عشرى جمادى الاولى مسدة ثلاثين يوما قال ولم يعهد وقوع مثل هذا قط منذ بنيت القاهرة اه

ومات السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المجدى المذكور فى يوم الاثنين ثامن المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر وستة أيام كلها راحة واطمئنان واسعاد على الرعية فقام بعده ابنه السلطان الملك المنظر شهاب الدين أبو السعادات أحمد وعمره يومئذ سنة ونصف سنة فقام بأمره الامير ططر فلم يحسن السيرة وأساء التدبير واستبد بالملك وأكثر من السرف والتبذير حتى بذر ما جمعه الملك المؤيد من الاموال وخرج بالمنظر مع حدائته يريد قتال الامراء بالشام وذلك أنهم لما علموا بموت الملك المؤيد وولاية ابنه المنظر استخفوا به لحدائته وقصدوا الاستبداد بالملك والاستقلال بحكم الديار الشامية فحشى ططر من ذلك وخرج لقتالهم وارجاعهم الى الطاعة فسار فى جيش عظيم ومعه السلطان الملك المنظر فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية فظفر بهم الامير ططر وشردهم وأخضع من بقى منهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم وما زال حتى دانت له الامور فسار الى دمشق وفى نفسه ما فيها من حب الاستبداد بالملك فلما استقر به المقام بدمشق قام على الملك المنظر فى شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة نخلعه وارثى عرش السلطنة فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان المذكور فكانت سلطنة الملك المنظر شهاب الدين ثمانية أشهر تنقص سبعة أيام * ولبث ططر بالشام أياما كان يدبر فيها الامر لنفسه وتلقب بالظاهر وكفى بأبى الفتح وهو من مماليك السلطان الملك الظاهر برقوق وسير الاخبار بسلطنته الى مصر فتعجب الناس من ذلك حيث لم يكونوا ليتوقعوا ولايته على هذه الصورة ثم سار من دمشق وهو متوعدك البدن حتى دخل مصر وصعد الى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وأمامه الامراء وبيكار العسكر والجنائب السلطانية

فلم يستقر بها حتى ثقل به المرض واشتد فمات يوم الاحد رابع عشر ذي الحجة من السنة فكانت سلطنته ثلاثة أشهر ويومين * فأقيم بعده ولده السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد وعمره نحو عشر سنين فقام بأمره الامير برسباي الدقائي وجعل يتصرف في الامور فطمعت نفسه في الملك فقام على الملك ناصر الدين بعد أربعة أشهر وأربعة أيام من ولايته وخلعه وتسلى عرش السلطنة ولقب نفسه بالاشرف سيف الدين وكفى بابي النصر وقد كان من مماليك الظاهر برقوق فكان جلوسه على تخت الملك في يوم الاربعاء ثاني ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة هجرية * قال أصحاب التاريخ وكان فاضلا عالما نحا نحو الملك المؤيد شيخ في التزام الحزامة والعدل وعدم التهاون في قضاء مصالح الخلق فأحببه الناس جميعا ومالوا الى طاعته واجتمعت له القلوب فسعدت أيامه وأمنت الرعية وزالت الفتن وانقطعت أسبابها واختفى أهل الفساد وزاد النيل في أيامه فعم الاراضي فأخصبت وكثرت غلتها كثرة عظيمة فرخصت الاسعار وشبع الفقراء وكانت له حروب كثيرة مع الفرنجة ووقائع مشهورة في عدة أماكن وأخضع جزيرة قبرص وألزم الملك لوسبنيان الثالث بالطاعة والخضوع وضرب عليه الجزية فكان أجدر جميع الملوك الشرا كسة بالمدح والشكران فقد كان أرفعهم همة وأكبرهم عزية وأشدهم حزيمة وأقدرهم على سياسة الجمهور وتبدير الأمور فطالت لذلك أيامه وعاهد ملوك الفرنجة والسلطان مراد سلطان آل عثمان فكبرت لذلك هيئته واتسعت شهرته وارتفعت كلمته وخافه الملوك والامراء وتزلفوا اليه وهادوه بالهدايا النفيسة * فلما كانت سنة سبع وعشرين وثمانمائة هجرية خرج عليه بنىق النجاشي عامه على دمشق وشق عصا طاعته فسار اليه في عسكر عظيم وقاتله حتى هزمه وقبض عليه وعلى دغانه فقتل بعضهم وشرد بعضهم وولى الامير عبد الرحمن مكانه وكان عبد الرحمن هذا زنجيا أسود قال أصحاب التاريخ فلم يقع في أيام السلطان الملك الاشرف المذكور من الحروب والفتن غير هذه الفتنة ولم تلبث أن تلاشت وعادت اليه الامور بالديار الشامية كما كانت عليه من قبل واستمر يدبر الملك ويعدل في الرعية الى أن مات ثالث عشر ذي الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته عشر سنين وتسعة أشهر

فقام بالامر بعده ولده يوسف ولقب بالملك العزيز وعمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة فقام بأمره الامير جقمق وسمى نظام الدولة وتسلم مقاليد الأمور فاستبد بها وتصرف حسب هواه وضيع على الملك العزيز فلم يبق له من الملك سوى الاسم فاستعظم الملك العزيز هذا الامر جدا وجع مماليكه وشاور كبارهم وأصحاب الرأي منهم في امر خلع جقمق من منصبه فوافقوه على ذلك وتجردوا لخلعه فأحسن جقمق بما عزموا عليه وتجزر منهم وجع كبار الامراء وطوائف العسكر وخرج بهم على الملك العزيز فاقتتلوا أياما اختل فيها نظام الدولة وكثرت عبت أهل الفساد وتناولت أيديهم الى أموال الناس وكادت الفتنة تم حتى ظفر جقمق بالملك العزيز فقبض عليه وخلعه وارتقى منصب السلطنة في التاسع عشر من ربيع

الاول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة فكانت سلطنة العزيز يوسف المذكور ثلاثة أشهر لاغير
 ولقب بعمق نفسه بالملك الظاهر وقبض على زمام الملك وصار يتصرف في الامور فبعث
 وأكثر من تقرير المغارم وضرب المكوس ولم يهتم بمصالح الرعية فأبغضه الناس وتشاءوا
 من ولايته ونفرت منه القلوب وظهر الطاعون بالقاهرة ومصر عقب ولايته واشتد الموت
 في الناس شدة بالغة ثم عم البلاد ففتك بأهلها فتكا ذريعا فكان الناس يموتون بالازفة
 والطرق ولا يوجد من يدفنهم وطالت أيامه ثم ارتفع ولم ترتفع عن الناس المغارم ولا
 انكفت عنهم جباة المكوس وأعوان السلطان فكان الخليفة المعتضد بالله في نكد وكند
 بأسباب هذه المحن وما نال الرعية من فعال الملك الظاهر المذكور وكان بين وتوجع
 ويراجع الظاهر في ذلك والظاهر لا يلتفت اليه ولا يزداد الا تشديدا في الطلب فرض الخليفة
 وثقل به مرضه فكان اذا جاءه أحد الامراء ليعوده شكى اليه من فعال الظاهر بالرعية
 وبالغ في الشكوى وعظم البلى فلما حضرته الوفاة عهد بالخلافة الى شقيقه أبي الربيع
 سليمان ولقب المستكني بالله وكتب له عهدا بذلك يقول * بسم الله الرحمن الرحيم * هذا
 ما أشهد على نفسه الشريفة حرسها الله وحماها * وصانها من الاكدار ورعاها * الشريفة
 الطاهرة الزكية الامامية الاعظمية العباسية النبوية المتعضدية * أمير المؤمنين * وابن عم
 سيد المرسلين * ووارث الخلفاء الراشدين * المعتضد بالله تعالى أبو الفتح داود أعز الله به
 الدين * وأمتع بيقائه الاسلام والمسلمين * أنه عهد الى شقيقه المقر العالی المولى الاصلي *
 العريق الحسيني النسبي السليلي * سيدى أبي الربيع سليمان المستكني بالله عظم الله شأنه
 بالخلافة المعظمة وجعله خليفته بعده ونصبه إماما على المسلمين عهدا شرعيا معتبرا مرضيا
 نصيحة للمسلمين * ووفاء بما يجب عليه من مراعاة مصالح الموحدين * وافتداء بسنة الخلفاء
 الراشدين * والائمة المحمدين * وذلك لما علم من دينه وخيره وعدالته وكفالاته وأهليته *
 واستحقاقه بحكم أنه اختبر حاله وعلم طويته * وأن الذي يدين الله به أنه اتقى لله بمن رآه
 وأنه لا يعلم أنه صدر منه ما يتنافى استحقاؤه لذلك وأنه ان ترك الامر هملا من غير تفويض
 المشار اليه أدخل اذ ذلك المشقة على أهل الحبل والعقد في اختيار من ينصبونه للامامة
 ويرتضونه لهذا الشأن فبادر الى هذا العدل شفقة عليهم وقصدا لبراهة ذمته ووصول الامر
 الى من هو أهله لعلمه أن العهد كان غير محجوج الى رضا سائر أهله ووجب على من سمعه
 وتحمل ذلك منه أن يعلم به ويأمر بطاعته عند الحاجة اليه ويدعو الناس الى الانتقاد له
 فسجل ذلك على من حضره حسب اذنه الشريف وسطر عن أمره قبل ذلك سيدى المستكني
 أبي الربيع سليمان المسمى فيه عظم الله شأنه قبولاً شرعياً * ومات الخليفة المعتضد بعد
 ذلك في يوم الاحد رابع ربيع الاول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية واستقر المستكني
 فكانت خلافة المعتضد نحو ثلاثين سنة هلالية

ومات في أيام الخليفة المعتضد المذكور بوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام بطركا تسعا

وعشرين سنة فخلا الكرى بعد سنة ولم يقع في أيامه من الحوادث شئ يذكر فأقاموا
بعده ناوروسيوس وهو تاسع سبعهم وأصله من منية ابن خصيب من صعيد مصر واسمه
عبد المسيح وكان راهبا في دير أبوقانه ولم يقع في أيامه من الحوادث شئ يذكر

(الفصل العاشر)

(في خلافة أبي الربيع سليمان المستكني بالله)

ثم قام بالامر بعد المعتضد شقيقه أبو الربيع سليمان ولقب المستكني بالله بعهد منسه
واستقر بالخلافة في يوم الاحد رابع ربيع الاول سنة خمس وأربعين وثمانمائة هجرية
أى سنة احدى وأربعين وأربعمائة وألف ميلادية * قال بعض كتاب الاخبار وكان من
صلحاء الخلفاء وعبادهم صالحا دينا عابدا كثير التجد والتلاوة كثير الصمت حسن السيرة
فلما رآه السلطان الملك الظاهر يحتمق على هذا الحال اعتقده وعرف له حقه وأجله وعظم
قدره وأحبه ولبنا على الصفاء والمودة حينما من الدهر فلم تقع في أيامه فتن ولم تقم تلك
الاحن التي كانت لا تقعد لها قائمة بأسباب بغض الامراء بعضهم لبعض وتداخلهم في أمور
السلطنة وأحوال الدولة وميسل كل منهم الى الاستبداد بالأمر والاستقلال بأهبة السلطنة
وانكف يحتمق عن ضرب المكوس والمغارم على الرعية وأبطل بعضها خوفا من الخليفة
فاطمات القلوب وسكنت خواطر الفقراء وأمنت الطرق واختفى أهل الفساد ودرت الارزاق
وكثر غلات البلاد وشبع الفقراء بعد الجوع وأمنوا بعد الخوف ولم تطل مدة خلافة
المستكني بالله اذ مات ليلة الجمعة سلخ ذى الحجة سنة أربع وخسين وثمانمائة فكانت مدة
خلافته نحو ثمان سنين كلها خير وبركة ولم يعهد بالخلافة لأحد قسئ السلطان في جنازته
الى تربته وحمل نعشه بنفسه وتسابق الامراء الى ذلك وخرج الالوف من الناس أمام
جنازته وبكوه بكاه مرا وبايع السلطان الملك الظاهر يحتمق بعده أخاه أبا البقاء حمزة ولقب
بالقائم بأمر الله

ومات في أيام الخليفة المستكني ناوروسيوس بطرك المناصلين فكانت مدته ست سنوات أو
نحوها منها وكان ورعا تقيا كثير الصدقات مجتهدا متعبدا ولم يقع في أيامه من الحوادث شئ
يذكر فأقيم بعده يوحنا رئيس دير شهران وأصله من منية ابن خصيب فهو الثمانون عددا
لبطرك الاسكندرية ووقع في أيامه من الحوادث ماسئذ كرفي محله

(الفصل الحادى عشر)

(فى خلافة ابي البقاء حمزة القائم بامر الله)

ثم قام بالأمر بعد الخليفة المستكنى أخوه أبو البقاء حمزة فى سلخ ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة خمسين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب القائم بأمر الله وكان شهما صارما أقام أهبة الخلافة وتعرض لأمر السلطنة واستمال اليه جماعة من كبار الامراء وطوائف القواد فعظمت صولته وكبرت هيئته وتطاوت يده الى فعل الدسائس وافساد الامور على السلطان الملك الظاهر بقمق فأحس السلطان بذلك فأبغضه ومقته وخشى عاقبة فعله وآثر العزلة والتخلى عن الملك على مناوأة الخليفة وكان قد ناهز الثمانين فتنازل عن السلطنة لابنه نخر الدين عثمان وصرّفه فى سائر الامور وحذره من فعال الخليفة وكان كثير الحزن والاشفاق على ولده فلم تطل بعد ذلك حياته ومات بعد قليل فكانت وفاته فى التاسع والعشرين من صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة فباع الناس ولده نخر الدين المذكور البيعة العامة فى الحادى عشر من المحرم افتتاح سنة ثمان وخمسين ولقب بالملك المنصور وكانت سلطنة الملك الظاهر بقمق أربع عشرة سنة ونحو عشرة أشهر ❁ ولم يستقر بالملك المنصور المنصب حتى عاد الخليفة القائم بأمر الله الى دس الدسائس وايقاظ الفتنة طمعا فى الملك فآلم حوله الدعاة واستفعل أمره وظهرت كفته واشتد الخصام بينه وبين الملك المنصور وعمل كل على تذليل الآخر فتحزبت الاحزاب وانقسم الناس واختلفت الكلمة وعظمت الفتنة وما زال الرؤساء فى نزاع وخصام والامر فى شدة واحتدام حتى تمكن الخليفة من خلع السلطان الملك المنصور فى سابع ربيع الاول من السنة فلم تكن مدة سلطنته سوى أحد وأربعين يوما أو أحد وثلاثين ولم يتمكن الخليفة من الاستواء على عرش السلطنة بعد خلع الملك المنصور اذ غادره الدعاة وانصرف عنه الاجزاب واختاروا مملوكا اسمه أبو النصر اينال وهو شيخ مسن فولوه الملك وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الاشرف وذلك ثانى يوم خلع الملك المنصور

ولما استقرت السلطنة بالملك الاشرف المذكور دبر فاحسن التدبير وساس فاحسن السياسة ونظر فى مصالح الخلق نظرة الصادق الأمين واتخذ الامير بلجيونى وزيرا ولم يترك صغيرة ولا كبيرة الا حاط بها تخاف الخليفة منه وخشى أمره وانكف عن المشاغبة ولأزم السكون ست سنوات وهو يتوقع فى كل سنة منها موت اينال تطرا لشيوخته فلم يمّت ولماطال عليه الحال وعيل صبره والنفس الامارة تدفع به الى ركوب ذلك المركب الخشن قام وأمار الفتنة فأحس بها بلجيونى الوزير فاعلم السلطان حتى خرج الجند على الاشرف وخرج الخليفة معهم فقام عليهم الاشرف فى مماليكه وخواصه وقائلهم قتالا عنيفا وظفر بهم وشرذ الكثير منهم ومزقهم كل ممزق وأرجع من بقى منهم الى الطاعة وأرسل فى طلب الخليفة الى قلعة الجبل

فصعد بعد اقدام واججام فلما دخل عليه عاتبه وأغظت معه القول وزاد في الغلظة فغضب الخليفة وقال للاشرف ﴿ ما بالك قد خلعت نفسي وعزلتك ﴾ وكان ذلك غلظا منه * فقال قاضي القضاة علم الدين البلقيني وكان حريصا على جر الخلافة الى أخى الخليفة يوسف لكونه زوج ابنته قد بدأ بخلع نفسه فأتخلع وتنى بخلع السلطان وهو غير خليفة فلم ينفذ ذلك وحكم بعصمة خلعه * وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة فرسم السلطان عند ذلك بانحراج الخليفة الى الاسكندرية فأخرجوه مقهورا مبعدا فأقام بالاسكندرية الى أن مات سنة ثلاث وستين وثمانمائة هجرية ودفن عند شقيقه المستعين بالله العباسي * قال بعض كتاب الاخبار ومن غريب الاتفاق أنهما شقيقان كل منهما رام السلطنة وكل منهما خلع وكل منهما سكن الاسكندرية ودفنا معا وحكم بخلعهما قاضيان أخوان ذلك خلعه الجلال البلقيني وهذا أخوه العلم البلقيني وهو عجيب اه وخلا الجور للاشرف اينال بعد ذلك فاستبد بالملك وعاقب زعماء دعاة الخليفة وخلع من كان يتوسم فيه الشر من الامراء وبارك العسكر ونظر في أمور السلطنة بعين ساهرة ووافق علم الدين البلقيني فبإيعاب أبا المحاسن يوسف أبا القائم بالخلافة ولقب المستجد بالله فكانت خلافة القائم بأمر الله ثلثا من أربع سنوات وستة أشهر كلها معاندة ومحاسدة فسبحان من أودع في كل قلب ما شغله

(الفصل الثاني عشر)

(في خلافة أبي المحاسن يوسف المستجد بالله)

ثم قام بالامر بعد الخليفة القائم أخوه أبو المحاسن يوسف ولقب بالمستجد بالله بويج له يوم خلع القائم بأمر الله في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وثمانمائة هجرية أى سنة أربع وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية فكان حسن السيرة عاقلا رزينا فاجبه الاشرف اينال وأجله ووفاه حقه وأسكنه بدار اخوته الخلفاء بالمدينة وواصله بالعطايا والتحف وكان السلطان الملك الاشرف قد أنهكته متاعب السلطنة وثقل عليه حمل أعباء الدولة فاشرك معه ولده شهاب الدين أبا الفتح أحمد وسلّمه مقاليد الامور فسار في الرعية سيرة تحمد وسلّم مسالك الرفق وأحسن التدبير والسياسة وضرب بعض الدراهم باسمه ووفى السلطنة حق تدبيرها * فلما كان شهر جمادى الاولى سنة خمس وستين وثمانمائة وقد ثقل بالملك الاشرف اينال مرضه خلع نفسه وولى ابنه أبا الفتح المذكور ولقبه بالملك المؤيد فكانت مدة سلطنة اينال ثمان سنين وشهرين فاستقر ولده في السلطنة واستقل بتدبير الملك وتصرف في الامور على أحسن ما رام فحسده الامراء واستولت عليهم الغيرة فقاموا عليه وخلعوه فقامت بسبب ذلك فتنة عظيمة وطالت أيامها وبقى الحال على ذلك حتى ولوا بعده

في الثامن عشر من رمضان سنة خمس وستين الأمير سيف الدين خوش قدم ولقبوه بالملك الظاهر فكانت مدة سلطنة المؤيد أربعة أشهر لا غير

وكان خوش قدم هذا يعرف بالرومي وبالناصرى لانه كان من مماليك الملك الناصر وكان عاقلا عالما واسع الدراية عظيم التدبير محبا للرعيّة ساهرا على ما فيه راحتها ميالا الى الآداب اليونانية القديمة لانه يوناني الاصل ولم يستوزر الاكل على الهمة كبير الدراية خبيرا بالامور فعم في عهده الأمن البلاد وسعد أهلها وجرى أمرؤه على شاكلته فاجتمعت قلوب الامراء والرعيّة على طاعته وانصرفوا عن الخليفة فلم يبق للخليفة من الامور الا الذين فقط فكان لا يتعرض لأحوال السلطنة ولا يزاحم الظاهر عليها وما زال الظاهر مسموع الكلمة ينظر في مصالح الرعيّة نظر الأب الشفيق والفتنة راقدة والعدل قائم حتى اخترمته المنية عاشر ربيع الاول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية فكانت سلطنته نحو ست سنين وستة أشهر فبكاه الناس بكاء مرا وحزنوا عليه حزنا شديدا

ولما كان اليوم الثاني من موته اجتمع الامراء وكيار الجند وتشاوروا فممن يصلح للسلطنة فوقع اختيارهم على الامير أبي سعيد بالباي أحد الامراء المقدمين فبايعوه في الحال ولقبوه بالملك الظاهر تفأولا فلم يستقر به المنصب حتى أظهر الغلظة فكان قظا مستبدا ظلما عنيدا وكاد يفسد ما أصلحه السلف فابغضته الرعيّة وانحرفت عنه خواطر الامراء كافة تخاف من الفتنة وأوجس من الخليفة المستنجد فانزله من داره من قلعة الجبل ووكّل به من يراقب أمره فزاد بغض الامراء له وكرهوا بقاءه في دست السلطنة وتجردوا خلعه ثم قاموا عليه قومة رجل واحد وخلعوه في السابع عشر من جادى الاولى سنة اثنتين وسبعين وقيل في سابع جمادى الاولى فكانت مدة سلطنته نحو ست وخمسين يوما وقيل ست وستين * ثم ولوا بعده الامير عمر بنغاي بعوا له بالسلطنة في ثاني يوم خلع الظاهر بالباي ولقبوه بالملك الظاهر أيضا فلم يكده يستقر به المنصب حتى ظهر فساد وكثر عبثه وأطاع النفس الامارة فقاموا عليه وخلعوه أيضا ففرحت بخالعه الرعيّة وكان خلعه في العشر الاول من رجب من السنة فكانت سلطنته نحو تسعة وخمسين يوما

ثم ولوا بعده الامير قايتباي أحد مماليك جقمق وبايعوه في ثامن عشر رجب المذكور ولقبوه بالملك الأشرف قايتباي فلما استقر به المنصب أخذ في تدبير الامور على ما فيه المصلحة واصلاح ما أفسده السلف * وكان شهما جليل القدر مسموع الكلمة مهيبا واسع المعرفة بأحوال الرعيّة فأمنت البلاد على يديه واطمأنت خواطر أهلها * وكان بين ملك فارس ومصر معاهدة وعلاقة ودية قد مضى عليها حسين وكان بين مسلولك آل عثمان وملك فارس عداوة وخلاف كانت الحرب بينهم ما لا تنتظي لها نار ولا يسكن لها إوار وظل الفریقان على قدم الحرب والجلاد حينما حتى ظفر السلطان محمد الغازي العثماني بملك فارس وهزمه مشر هزيمة ومزق شمل جنوده فلما جاءت الاخبار بذلك الى الأشرف قايتباي خاف من السلطان محمد وأوجس سرا

وخشى أن يهاجم الديار الشامية يوما فيسلبها عن ملك مصر ويضمها الى أملاكه التي كانت
 بلغت يومئذ مبلغا عظيما بجيش الأشرف جيشا ضخما وسيره الى الحدود ليدفع عنها غارات
 الجيوش العثمانية فعلم السلطان محمد بقصده ولم يلبثت اليه ونخرج في جيش عظيم يريد قتال
 الروم وأخذ بعض مدتهم فزاد قلق الأشرف قايتباي وهم بجملع نفسه من السلطنة وترك
 الامور لمن يتولاها تخاف الامراء وقواد الخند عاقبة تنازله ومنعوه من ذلك وجددوا له البيعة
 وبالغوا في استرضائه فتولاها كارها وأخذ يتأهب لقتال السلطان محمد * وبينما هو على قدم
 التأهب والاستعداد اذ جاءت الانباء بنصرة السلطان محمد على الروم وعزمه على الزحف على
 مصر والشام وأخذهما وعمت الاشاعة بذلك وتحققت بتأهب السلطان محمد واكتاره من جمع
 الاسلحة وآلات الحرب فكبر خوف الأشرف قايتباي وبالغ هو كذلك في التأهب والاستعداد
 وصار يراقب الحوادث مع الخضر فلما تم للسلطان محمد ما أراد من ترتيب الجيوش ولم يبق عليه
 الا تسييرهم الى الشام فاجأته المنية في مدينة طبقور جابر وجاءت الاخبار بذلك الى الملك
 الأشرف قايتباي ففرح ونظن بلوغ الغاية ومات السلطان محمد عن ولدين هما بايزيد وچم
 المعروف عند أهل التاريخ باسم زيزم وكان بايزيد حاكما بأاماسيا وچم حاكما في بلاد القرمات
 فوقع بينهما الخلاف واشتد خصامهما على الملك واشتغلا عن الفتح بالمنازعة والمخاصمة فنار
 الانتكشارية بسبب ذلك على قرمانى محمد باشا الصدر الاعظم يومئذ وقتلوه وعانوا في البلاد
 حتى كاد يحتل نظام العسكر السلطاني فازداد اطمئنان الأشرف قايتباي وعاد الى القاهرة
 بجيوشه ولبث يراقب الحوادث ويتنسم الاخبار واشتد الخصام بين ولدى السلطان محمد الى حد
 القتال فقامت الحرب بينهما وطالت أيامها ودخل الأمير چم مدينة بورصه عنوة وقتل فيها من
 الانتكشارية خلقا كثيرا فركب عليه أخوه بايزيد وقهره عند مدينة بكى شهر ففر عن بقى من
 عسكره يريد الانجاء الى حمى الأشرف قايتباي فتبعه بايزيد بجيوله ورجله الى حدود الديار
 المصرية ثم رجع ظافرا منصورا ووصل چم الى القاهرة في نفر من خواصه فأكرمه الأشرف
 وأحسن لقاءه وأنزله مكانا رحبا فأقام عنده زهاء السنة ثم سار من مصر الى حلب وأخذ يرسل
 الامير قاسم آخر سلالة امراء القرمات وعينه بأنه اذا أنجده ومكنه من تولى الملك مكان أخيه
 السلطان بايزيد رد اليه بلاد أجداده وعاهده على المودة والصفاء فقال اليه الامير قاسم وجمع
 أحرابه وسار في نفر كثير مع چم المذكور لمحافظة قونية عاصمة القرمات فركب عليهم كذلك
 أحمد باشا أحد قواد العساكر العثمانية وهزمهم ومزق جمعهم ففر الامير چم هاربا * وجاءت
 الاخبار بذلك الى الأشرف قايتباي فتطير وزاد خوفه من السلطان بايزيد وعزم على مفاجأته
 والزحف عليه بالعسكر المصرى قبل أن يدهمه بايزيد بجيوله ورجله وجعل من يومئذ يتاوى
 الترك ويقطع على قوافلهم السبل ويشرد ركبهم الراحل الى بيت الله الحرام وكان ملك الهند
 قد أرسل الى السلطان بايزيد سفيرا في أمر لا محال لذكروه هنا فلما وصل السفير الى مدينة
 السويس أمر الأشرف قايتباي فقبضوا عليه وجأؤا به الى القاهرة وعوقه عنده وزحف على

أذنة فلكها عنوة وكذلك فعل بطرسوس وقد كانتا في حوزة العثمانيين فاستعظم السلطان بايزيد ذلك وأكبره وسير سفراء الى قايتباي في طلب رد ما أخذه المصريون من البلاد العثمانية فأرجع قايتباي السفراء بغير جواب وسير عسكريا كثيرا لقتال عساكر بايزيد فكبر كيد السلطان بايزيد وسيره هو كذلك جيشا عظيما لقتال عسكر قايتباي فالتقى الجمعان واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انحازت العساكر المصرية الى ملاطية فأخذها الاشرف قايتباي بخمسة آلاف مقاتل ثم كروا على جنود بايزيد وهم في مضائق الجبال وأعلاها فيهم السيف وقتلوا منهم خلقا كثيرا ومر من بقي وتحصن في طرسوس وأذنة فأرسل قايتباي الامير أزيك في نجدة لاجرا العثمانيين منهما فقاتلهم أزيك قتالا شديدا وأبلى فيهم بلاء حسنا فشق هذا الامر جدا على السلطان بايزيد وأكبره وآلى على نفسه أن يسترجع أذنة وطرسوس فأنفذ عسكريا عظيما مع صهره الامير أحمد * وأجد هذا ابن أمير البشناق ومولده في بلاد الارنؤد وتربى في مهد النصرانية ثم أسلم ودخل في خدمة آل عثمان حتى بلغ رتبة الامارة فلما التقى الفريقان اقتتلا قتالا شديدا فلانهزم الامير أحمد وظفرت به الجنود المصرية وانتصروا عليه نصره عظيمة ووقع أحمد المذكور في قبضة الامير أزيك فسار به الى القاهرة مدحورا ووصل الخبر الى السلطان بايزيد بما حصل بأصحابه فكاد يتميز من الغيظ وجند جندا عظيما وعقد لواءه لامير من كبار القواد اسمه على باشا فسار في سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة هجرية ونزل بجيوشه في بلاد القرمين فعلم الاشرف بخبره وكثرة عساكره فتنحرف وعاد الى طلب الصلح وأنفذ الى السلطان بايزيد صهره الامير أحمد واسطة في ذلك فأبى بايزيد الا القتال وأحت جيوشه حتى التقت بجيوش الاشرف قايتباي في أذنة وطرسوس فانتشبت الحرب بينهم فلانهزمت جيوش قايتباي شريسة وأخذ منهم العثمانيون أذنة وطرسوس وعاد من بقي من المصريين الى مصر وفرح السلطان بايزيد بنصرة جيوشه فسار الى أرمينية في عسكر عظيم وحاصر تحتها وافتتحها بعد قتال شديد وقبض على واليها وسيره الى القاهرة بدلا من الامير محمد استخفافا بالاشرف قايتباي فاستعظم الاشرف ذلك وسير الامير أزيك ثانية في جيش كبير لقتال فالتقى الفريقان عند طرسوس فواقعهم أزيك فكادوا يهزمونه فعاد اليهم وقادهم ونال منهم فرجعوا القهقري ولم يقدر على القتال فعاد أزيك الى القاهرة ظافرا فانما فأجده الاشرف وأدناه منه * وحسب الاشرف قايتباي عاقبة تلك الحروب وأوجس منها خيفة فأرسل الى السلطان بايزيد في طلب الصلح حقنا للدماء فلم يلتفت بايزيد الى ذلك وأغظ في القول وطلب منه أن يتخلى عن أذنة وطرسوس فان لم يفعل جاء لقتاله مع جميع دعاء آل عثمان فيفتح مصر عنوة ويعمل السيف في أهلها فلا يرحم كبيرا ولا صغيرا فأذعن الاشرف الى ذلك وتخلي عنها صاغرا وذلك سنة ست وتسعين وثمانمائة هجرية فانكف بايزيد عن قتاله وعاقده الصلح

وكان الاشرف قايتباي مع كل هذه الحروب والخطوب كثير التمرز من الخليفة أبي

المحاسن يوسف لا يركن اليه ولا يمكنه من شيء من أمور السلطنة ولا يبيح له النزول من قلعة الجبل الى دار أجداده بالمدينة خوفا من تقرب الامراء منه وقيام العامة لنصرته فلبث محجورا عليه بقلعة الجبل مقهورا مغلوبا لا يعلم من أحوال المملكة شيئا حتى مات في يوم السبت رابع عشر المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية وكان قد عهد بالخلافة الى ابن أخيه عبد العزيز أبي المعز يعقوب بن المتوكل على الله فكانت خلافة المستنجد نحو ثلاث وعشرين سنة وبضع أشهر

ومات في خلافته بوخنا بطرك المناصلين بعد أن أقام عشرين سنة وكان كامل الرأي صائب الفكر حسن التدبير محبوبا معظما قامت في أيامه فتنة عظيمة بسبب ضعف الحكام وسقوط هيبة أصحاب الامر والنهي فقام العامة على النصارى بالقاهرة وأغلقت جميع كنائسهم ومنعتهم من إقامة شعائر دينهم ثم عم هذا الامر جميع الاقاليم القبلية والبحرية واشتدت نار الفتنة فوقع القتل والسبي والنهب والتخريب وأريقت الدماء هدرًا في الأزقة والحارات وعجز ولاة الامر عن ردع العامة وزاد الخطب اشتدادا باشتغال السلطان الملك الاشرف قايتباي بقتال السلطان بايزيد وخلوا القاهرة وغيرها من المرباطين من العساكر والاجناد وما زال الحال على ذلك أياما كثيرة حتى سكنت الفتنة من نفسها وانكف العامة والناس جميعا في تحرز فكان الخطب شديدا * ولما مات بوخنا البطرك المذكور أقام المناصلون بعده بوخنا التاسع فكان حادى ثمانينم ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الثالث عشر)

(في خلافة عبد العزيز أبي المعز يعقوب بن المتوكل)

ثم قام بالامر بعد المستنجد ابن أخيه عبد العزيز أبو المعز يعقوب بن المتوكل على الله بويج بالخلافة بعهد من عمه يوم الاثنين سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة هجرية أي سنة تسع وسبعين وأربعمائة وألف ميلادية * فلما كان عصر يوم الاثنين المذكور صعد الى قلعة الجبل وحضر القضاة والاعيان فأمضوا عهده عليه ولبس تشریف الخلافة ونزل الى داره والقضاة بين يديه وكان قد أراد أن يلقب نفسه بالمستعز بالله ثم وقع التردد بينه وبين المستعين أو المتوكل واستمقر الحال على أن يلقب بالمتوكل على الله * فلما استقرت به الخلافة أحسن السيرة والتدبير وأدنى منه العلماء وتعفف عن أخذ ما يتحصل من مشهد السيدة نفيسة من النذور من شمع وزيت وغيرها وصرفه في مصالح المكان من عمارة وغيرها وكان الخلفاء قبله يأخذون لانفسهم أكثر ويفرقون ما يتبقى على من شأوا من أزمهم فرفع ذلك كله فلما خبر السلطان الملك الاشرف حاله مال اليه وأجبه ولم يضيق عليه

كما كان يفعل بعمه المستعبد ولكنه مع ذلك كان في شاغل عنه بالانبياء المترتبة عن السلطان بايزيد وخوفه من نقض الصلح واضطراب نار الحرب فكان قلق البال مضطرب البال وما زال على هذا الحال حتى مرض ومات في الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة احدى وتسعمائة هجرية فكانت سلطنته تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوما فبكاه الناس وحرثوا عليه حزنا عظيما واجتمعت كلمة الامراء كافة على تولية ولده ابي السعادات محمد فولوه يوم وفاة ابييه واقبوه بالملك الناصر

فلما استقر به المنصب أساء السيرة وعبث بالامور وجار وظلم الرعية فكان جبارا غشوما عملا زنيما لا رحمة عنده وكان شديد البغض للذة النصرانية على غير سبب وكان النصراري من أهل البلاد الى هذا الحين لم يتمكنوا من لم شعث ما أفسدته الفتنة السابقة ولا اصلاح ما تهمدم من كنائسهم ودورهم وغير ذلك فضيق عليهم وبالغ في تذييلهم وأباح للعامة تتبعهم بالابذاء ورفع القصص ضدّهم فكان الرجل منهم لا يشعر الا وقد طرقتوا بابه أو أدخلوه عنوة وأخذوا جميع ما وصلت اليه أيديهم من ملبوس وأثاث ثم يأخذون صاحب الدار حتى اذا نزلوا به عند باب داره ذبحوه أو أوقدوا حطبها وألقوه فيه على مرأى من أهله وولده واشتدت نار الفتنة وارتفع لهاها فقتل وحرقت خلق كثير وأغلقت الكنائس وسائر بيوت العبادة وتعطلت الشعائر الدينية * قال بعض أهل التاريخ فتوجهه الناس بقلوبهم الى الله تعالى وضجوا وعبجوا وللناصر بظلمه كل يوم في شأنه ﴿ فلما كان في بعض الايام اتفق أن يملوكا من مماليك اذنب ذنبا صغيرا فأمر به الناصر فسلب جلده حيا بين يديه فقام عليه عند ذلك طوائف الممالك ونادوا بخلعهم نخلعوه كرها وحجروا عليه وضيقوا وتشاوروا فيما يصلح للولاية فانفتحت كلمتهم على مبايعة الامير قانصوه الملقب بخمسمائة وهو من مقدمي الامراء واقبوه بالملك الاشرف فكانت سلطنة الناصر ستة أشهر الا أياما قلائل كلها عسف وجور لا يطاق فلما استقرت بقانصوه السلطنة رأى من اختلال الاحوال وتفشي الفساد في جميع أمور المملكة ما أقعده عن التدبير وأعجزه عن القيام بهام السلطنة فعالج الامر فلم يفعل فأكثر من الاخذ والرد مع الامراء فلم يتم له امر نخلع نفسه فكانت سلطنته خمسة أشهر لا غير وكان من أمره بعد ذلك ما سيذكر في محله ان شاء الله * وأما الخليفة المتوكل فانه أقام يدبر أمور الامامة لا يتعرض لشيء من أحوال المملكة عا كفا على ما يده من حقوق الخلافة حتى مات في يوم الجمعة الثاني من صفر سنة ثلاث وتسعمائة ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده فكانت خلافته نحو من عشرين سنين فاجتمعت السكامة على البيعة للخليفة ابي صابر واقب بالمستمسك ومات في خلافة المتوكل المذكور يوحنا بطررك الاسكندرية بعد أن أقام ست سنين قضاه في أنكد عيش وأضيق حال بين أسر واسترقاق وقد ذاقت في أيامه النصراري من الرزايا والمحن أنواعا وأصنافا وبعوته أقيم بعده بنيامين وهوراهب من جبل سينا فكان ثاني ثنائهم ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله

(الفصل الرابع عشر)

(في خلافة أبي صابري يعقوب المستمك بالله)

ثم قام بعد الخليفة المتوكل على الله أبو صابري يعقوب ببيع بالخلافة يوم السبت الثالث من صفر سنة ثلاث وتسعمائة هجرية أي سنة سبع وتسعين وأربعمائة وألف ميلادية ولقب بالمستمك بالله وكان حسن السيرة سليم السريرة محبا للخير وأهله عاقلا فأقام في داره بالمدينة لا يتطرف لشيء من أمور السلطنة ولا يتعلق بأمر من أمور الدولة إلا ما كان بيده من النظر على المشهد النفيسى فحالت إلى محبته القلوب وهابه الامراء واجتمعوا على طاعته ومال جماعة منهم إلى تسليم مقاليد السلطنة إليه فنحزب آخرون للناصر محمد وطلبوا ارجاعه إلى تحت الملك بعد تنازل الملك الأشرف وخلعه نفسه وانضم إلى هؤلاء جماعة من الكبراء والعلماء وما زالوا حتى فازوا بارجاعه وتسليم مقاليد الامور إليه وظنوا اصلاح ما فسد من أخلاقه فلم يستقر به المنصب حتى عاد إلى ما كان عليه من الجور والعسف بالرعية وارتكاب المحرم والفحش مما لا خير فيه وعمادى في جوره وظلمه ففقته الرعية وأبغضه الامراء وندموا على توليته الملك وحقدوا عليه وكرهوا مماليكه والمقربين اليه وصاروا يراقبون الفرص للإيقاع به وطال الحال على ذلك أياما * فلما كان سادس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعين خرج الناصر يريد الجزيرة على عادته فكأن له كين في الطريق من المماليك وخرجوا عليه وضربوه بالسيف وتركوه ملقى بالطريق وعادوا إلى القاهرة وأشاعوا خبر موته فاجتمع الامراء وكبار الجنود وتشاوروا فيما يصلح للولاية بعده فاجتمعت كلمتهم على مبايعة خاله فأنصوه الغورى فبايعوه في يوم الجمعة سابع عشر من الشهر ولقبوه بالملك الظاهر وولوه السلطنة على كره منه اذ كان يعرف ما وراءها من المتاعب وما سيلاقيه من المصائب * فلما استقر به المنصب رأى من فساد الاحوال ما أفسده وأضعف عزيمته وأبغضه في الملك فتقاعس وترك الامور تجرى في أعنتها وتنجب عن الناس ومنع الامراء من الحضور إلى خدمته وأغلق دون أهل الظلمات بابها بغضا منه في السلطنة وكرها فلما أبس الامراء منه وتحققوا من عزمه على اعتزال المنصب قاموا عليه وخلعوه في أوائل ذى الحجة سنة خمس وتسعمائة فكانت سلطنته سنة وبضع أشهر وولوا بدله خاله جانبلاط الأشرف فايتباى ولقبوه بالملك الأشرف فتولاها والامور مختلة والاحوال معتلة وسعد السلطنة في إدارها فعاالجها عليها تستقيم فلم يفلح فصمم على خلع نفسه وهم بذلك فأجابوه اليه وخلع في تاسع عشرى جادى الآخرة سنة ست وتسعمائة فكانت مدته سنة وأثمرا وأياما

واختل نظام السلطنة وزالت هيبة الدولة ونطاوت اليها أعناق الطامعين لكثرة العزل والتولية فلما رأى أمراء الشام ذلك وتحققوا أن ذلك انما هو ناجم عن تفرق الاحزاب وانقسام

الآراء وتباين الاهواء اختاروا من بينهم الامير طومان باي وسيروا الرسل الى امرء مصر في
 امر توليته السلطنة فوافقوا على توليتهه وابعوه جميعا وطبروا الاخبار بذلك الى الآفاق
 ولقبوه بالملك العادل فقدم الى مصر في طائفة من الجند الشامي وصعد الى قلعة الجبل
 وأمامه الامراء المصريون ومقدمو الجند والجنائب السلطانية ودقت لقدمه البشار وتوسم
 الناس فيه سممة الخير واستبشروا به فلما قبض على زمام الامور ورأى من عمد الجند
 واقدامهم على الكباير بغير خوف ولا حساب لتفشي الخلل في جميع الامور وفساد الاحوال
 شدد عليهم وضيق وآخذهم على كل هفوة فأبغضوه وأضمره السوء وصاروا يراقبون الفرص
 للايقاع به فأحس بذلك وأخذ يعزز منهم ويعمل على تفريق كلمتهم وتذليل كبارهم فلم يفلح وقد
 أكثر المبعوضون له وكبر خوفه منهم ففر واختفى أربعين يوما فاجعلوا يفتشون عليه حتى
 عثروا به في ذى القعدة من السنة فخاؤا به وقتلوه ومثلوا بجثته فكان يوما عبوسا كثر فيه بعد
 ذلك النهب والسلب والتخريب واراقة الدماء وعمكن العدو من عدوه تخاف حينئذ جميع
 الامراء وانكسروا ولم يقدم أحد منهم بعد ذلك على طلب الملك لاستفعال امر الجند وتصرفهم
 في جميع أمور الدولة ثم اجتمع جميع الامراء وكبار الجند والاعيان والعلماء وأصحاب الوظائف
 العالية وتشاوروا في الامر طويلا ثم اتحدت كلمتهم على ارجاع الامير فانصوه القورى الى دست
 السلطنة ثانيا لانهم رأوا أنه لين الجانب سهل الازالة أى وقت أرادوا خلعه خلعه لانه كان
 أقلهم مالا وأضعفهم حالا وأوهنهم قوة فلما كملوه في ذلك قال لأقبل الا بشرط أن لا تقتلونى
 فان رأستم منى اعوجاجا وأردتم خلعى فأعلمونى فأنزل لكم عن السلطنة وأخلى بيعتكم
 فعاهدوه على ذلك فقبل منهم فبايعوه في ذى الحجة من السنة وفرح العساكر ببيعته واستبشروا
 بولايته وظنوا بلوغ الغاية قال بعض أهل التاريخ وكان فانصوه هذا كثير الدهاء كبير المعرفة
 ذا فطنة وتجربة بالامور الا أنه شديد الطمع كثير الظلم جبارا طاغية فجعل يعالج الامور حتى
 سكنت الفتنة بما عاهد عليه الجند واشتغلوا عنه وأهملوا أمره فأخذ يعمل التدبير على اهلاكهم
 وعزيق شملهم وصار يلقى الفتنة بينهم ويأخذ هذا بهذا ويحرض طائفة على الاخرى ويدس لكبارهم
 السم في الطعام ويباعد بين بعضهم والبعض بالسفار والبعثات الطويلة وغير ذلك من الحيل
 حتى أفنى أكثرهم وأهلك جميع كبارهم وشرد أصحاب الكلمة فيهم وأضعف شوكتهم وأزال
 صولتهم وفرق كلمتهم وأذهب هيبتهم ثم اتخذ لنفسه مماليك جلبا وأعددهم جندا وبالغ في ترتيب
 نظامهم فكانوا بعد قليل ضربة على الرعية يظلمون ويجورون ويعبثون بالخلق ويسلبون المارة
 وأبناء السبيل وظهر منهم غاية الفساد والجور وهو يتعافل عنهم والناس في خنجر وابتهاج الى الله
 يقولون مقعة حننا فلما قويت بهم شوكتهم عمد الى مصادرة الناس في أموالهم بالقهر والبأس
 وكثر أخذهم للناس بالشبهات فكثير أصحاب السعاية على يابه فكانوا اذا علموا بأحد من مساير الناس
 وشوا به عند السلطان فيرسل اليه أعوانه من أولئك المماليك ويأخذ أمواله بغير رجة ويسلمه
 الى من يعاقبه بأنواع العقوبات حتى يأخذ ما أخفاه من دنياه الى أن يصبح فقيرا بعد غناه وعمت

المصادرة فأخفى الناس أموالهم وتظاهروا بالفقر والمسكنة وعظم ملك قانصوه وكبرت هيئته وعلت كلمته حتى هابه ملوك الروم والمشرق والفرنجة وفك الاسرى منهم وكان له المواكب الهائلة والسكامة المسموعة ومهد طريق الحاج وأمنه فكان يسافر اليه من مصر النفر القليل ونزلت في أيامه طائفة من الفرنجة على سواحل البحر الاحمر وصاروا يشنون الغارة على قوافل التجارة التي كانت تأتي الى مصر من الاقطار الهندية وبلاد العرب وغيرها فاستعظم قانصوه ذلك وسير جيشا عظيما لقتالهم فلما التقى الجمعان اتمتوا قتالا عنيفا فظفر الفرنجة وانتصروا على عساكر قانصوه نصره عظيمة وأهلكوهم فلم ينج منهم أحد وكانت هذه الواقعة من أشد الوقائع وأشأمها على السلطان قانصوه اذ بدا بعدها نجم سعده في الافول وسلطنة في الانحلال * ولما كانت سنة ثمان عشرة وتسعمائة جاء الى مصر الامير كركور أخى السلطان سليم ابن السلطان بايزيد فارا من أخيه بعد قتال على الملك لاجل لايراده هنا واستنجد قانصوه على قتال أخيه ففرح قانصوه بمقدمه وجهزه بعشرين سفينة حربية وأمده ببعض العساكر البرية وسيره لفتح القسطنطينية فسار بها كركور فخرجت عليه عمارة عظيمة من السواحل الشامية وقاتلته وشددت في قتاله حتى أغرقت جميع المراكب المصرية ودمرتها فلما جاء الخبر بذلك الى قانصوه ندم على ما فعل وخاف شر السلطان سليم وتمركز وبعث اليه سفراء في طلب الصلح وعقد معاهدة على الولاة والمودة فلما تمثل السفراء بين يدي السلطان سليم أغلظ عليهم في القول وهددهم وقال لهم قولوا لصاحبكم ليست السلامة في كل مرة وان أنا الاراحف على القاهرة فسيلقى صاحبكم نارا حامية ان شاء الله تعالى فرجع السفراء وأخبروه بما كان فكبر خوف قانصوه وأزجمه الامر وأخذ يراقب الفرص ويعمل النفس بالاماني البعيدة * ومرض في هذه الاثناء الخليفة المستمسك بالله ونقل مرضه فزاد خوف الاشرف قانصوه من قيام الفتنة أيضا في داخل البلاد وخروج الاحزاب لاسيما وقد كان بعض كبار الجند والامراء ناقلين عليه متمهزين للبطش به وما زال المرض يشتد بالخليفة حتى مات في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية فكانت خلافته نحو من عشرين سنة ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده فجعل الاشرف قانصوه في مبايعة ولده محمد المتوكل على الله وبإيعه كذلك الامراء والقضاة والعلماء خوفا من قيام الفتنة ومات في خلافة المستمسك المذكور بنيامين بطرك المناصلين بعد أن أقام احدى عشرة سنة واشتد في أيامه السلطان الملك الاشرف قانصوه على النصارى شدة بالغة فصادر الكثير منهم في أموالهم وضيق عليهم وزاد في نكابتهم حتى عاقب بعض النساء بالجلد ونحوه وكان بنيامين هذا ورعا تقيا ساكن اللب عمر في أيامه دياربناشوى في بركة شهات وبموته خلا الكرسى سنة ثم أقيم بعده بطرس وهو ثالث ثمانتهم واسمه داود وكان راهبا بدير أبي مقار فأقام ثمان سنين ومات ووقع في أيامه من الشدائد والاحن ما وقع للنصارى في أيام بنيامين فكان صبوراً جلوداً متواضعاً فأقيم بعده مرقس وهو رابع ثمانتهم واسمه فرج الله وكان من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل الخامس عشر)

(في خلافة محمد المتوكل على الله ابن المستك)

ثم قام بالامر بعد المستك ابنه الخليفة محمد المتوكل على الله ببيع بالخلافة ثاني يوم موت الخليفة المستك سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة ست عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وفي اليوم المذكور صعد الخليفة المشار اليه الى قلعة الجبل وألبس تشرىف الخلافة بحضوره السلطان الملك قانصوه والقضاة والعلماء ونزل الى داره بالمدينة في دست الخلافة والقضاة بين يديه والتزم النظر بالمشهد النفيسى على ما كان عليه الخلفاء من قبل واحتجب عن الناس الا القليل بأسباب الحوادث والفتنة القائمة وتشاغل عنه السلطان قانصوه بما هو فيه من تجنيد الجند وجوع الاسلحة والكرام لقتال السلطان سليم فقد كانت الاخبار تأتي اليه في كل يوم أشكالا لاسيما بعد أن سار السلطان سليم في عسكر جزار لقتال اسمعيل شاه ملك فارس لما بينهما من العداوة القديمة * قال أصحاب التاريخ وكان سبب هذه العداوة أنه لما عصى السلطان سليم واخوته والدهم السلطان بايزيد استنجد الامير أحمد شاه اسمعيل على قتال والده ثم على أخيه من بعده فساعده وقبل من التجأ اليه من أولاده وسير سفراء الى سلطان مصر قانصوه في طلب عقد تحالف سرى على الايقاع بالدولة العثمانية وايقاف سلاطينها عند حدهم فعظم هذا الامر على السلطان سليم وجيش جيشا عظيما لغزو بلاد فارس وأخذها جميعها من اسمعيل شاه ولما كان اسمعيل شاه لا يبدى حرا كما ولم يفتح للحرب بابا وكان السلطان سليم على قدم الاستعداد للقتال دس لعماله في الولايات المناخجة لبلاد الهجم أن يحصوا الشيعيين من العجم النازلين في بلادهم فأحصوهم سرا فكافوا زهاء أربعين ألفا فأمر بقتلهم صبرا فقتلوا عن آخرهم ثم سار السلطان سليم بجيوشه الى أدرنه في الثاني والعشرين من المحرم افتتح سنة عشرين وتسعمائة فكان كلما مر ببلد أو مدينة فتحها حتى وصل تبريز فلاقاه ملك فارس في عسكر عظيم واحتدت نار القتال بين الفريقين فانهمز ملك فارس ومن معه وسافت عساكر السلطان سليم خرازن ملك فارس وآلات حربه وذخيرة جنوده وما زال السلطان سليم يسير خلفه بخيله ورجله حتى وطأ أرض تبريز فقتل وأسر وأراق الدماء وأراد أخذ جميع بلاد فارس ومحو آثار هذه الدولة فلم يفلح لاشتداد القعط والغلاء وانتشار الوباء بين عسكره وبيعت العلوفة بمائة درهم وبيع الرغيف بمائة درهم وكان ذلك لانقطاع القوافل التي كان أعدها السلطان سليم لتأتي له بالمؤن والعلوفة فتخلقت عنه ولم يوجد بتبريز شئ من الماء كحل أو الحبوب حيث أحرق ملك فارس جميع الاجران ونخب المبانى وأفسد المزروعات لكي لا يتمكن السلطان سليم من شئ منها فاضطرب السلطان لذلك وخاف شر العاقبة وسأل عن سبب انقطاع القوافل

فقالوا له ان سبب ذلك قانصوه الغورى سلطان مصر فان بينه وبين ملك فارس عهدا على ذلك فقتل السلطان سليم راجعا عن بقي من عسكره الى مقر سلطنته وفي نفسه ما فيها وأخذ يتأهب لقتال قانصوه وسلخ مصر منه وأقسم أنه لا ينكف عن الحرب حتى يزبل عنها دولة المماليك السراكسة ويبيدهم

وكان من مقدمى الامراء المصريين أميران أحدهما اسمه خير بك متولى حلب وثانيهما اسمه سيباى الغزالى متولى الشام وكان بينهما وبين السلطان قانصوه الغورى عداوة فى الباطن وقد علم السلطان سليم بذلك فراسلها فى أمر قتاله بمصر فأوسعها له الامل وسهلا عليه سبل العمل وحرصه على ذلك وكشف له عن فساد الاحوال وبغز السلطان قانصوه عن القتال فأحس السلطان قانصوه بذلك وأخذ يراقب الامور ويبعث بالعيون لتأق له بصادق الاخبار حتى علم بتأهب السلطان سليم للحركة والقيام من دار سلطنته فأخذ هو كذلك فى التأهب وعرض العساكر والاجناد وجع الاموال لنفقة الحرب وفتح خزائن البيسارية وحواصل الامتعة فأخرجوا منها ما أرادوا من كراع وسلاح وأرسل الى الخليفة المتوكل على الله أن يتأهب للخروج معه الى حلب ونادى فى جميع العسكر بالتأهب والاستعداد فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرى ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة أنفق على العسكر نفقة السفر فكان ماخص كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر ثمانية آلاف فضة وثمان جمل سبع اشرفيات ثم نادوا فى العسكر بالخروج فخرجوا فى يوم الجمعة سابع ربيع الآخر وساروا تباعا الى الريدانية وعسكروا بها أياما ثم خرجت أطلاب السلطان وأمير المؤمنين الخليفة وبقية الامراء والمباشرين وفى صبح يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر اجتمع سائر الامراء المقدمين عند السلطان بالميدان وهم بملابس التشريف فخلع عليهم الخلع السنية فكانت عدتهم خمسة عشر أميرا ثم رسم السلطان بتعيين الامير طقطاى نائب القلعة أحد المقدمين والامير بلرزىم المعروف بالناشف والامير تاجى بك العجمى أحد المقدمين وغيرهم من الامراء نواب غيبة كل منهم فى مسنده حتى يرجع السلطان من هذه الحملة ثم خرج السلطان من باب الاسطبل الذى عند السلم المدرج وأمامه النفسير السلطانى المسمى بالبرغيشى وهو فى موكب عظيم وأبهة زائدة وكان يتقدم هذا الموكب ثلاثة أفيال مغطاة بالصنماجق وخلفهم العساكر بملابس التشريف تباعا ثم الامراء رؤس النوب بالعصى ثم أرباب الوظائف من المباشرين ثم ولد السلطان وبجانبه الاتابكي سودون العجمى ثم القضاة الاربعة ثم أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله محمد بن المستمسك يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين وعليه قباء بعلبكي بطراز أسود حرير ثم سارت الجنايب السلطانية فكانوا طولتين من الخيل من أحسن الجياد بعراقى وسروج بفواشى من الحرير الاصفر وطبول وزمور وطولتين آخرين بكياس وسروج ذهب وميائز زركش وخلفهم جماعة من رؤس النوب مشاة والخوايشية والطيردارية مشاة بالاطيار

ثم البقيج والمجامع مغطاة بالحريز الاصفر ثم الجوزى بالمبخرة * قال بعض كتاب الاخبار ثم
أقبل السلطان الملك الظاهر قانصوه وكان الخليفة أمانه بنحو العشرين خطوة والسلطان
راكب على فرس من جباد الخيل وعلى رأسه كلوتا وهو لابس قباء بعلبكيا أبيض بطراز
مزر كش والصنحقي السلطاني على رأسه وشبل العثماني مقدم الممالك خلفه ومعه
السليمانية والحشم الغفير من الخاصكية والجدارية ودخل من باب زويلة وشق القاهرة
بوصكبه هذا فضع الناس له بالدعاء وما زال حتى خرج من باب النصر وسار الى المعسكر
بالريدانية ونزلت في غروب ذلك اليوم من قلعة الجبل جميع الخزائن السلطانية وكان فيها
من الذهب زهاء ألفي ألف دينار نقرة وكثير من الفضة والنحاس ثم نزلت الزبدخانه وهي محملة
على مائة جمل ونادى المنادى سادس عشر الشهر المذكور بخروج من تعوق من العساكر
والاجناد بالقاهرة ومصر القديمة وأن السلطان على عزم السفر في يوم الجمعة عشى الشهر
نخرج من بقي ورسم السلطان لجماعة من نواب الشافعية ونواب الحنيفية ونواب المالكية
ونواب الحنابلة أن يرافقوه في هذه الغزوة ورسم بذلك لجماعة من مشايخ الحقيقة والأئمة
ومشايخ القراء والمؤذنين والكتاب وجماعة من الاطباء والسكاليين والحلاقين والمغنين وجماعة
كثيرة من البنائين والتجارين والحدادين ثم قام الركب وسار الى الديار الشامية ولبث
السلطان بالريدانية في نفر من خواصه وكبار أمرائه أياما فخافته الاخبار من عامله على حلب
بأن السلطان سليم لا يريد الا المصالحة وحقق الدماء وعدم الاندفاع الى حرب ربما كانت
عاقبتها عليه وخيمة فسر السلطان الظاهر بهذا الخبر واعتقد صدق مقال السلطان سليم
والامر على عكس ذلك فقد كان هذا القول خدعة من السلطان سليم ومداهنة لغاية في
نفسه * فلما كان يوم السبت ثاني عشر ربيع الآخر سار السلطان الملك الظاهر قانصوه
من الريدانية وصحبته أمير المؤمنين الخليفة والقضاة الاربعة وولده المعز الناصري وأقرباى
الطويل وذلك بعد صلاة الضحى يريد الخانقاه السرياقوسية فكانت مدة لبثه بالريدانية سبعة
أيام وأقام بالخانقاه يوما وليلة ورحل عنها في يوم الاحد ثالث عشر به * وكان بمصر من أولاد
أحمد بك أخى السلطان سليم غلام اسمه قاسم وكان سبب حضوره الى مصر أنه لما قام
السلطان سليم على أخيه أحمد أبى قاسم المذكور وقتله خافت أم أحمد عليه فسلمته الى
مرييه من الخصيان وأشارت عليه بالهرب الى الديار الشامية فهربا معا الى حلب وهما في
هيئة مبتدلة فدخلها فلبثا بها حينما علم السلطان الملك الظاهر بأمر الصبي المذكور
فكتب عامله على حلب في أمره ورسم بتسييره الى مصر فخافها مع مرييه وأقاما بها
متنكرين فلما عزم السلطان الظاهر على الشخصوص الى الشام جهز الأمير قاسم المذكور في
عدة من الممالك والفرسان والحشم ودواب الحمل وقيد بمخدمته الأمير ماماي
الصغير المحتسب ورسم بخروجه خلفه الى الشام في هذه الابهة والكبيكة كي يشيع خبره
ويعلم الناس في دار السلطنة العثمانية أن بمصر غلاما من سلالة ملوكهم فيخرجون على

السلطان سليم بسببه ويتحازون اليه فتضعف شوكة السلطان سليم وتسقط هيئته فيظفر به ويعود منصورا وكان الصبي المسذکور لم يبلغ من العمر سوى الثالثة عشرة فخرج في غزاة جمادى الاولى من السنة في موكب حافل وشق من صليبية ابن طولون وعلى رأسه عمامة تركانية وفي وسطه نخجور وفي أذنه قرط مثنى للغاية وخلقه جماعة من العثمانيين والامير مامای المحتسب والامير اينال باى دوادار سكين ولحق بالركب السلطاني كما رسم الظاهر قانصوه ودخل السلطان الملك الظاهر قانصوه بجيوشه الى الصالحية في يوم الثلاثاء خامس عشر ربيع الآخر ثم سار منها الى قطيا فلاقاه نائبا ومثله الموائد وجهزه بما لاق وسار منها فدخل مدينة غزاة في يوم الخميس رابع جمادى الاولى فلاقاه الامير دولت پاي نائب غزاة فأقام بها خمسة أيام ثم رحل عنها الى دمشق فدخلها في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الاولى فلاقاه الامير سيباى الغزالي نائب الشام وأظهر الفرح بقدمه ومشى في ركابه فدخل وأمامه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الغفير من العساكر والناس فلاقاه بها جميع أمراء الشام وعسكرها وجعلوا القبة والجلالة على رأسه كما جرت عادة الملوك من التقدم وزينت له المدينة ودقت البشائر بقلعة دمشق ونثر على رأسه بعض تجار الفريجة الذهب والفضة وفرش له سيباى الغزالي تحت أقدام فرسه الشقق الحرير خديعة وغشا فشق وسط المدينة ودخل من الباب المسمى باب النصر وخرج الى القضاء وسار نحو المصطبة السلطانية بناحية فانول فنزل بها ورسم بعمارتها فرمواها * قال أصحاب التاريخ ولم يتفق هذا الموكب لغيره من ملوك مصر الا للملك الاشراف برسباى لما سار الى دمشق سنة ست وثلاثين وثمانائة * وأقام السلطان بالمصطبة تسعة أيام ثم رحل عنها الى حمص ثم الى حماة فلاقاه عاملها قباى بردى الغزالي وبالغ في تعظيمه وعمل له موكبا حافلا جدا فأقام بها أياما حتى جاءه الامير قاسم أخو السلطان سليم فأنزله بها وسار هو بعسكره ومتاعه قاصدا حلبا فدخلها في يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة في موكب حافل ومشى أمامه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الاربعة وسائر الامراء وحملت له القبة والجلالة وكان الحامل لها الامير خير بك عامله على حلب فلم يستقر بالسلطان المقام حتى وفدت عليه رسل السلطان سليم وهم ركن الدين قاضى عسكره وأمير اسمه قراچاه باشا وفي ركابهما سبعمائة راكب فأنزلهم قانصوه في أحسن مكان وأكرم وفادتهما ودعاهما الى مقامه وجعل يعاتبهما ويشكو من فعال السلطان سليم واقدامه على سفك الدماء التي حرم الله سفكها فلاطفاه وهزنا عليه الامر وقالوا قد جئنا الى مقامك وكلانا مقوض في اجراء كل ماتحب وتختار بشرط أن لا تعرض لنجدة ملك فارس وقالوا ان السلطان يريد أن ترسل اليه سكرا وحلوى من محصول بلادك فسر الظاهر قانصوه بذلك وظن السلامة والاخلاص وأرسل اليه ما طلب ولم تكن نية السلطان سليم من ارسال هذا الوفد الا ليسر غور الامور ويعرف أحوال جيوش الظاهر قانصوه وما عندهم من سلاح وكراع وكان السلطان سليم قد

وصل في هذه الاثناء الى قيسارية ثم خلع الظاهر على رسل السلطان سليم خلعا سنية ورسم
 للامير مغلباي دوادار سكين بأن يتوجه الى السلطان سليم رسولا ومعه بعض التحف وكثير
 من الهدايا الثمينة وكتب يعرب عن المودة والولاء والاشارة الى تقرير قاعدة الصلح بين الفريقين
 لحسم المشاكل وقطع أسباب الخصومة ولبث ينتظر الجواب فلما أبطل رسوله جمع جميع
 الامراء المقدمين والالوف والنواب وامراء الطبخاناة وامراء العشاير واتواهم على
 القرآن بأن يكونوا له عوناً على العدو ولا يخونوه ولا يخالفوا له أمراً ولا يغدروا به خلفوا
 جميعاً وحلف معهم خير بك والغزالي ثم نادى في العسكر بالعرض في الميدان فعرضوا وهم
 باللباس الكامل ثم مروا من تحت سيفين قد نصباً على شكل قنطرة كعادة الاتراك * وعندهم
 أن هذا هو القسم الاعظم * وأرسل السلطان قانصوه الى الامير قاسم بن أحمد بحماة فجاء الى
 حلب فخلع عليه وأذاع خبره وطيره الى الآفاق وجعل يتأهب وبينما هو على هذا الحال اذ
 جاءه الخبر بأن السلطان سليم قبض على الامير مغلباي الذي سار اليه بالهدية والكتاب وكتبه
 بالحديد وأبى الا القتال وقطع دابر الظاهر وأصحابه واستخلاص البلاد منهم * وساق السلطان
 سليم بعهد ذلك بعسكره الى عنتاب وفتح قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغيرهما من القلاع
 فاضطرب الملك الظاهر وتخير في أمره ونادى في طائفة من العسكر بالخروج الى لقائه فخرج
 أمير اسمه عبد الرزاق بعسكره وخرج معه خير بك في نفر من جنده أيضاً فكانت عسدهم
 خمسة آلاف ونزلوا على قيد يوم من مدينة حلب ثم خرج بعدهم سيباي الغزالي نائب الشام
 والامير غراز نائب طرابلس والامير طراباي نائب صفد ونائب حص ونائب غزة وتتابع
 خروجهم بالعسكر والاسلحة في اليوم السابع عشر من رجب وخرج بعهد ذلك من بقي
 وساروا قاصدين جبلات ووردت الاخبار بذلك الى نائب الغيبة بمصر فأطلق بعض المحابيس
 من النساء والزجال وفرق الصدقات ودعا الناس الى الدعاء للسلطان الملك الظاهر قانصوه
 بالنصر والتأييد

وعاد في هذه الاثناء الى حلب الامير مغلباي دوادار الذي سار الى مقام السلطان سليم
 رسولا بالكتاب والهدية وهو في أسوء حال من العرى والتعب وأخبر الظاهر بما ناله من
 السلطان سليم وتصميمه على القتال ومحو أثر دولة الغوري فهال الملك الظاهر هذا الامر
 وأزعجه وخرج من حلب في يوم الثلاثاء العشرين من رجب ومعه أمير المؤمنين الخليفة
 المتوكل على الله العباسي والقضاة الاربعة وسار الى جبلان فبات بها ليلة وأصبح فرحل
 عنها الى مرج دابق فأقام بها الى يوم الاحد سابع عشر رجب فجاءته الرسل من قبل
 السلطان سليم تدعوه الى القتال فنادى في العسكر بالخروج وركب هو وعليه تخفيفة
 صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير وأخذ يرتب صفوف العسكر ويختار لها مواقع القتال ثم وقف
 بخواصه الذين يعتمد عليهم في قلب الجيش وعلى يمينه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله
 وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طير مثل السلطان وعلى رأسه الصنحج الخليفة

وكان حول السلطان أربعون مصعفا في أكياس من الحرير الاصفر على رؤس جماعة من
 الاشراف وبينهم مصحف بخط الامام عثمان بن عفان وحوله أيضا جماعة من الفقراء وهم
 خليفة أجد البدوي ومعهم العلم الاجدى والقادرية ومعهم علم أخضر وخليفة السيد أجد
 ابن الرفاعي ومعهم العلم الخليلي والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة ومعهم علم أسود
 والامير قاسم ابن أخي السلطان سليم واقف بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجق من الحرير الاحمر
 وكان خلف السلطان الظاهر الصنفي السلطاني وتحتة سنبل العثماني مقدم المماليك
 والقضاة الاربعة والامير غراز الزردكاش أحد المقدمين واصطفت جيوش السلطان سليم
 وارتفعت أعلامهم فبرز من جيوش السلطان الملك الظاهر الانابكي سودون العجمي بعسكره
 والامير سييبي الغزالي نائب الشام والمماليك القرانصة للقتال فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا
 عنيفا للغاية فانهزم عسكر السلطان سليم وتقهقروا الى الورا فساق خلفهم سودون العجمي
 وأصحابه وغنموا منهم سبعة صنماجق ومكاحل وأسروا منهم عددا كثيرا من رماة البنادق
 وكادت تتم هزيمتهم وكان خيربك عامل حلب والغزالي والى الشام قد راسلا السلطان سليم
 واستوثقا منه لانفسهما بأن يعطى خيربك مصر والغزالي الشام فلما التحم الجمعان واضطربت
 النيران وكادت تتم هزيمة عسكر السلطان سليم فرخيربك بن معه وكافوا في المنية وانضموا
 الى صفوف العدو وفر الغزالي بن معه من العسكر الشامي وكافوا في الميسرة وبقي السلطان
 الملك الظاهر بن معه من خواصه في القلب فاندفع عليه من بقي من عساكر السلطان
 سليم فأراد الهرب وحول وجهه جواده يريد حلبا فسقط ومات تحت سنبلك الخليل وقيل
 أصابه في الحال فالح فلم يملك نفسه فسقط فمات لساعته فانقض عسكر السلطان سليم على
 من كافوا حوله فقتلوا الامير بيبرس أحد المقدمين وكثيرا من الخاصكية والغلمان وشردوا
 من بقي ووطوا المصاحف والاعلام بسنبلك الخليل ونهبوا ما وجدوه في المعسكر المصري
 وزال من تلك الساعة ملك السلطان الملك الظاهر فانصوه فكانت مدة تصرفه في ملك مصر
 والشام وأعمالها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما ففقد كان ولي الملك في
 مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ومات في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين
 وعشرين وتسعمائة * وقتل في هذه الواقعة من الامراء المقدمين عدة كثيرة وقتل سييبي
 نائب الشام عند فراره للانضمام الى عسكر السلطان سليم وعدة أخرى من العمال والنواب
 وقد ستر وجهه الارض بالجنث من الانسان والحيوان فكان المشهد مريعا للغاية وانخطب
 شديدا ودخل السلطان سليم وطاق الملك الظاهر فأخذ جميع ما فيه من مال وسلاح وكان
 شيا كثيرا وانحاز من بقي من عساكر الظاهر الى مدينة حلب ليتترسوا فيها فقام عليهم
 أهلها جميعا ومنعوه من الدخول وقتلوا دونها فقتلوا من العسكر خلقا ونهبوا ما كان معهم
 من سلاح ومتاع وخيول وغنموا ودائعهم التي كانت بالمدينة فارتد من بقي وساروا الى دمشق
 فدخلوها وهم في أسوأ حال ما بين ضعيف وجريح بلا لباس ولا سلاح ولحق بهم بعض

المتشردين من المباشرين ومن بقي من الامراء الكبار ولبسوا بها اياما بلا ماء ولا زاد الا
 القليل جدا وأقام السلطان سليم خارجا عن حلب بالمكان المعروف بميدان حلب حتى تكامل
 ورود عسكره وجمعوا الاسلاب والغنائم فسار اليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله
 يعقوب والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعي كمال الدين الطوبيل وقاضى القضاة محيي
 الدين الدميرى المالكي وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى أما قاضى الخفزية محمد
 ابن الشحنة فكان قد هرب مع العسكر الى دمشق فناله ما نالهم فلما دخل الخليفة قام له
 السلطان سليم وأجله وأجلسه وجلس بين يديه ولم يلتفت الى القضاة ولم يجلهم ثم رسم
 للخليفة بالمقام فى مدينة حلب وخلع عليه خلعاً سنياً من مال وملبوس ووكّل به من يحرسه
 ثم صرف القضاة على غير صورة * وخرج اليه بالميدان أمراء حلب فسلم المدينة وارتفعت
 رايانه على حصونها بلا حرب ولا جلال وغنم جميع ما كان بها من مال وسلاح وتحف وغير
 ذلك وهرب قانصوه الاشراف نائب قلعتها وسار الى الشام مع من هرب من العسكر * قال
 بعض كتاب الاخبار وكان بالقلعة من المال ما قيمته مائة ألف دينار خلافاً لآوانى
 الذهب والفضة والتحف النفيسة وصلى السلطان سليم صلاة الجمعة فى جامع الاطروش بحلب
 فخطب الخطيب باسمه ودعاه ولأسلافه وبالغ فى المدح والتعريف وعند ما سمع السلطان سليم
 الخطيب يقول فى تعريفه * خادم الحرمين الشريفين * أظهر الفرح والسرور بلقب خادم
 الحرمين الشريفين وخلع على الخطيب خلعاً متعدداً وهو على المنبر وأحسن اليه احساناً
 كثيراً فلما خرج من الصلاة زينت له المدينة وأوقدوا له الشموع على أبواب الدكاكين
 وارتفعت له الاصوات بالدعاء فاقام بالميدان اياماً وهو يرتب الامور ويجرى الاحكام ويمهد
 العقبات ثم ارتحل الى الشام فخرج من كان بها من العساكر المصرية هاربين وخرج اليه
 أهل دمشق وطلبوا الامان فاتهم ودخل المدينة فى موكب حافل للغاية وأقام بها اياماً وخطب
 له بها الخطباء ووصل من بقي من العسكر المصرى والامراء الى القاهرة وهم فى أسوأ حال من
 العرى والجوع والضعف وبينهم كثير من المرضى والجرحى فقام العزاء بالقاهرة على السلطان
 ومن مات من الامراء والعسكر والمباشرين وأرباب الوظائف وكثير البكاء والنواح فى جميع
 البيوت فكان الخطب عظيماً والحزن عاماً * وجاءت الاخبار الى الامير طومان باى الدوادار
 متولى الغيبة بعزم السلطان سليم على الزحف بجموشه على القاهرة فهاله الامر وأزعجه
 وجمع من بقي من الامراء المقدمين وأمراء الطبليخاناه وأمراء العشراوات وتكلموا فى الامر
 طويلاً فانفقت كلمتهم على تولية الامير طومان باى المذكور منصب السلطنة فامتنع فألحوا
 عليه فلم يقبل وأظهر غاية الامتناع ثم ركب وركب معه من الامراء المقدمين الامير اعلان
 والامير أنسيباى حاجب الحجاب والامير عمر والامير بقطاى نائب القلعة وآخرون غيرهم
 وساروا الى كوم الجارح عند الشيخ أبى السعود وكان للامير طومان باى معرفة ثابتة به
 وصحبة فذكروا للشيخ ما وقع للعساكر المصرية بمرج دابق وما حل بالسلطان قانصوه

الغورى وعزم السلطان سليم على الزحف بجيوشه على القاهرة ورغبتهم في مبايعة
الامير طومان باى بالسلطنة وامتناعه وطال بهم الكلام في ذلك فقام الشيخ وأحضر
المحقق واستحلهم جميعا على أنه اذا قبل الامير طومان باى المنصب لا يخونونه ولا يغدرونه
ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله خلفوا جميعا على ذلك ثم أعاد عليهم اليمين ثانيا أن
لا يظلموا الرعية ولا يجددوا الاحداث من المشاهرة والمجامعة التي أحدثها الغورى وأن
يبتلوا ما على الحوائت من ذلك وأن يجروا الامور على ما كانت عليه أيام الملك الاشرف
فايتباى ويسيروا الحسبة على طريقة شبك الجالى عندما كان متوليا عليها خلفوا له على
ذلك وقاموا من عنده وقد قبل الامير طومان باى المنصب وأطاع * فلما كان يوم الجمعة
رابع عشر رمضان من السنة صلى الامير طومان باى صلاة الفجر وركب فرسك معه
الامراء المقدمون وأمامهم الفوانيس بالشموع والمشاعل وشق من صليبة ابن طولون وهو
بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء وكذلك الامراء الذين معه فارتفعت له أصوات الناس بالدعاء
وصعد الى باب السلسلة وجلس به وأرسل يستدعى أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين
الخليفة المتوكل على الله فحضر ومعه هرون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله وأولاد ابن
عم خليل وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمد بن الشحنة والقاضى شرف الدين
يحيى بن البردينى أحد نواب الشافعية وجماعة من نواب القضاة الذين بالقاهرة فلما تكامل
المجلس اجتمع سائر الامراء المقدمين وغيرهم من الاجناد والعسكر فبرز أمير المؤمنين يعقوب
ورقة بالوكالة الماطقة عن ولده المتوكل على الله فتليت بحضرة من حضر وبعد ذلك تقدم
الخليفة يعقوب فبايع الامير طومان باى بالسلطنة وبايعه هو أيضا وشهد عليهما بذلك الشرف
يحيى بن البردينى وجماعة من نواب القضاة فلما تمت له البيعة أحضروا له الخلعة السلطانية
وهي جبة سوداء وعمامة سوداء وسيف بدوى ولقبوه بالملك الاشرف ثم قدموا له فرس النوبة
فركب على سلم الحراقة التي بباب السلسلة والخليفة أمامه فطلع من باب سر القصر الكبير
وجلس على تحت المملكة وقبل الامراء الارض بين يديه ودقت الدوائر بالقلعة ونودي باسمه
في القاهرة ومصر فارتفعت له الاصوات بالدعاء وفرح الناس به فانه كان بارا شقيقا على
الرعية ميالا الى خير البلاد فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم خرج السلطان الملك
الاشرف طومان باى المسذكور وصلى صلاة الجمعة وخطب به الشرف يحيى بن البردينى
وخطب جميع الخطباء باسمه على المنابر في ذلك اليوم بعد انقطاع الخطبة تحسین يوما من مصر
والقاهرة وغيرهما

وجاء في هذه الاثناء الى القاهرة بعض كبار الامراء الذين تخلفوا بدمشق ومعهم جماعة
كثيرة من كبار دمشق وأعيانها فرارا من ايذاء جنود السلطان سليم فانهم لما دخلوا دمشق
عاثوا وأفسدوا ونهبوا الدور وأخذوا كل ما وصلت اليه أيديهم فهاجر الكثير من أهل دمشق
وتفرقوا وجاء منهم جماعة الى القاهرة * قال بعض أصحاب التاريخ وكثر فساد عسكر السلطان

سليم فتناولت أيديهم أيضا الى نهب ما في القرى المجاورة لدمشق فخرج لقتالهم الامير ناصر
 الدين بن الخشن أحد كبار قبائل العرب فلاقاهم عند قابون واقتتل الفريقان قتالا عنيفا
 فانصر عليهم ابن الخشن وفتحهم وأعمل فيهم القتل بالسيف ثم تترس في دمشق
 وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان طومان باي ففرح وتقوت عزائمه ونادى في العسكر
 المصرى الذى تخلف بالقاهرة لحراستها بعد خروج قانصوه بأن يتأهبوا للخروج ثم عرضهم
 وعين من الامراء المقدمين الذين تخلفوا أيضا ستة أمراء ثم رتب أمور الجند وولى
 عليهم من شاء من الامراء وعين أرباب الوظائف العالية والمباشرين وأمراء الطبخانات
 والعشراوات وغيرهم من أصحاب الوظائف الاخرى وكتب الى ابن الخشن يستنهض همته
 الى قتال السلطان سليم ووعده بولاية حصص وأتابكية الشام ان هو نال من العثمانيين وفرق
 شملهم وكثر الارجاف في هذا الحين واشتد خوف الناس ولم يخرج الحج في هذه السنة وتعطلت
 مراسمها وجاءت الاخبار بعزم السلطان سليم على الزحف على غزة بجيوشه بعد أن ملك جميع
 الديار الشامسية من الشام الى الفرات وأقام الولاة والعمال ورتب الامور على ما يشاء فلما
 علم السلطان الاشرف طومان باي بذلك نادى في العسكر بالخروج الى الريديانية وخلع على
 الامير جان بردى وجعله مقدم هذه الحملة فخرج من يومه الى الريديانية ونصب وطاقه
 وأكثر النداء في العسكر فصاروا يخرجون تباعا والنداء متواصل والاخبار متردفة بوصول
 طلائع جيوش السلطان سليم الى سواد غزة وخروج أصحاب البنادق من الجند وأصحاب
 المكاحل وغيرهم وتقدم الامير جان بردى بعسكره يريد غزة وتبعه بعض الامراء بما ليكهم
 فالتقت بهم طلائع السلطان سليم على مقربة من غزة فقاتلوهم قتالا عنيفا ولازم
 كل فريق منهم مواقعه * فلما كان يوم الاثنين حادى عشر ذى القعدة قبض جواسيس
 السلطان الملك الاشرف طومان باي على جماعة من أصحاب السلطان سليم بطريق بركة
 الحاج وكانوا نحو خمسة عشر ومعهم شيخ كبير هو مقدمهم وكان حضورهم من
 طريق الدرب السلطاني ولم يأتوا من طريق غزة لوقوف الامير جان بردى بعسكره عند سواد
 غزة فلما جاؤا بهم الى دار الامير علان الدوادار الكبير أشاروا الى الشيخ بأن يترجل عن
 فرسه ليدخل على الامير فلم يقبل فبطحوه على وجهه وأوسعوه ضربا ومن معه وأمر بهم
 الدوادار فقيدهم جميعا بالحديد والقوهم في السجن وفتشوهم فوجدوا مع ذلك الشيخ عدة
 رسائل لبعض الامراء والمباشرين وأرباب الوظائف العالية بمصر ورسالة الى السلطان الملك
 الاشرف طومان باي وهى غاية في التشديد والغلظة وكلها سباب ووعيد وتهديد الى أن قال
 له فيها **﴿** واقعد أوصى الله الى **﴾** بأن أملاك جميع البلاد شرقا وغربا كما ملكها ذو القرنين وأن
 لا تكون كلمة فوق كلمتى ولا يد فوق يدي وأما أنت فملوك تباع وتسرى فلا تصح لك
 ولاية ولا يجوز لك التسلط على الاحرار وقد أتت الى السلطنة على ديار مصر بعهد من أمير
 المؤمنين المتوكل على الله والقضاة فان سالتنا سلمت وأزلنا عنك البأس واضرب السكة باسمنا

الشرىف ثم اخطب لنا على المنابر قياما بواجب السلطنة وقد وليناك بعد الطاعة عمالة مصر وملحقاتها الى مدينة غزة فقط فان آيت الطاعة وأظنك فاعلا آتيت الى مصر وقتلت جميع من بها من الشرا كسة حتى الاجنة الذين في بطون الامهات وأحمو شأفتهم عن وجه الارض * الى أن قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا * الآية

فلما قرئ هذا الكتاب على السلطان الملك الاشرف طومان باى بكى بكاء مرا وجمع اليه الامراء وكلهم في الامر ثم شدد في خروج من بقى من العساكر وشاع خبر ما في هذا الكتاب بين الناس فانزعجوا ونزع بعضهم الى أطراف القاهرة وبعضهم الى الصعيد الاعلى بأموالهم وعيالهم وعم الخوف جميع الرعية وامتنع من بقى من العساكر والاجناد من مماليك الطباقي لا سيما المماليك القرانصة من الخروج الى القتال الا بعد النفقة وأن ينفذ لكل واحد منهم مائة وثلاثين دينارا فأخذ السلطان يلاطفهم ويسيرهم حتى قبلوا خمسين دينارا فجمع السلطان هذا المال من أولاد السلطان الملك الغورى وأولاد السلطان الملك المؤيد وأولاد السلطان الملك المنصور وجميع أولاد الامراء الذين بالقاهرة ومصر ولم يحدث بسببه احدانا على أهل البلاد كما كان يفعل غيره من الملوك والسلاطين اذا قامت الحرب من عدو خارجي * وفي هذه الاثناء جاء الخبر بوقوع القتال في يوم الاحد سابع عشرى ذى القعدة بين العساكر المصرية وعساكر السلطان سليم تحت أسوار مدينة غزة واشتد شدة الغلة ثم انكشف عن هزيمة المصريين وفي رواية ان هذه الواقعة كانت بناحية ييسان فساق عسكر السلطان سليم خلف العسكر المصرى وأكثروا فيهم القتل والظعن فمات منهم خلق كثير وخرج الامير جان بردى مقدم الجيوش المصرية والامير أزرهك الناشف أحد الامراء المقدمين وغيرهما من كبار الامراء والمباشرين وغنموا ما كان معهم من سلاح وكراع وخيول وجمال ومات الامير على باى السيفى الدوادار أحد أمراء الطبخنااه وتشتت من بقى من المصريين وتمزق شملهم * فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم افتتح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة دخل من بقى من العسكر الى القاهرة وهم في آنس حال فكان أول من دخل الامير جان بردى مقدم الحملة والامير أزرهك الناشف وبعض أمراء العسراوات والعساكر والغلمان والاتباع فأخبروا بما نالهم من عساكر السلطان سليم وبالغوا وهزلوا وملؤا القلوب خوفا ورهبة من سطوة السلطان سليم وشدة بأس عساكره وأنهم دخلوا غزة وملكوها وأتى مع من حضر أيضا والى غزة المسيحي دوات باى فاشتد غم السلطان الملك الاشرف وطار في أمره ووصلت طلأع الجيوش العثمانية الى قطيا وقد أباح لهم السلطان سليم مدينة غزة أياما فقتلوا فيها وأراقوا الدماء وأخشوا في القتل حتى في الاطفال والصبيان تشفيا وانتقاما وكان فتح غزة على يدى سنان باشا أحد كبار عسكر السلطان سليم

واهتم السلطان الملك الاشرف باعداد المعدات وجمع الذخيرة فجمع منها شيئا كثيرا

وسيرها مع بعض طوائف الجند من الممالك وأخلاق الناس من سود ومغاربة وغيرهم وأخرج عدة مجلات تجرها الابقار وعليها المكاحل الخماس وساروا الى الريدانية ونزلوا على مقربة من تربة العادل ورسم السلطان بتسليم قيادة هذا الجيش الى الامير سودون الدوادار فتقيد عندئذ بخروج الجند واخراج المعدات وبرز بهم الى الريدانية وبث العيون والارصاد لتأق اليه بالاخبار فأعلموه بأن السلطان سليم خرج من دمشق يريد الديار المصرية وقد قسم عساكره الى فرقتين فسير احدهما من طريق الدرب السلطاني وثانيتهما من طريق التيمسه وهو طريق السرية التي سلكها بنو اسرائيل مع موسى عليه السلام عند خروجهم من أرض مصر فسير سودون الخبير بذلك الى الاشرف بالقاهرة فجمع الاشرف الامراء وحثهم على الخروج الى الريدانية فخرجوا وعسكروا بها وتابع الامير سودون استطلاع الاخبار فعلم أن العدو وصل الى مدينة غزة وأن السلطان سليم عرج في نفر قليل الى زيارة بيت المقدس ومقام الخليل ابراهيم وأحسن الى من بالبيت وعاد ولما كان يوم الاثنين تاسع عشر ذي الحجة نزل السلطان الملك الاشرف ومعه الامير قاسم ابن أخي السلطان سليم من قلعة الجبل في عتة وافرة من الجند والغلمان وساروا الى الريدانية وأقام السلطان بالمصطبة التي بها المعروفة بالمطم ورسم بترتيب العساكر ووضع المكاحل واستعد للقاء السلطان سليم بالصالحية فجمعه الامراء وقالوا لانقاتله الا بالريدانية فراجعهم فلم يقبلوا فالح عليهم فامتنعوا فأجابهم كارها ورسم بعمل خندق من سبيل علان الى الجبل الاجر والى منتهى مزارع المطرية فبلوه ووضعوا عليه الطوارق والمكاحل وأتى الى الريدانية الكثير من القصابين والنجارين والبياعين على اختلافهم وخيموا هناك وأرسل الاشرف الامير قانصوه العادلي الذي كان كاشف الشرقية ليستكشف خبر مجي السلطان سليم بجيشه الى قطيا فعاد في يوم الاحد خامس عشر الشهر ومعه رأسا شخصين من عساكر السلطان سليم ورجل من أبناء حلب كان في خدمة الامير خير بك واليها الذي انضم الى عسكر السلطان سليم وكان هو سبب هزيمة المصريين وموت السلطان كما تقدم بيان ذلك في محله وكان قانصوه المذكور لما وصل الى الصالحية وجد أن طائفة من عسكر السلطان سليم قد دخلتها وأخذت منها بعض المؤنة وعلائف الدواب الجمل فقبض على اثنين منهم واحتز رأسهما وقبض على ثالث وهو من أتباع خير بك وأتى بالرأسين والرجل الى الاشرف بالمصطبة فسأل السلطان ذلك الرجل عن أحوال عسكر السلطان سليم ووجدوا معه عدة رسائل من خير بك الى بعض الامراء المقدمين بصر فألقوه في السجن مقيدا بالحديد وأخفوا عن الناس خبره وخبر تلك الرسائل وكان السلطان سليم كلما مر ببلد أو قرية أو قصبه في طريقه أحسن الى أهلها فيهرب منها بها من الشراكة أو يختفي ويتنكر وما زال على هذا الحال حتى وصلوا بلبليس ومنها جاؤا الى العكرشة فلما علم الأشرف بوصولهم الى العكرشة هم بان يلقاهم بها ويقاثلهم على ما هم فيه من التعب والجوع فلم تمكنه الامراء من ذلك وقالوا لانقاتلهم الآن وكانهم كانوا على

عهد مع السلطان سليم في ذلك فلما لم يقا تلوه وأفسحوا له في الاجل سار بعسكره من غير
 ممانع حتى دخل الخانكاه فخرج أهلها على وجوههم الى القاهرة مولولين فرسم الى القاهرة
 بقلق الابواب الكبرى فغلقوا باب الفتوح وباب النصر وباب الشعريه وباب البحر وباب
 القنطرة وغيرها من الابواب وأغلقت أسواق المدينة وتعطلت الطواحين فقل الدقيق والخبز
 من الاسواق واشتد الجوع بالفقراء * ولما كان يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة قام
 السلطان سليم بعسكره من بركة الحاج الى الجبل الاحمر فقام للقاءه الأشرف وصمم على
 القتال بغير مهل والتقى الفر يقان فاقتتلا قتالا عنيفا فقتل من عسكر السلطان سليم عدة
 وافرة وقتل سنان باشا أحد مقدمي جند السلطان سليم فحزن عليه السلطان حزنا عظيما
 قال بعض الكتاب حتى انه قال وأى فائدة لي في مصر بعد يوسف يريد (سنان باشا
 المذكور) واشتد السلطان سليم على عساكره وقسمهم الى قسمين وسير أحدهما من خلف
 الجبل الاحمر وزحف بالثاني نحو الريدانية حيث معسكر السلطان طومان باي ثم انضم
 القسمان وأعملا القتل برمي البنادق والمكاحل واشتد الرمي وتراسل على العساكر المصرية
 فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى قتل أكثر الامراء المصريين وعدد عديد من العساكر
 والاجناد فتمت هزيمة المصريين وفر من بقي منهم يريد النجاة ووقف الأشرف طومان باي
 يقا تل الاعساء مقاتلة الاسود الضواري وحوله نفر من العبيد الرماة والمماليك السلطانية
 ثم عمد بعد ذلك الى الفرار ففر الى طرا ودخلت العساكر العثمانية الى القاهرة فعا تلوا وقتلوا
 ونهبوا وحرقوا وخرّبوا بجميع بيوت الامراء وأخذوا ما في الخواصل والاشوان ولبثوا على
 هذا الحال اليوم كله فكان يوما عبوسا قطريا فقال في ذلك الشيخ بدر الدين الزيتوني

يبكي على مصر وسكانها * قد خربت أركانها العاصمه

وأصبحت بالذل مقهورة * من بعد ما كانت هي القاهرة

وأصبح يوم الاثنين سلخ ذي الحجة سنة اثنسین وعشرين وتسعمائة فدخل القاهرة
 أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله ومعه بعض كبار الامراء من أصحاب السلطان سليم
 وطائفة كثيرة من عسكره ودخل معه الامير خير بك والى حلب وقاضى القضاة الشافعية كمال
 الدين الطويل والقاضى المالكي محي الدين الدميري والقاضى الحنبلي شهاب الدين القموجي
 وكان دخول الخليفة المتوكل على الله من باب النصر فشق القاهرة وأمامه المنادة على الناس
 بالامن والامان والبيع والشراء والتحذير من اخفاء أحد من المماليك الشركسة
 والدعاء للسلطان المظفر سليم خان فلما سمع الناس النداء ضجوا بالدعاء * قال بعض
 كتاب الاخبار ومع ذلك لم تكن العساكر لتكف عن النهب وقتل النساء والاطفال
 والقبض على كل من وجدوه من المماليك فكانوا اذا قبضوا على أحد منهم ساروا به الى
 الريدانية حيث السلطان فيسذبحونه بين يديه ويحسرون رأسه ويعلقونه حتى كثرت الرمم
 وانتشرت من الريدانية الى سفح الجبل الاحمر الى مزارع المطرية ولبث الحال على ذلك ثلاثة

أيام كاملة والناس في هول ولا هول القيامة * وخطب في ذلك اليوم للسلطان سليم على منابر مصر والقاهرة وقد بالغ بعض الخطباء في خطبته فقال * وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين وكامر الجيوشين وسلطان العراقين وخدام الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا ميبنا ياملك الدنيا والاخرة يارب العالمين قسر السلطان سليم بذلك سرورا عظيما

وأرسل السلطان جماعة من الانكشارية فقيدهم بحراسة الابواب ومنع العسكر من العبث ونهب البيوت فنعوهم وسكنت خواطر الناس قليلا وأرسل السلطان خلف المعز الناصري محمد ابن السلطان الغوري فلما حضر بين يديه خلع عليه وألبسه قفطانا مخملا مذهبا وألبسه عمامة عثمانية ورسم له بأن يسكن في مدرسة أبيه التي أنشأها في الشرايشين وعين بعض الكشاف للاقاليم القبلية والبحرية وخلع على الزيني بركات بن موسى وجعله يتحدث على الحسبة ونزل السلطان سليم في يوم الاحد ثاني المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسمائة من الريدانية الى بولاق ونصب خيامه بها من تحت الرصيف الى آخر الجزيرة الوسطى وقد أحضروا له مفاتيح قلعة الجبل فلم يلتفت اليها ولا أحلها محلا ثم دخل في ثاني يوم القاهرة من باب النصر وشق المدينة في موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والعساكر والاجناد وطوائف الغلمان وهو في هيبة وجلالة عظيمة ثم رجع الى بولاق وأقام بوطاقه يرتب الامور ويفرق المناصب بين قومه وقد ظن موت السلطان الملك الاشرف طومان باي مع من قتلوا في الوقعة وتزيق شمل من بقي من العساكر المصرية واطمان لذلك قلبه فلم يلتفت الا الى تنظيم الاحوال وترتيب الامور على ما تقتضيه مصلحة الرعية وكان من الامور بعد ذلك ما سبتلى عليك مفصلا في الجزء الثالث ان شاء الله تعالى

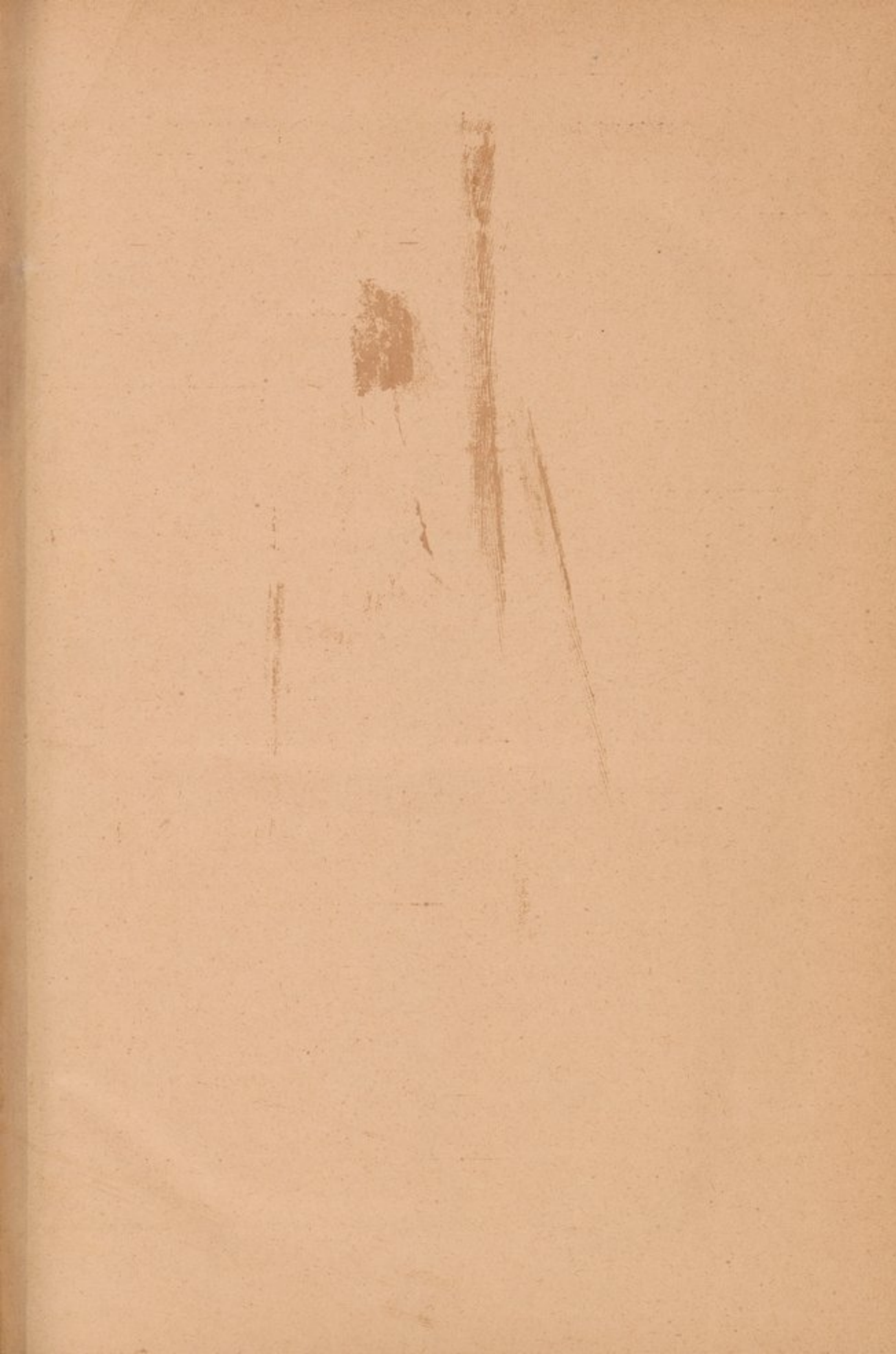
تم الجزء الثاني ويليهِ الجزء الثالث مبتدئا بمختصر تاريخ ملوك آل عثمان

قبل فتح مصر بالجيوش العثمانية ثم ما جرى بعد دخول

السلطان سليم بجيوشه الى القاهرة الى ظهور

الحاج محمد علي باشا الكبير

وولايته



(جدول)

فهرست خطأ و صواب الجزء الثاني من تاريخ الكافي

صواب	خطأ	سطر	صفحة
بيننا	بنناء	٣	١٠
واهل	وأهلها	٧	١٠
وورى	ووورى	١٨	٤٣
ولاتقتلوا طنالا	ولاتقتلوا ط فلا	٢٣	٤٤
وما فرغوا	وما فرغوا	٠١	٤٥
سكك	سمسك	٢٤	٥٠
رأيتها شئت	أيهما شئت	١٩	٥١
باكيريون	باكريون	٠٢	٥٢
خديج	خديج	٠٤	٥٣
بهما	بها	١٨	٨٣
حاربت	جاربت	٢٧	٨٥
الفرقد	الغرقد	٠٩	٨٧
نعلها	نغلها	٣٠	٩٢
ترجوني	ترجونى	٠١	٩٧
فقتل من أهل	فقتل أهل	٢٠	١٠٣
الايات	الايان	٢٥	١٠٧
هادم	هارم	٠٥	١١٤
فكتب	كتب	١٩	١١٤
الجوثة	الجوثة	١١	١٢٣
حجر الايرض	حجر الايرض	٢٣	١٢٦
الناس	الناس	٢٨	١٢٧
ولا ذمة	ولازمه	٠٦	١٥٣
خديج	خديج	٠٣	١٦٢
بالقم	بالقم	٥١	١٦٦
فصير	فسير	٢٦	١٦٨
ضممة من سيوفهم	ضممة سيوفهم	٢٢	١٧٣

(تابع الخطا والصواب)

صواب	خطا	سطر	صفحة
مديحة	مديحة	١٣	١٨٠
فقبل	فقبل	٣٠	١٨٥
المعصم	المعصم	٣١	١٨٧
بعينه	بعينه	٢٥	١٩٧
قينا	قينا	٢٩	١٩٩
فاعلمه	فاعلمهم	١١	٢٠٣
وهوما يؤخذ	وهو يؤخذ	٢٠	٢١٤
ليرى	لدى	١١	٢٢٣
المجانيق	المجانيق	٢٥	٢٢٥
عليها	عليه	١٤	٢٣٠
أو أتر	أو تر	١٥	٢٣٢
كان	كانت	٢٢	٢٣٢
الدخان	الدخان	٠١	٢٣٥
ونازوك	ونوزك	٠٣	٢٥١
وزون	لوزون	١٢	٢٧١
يطفون	يطفون	١٦	٢٧٦
المنابر	المنابر	٠٢	٢٧٧
هرب	هوبت	٢٦	٢٨٣
دانت	وامت	١٣	٢٢٩
المستنصر	الستنصر	١٥	٢٣٥
هذه	هؤلاء	١٨	٢٣٥
حارسا	حامراء	٠٩	٢٣٦
ومازالا	ومازالوا	٢٦	٢٥٠
أو يخرجهم	أو يخرجهم	٢٧	٢٦٣
مثله	مثله	٥	٢٦٧
الزمرذ	الذمرذ	١٥	٢٦٩

تابع الخطا والصواب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
وعز الدين	عز الدين	٩	٣٨٤
حفر	حفر	٣٠	٣٨٦
من	في	١٧	٣٩٤
بيعة القيامة	بيعة قيامه	٢٥	٤٠٥
بهما	بها	١٠	٤٠٣
مربع	مربع	٠٣	٤١٣
الشروط	الشروطا	٢٦	٤٤٦
وعزت	وانقطعت	٢٧	٤٤٨
محلها	حينها	١٤	٤٥٥
والامير	الامير	٠٥	٤٦٤
وناوى	وناوى	١٣	٤٧٨
الامور	الاموز	٣١	٤٧٨
أتموا	أتموا	١٩	٤٨٣
السلطان	لسلطان	٣٤	٤٨٩
وتولية	وتوليته	١٢	٤٩٦
الامراء	الامراء	١٥	٥٠٥
والناصر	وللناصر	١٦	٥٠٩
كثير	أكثر	٠٩	٥١١
لدواب	الدواب	٢٤	٥٢٣

﴿ ثم التصويب والخطأ ﴾



مركز الوثائق والبحوث



30018000012291

المكتبة



